

الدكتور شوقي أبو خليل

الخصلة العبرية لابن أمية

ومعز عن حضرات سابقة

الحجرات العربية الإسلامية

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



أخضارة العرب الإسلامية

ومؤلف عن الحضارات السابقة

الحضارة العربية الإسلامية وموجز الحضارات السابقة / شوقي أبو خليل
— دمشق : دار الفكر، ١٩٩٦ . — ٦٧٢ ص : مص : ٢٥ سم .
بآخره فهارس متنوعة .

١ — ٩٥٦ خ ل ي ح ٢ — العنوان ٣ — أبو خليل
مكتبة الأسد

ع — ١٩٩٦ / ٦ / ٧٧٠

الدكتور شوقي أبو خليل
باري

الخطبة العربية لشيخنا الميرزا باري

ومجمل عن المحاضرات السابقة

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي : ٠٩٦٣,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-013-6

الرقم الموضوعي: ٩٣٠

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

العنوان: الحضارة العربية الإسلامية

وموجز عن الحضارات السابقة

التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل

الصف والتصويري: دار الفكر - دمشق

التفويض الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٦٨٨ صفحة

قياس الصفحة: ١٧ × ١٠ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع

والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع

والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

<http://www.fikr.com/>

e-mail: info@fikr.com



إعادة

٢٣١٤هـ = ٢٠٠٢م

ط١٩٩٤/١م

مقدمة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

[الحجرات : ١٣/٤٩]

بسم الله القائل في محكم التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، [الإسراء : ٧٠/١٧] ،
وصلّى الله على رسول الله ، محمد بن عبد الله ، القائل : « وَزِنَ حَبْرُ الْعِلْمِ بِدَمِ
الشُّهَدَاءِ ، فَرَجَحَ عَلَيْهِ » ^(١) ، وعلى آله وأصحابه ، وبعد :

- ١٠ يلمس الدّارس هوّة كبيرة فيما كتبه الغربيّون عن تاريخ الحضارة العالميّة ، لقد
كتبوا عن منجزات الحضارة الصّينيّة ، والهنديّة ، وأطنبوا في حديثهم عن « المعجزة
اليونانيّة » ، ولأسباب سياسيّة ، ودينيّة تعصّبيّة ، أهملت الحضارة العربيّة الإسلاميّة
من قبل معظمهم ، ولم تعطَ حقّها بحياذ وموضوعيّة ، ومما يؤسف له ، أنّ قوّة إعلامهم
مسيطرة ، وأنّ معظم الدّارسين في دول العالم ، يتوجّهون للتّخصّص في جامعاتهم ، على
يد من انتقص حضارتنا حقّها ، وتجاوزَ دورها ، مع أنّ المنهج العلمي كافٍ لإنصاف
١٥ الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، وتصويب ما كتبه ، وإنهاء النّظر إلى الحضارة اليونانيّة

(١) رواه الخطيب عن ابن عمر ، وورد : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشُّهَداء ، فيرجح مداد
العلماء على دم الشُّهَداء » ، رواه الشّيرازي عن أنس ، والمرهبي عن عمران بن حصين ، وابن عبد البر في
العلم عن أبي الدرداء ، وابن الجوزي عن النُّعمان بن بشير .

على أنها حضارة أصيلة معجزة ، لأن الحضارة العربية القديمة في بلاد الرافدين والشام ومصر ، كانت نواة الحضارة اليونانية .

الهجمة على حضارتنا - وهي مظهر من مظاهر الغزو الفكري - كبيرة ، حتى تجرّ Lunn White وقال بتفوق التقنية « التكنولوجيا » الأوربية ، على التقنية العربية في العصور الوسطى ، أين الدليل ؟ وما البرهان ؟ ومع ذلك أصبح « لين وايت » مرجعاً يعتمد ، وقال متادياً : كل مخترعات الصين وصلتنا من شرقي آسية إلى أوربة مباشرة : ولم ينقلها بالتالي العرب المسلمون بعد تطويرها وتحسينها . ومثل أصحاب هذه الأفكار المتجنّية ، يجدون من يهّل لها ، وينفخ فيها ، فنذ بضع سنين ، أقام المؤتمر السنوي للجمعية التاريخية في شيكاغو حفلة تكريم « لّوايت » بمناسبة بلوغه السبعين من عمره ، دُعي إليها عدد كبير من العلماء من جميع أنحاء العالم ، وكان من بينهم عالم عربي ، وبعد كلمات التمجيد والمديح والإطراء والثناء من قبل المتكلمين ، وقف العالم العربي لينحو نحوه آخر ، بعيداً عن التمجيد والمديح ، وتكلّم بموضوعية تليها الحقيقة ، ويفرضها الواجب ، فقال مخاطباً السيّد « وايت » : لقد أخطأت عندما تعجّلت الآراء الرئيسة في كتبك ، واعتقدت أن ما كتبته هو كل شيء ، لقد أغفلت دور الحضارة العربية الإسلامية ، التي كان دورها دور إنقاذ ، ثم نقد وتصويب ، ومن ثم إبداع . ١٥

الهجمة على تاريخ حضارتنا ومكانتها كبيرة ، وخطيرة ، ففي مؤتمر برشلونة عام ١٩٨١ م ، الذي خصّصت أبحاثه لابن سينا وكتبه ، محاضر من جامعة القدس ، قدّم بحثاً عنوانه : « ترجمة القانون من العبرية إلى اللاتينية » ، وكان الزمن المخصّص له خمس عشرة دقيقة فقط ، ولكنه تكلّم خمساً وأربعين دقيقة تجاوزاً ، ومع ذلك ، لم يذكر ولو مرّة واحدة أن ابن سينا عربي مسلم ، مع أن العلم يقول : كل العلوم التي كتبت بالعربية ، وتحت ظل الحضارة العربية الإسلامية ، في البلاد التي انتشر بها العرب ، هي علوم عربية . ٢٠

حضارة كانت ثمة جهود شعوب كثيرة متباينة الأجناس ، ولكن الإسلام صاغها

في وحدة روحية ، وخلق منها مجتمعاً واحداً ، كما أنها حضارة مدينة بالكثير الكثير إلى سحر اللغة العربية وروعيتها ، هذه اللغة الرائعة ذات الإعجاز العجيب ، والجزالة المثيرة .

ولقد هدفوا - بتخطيط وخبث - إخراج أساطين العلم الأعلام من الحضارة العربية الإسلامية ، فقالوا : علي بن عباس (المجوسي) ، مع أن جدّه مسلم ، وأبوه مسلم ، وهو بالتالي مسلم ، وكان يكره أن يُوصف بالمجوسي ، لأنّه ليس مجوسياً ، ولأنّه مسلم تعرّب .

وقالوا : حنين بن إسحاق (المسيحي) ، وكأنّه لا علاقة له بالعرب ، مع أنّه عربي ، كتب نتاجه بالعربية ، في ظلّ الحضارة العربية الإسلامية .

وقالوا : علي بن ربن الطبري (اليهودي) ، ف (ربن) أي الكبير ، أي الحاخام الكبير ، وهذا خطأ كبير ، ففي « فهرست » ابن النديم أنّه أسلم على يد المعتصم بالله العباسي ، وأدخله المتوكّل في ندمائه .

وهذا التصنيف مخصّص لأساطين حضارتنا فقط ، بدليل (ديسقوريدوس) صاحب كتاب الحشائش ، وُلد بعين زُرْبى^(٢) في أضنة ، في آسية الصغرى ، فهل يُعدّ عالماً تركياً ، أم محسوب على الحضارة اليونانية ، لأنّه كتب باليونانية ؟

و (زينون) مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة ، في أثينة ، وُلد في مدينة صيدا ، فهل يُعدّ عالماً شامياً ، أم يُحسب على الحضارة اليونانية ، لأنّه كتب باليونانية ؟

و (نومونيوس) مؤسس الأفلوطينية الحديثة ، وُلد ببلدة أفامية^(٣) ، و (أمونيوس

(٢) في معجم البلدان (١٧٧/٤) : عين زُرْبى ، وهو بلد بالشَّعر من نواحي المصيصة .

(٣) أفامية : (مدينة حصينة من سواحل الشَّام وكورة من كُور حصص ، ويسمّيها بعضهم قاميةً بغير همزة ..) ، معجم البلدان ٢٢٧/١ ، والأصوب : أفامية على نهر العاصي في سهل الغاب ، آثارها قائمة حتّى يومنا هذا قرب قلعة المضيق .

ساكس (مصري ، و (أفلوطين) ناشر الأفلوطينية الحديثة إسكندري المولد .. وهكذا .. يُعدّ واحدهم على الحضارة التي كَتَبَ بلغتها ، وعاش في كنفها ، لذلك قال سقراط : « إِنَّ التَّربية لا الميلاذ ، هي التي جعلت الإغريقي إغريقياً » .

ورغم بعض الصّيحات المنصفة ، مازالوا في الغرب يذكرون أرسطو ولا يذكرون ابن رُشد ، ويذكرون جالينوس ولا يذكرون موفّق الدّين عبد اللّطيف البغدادي ، ويذكرون وليم هارفي وينسون ابن النفيس الدّمشقي ، ويذكرون كوبرنيكس وينسون إبراهيم الزّرقالي ، ويذكرون نيوتن وينسون ابن الهيثم ، ويذكرون جون لوك ، وجان جاك روسو ، وباتستافيكو ، وميكافيلي ، وينسون فضل عبد الرّحمن بن خلدون عليهم جميعاً ، والهدف تشويه صورة الإنسان العربي المسلم ، جاعلين دوره في مجال العلوم مقتصرأ على نقل التّراث اليوناني إلى أوربة ، مجرّد نقل ليس غير .

والرّد على مزاعمهم ، يجب أن يكون بعلميّة ، وإلاً فالإطراء والمبالغة يوقعاننا في المغالاة ، ويبعداننا عن الموضوعيّة .

وعند دحضنا لهذه الافتراءات بعودتنا إلى كتب علمائنا ، لانكون في موقع النّبش في كتب صفراء ، وهذا ليس نظرة إلى الوراء ، ولا بُعداً عن مسيرة الحضارة ، فالتّراث يواكب الحضارة ، إنّها نظرة يقظة من كبوة ، ودفعة لاكتشاف التّراث بعيداً عن عقدة النّقص ، وليست العودة إلى كتب التّراث ، دعوة إلى التّوقّف عند مافيها ، والجهود عند نظريّاتها ، إنّها حافز للبحث والتّنقيب ، ومن ثمّ إلى الإبداع والمساهمة من جديد في نسج بساط الحضارة .

هذا .. وللحضارة رموز تعرف بها ، وروائز تقاس عليها ، وأهمها الجانب الإنساني والرّوحي والأخلاقي ؛ فالفراغ الرّوحي الكبير ، الذي تعانیه مدنيّة الغرب ، والنّظرة المتدنيّة للإنسان خارج ديارهم ، مع النّهم للمواد الخام ، ومحاربة التّصنيع في دول العالم الثّالث .. جعل المادّة تفترس كلّ شيء ، فالسّلاح النّووي المتوافر في المخازن اليوم ،

يكفي لتدمير كرتنا الأرضية أكثر من مئة مرة ، ثم تجاوزوه إلى القنابل النيترونية^(٤) ،
التي تبقى على كل شيء إلا الإنسان ، فإنها تبيده ، وتبقى على المادة من أبنية ومنشآت
وسيارات ومتاع .

إنَّ التَّقدُّمَ العلمي قد يشيع حاجات الأجساد ، ولكنه لا يطفئ ظمأ النفوس ، لقد
صحب التَّقدُّم العلمي تأخر حقيقي وانحطاط مريع في الأخلاق ، وإحلال للتنازع
البشري الوحشي على المادة لإشباع الشهوات ، سواء كان ذلك من طريق الحق ، أو من
طريق الباطل ، ولو ديسست الصفات النبيلة ، وحطمت القيم الإنسانية العالية ،
وأصبح المال المثل الأعلى الوحيد ، بل وكأنه المعبود الأول ، وكان الإنسان هو الضحية ،
في كرامته وأمنه ، وفي كيان عائلته ، والعائلة هي دعامة المجتمع الأولى ، بها عافيته ،
ومنها سقمه .

فويح الشعوب من ذلك الوحش الكاسر ، الذي لا يعرف قياً إلا قيم الكسب
والمادة .

ويوحها من ذلك الاستعمار القاسي ، الذي لا يعرف رباً ولا إنسانية .

ويوحها من مدنية تنشب أظفارها ، فلا تخلصها من أجساد الشعوب ، إلا وقد
مزقت وخلعت من وراءها .

(٤) والقنبلة الكيميائية Big Eye (العين الكبيرة) ، من نوع غاز الأعصاب ، خُصص لإنتاجها تسعون
مليون دولار سنة ١٩٨٨ ، وقيل : إنها ضرورية للدفاع عن أمن أمريكا ، (وكالات الأنباء في
١٩٨٨/٢/٢٣) ، وأذاعت لندن صباح ١٩٨٧/٦/١٣ التالي : يُنفق على التسليح في العالم في كل دقيقة
١,٦٠٠,٠٠٠ دولار × ٦٠ = ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار في كل ساعة × ٢٤ = ٢,٣٠٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار في كل
يوم × ٣٦٥ = ٨٤١,٥٣٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار في السنة الواحدة ، (٨٤١ مليار و ٥٣٦ مليون دولار) ،
وعشر هذا الزرق يكفي كي لا نجد مريضاً بلا دواء ، أو فقيراً بلا غذاء ، أو أسرة بلا مأوى .
ولذلك يقول الفيلسوف الإنجليزي (جود) : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ،
ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش » ، وقال آخر : نعم ، إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء
كالطيور ، وتسبحوا في الماء كالأسماك ، ولكنكم إلى الآن لاتعرفون كيف تمشون على الأرض ، [العرب
والحضارة الحديثة - دار العلم للملايين ، سنة ١٩٥١ بيروت] ، وبناء على ماسبق ، للدنية عند أوربة
وسيلة لفرض السيطرة على العالم .

فراغ روحي هائل ، لازمه إغراق في المادّة ، وهذا الخلل جرثومة تنخر في عماد تلك المدينة ، رافقها الخوف من أسلحة اليوم المكدّسة ، والرّعب من أسلحة الغد المتطوّرة والأكثر فتكاً ، مع القلق النفسي ، والبعد عن الطمأنينة ، واللّجوء إلى المخدّرات . وكثرة العصابات سمّة من سمات المدينة الغربيّة ، لأنّها مدنيّة تقدّمت فيها التّقنيّة ، ولم تتقدّم نظرته إلى الإنسانيّة ، إنّها مدنيّة تناولت محالبها ، وضمرت أخلاقها ، وكأنّها تكرر حضارة رومة ، عندما جعلت الرّومان سادة ، ومن حولهم عبيداً .

تراهم يتكلّمون عن مدنيّتهم على أنّها حضارة كاملة ، ويريدون صبّ كلّ النّاس في قالبها ، طارحين جانباً النّظر النّافع في احتياجاتهم المعيشيّة والنّفسيّة ، وما يرضي ميولهم ومشاربهم ومعتقداتهم المختلفة .

١٠ إنّ المعيار السّليم الذي يجب أن تُقاس به مستويات التّحضّر لأُمّة ما ، هو نظرته إلى الإنسان ، وموقعه ومكانته في إطار هذه الحضارة ، وفي إطار الفلسفة السّياسيّة والاجتماعيّة السّائدة .

في أمريكا : مليون طفل أمريكي يُعتدّى عليهم جنسيّاً سنويّاً ، فأيّ مدنيّة هذه ؟ وأكثر من مليوني حالة إجهاض ، وأسرة من كلّ عشر أسر تمارس نكاح المحارم ، والرّم الحقيقي أكبر ، لأنّ هناك حالات لاتصل إلى القضاء ، أو إلى الدّوائر الصحيّة . ١٥

وفي بريطانية : ثمانية ملايين إمراة بالغة غير متزوّجة ، ٩٠٪ منهنّ يمارسن الجنس^(٥) ، وحالة طلاق بين كلّ حالتين زواج . ومليوناً حالة إجهاض سنويّاً في أوروبة ، ومن العسير على المرأة أن تمشي وحدها بعد غروب الشّمس في المدن الكبرى في أوروبة وأمريكا .

(٥) ذكرت إحصائيّات رسميّة أنّ عدد المواليد غير الشّرعيين في بريطانية في تزايد مستمر ، إذ إنّ كلّ طفل من بين أربعة أطفال يولدون يكون نتيجة جريمة الزّنا ، وبلغ عدد الأطفال غير الشّرعيين عام ١٩٨٧ نسبة ٢٤,١٪ من إجمالي المواليد ، مقارنة مع ٢١٪ عام ١٩٨٦ ، ونسبة ١٠٪ عام ١٩٧٧ ، [للسّلمون العدد ١٥٥ ، كانون الثّاني (يناير) ١٩٨٨ ، وغفاف العدد ٢٧ ، ص ٩] .

ويُبلغ عن حالة اغتصاب كل سبع دقائق في المكسيك ، وهذا الرقم لا يمثل سوى نسبة بسيطة من حالات الاغتصاب ، لأنَّ الشرطة قد تتواطأ في كثير من حالات التبليغ^(٦) ، ولا غللك إحصائيات عن دول أوربة الشرقية .

دافع المادّة ، واللذة الآنيّة ، أوجبا - في مدينتهم الغربيّة - ألاّ ينفق الأب على ابنته بعد أن أصبحت في العشرين من عمرها ، مع تفاقم سلطان الإباحيّة ، فانزلق مجتمعهم في طريق السباق الأناني ، لتحقيق المتعة السريعة ، دون النظر إلى النتائج المفزعة ، والتي أوردنا بعضها في الأسطر السابقة .

(الإنسان) في الحضارة الحقّة أعزّ وأكرم ماتملك ، أينما كان ، وخليّته الاجتماعيّة التي تصمد الأمة بصمودها ، وتبقى معافاة ببقائها سليمة ، ألا وهي الأسرة ، تضمن الحضارة لها توازنها وحصانتها الأخلاقيّة والروحيّة ، إنها الحصن الذي يضمن للإنسان راحته العاطفيّة ، وطمأنينته النفسيّة ، وسعادته الروحيّة .

وحضارتنا العربيّة الإسلاميّة جعلت من أولى دعائها : الإيمان بالله الواحد ، الخالق ، قيّوم السموات والأرض ، ومن هذه الدّعامة تفرّعت بقيّة الأمور الاعتقاديّة ، وعلمت الناس - أينما كانوا ، وحيثما حلّوا - أن يأخذوا من هذه الدّنيا العِلْمَ والمعرفة ، وأوجبت إنهاض العقل ، للتعرّف على حقائق الكون والحياة ، بعد أن جعل الله الإنسان خليفة في الأرض .

وجعلت من دعائها احترام العقائد الأخرى : ﴿ لا إكراه في الدّين قد تبين الرّشْد من الغي ﴾ ، [البقرة ٢٥٧/٢] ، لقد نظرت إليه (إنساناً) ، بغضّ النظر عن معتقده ، محترمة رأيه وإنسانيّته ، لقد قام الرّسول الكريم ﷺ لجنّازة مرّت أمامه ، فقيل له : إنه غير مسلم ، فقال : أوليس إنساناً^(٧) ؟

(٦) عن كتاب : الأمراض الجنسيّة للدكتور محمد البار ، وبعض أعداد جريدة الشرق الأوسط ، نشرتها

(رسالة الجامعة) ، العدد ٢٨٧ ، تاريخ ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ م .

(٧) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٢ باب من قام لجنّازة يهودي ، وأخرجه مسلم في الجنائز ٩٦١ باب القيام =

لذلك يعجب الفيلسوف رينان بقية الإنسان في الحضارة العربية الإسلامية ،
فيقول : « الإسلام هو دين الإنسان »^(٨) .

أما الفيلسوف الألماني غوته ، فيقول بعد أن درس الإسلام وحضارته ، وأثره
السّامي في الشعوب : « إذا كان هذا هو الإسلام ، أفلسنا جميعاً مسلمين ؟ »^(٩) ، كيف
لا ، وقد نظرت حضارتنا إلى إنسانية الإنسان على أنّها كلّ لا يتجزأ ، فالإنسان في
منهجها في أسمى المراتب ، وهو غاية في ذاته ، غاية في حرّيته وطمأنينته ، وكفايته
وعافيته : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ »^(١٠) ، « إنّ الله أرسل
محمداً هادياً ، ولم يرسله جايياً »^(١١) ، وطلب عمر بن عبد العزيز من ولاته أن يمتنعوا
عن إيقاع عقوبة الإعدام بمن يستحقّها إلاّ بعد عرض الأمر عليه ، والحصول على
موافقته ، وهذا ما فعله أيضاً يوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين .

وأوصى عمر والياً فقال : « عليك بتقوى الله ، فإنّها جماع الدنيا والآخرة ، واجعل
رعيتك الكبير منهم كالوالد ، والوسط كالأخ ، والصغير كالولد ، وبرّ والدك ، وصل
أحاك ، وتلطّف بولدك » .

وجعلت حضارتنا من العلم في كلّ مجالاته فريضة على المسلمين ، ورفعت مكانة
العلم والعلماء : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ ، [الزمر ٩/٣٩] .

= للجنّازة ، والنّسائي في الجنّائز ٥٤/٤ باب القيام لجنّازة مشرك ، ومسند أبي يعلى الموصلي ٦٢/٣
الحديث ١٤٣٧ طبعة دار المأمون للتراث .

(٨) تراث الإسلام ، ص ٤١٢

(٩) Haidar Bammate, Visages de Islam P. 21

(١٠) قالها عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لعمر بن العاص .

(١١) في كتاب الخراج ، ص ١٤٢ ، عمر بن عبد العزيز : « إنّ الله جلّ ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى
الإسلام ، ولم يبعثه جايياً » .

وجعلت التكافل الاجتماعي سمة الإيمان : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، [الحشر ١٧٥] ، و « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » (١٢) .

وجعلت الدّعاة الأخلاقية من أسسها أيضاً ، وأقامت الرّقيب عليها إيمان الفرد بالله ، وهو بذلك المواطن الصّالح ، فإن غابت عين السّلطة ، فنور إيمانه رقيب دائم ، لما فيه خير البلاد والعباد ، حتّى شملت رعايته ورحمته الحيوان والنبات ، أيّ وصيّة هذه الّتي قالها أبو بكر الصّدّيق قبل ألف وأربع مئة عام ؟ عندما قال وهو يودّع جيش أسامة بن زيد :

« يا أيّها النّاس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بغيراً إلّا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب - وهم المقاتلون - فاخفّوهم بالسّيف خفّفاً ، اندفعوا باسم الله » (١٣) .

الإنسان تُسخر له المادّة في حضارتنا ، وطحنت حضارتهم بين حجري رحاها الإنسان ، الحجر الأول الرّعب من أسلحة الفتك النوويّة ، وحرب النّجوم ، والقنابل النّيرونيّة .. والحجر الثّاني الفراغ الرّوحي الّذي سبّب هروباً من واقعهم فلجّؤوا إلى المخدّرات والمسكرات ، حتّى قامت أكبر هيئتين في الولايات المتّحدة ، وروسية فخصّصتا مئات الملايين ، لتكافح المخدّرات والمسكرات .

(١٢) رواه البزّاز ، والطّبراني في الأوسط عن أنس ، وهو حديث حسن .

(١٣) الكامل في التّاريخ ٢٢٧/٢ ، الطّبري ٢٢٦/٣

وهذا لا يعني عدم الأخذ من مظاهر التّقدّم العلمي المعاصر ووسائله ، فحضارتنا العربيّة الإسلاميّة لم تكن في يوم من الأيام انطوائيّة ، أو بمعزل عن الحضارات الأخرى ، بل اقتبست كلّ نافع مفيد ، ولكن ذلك لم يكن على حساب المبادئ الثّابتة الّتي لا تتغيّر مع تغيّر الزّمان أو المكان ، والّتي وحدها تحفظ لنا الإنسان معافى من أخطار الانحلال والاضمحلال ، وتحفظ بالتّالي الأُمّة معافاة .

والقيم الرّوحيّة الّتي قامت عليها حضارتنا ، والّتي افتقدتها حضارتهم ، هي القواعد الخلقيّة ، والمثل العليا المبنية على تعاليم الإسلام ، والمنطوية على النّظر إلى الإنسان من حيث إنسانيّته المقدّسة .

وأخيراً ..

١٠ هذه مجموعة محاضرات أُلقيت خلال العام الدّراسي ١٩٨٥ م على طُلاب السّنة الرّابعة في كُليّة الدّعوة الإسلاميّة ، تحت عنوان مادة : (الحضارة العربيّة الإسلاميّة) ، ولَمّا كان للمادّة منهاج ، ومفردات منهاج ، ولا كتاب لها ، جمعت هذه المحاضرات في أُملية مختصرة قدّمت لطلّابنا في نهاية العام الدّراسي المذكور ، وبدأت بعدها مباشرة بتوسيع الأُملية ، موثّقاً مستزيداً ، فكانت كتاباً طبعته كُليّة الدّعوة الإسلاميّة ، تضمن لمحات سريعة عن الحضارات الّتي سبقت الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، ثمّ دراسة حضارتنا من جميع جوانبها تقريباً ، وخاتمة فيها أثر هذه الحضارة العربيّة الإسلاميّة في النّهضة الأوربيّة ، وقنوات انتقالها وتسربها إلى أوربة .

وأثناء سنوات تدريس المادّة ، شكّلت الملاحظات والزيادات الّتي دوّنتها على هوامش الكتاب كتاباً يقارب في حجمه حجم الكتاب المطبوع ، وها هي ذي دار الفكر بدمشق تقدّمه - كاملاً بحجمه الجديد - أمله أن ينفع الله عزّ وجلّ به .

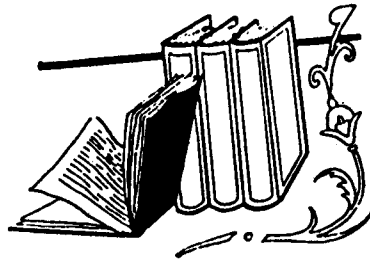
يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ، [النُّور ٥٥/٢٤] .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ .

د . شوقي أبو خليل
Shawki@Fikr.com





الحضارة

تعريفها، شروط قيامها، اتصال الحضارات وانتقالها مظاهرها، مصادرها، نشأة الحضارات وأفولها.

* « ليس التاريخ إلا موكب الدُّول والحضارات التي تنشأ وتزدهر، ثم تضمحل وتفنى، ولكن كلاً منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون، تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها، فهي كالعدائين في سباقٍ يسلم كلُّ منهم مصباح الحياة إلى غيره » .

[قصة الحضارة ٩/ ٣١٢]

الحضارة

« الحضارة تسير كما تسير الشمس ،
فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في
أفق هذا الشعب ، ثم متحوّلة إلى أفق
شعب آخر » .

[مالك بن نبي]

« إن الحضارة لا تموت ، ولكنها
تهاجر من بلد إلى بلد ، فهي تغيّر
مساكنها وملبسها ولكنها تظلّ حيّة ،
وموت إحدى الحضارات كموت أحد
الأفراد ، يفسح المكان لنشأة حضارة
أخرى ، فالحياة تخلع عنها غشاءها
القديم ، وتفاجئ الموت بشبابٍ غضّ
جديد » .

[قصّة الحضارة ٢١١/٨]

تعريف الحضارة :

إنّ كلمة حضارة مشتقة من الحَضَر ، ومدنيّة مشتقة من الحياة المدنيّة ، كما أنّ
الكلمة الأجنبيّة التي تقابلها Civilisation مشتقة من المدنيّة Civilas أساساً ، أو بصورة
مباشرة من ساكن المدينة Civis ، أو من Civilis وهو ما يتعلّق بساكن المدينة . وفي
موسوعة القرن العشرين^(١) : « الحضارة : الإقامة في الحضر ، انظر مدنيّة » ، وفي
مدنيّة^(٢) جاء التعريف التّالي : مدنيّة : كلمة مشتقة من مدّن المدائن ، أي حضّرها

(١) لمحمد فريد وجدي : ٤٥٤/٣

(٢) المرجع السابق : ٥٥٢/٨

وبناها ، ونحتوا منها فعل تَمَدَّنَ ، وجعلوا معناه تَخَلَّقَ بأخلاق أهل المدن ، وخرج من حالة البداوة ، ودخل في حالة الحضارة .

وفي قصّة الحضارة لِـ (وُل ديورانت) ، استخدمت كلمة حضارة ، وكلمة مدنيّة بمعنى واحد .

المدنيّة (والتي اشتُقَّت من مدَّن المدائن ، ومن التَّمَدُّن) ، تعني ابتعاد الجماعات الرّيفيّة التي تنتقل إلى المدنيّة من جذورها ، والتّمدّين يعني الرّغبة في حياة أغنى وأرقى ، وعلى ذلك .. فالمدنيّة : التّقدُّم العلمي والتّكنولوجيا والرّفاهيّة والرّقيّ الذي وصلت إليه المجتمعات .

ونرى أنّ الحضارة لا تعني هذا الجانب المادي فقط ، بل إنّها تشمل الجانب الرّوحي ١٠ العقائدي الفكري التّشريعي أيضاً ، وبالتالي تشمل نظرة متكاملة منسجمة إلى : الكون ، والإنسان ، والحياة .

وتنشأ الحضارة من عاملين أساسيين ، هما : الأرض والإنسان ، من موارد الأرض الطّبيعيّة ، التي تحوّلها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى مافيه منفعة^(٣) .

ويمكن القول : إنّ الحضارة هي محاولات الإنسان الاستكشاف والاختراع والتّفكير ١٥ والتنّظيم والعمل على استغلال الطّبيعة ، للوصول إلى مستوى حياة أفضل ، وهي حصيلة جهود الأمم كلّها .

شروط قيام الحضارة :

لاشروط عرقيّة لقيام الحضارة ، إذ يمكن أن تظهر في أيّة قارة ، يقول توينبي^(٤) Toynbee : « لا يوجد عرق متفوّق بدأت الحضارة عن يده » .

(٣) قصّة الحضارة : ١٠٦/١٣

(٤) في المجلد الأوّل من كتابه (مختصر دراسة التّاريخ) ص ٨٦ وما بعدها ، وللتوسّع بهذا البحث : قصّة =

ونظريّة توينبي تقول : إنّ تقدّم الحضارة ، كان نتيجة ردّ فعل للتّحدّي في الظروف الصّعبة الّتي تدفعه إلى بذل أكثر ، ومثال ذلك (الصّحراء الكبرى) ، الّتي كانت سهولاً خصبة ملأى بالأعشاب والمياه ، وتغيّر الظروف المناخيّة^(٥) - وهي التّحدّي هنا - سلك السكّان طرقاً ثلاثاً استجابة لهذا التّحدّي :

١ - فبعضهم ظلّوا مقيمين في الصّحراء الكبرى ، وبدّلوا عاداتهم ونط معيشتهم إلى بدوٍ رُحّل .

٢ - وآخرون انتقلوا إلى المناطق المداريّة جنوباً حيث الغابات ، وحافظوا على حياتهم البدائيّة .

٣ - وآخرون دخلوا مستنقعات وادي النيل وغاباته ، كما دخلوا الدلتا ، وقبلوا التّحدّي ، وعملوا على تخفيف المستنقعات وإعدادها للزراعة ، وأتوا بالحضارة المصريّة القديمة^(٦) .

وكذلك الحضارة السومريّة في دلتا دجلة والفرات^(٧) ، وكذلك حضارة الصّين في وادي النّهر الأصفر (هوانغ هو) ، ولا ندري تماماً مانوع التّحدّي ، ولكن الأحوال كانت صعبة .

١٥ والحضارة الإيجيّة المينوسيّة ، كان أصلها تحدّي البحر للسكّان^(٨) .

= الحضارة ، ول ديورانت . المدخل إلى تاريخ الحضارة ، د . جورج حدّاد . شروط النّهضة ، مالك بن نبي . الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ، شايف عكاشة . انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) جيس هنري برستد .

(٥) كانت هذه التّحوّلات ، والظّروف للنّاحيّة قد ظهرت في نهاية العصر المطير (البلايستوسين) ، وما زالت موجودة حتّى أيّامنا هذه ، ويقدر العلماء أنّ هذا الانتقال حصل حوالي سنة ٧٠٠٠ ق.م .

(٦) مختصر دراسة التّاريخ : ١٠١/١ - ١٢١ ، طبعة الإدارة الثّقافيّة في جامعة الدّول العربيّة ، ط١ ، سنة ١٩٦٠ ، مطبعة لجنة التّأليف والترجمة والنّشر .

(٧) المرجع السابق : ١٢١/١

(٨) المرجع السابق : ١٢٣/١

فالأحوال الصعبة المعاكسة ، وليست الأحوال المواتية ، هي التي تنتج الحضارات ، وهذا ما يُسمَّى (حافز الصعوبات) ، أو (دافع البلاد ذات الأحوال المعاكسة)^(٩) .

ثم يقول توينبي : « إنَّ الأرض الجديدة تثير الهمم ، والأرض البكر تولد ردَّ فعل أقوى من ذاك الذي تولده أرض ذات حضارة سابقة ، فالحضارات التي أتت بتأثير ماسبقها ، نرى أنَّ مظاهرها القويَّة كانت في مناطق خارجيَّة عن نطاق الحضارة الأصليَّة التي سبقتها » .

ويتساءل مستدرَكًا في نظريَّة التَّحدِّيات هذه : أيجب أن يكون ردُّ الفعل أعظم كلِّما كان التَّحدِّي أشدَّ ؟ أم إنَّ هناك تحدِّيات شديدة جدًّا لا تأتي بأي مفعول معاكس ؟

ويجيب بأنَّ بعض التَّحدِّيات قضت على المجتمعات التي لاقتها ، ولكنها أخيراً أدت إلى ردِّ فعل مناسب من مجتمع آخر ، أو من جهة أخرى ، مثل الاجتياح الهيليني للشرق ، أدَّى إلى ردود فعل مخففة ضدها ، فظهرت الزردشتيَّة .

وهناك (حضارات عقيمة)^(١٠) ، لم يكن لها مابعدھا ، حاولت أن تأتي بحضارة من عندها ، كمنافسة الحضارة أعظم ، فنجحت مؤقتاً ، ولكنها انخبطت وزالت من الوجود ، مثل الحضارة الكلتية في غربي أوربَّة ، ودامت حتَّى عام ٣٧٥ م ، ثمَّ قضت عليها سلطة رومة الدينيَّة ، ثمَّ سلطة إنكلترة السَّياسيَّة .

ويمكن القول : إنَّ الطَّبيعة ليست عدوًّا في كلِّ الحالات ، فهي التي هيأت المناخ المعتدل ، والتُّربة الخصبة .. فإن كان التَّحدِّي يعني الإثارة فهذا مقبول .

(٩) انظر فصل تحدِّي البيئة (الحافز في البلاد الصَّعبة) في مختصر دراسة التاريخ : ١٤٧/١ وما بعدها .

(١٠) المرجع السابق : ٢٧٥/١ وما بعدها .

فالقحط تَحَدُّ ، أو إثارة ، أوجب بناء السُدود .
والتَّصَحُّرُ تَحَدُّ ، كَوْنُ تثبيت التُّربة .
وتزايد السُّكَّانُ تَحَدُّ ، سَبَبُ استصلاح الأراضي ..

ومشروط قيام الحضارة بطائفة من العوامل ، منها ما يستحثُّ خطاها ، ومنها ما يعيق مسارها ، ومن هذه العوامل :

١ - العوامل الجيولوجية : فعصر الجليد أعاق مسارها ، والتربة الخصبة استحثت خطاها .

٢ - العوامل الجغرافية : المناخ المناسب يستحثُّ خطاها ، ولكنه لا يخلق حضارة خَلْقاً ، إلاَّ أنه يستطيع أن يبتسم في وجهها ، ويهيئ سبيل ازدهارها وتقدمها ، وحرارة المناطق الاستوائية المرتفعة ، وما يحتاج تلك المناطق من أمراض لا تهيئ ١٠ للحضارة أسبابها ، وهي بالتالي لا تستحثُّ خطاها .

٣ - العوامل الاقتصادية : « تبدأ الحضارة في كوخ الفلاح ، ولكنها لا تزدهر إلاَّ في المدن » ^(١١) ، قد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمّة ، وتشريع خلقي رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هي الحال مع المهنود الحمر ، ومع ذلك فإنّه إن ظلَّ في مرحلة الصَّيد البدائية ، واعتمد في وجوده على ما عسى أن يُصادفه من قنائص ، ١٥ فإنّه يستحيل أن يتحوّل من البدائية إلى الحضارة تحوُّلاً تامّاً .

إنَّ الإنسان لا يجد لحضارته (لتمدُّنه) معنى ومبرراً إلاَّ إذا استقرَّ في مكان يفلحُ تربته ، ويخزن فيه الزَّاد ليومٍ قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ، في هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة ، والتي هي مورد محقق من ماء وطعام ترى الإنسان يبنّي لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج ، ويستأنس الحيوان ، ثمَّ ٢٠

(١١) قصّة الحضارة : ٥/١ بتصرُّف .

يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلّم كيف يعمل في نظام واطّراد ، وكيف يزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أميناً .

« إنّ حاجة بعض الناس إلى بعض ، صفة لازمة في طبائعهم ، وخلق قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزالهم ، ومحيطه بجماعتهم ، ومشتتة على أدنامهم وأقصاهم ، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم - ممّا يُعِيشُهُمْ وَيُحْيِيهِمْ ، ويُمْسِكُ بأرماقهم ، ويصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، وإلى التّعاون في درك ذلك ، والتّوازر عليه - كحاجتهم إلى التّعاون على معرفة ما يضرّهم ، والتّوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأُمورهم الّتي لم تغب عنهم .. » (١٢) .

٤ - يضاف إلى ما سبق من عوامل ، العوامل النّفسية الّتي تسرّع في تقدّم الحضارة ، إنّ العوامل الجيولوجية ، والجغرافية والاقتصادية لا تكون حضارة ، ولا تنشئ مدنية من عدم ، إذ لا بدّ أن يضاف إليها العوامل النّفسية ، ولا بدّ أن يسود النّاس نظام سياسي ، وحالة استقرار ، وربما كان من الضّروري بذلك أن يكون بين النّاس بعض الاتّفاق في العقائد الرّئيسية ، وفي المثل الأعلى المنشود ، لأنّ ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره ، إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياة الإنسان أشرف وأخصب .

ولو انعدمت هذه العوامل ، أو واحد منها ، لجاز للحضارة أن يتقوّض أساسها ، فانتقال جيولوجي خطير ، أو تغيّر مناخيّ شديد ، أو استنفاد للموارد الطّبيعية ، أو تغيّر في طرق التّجارة تغيّراً يبيّده أمة عن الطّريق الرّئيسية للتّجارة العالميّة ، أو انحلال خلقي ينشأ عن الحياة في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتّصالات ، أو ينشأ عن تهديم القواعد التّقليدية الّتي كان النّظام الاجتماعي يقوم على أساسها ، ثمّ العجز عن إحلال غيرها مكانها .. هذه من الوسائل الّتي قد تؤدّي إلى فناء الحضارة ،

(١٢) كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٤٢/١ ، دار إحياء التّراث العربي ، تحقيق وشرح عبد السّلام هارون .

« إذا الحضارة ليست شيئاً مجبولاً في فطرة الإنسان ، كلا ، ولا هي شيء يستعصي على الفناء ، إنما هي شيء لا بُدَّ أن يكتسبه كلُّ جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، فإذا ما حدث اضطراب خطير في عواملها الاقتصادية ، أو في طرائق انتقالها من جيل إلى جيل ، فقد يكون عاملاً على فنائها ، إنَّ الإنسان ليختلف عن الحيوان في شيء واحد ، وهو التربية ، ونقصد بها الوسيلة التي تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل » ^(١٣) .

اتصال الحضارات وانتقالها :

يتمُّ الاتصال بين الحضارات ، وبالتالي انتقالها عن طريق : الغزو أو الفتح ، أو الحكم الأجنبي ، أو الهجرة والسيّاحة والتجارة والجوار .. ومثال ذلك (الهيكسوس) ^(١٤) ، الذين غزوا مصر ، وعاملوا أهلها بشدة وعنف ، لكنهم ما لبثوا بعد مُدة من الزمن أن أخذوا يتعودون على الحياة المصرية ، وجرفهم تيار حضارتها ، فتبصروا وقلدوا الفراعنة في أسمائهم وألقابهم وأزيائهم وعاداتهم وتقاليدهم الملكية ولغتهم ، وقدّموا القرابين إلى الآلهة المصرية ، وسَمُّوا أنفسهم (أبناء رع) .

ونميز في حالات الاتصال هذه ، نوعين رئيسيين من انتقال الحضارة :

١ - إذا كان الشعب المهاجم في حال بدائية ، أي حضارة الشعب المهاجم الذي ساد البلاد وحكمها دون حضارة الشعب المغلوب ، فتحصل فترة توقّف في مسيرة الحضارة الأصلية ، كالهيكسوس ، والبرابرة والجرمان ، والتتر .. ففي مثل هذه الحال تهضم حضارة المغلوب الغزاة المنتصرين ، وتردّهم - ولو بعد حين - وقد اقتبسوا حضارة الشعوب المغلوبة .

٢ - أمّا إذا كان الشعب الفاتح في حال فكري أرقى ، كالفاتحين العرب المسلمين ،

(١٣) قصّة الحضارة : ٥/١ وما بعدها ، بتصرّف .

(١٤) الذين غزوا مصر سنة ١٧٢٠ ق.م ، وبقوا فيها حتى ١٥٨٠ ق.م .

فعندها تزدهر حضارة رائعة بعد الفتح والاستقرار ، مع طبع الحضارة بطابع الفاتحين الخاص .

وقد يحصل تبادل حضاري بين طرفين حضاريين ، وقد يعطي الشعب المغلوب إلى الشعب الغالب أكثر مما يأخذ منه ، مثال ذلك اليونان عندما حكمهم الرومان ، والصليبيون عندما وصلوا بلاد الشام ، وأطلعوا على الحضارة العربية الإسلامية .

وقد يتم الانتقال عن طريق طرف آخر ، فالحضارة العربية الإسلامية انتقلت إلى أوربة عن طريق المدن الإيطالية ، وصقلية ، ومدن فرنسا الجنوبية ، والأندلس .



مظاهر الحضارة :

١٠ للحضارة عناصر تتألف منها ، ومظاهر متعددة تظهر بها :

١ - المظهر السياسي : ويبحث في هيكل الحكم ، ونوع الحكومة : ملكية أم جمهورية ، دستورية أم مطلقة .. والمؤسسات الإدارية والمحلية .

والدولة تنشأ بسبب ضرورة النظام ، ولا يعود بالإمكان الاستغناء عنها ، وتصبح الدولة وسيلة للتوفيق بين المصالح المتباينة التي تكون مجتمعاً مركباً ، ويرى ول ديورانت أن « العنف هو الذي ولد الدولة » ، وأن الدولة هي نتيجة الغلبة والفتح ، وتوطد نفوذ الغالبين ، كطبقة حاكمة على المغلوبين .

٢ - المظهر الاقتصادي : ويبحث في موارد الثروة ، ووسائل الإنتاج الزراعي والصناعي ، وتبادل المنتجات .

٣ - المظهر الاجتماعي : ويبحث في تكوين المجتمع ونظمه ، وحياة الأسرة ، والمرأة ، وطبقات المجتمع ، والآداب ، والأعياد ..

٤ - المظهر الدِّيني : ويبحث في المعتقدات الدِّينية ، والعبادات ، وعلاقة الإنسان ونظرته إلى الكون والحياة .

٥ - المظهر الفكري : ويبحث في النتاج الفكري ، من فلسفة وعلم وأدب ..

٦ - المظهر الفنّي : ويبحث في الفنّ المعاري ، والرّسم ، والموسيقى ، وغيرها من الفنون .



مصادر الحضارة :

إنّ الكتابة أهم وسيلة لحضارة الإنسان ، وحيثما وجدت الحضارة وجدت القراءة والكتابة ، وأصبحت اللّغة المكتوبة وسيلة الحضارة والعلم والتّربية ، فالكتابة تعطي المعرفة البشريّة صفة الدّوام ، والبراهين عن حضارة الإنسان القديم قليلة حتّى نصل إلى عصر الكتابة ، ووضع الوثائق المكتوبة ، ولهذا السّبب احترم القدماء الكتابة ، ونسبها المصريّون القدماء إلى الإله توت Thoth ، فهو - في رأيهم - مخترع وسائل التّفافة جميعها ، وفي بابل كان الإله نبو (Nebo) بن مردوخ إله الكتابة ، والصّينيّون القدماء ، والهنود وغيرهم ، اعتقدوا بأصل إلهي للكتابة ، والأساطير اليونانيّة نسبتها إلى هرمس .

وبوجه الإجمال كان للكتابة مفعول سحري على النّاس ، فاختراع الكتابة أهم من اللّغة ، لأنّ اللّغة ليست اختراعاً بشرياً كالكتابة ، وإنّما هي ميزة بشريّة .

الكتابة : وسيلة لنقل الكلام ، تسجّل أصواتاً آتية من الفم ، أو فكراً آتية من الدّماغ ، برموز منظورة على الورق ، أو الحجر ، أو الخشب ، أو غيرها .

٢٠ ومن الصّعب تحديد دقيق لوقت معيّن لبدء الكتابة ، ولكن لا برهان على وجود كتابة منظّمة قبل منتصف الألف الرّابع قبل الميلاد ، وكانت كتابة



* لوح طيني لتعليم الكتابة من
(إيبلا) ، نجد فيه أن التلميذ لم يكمل
السطور العليا في اللوح .

تصويرية Pictography ، حيث الصورة تمثل الشيء الذي يراد ذكره ، فالدائرة تمثل
الشمس ، وصورة الحيوان تدلُّ عليه .

ثم جاءت الكتابة الفكرية (أو الرمزية) Ideographic ، وهي أرقى من
التصويرية ، لأنها تصوّر الأفكار التي يراد نقلها من شخص إلى آخر ، فالدائرة لا تمثل
الشمس فقط ، بل تمثل النهار ، أو النور ، والحيوان لا يُمثّل بصورة الحيوان ، وإنما
برأسه فقط ، وفكرة الذهاب تُمثّل بقدمين ، أو بخطّين يمثّلان قدميه ، والرموز
المستعملة هنا تُسمّى صوراً فكرية Ideographs ، ويمكن قراءة الرموز في أية لغة في

هاتين المرحلتين - التصويرية والفكرية - إذ لا علاقة بين الرمز وبين اسم الشيء الذي يمثله .

ثم جاءت مرحلة الكتابة ذات المقاطع ، وهي صوتية ، بمعنى أن كل رمز أو صورة لها صوت في اللغة الخاصة التي تكتب بها ، والرموز التي لها أصوات معينة ، يمكن جمعها بأشكال مختلفة لإخراج كلمات وفكر مختلفة ، وهي لا تمثل الأشياء والفكر فقط ، وإنما الأصوات ، وتصبح الكتابة صوتية تماماً عندما تصبح الأشكال المكتوبة ثانوية بالنسبة للكلمات التي تُلَفَظ ، وتفقد تلك الأشكال مدلولها الأصلي حينما تجتمع لتشكيل كلمة أو فكرة جديدة ، بمعنى أنها تصبح قسماً أو مقطعاً من كلمة ، فكلمة (درفيل) مثلاً ، مكونة من مقطعين (در) و (فيل) ، ولكل منهما معناه ورمزه ، فإذا اجتمعا لتكوين كلمة واحدة يفقد عند ذلك المقطعان مدلولهما الأصلي ، ويصبح كل منهما صوتاً أو مقطعاً في كلمة جديدة^(١٥) .

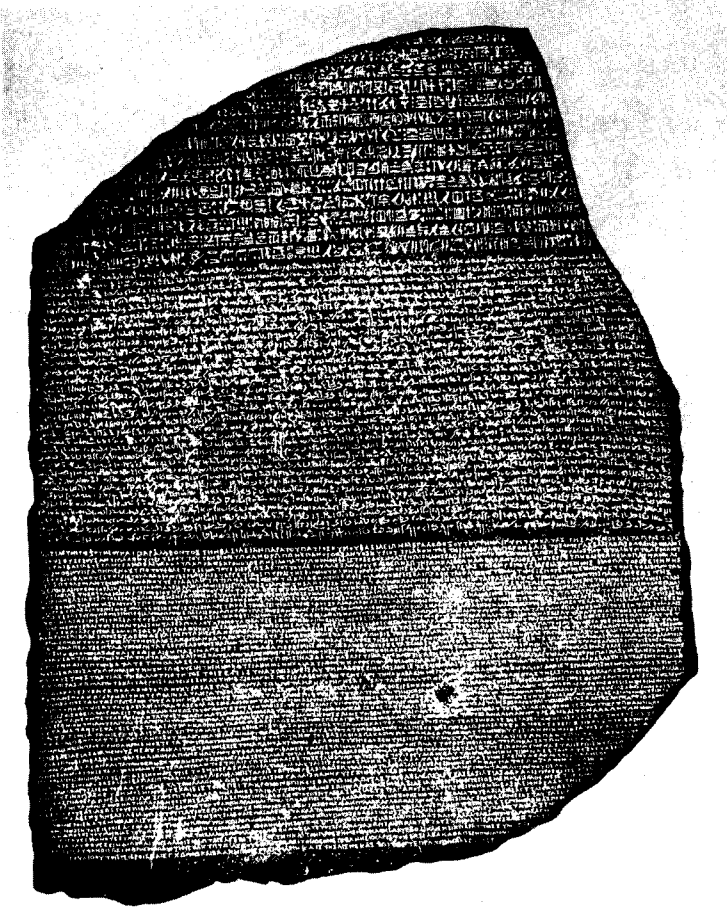
أما الكتابة الأبجدية ، وهي أرقى أنواع الكتابة وأنسبها وأسهلها ، فهي آخر المراحل في تطور الكتابة ، وفيها توجد حروف تمثل أصواتاً مفردة ، لا مقاطع وفكراً ، والأبجدية التي اكتشفت في سيناء ، وأبجدية رأس شمرا (أوغاريت)^(١٦) ، هما أقدم الأبجديات في العالم ، وترقى أبجدية رأس شمرا إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ومنها اقتبست الأبجديات التي تستعملها معظم شعوب العالم في أيامنا هذه .

ويُعد اختراع الأبجدية بالنسبة للبشرية موازياً لأهمية اختراع المطبعة ، بعد ثلاثة آلاف سنة ، إن لم يكن أكثر أهمية .

يقول الجاحظ : « لولا الكتب المدونة ، والأخبار المخلفة ، والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب وغير الحساب ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان »^{٢٠}

(١٥) الكتابة الصينية كانت ٨٠٠٠٠ مقطعاً ، واختصرت اليوم إلى ٩٠٠٠ فقط .

(١٦) تقع أوغاريت شمالي مدينة اللاذقية ، على الساحل العربي السوري .



* حجر رشيد :

The Rosetta Stone

حيث الكتابة التصويرية المبروغلوفية
والديموطيكية (المشتقة تبسيطاً من
المبروغلوفية) ، واليونانية .

الأبجديات القديمة

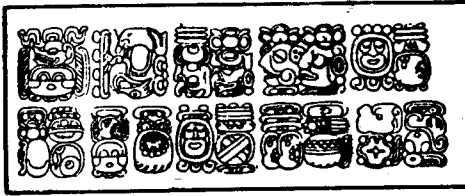
SINAI 1600-1500 B.C.	𐤀	𐤁	𐤂	𐤃	𐤄	𐤅	𐤆	𐤇	𐤈	𐤉	𐤊	𐤋	𐤌	𐤍	𐤎	𐤏	𐤐	𐤑	𐤒	𐤓	𐤔	𐤕	𐤖	𐤗	𐤘	𐤙	𐤚	𐤛	𐤜	𐤝	𐤞	𐤟	𐤠	𐤡	𐤢	𐤣	𐤤	𐤥	𐤦	𐤧	𐤨	𐤩	𐤪	𐤫	𐤬	𐤭	𐤮	𐤯	𐤰	𐤱	𐤲	𐤳	𐤴	𐤵	𐤶	𐤷	𐤸	𐤹	𐤺	𐤻	𐤼	𐤽	𐤾	𐤿	𐥀	𐥁	𐥂	𐥃	𐥄	𐥅	𐥆	𐥇	𐥈	𐥉	𐥊	𐥋	𐥌	𐥍	𐥎	𐥏	𐥐	𐥑	𐥒	𐥓	𐥔	𐥕	𐥖	𐥗	𐥘	𐥙	𐥚	𐥛	𐥜	𐥝	𐥞	𐥟	𐥠	𐥡	𐥢	𐥣	𐥤	𐥥	𐥦	𐥧	𐥨	𐥩	𐥪	𐥫	𐥬	𐥭	𐥮	𐥯	𐥰	𐥱	𐥲	𐥳	𐥴	𐥵	𐥶	𐥷	𐥸	𐥹	𐥺	𐥻	𐥼	𐥽	𐥾	𐥿	𐦀	𐦁	𐦂	𐦃	𐦄	𐦅	𐦆	𐦇	𐦈	𐦉	𐦊	𐦋	𐦌	𐦍	𐦎	𐦏	𐦐	𐦑	𐦒	𐦓	𐦔	𐦕	𐦖	𐦗	𐦘	𐦙	𐦚	𐦛	𐦜	𐦝	𐦞	𐦟	𐦠	𐦡	𐦢	𐦣	𐦤	𐦥	𐦦	𐦧	𐦨	𐦩	𐦪	𐦫	𐦬	𐦭	𐦮	𐦯	𐦰	𐦱	𐦲	𐦳	𐦴	𐦵	𐦶	𐦷	𐦸	𐦹	𐦺	𐦻	𐦼	𐦽	𐦾	𐦿	𐧀	𐧁	𐧂	𐧃	𐧄	𐧅	𐧆	𐧇	𐧈	𐧉	𐧊	𐧋	𐧌	𐧍	𐧎	𐧏	𐧐	𐧑	𐧒	𐧓	𐧔	𐧕	𐧖	𐧗	𐧘	𐧙	𐧚	𐧛	𐧜	𐧝	𐧞	𐧟	𐧠	𐧡	𐧢	𐧣	𐧤	𐧥	𐧦	𐧧	𐧨	𐧩	𐧪	𐧫	𐧬	𐧭	𐧮	𐧯	𐧰	𐧱	𐧲	𐧳	𐧴	𐧵	𐧶	𐧷	𐧸	𐧹	𐧺	𐧻	𐧼	𐧽	𐧾	𐧿	𐨀	𐨁	𐨂	𐨃	𐨄	𐨅	𐨆	𐨇	𐨈	𐨉	𐨊	𐨋	𐨌	𐨍	𐨎	𐨏	𐨐	𐨑	𐨒	𐨓	𐨔	𐨕	𐨖	𐨗	𐨘	𐨙	𐨚	𐨛	𐨜	𐨝	𐨞	𐨟	𐨠	𐨡	𐨢	𐨣	𐨤	𐨥	𐨦	𐨧	𐨨	𐨩	𐨪	𐨫	𐨬	𐨭	𐨮	𐨯	𐨰	𐨱	𐨲	𐨳	𐨴	𐨵	𐨶	𐨷	𐨸	𐨹	𐨺	𐨻	𐨼	𐨽	𐨾	𐨿	𐩀	𐩁	𐩂	𐩃	𐩄	𐩅	𐩆	𐩇	𐩈	𐩉	𐩊	𐩋	𐩌	𐩍	𐩎	𐩏	𐩐	𐩑	𐩒	𐩓	𐩔	𐩕	𐩖	𐩗	𐩘	𐩙	𐩚	𐩛	𐩜	𐩝	𐩞	𐩟	𐩠	𐩡	𐩢	𐩣	𐩤	𐩥	𐩦	𐩧	𐩨	𐩩	𐩪	𐩫	𐩬	𐩭	𐩮	𐩯	𐩰	𐩱	𐩲	𐩳	𐩴	𐩵	𐩶	𐩷	𐩸	𐩹	𐩺	𐩻	𐩼	𐩽	𐩾	𐩿	𐪀	𐪁	𐪂	𐪃	𐪄	𐪅	𐪆	𐪇	𐪈	𐪉	𐪊	𐪋	𐪌	𐪍	𐪎	𐪏	𐪐	𐪑	𐪒	𐪓	𐪔	𐪕	𐪖	𐪗	𐪘	𐪙	𐪚	𐪛	𐪜	𐪝	𐪞	𐪟	𐪠	𐪡	𐪢	𐪣	𐪤	𐪥	𐪦	𐪧	𐪨	𐪩	𐪪	𐪫	𐪬	𐪭	𐪮	𐪯	𐪰	𐪱	𐪲	𐪳	𐪴	𐪵	𐪶	𐪷	𐪸	𐪹	𐪺	𐪻	𐪼	𐪽	𐪾	𐪿	𐫀	𐫁	𐫂	𐫃	𐫄	𐫅	𐫆	𐫇	𐫈	𐫉	𐫊	𐫋	𐫌	𐫍	𐫎	𐫏	𐫐	𐫑	𐫒	𐫓	𐫔	𐫕	𐫖	𐫗	𐫘	𐫙	𐫚	𐫛	𐫜	𐫝	𐫞	𐫟	𐫠	𐫡	𐫢	𐫣	𐫤	𐫥	𐫦	𐫧	𐫨	𐫩	𐫪	𐫫	𐫬	𐫭	𐫮	𐫯	𐫰	𐫱	𐫲	𐫳	𐫴	𐫵	𐫶	𐫷	𐫸	𐫹	𐫺	𐫻	𐫼	𐫽	𐫾	𐫿	𐬀	𐬁	𐬂	𐬃	𐬄	𐬅	𐬆	𐬇	𐬈	𐬉	𐬊	𐬋	𐬌	𐬍	𐬎	𐬏	𐬐	𐬑	𐬒	𐬓	𐬔	𐬕	𐬖	𐬗	𐬘	𐬙	𐬚	𐬛	𐬜	𐬝	𐬞	𐬟	𐬠	𐬡	𐬢	𐬣	𐬤	𐬥	𐬦	𐬧	𐬨	𐬩	𐬪	𐬫	𐬬	𐬭	𐬮	𐬯	𐬰	𐬱	𐬲	𐬳	𐬴	𐬵	𐬶	𐬷	𐬸	𐬹	𐬺	𐬻	𐬼	𐬽	𐬾	𐬿	𐭀	𐭁	𐭂	𐭃	𐭄	𐭅	𐭆	𐭇	𐭈	𐭉	𐭊	𐭋	𐭌	𐭍	𐭎	𐭏	𐭐	𐭑	𐭒	𐭓	𐭔	𐭕	𐭖	𐭗	𐭘	𐭙	𐭚	𐭛	𐭜	𐭝	𐭞	𐭟	𐭠	𐭡	𐭢	𐭣	𐭤	𐭥	𐭦	𐭧	𐭨	𐭩	𐭪	𐭫	𐭬	𐭭	𐭮	𐭯	𐭰	𐭱	𐭲	𐭳	𐭴	𐭵	𐭶	𐭷	𐭸	𐭹	𐭺	𐭻	𐭼	𐭽	𐭾	𐭿	𐮀	𐮁	𐮂	𐮃	𐮄	𐮅	𐮆	𐮇	𐮈	𐮉	𐮊	𐮋	𐮌	𐮍	𐮎	𐮏	𐮐	𐮑	𐮒	𐮓	𐮔	𐮕	𐮖	𐮗	𐮘	𐮙	𐮚	𐮛	𐮜	𐮝	𐮞	𐮟	𐮠	𐮡	𐮢	𐮣	𐮤	𐮥	𐮦	𐮧	𐮨	𐮩	𐮪	𐮫	𐮬	𐮭	𐮮	𐮯	𐮰	𐮱	𐮲	𐮳	𐮴	𐮵	𐮶	𐮷	𐮸	𐮹	𐮺	𐮻	𐮼	𐮽	𐮾	𐮿	𐯀	𐯁	𐯂	𐯃	𐯄	𐯅	𐯆	𐯇	𐯈	𐯉	𐯊	𐯋	𐯌	𐯍	𐯎	𐯏	𐯐	𐯑	𐯒	𐯓	𐯔	𐯕	𐯖	𐯗	𐯘	𐯙	𐯚	𐯛	𐯜	𐯝	𐯞	𐯟	𐯠	𐯡	𐯢	𐯣	𐯤	𐯥	𐯦	𐯧	𐯨	𐯩	𐯪	𐯫	𐯬	𐯭	𐯮	𐯯	𐯰	𐯱	𐯲	𐯳	𐯴	𐯵	𐯶	𐯷	𐯸	𐯹	𐯺	𐯻	𐯼	𐯽	𐯾	𐯿	𐰀	𐰁	𐰂	𐰃	𐰄	𐰅	𐰆	𐰇	𐰈	𐰉	𐰊	𐰋	𐰌	𐰍	𐰎	𐰏	𐰐	𐰑	𐰒	𐰓	𐰔	𐰕	𐰖	𐰗	𐰘	𐰙	𐰚	𐰛	𐰜	𐰝	𐰞	𐰟	𐰠	𐰡	𐰢	𐰣	𐰤	𐰥	𐰦	𐰧	𐰨	𐰩	𐰪	𐰫	𐰬	𐰭	𐰮	𐰯	𐰰	𐰱	𐰲	𐰳	𐰴	𐰵	𐰶	𐰷	𐰸	𐰹	𐰺	𐰻	𐰼	𐰽	𐰾	𐰿	𐱀	𐱁	𐱂	𐱃	𐱄	𐱅	𐱆	𐱇	𐱈	𐱉	𐱊	𐱋	𐱌	𐱍	𐱎	𐱏	𐱐	𐱑	𐱒	𐱓	𐱔	𐱕	𐱖	𐱗	𐱘	𐱙	𐱚	𐱛	𐱜	𐱝	𐱞	𐱟	𐱠	𐱡	𐱢	𐱣	𐱤	𐱥	𐱦	𐱧	𐱨	𐱩	𐱪	𐱫	𐱬	𐱭	𐱮	𐱯	𐱰	𐱱	𐱲	𐱳	𐱴	𐱵	𐱶	𐱷	𐱸	𐱹	𐱺	𐱻	𐱼	𐱽	𐱾	𐱿	𐲀	𐲁	𐲂	𐲃	𐲄	𐲅	𐲆	𐲇	𐲈	𐲉	𐲊	𐲋	𐲌	𐲍	𐲎	𐲏	𐲐	𐲑	𐲒	𐲓	𐲔	𐲕	𐲖	𐲗	𐲘	𐲙	𐲚	𐲛	𐲜	𐲝	𐲞	𐲟	𐲠	𐲡	𐲢	𐲣	𐲤	𐲥	𐲦	𐲧	𐲨	𐲩	𐲪	𐲫	𐲬	𐲭	𐲮	𐲯	𐲰	𐲱	𐲲	𐲳	𐲴	𐲵	𐲶	𐲷	𐲸	𐲹	𐲺	𐲻	𐲼	𐲽	𐲾	𐲿	𐳀	𐳁	𐳂	𐳃	𐳄	𐳅	𐳆	𐳇	𐳈	𐳉	𐳊	𐳋	𐳌	𐳍	𐳎	𐳏	𐳐	𐳑	𐳒	𐳓	𐳔	𐳕	𐳖	𐳗	𐳘	𐳙	𐳚	𐳛	𐳜	𐳝	𐳞	𐳟	𐳠	𐳡	𐳢	𐳣	𐳤	𐳥	𐳦	𐳧	𐳨	𐳩	𐳪	𐳫	𐳬	𐳭	𐳮	𐳯	𐳰	𐳱	𐳲	𐳳	𐳴	𐳵	𐳶	𐳷	𐳸	𐳹	𐳺	𐳻	𐳼	𐳽	𐳾	𐳿	𐴀	𐴁	𐴂	𐴃	𐴄	𐴅	𐴆	𐴇	𐴈	𐴉	𐴊	𐴋	𐴌	𐴍	𐴎	𐴏	𐴐	𐴑	𐴒	𐴓	𐴔	𐴕	𐴖	𐴗	𐴘	𐴙	𐴚	𐴛	𐴜	𐴝	𐴞	𐴟	𐴠	𐴡	𐴢	𐴣	𐴤	𐴥	𐴦	𐴧	𐴨	𐴩	𐴪	𐴫	𐴬	𐴭	𐴮	𐴯	𐴰	𐴱	𐴲	𐴳	𐴴	𐴵	𐴶	𐴷	𐴸	𐴹	𐴺	𐴻	𐴼	𐴽	𐴾	𐴿	𐵀	𐵁	𐵂	𐵃	𐵄	𐵅	𐵆	𐵇	𐵈	𐵉	𐵊	𐵋	𐵌	𐵍	𐵎	𐵏	𐵐	𐵑	𐵒	𐵓	𐵔	𐵕	𐵖	𐵗	𐵘	𐵙	𐵚	𐵛	𐵜	𐵝	𐵞	𐵟	𐵠	𐵡	𐵢	𐵣	𐵤	𐵥	𐵦	𐵧	𐵨	𐵩	𐵪	𐵫	𐵬	𐵭	𐵮	𐵯	𐵰	𐵱	𐵲	𐵳	𐵴	𐵵	𐵶	𐵷	𐵸	𐵹	𐵺	𐵻	𐵼	𐵽	𐵾	𐵿	𐶀	𐶁	𐶂	𐶃	𐶄	𐶅	𐶆	𐶇	𐶈	𐶉	𐶊	𐶋	𐶌	𐶍	𐶎	𐶏	𐶐	𐶑	𐶒	𐶓	𐶔	𐶕	𐶖	𐶗	𐶘	𐶙	𐶚	𐶛	𐶜	𐶝	𐶞	𐶟	𐶠	𐶡	𐶢	𐶣	𐶤	𐶥	𐶦	𐶧	𐶨	𐶩	𐶪	𐶫	𐶬	𐶭	𐶮	𐶯	𐶰	𐶱	𐶲	𐶳	𐶴	𐶵	𐶶	𐶷	𐶸	𐶹	𐶺	𐶻	𐶼	𐶽	𐶾	𐶿	𐷀	𐷁	𐷂	𐷃	𐷄	𐷅	𐷆	𐷇	𐷈	𐷉	𐷊	𐷋	𐷌	𐷍	𐷎	𐷏	𐷐	𐷑	𐷒	𐷓	𐷔	𐷕	𐷖	𐷗	𐷘	𐷙	𐷚	𐷛	𐷜	𐷝	𐷞	𐷟	𐷠	𐷡	𐷢	𐷣	𐷤	𐷥	𐷦	𐷧	𐷨	𐷩	𐷪	𐷫	𐷬	𐷭	𐷮	𐷯	𐷰	𐷱	𐷲	𐷳	𐷴	𐷵	𐷶	𐷷	𐷸	𐷹	𐷺	𐷻	𐷼	𐷽	𐷾	𐷿	𐸀	𐸁	𐸂	𐸃	𐸄	𐸅	𐸆	𐸇	𐸈	𐸉	𐸊	𐸋	𐸌	𐸍	𐸎	𐸏	𐸐	𐸑	𐸒	𐸓	𐸔	𐸕	𐸖	𐸗	𐸘	𐸙	𐸚	𐸛	𐸜	𐸝	𐸞	𐸟	𐸠	𐸡	𐸢	𐸣	𐸤	𐸥	𐸦	𐸧	𐸨	𐸩	𐸪	𐸫	𐸬	𐸭	𐸮	𐸯	𐸰	𐸱	𐸲	𐸳	𐸴	𐸵	𐸶	𐸷	𐸸	𐸹	𐸺	𐸻	𐸼	𐸽	𐸾	𐸿	𐹀	𐹁	𐹂	𐹃	𐹄	𐹅	𐹆	𐹇	𐹈	𐹉	𐹊	𐹋	𐹌	𐹍	𐹎	𐹏	𐹐	𐹑	𐹒	𐹓	
-------------------------	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	--

الذكر ، ولما كان للناس مفرع إلى موضع استذكار ، ولو تم ذلك لَحَرُمْنَا أَكْثَرَ النِّفَع .. »^(١٧) ، ويقول : « وليس في الأرض أمة بها طِرق - قوّة - أو لها مُسْكَة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلّا ولهم خطّ »^(١٨) .

والوثائق المكتوبة ، وهي تجمع السّجلات والصُّكوك والمراسلات .. مع الآثار المادّيّة كالأبنية والبقايا الفنيّة ، والأواني ، والأدوات ، والأسلحة .. هي مصادر الحضارة .

ويزداد شأن الآثار في التّاريخ كلما أوغلنا رجوعاً في الزّمن ، لتصبح في بعض الأحوال ، وفي العصور القديمة خاصّة ، مصادر التّاريخ الوحيدة ، فالشُّعوب كلّها بدافع من العقائد الدّينيّة في الغالب ، أو من رغبات الملوك ، أو من الحاجات الحيائيّة الأخرى ، تركت آثارها على الأرض الّتي عرفتها ، وعلى هذه الآثار نبني معارفنا عن الحضارات القديمة .

والكتابات الأثريّة هي وثائق العصور القديمة ، فمعظم الحضارات السّالفة سجلت على آثارها ما تريد قوله بكتابات شتى ، فحين حلّ شمبليون (Jean-Francois Champollion) رموز الهيروغليفية^(١٩) أضاف إلى التّاريخ ثلاثة



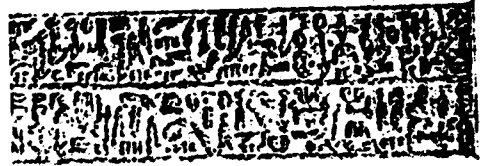
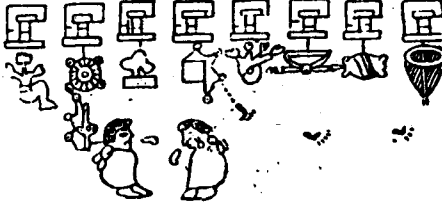
١٥ * كتابة (المايا) في وسط أمريكا ، ألّم العلماء الإماماً يسيراً بها ، وما زالت مفتقرة إلى حلّ .

(١٧) كتاب الحيوان : ٤٧/١

(١٨) المرجع السابق : ٧١/١

(١٩) انظر حجر رشيد ص : ٣٠ من هذا الكتاب .

آلاف سنة ، والكتابات التي استعصت على الحل - مثل كتابة كريت - ما تزال تحتفظ بأسرار التاريخ^(٢٠) .



* نموذج من الكتابة الآزتيكية
(المكسيك) ألم العلماء إلماً لا بأس به بها .

* نماذج من الكتابات التي تحتاج إلى حل

وهكذا عصور ما قبل التاريخ وحتى سنة ٣٢٠٠ ق.م ، حيث اختراع الكتابة في مصر ، فإنّ مصادرنا عن الحضارة هي الأدوات ، والبقايا الماديّة فقط ، لعدم وجود كتابة ، ومن هنا تظهر أهميّة علم الآثار ، والحفريات الأثريّة التي أصبحت اليوم تستهدف الفوائد العلميّة ، والاستنتاجات التاريخيّة ، وليس مجرد البحث عن العاديات^(٢١) ، إذ العاديات لم تعد غاية في ذاتها ، وإنّما وسيلة لمعرفة الحضارات وتطوّرها .

فالكتابة تروي لنا التاريخ السّياسي والعسكري ، والحياة الاجتماعيّة والفكريّة^{١٠} والاقتصاديّة والدينيّة .. وهذا ما كان بعد اكتشاف مكتبة إيبلا^(٢٢) .

(٢٠) بهجة المعرفة ، المجموعة الثّانية : ٣٢/٣

(٢١) العاديات هنا : المكتشفات الأثريّة .

(٢٢) تقع إيبلا جنوبي حلب ، قامت في الألف الثّالث قبل الميلاد ، ودور العظمة من ٢٤٠٠ - ٢١٠٠ ق.م ،

قضى عليها الحثيّون عام ١٦١٠ ق.م .

ومع هذا كلّهُ ، يستفيد التّاريخ اليوم من كشوف الانتروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، واللّغويات وعلوم الاقتصاد والإحصاء والتّقاليد والطّب وغيرها من العلوم ، « إنّ التّاريخ يحاول بذلك كلّهُ أن يحتضن الإنسان بكلّ أبعاده ، شريطة أن يعرف المؤرّخ كيف يستنطق تلك الوسائل ، وهذه العلوم »^(٢٣) .

☆ ☆ ☆

٥



* براعة أهل إيبلا بكتابة الرّقْم وتنظيمها وحفظها .

(٢٣) بهجة المعرفة ، المجموعة الثّانية : ٣٢/٣

نشأة الحضارات وأفولها

الحضارة متواصلة العطاء ، وقيمة
كل أمة في ميزان بناء الحضارة يساوي
ماقدمته مطروحاً منه ماأخذته .

- ٥ . إن مصباح الحضارة ونتائجها ،
نقلت من يد إلى يد ، حتى عشنا
حضارة الذرة والإلكترون ، الصاروخ
عابر القارات ، والحاسوب
(الكمبيوتر) ، والرأبوط (الإنسان
الآلي) ..

- ١٠ . إن قيام حضارة جديدة في مكان ما ، كان يعني زوال أخرى من مكان آخر ،
فالحضارة بساط نسجته وتنسجه أيدي أمم كثيرة ، واليوم لاتزول حضارة بقيام
أخرى ، والسبب سهولة المواصلات ، وتقدم وسائل الاتصال ، فالعالم أضحى (غرفة
واحدة) محدودة الجوانب ، صغيرة الحجم ، واضحة المعالم ، فالإنسان يرى - أو يعلم
سمعاً - ما يجري في الطرف الآخر من الكرة الأرضية ، في الثانية ذاتها ، عند وقوع
الحدث .

وأرجع العلامة عبد الرحمن بن خلدون^(١) أسباب أفول حضارة ، وبالتالي قيام
أخرى في مكان آخر ، إلى عوامل ، منها :

- ١ - عوامل مادية : كاتساع رقعة المملك ، وعدم خضوع الأطراف النائية للسلطة
المركزية .

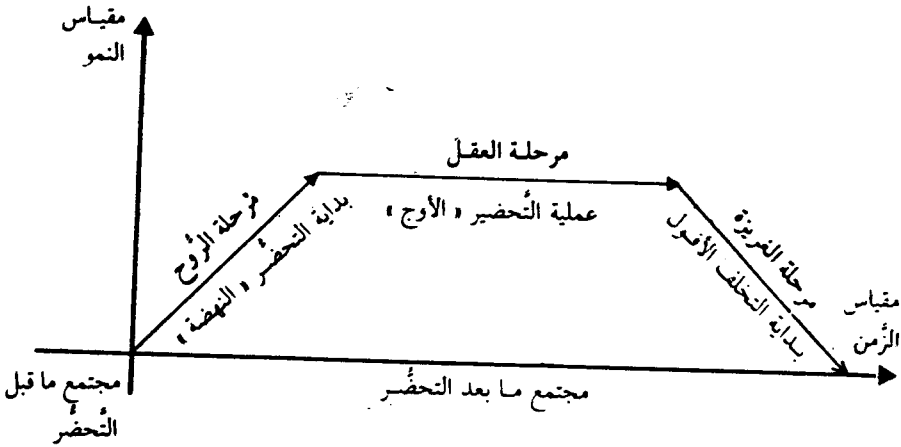
٢٠ .

(١) انظر (مقدمة ابن خلدون) ، ص ١٧٠ وما بعدها ، طبعة دار البيان ، انظر الشكل : مجتمع ما قبل
التحضّر ، ومجتمع ما بعد التحضّر حيث : مرحلة الروح (النهضة) ، مرحلة العقل (الأوج) ، مرحلة
الغريزة (الأفول) .

- ٢ - عوامل اقتصادية : ويعني بها حالة الثرف والدعة بعد فترة الاستقرار .
 ٣ - عوامل اجتماعية : فالمجتمع خاضع للتطور المحتوم ، وللدول أعمار كأعمار الأفراد .

وتمر الحضارة في خمسة أطوار :

- ٥
 ١ - الفتح والاستيلاء واكتساب المجد .
 ٢ - طور استبداد صاحب الدولة على قومه ، وكبح جماحهم عن التناول .
 ٣ - طور الفراغ والدعة ، فيميل صاحب الدولة إلى تحصيل المال ، وتخليد ذكره بالآثار ، مع تمجيد شخصه .
 ٤ - طور القنوع والمسالمة ، يقنع الحاكم بما بناه أسلافه ، ويسالم غيره من الحكام وأصحاب السلطات .
 ١٠
 ٥ - طور الإسراف والتبذير ، حيث يصبح صاحب الدولة - وبطانته - أسير الملذات والشهوات ، فتصبح الدولة في حالة هَرَم ، وتسير بخطوات سريعة إلى الأفول .



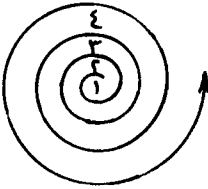
الحضارة : النهضة ، الأوج ، الأفول ، عن [شروط النهضة] .

والحضارة مع ذلك في نمو مستمر ، فهي متواصلة العطاء ، وقيمة أمة في ميزان بناء الحضارة يساوي ماقدّمته ، مطروحاً منه ماأخذته تطبيقاً للقاعدة :

قيمة كل أمة في ميزان بناء الحضارة يساوي ماأعطت وقدمت ، مطروحاً منه ماأخذت واقتبست .

قيمة أمة ما = ماأعطت وقدمت - ماأخذت واقتبست

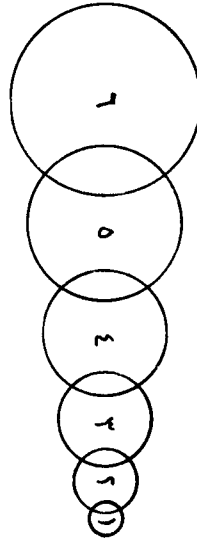
ولقد وضع العلماء لنمو الحضارة أشكالاً ، الشكل اللولبي ، وشكل الدوائر المقفلة :



نظريّة فيكو :

رسم يمثّل نشأة الحضارات على شكل لولبي ، أو حلزوني .

عن (الصراع الحضاري) ، شايف عكاشة ، ص ٩٥



نمو الحضارات على شكل دوائر مقفلة ، ولكنها مترابطة ترابطاً يمثّل مدى صلة كل حضارة بسابقتها .

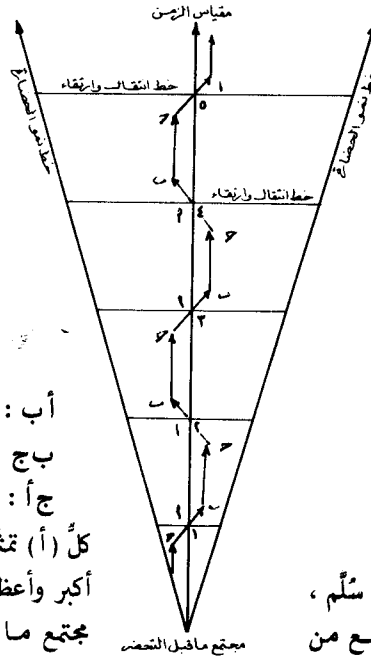
وتقدّم شكل (السُّلَم) ، الذي يمثّل :

١ - نمو الحضارة المتواصل .

٢ - أطوار الحضارة : بداية النهضة ، التي هي نهاية أفول الحضارة السابقة ، ثم الأوج ، ومن ثمّ الأفول الذي يعني بداية نهضة حضاريّة جديدة في مكان آخر من

العالم .

في مرحلة الانتقال من حضارة إلى أخرى ، الحضارة السابقة موجودة ، ولكنها تنتقل عبر قنوات إلى أمة وبقعة أخرى ، حيث تبدأ بالنمو ، وهكذا تسرّب ١ إلى ٢ بدأ معه نمو ٢ ، وتسرّب ٢ إلى ٣ بدأ معه نمو ٣ ، وهكذا ..



أ ب : يمثّل مرحلة الرُّوح « النهضة » .

ب ج : يمثّل مرحلة العقل « الأوج » .

ج أ : يمثّل مرحلة الغريزة « الأفول » .

كلّ (أ) تمثّل أفول حضارة وقيام حضارة أكبر وأعظم من سابقتها ، وهي تمثّل نهاية مجتمع ما بعد التّحضّر للحضارة السابقة ، وهي نقطة ما قبل التّحضّر للحضارة الجديدة ..

مجتمع ما قبل التّحضّر
نمو الحضارات على شكل سُلَم ،
كلّ درجة فيه أكبر وأوسع من
الدرجة السابقة ، تأخذ ماسبق
وتضيف وتبدع .. وهكذا .

مهد الحضارة :

ومن حقّ المرء أن يتساءل : أين كان مهد الحضارة الأولى ؟

هل هي المناطق القاحلة في آسية الوسطى ، التي كانت في يوم من أيام التاريخ السَّحيقة في القَدَم ، تتمتع بِمَنَاح معتدل مطير ، حيث عثر في (أناو) جنوبي التركستان على خزف وآثار تدلُّ على حضارة أُرجِعت إلى ٥٠٠٠ ق.م ؟ ولما جفَّت المنطقة شيئاً ٥ فشيئاً وأقفرت ، اندفع أهلها عبر ثلاث قنوات :

- شرقاً : إلى منشورية ، والصَّين ، وأمريكا الشماليَّة عبر مضيق (بيرنج ^(٢) Biring) .

- وجنوباً : إلى شمالي الهند ، حيث عثر السَّير (جون مارشال) عام ١٩٢٤ م ، على الضَّفَّة الغربيَّة من حوض نهر السُّند الأعلى - موقع : موهنجو - دارو - على مدينة بالغة ١٠ الرُّقي ، قامت خلال الألف الرَّابعة والثَّالثة قبل الميلاد .

- وغرباً : إلى عيلام ، حيث عثر في عاصمتها سوزا (السُّوس ، شوشان) على حضارة راقية ، يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق.م ، حيث الزَّراعة ، واستئناس الحيوان ، وعرفوا كتابة مقدَّسة ، ووثائق تجاريَّة ، سجَّلت حركة تجارتهم التي امتدت من الهند إلى مصر ، كما عثُر فيها على عَجَلَة الخزَّاف ، وعجلات المركبات ، ومزهرِيَّات ١٥ رشيقة ^(٣) .. وتشبه آثار سوزا آثار (أناو) ، ممَّا جعل المؤرِّخين يفترضون أنَّه قد كان بينهما صلات حوالي ٤٠٠٠ ق.م ^(٤) .

(٢) الواقع بين آسية وأمريكا ، بين أقصى شرقي سيبيريا ، وآلاسكا .

(٣) قصَّة الحضارة : ١٨٧/١ - ١٨٨

(٤) استولى آشور بانيبال على سوزا ونهبها سنة ٦٤٦ ق.م .

وهناك شبه كهذا في الفنون والمنتجات القديمة بين بلاد ما بين النهرين ومصر ،
يوحى بوجود علاقة كبيرة بينهما ، وارتباط يدل على اتصال مجرى الحضارة^(٥) .

ويرجح آخرون من علماء الآثار والتاريخ - مع تزايد المعرفة - أن دلتا الفرات
ودجلة شهدت أول مشاهد المسرحية التاريخية للحضارة الإنسانية ، وقرّر آخرون :
٥ أن مراحل الحضارة القديمة نشأت في شرقي البحر المتوسط ، في كل من مصر
والرافدين^(٦) .

ويمكننا القول لنقترب من الحقيقة أكثر : كانت دلتاوات الأنهار الكبرى في بلاد
الرافدين ، ومصر ، والهند ، والصين .. مهد الحضارة ، علماً أن فريقاً من علماء
الحفريات والأجناس الأمريكيين والفرنسيين العاملين في إثيوبية توصّلوا إلى اكتشاف
بقايا إنسان (هيكل عظمي) ، يرجع تاريخها حسب تقديرهم وفقاً لنشاط (الكربون
١٠ ١٤ المشع) إلى أكثر من خمسة ملايين سنة^(٧) .



التّقدّم الإنساني نحو الحضارة :

انقرضت تدريجياً الحيوانات الثديية الضخمة ، على الرغم من قوّتها العظيمة ، ولم
١٥ تستطع مقاومة القوى الطّبيعية التي استطاع الإنسان (بعقله) أن يتغلّب عليها ، وأن
يدافع عن بقائه بين المخلوقات المتنافسة على البقاء ، وقد ازدادت مقدرته (وخبرته)
إلى حد كبير عندما أصبح أول المخلوقات - بل الوحيد من بينها - الذي تمكّن من صنع
الأدوات ، التي كان من أولها تحسين شكل الحصة التي التقطها ، وجعلها أكثر ملاءمة

(٥) قصّة الحضارة : ١٨٨/١

(٦) المرجع السابق : ١٨٨/١ أيضاً .

(٧) (البعث) العدد ٣٥٧٣ ، ١٩٨٤/١٠/٢٨ ، و (الثورة) العدد ٣٥٨٩ ، ١٩٧٤/١٠/٣١ م .

للفرض الذي أراد أن يستعملها فيه ، حتّى غدت قطعة الحجر هذه ، رمزاً متميّزاً للعصر الحجري ، الذي كان قبل مئتي ألف سنة مضت .

وتقدّمت خبرة الإنسان في صناعة الأدوات والآلات ، التي كان لها أعمق الأثر في ارتقائه ، بعد تجربة بطيئة ، ومجهود طويل .

وهكذا .. كان العمل أوّل عامل من عوامل الحضارة : صناعة ، ثمّ زراعة ، أي ٥ استقرار وأسرة وقبيلة ، ثمّ نقل وتجارة وتبادل سلّع .

كما نشأ نوع من تنظيم للحياة والمجتمع ، فقامت سلطة (حكومة) ، لحماية الإنسان من الكوارث أو الأخطار التي تحيط به ^(٨) .

تلا هذه الخطوة ظهور أعراف ، وقوانين ، وشرائع .. نظّمت ما يمحش في الإنسان من شهوات ، وأخضعتها للطريق السوي ، فبغير (القانون) تنحلّ الجماعة أفراداً ، ١٠ وتسقط فريسة لمجتمع (أو لدولة ، أو لسلطة) أخرى ، يكون فيها التماسك الاجتماعي أمّن وأقوى ، « ويندر أن يأتي الموت إلى المدينة من خارجها ، بل لا بُدّ للانحلال الداخلي أن يفتّ في نسيج المجتمع أولاً ، قبل أن يتاح للمؤامرات ، أو الهجمات الخارجية أن تغيّر جوهر بنائها ، أو أن تقضي عليها قضاءً أخيراً » ^(٩) .

وفي ظلّ هذه الدّول والمجتمعات المستقرّة ، ظهرت الأديان ، وتوحّدت العبادات في ١٥ كلّ منها ، وأكثرها متشابه تمام التشابه ، وإن اختلفت في بعض الجزئيات ، ونحن نرى أنّ الأديان كانت في أوّل أمرها نواميس سنّها الله عزّ وجلّ للإنسان بوساطة أنبيائه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، [فاطر ٢٤/٣٥] ، كي يعيش الإنسان بطمأنينة وحرّيّة وهناء ، ومن المعلوم أن العقائد الوثنيّة عرفت في كلّ المجتمعات القديمة ، ولعلّ السبّب في ذلك هو أنّه عندما يأتي النّبي يتبعه قومه ، وبعد وفاته يدخل النّاس إلى ٢٠

(٨) كالفيضانات ، والزلازل ، والغزو .

(٩) قصّة الحضارة : ١٦٥/٥

تعاليمه بعضَ العقائد الوثنيّة ، التي كانت قبل مجيئه ، وقد يقتبسون من بعض الديانات الوثنيّة الأخرى أشياء وتعاليم ، يحشرونها في دينهم^(١٠) ، لذلك لا تخلو عقائدهم من لمحات صحيحة وفكر سليمة .

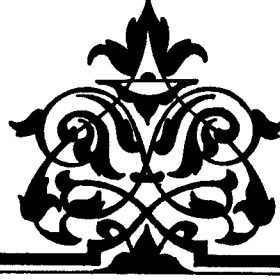
لقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة البدائيّة في كثير من أرجاء آسية ، وإفريقية ، وأوربة^(١١) ، ولا يعرف أحد في أيّ مكان نمت جميع المراحل التي ساعدت على تكوين (حضارة) ، هذه العمليّة التي لم تكن متساوية ، أو على مستوى واحد في أمكنة مختلفة في العالم ، فمثلاً : استطاع كلٌّ من سكّان مصر ، وبلاد الرّافدين ، من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربي أوربة أيّ طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة .

وكانت لمصر وبلاد الرّافدين صلة تجاريّة بغيرهم من الأمم بوساطة السفن ، في الوقت الذي كان فيه الأورييون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا أيّة وسيلة من وسائل الملاحة غير الزّورق المنحوت من جذع شجرة .



(١٠) يقول عز وجل : ﴿ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَاَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ، [البقرة : ٥١/٢] .

(١١) سكّان تسامانية Tasmania (جنوبي أستراليا) عند اكتشافها منذ ثلاث مئة سنة ، كانوا يعيشون عراة الأجسام ، ولم يكونوا قد تعلّموا بعد كيف يصنعون قوساً أو سهاماً .. ولم يسمّعوا في حياتهم شيئاً عن بذر الحَب أو زرعه ، ولم يعرفوا أنّ الطّين يصبح صلباً إذا وُضِعَ في النّار .



الحضارات القديمة

الهند، الصين، اليابان، إيران، اليونان، الهلنستية، الرومانية،
تشاتال هويوك، أمريكا الوسطى والجنوبية، إفريقية، حضارة الوطن
العربي.

« إذا درسنا الشرق الأدنى، وعظّمنا شأنه، فإننا بذلك نعترف بما
علينا من دين لمن شادوا بحق صرح المدينة الأوربية والأمريكية، وهو
دين كان يجب أن يؤدّى من زمن بعيد ».

[أول ديورانت]

الحضارات في العالم

حضارة الهند

قامت حضارة الهند القديمة على ضفاف أنهارها ودلتاتها ، كوادي السّند وروافده ، حيث مقاطعة البنّجاب ، وعلى ضفاف نهر الغانج وروافده ، وعلى ضفاف نهر كرشنا في الدّكن ، وأقدم حضارة عرفت في الهند قبل قدوم الآريّين ، كانت على الضّفة الغربيّة من وادي السّند ، والتي اكتشفها السيّر جون مارشال سنة ١٩٢٤ م^(١) ، وترجع إلى الألف الرابعة ، والألف الثالثة قبل الميلاد ، حيث الآبار ، والمّمامات ، والنّظام الدّقيق للمّصر في كثير من المنازل ، كالتي كانت في سومر وبابل ومصر ، مع نموذج نحاسي لعربة ذات عجلتين ، « وهي أقدم ما لدينا من أمثلة للعربة ذات العجلات »^(٢) .

- ١٠ هل استمدّت هذه الحضارة أصولها من سومر ؟
أو استمدّت سومر أصولها منها ؟
أو الاثنان جاءتا معاً من أصل مشترك ؟
لاإجابة^(٣) ، ولكن الثّابت أنّ هذه الحضارة كانت على اتّصال مع سومر وبابل .
كما قامت في (هرابا Harappa) حضارة^(٤) ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ ق.م .

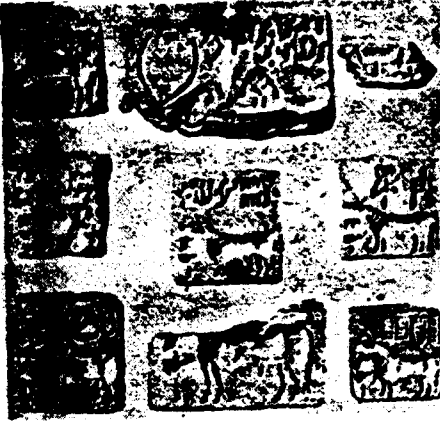
١٥ لقد سكن الهند قبل هجرة الآريّين إليها (الدّرافيديون Dravidions) ، وهم شعب دخلها قبل فجر التّاريخ ، لا يعرف أصله ، ثمّ جاء الآريّون من الشّمال ، والشّمال

(١) في موقع موهنجو - دارو Mohenjodaro .

(٢) قصّة الحضارة : ١٦٢

(٣) قصّة الحضارة : ١٧٢

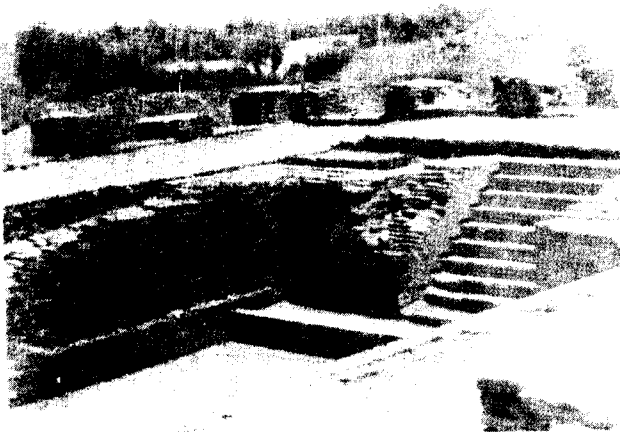
(٤) في البنّجاب .



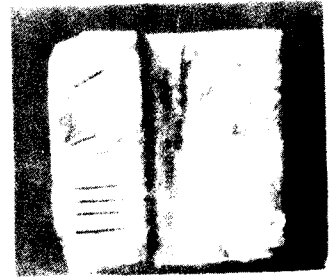
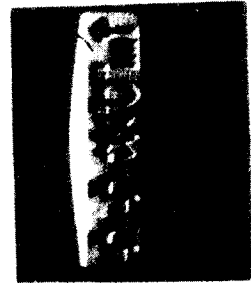
«أختام مع كتابات (موهنجو - دارو)



«أحد ملوك موهنجو - دارو



«الحمام الكبير (موهنجو - دارو)

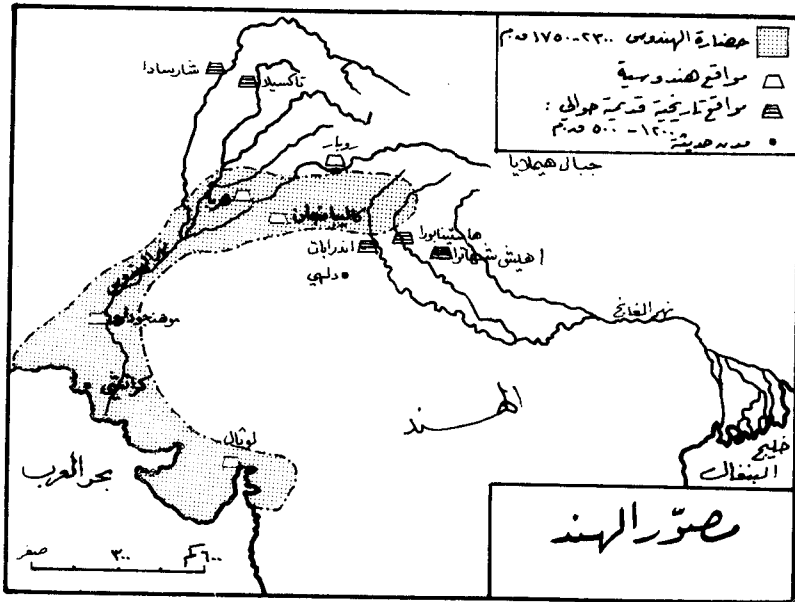


أختام مع كتابات قديمة

الغربي ، بين عامي ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق.م ، واحتلّوا سهل الغانج ، وأرجح النّظريّات أنّ موطنهم الأصلي أواسط آسية شمالي بحر قزوين ، منهم من هاجر جنوباً ، ومنهم من دخل أوربة ، فهم شعوب هندو - أوربيّة^(٥) .

حضارة الهند القديمة في عصر الفيدا : [٢٠٠٠ - ١٠٠٠ ق.م] :

أقدم عصور حضارة للآريّين^(٦) في الهند ، هي عصر الفيدا Vida ، والفيدا مجموعة هـ أغنيات استقيت منها المعلومات عن الهندو الآريّين ، وهي أقدم أثر أدبي في أيّ لغة هندية - أوربيّة في الشرق والغرب .



- (٥) لتاريخ الحضارات القديمة ، انظر للتوسّع : تاريخ الحضارة : ول ديورانت ، المدخل لتاريخ الحضارة : د . جورج حذاد ، تاريخ الحضارات العام : جانين بواييه ، بهجة المعرفة ، تاريخ العالم : السير جون ا . هامرتن ، معالم تاريخ الإنسانية : ويلز ، روما والشرق الروماني ، وتاريخ اليونان : د . سليم عادل عبد الحق ، الحضارات السامية القديمة : ستيفنوموسكاتي ، تاريخ الشرق الأدنى القديم : د . أنطوان مونكارت ، الشرق الأدنى القديم : عبد العزيز عثمان ، حضارة الهند : غوستاف لوبون .
- (٦) آريا بالنسكربتية : الشريف ، ويرى بعضهم أن معناها الفلاح .

والفيدا تعني المعرفة ، وهي المعرفة لكسب رضا الخالق ، بقي من الفيذا أربعة أسفار :

الريغفيذا : أوفيدا الأناشيد .

والسّامافيذا : وهو فيدا النّغمات والتّراتيل عند شرب شراب السّوما .

والياجورفيذا : وهو فيدا القرابين .

وأتارفافيذا : وهو فيدا الرّقى السّحريّة .

ويعتقد الهنود أنّ الإله الأعظم (براهما) كتبها بيده ، ويقولون أقدمها يعود إلى ٦٠٠٠ ق.م ، جاء في الريغفيذا ترنية الخلق ، منها :

« لم يكن في الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السّماء الوضّاءة

لم تكن هناك ، كلّاً ، ولا كانت بُرْدَة السّماء منشورة في الأعالي

فماذا كان لكلّ شيءٍ غطاء ؟

ماذا كان مؤثلاً ؟

ماذا كان محبّاً ؟

أكانت هي المياه بهوّتها التي ليس لها قرار ؟

ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود

ولم يكن فاصل بين النّهار والليل

و (الواحد الأحد) لم يكن هناك سواه

ولم يوجد سواه منذ ذلك الحيز حتّى اليوم ..» (٧) .

يستنتج من الفيذا ، أنّ الهنود كانوا يعيشون في هذه الفترة على الزّراعة ، ورعي

المواشي ، ولهم إله خاص للأرض المحروثة ، ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من

أنفسهم منزلة التّقديس .

(٧) قصّة الحضارة : ٤١/٣

وأهم أسس الحياة الاجتماعية في الهند نظام الطبقات ، لقد انقسم المجتمع الهندي إلى خمس طبقات :

١ - الكهنة ، أو البراهمة^(٨) ، الذين شكّلوا طبقة ممتازة ، سيطرت على الحياة الفكرية والروحية في الهند ، سيطرة هدّدت كلّ تفكير ، وكلّ تغيير بالمقاومة المميّنة ، ويعتقدون أنّهم خلّقوا من رأس براهما ، أو من فمه ، ويأتي بعدهم في المنزلة :

٢ - المحاربون ، الذين خلّقوا من كَفَيْي براهما ويديه . ثمّ :

٣ - المزارعون والتجار وأصحاب الحِرَف ، الذين خلّقوا من فخذَي براهما ، ثمّ

يليهم :

٤ - الخدم ، الذين خلّقوا من قدمي براهما ، وهم من نسل السكّان الأصليين ،

١٠

ثمّ :

٥ - المنبوذون ، ولا ينتسبون إلى طبقة معيّنة ، وهم نحو أربعين درجة ، لهم نوع

خاص من اللباس .

ولا يمكن التّقدّم من طبقة إلى أخرى ، كما أنّه لا يمكن التّزاوج بين طبقتين إلّا بين الأولى والثانية ، والقانون هو العُرف ، ويستشير فيه الملك أحد علماء الدّين .

أمّا الدّيانة ، فقد وجد الآريّون في الهند ديانة ، هي عبادة روحانيّة طوطميّة^{١٥} لأرواح كثيرة ، تسكن الصّخور والحيوان والأشجار ومجاري المياه ، والجبال ، والنّجوم .. وللدّيانة الفيدية مذابح قربانين ، وليس لها معابد أو أصنام .

وأما ديانة الآريّين ، فإنّها كسائر ديانات الهندو-أوربيّة ، قائمة على عبادة قوى الطّبيعة ، كالسماء ، والشمس ، والقمر ، والأرض ، والهواء ، والعاصفة .. فأغني Agni

(٨) براهمان تعني روح العالم غير المشخّصة ، ويجب تمييزها عن لفظة براهما الذي هو أكثر منها تشخّصاً .

إله النار الذي يمثل الشمس في السماء ، والنار المقدسة في الأرض ، ولما كثر عدد الآلهة ، نشأت مشكلة هي : أي هؤلاء خلق العالم ؟

وتحتوي الفيدا على أفكار وتعاليم نبيلة تتعلق بالاستقامة والنقاوة ، ولما كان وصول الآريين إلى الهند عن طريق آسية الصغرى ، وهضبة إيران ، فلا بد أنهم تأثروا بحضارة البلاد التي مروا فيها ، ومنها بلاد ما بين النهرين .

حضارة عصر البطولة والديانة البراهمية : [١٠٠٠ - ٥٠٠ ق.م] :

مصدر المعلومات عن هذه الفترة ملحمتان تسميان : المهابهاراتا Mahabharata ، أو قصة أسرة بهاراتا^(٩) ، والرامايانا Ramayana ، أو تاريخ رام ، وظهر في هذا العصر ثالوث مقدس ، مؤلف من براهما الخالق ، وشيوا Sheva المهلك ، وفشنو Vishnu الحافظ ، والهندوسيون اليوم يتبعون إما شيوا أو فشنو^(١٠) ، والتعليم في هذا العصر كان في طبقة الكهنة أو البراهمة ، وكان شفهيًا حتى لا تصل المعرفة إذا كتبت إلى الطبقات الدنيا .

وظهرت في هذه الفترة عقيدة التقمص ، بمعنى أن الروح تولد مرّات متعاقبة . وحصل رد فعل ضد البراهمة ، لأن الكهنة أصبحوا أقوياء ، وتعقدت الطقوس كثيراً ، فقامت ثورة ضد الكهنة البراهميين ، وظهرت (الجاينية) ، ومؤسسها مهافيرا Mahavira : [٥٥٠ - ٤٧٧ ق.م] ، الذي كان أميراً وترك الإمارة ، وراح يعذب نفسه اثنتي عشرة سنة ، حتى جاء الهدى دون مساعدة الكهنة ، ومن هنا جاء لقب الجينا Jina أي الغالب ، وأسس رهبنة كان فيها ١٤٠٠٠ من أتباعه عندما توفي ،

(٩) وهي أطول ملحمة شعرية في العالم ، إنها مئة ألف بيت .

(١٠) ولعل السياسة الحكيمة في هذه الفترة ، هي التي رسمت تقديس البقرة عند الهندوس ، احتفاظاً للزراعة بحيوان الجرّ ، حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون بنسبة كبيرة ، حتى بلغ عدد البقر اليوم ربع عدد السكان ، [قصة الحضارة : ٢٠٨/٣] .



* أكبر تمثال لبوذا في الصين (معبد
بونينغ) ، ارتفاعه ٢٢ متراً .

والطريق المؤدية إلى الخلاص في رأي الجانتيين ، هي توبة تقشّفية ، وامتناع عن إيذاء
أي كائن حيّ .

كما ظهرت - ضمن ردّ الفعل ضدّ البراهمة - البوذية ، ومؤسّسها غوماتاسيدهانا :
[٥٦٤ - ٤٨٣ ق.م] ، الذي دُعي بوذا ، أي المستنير ، أو الذي اهتدى ، وكان ابن أمير
منطقة على حدود نيبال^(١١) ، فتنكّر لسلطة الفيدا ، والكهنة البراهمة ، وقرّر قواعد
خلقيّة خمساً ، وهي بمثابة الوصايا :

- ١ - لا يقتلن أحد كائناً حيّاً .
- ٢ - لا يأخذن أحد ما لم يُعطه .
- ٣ - لا يقولن أحد كذباً .
- ٤ - لا يشربن أحد مسكراً .
- ٥ - لا يقين أحد على دنس .

(١١) نيبال اليوم شمالي الهند ، جنوبي التبت ، على سفوح جبال هيمالايا الجنوبيّة ، عاصمتها : كاتامندو .

ومما يميّز الجاينية والبوذية ، أنّهما تكلمتا بلغة الشعب (Prokrit) ، وليس بالسَّنسكريتيّة^(١٢) لغة الكُهّان^(١٣) ، ودخل في العقيدتين جماعة من مختلف الطبقات ، ومن الجنسين ، وتدخل (الكارما) عنصراً هاماً في تعاليم الطرفين ، وهي قضية الإرادة ، فإذا عاش الإنسان وفكّر بصورة صحيحة ، يتخلّص من (الكارما) ، ويصل إلى ما يُسمّى بالنيرفانا Nirvana ، بمعنى أنّه لا يعود يولد مرّة ثانية^(١٤) ، وللوصول إلى ذلك يكون باتباع خطّة النقاوة والصفاء في الفكر والقول والعمل ، وتجنّب القتل والسّرقة والزنى ، والابتعاد عن الكذب والطّمع واللذات والرغبات .

ويهمّ الطرفان بالسُّلوك القويم ، وبالمعرفة الصحيحة ، وينظران إلى العالم على أنّه شرّ ، ويميلان إلى الرّهنة ، والجاينية تشجّع التّقشّف الكئيب ، والزهد الجادّ المتشائم ، وإماتة النفس تماماً ، بينما البوذية أكثر اعتدالاً ، وبقيت الجاينية في الهند ، بينما انتشرت البوذية في بلاد الشرق الأقصى ، وعُدّ مؤسّسا هاتين الفكرتين كائنين إلهيين بعد مدّة من وفاتها .

وَيَعُدُّ آزوكا^(١٥) Asoka : [٢٧٣ - ٢٣٢ ق.م] ناشر البوذية ، حيث أرسل بعثات التبشير إلى التّيب والصّين ومنغولية واليابان وسيلان وبورمة وسيام .. وبجوده أصبحت تلك البلاد بوذية .

ومما يذكر أنّه في القرن التاسع ظهرت حضارة الرّاجبوت^(١٦) Rajput ، أي أبناء

(١٢) سنسكريتي تعني : المُعَدّة ، الخالصة ، الكاملة ، المقدّسة .

(١٣) اقتبس الهنود من أسية الغربيّة كتابه شبيهة بالكتابة الفينيقيّة ، أطلق فيما بعد عليها اسم الكتابة البراهميّة ، ومنها اشتقّت كلُّ أحرف الهجاء في الهند .

(١٤) حسب عقيدة التّقمّص .

(١٥) وهو أشهر ملوك سلالة الموريا ، التي حكمت شرقي وادي نهر الغانج : [٣٢٥ - ١٨٥ ق.م] .

(١٦) من ٩٤٠ - إلى ١٠٢٠ م .

الملوك ، التي انتهت بالفتح الإسلامي لوادي السند ، وحوض الغانج الأوسط أيام
السُلطان محمود بن سُبُكْتِكِين (Subuktigin) الغزنوي^(١٧) .

عُلُوم الهند القديمة :

عرفت الهندُ الطبَّ والرياضيّات ، وازدهر الفلك بين القرنين الثالث والرَّابع
الميلاديين ، وتأثَّر بمدرسة الاسكندريَّة ، وتُحوي كتب السِّدْهانتا الهندِيَّة أهمَّ عناصر
الفلك الهندي ، وسدهانتا Siddhanta تعني النَّتِيجة الثَّابتة ، وعرفه العرب باسم
(السِّند هند) ، وهو فلك متأثَّرٌ بالفلك البابلي .

ويقول سارتون Sarton : ابتكر الهنود - على الأغلب - الأرقام التَّسعة ، والنَّظام
العُشري .

- ١٠ وللهنود فضل على المثلثات ، فهم الَّذِينَ استعملوا نصف الوتر ، وحصلوا على
جدول من الجيوب ، فكلمة جيا Jya أو Jiva السِّنسكريتيَّة أصبحت في العربيَّة جيب .
- وازدهرت الفلسفة في الحضارة الهندِيَّة ، وآلت الفلسفة البرهميَّة إلى ستَّة من
المذاهب الرِّئيسيَّة المعترفة بأصول الفيدات ، وكلُّها مؤمنة بأن الفيدات قد هبط بها
الوحي ، وأنَّ الغاية من المعرفة ومن الفلسفة ، ليست هي السَّيطرة على العالم بقدر
ماهي طرق الخلاص منه ؟ وأنَّ هدف الفكر هو التَّاس الحرِّيَّة من الألم ، المصاحب
١٥ لخبية الشَّهوات في أن تجد إشباعها ، وذلك التَّحرُّر من الشَّهوات نفسها .

يذكر وُل ديورانت^(١٨) أنَّ الكهنة في الهند ، استطاعوا في قياس مذابح القرابين
وبنائها ، أن يصوغوا النَّظريَّة الفيشاغورسيَّة التي مؤدَّاها أنَّ المربع المنشأ على وتر المثلث
القائم الزَّاوية ، يساوي مجموع المربَّعين المنشأين على الضِّلْعَيْن الآخرَيْن ، قبل ميلاد

(١٧) الَّذي عاش في بلاطه في غزنة الشَّاعر الفردوسي [٩٤٠ - ١٠٢٠ م] صاحب الشَّاهنامة (كتاب الملوك) ، والعالم
الموسوعي أبو الرِّجَّان البيروني [٩٧٣ - ١٠٤٨ م] صاحب الآثار الباقية عن القرون الخالية .

(١٨) قصَّة الحضارة : ٢٣٨/٣

المسيح يبضع مئات من السنين ، وكذلك استطاع (أرياهاتا) وقد يكون متأثراً باليونان في ذلك ، أن يحسب مساحة المثلث ، والمعين ، والدائرة .

وهذا منهج كثير من علماء الغرب ومؤرخيه ، يجعل اليونان معجزة الحضارات القديمة ، وهذا خطأ جسيم . إنَّ الحضارة اليونانية اقتبست الكثير من حضارات الشرق : المصرية ، والبابلية ، والفينيقية .. كما سنوضح على صفحات قادمة .



حَضَارَةُ الصِّين

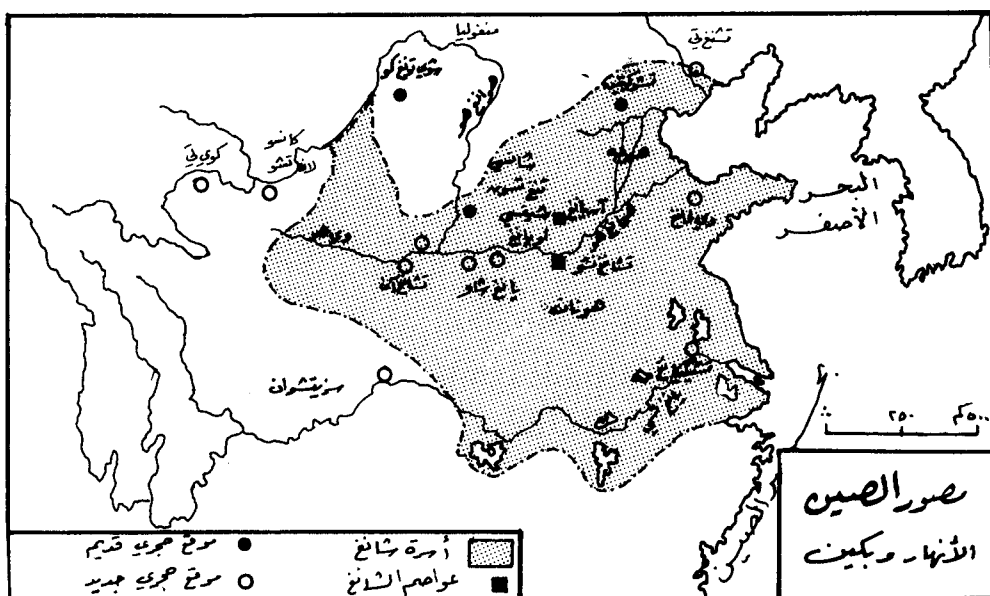
في وديان الأنهار الثلاثة الرَّئيسية^(١) ، وجدت أهم مراكز الحضارة الصِّينية ، حيث وجدت بقايا الإنسان القديم ، وتعود إلى نحو أربع مئة ألف سنة ، حيث كان يعيش على الصيد ، ثم على الزراعة والصيد ، وذكرت وكالة أنباء الصِّين الجديدة ، أنَّ بعض الباحثين عثروا في شهر نيسان (إبريل) ١٩٨٥ م ، على الشواطئ الصخرية بالمنطقة الواقعة بأقصى شمال الصِّين ، على آلاف النقوش التي ترجع إلى عصر يتراوح بين ٨٠٠٠ ق.م و ٦٠٠٠ ق.م ، تأكل بعضها ، في حين يوضح بعضها الآخر صوراً لحيوانات وأشخاص ، ومشاهد الصيد والمعارك ، بالإضافة إلى رموز مختلفة ، قامت بنحتها على الأحجار بعض القبائل الرُّحَّل .

وفي عهد سلالة شانغ Shang [٢٧٦٥ - ١١٢٢ ق.م] ، التي حكمت في مقاطعة هونان في وادي النهر الأصفر ، سارت الصِّين إلى البرونز ، ثم إلى عصر الكتابة ، وعبد الصينيون في هذا الدَّور الأرواح المتعلقة بالقوى الطَّبِيعِيَّة وعناصرها ، كما عبدوا الأسلاف ، فالصِّين موطن عبادة الأسلاف .

ثم غزا الصِّين من الغرب أقوامٌ تحت زعامة قبيلة تشو Chou ، استقرَّت في وادي

(١) النهر الأصفر (هوانغ هو) ، والنهر الأزرق (يانغ تسي كيائغ) ، والنهر الجنوبي (سي كيائغ) .

النهر الأصفر ، متخذة من هاو Hao عاصمة لها ، فاقتبسوا حضارة الدّور السّابق ، وحكموا ما بين [١١٢٢ - ٢٥٦ ق.م] ، وأعطوا الحكم لرؤساء في المقاطعات ، وتأسّس نوع من الحكم الإقطاعي ، وفي منتصف القرن الثّالث قبل الميلاد ، حصلت حروب كثيرة بين المقاطعات بغية السّيطرة ، فنجحت مقاطعة تشين Chin في توحيد البلاد ، وأعطت اسمها لبلاد الصّين كلّها .



واعتقد الصّينيّون أنّ كتابتهم من أصل إلهي ، وهي بلا أجدية ، فلكل كلمة أو فكرة إشارة خاصّة ، ويمكن للصّيني أن يتدبّر أمره بثلاثة أو أربعة آلاف إشارة ، وكانت الكتابة للأشرف فقط ، وكان الموظفون يختارون على أساس امتحانات دقيقة ، « وتعدّ في جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير ، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدام العموميين .. وكانت هذه الطّريقة من النّاحية النظريّة ١٠ توفّق أحسن التّوفيق بين المبادئ الأرستقراطية والديموقراطية ، فهي تمنح النّاس جميعاً

فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها ، ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام »^(٢) .

وكانت بداية الطريقة في مدارس القرى .. يقوم فيها معلّم واحد بتعليم أبناء سِرة القرية تعليماً أولياً ، أمّا الفقراء من السُّكّان فقد ظلّ أبناءهم أميين ، وكانت أوقات الدِّراسة طويلة ، كما كان النظام صارماً في هذه المدارس المتواضعة ، وكانت طريقة التّعليم الحفظ عن ظهر قلب ، وكان الطّفل يخرج من المدرسة بعِلْم قليل وإدراك كبير ، جاهلاً بالحقائق ناضج العقل .

وكان في وسع الأطفال بعد أن يتبوّ الدِّراسة في هذه المدارس ، أن يلتحقوا بإحدى كليات الدّولة القليلة العدد ، الفقيرة في أدواتها واستعدادها ، ولكنهم كانوا في أكثر الأحيان يتلقّون العلم على مدرّسين خصوصيين ، أو يواصلون الدّرس في منازلهم في عدد قليل من الكتب الثمينة .

« وكان هذا التّعليم هو الأساس الذي أقامت عليه الصّين - في عهد أسرة هان على سبيل التّجربة ، وفي عهد أسرة تانج بصفة نهائية - نظام تولّي المناصب العامّة بالامتحان ، ومن أقوال الصّينيين في هذا : إنّ من أضرّ الأمور بالشّعب أن يتعلّم حكّامة طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبه كلّما استطاعوا أن يتعلّموا طرق الحكم قبل أن يحكموا .. ومن أجل هذا كانت تعقد في أوقات معيّنة امتحانات عامّة في كلّ مركز من المراكز ، يتقدّم إليها كلّ من شاء من الذّكور متى كانوا في سنّ معيّنة .

وكان المتقدّم إلى الامتحان يمتحن في قوّة تذكّره ، وفهمه لكتابات كنفوشيوس ، وفي مقدار ما يعرف من الشّعْر الصّيني ، ومن تاريخ الصّين ، وفي قدرته على أن يكتب أبحاثاً في السّياسة والأخلاق كتابة تدلّ على الفهم والذكاء ، وكان في وسع من يخفق في الامتحان أن يعيد الدّرس ، ويتقدّم إليه مرّة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيودزاي ،

التي تؤهله لأن يكون عضواً في طبقة الأدباء ، ولأن يعيّن في المناصب الصُغرى في الحكومة الإقليميّة ، وأهمّ من هذا أن يكون من حقّه أن يتقدّم إما مباشرة ، أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد في الأقاليم كل ثلاث سنوات ، شبيه بالأوّل ، ولكنّه أصعب منه ، ومن أخفق فيه جاز أن يتقدّم إليه مرّة أخرى ، وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدّمين ، فكان يجتازه في بعض الأحيان رجال جازوا الثّمانين ، وظلّوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهّبون لدخول هذه الامتحانات ، وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكوميّة الصُغرى ، كما كان من حقّهم أن يتقدّموا للامتحان النهائي الشّدِيد الذي يُعقد في بكّين ، وكان في تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوي على عشرة آلاف حجرة انفراديّة ، يقضي فيها المتسابقون ثلاثة أيّام متفرّقة في عزلة تامّة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل في موضوعات تعلن لهم بعد دخولها ، وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التّدفئة والراحة ، رديئة الإضاءة ، غير صحيّة ، لأن الرّوح لا الجسم - في رأيهم - هي التي يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة في هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدّم قصيدة في : (صوت المجاذيف والتلال الخضراء والماء) ، وأن يكتب مقالاً عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس ، قال دزانج دزي : « (من يك ذا كفاية ، ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلّا القليل ؛ ومن يملك ثمّ يتظاهر بأنّه لا يملك ، ومن يمتلئ ثمّ يبد أنه فارغ) ، ولم يكن في أيّ امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجاريّة أو الصّناعيّة ، لأنّها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرّجل ، بل كانت ترمي إلى معرفة ماله من حكم صادق ، وخلق قويّ ، وكان كبار موظفي الدّولة يُختارون من النّاجحين في هذا الامتحان النهائي »^(٢).

والأدب الصّيني في هذا العصر ، سُمّي بالأدب الكلاسيكي ، ولقد جمعت المؤلّفات

الهامة لهذا العصر في مجموعة تسمى (كتب كنفوشيوس) ، يعتقد أنه كتبها ، أو أعدها للنشر بيده ، وهي :

أولاً : الكتب الخمسة الكلاسيكية ، أو كتب القانون الخمسة :

١ - (كتاب التغيرات) وهو كتاب تنبؤ وتنجم ، وفي ميدان علم ما وراء الطبيعة ، الذي كان جد حريصاً على ألا يلج بابه في فلسفة . ٥

٢ - (كتاب الشعر) ، أو كتاب الأناشيد ، شرح فيه كنفوشيوس كنه الحياة البشرية ، ومبادئ الأخلاق الفاضلة .

٣ - (كتاب المراسم) ، أو سجل المراسم أو القواعد المتعلقة بالسلوك^(٤) ، وتبحث في آداب اللياقة ، وتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعي .

٤ - (حوليات الربيع والخريف) وهو سجل موجز لأهم الحوادث في (لو) موطن كنفوشيوس الأصلي ، ما بين : [٧٢١ - ٤٧٨ ق . م] . ١٠

٥ - (كتاب التاريخ) وهو مجموعة وثائق ، هي أهم وأرق ما وجدته كنفوشيوس في حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التي تسموها الأخلاق ، وتشرف الطبائع ، وذلك حين كانت الصين امبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعمائها كما يظن كنفوشيوس أبطالاً ، يعملون في غير أنانيّة ، لتمدن الشعب ، ورفع مستواه . ١٥

ثانياً : الكتب الأربعة ، لم يكتبها كنفوشيوس ، ولكنها سجلت في إيجاز ووضوح آراءه وأقواله ، جمعت من قبل أتباعه ومريديه ، وأولها (كتاب التعاليم) ، ويضم أقوال كنفوشيوس ومحادثاته وحواره^(٥) ، و (كتاب التعاليم الأعظم) أو : التعليم الكبير ، و (عقيدة الوسط) ، وهو الكتاب الفلسفي الثالث من كتب الصين ،

(٤) منها : « دائماً وفي كل شيء ليكن هنالك احترام » .

(٥) وهو المعروف عند قراء الإنكليزية باسم : (مجموعة الشذرات) ، أي شذرات كنفوشيوس .

و (كتاب منشيوس : Mencius) ، وفيه تعاليم هذا الفيلسوف ، الذي وضع تعاليم كنفوشيوس بشكل شعبي خاص ، وهو خاتمة العهد القديم للفكر الصيني .

ومن أدب هذا العصر : « يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً في قرض الشعر ، والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً في قول الحق ، والوزراء أحراراً في إسداء النصيحة ، والفقراء أحراراً في التذمر من الضرائب ، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرة ، والعمال أحراراً في مدح مهاراتهم وفي السعي إلى العمل ، والشعب حرّاً في أن يتحدث عن كل شيء ، والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء » .

الديانة الكنفوشيوسية :

عاش كنفوشيوس ما بين : [٥٥١ - ٤٧٨ ق.م] ، واسمه هذا هو شكله اللاتيني ، أما شكله الصيني فهو كونغ فوتزو Kung Fu Tzu ، أي كونغ الفيلسوف أو المعلم ، عُيِّنَ ١٠ حاكماً على مقاطعة لو Lu ، ثم أصبح وزيراً ، فكان مثال العدل والنظام ، ثم أصبح معلماً متجولاً متفرغاً للتعليم ، ولم يكن مؤسس ديانة ، إنما وضع قواعد شديدة للسلوك واللياقة .

من تعاليمه :

- ١٥ إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسليم .
- ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله في شيء .. ولا يتواضع في شبابه التواضع الخلق بالأحداث ، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر .. إن هذا الإنسان وباء .
- لست أبالي مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذي أعني به أن أجعل نفسي خليقاً بذلك المنصب الكبير ، وليس يهمني أبداً أن الناس لا يعرفوني ، ولكنني أعمل ٢٠ على أن أكون خليقاً بأن يعرفني الناس .

ويؤكد تلاميذه أنه كان مبراً من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانياً .

وكان يسلي نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله ، ومن أقواله في ذلك الوقت : لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم ، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أترزعزع ، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي ، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء ، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة ، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل .

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره ، وكان يردّد قبيل وفاته بأيام :

سَيَدُكَ الْجَبَلُ الشَّاهِقُ دَكًّا

وَتَتَحَطَّمُ الْكَتْلَةُ الْقَوِيَّةُ

وَيَذْبَلُ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ كَمَا يَذْبَلُ النَّبَاتُ .

وظهر من بعده فلاسفة ، منهم موتزو Mo Tzu ، الذي جعل البساطة والمحبة طريقاً لسعادة الإنسان ، ونشر الكنفوشيوسية في الصين منسيوس Mencius ، أما هسون تسو Hsun Tzu فقد قال : إِنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ سَيِّئَةٌ ، وَإِنَّ صَلَاحَ الْإِنْسَانِ هُوَ نَتِيجَةُ التَّعَلُّمِ الْمَكْتَسَبِ ، وَالتَّمَرُّنِ عَلَى الصَّلَاحِ .

الدِّيَانَةُ الطَّاوِيَّةُ :

أَسَّسَهَا لَوتزو Lau Tzu ، وكان معاصراً لکنفوشيوس ، ومارس السلوك المعروف باسم طاو Tao ، والفضيلة المعروفة باسم تي Te ، ومبدؤه يقوم على العزلة ، وعدم الاعتداد بالنفس ، والكنوز الثلاثة هي : الرّحمة ، والبساطة ، مع الاقتصاد والتواضع .

وقامت مناقشات حادة بين الكنفوشيوسية والطّاوِيَّة ، مع أن الصينيين ألّهُوا لَوتزو وکنفوشيوس فيما بعد ، قالت الكنفوشيوسية عن الطّاوِيَّة : إنها تجعل كلَّ

إنسان يعمل لنفسه فقط ، ولا يقتلع ولو شعرة من رأسه إذا كان في ذلك فائدة لغيره .
وانتقدت الطاوية الكنفوشيوسية التي نسيت العالم والطبيعة ، وركزت في الإنسان .

ولقد أصبحت الكنفوشيوسية الديانة الرسمية منذ أيام الإمبراطور ووتى Wuti :
[١٤٠ - ٨٧ ق.م] ، وحتى عام ١٩١٢ م ، حيث أعلنت الجمهورية .

ويعاب على هذه التعاليم أنها جعلت المرأة في آخر مكان في الجنس البشري : « ألا
ما أتعس حظ المرأة ! ليس في العالم كل شيء أقل قيمة منها » .

عادت الوحدة إلى الصين بعد فوضى الممالك في عصر سلالة سوي Sui :
[٥٨٨ - ٦١٨ م] ، وسلالة تانغ : [٦١٨ - ٩٠٦ م] ، وكانت سياسة ملوك هذه الأسرة
التسامح بالنسبة للديانات الثلاث الرئيسية في الصين : الكنفوشيوسية ، والطاوية ،
والبوذية التي دخلتها مع بداية القرن الأول الميلادي ، علماً أن بوذية الصين خاصة بها :
دين يدعو إلى الإيمان في غبطة وبهجة بالهة تعين البشر على أعمالهم .
وشمل التسامح أيضاً الديانات الأخرى : الإسلام والمسيحية واليهودية .

العلوم في الحضارة الصينية :

كتب الصينيون عن الخسوف ، وعن مجموعات من النجوم منذ عهد أسرة تشو :
[١١٢٢ - ٢٥٦ ق.م] ، ومن القرن الرابع قبل الميلاد أوردوا ملاحظات على الضوء ،
والمايا المقعرة والمحدبة والمستوية ، وكانوا عارفين بمسائل البرونز ، وأدركوا النسبة
الصحيحة في النحاس والقصدير لصنع خواص معينة منه .

واخترع تساي لون Tsai Lun حوالي ١٠٥ م الورق من قشر الشجر والقنب والخرق ،
وقد كانوا قبله يكتبون على الخيزران والحزير ، والخيزران ثقيل ، والحزير غال .

واخترع الصينيون البارود (نترات البوتاسيوم) ، واستعملوه في الأسلحة منذ
نهاية القرن العاشر الميلادي ، ولما أخذه العرب عنهم ، قالوا عنه : « الثلج الصيني » .

واخترعوا البوصلة ، والحزف ، والطباعة حيث عرفوا الحروف المتحركة منذ عام ١٠٤١ م ، وتقدّمت الكيمياء فعرفوا الحبر الأسود ، والحبر الأحمر ، والصينيون من أوائل الأمم التي اتخذت الفحم الحجري من مناجمه في الأرض منذ سنة ١٩٢٢ ق.م .

وفي مجال الرياضيات حلّوا بعض المعادلات المجهولة من الدّرجة الأولى ، مع تأثّر متبادل مع حضارة الهند في هذا المجال ، وخلف العالم الرياضي جانج تسانج [ت ١٥٢ ق.م] كتاباً في الجبر والهندسة ، فيه أول إشارة معروفة للكمّيات السّالبة .

واخترع تشانج هنج عام ١٣٢ م آلة لتسجيل الزّلازل ، وكان في وسع الفلكيّين في أيّام كنفوشيوس التنبؤ بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً .

وفي مجال الطّب - الذي كان خليطاً من الحكمة التّجريبية ، والخرافات الشّعبيّة - عرفوا نوعاً من الخمر يدعى Ma Yao ، ويظهر أنّهم كانوا يلقّحون ضدّ الجدري في القرن الحادي عشر الميلادي .

وعلى الرغم من هذا كله قيل : « لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون » ^(٦) .

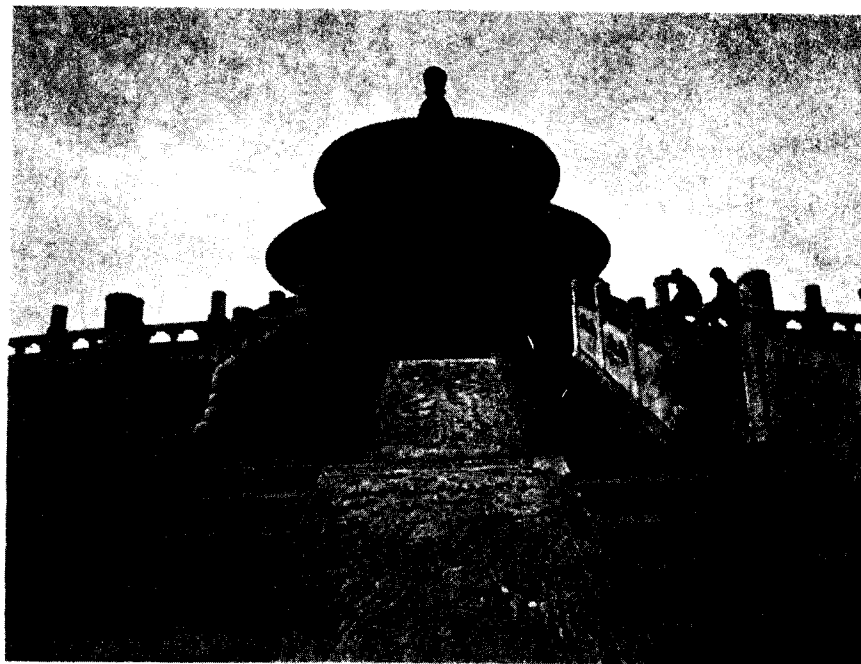
واهتمّ الصينيون بالأنهار والتّرع ، وبنوا سور الصّين العظيم ، الذي انتهى بناؤه عام ٢١٤ ق.م ، في عهد الإمبراطور شيه هوانغ تي Shih Huang Ti ، الذي رُمّم في أوقات مختلفة ، ارتفاعه ما بين ٦ - ١٠ أمتار ، وطوله ١٤٠٠ ميل .

☆ ☆ ☆

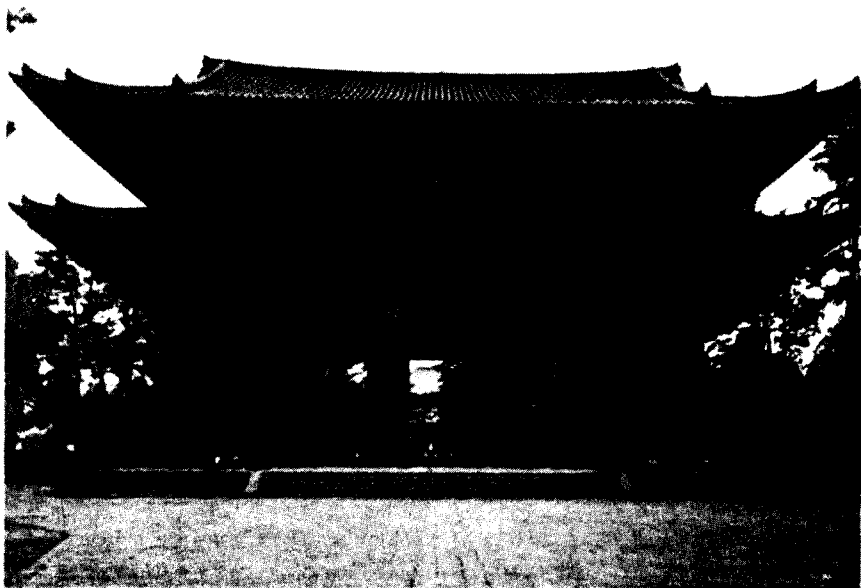
☆ ☆

☆

(٦) قصّة الحضارة : ٢٥٠/٤



*هيكل السَّماء في بكين



*من الفن اليباباني

حضارة اليابان

أهم مراكز الحضارة اليابانية كان في الجنوب الغربي لجزيرة هونشو Honshu ، ولم تعرف اليابان العصر الحجري القديم ، فحضارتها بدأت في الألف الثالث قبل الميلاد ، متأخرة ثلاثة آلاف سنة عن بلاد الشرق الأدنى ، وسكانها شبيهون بالعنصر القفقاسي الأبيض ، وتدلّ معتقداتهم على عبادة الأرواح والطبيعة ، وأسمى الآلهة في السماء هي الشمس ، كما أنّ النار هي أسمى آلهة الأرض ، وجوهر النار يعبد حول كل موقد ، ويسمى فوجي Fuji ، أي الجدة ، أو السلف .

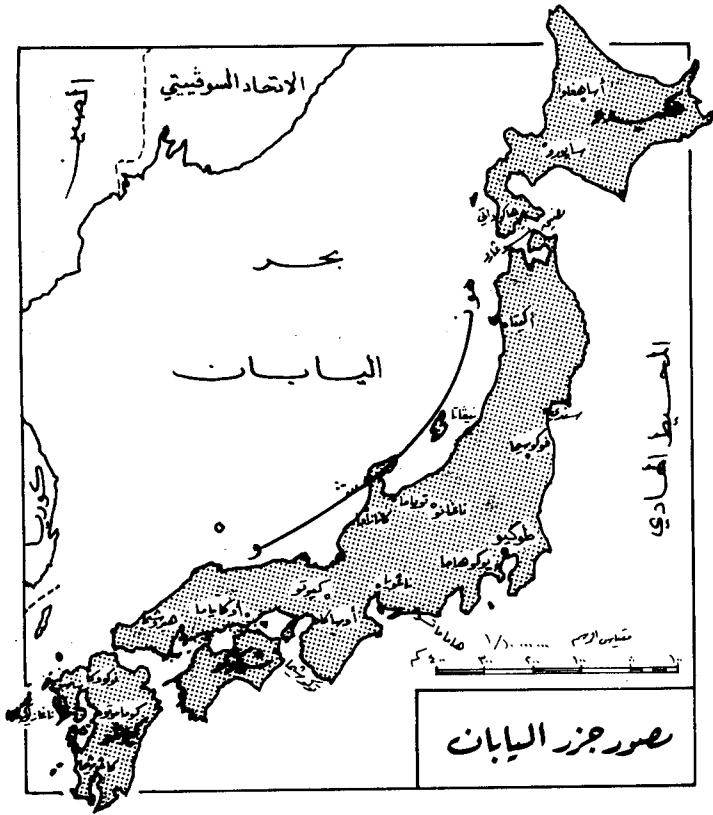
ودخلت اليابان^(١) حول العصور الميلادية الأولى شعوب تسمى ياماتو Yamato ، دفعت بالسكان القدماء أمامها ، أتت من برّ آسية عن طريق كورية ، وهي من عنصر منغولي ، مع بعض الاختلاط بعناصر جنوبية من الملايو القدماء ، ودخلتها الكتابة في القرن الخامس ، والبوذية في القرن السادس من كورية والصين^(٢) .

الديانة الشنتوية :

من عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة يابانية ، وهي شنتو Shinto ، وتعني طريق الآلهة ، إذ كان اليابانيون يخاطبون السلف المقدس الأول ، الذي عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، وأوّل ذكر لهذه الديانة كان سنة ٥٨٧ م ، عندما بدأت تشعر بحاجتها إلى حماية وتعزيز ، بعد دخول البوذية إلى اليابان .

(١) معنى يابان عند الملايو (الجزر) ، وعند الصينيين : جب-بن ، أي : المكان الذي تشرق منه الشمس .

(٢) سُميت الأدوار التاريخية في اليابان بأسماء المراكز (العواصم) التي حكم الأباطرة منها ، وهي : عصر أسوكا : [٥٥٢ - ٦٤٥ م] ، عصر نارا : [٦٤٥ - ٦٩٤ م] ، حيث تمّ دمج البوذية بالشنتوية ، واستمر هذا الدمج ألف سنة ، ودُعي بالطريق المزدوج للإله Ryobu Shinto ، عصر هيسان وكيوتو : [٧٩٤ - ١١٨٥ م] . عصر كاكورا : [١١٨٤ - ١٣٩٢ م] ، حيث ساد الترف والبلذخ وضعفت سلطة الأباطرة ، عصر موروماتشي : [١٣٩٢ - ١٥٦٧ م] ، ثمّ قامت حروب أهلية بدأ بعدها عصر بيدو - التي هي طوكيو اليوم - : [١٦١٥ - ١٨٦٧ م] ، حيث أصبحت اليابان دولة حديثة .



* اليابان الجزر الرئيسيّة

ألغيت الشنتويّة الرسميّة كديانة دولة بعد الحرب العالميّة الثانية ، وأصدر الإمبراطور هيروهيتو إنكاراً رسمياً لألوهيّته كملك ، وبقيت الشنتويّة مذهباً خاصاً ، أتباعه عشرون مليون نسمة .

يقول ديورانت : « ولن نجد في التّاريخ الحديث أروع ، ولا أعجب من الطّريقة ٥ التي استيقظت بها اليابان من نعاسها ، استيقاظاً جزعاً على صوت مدفع الغرب ، فوثبت تتعلّم الدّرس ، وأصلحت صنع ما تعلّمت صنعه ، وأفسحت صدرها للعلم والصّناعة والحرب ، ثمّ هزمت كلّ منافسيها في ميدان الحرب ، وميدان التّجارة معاً .. » (٣) .

(٣) قصّة الحضارة : ١٦٤/٥

الحضارة الإيرانية

حضارة الفرس الإخمينيين : [٥٥٩ - ٣٣٠ ق.م] :

أسس الإمبراطورية الإخمينية (كورش) ، وقوّض صرحها الإسكندر المقدوني ، وامتازت هذه الإمبراطورية بتنظيم إدارة البلاد أيام داريوس^(١) ، الذي كان قائد الحرس الملكي (قائد عشرة الآلاف الخالدين) ساعده الأمين في العاصمة ، أمّا الولايات ، فكان عليها حاكم (مرزبان) ، وبجانبه قائد عسكري ، وكتب يرفع الأخبار للملك ، كما امتازت بمواصلاتها الجيدة ، حيث شبكة الطرق الطويلة التي ربطت أرجاء الإمبراطورية ، مع محطات للبريد ، لتسهيل نقل الأخبار والأمراء والجيوش .

وافخر داريوس بأنه : « أحب الحق ولم يحب الخطأ ، وكانت إرادته ألاّ يتعرضوا لحقوق أرملة أو يتيم ، وأنه عاقب الكاذب ، وكافأ الصادق المجتهد »^(٢) ، فالقضاة المرتشون مثلاً ، كانوا يُقتلون ، ولضمان نزاهة القضاء أمر قبيز بأن يسلم جلد القاضي الظالم حياً ، وأن يُستخدم هذا الجلد لصنع مقاعد القضاة ، ثمَّ يعيّن ابن القاضي القاتل بدلاً من أبيه^(٣) .

وكانت الأحكام قاسية منها : الوسم بالنار ، وبتر الأطراف أو تشويهها ، أو سمل العين ، أو السجن .. ويحلُّ القتل عقاباً على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو القتل ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي .

وسلطة الإمبراطور مطلقة ، لا يُسأل عما يفعل ، فالمذنبون الذين تلهب السيّاط

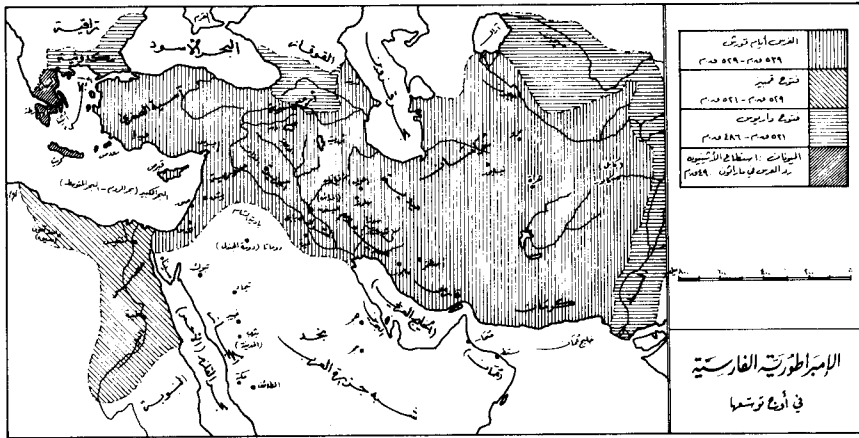
(١) كانت العاصمة برسبوليس ، واكباتان (همدان) العاصمة الصيفيّة ، ومعظم إقامة الإمبراطور في (سوزا) عاصمة عيلام القديمة .

(٢) عبارة نُقِشت على قبر داريوس .

(٣) قصّة الحضارة : ٤١٧/٢

أجسادهم بأمره ، يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم ، فقرارات الإمبراطور هي القانون ، وأحكامه لا ترد ، لأنها وحي الإله أهورا - مزدا إليه .

وسبب ضعف هذه الدولة عدم تقدّم الصّناعة والتّجارة والعلوم ، لإعطائها دعامة اقتصادية واجتماعية ، « فقيام إمبراطورية جهود عظيمة ، والجهود الأعظم سبل الحفاظ عليها ، والابتعاد عن طرق الانحلال » ، فهزائم الجيش الفارسي بقيادة دارا في المارتون ، مع أطباع الولاة ، والثورات والحروب المتكرّرة ، والجمود والفساد .. كل ذلك ، سهّل على الإسكندر انتصاره على دارا الثالث في معركة إيسوس .



الفرثيون وحضارتهم : [٢٥٠ ق.م - ٣٢٤ م] :

بقيت إيران تحت حكم السلوقيين خلفاء الإسكندر حتى عام ٢٥٠ ق.م ، حيث بدأت فترة حكم الفرثيين الذين قدموا من آسية الوسطى ، وعُرفت سلالتهم بالسلالة الأشكانية أو الأرساقية Arsacids ، نسبة إلى أرساق الأول : [٢٤٨ - ٢٤٦ ق.م] ، مؤسس الدولة الفرثية ، التي كانت حضارتها مزيجاً من (فارسية - هلنستية) حتى

القرن الأول الميلادي ، حيث ابتعدت عن الفكر الهلنستي ، واتخذت المجوسية الزردشتية ديانة رسمية ، ووضع كتاب الأفستا Avesta ، كتاب المجوسية الديني .

الزردشتية :

يعتقد الزردشتيون أن أم زردشت حملت به حملاً إلهياً : « دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة في النسب ، سامقة في الشرف ، وتزوج الكاهن الفتاة ، وامتزج الحبسان الملاك والشعاع ، فنشأ زردشت من هذا المزيج » ، وتجلّى له (أهورا - مزدا) ربّ النور الإله الأعظم ، ووضع في يديه الأستاق (الأفستا) ، أي كتاب العلم والحكمة .

تقوم الزردشتية على أسس ثلاثة هي :

- ١٠ - ١ - إن الزراعة وتربية الماشية ، هما وحدهما المهنتان النبيلتان .
- ٢ - إن الكون بأسره معركة بين الخير والشر ، والفكرة السائدة ثنائية العالم الذي يقوم على مسرحه صراع يدوم اثني عشر ألف عام بين الإله أهورا - مزدا ، والشيطان (أهريمان) .
- ١٥ - ٣ - إن العناصر ، وهي الهواء والماء والنار والتراب طاهرة ولا يجوز تدنيسها ، والنار مقدسة ، وسادن بيت النار يقوم على خدمة اللهب المقدس ، والحياة المثلى كما رسمها (النبي) زردشت هي : « حيث يشيد المؤمن بيتاً فيه الماشية ، والزواج ، والولد ، وحيث توهج النار »^(٤) .
- وأفضل الفضائل : الطهر والأمانة ، ويؤدّيان إلى الحياة الخالدة^(٥) .

(٤) تاريخ العالم : ٣٣٦/٤

(٥) قصة الحضارة : ٤٢٤/٢

حرية الإرادة عمل يقوم به الإنسان ، يرجح قضية أهورا - مزدا (الخير) ، أو قضية أهرمان (الشر) .

التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق ، والتقوى (أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة) .

ومعابد الزردشتيين أقيمت على قم الجبال ، يوقدون النار فوقها تكريماً لأهورا - مزدا ، وعندما سبست الزردشتية ، صور الإله الأعظم في صورة ملك ضخم ذي جلال مهيب ، مع أنها اقتربت من عقيدة التوحيد في أيامها الأولى ، وأتخذت النار نفسها إلهاً ، واعتقد الزردشتيون أنها ابن إله النور ، لذلك حرصت الأسر ألا تنطفئ النار في بيوتاتها ، والشمس نار السموات الخالدة ، تعبد بوصفها أقصى ما يمثل فيها أهورا - مزدا .

ويعتقد الزردشتيون أن نهاية العالم قريبة محتومة ، فبعد موت زردشت بثلاثة آلاف سنة ، يحل يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورا - مزدا ، ويهلك (أهرمان) هلاكاً أبدياً .

السَّاسَانِيُّونَ وَحَضَارَتُهُمْ : [٢٢٤ - ٦٥٢ م] :

أسس حكم الأسرة السَّاسَانِيَّة أَرْدَشِيرُ الْأَوَّلُ^(٦) ، الذي جعل الزردشتية المجوسية ديانة الدولة الرسمية .

وأيام كسرى أنوشروان (الروح الخالدة) قامت إصلاحات هامة ، وشخصية أنوشروان جديرة بالدَّرس ، فعند اعتلائه العرش وجد البلاد تعاني من الاضطراب والفساد والظلم والقوانين العقيمة ، فعزم على علاج هذه الأوضاع .

(٦) وكان آخر ملوكهم يزيد جرد الثالث ، الذي قاوم الفتح العربي الإسلامي ، ولم يفلح ، والإله أهورا - مزدا يمنح السلطة للملك ، واعتقد ملوك الفرس أن دمأ إلهياً أزرق يجري في عروقهم ، والسعودي يثني على ملوك السَّاسَانِيِّين لإدارتهم الممتازة .



معبد النار قرب مدينة باكو (أذربيجان)

وأعظم إصلاحاته تسوية مشكلة الأرض الزراعيّة ، فقد جرت العادة من قبل أنوشروان ، على أن تحصل الدولة على نصيب يتفاوت بين العشر والنصف ، من كلّ محصول حسب خصوبة الأرض ، وطُبِّقت هذه القاعدة تطبيقاً سيئاً بسبب ما يرتكب جباة الخراج من الإجحاف ، ولم تؤدّ هذه القاعدة إلى تشييط همّ الزّراع فحسب ، بل أدّت إلى خسارة في المحصول ، وكانت هذه الخسارة تحدث لأنّ المزارعين لم يكن يسمح لهم بجني حاصلاتهم الزراعيّة ، حتّى يحضر جباة الضرائب ، للحصول على حصّة الملك ، فكان ترك المحصول على الأشجار على الرّغم من نضجه ، يؤدّي إلى تلف قسم كبير منه .



* كان الصّيد أهم نسلية للملوك في إيران

والمثل على ذلك ، ما جاء في قصّة جارية تقول : إنّ أنوشروان رأى ولداً تضربه أمّه لأنّه التقط عنقوداً من العنب ، وقد اختطفته الأمّ من يد ابنها وعلّفته بالكرمة ،

فَلَمَّا سَأَلَهَا أَنْوَشُرَوَانُ عَمَّا تَفْعَلُ ، أَجَابَتْ بِأَنْ لَيْسَ مِنْ حَقِّ الْحَرَّاثِينَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ عُنْبِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُجْمَعَ نَصِيبُ كَسْرَى مِنْهُ ، فَاسْتَبَدَلَ أَنْوَشُرَوَانُ بِتِلْكَ الْقَاعِدَةِ مِبَالِغَ نَقْدِيَّةٍ أَوْ عَيْنِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ لِكُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ الْمَزْرُوعَةِ ، وَعِلَاوَةً عَلَى هَذَا فَقَدْ وَضَعَ خَرَّاجاً عَلَى أَشْجَارِ الْفَاكِهِةِ ، وَالْبُيُوتِ ، وَجَزِيَّةً عَلَى الرُّؤُوسِ ، وَشَجَّعَ الْحَرَّاثِينَ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ لِیَفْلَحُوا الْمَزِيدَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَعَمِلَ دَائِماً عَلَى زِيَادَةِ مِيَاهِ الرِّيِّ ، فَأَنْشَأَ السُّدُودَ وَالْقَنَوَاتِ ، كَمَا قَدَّمَ الْبَذُورَ وَالْمَاشِيَةَ لِلْحَرَّاثِينَ ، وَعَمِلَ عَلَى زِيَادَةِ عِدَدِ السُّكَّانِ ، فَحَتَّمِ الزَّوْاجَ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ ، وَمَنَحَ الْفُقَرَاءَ الْمَهُورَ ، وَأَصْلَحَ وَسَائِلَ الْمَوَاصِلَاتِ ، فَشَيَّدَ الْجُسُورَ ، وَشَقَّ الطُّرُقَ ، وَضَرَبَ بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ عَلَى قِطَاعِهَا ، وَبَذَلَ قِصَارَى جَهْدِهِ لِمَنْعِ أَعْمَالِ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ ، وَمِثَالُ ذَلِكَ : سَأَلَ أَحَدَ السُّفَرَاءِ عَنْ سَرَاعِجِاجِ الْمِيدَانِ الْمَقَابِلِ لِقَصْرِ كَسْرَى ، فَأُجِيبَ بِأَنْ عَجُوزاً تَمْلِكُ الْأَرْضَ الْمَلَاصِقَةَ ، وَقَدْ رَفَضَتْ بَيْعَهَا بِأَيِّ ثَمَنٍ ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْوَشُرَوَانُ أَنْ يُجْبِرَهَا عَلَى الْبَيْعِ ، كَمَا شَغَفَ هَذَا الْمَلِكُ بِالْعِلْمِ كَثِيراً ، فَأَنْشَأَ مَدْرَسَةً جُنْدَيْسَابُورَ الْمَشْهُورَةَ ، حَيْثُ كَانَ يَدْرُسُ فِيهَا الطَّبُّ وَالْفَلَسَفَةُ بِتَوْسُعٍ ^(٧) .

ظَهَرَتْ أَيَّامُ الْأُسْرَةِ السَّاسَانِيَّةِ الْمَانَوِيَّةِ ، وَمَانِي [٢١٥ - ٢٧٤ م] ، أَعْلَنَ دَعْوَتَهُ فِي سَنٍّ مُبَكِّرَةٍ ، زَارَ الْهِنْدَ ، وَالتَّيْبِتَ ، وَتُرْكِسْتَانَ ، وَالصِّينَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى فَارَسَ بَعْدَ وَفَاةِ سَابُورِ الْأَوَّلِ ، حَيْثُ رَحَّبَ بِهِ خَلِيفَتُهُ هَرْمَزْدُ الَّذِي حَكَّمَ إِيرَانَ سَنَةً وَاحِدَةً ، وَحِينَ وَلِيَ الْعَرْشَ بِهَرَامِ الْأَوَّلِ ، قَتَلَ مَانِي ، وَسَلَخَ جُلْدَهُ ، ثُمَّ حَشَّاهُ تَبْنًا وَعَلَّقَهُ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ .

قَالَ مَانِي : إِنَّ كُلَّ مَا فِي عَالَمِ الشَّرِّ ، فَهُوَ شَرٌّ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ دَعَا إِلَى عَدَمِ الزَّوْاجِ ، وَعَدَمِ زِيَادَةِ النَّسْلِ ، وَمَانِي يَقُولُ بِمَقَالَةِ الزَّرْدَشْتِيَّةِ : إِنَّ النُّورَ يُحَارِبُ الظُّلْمَةَ ، وَشَكْلٌ ثَالِثًا يُدَافِعُ مَعَ إِلِهِ النُّورِ إِلَى الظُّلَامِ ، وَلَكِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ كُلَّيْهَا كَانَ شَرًّا ، وَيَقُولُ : إِنَّ نَاراً سَتَوْقَدُ فِي النِّهَايَةِ ، وَتَوْدِّي إِلَى خِلَاصِ النُّورِ وَانْفِصَالِهِ النَّهَائِيِّ عَنِ الظُّلْمَةِ الَّتِي لَا خِلَاصَ لَهَا .

(٧) تاريخ العالم : ٣٤١/٤ و ٣٤٢

ومَّا يذكر أنَّنا إذا علمنا أن خلود الرُّوح معناه وجود في المستقبل لا ينتهي ، فإنَّ المعتقد الإيراني قد تجاوز هذا الحدَّ ، فنصَّ في تعاليمه على أنَّ لكلَّ إنسان روحاً ، وأنَّ هذه الرُّوح وجدت في ماضي لا حدَّ له ، وأنَّها تلازمه في الحياة الدُّنيا ، وتنتقل معه عند موته إلى الأبدية في العالم الآخر ، العالم الَّذي تسكنه أرواح من قضى من الصَّالحين ، وتفيع الخير على أعقابهم الَّذين تقرَّبوا إليهم بالصَّلاة والقرايين ، وعلى ذلك فإنَّ ديانة ٥ الإيرانيين كانت تناقض ديانة معاصريهم من أهل جنوبي أوربة إلى حدِّ كبير ، فقد كانت ديانة شخصيّة أكثر منها ديانة وطنيّة ، ديانة توجّه سلوك الفرد في كلِّ عمل يأتيه في حياته ، ولم تكن ديانة شعائر لا يراعي المؤمن أحكامها إلّا حين تقام العبادات العامّة .

وجوهر هذا الدِّين ، إذا ما قورن بديانات رومة وبلاد اليونان ، يتجلّى في ١٠ رمزيّته ، فكانت رموز الألوهيّة عند الإغريق والرُّومان آلهة نُحِتَت أو صُوِّرت على هيئة الإنسان ، صحيح أنَّ النُّحَات الفارسي قد حاول أن يمثّل شخصيّة أهورا - مزدا على بعض الآثار الفارسيّة الّتي بقيت ، إلّا أنَّ النَّار كانت هي الرَّمز الحقُّ الَّذي يدلُّ على الألوهيّة ، فالنَّار منبع الحرارة هي الّتي تطهّر النفوس ، والنَّار مصدر النُّور ، فهي من ثَمَّ رمز الحقيقة ، وكانت الحقيقة والطُّهر من أخصِّ صفات الإله أهورا - مزدا ، ولم يكن ١٥ الإيرانيون يعدُّونه عرضة لنقائص البشر الّتي عزَّتها الأساطير والملاحم الإغريقيّة إلى آلهة الإغريق (٨) .

ولمَّا كانت الدَّولة السَّاسانيّة قد سيطرت على طريق التَّجارة مع الصِّين ، وأعادت بناء القرى ، وحفرت الأقنية والثَّرع ، وأعطت الفقراء أرضاً وبذاراً ومواشي ، وقسّمت الإمبراطوريّة إلى أربعة أقسام إداريّة ، ومسحت أراضي الدَّولة ، إلّا أنَّها أرهقت شعبها ٢٠ بالضرائب ، وأدَّت حال النَّاس السيِّئة إلى حركة ثوريّة مرتبطة ببدعة دينيّة تسمّى

(٨) تاريخ العالم : ٤٤٥/٢

المزدكيّة^(٩) ، وهي بعث للمجوسيّة متأثرة بفكر هلنستيّة ، غايتها شيوعيّة الأرض والمواشي والنساء ، فقام الفلاحون واستولوا على المواشي والأراضي والنساء ، وجعلوا القرى مشتركة .

بدأ الإصلاح الاجتماعي أيام قباذ الأول [٤٨٥ - ٥٣١ م] ، باستئصال الشرور التي سببت المزدكيّة ، ففسح الأراضي وحدّد كمّيّة الضرائب ، وسمح للفلاح بتعيين نوع المحصول ، ولكن وُضِعَت ضريبة شخصيّة على جميع الذكور بين سنّ العشرين والخمسين ، أعفي منها الجند والتبلاء والكهنة والموظفون والمصابون بعاها ، وعاد نظام الطبقات^(١٠) .

ولا يفوتنا ونحن نطوي آخر الكلمات عن الحضارة الإيرانيّة أن نقول :
ويمكن تمييز « الإيوان » في مباني هذه الحضارة ، الذي أثار الإعجاب صياغة ودقّة ، والذي سيصبح له شأن في الأبنية الإيرانيّة المتأخّرة .
وأنّ مركز المرأة كان حسناً نسبياً أيام الساسانيّين ، فلقد كان لها نصيب أوفى من الحياة .

الحضارة اليونانيّة (الإغريقيّة)

قامت في جزر بحر إيجه حضارة سُمّيت (ما قبل الهلينيّة) ، ومن هذه الجزر جزيرة كريت ، وجزر السيكلاد ، حيث سكنها الإنسان قبل الألف الخامس قبل الميلاد ، وازدهرت حضارة كريت حول سنوات [٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م] ، وهي الحضارة المينويّة ، نسبة إلى مينوس ، ملك مدينة كنوسوس الأسطوري ، اكتشفها آرثر انفيس [١٨٥١ - ١٩٤١ م] ، وذلك سنة ١٩٠٠ م ، وتبيّن أنّ الحضارة المينويّة

(٩) أسسها مزّدك : [حوالي ٤٨٠ - ٥٢٨ م] .

(١٠) ثمّ بدأت الحضارة العربيّة الإسلاميّة في إيران .



*ماني

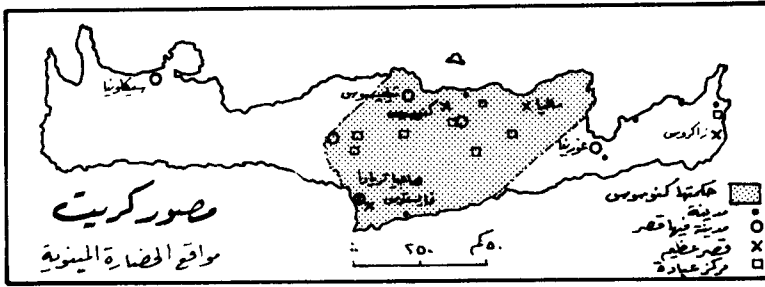
* كان الرُّماة في
الجيش السَّاساني يؤلّفون
أهم فرق الجيش

عام ٢٠٠٠ ق.م ازدهرت وتقدّمت اقتصاديّاً واجتماعيّاً ممّا أدّى بفنّ العمارة إلى تحقيق إنجازات ضخمة ، كما استخدم السُّكَّان كتابة تصويريّة أبسط من الكتابة الهيروغليفية المصرية .

وكونت كريت ثروات ضخمة من تجارتها البحرية الواسعة المزدهرة ، وأشد ما يدعو إلى الدهشة في الجزيرة نظام صرف المياه ، الذي كان من الرُّقي ، بحيث يضارع أي نظام تصريف سابق للقرن الثامن عشر الميلادي .

ولعلَّ سبب نهاية هذه الحضارة مؤثرات بركانيّة ، كبركان ثيرا المدمر^(١) ، مع صدمات الأمواج العاتية التي رافقت ذلك ، ثمَّ جاء كريت شعبٌ غازٍ لا يُعرف منشؤه ، حوالي ٢٤٠٠ ق.م ، عرف البرونز واستعمله بكثرة .

لقد أسهمت الحضارة الكريتيّة المينويّة في نشوء الحضارة اليونانيّة .



وأقدم الشعوب اليونانيّة هم الآخائيون^(٢) ، الذين اندفعوا إلى البلقان والهيلاد نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م ، في الوقت الذي هاجر فيه بعض الكريتيّين من جزيرتهم وأقاموا في الأرض اليونانيّة ، فولدت حضارة هي الحضارة الآخائيّة - الهيللاديّة ، التي بلغت قمتها ما بين : [١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق.م] ، عندما سيطرت على طرق البحر المتوسط التجاريّة التي كان الكريتيّون يسيطرون عليها .

ودفّع الآخيون بدورهم إلى السّواحل الآسيويّة أمام أقوام جديدة ، حملت منهم الحضارة ما قبل الهلليّنيّة ، ونشأت مجتمعات جديدة في مطلع القرن الثّاني عشر قبل الميلاد ، ليس من السّهل أن يميّز المرء من كان أصله إيجيّا ، ومن كان أصله يونانيّا ، وشكّلت هذه المجتمعات الجديدة الحضارة الهلليّنيّة .

(١) بركان ثيرا : شمال كريت قرابة ١٠٠ كم .

(٢) وهم من الشعوب الهندو - أوريّة ، اندفعوا إلى اليونان وجزر بحر إيجه .

ويظهر أنَّ الهلَّينيين عندما حلُّوا في بلاد اليونان ، كانوا منقسمين إلى قبائل تدعى كلُّ منها جينوس Genos ، وكل قبيلة مستقلة قائمة بنفسها (ممالك مدن) ، وكانت تنظِّم العادة والعرف تنظِّم الأفراد فيما بينهم ، وهناك قوانين ناظمة تحدّد علاقات كلِّ قبيلة بالقبائل الأخرى ، وخصوصاً بعد أن تحوّلوا من رعاة إلى زُرَّاع .

يقول وُل ديورانت : « وأصعب ما يواجه مؤرِّخ الحضارة اليونانيّة القديمة ويشبُّط همتّه ، هو أن يؤلّف من هذه الأعضاء المتفرّقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة ، وقصّة متّصلة الأجزاء » ^(٣) .

ويمكن القول : إنّ التّطوُّر السِّياسي والاجتماعي لبلاد اليونان يتركز منذ منتصف القرن السَّابع حتّى منتصف القرن الرّابع قبل الميلاد حول قُطْبَيْ : (أثينا) الّتي مثّلت المدينة العابثة المتبدّلة ، والّتي كان كلُّ واحد من سكّانها حرّاً بشخصه وأعماله ، وبإمكانه أن يناهض ويخرج سلطة الدّولة ، و (إسبارطة) الّتي مثّلت الصّلافة الّتي لا تلين ، فنظامها الاجتماعي والاقتصادي كان يستهدف تأسيس جيش يؤدّي الفلاحون نفقاته .

أثينا :

قيل : وضعت أثينا مبادئ الحكم الديمقراطي في أواخر القرن السّادس قبل الميلاد ، أيّام دراكون وصولون وبيزيسترز وكليستين ، مع قسوة وشدّة ، فالموت عقاب أيّ مخالفة لحكم من أحكام قوانينهم .

والواقع أنّ هذه الديمقراطيّة الّتي تمثّلت بالحرّيّة والمساواة للآثينيين فقط ، أما الأرقّاء ^(٤) فقد كانت شروطهم الاجتماعيّة سيّئة جدّاً في أثينا ، وفي كلّ المدن اليونانيّة الأخرى ، وكذلك الغرباء ^(٥) .

(٣) قصّة الحضارة : ١٣٥/٦

(٤) وهم أرقّاء حرب ، أو أرقّاء بسبب حكم صادر في حقّهم ، أو بسبب ولادتهم .

(٥) وهم رجال أحرار من منشأ أجنبي ، ولم يكن لهم حق - شأن الأرقّاء - بإدارة شؤون الدّولة .

يقول الدكتور أحمد زكي : « عدُّوا أثينا البلد الديمقراطي - حكم الشعب بالشعب - الأول الذي عرفه التاريخ ، وكانت أثينا البلد مع هذا مدينة من مدائن الإغريق أكثر أهلها العبيد ، كانت ديمقراطيَّتهم ديمقراطية للقلَّة فيها من الأحرار ، وكانت ديمقراطيَّة محدودة مشروطة ، وهي ديمقراطيَّة ضاقت بالذي قال سقراط ، وبالذي صرَّح به من آراء ، فقضت عليه بالموت ، وهي الديمقراطيَّة الَّتِي قام فيها فيلسوفها الثاني أفلاطون ، يقول في جمهوريته : يحصر الحكم في فئة من خيار الناس ، هي وحدها الصَّالحة ، وهي وحدها المسؤولة ، وسائر الناس لها تبع » (٦) .

وأحصي سكَّان أثينا حوالي عام ٣١٠ ق.م ، فوجد فيها ٢١,٠٠٠ من المواطنين ، و ١٠,٠٠٠ من الغرباء المستوطنين ، و ٤٠٠,٠٠٠ من الأرقَّاء ، « فأما العدد الأخير فلا يمكن تصديقه ، ولكنَّا لانعرف شيئاً ينقضه ، وأكبر الظَّنُّ أنَّ عدد الأرقَّاء الذين كانوا يعملون في المزارع قد ازداد ، لأنَّ الضِّياع كانت آخذة في الاتِّساع ، ولأنَّ استغلالها بجهود العبيد ، تحت إشراف العبيد الذين يعملون في خدمة المالك البعيد عنها ، كان آخذاً في الازدياد » (٧) .

« مع تركُّز الثروة في أيدي عدد قليل جداً من الأفراد » (٨) ، فأين موقع (الإنسان والإنسانيَّة) في هذه الحضارة ؟

وأهمُّ المؤسسات الأثينيَّة :

(مجلس الشعب) : وكلُّ مواطن مسجَّل في سجل بلديَّة ما ، أتمَّ خدمته العسكريَّة (٩) ، وغير محكوم بأيِّ حكم ، هو عضو في هذا المجلس ، ولو توافرت الشُّروط

(٦) العرب والحضارة الحديثة ، ص ١٩

(٧) قصَّة الحضارة : ١٦/٨

(٨) قصَّة الحضارة : ١٩/٨ و ٢٩

(٩) الَّتِي كانت مدَّتْها سنتين .

المذكورة بثلاثين ألف ، أو أربعين ألف ، لذلك قيل عن أثينا : إنها جمهورية من الخطباء .

و (مجلس الشيوخ) : وهو مجلس الدولة ، والهيئة التي تمثل الشعب بصورة دائمة ، وتنفذ مشيئته ، وعدد أعضائه خمس مئة فقط ، يُنتخبون بالقرعة بعد ترشيحهم من بلدياتهم ، وكانوا في كل مساء ينتخبون من بينهم بالقرعة رئيساً يعطى مفاتيح الحزنة ، وخاتم الدولة وسجلاتها ، ليحكم أثينا يوماً واحداً^(١٠) .

إسبارطة :

لم يكن في إسبارطة أي نوع من أنواع الحياة الخاصة ، فقد كان الرجال طوال أوقاتهم في الثكنات ، حيث التبارين العسكرية ، وتناول الطعام مع الزملاء ، والمرأة ينظر إليها نظرة أم لزوج ، وينزع منها ولدها منذ حدثته ويسلم إلى الدولة لكي تجعل منه جندياً ، ومع وجود مساوئ لنظام إسبارطة التربوي ، فإنها كانت كفيلة بصنع رجال مملوئين شجاعة وحزماً .

وفي القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، توسعت هيئة الأرباب في اليونان ، وأصبح من آلهتهم المعترف بها أفروديت (عشتار) ، القادمة من سورية وقبرص ، وزميلها أدونيس ، وإيزيس القادمة من مصر ، وآمون الذي قدم من ليبيا .

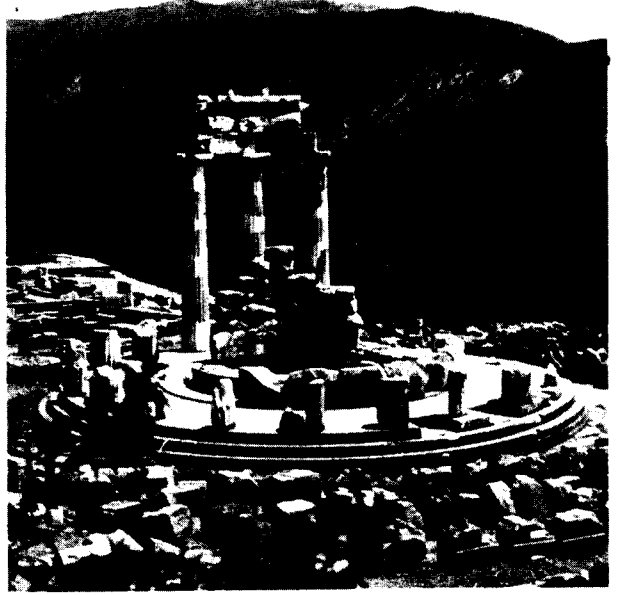
ولما قام بعض الفلاسفة والمفكرين ، في انتقاد المعتقدات الخرافية ، تدخلت الدولة ، وأجبرت بعضهم على التراجع ، وأعدمت آخرين ، لأنها لم تكن تفرق بين السياسة والديانة .

ومن أعلام الفلسفة - التي أرادت حل أحجية الوجود ومنشأ الأشياء - إمبيدوكل Empedocls ، الذي حاول تفسير جميع حوادث العالم ، بامتزاج العناصر .

(١٠) وهذا لا يعني عدم وجود حاكم أعلى (امبراطور) كبريكليس مثلاً .



• بريكس



• معبد أثينا في دلفي

☆ ☆ ☆

الحضارة الهلنستية

وحّد الإسكندر بلاد اليونان سنة ٣٣٦ ق.م ، فألغى جميع الحكومات الدكتاتورية ، وأقرّ أن تعيش كلُّ مدينة يونانية حرّة حسب قوانينها ، وأعربت جميع الممالك اليونانية - باستثناء إسبارطة - عن ولائها له ، ثمّ سار شرقاً إلى آسية فاتحاً ، لينال مجد إقامة دولة عالمية ، بلغة وثقافة واحدة ، فهزم داريوس ووصل السّند ، وأصبح إمبراطوراً يونانياً - فارسياً ، يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، أراد أن تمتزج ثقافتهم ودمائهم امتزاجاً سليماً ، ينهي النزاع الطّويل بين الشرق والغرب ، بذلك الاقتران السعيد بين حضارتيهما ، فشجع الآلاف من جنوده على أن

يَتَّخِذُوا لَهُمْ أَزْوَاجاً فَارِسِيَّاتٍ ، وَتَزَوَّجَ هُوَ فِي عَرَسٍ عَظِيمٍ^(١) اسْتَاتِيرَا Statira ابنة دارا الثالث ، وبهذا ربط بنفسه الأسرة المالكة الفارسية .

وفتح الإسكندر أراضي الجزيرة وفارس لليونانيين ، فخفف بهذا العمل ضغط السُّكَّانِ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ اليُونَانِيَّةِ ، وَقَتْلَ مِنْ حَدَّةِ حَرْبِ الطَّبَقَاتِ ، فَتَشَكَّلَتْ مَدَن (مَتَاغَرَقَة) فِي آسِيَة ، شَكَّلَتْ الْجَزْءَ الْمَامِ فِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ السَّلُوقِيَّةِ ٥ . Seleucid Empire

وَاتَّبَعَ الْإِسْكَانْدَرُ لِنَفْسِهِ حَيَاةً وَسْطاً بَيْنَ الْأَسَالِيبِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْمَقْدُونِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَكَانَ جُنُودُهُ يَرُونَ فِي هَذَا التَّغْيِيرِ اسْتِسْلَاماً مِنْهُ لِلشَّرْقِ ، وَكَانَ أَكْبَرَ شَاهِدٍ عَلَى ارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ وَفَكَرَ أَرْسَطُو^(٢) ، جَهْرَهُ بِالْوَهْيِيَّةِ ، وَبَعَثَ عَامَ ٣٢٤ ق.م رِسَالَةً إِلَى الْمَمَالِكِ الْيُونَانِيَّةِ يَبْلُغُهَا أَنَّهُ يَرْغَبُ فِي أَنْ يُعْتَرَفَ بِهِ ابْناً لِلإلهِ زِيُوس ، وَالإلهِ آمُون ، وَصَدَعَتْ ١٠ مَعْظَمُ الدُّوَلِ بِمَا أُمِرَتْ .

وَلَمَّا عَادَ الْإِسْكَانْدَرُ مِنَ السَّنْدِ إِلَى بَابِلَ ، انْغَمَسَ فِي الشَّرَابِ ، وَمَاتَ عَنْ عَمَرٍ قَدَرَهُ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، عَامَ ٣٢٣ ق.م ، وَلَمَّا سَأَلَهُ قَوَّادُهُ لِمَنْ يَتْرَكَ مَلِكُهُ ؟ أَجَابَهُمْ : « إِلَى أَعْظَمِكُمْ قُوَّةً » .

١٥ انْتِشَارُ الْهَلَنْسْتِيَّةِ^(٣) : [٣٢٢ - ١٤٦ ق.م] :

انْتَقَسَتْ إِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْإِسْكَانْدَرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَامَتْ ثَلَاثُ مَمَالِكٍ هِيَ : الدَّوْلَةُ السَّلُوقِيَّةُ ، أَسَّسَهَا الْقَائِدُ سَلُوقُسُ نِيكَاتُور (أَيِ الْمَظْفَرِ) ، عَاصِمَتُهَا أَنْطَاكِيَّةُ ، وَضَمَّتْ إِيرَانَ وَالْعِرَاقَ وَسُورِيَّةَ وَآسِيَةَ الصُّغْرَى ، وَدَوْلَةَ الْبَطَالْمَةِ (أَوِ الْبَطَالِسَةِ) ، أَسَّسَهَا الْقَائِدُ

(١) فِي مَدِينَةِ السُّوسِ ٣٢٤ ق.م .

(٢) الَّذِي أَمَرَهُ أَنْ يَعَامَلَ الْيُونَانِيِّينَ مَعَامَلَةَ الْأَحْرَارِ ، وَيَعَامَلَ الْبَرَابِرَةَ (الشُّعُوبَ غَيْرَ الْيُونَانِيَّةِ) مَعَامَلَةَ الْعَبِيدِ .

(٣) هِيلِين : إِحْدَى جَدَّاتِ الْيُونَانِ ، وَإِيَسْت : الشَّرْقِ .

بطلينوس الأول في مصر ، وعاصمتها الإسكندرية ، والدولة الأنتيغونية ، أسسها القائد أنتيغون الأول (الجبار الأعور) في مكدونية ، وعاصمتها بيلا Pella .

لقد كانت التجارة حياة الاقتصاد الهلنستي ، فهي التي أوجدت الثروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، وكان التجار مع تجارتهم ينشرون نزعتهم العالمية ، وقامت مصارف عامة ووطنية ، تودع فيها الحكومات أموالها ، ويديرها موظفون معينون من قبل الدولة ، لذلك قيل : « العصر الهلنستي لم يشهد سقوط الحضارة اليونانية ، بل شهد انتشارها »^(٤) .

« وتدين علوم اليونان الرياضية بازدهارها ، والقوة الدافعة لها إلى مصر ، ويدين الفلك اليوناني بازدهاره وقوته الدافعة إلى بابل ، ذلك أن استيلاء الإسكندر على بلاد الشرق ، قد أدى إلى عودة تبادل الأفكار ، وإلى اتساع ذلك التبادل الذي أعان منذ ثلاثة قرون قبل ذلك الوقت على ميلاد العلم اليوناني في أيونيا ، وفي وسعنا أن نعزو إلى هذا الاتصال الجديد بمصر والشرق الأدنى ، مانراه من تناقض ، فقد بلغ العلم اليوناني ذروته في العصر الهلنستي ، حيث كان الأدب اليوناني والفن اليوناني آخذين في الاضمحلال »^(٥) .

فمن علماء الهندسة في هذه الحضارة إقليدس Eucleides ، الذي علم في مدرسة الإسكندرية .

وأرخميدس Arkhimedes (ت ٢١٢ ق.م) الذي سافر إلى الإسكندرية ، حيث درس على خلفاء إقليدس ، وشغف بالرياضيات ، وتوازن السوائل ، وقوانين الرافعة .. وازدهرت في الحضارة الهلنستية فلسفتان :

(٤) قصة الحضارة : ٣٦/٨

(٥) قصة الحضارة : ١٤٩/٨

الأبيقوريّة : هدف الفلسفة عند أبيقور^(٦) Apikouros [٣٤١ - ٢٧٠ ق.م] تحرّر
النّاس من الخوف ، وليست وظيفتها تفسير العالم ، لأنّ الجزء لا يستطيع قطّ أن يفسّر
الكل ، إن وظيفتها أن تهدي إلى السّعادة ، وليس في الفلسفة إلاّ قضيتان اثنتان
مؤكّدتان ، وهما أنّ اللذّة خير ، وأنّ الألم شرّ ، ويقصد باللذّة تحرّر الجسم من الألم ،
والروح من الانزعاج . ٥

والفهم ليس من أسمى الفضائل فحسب ، بل إنّهُ أسمى السّعادة أيضاً ، لأنّه يعيننا
أكثر مما تعيننا أيّ موهبة أخرى من مواهبنا ، على تجنّب الألم والحزن ، والحكمة هي
وسيلتنا الوحيدة إلى الحرّيّة ، فهي التي تحرّرنا من رقّ الانفعالات ، ومن الخوف
والفزع .

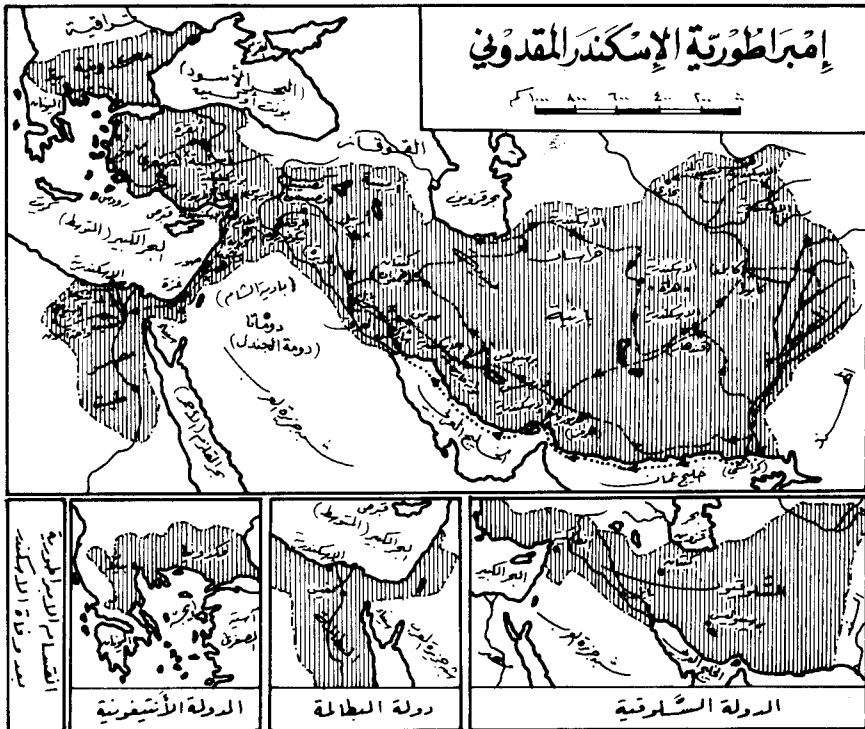
١٠ الرواقيّة : قضى زينون^(٧) Zenon كثيراً من السّنين تحت وصاية غيره من
الفلاسفة ، ثمّ أنشأ مدرسته الفلسفيّة الخاصّة به سنة ٣٠١ ق.م ، وبدأ يتحدث إلى طلابه
وهو رائج غاد تحت أروقة أعمدة استوا بوسيلي Stoa Poecile ، من أقواله الماثورة : « إنّنا
العيش ، هو العيش مع الطّبيعة » ، وواصل عمل زينون بعد وفاته أفلانيّوس الأسوسي
Cleantes of Assus ، ومن بعده أقريسيّوس الصّولي Chrysippus of Soli ، وكان
١٥ أقريسيّوس أكثر تلامذة المدرسة الرواقيّة علماً وإنتاجاً ، وهو الذي أكسبها صورتها
التّاريخيّة عندما قدّم شروحاً لها ، بلغت ٢٧٠ كتاباً .

والأبيقوريّون متفقون في أنّ المعرفة لا تنشأ إلاّ من الحواس ، والمقياس النهائي
للحقيقة في رأيهم ، هو المدركات الحسيّة ، التي تضطرّ العقل إلى قبولها ، بما فيها من
وضوح أو ثبات ، على أنّه ليس من الضّروري أن تؤدّي التّجارب إلى المعرفة ، لأنّ بين
٢٠ الحواس والعقل توجد العواطف أو الانفعالات ، وهذه قد تشوّه التّجارب فتجعلها

(٦) ولد أبيقور في جزيرة ساموس ٣٤١ ق.م .

(٧) كان زينون (ت حوالي ٢٦٤ ق.م) من أهل سينيوم إحدى مدائن قبرص ، وكانت المدينة فينيقيّة في
بعض أحيائها ، يونانيّة في أكثرها ، وكثيراً ما يقال إنّ زينون فينيقي ، ويقال أحياناً إنّهُ مصري .

أخطاء ، كما تشوّه الرّغبات فتجعلها رذائل ، والعقل هو أسمى ما أحرزه الإنسان ، وهو بذرة من بذور العقل الكلّي الذي وضع قواعد العالم ، والعالم كالإنسان مادّي بأكمله ، وإلهي بفطرته ، وما أشبه الإنسان بالكون الصّغير في الكون الكبير .
والرّواقي مواطن عالمي ، ولاؤه للإنسانيّة بأجمعها .



إنّ اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ، وعرض الشرق على اليونان الدّين ، وكانت الغلبة للدّين ، لأنّ الفلسفة كانت ترفاً يقدّم للأقليّة الضّئيلة ، أمّا الدّين ، فكان سلوى للكثيرين ، سهّل ذلك أنّ آلهة اليونان في جوهرها آلهة الشرق بأسماء أخرى .

وقد عبّل في انهيار اليونان : الجري وراء اللذات ، إذ تحلّت العلاقات الجنسيّة من القيود ، ممّا أنهنك حياة الرّاشدين ، كما تجاوز الفلاسفة قتل الأطفال بحجة أن يُخفّف ١٠

ذلك من ضغط السُّكَّان على موارد الرِّزْق ، فسبَّب ذلك قفر المدن وإجذاب الأرض .
في الوقت الَّذي انغمس فيه النَّاس في التَّرف والبخل والكسل والعزوف عن الزَّواج .

إنَّ التَّحلُّل من القيود الأخلاقيَّة ، والنَّزعة الأنانيَّة الفرديَّة عَجَلًا في انهيار
اليونان ، لقد صوِّر (منندر) في مسرحيَّاته الحياة الأثينيَّة بأنَّها حياة تدور حول
السِّفاسف والغواية والزَّنى ، فكان الانهيار طبيعيًّا .



الحَضَارَةُ الرُّومانيَّةُ

غزت إيطالية الشُّعوب الهندو- أُوريَّة في أواخر الألف الثَّاني ، وأوَّل الألف قبل
الميلاد ، واللِّيغوريُّون أقدم من عُرِفَ من شعوب إيطاليَّة ، فهم سكَّانها في العصر
الحجري الحديث ، عاشوا في صِقْلِيَّة ، وفي سهل اللاتِيوم ، وفي شمالي إيطالية ، ثُمَّ
تحرَّكت قبائل هندو- أُوريَّة على موجات إلى إيطالية ، فكان منها
اللاتينيُّون Latins ، والسَّبِيلِيُّون Sebilliens ، فدخلها عصر الحديد حوالي سنة
١٠٠٠ ق.م .

وجاءها الأتروسكيُّون في أوائل القرن الثَّامن قبل الميلاد ، جاؤوا من الشَّرق ،
فهم من أسيَّة الصُّغرى على الأرجح ، فسكنوا سهل اللاتِيوم ، وتأسَّست رومة سنة
٧٢٣ ق.م ، وحكوا اللاتِيوم ، وشمالي إيطالية قرناً ونصف القرن ، وكان عندهم لكلِّ
مدينة أتروسكيَّة عبادة خاصَّة ، وأكبر إله عندهم (فولتينا) ربُّ الأرباب ، ومن ألهتهم
أيضاً الثَّالوث المقدَّس تينيا (جوبيتر) ، وأوفي (جونون) ، ومنرفا ، وكانت هذه
الآلهة الثَّلاثة هي أصل الثَّالوث الَّذي أقام نهائياً على تلِّ الكابتول ، والَّذي عبده
الرُّومان فيما بعد .

وفي ممالك المدن الأتروسكيّة هذه ، كان المجتمع يتألف من طبقة الأرقاء ، ومن طبقة أرستقراطية (اللوكومون) تستثمر الأرقاء ، وتعيش من كدّهم .

وما كاد حكم الأتروسكيّين يزول من رومة ، حتّى اتّحد أهلها مع السّابينيّين وألّفوا حكومة أرستقراطيّة ، وكان ذلك سنة ٥٠٩ ق.م ، ولكن بقي تأثير الأتروسكيّين كبيراً في نشوء المنظّمات الرّومانيّة السّياسيّة الأولى ، منها : الملكيّة ، ومجلس الجماعات ، ومجلس الشيوخ ، والملكيّة كانت انتخاباً مدى الحياة ، ومجلس الجماعات يملك السّلطات التشريعيّة والقضائيّة ، أمّا مجلس الشيوخ فيتألف من رؤساء الأسر المتنفّذة الرّومانيّة والأتروسكيّة والسّابينيّة ، يختارهم الملك ، ويبلغ عددهم ثلاث مئة عضو ، ومهمّتهم مساعدة الملك في كلّ أمور الدّولة .

ووزّع سكّان رومة (الخواص ، والأتباع ، والعوام) بحسب ثرواتهم إلى خمس طبقات ، وعام ٤٤٥ ق.م ، نال العوام كافة حقوقهم المدنيّة ، وبدأ امتزاج الطبقتين : الخواص والعوام^(١) .

وكانت الحقوق الرّومانيّة الابتدائيّة في هذه الفترة ، إرشادات حقوقيّة عليها مسحة دينيّة ، مع تأثير الحقوق الإغريقيّة ، لاسيّما تشريع صولون ، خصوصاً في الأحكام المتعلّقة بالاحتفالات والمراسم والمواكب الجنائزيّة .

ومنذ حوالي ٢٧٠ ق.م حقّقت رومة الوحدة الإيطاليّة^(٢) ، وأصبح الجيش الرّوماني أداة عسكريّة قويّة ، وتكاملت معدّاته ، وتنوّعت خطّطه ، وازدهرت طبقة العوام ، وانحطّت طبقة الخواص ، وتشكّلت طبقة جديدة من النبلاء (العوام - الخواص) ، استلمت زمام الحكم في رومة .

(١) روما الشرق الرّوماني ، د . سليم عادل عبد الحق ، طبعة المديرية العامّة للآثار والمتاحف ، دمشق .

(٢) جعل الرّومان سنة ٧٥٣ ق.م بداية تاريخهم - وهي سنة بناء مدينة رومة - وقسموه إلى ثلاثة أقسام :

العهد الملكي : [٧٥٣ - ٥٠٩ ق.م] ، والعهد الجمهوري : [٥٠٩ - ٣٢ ق.م] ، وتمّت خلاله معظم

الفتوحات ، ثمّ العهد الإمبراطوري : [٣٢ ق.م - ٤٧٦ م] ، واستمرّت الدّولة الرّومانيّة البيزنطيّة في =

واستفادت إيطاليّة من هذه الوحدة ، وأعطتها ما كان يلزمها من تجهيزات اقتصادية ، فأنشأت شبكة طرق معبّدة كبيرة مرصوفة .

وما كاد ينتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، حتّى شهد العالم نهاية استقلال كثير من الشعوب ، فقد فتح الرومان مكدونية ، وزهقت حرّيّة اليونان سنة ١٤٦ ق.م ، وأصبحت قرطاجة^(٣) خراباً ينقع فيها اليوم في آخر عام ١٤٦ ق.م ، ولفظت إسبانية آخر أنفاسها بعد ثلاث عشرة سنة ، وأصبحت آسية الصغرى ، وإفريقية القرطاجيّة ولايات مسالمة في إمبراطوريّة رومة العالميّة ، ثمّ فتحت سوريّة عام ٦٤ ق.م ، وأنهى الرومان حكم السلوقيين ، ثمّ فتحت مصر .

لقد ضمنت الإمبراطوريّة الرومانيّة تجارة عالميّة في بحار آمنة ، وأنشأت شبكة من الطّرق الباقية حتّى يومنا هذا ، أضحت شرايين يجري فيها دم الحياة الجيّا^(٤)ش .

وأتخذ الرومان لأنفسهم الحضارة اليونانيّة ، لذلك قيل : « لم تمّت الحضارة اليونانيّة حين استولت رومة على بلاد اليونان ، بل عاشت بعد ذلك عدّة قرون »^(٥) ، فدوّا في حياتها ، ونشروها في كلّ الأصقاع التي وصلوا إليها ، فانطبعت بطابعهم ،

= القسطنطينيّة حتّى سنة ١٤٥٣ م ، حيث فتحها محمد الفاتح العثماني ، أمّا رومة فقد سقطت بيد القبائل الجرمانيّة البربريّة منذ سنة ٤٧٦ م .

(٣) قرطاجة (المدينة الجديدة Kartcha dsat) مدينة على شواطئ تونس الشماليّة ، وهي مدينة بوجودها للملاحين الفينيقيّين من أهل صور [٨١٤ - ٨١٣ ق.م] ، تمكن ملكها هانيبال من الانقضاض على رومة وأضحت بقبضة يده ، لكنّه بدل أن يحاصرها سنة ٢١٦ ق.م بعد انتصاره في معركة (الأوفيد Aufide) تريتّ وسار إلى جنوبي إيطاليا ، فتمكّنت رومة من لمّ شملها وغزو قرطاجة وهانيبال في إيطاليا ، لذلك قيل : « إنّ الآلهة لم تمنح كلّ مواهبها لرجل واحد ، إنّك يا هانيبال تعرف كيف تنال النصر ، ولكنك لاتعرف كيف تنفع به » .

(٤) قصّة الحضارة : ٤١٦/١١

(٥) قصّة الحضارة : ٢٠٥/٨

وأصبحت تدعى بالحضارة الإغريقية - الرومانية ، وإن أضاع الرومان الكثير الكثير من تراث اليونان ^(٦) .

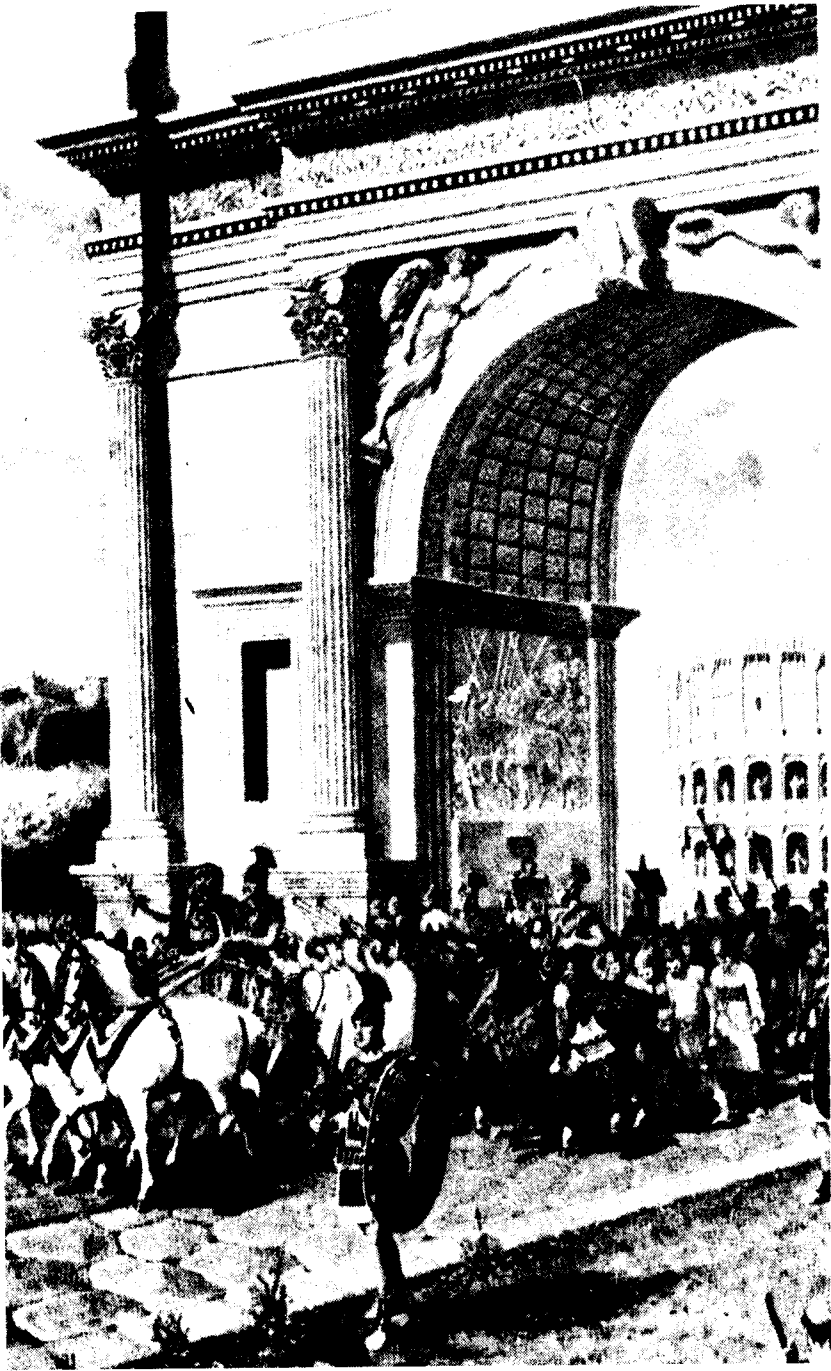
ولما احتكَّ الرومان بالشرق وامتزجوا بأُمنه ، أخذوا عنها الكثير من المعارف ، وتلقَّوا منها المسيحية ، فاعتنقوها بعد تردد ، « لقد تغلَّب الشرق على رومة في كلِّ شيء بعد احتكاكها به » .

لِمَ سقطت رومة ؟ ويجب وَل ديورانت : « والحضارة العظيمة لا يُقضى عليها من الخارج ، إلا بعد أن تقضي هي على نفسها من الداخل ، وشاهد ذلك أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة من شعب رومة نفسه ، أي في أخلاقها ، وفي النزاع بين طبقاتها ، وفي كساد تجارتها ، وفي حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفي ضرائبها الفادحة الخائفة ، وحروبها المهلكة » ^(٧) .

يضاف إلى ماسبق ، أنَّ الرومان ما عرفوا الديمقراطية في الحكم ، كانت الديمقراطية بينهم اسماً في عهد الجمهورية ، ثمَّ زال حتَّى اسمها في عهد الأباطرة ، ولقد جهد الروائيون الرومان في إبراز معنى المساواة بين النَّاس ، شيشرون Cicero ، سنكا Seneca ، جايوس Gaius ، وأضراب هؤلاء ، ولكن لم يكن لهذه الفئة من الخطباء والكتَّاب من أثر في أسلوب الحكم ، إنَّما كان أثرها في القانون من حيث تخفيفه وترقيعه ، لا سيما على العبيد الأرقاء .

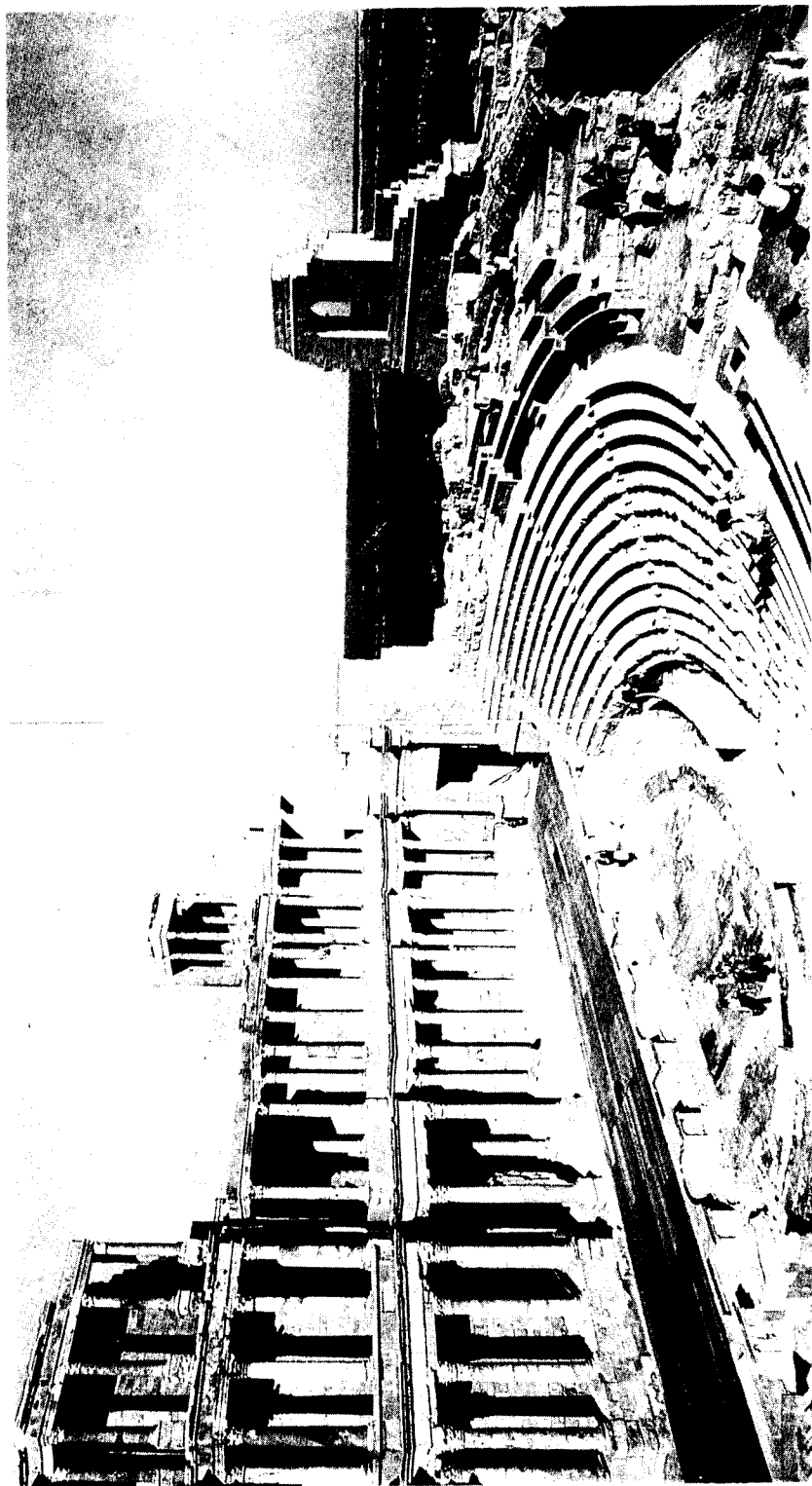
(٦) لم تخترع رومة - في فنِّ العمارة - الأقواس أو العقود أو القباب ، ولكنها استخدمتها بجرأة وفخامة ، ولم تخترع التماثيل ، ولكنها وهبتها قوَّة واقعية ، ولم تبتدع الفلسفة ، ولكن لكريشوس وسنكا هما اللذان وجدت فيهما الأبيقورية والرواقية صورتيهما النهائيَّتين المصقولتين أعظم صقل ..

(٧) قصة الحضارة : ٤٠٤/١١ ، وفي ص ٤٠٨ - من المرجع المذكور - يقول عظيم المؤرخين : إنَّ المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية ، لأنَّها حوَّلت أفكار النَّاس عن واجبات هذا العالم ، ووجهتهم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وإغرائهم بالجري وراء النجاة الفردية عن طريق الزُّهد والصَّلاة ، بدل السَّعي للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتَّفاني في الدِّفاع عنها .



(قوس النصر) عند الرومان

- 91 -



صبرآة (ليبيا) : المسرح الروماني

وجاءت المسيحية ، فحاولت ما حاولته الأجيال من قبل ومن بعد ، أن تجعل
الناس سواسية ، وحاولت أن ترفع حظ الفقير ، وأن تجعل الثراء أمانة في عنق صاحبه
يرعى فيه - وبه - صوالح الناس ، ولكن لم تلبث المسيحية أن صارت دين الرومان ،
ولم تلبث الكنيسة أن صار لها وجود ذاتي ، وصار لها استقلال ، وقوة ، وصار لها
ثروة ، وصار حكم ، وصاحب الحكم لا ينزل عن حكمه طوعاً ليقسمه بين الناس ^(٨) .



حَضَارَةُ تَشَاتَالِ هَوِيُوكِ

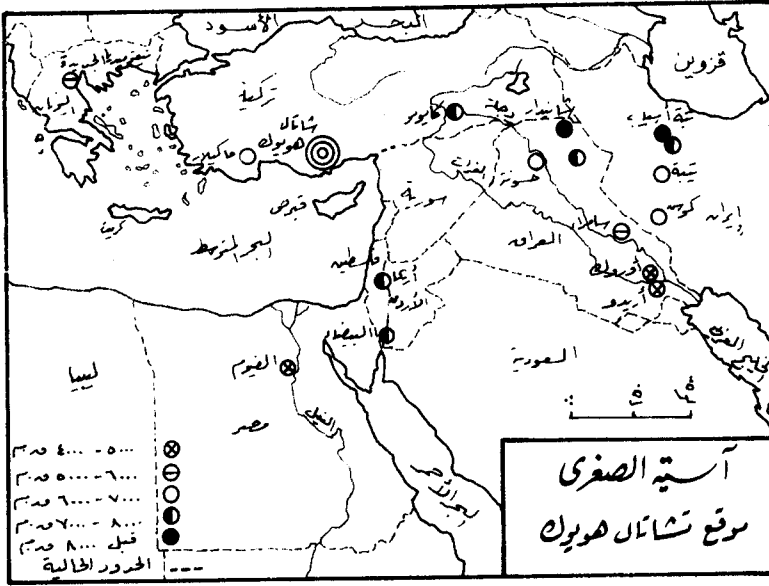
من أواخر المكتشفات الأثرية ، حضارة بدأت أعمال الحفر والتنقيب عنها في
الستينات ، حضارة ازدهرت في أواسط آسية الصغرى ، في سهول قونية أواسط
الأناضول ، بين الألف الثامن والألف السابع قبل الميلاد ، فهي بذلك حضارة سبقت
الحضارة السومرية ببلاد الرافدين بأكثر من ألفي سنة ، عرفت بحضارة تشاتال
هويوك ^(٩) ، التي أتقن أصحابها الزراعة ، وتكاثرت محاصيلهم حتى عمدوا إلى تصدير
الفائض منها إلى المدن القريبة والبعيدة .

لم تعرف (تشاتال هويوك) الكتابة ، ولا القراءة ، ولم تترك لنا نصوصاً مدونة ،
ودلت الفحوص (الراديو كربونية) على أن هذه المدينة عاشت بين : ٦٢٥٠ وبين
٥٤٠٠ ق.م ، ودلت فحوص جذوع الشجر ، على أنها ازدهرت بين : ٧٢٠٠
وبين ٧١٠٠ ق.م ، أو : ٦٤٠٠ - ٥٣٠٠ ق.م .

(٨) د . أحمد زكي في : (العرب والحضارة الحديثة) ، ص : ١٩ و ٢٠ ، وهكذا استخدمت رومة سلطانها في
كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ، كما كان جلد المواطن الروماني عملاً لا يميزه القانون ، أمّا إلقاء
الرقيق للوحوش ، فنظر تسرُّ له نفوس الرومان .

(٩) (العربي) العدد ٣٢٨ ، آذار ١٩٨٦ ، وبهجة المعرفة ، المجموعة الثانية : ٤٥/٣

وأعجب ما في مدينة تشاتال هويوك أنها بلا شوارع ، التصقت منازلها بعضها ببعض ، واندججت جدرانها ، فبدت أحيائها كتلاً كخلايا النحل ، ومنازلها بلا أبواب ، يدخلها أهلها من سطوحها بوساطة سلّم خشبي يتسلّقونه صعوداً إلى السطح ، ثمّ يهبطون إلى المنزل عليه ، أو على سلّم آخر ، ولعلّ الهدف الوقاية من الوحوش .



* آسية الصغرى ، وموقع تشاتال هويوك

ومّا يذكر أن مجتمع تشاتال هويوك سادته النساء لا الرجال .

وكانت بيوتهم من الطين المشوي - فعرفوا بذلك الفخار والآجر والخزف - ولها مزاريب من الجصّ ، تثبّت على جدران المنازل من الخارج لتصريف مياه الأمطار ، وللمطابخ مداخن ، وطريقتهن في معالجة القمامة والفضلات تدلّ على وعي صحيّ ، فقد اتخذوا من ساحة المنزل المكشوفة والمعرّضة للهواء ولأشعة الشمس مرحاضاً ، وحرصوا على تغطية الفضلات برماد الخشب ، حتّى موتاهم ألقيت جثثهم إلى النُسور خارج

المنازل ، لتجرد العظام من كل ما التصق بها من لحم وجلد .. حتى إذا أصبحت نظيفة ، لا تسبب التلوث ، أخذ أهل تشاتال هويوك تلك العظام ، ودفنوها على عمق ١,٥ - ١,٨ متراً .

وكانت لهم معابد كثيرة ، جدرانها حفّت بالرُسوم والزخارف ، ويمثّل الثور مكاناً مرموقاً بين موضوعات تلك الرُسوم واللّوحات ، وقد اكتفوا به رمزاً للذكورة ، التي أحجموا عن تصويرها على هيئة رجل ، هذا بخلاف الأنوثة التي لم يترددوا في تصويرها ، فالأهمية عندهم إنّما تتمثّل في المرأة لا في الرجل .

من أين جاء أهل تشاتال هويوك ؟ فهم ليسوا من أهل المنطقة الأصلاء .

وأين ذهبوا حوالي سنة ٥٤٠٠ ق.م عندما هجروا مدينتهم ؟ تراهم رحلوا إلى بلاد الرافدين ، حيث ازدهرت بعد ذلك حضارة السومريين ؟!!

☆ ☆ ☆

الحثيون

الحثيون من الشعوب الهند - أوروبية ، جاؤوا آسية الصغرى حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م من روسية الجنوبية ، أو من شرقي أوربة ، واستقروا عند منابع دجلة والفرات ، عاصمتهم بوغازكوي (حاثوشا)^(١) .

استطاع حاثوشيا الأول في أواسط القرن السابع عشر قبل الميلاد ، توحيد عدد من الدويلات .

وفي أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد احتلّ مورشيلي الأول سورية ، وبابل^(٢) .

(١) انظر موقع بوغازكوي على المصور السابق ، في حضارة تشاتال هويوك .

(٢) ويبدو أنّ ميتاني - وهي دولة أسسها الحوريون في شمالي ما بين النهرين - هي التي أوقفت أيّ تقدّم إضافي للحثيين .

ودمر شوبيلوليوما^(٣) سنة ١٣٨٠ ق.م ، ميتاني والدويلات السورّية القديمة التابعة لها ، وعند قادش^(٤) ، التقى الجيشان المصري والحثّي على نهر العاصي دون حسم ، وفي عام ١٢٨٤ ق.م وقّعوا معاهدة صداقة وعدم اعتداء في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

٥ وفي أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، تدفّق غزاة هند - أوربيّون (شعوب البحر) على المنطقة ، قادمين من أوربة ، ومع أنّ الحثّيين فقدوا وطنهم ، فقد بقيت حضارتهم على قيد الحياة في شمالي سورية .

١٠ عرف الحثّيون خطأً تصويريّاً ، يكتبون به سطرّاً من الشمال إلى اليمين ، ثمّ يكتبون السّطرّ الذي يليه من اليمين إلى الشمال ، ثمّ من الشمال إلى اليمين وهكذا دواليك ، وأخذوا الخطّ المسماري عن البابليّين ، وعلموا أهل كريت صنع الألواح الطينيّة ليكتبوا عليها .

١٥ اختفى الحثّيون من صفحة التّاريخ ، اختفاءً يكاد يشبه في غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، لقد فاقوا غيرهم من الشعوب بمعرفة الحديد واستخدامه ، ثمّ أضحت هذه الصّناعة بيد منافسيهم ، فسقطت كركيش^(٥) آخر عواصمهم في يد الآشوريّين سنة ٧١٧ ق.م ، كما ظهرت في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، قوّة جديدة في آسية الصّغرى (الفريجيّون) ، عاصمتهم (أنقورة)^(٦) ، وانتهى سلطان الفريجيّين ، بقيام مملكة ليديا ، الّتي كانت سرديس عاصمة لها .



(٣) شوبيلوليوما ت ١٣٤٦ ق.م .

(٤) قادش : تقع قرب نهر العاصي جنوبي حمص .

(٥) كركيش على نهر الفرات ، وهي جرابلس حالياً قرب الحدود السورّية - التركيّة .

(٦) أنقورة (أنقرة حالياً) ، انظر المصوّر السّابق في حضارة تشاتال هويوك .

حَضَارَةُ أَمْرِيكَةِ الْوَسْطَى وَالْجَنْوَبِيَّةِ

ظهرت أوَّل الحضارات في أَمْرِيكَةِ بَيْن ٢٢٠٠ ق.م و ٣٠٠ م ، وذلك في كُلِّ من المكسيك^(١) والبيرو ، ومنذ ١٥٠٠ ق.م كانت القرى الزراعيَّة في أَمْرِيكَةِ الْوَسْطَى وَالْجَنْوَبِيَّةِ آخِذَةً فِي النُّمُو ، وَفِي عَام ١٢٠٠ ق.م تَشَكَّلَ أوَّل مَجْتَمَعٍ مَعْقَّدٍ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِي ، وَهُوَ مَجْتَمَعُ حَضَارَةِ الْأَوَّلِكِ فِي الْمُنْخَفِضَاتِ الْاِسْتَوَائِيَّةِ لِسَاحِلِ خَلِيجِ الْمَكْسِيكِ ، وَكَانَ أوَّلَ مَرْكَزٍ كَبِيرٍ لِمُنَاسِبَاتِ الرَّسْمِيَّةِ هُوَ تِنُوخْتِيْتِلَان (سَان لُورَنْزُو) ، حَيْثُ تَمَّ تَحْوِيلُ شَكْلِ جَرَفٍ طَبِيعِيٍّ بِأَكْمَلِهِ بِنَاءَ مَدَارِجٍ وَمَنْصَّاتٍ فِيهِ^(٢) .

دَلَّتْ عَمَلِيَّاتُ التَّنْقِيبِ عَلَى وَجُودِ يَدٍ عَامِلَةٍ مُنَظَّمَةٍ ، وَحُكُومَةٍ قَوِيَّةٍ ، شَمِلَتْ بَرَايَتَهَا النَّحَاتِينَ وَالْعَامِلِينَ فِي صَقْلِ الْحَجَارَةِ ، وَالْخَرَّافِينَ ، كَمَا عَثِرَ عَلَى هَرَمٍ كَبِيرٍ .

أَمَّا فِي الْبِيرُو فَقَدْ وَجِدَ الْفَخَّارُ ، وَعَرِفَ النَّسِيجُ ، وَالْمَصْنُوعَاتُ الذَّهَبِيَّةُ الدَّقِيقَةُ الصُّنْعِ .

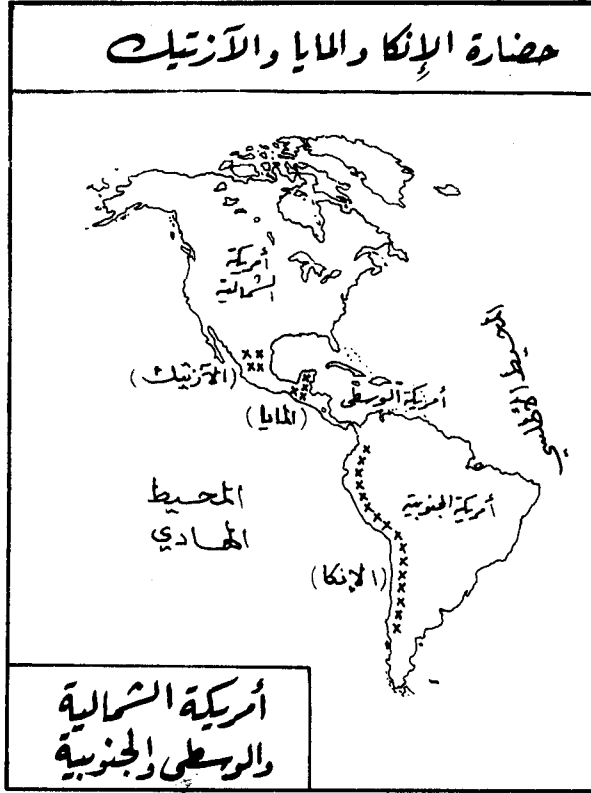
وَمِنْذُ حَوَالِي سَنَةِ ٥٠٠ ق.م ، أَخَذَتْ تَتَطَوَّرُ الْحَضَارَةُ الزَّابُوتِكِيَّةُ بِالتَّسَارِعِ فِي وَادِي أُوكَسَاكَا فِي جَنُوبِي الْمَكْسِيكِ ، فَقَدْ وَجِدَتْ أوَّلَ نَقُوشٍ ضَخْمَةٍ بِالْخَطِّ التَّصْوِيرِيِّ الرَّمْزِيِّ فِي الْعَالَمِ الْجَدِيدِ ، فِي الْمَرْكَزِ الْهَامِّ الْوَاقِعِ عَلَى هَضْبَةٍ (مونت البان) ، وَبِظُهُورِ شَعْبِ الْمَايَا سَنَةَ ٣٠٠ م تَبَدُّأَ الْحَقْبَةُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ .

الْأَزْتِكُ :

قَامَتِ حَضَارَةُ الْأَزْتِكِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ ، فِي شَمَالِ غَرْبِي الْمَكْسِيكِ ، عَاصِمَتُهَا (تِينُو كِتِيْتِلَان) عَلَى ضِفَافِ بَحِيرَةٍ تَكْسُوكُو الضَّحْلَةِ ، كَانَ حَكْمُهَا مَلَكِيًّا ، وَعَبَدَ الشَّعْبُ إِلَهَةً كَثِيرَةً ، كَالِهَ الْمَطَرِ (تِلَالُوك) ، وَإِلَهَ الْأَزْهَارِ وَالْأَفْرَاحِ وَالْوَلَاءِ (زُوخْشِيْبِلِي) ، وَإِلَهَ الْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ (تَشْلَتَشِيُوْهْتِلِكِيُو Chalcuihuatl) ..

(١) عُرِفَتْ بِالْحَضَارَةِ التَّكْوِينِيَّةِ ، أَوْ مَقْبَلِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ .

(٢) بَهْجَةُ الْمَعْرِفَةِ ، الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَّةُ : ٨٧/٣



وضع نزا هو الكواتل Nezahualcoatl (أي الذئب الجائع) مجموعة من القوانين ،
 عُدَّت نموذجاً للتشريع ، وأنشئت المدارس لدراسة الشعر والموسيقى والتصوير والفلك .
 وفي عهود الأزتك المتأخرة ظهرت عبادة الشمس ، ذات الشأن العظيم ، لأنها
 صارت مقترنة بالحرب ، والشمس هي إله الخصب ، ومنظمة التقاويم ، بحاجة إلى دم
 بشري ليعاونها على قيامها بعملها اليومي .

هذا ، وكان ضحايا الحروب أو القرابين يمضون مباشرة إلى فردوس إله الشمس في

الشرق فيرافقونه (وكان إله الشمس هذا قد أصبح هو وويتزلبختلي شيئاً واحداً) إلى سمت السماء ، حيث تنتهي مهمتهم ، ثم يعودون أدراجهم إلى الأرض ، على هيئة طيور ذوات ريش براق ، ثم ترافق الشمس من سمت حتى الغروب أرواح النساء ، اللواتي يتوفين في أثناء الوضع (فقد كان موتهن على هذا النحو يعدُّ من قبيل موت الأبطال المحاربين) ، ثم يعدن فيظهرن على هيئة فراش ، أمّا في الليل ، فإنه الشمس يعبر العالم السفلي ، ويضيئ النور على المنكودي الحظ ، الذين غادروا هذا العالم من غير أن ينعموا بطقوس واحتفالات خاصة تقام من أجلهم ، فهذا العالم السفلي ، وجهنم هذه كانت يحكمها إله الموت المسّى (نكتلانتكوهتلي Nictlantecuhltli) ، ومع ذلك فثمَّ جنّة أخرى هي جنّة إله المطر تلالوك ، الذي كان من عصر ما قبل الأزتك ، وهي جنّة خاصة بمن توفّوا غرقاً أو بأمراض الاستسقاء .

١٠



* قناع الإله أكسيب إله النبات



* أطلال (ماتشو بيتشو) في البيرو

فأمّا مَنْ قُتِلوا في الحروب ، أو راحوا ضحايا القرايين ، فكانت تحرق جثثهم ، وأمّا من ماتوا غرقى ، أو بداء الاستسقاء فكانوا يدفنون ..

وكانت كلُّ قبائل المكسيك تشارك في عبادة إله واحد ، وذلك الإله هو إله الجو

(وإله الليل أيضاً) : تزكاتلبوكا Tezcatelpoca ، مالك ناصية السّحر ، الإله الخالق الذي يجازي المسيئين بما عملوا .

ومّا يعدُّ في نظرنا تضحية شنيعة كل الشّناعة ، تلك التّضحية المكسيكيّة الّتي كانت تجري في العيد العظيم ، الّذي يقام احتفالاً بالإله اكسيب^(٣) Xipe الذي لم يكن ضمن آلهة المكسيك ، بل جيء به من آلهة القبائل الضّاربة غربي الوادي ، وكانت الضّحايا الّتي يتقرّبون بها إليه أيّام عيده ، تؤخذ من أسرى الحرب ، وكانت قلوبهم تنتزع على حجر التّضحية ، ثمّ تسلخ جلودهم ليرتديها أسروهم طيلة انعقاد الاحتفال ، فإذا انتهى العيد - وكان يستمرّ عدّة أيّام - يخلع لابسو الجلود جلودهم جماعة في وقت واحد ، ثمّ تدفن هذه الجلود في حفرة بظاهر المدينة ، ويبدولنا هذا العيد لأوّل وهلة أمراً شنيعاً تعافه النّفس ، وتنفر منه كل النّفور ، إلّا أن معناه الخفي الباطن يخفّف من شناعة ذلك المظهر الّذي يبدو فيه ، فقد كان الإله اكسيب هذا إله الزّرع ، ومن بين آلهة الخصب ، فكان المشتركون في الاحتفال ، وهم يلبسون جلود هؤلاء الضّحايا البشريّة ، يمثّلون الزّرع الشتويّة ، الّتي ماتت في ظاهر أمرها ، ولكنها لاتزال تنطوي على جرثومة الحياة ، وكان خلع الأسرى ما عليهم من جلود ، يعدّ بمثابة طقس سحري ، يعتقدون أنّه يمثّل عودة الحياة إلى ذلك النّبات الّذي يعيشون عليه ، بل إنّهم ليعين على هذه العودة نفسها .

وكانت الحاجة المتزايدة إلى الضّحايا البشريّة ذات أثر بارز في نفسيّة المكسيك ، وفي سياستهم كذلك ، فقد كانت غالبية الضّحايا من أسرى الحرب ، وكان الموت على حجر القربان هو مودة الرّجل المحارب ، ويكفل له أن يدخل مباشرة الجنة الّتي يرغبها كل الرّغبة ، هذا ، وقد وردت في المخطوطات أمثلة كثيرة لمحاربين طلبوا أن يقدّموا ضحايا مخافة أن يموتوا حتف أنوفهم ، فيكون مصيرهم الدّهاب إلى ذلك العالم السفلي الّذي لا لون له ، والّذي يحكمه ميكتلاتنكوهتلي ، ولهذا السّبب كانت الحرب في أيّام

(٣) الاحتفال بالإله اكسيب Xipe في شهر تلاكاسيتواتزاتل : Tlalaxitewalzatle .

الأزتک من مسائل الطُقوس البالغة الأهمیّة ، فلم یکن همّ المحارب الأوّل أن یقضي على عدوّه ، بل کان جُلُّهم موجّهاً إلى القبض علیه حیّاً ، وأخذهُ أسیراً حتّى یقدّمهُ ضحیّةً للآلهة وقرباناً ، وکان ترقيّ المحارب فی شتّى معارج الرُتب یقوم على هذا الأساس ، وكذلك أدّت بالأزتک حاجتهم الماسّة إلى الضّحايا الذّین یقدّمون قربانین للآلهة .
 ألاّ یشرّفوا على القبائل الّتی أخضعوها ، والّتی تدفع لهم الجزیة ، سوى إشراف مهلهل ٥
 ضعیف ، حتّى بلغ بهم الأمر أنّهم کادوا یشجّعونهم على الثّورة ، لأنّ الحرب عندهم أصبحت ضرورة دینیّة ، واستقرار السّلام داخل ما یسمّونه إمبراطوریتهم ، کارثة دینیّة مفجعة ، وکم من مرّة کان هذا سبباً فی نجاة الغزاة الفاتحین الإسبان ، لأنّ الأزتک لم یكونوا یحاربون لیقتلوا ، بل لیأسروا^(٤) .

١٠ فی شباط (فبرایر) سنة ١٥١٩ م أبحر الإسبانی کورتیز مع نحو أربع مئة أوربی ، ومئتين من السّکّان المحلّیین ، وأقلّ من عشرين جواداً ومدفعاً ، وأعلم إمبراطور الأزتک مونتیزوما موتسکوزوما Montezuma Motzcuozama ، أنّه قاصد إلى زیارته رسولاً من ملک شدید البأس وراء البحر ، وأصبح بعدها الإمبراطور کالأسیر فی أيدي الإسبان الذّین تولّوا الحکم باسمه ، لیشبعوا بعدها تعطّشهم إلى ذهب هذه القارّة البکر وخیراتها .

١٥ کما قامت فی أمریکة الوسطی حضارة المایا^(٥) ، الّتی تأسّست سنة ٣٠٠ م ، واندثرت بسبب الکوارث الطّبیعیّة سنة ٩٠٠ م ، ثمّ عادت إلى الظّهور فی القرن العاشر المیلادی ، وبقيت مجهولة حتّى اکشفت مصادفة سنة ١٨٤٠ م .

امتازت هذه الحضارة بوجود كتابة تصویریّة ، مع ازدهار الفلک وفنّ العمارة ، وبخاصّة بناء الأهرامات .

(٤) المعلومات الّتی وردت عن ديانة الأزتک : (تاریخ العالم) ٩٤/٦ وما بعدها ، بحث : أمریکة فی عهد الأرتیک والإنکا (وصف الحضارتین الرّاقیتین العجیبَتین اللّتين قضی علیهما الفاتحون الإسبان) ، بقلم : توماس ا. جویس .

(٥) فی غواتمالا وهندوراس والسّلفادور حالياً ، عاصمتها (ششن إنزا) .

حضارة الإنكا (Inca) :

الإنكا إمبراطورية طولها ٢٧٠٠ ميل ، شملت ٣٦ درجة من درجات العرض ، على الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية (بيرو وشيلي حالياً) ، في جبال الأنديز^(٦) ، قامت سنة ١٢٠٠ م ، وقضى عليها المستعمرون الأوربيون سنة ١٥٣٣ م .

لم يعرف الإنكا أي نوع من أنواع الكتابة ، حتى ولا التصويري منها .
وكانت الشمس إلههم القبلي . وجيشهم كفؤاً ، حسن العدة .

وكان النظام الذي وُضع للسيطرة على هذه الإمبراطورية ، التي تمثل شريطاً طويلاً جداً من الأرض ، شكلاً صارماً من أشكال الاشتراكية الحكومية ، يقوم على الاعتقاد بأن الحاكم الإنكوي إله على الأرض ، تتسم أوامره من أجل ذلك بالتأييد الإلهي . ١٠

وحضارة الإنكا حضارة زراعية^(٧) ، قسّمت الأراضي فيها أقساماً ثلاثة ، تيسيراً للأعمال الزراعية : أراضي المعبد ، والأراضي العامة ، والأراضي الملكية .
ومن أراضي المعبد حصلوا على ما يلزم للإنفاق على كهنة الشمس .
أما الأراضي العامة ، فكانت تقسم بين رؤساء الأسر ، كل أسرة بحسب عدد أفرادها . ١٥

على حين كانت الأراضي الملكية مصدر إيرادات الدولة ، وأقاموا نظاماً معقداً متدرجاً من الموظفين للإشراف على ضبط سير العمل الجماعي ، فاستطاع هؤلاء الموظفون بإحصاء صحيح شامل لجميع السكان أن يقدّروا مدى ما في كل إقليم من

(٦) في بيرو وبوليفيا وشيلي ، عاصمتها (كوزكو) .

(٧) تاريخ شيلي ، تأليف : إ. ف. فرغارا Vergara ، ص ٤٥ ، ترجمة ماري يني عطا الله ، دار الرّيحاني - بيروت ، ط ١ ، سنة ١٩٥٧ م .

الإمكانات البشرية ، ومكنتهم اللوائح الصارمة المعمول بها من أن يوزعوا العمال توزيعاً تراعى فيه القدرة الإنتاجية لكل إقليم .

وكان هذا النظام الحكومي فضلاً عما يشتمل عليه من طائفة من الموظفين المشرفين على أعمال الدولة يتطلب العمل على تيسير المواصلات ، وكان يتطلب معاملة الناس في جملتهم معاملة صارمة ، أمّا من حيث تسهيل المواصلات ، فقد كان الإنكا بارعين كلّ البراعة في إنشاء الطرق في أقاليم يعسر العمل فيها ، ويشقّ كلّ المشقة ، وأقاموا على طول هذه الطرق سلسلة من بيوت للاستراحة ، يقطنها عداؤون رسميون ، يسمونهم تشاسكي Chasqui ، يعملون في نقل الرسائل الشفهية من نقطة إلى أخرى ، أو يسلمون حزمة الجبال المعقودة من محطة إلى محطة ، وتمثّل هذه الجبال رسائل رسمية ، هذا ، وقد استشارت الطرق المنشأة في الجبال بنوع خاص إعجاب المستعمرين الأوروبيين ، ١٠ فكتب كيزا دوليون Qesa de Leon يقول^(٨) :

ومّا راقتني ، وأعجبت به كلّ الإعجاب ، وأنا أتأمل شؤون هذه البلاد وأكتب عنها ، أن أفكر في الطرق الرائعة التي تشاهدها الآن ، فكم رجلاً يكفي لإنجازها ياترى ؟ وبأيّ أدوات وآلات استطاعوا أن يسوّوا الجبال ، ويخرقوا الصخور حتّى يجعلوا الطرق بهذا العرض ، وهذه الصلاحية ، فبعضها كان يمتدّ أكثر من ألف ومئة ١٥ فرسخ ، على جانب هوى سحيقة مخيفة تسبّب لمن يطلّ عليها الدوار ، إنّ بصر الإنسان ليعجز أن يمتدّ إلى قرارها ، وكان لابدّ لهم في بعض المواضع أن يشقّوا لأنفسهم منفذاً ينقرونها في الصخور الجلاميد ، ليحصلوا على الاتّساع المطلوب ، وقد فعلوا ذلك كلّه بالمعول والنار ليس إلّا ، وكان المرتقى عسيراً وعراً في بعض المواضع ، وعالياً علواً استلزم حفر درج من أسفل ، وكانت درع واسعة تسوّى من حين إلى حين لتتخذ أماكن ٢٠ للراحة ، وكان في مواضع أخرى أكوام عالية من الثلج أشد من هذه الخطورة .. فحيث

(٨) تاريخ العالم : ١١٦/٦

كان الثلج يعوق المرور ، وحيث كانت الغابات ، أو الأرض المفككة كان لا مناص لهم من تهيئة الطريق ورصفه بالأحجار .

وقد يَسَّر لهم نظام العدائين أن يرسلوا أيَّة رسالة^(٩) مسافة ألف ميل في اتجاه مستقيم مجتازين أقاليم جبليَّة في ثمانية أيَّام .

هـ هذا وكانت صيانة نظام المواصلات ، ونظام توزيع الغلات ، تقتضي الإشراف المطلق على الأهالي ، وكان هذا الإشراف موجوداً فعلاً ، ولم يكن لأحد من عامَّة الشعب أن يرتفع عن مستوى الطَّبقة الَّتِي وُلِد فيها ، ولا أن ينتقل من قريته ، أو يتزوَّج امرأة من غير إقليه ، ولا يستثنى من هذا التَّعميم إلَّا أمر واحد تمارسه الدَّولة بحكمتها ، فكان نظام الحكم كُلُّه يقوم على أساس نزول كل إنسان نزولاً تاماً عن فرديته ١٠ استجابة لحاجة الدَّولة .

وكان الإنكا يبدون ساحة وسعة أفق في الدِّين ، فلم يحاولوا أن يقضوا على العبادات المحليَّة ، ولم يطالبوا بأكثر من أن يكون لعبادة الشَّمس - إلههم القبلي - الأوليَّة الرسميَّة .

وكما قامت ديانة بيرو على عبادة جَدِّ قبلي ، فقد تضمَّنت بطبيعة الحال ضرورة ١٥ احترام الموتي .

وكان حكم الإنكا من أكبر أسباب النهوض بالفنون والحرف ، وذلك بفضل عنايته بتوزيع العمل توزيعاً متناسباً لا تطفئ فيه ناحية على أخرى ، وكان الإنكا أفذاذاً لا مثيل لهم في صناعة النسيج من سجدف ، وقماش ، وتطريز ، حتى قيل بحق : لوأنَّ

(٩) لم يستحدث الإنكا أي شكل من أشكال الكتابة كما استحدث سكَّان أمريكا الوسطى ، ولكنهم كانوا يستعملون مجموعات منتظمة من حبال معقودة ، يسمونها كويبو ، لتكون شبه مذكرات فنيَّة للرُّسائل والحسابات ، (تاريخ العالم : ١٠٤/٦) ، وهناك رأي أنَّهم عرفوا الهيروغليفية (عالم الفكر ، المجلد ١٥ ، العدد ٣ لعام ١٩٨٤ ، ٤٨) ، وهذا الرَّأي يُشكُّ بصحَّته .

صناعة النسيج زالت كلها من الدنيا القديمة لأمكن استعادتها من المنسوجات التي وُجدت في مقابر بيرو ، كذلك ازدهرت صناعة الخزف عندهم مثل هذا الازدهار ، إلا أن فخار الإنكا كان لاشكّ دون فخار ما قبل التاريخ ، من حيث صفاته الفنيّة ، وإن فاقه من حيث الصناعة .

(باتشاكوتك) مغير العالم ، الاسم الذي أُطلق على الإمبراطور يوبانكوي Yuponqui ، الذي حوّل مملكة كوزكو Cuzco في القرن الخامس عشر إلى إمبراطوريّة الإنكا الواسعة الممتدّة على طول المحيط الهادي ، وهي التي وجدها بيزارو قائمة ، عندما وصل بيرو لأوّل مرّة عام ١٥٢٧ م .



* كويبو من
الإنكا (بيرو)



* ملابس (الشّجعان) في بيرو
رسم لرجلين يصطرغان



* محاربون من الإنكا



* رقص طقسي يقوم به رجال يمثلون آجداد عشائريهم

العلاقة بين حضارة العالم القديم وبين حضارة العالم الجديد :

عندما قام ثور هيرداهل Thor Heyerdahl في أيار (مايو) ١٩٧٠ م ، بقاربه المصنوع من البردي ، والذي كان يزن حوالي ١٥ طناً ، برحلته عبر المحيط الأطلسي ، لفت نظر المهتمين بالدراسات عن أصل سكّان العالم الجديد ، واعتقد بعض العلماء في إمكانية قيام رحلات بين العالم القديم وبين العالم الجديد ، وحاول هيرداهل أن يثبت إمكانية قيام المصريين القدماء منذ عام ٣٠٠٠ ق.م بالوصول إلى أمريكا ، وكان لهم أثر في حضاري المايا والإنكا ، والسؤال المطروح : أحقاً ، كانت هنالك صلة بين حضارات العالم القديم وبين حضارات العالم الجديد ؟!

١٠ أم أنّ هذه الحضارات - في العالم الجديد - نشأت في عزلة ؟!

أم أنّها كانت على اتصال بأقوام مجهولين^(١٠) ؟

يرى بعض العلماء - بعد أن رفضوا نظرية الاتصال عن طريق البحر بالعالم الجديد - أنّ الإنسان مبدع في طبيعته ، ميّال إلى الاختراع ليسد حاجاته ، فما تمّ الكشف

(١٠) عالم الفكر ، المجلد ١٥ ، العدد ٣ لعام ١٩٨٤ ، مقالة الأستاذ عبد الحميد زايد : متى وأين بدأت الحضارة ؟

عنه في إحدى نِصْفَي الكرة الأرضيّة في عصر ما قبل التّاريخ ، يمكن الكشف عنه مستقلاً عن النّصف الآخر ، ليؤدّي الحاجات ذاتها .

ولكنّ هناك تشابه بين حضارة مصر القديمة ، مثل : عبادة الشّمس ، والخطّ الهيروغليفي ، والتّحنيط ، والوصفات الطّبيّة ، وطريقة التّرقيم ، وإدراك الفرق بين النّجوم والكواكب ، والتّقويم الدّقيق ، والتّنبؤ بدقّة بأوقات كسوف الشّمس .. وبين ه حضارات العالم الجديد ، وأهرامات المكسيك ، الّتي قام بتنفيذها مجموعات ضخمة من العمال ، عثّر فيها على حجرة تحت الأرض ، خاصّة بالدّفن ، ويصل إليها الإنسان عن طريق ممرّات خادعة ، مثلما فعل المصريّون القدماء في تضليل لصوص المقابر ، كما زوّدت الجثّة بالحلي .

هذا ، وسكّان العالم الجديد قبل اكتشافه ، مجموعات مختلفة لا توجد بينها قرابة ، ١٠ وكان بأمريكا الشّماليّة أكثر من خمسين لغة ، حينما وصلها الأوربيّون ، وقيل إنّ هؤلاء السكّان جاؤوا من مستعمرات من القارة الغارقة العجيبة في المحيط الأطلسي ، وهذا رأي أسطوري ، لأنّ الجيولوجيين يقولون : إنّ لا توجد قارّة غارقة مفقودة في المحيط الأطلسي ، على الأقلّ ليس في سّنة الملايين سنة الأخيرة .

وعديدة هي تلك الأشياء الّتي عُثِرَ عليها في العالم الجديد ، وتشبه إلى حدّ كبير ١٥ تلك الّتي وجدت في مراكز الحضارات بجنوب شرقي آسية ، فالإله شاك مول Chac-Mool ، عُرف في الهند ، وفي جنوب شرقي آسية منذ الأيّام الأولى لبوذا ، ومكتشفات مدينة Argkor Vat في كمبودية أكثر شبهاً ببدن المايا في أيّ شيء عُثِرَ عليه في العالم القديم .

كما استخدمت الجماعات السّابقة للإنكا في بيرو ، مجاري المياه فوق القناطر ، ٢٠ والقنوات في الزّراعة ، كما أنّ عمليّات قطع الحجارة من المحاجر والبناء تشبه كثيراً ماسلكه المصريّون القدماء .

واعتمد الإنكا في التراسل والتسجيلات على نظام مركّب من حبال معقّدة ، أو ما يُسمّى Quipos ، فمثّلت العشرات بخيط ، وتداخل الحبال الملوّنة يشير إلى الأحداث الهامة ، والهانكس Hankos ، والشّارس Chaaras ، حبال خاصّة خيطة بها لآلئ وأصداف أو أحجار كريمة ، استخدمت في إمساك الدفاتر لكل من الدّائن والمدّين .

٥. وجوانب من علم الطّب المصري القديم ، يطابق طب بيرو (الإنكا) ، حتّى عمليّة التّحنيط (المومياء) الّتي وجدت في بيرو ، تشبه مومياء مصر ، حتّى لفّ الجثّة متشاب من حيث اللفّ بأقمشة من نسيج الكتّان ، وإن كان التّحنيط في مصر أرقى وأرفع مستوى ، وكذلك وجدت أقنعة ذهبية خاصّة بالملوك ، كما هي الحال في مصر القديمة ، كلّ هذا من الأمور الّتي لا زالت تحتاج إلى تفسير .

١٠. وما زالت نظريّة الاتصال عبر مضيق بيرنج Biring لها وجاقتها ، فليس من شكّ أنّ قدماء سكّان أمريكا جاؤوا إليها عن هذا الطّريق ، فسكن الأسلاف منهم أمريكا الشماليّة ، واندفعوا إلى الجنوب ، ليقبّوها في أمريكا الوسطى ، والظّاهر أنّهم اتّحدوا مع غرباء جاؤوا عبر البحار ، فالرحلات عبر المحيطات - على الرّغم من صعوبتها - محتملة في شكلها الطّبيعي من جانب أناس أحبّوا البحر في فجر التّاريخ .



١٤

إفريقية

بقايا الصّور الّتي تركها الإنسان القديم في الصّخور الصّحراويّة ، وآثار الوديان الّتي جفّت ، وحتّى بحيرة تشاد الّتي تتقلّص باستمرار .. كلّها شواهد على حداثة عمر الصّحراء الكبرى ، وهناك رأي هو أنّ إفريقية هي مهد الإنسان قبل مئات الألوف من السّنين ، ويدعم هذا الرّأي الهياكل العظميّة البشريّة الّتي اكتشفت في الحبشة وأوغندة .

ومنذ سبعة أو ثمانية آلاف سنة من جمّع الطّعام والصّيّد ، بدأت الزراعة وتربية

الحيوان واستغلاله ، أي حياة الاستقرار ، وهكذا وطّدت أربع جماعات عرقية إفريقية أقدامها في هذه القارة ، هي :

- البوشمن الأولون ، في الأجزاء الجنوبية والشرقية .
- الأقزام في أقاليم الغابات من حوض الكونغو وساحل غانا .
- الحاميون في الشمال والشمال الشرقي .
- الزنوج ، وهم الأقدم ، انتشروا في المناطق الباقية ، وعلى هامش مناطق الغابة الاستوائية ، ثم توغلوا فيها منذ حوالي ٨ - ٩ آلاف سنة^(١) .
- وتطلق كلمة (البنتو) على جميع الشعوب الأصلية في وسط إفريقية وجنوبها ، والكلمة مكوّنة من (أب - نتو) ، ومعناها الناس .

عرف البنتو نظاماً قبلياً بسيطاً ، مع طائفة من القوانين العرفية ، ومحاكم لإقرار العدل ، ونظاماً لامتلاك الأراضي ، وليس للبنتو أدب مكتوب ، ولكن تقاليد القبيلة تحفظها الروايات الشفوية .

تقوم عقائد البنتو الدينية على الإيمان ببقاء الروح بعد موت الجسد ، والغرض الأول من العبادة ، استرضاء أرواح الموق التي ينسبون إليها القدرة على نفع الأحياء أو إيذائهم ، ويقترن بهذه العبادة البدائية للأجداد ، إيمان بالسحر وغيره من الخوارق^(٢) .

وأهم الحضارات التي قامت في إفريقية :

كوش (أو حضارة ميروي Meroe) :

في سنة ١٠٠٠ ق.م ، برزت كوش دولة مستقلة عن مصر ، جنوب النوبة ، بين النيل والبحر الأحمر ، لاسياسياً فحسب .. بل ثقافياً أيضاً ، حتى استطاع حكامها

(١) بهجة المعرفة ، المجموعة الثانية : ٦٢/٣

(٢) تاريخ العالم : ١٢٧/٦

سنة ٧٢٥ ق م ، الزحف شمالاً على طول نهر النيل ، واحتلال مصر ، ليؤسسوا فيها الأسرة الخامسة والعشرين .

ولكن الفرعون الكوشي (تاهارقا) تراجع جنوباً حتى كوش ، بسبب الغزو الآشوري بين : [٦٧٦ - ٦٦٣ ق.م] ، وتعلم الكوشيون درساً قاسياً وثيناً ، خلال معاركهم مع الآشوريين ، لكنهم حملوا معهم التقنية الآشورية ، استخراج واستعمال الحديد ، الذي أصبح أساساً لاستقرارهم .

وانتقلت عاصمة كوش من (النبطّة) - العاصمة القديمة - جنوباً إلى (ميروي) ، في القرن السادس ق.م جاعلين من مدينة (أبتاراو) القريبة منها حصناً حصيناً للدفاع وردّ أطماع الغزاة ، وكان لميروي موارد هائلة من الحديد الخام ، ومن الخشب اللازم لصهره ، فانتشرت صناعة الحديد في المملكة على نطاق واسع ، فاستطاع فرسان الجيش المسلحون تسليحاً جيداً ، أن يدافعوا عن أراضيهم ضدّ هجمات البدو الرُّحّل القادمين من الصحراء .

تقهقرت حضارة كوش بسبب جفاف الأراضي الزراعية التي حلّ بها الجذب . والتي كانت غنيّة بالكلاّ ، بعد أن دامت هذه الحضارة أكثر من ألف سنة .

أخذت هذه الحضارة مكوّناتها من شعوب شرقي البحر المتوسط ، لازدهار تجارتها في البحر الأحمر مع الجزيرة العربية ، علماً أن سفن الكوشيين تجاوزت مضيق باب المندب ، ووصلت حتى الهند . لقد اقتبس الكوشيون من حضارة الآشوريين والبابليين ، ومن العالم الهلنستي والهندي ، ولكنهم صاغوا من كلّ ذلك شيئاً فريداً ، بما فيه نظمهم الخاص من الكتابة ، وهو خطّ استعصى حتى اليوم على محاولات فكّ رموزه (٣) .

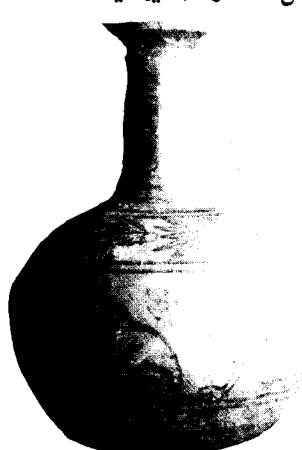
(٣) بهجة المعرفة ، المجموعة الثانية : ٩٦/٣

(٤) قامت مملكة أكسوم في الحبشة في القرن الثالث قبل الميلاد . وبسطت نفوذها على بعض الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية . كان لبيزنطة نفوذ خاص في بلاط ملوك أكسوم ، وتدهورت أكسوم تدريجياً بعد اجتياح قبائل البدو الرُّحّل لها ، وضعف تجارتها في البحر الأحمر بظهور الإسلام .



*جانب من الهيكل (ميروي)

*من حضارة (ميروي)



*إناء من الفخار المشوي *إناء للماء من السيراميك المشغول بدقة *تتمية من الفخار الملون

الحضارات القديمة في الوطن العربي

« إنَّ المعجزة اليونانية المزعومة ،
لها أبٌ وأمٌّ شرعيَّان ، أمَّا أبوها فهو
تراث مصر القديمة ، وأمَّا أمُّها فهي
ذخيرة بلاد ما بين النهرين » .

جورج سارتن

الحضارة المصرية القديمة

منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، ووادي النيل يمور بالسُّكَّان ، وهم خليط من
نوبيين أفارقة ، وعرب وصلوا الوادي إمَّا عن طريق باب المُنْدَب ، وإمَّا عبر برزخ
السُّويس ، اجتذبتهم خصب أرضه ، ووفرة مياهه ، فشكَّلوا على طول مجرى النيل
حكومات محليَّة ، اتَّحدت في الشَّمال « مصر السفلى » ، مكوَّنة دولة الشَّمال ، واتَّحدت
في الجنوب « مصر العلِّيا » مكوَّنة دولة الجنوب ، إلى أن وُحِّدَها مينا « أو : نعرمر ،
نارمر » ملك الجنوب ، حوالي سنة : ٣٤٠٠ ق.م ، واتَّخذ منفيس عاصمة له ، وتعاقب
على حكم مصر « فراعنة » ينتمون إلى إحدى وثلاثين أسرة ، وذلك حتَّى سنة ٣٢ ق.م ،
سنة دخول الإسكندر المكدوني فاتحاً إلى مصر .

الأعصر الرئيسيَّة لتاريخ مصر القديم :

١ - عصر الدَّولة القديمة : [٣٤٠٠ - ٢٠٦٥ ق.م] ، سبق قيام الدَّولة القديمة عصر
ما قبل السُّلالات^(١) ، وعصر الدَّولة القديمة بدأ من الأسرة الأولى ، حتَّى الأسرة
العاشرة ، وفيه بُنيت الأهرامات .

(١) ويُسَمَّى أيضاً العصر النُّحاسي - الحجري : [٤٥٠٠ - ٣٤٠٠ ق.م] ، وعصر ما قبل السُّلالات ، أي
ما قبل الأسرات ، وستكلَّم عن حضارة ما قبل السُّلالات على حدة ، ويليهما مباشرة الحضارة المصريَّة
القديمة ، في أعصر السُّلالات .

ومن أشهر ملوك هذا العصر : بيبي الثاني : [٢٧٣٨ - ٢٦٤٤ ق.م] ، الذي يُعد حكمه أطول حكم في التاريخ كله (٩٤ سنة) .

٢ - عصر الدولة الوسطى : [٢٠٦٥ - ١٥٨٠ ق.م] ، من الأسرة الحادية عشرة ، إلى الأسرة السابعة عشرة ، وفيه بلغت مصر ذروة التقدّم والرّفاهية ، أيام الفرعون امنحات الثالث ، من الأسرة الثانية عشرة ، وفيه كان غزو الهيكسوس^(٢) شمال مصر سنة ١٧٣٠ ق.م ، وبقوا فيها حتى ١٥٨٠ ق.م .

٣ - عصر الدولة الحديثة : [١٥٨٠ - ١٠٨٥ ق.م] ، من الأسرة الثامنة عشرة ، إلى الأسرة العشرين ، وأشهر فراعنة هذا العصر : أحمس ، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، وأمنحوتب الأوّل الذي وسّع حدود إمبراطوريّته جنوباً في بلاد النوبة إلى وادي حلفا ، ورَمّم المعابد في منفيس وطيبة ، وحاششبسوت التي كانت وصيّة على ابنها الصّغير تحوتمس الثالث ، والتي كانت على جانب عظيم من الدّهاء والحزم ، حتّى كانت تتزيّياً بزيّ الرّجال ، فترتدي ملابس الملوك ، وتضع لحيّة مستعارة ، وتترأس الاجتماعات والاحتفالات الرّسميّة .

وفي هذا العصر وقع الانقلاب الدّيني أيّام أمنحوتب الرّابع (أخناتون) الذي فقد سيطرته على سوريّة بسبب تدفّق الحثّيين من الأناضول ، وفقدت مصر بذلك ثروة هائلة كانت تأتيها من التّجارة والضّرائب والحزبة .

ومن فراعنة هذا العصر أيضاً : توت عنخ آمون ، ورمسيس الثاني ، الذي حكم مصر سبعة وستين سنة [١٢٩٨ - ١٢٣١ ق.م] ، ويعدّ من أكبر الفاتحين بعد تحوتمس الثالث وآخرهم ، انتصر على الحثّيين في قادش ، فوقّع الطّرفان معاهدة صداقة سنة ١٢٨١ ق.م بسبب تزايد قوّة الآشوريّين ونموّها باضطراد سريع هذد الطّرفين .

(٢) هيك : ومعناه في اللّغة الدّينيّة المصريّة القديمة (ملك) ، وسوس (رعاة) ، والمعنى إذن : الملوك الرّعاة .

٤ - عصر الضعف والانحلال : [١٠٨٥ - ٦٦٣ ق.م] ، من الأسرة الحادية والعشرين ، إلى الأسرة الخامسة والعشرين ، ومثلت الأسرة الثانية والعشرين حكم الليبيين : [٩٥٠ - ٧٣٠ ق.م] ، ومن أشد ملوكهم شيشنق وابنه واساركون .

كما مثلت الأسرة الخامسة والعشرين حكم النوبيين (مملكة كوش) : [٧٥٠ - ٦٥٦ ق.م] ، وأشهر ملوكهم ألارا ، وحفيده بعنخي ، وطهرقا الذي جعل تانيس عاصمة له ليكون قريباً من حدود مصر الشمالية الشرقية ، المهتدة من قبل الآشوريين .

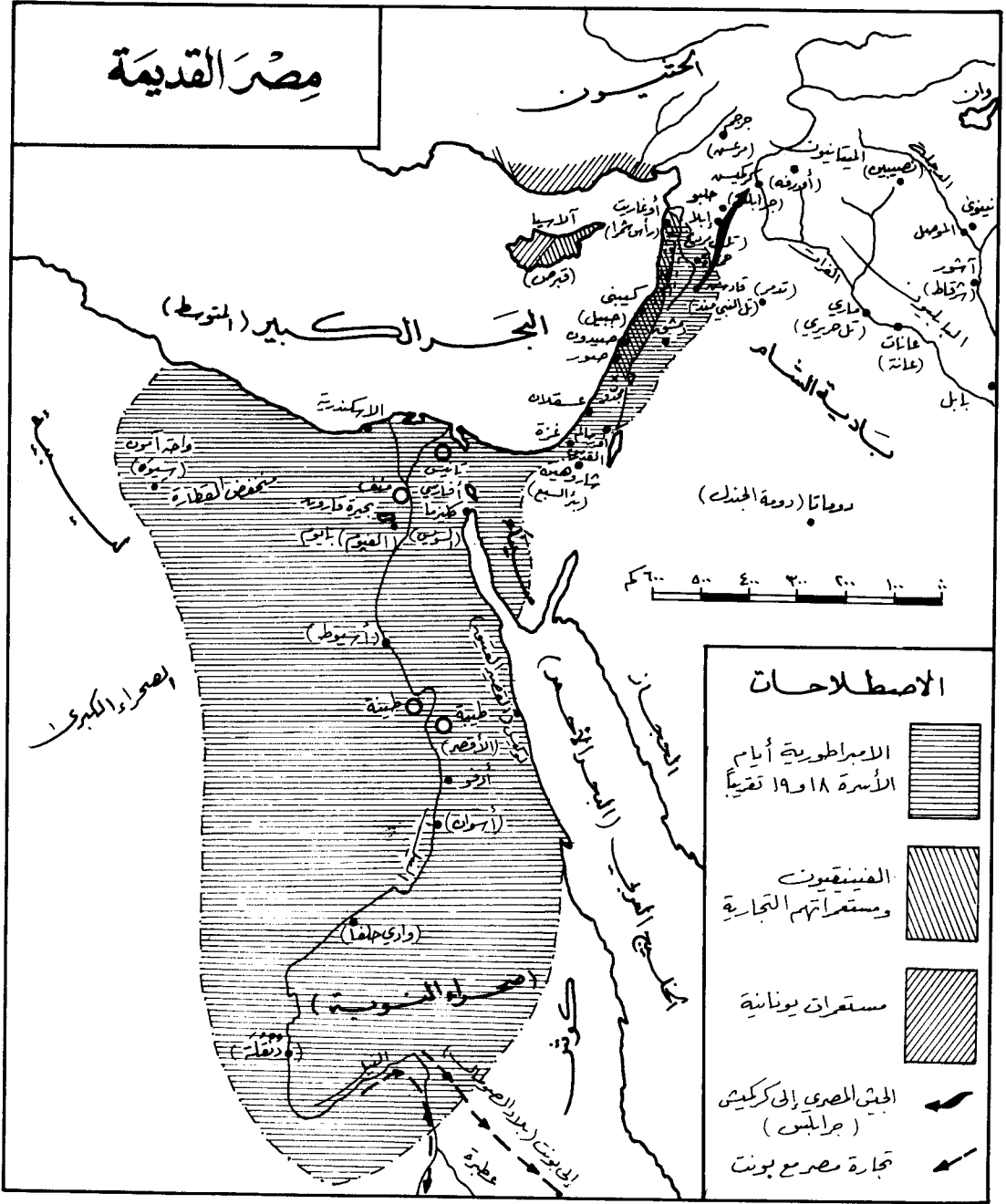
٥ - عصر النهضة المؤقتة (أو العصر الصاوي) : [٦١٣ - ٥٢٥ ق.م] ، وتمثل بالأسرة السادسة والعشرين ، وفيه تمكن بسامتيك من طرد الآشوريين من مصر .

٦ - العصر المتأخر (أو عصر الشيخوخة والاضمحلال) : [٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م] ، من الأسرة السابعة والعشرين ، وهي أسرة فارسية من الغزو الفارسي الأول ، وحتى الأسرة الحادية والثلاثين ، وهي من الغزو الفارسي الثاني ، وفيه احتل قمبزمصر ، ثم جاء الإسكندر سنة ٣٣٢ ق.م .

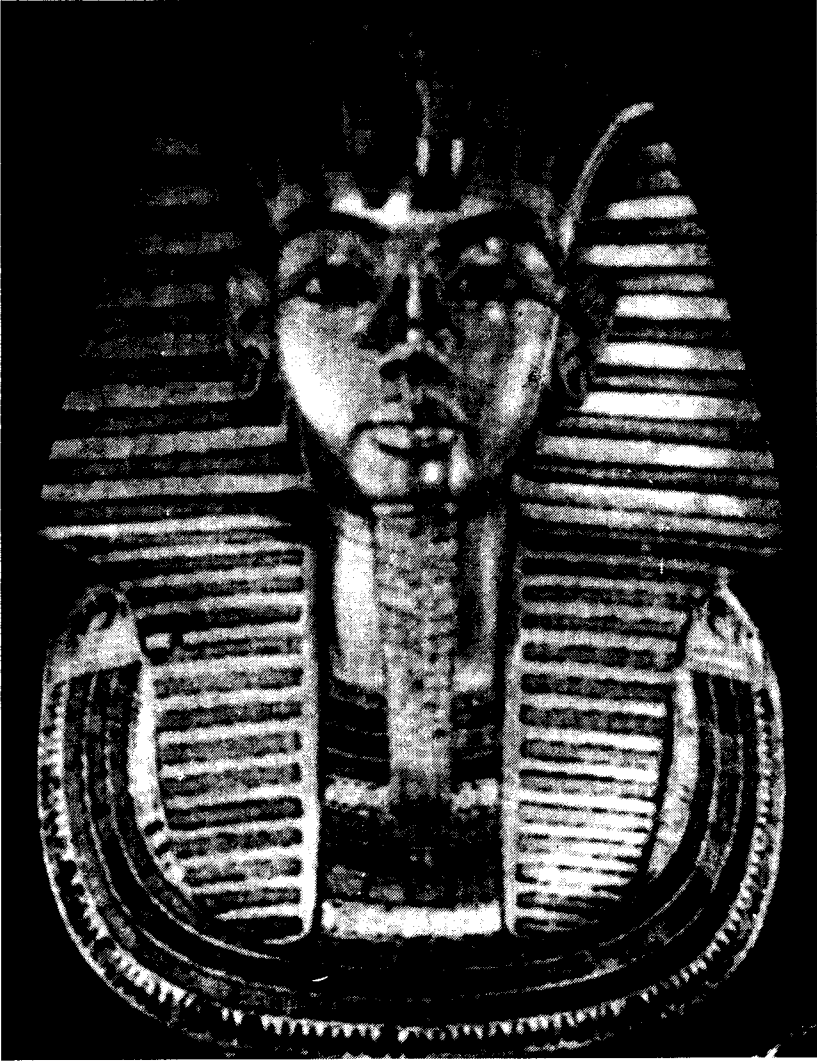
« والمؤرخون مختلفون فيما يتعلق بتحديد تواريخ بدء حكم الأسر والملوك ، تزداد الفروق في عهد الدولة القديمة ، وتقل في عهد الدولة الحديثة إلى ما يقرب من عشر سنوات أو أقل ، أو تتقارب جداً في عهد الضعف والانحلال منذ الأسرة الثانية والعشرين ، لتندم تقريباً منذ عهد الأسرة الرابعة والعشرين ، بسبب مقارنة تلك التواريخ بحكم الآشوريين والكلدانيين والفرس ، وتثبيتها بصورة صحيحة لا خلاف فيها »^(٣) .

(٣) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، عبد العزيز عثمان ، ص ٩٣ ، واعتمدنا الكتاب المذكور - مع كتب أخرى تذكر في حينها - لدراسة حضارات : مصر ، وبلاد الرافدين ، وبلاد الشام .

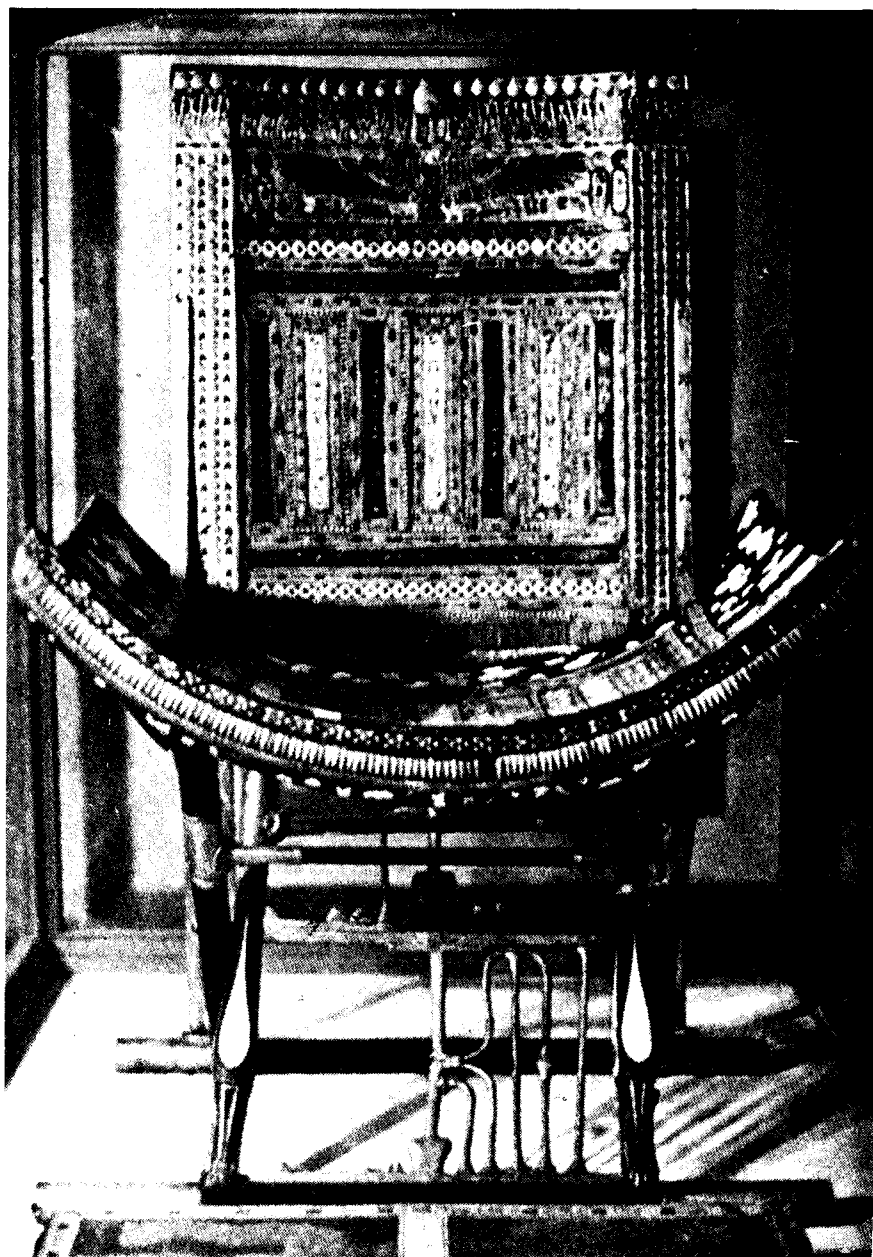
مِصْرَ الْقَدِيمَةِ



* مصوّر مصر العديده



* توت عنخ آمون



* أحد كراسي العرش لتوت عنخ آمون

حَضَارَةُ عَصْرٍ مَاقَبْلِ السُّلَالَاتِ :

يَمَكُن تَمَيِّزُ حَضَارَةِ مَوْقِعِ الْعِمْرَةِ فِي الْجَنُوبِ ، وَتَسَمَّى أَيْضاً « حَضَارَةُ نَقَاوَةِ الثَّانِيَةِ » .
الْأُولَى » ، وَحَضَارَةُ مَوْقِعِ جَرَزَةِ فِي الشَّامِ ، وَتَسَمَّى أَيْضاً « حَضَارَةُ نَقَاوَةِ الثَّانِيَةِ » .

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ أَقَامَتِ بَعْضُ الْمَدَنِ مَخَازِنَ وَمَوَاقِدَ جَمَاعِيَّةٍ عَلَى أَطْرَافِهَا ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى
نَوْعٍ مِنْ رُوحِ التَّعَاوُنِ وَالتَّعَاوُضِ ، كَمَا زَرَعَ الْإِنْسَانُ أَشْجَارَ النَّخِيلِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ،
وَعَرَفَ صِنَاعَةَ الْأَوَانِي الْفَخَّارِيَّةِ ، وَتَقَدَّمَتْ صِنَاعَةُ الْأَدَوَاتِ وَالْأَسْلِحَةِ الْحَجَرِيَّةِ ،
وَصِنَاعَةُ الْجُلُودِ وَالسَّلَالِ وَالْحَصْرِ وَالْحَبَالِ وَالْغَزْلِ وَالنَّسِيجِ .

وَفِي آخِرِ هَذَا الْعَصْرِ ، اخْتَرَعَ الْمَصْرِيُّونَ الْكِتَابَةَ التَّصْوِيرِيَّةَ ، وَنَظَّمُوا الْعَمَلِيَّاتِ
الزَّرَاعِيَّةَ حَسَبَ تَقْوِيمِ أَوْجُدِهِ مِنْ مَلَاخِظَاتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةَ لظَاهِرَةِ الْفَيْضَانِ السَّنَوِيِّ .

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ أَيْضاً نَشَأَتْ فِكْرَةُ السُّلْطَةِ وَالرَّئَاسَةِ الْمَلَكِيَّةِ ، وَانْدَجَمَتِ الْمَالِكُ
الْحَلِّيَّةُ الصَّغِيرَةُ فِي مَمْلَكَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا فِي الدَّلْتَا فِي الشَّامِ ، وَالْأُخْرَى فِي الصَّعِيدِ جَنُوباً .

الْحَضَارَةُ الْمَصْرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ فِي عَصْرِ السُّلَالَاتِ :

كَانَ الْحُكْمُ مَلَكِيّاً فِي عَصْرِ الدَّوْلَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَقَّبَ الْمَلِكُ « بِالْإِلَهِ الْعَظِيمِ » ، وَاعْتَقَدَ
النَّاسُ بِأَنَّهُ يَسِيرُ عَلَى شُؤُونِ الْبَشَرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَفِي الْآخِرَةِ ، وَانْهَارَ نِظَامُ الْمَلَكِيَّةِ
الْإِلَهِيَّةِ فِي فِتْرَةِ الضَّعْفِ الْأُولَى .

١٥

وَفِرْعَوْنُ نَفْسُهُ هُوَ الْحَكَمَةُ الْعَلِيَا ، وَمَجْلِسُ الشُّيُوخِ هُوَ مَجْلِسُ اسْتِشَارِيٍّ لَهُ ، وَكَانَتْ
الْمَلِكَةُ ، أَوْ الزَّوْجَةُ الشَّرْعِيَّةُ مِنْ دَمٍ مَلَكِيٍّ ، وَقَدْ يَتَزَوَّجُ الْإِخْوَانُ مِنْ أُخْتِهِ ، لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى
الدَّمِ الْمَلَكِيِّ نَقِيّاً^(٤) ، وَمِنْ الْمَمْلَكَاتِ الشَّهِيرَاتِ (نَفَرْتَاي) ، الَّتِي تَزَوَّجَتْ مِنْ أَخِيهَا

(٤) وَفِي قِصَّةِ الْحَضَارَةِ ٩٥/٢ : وَكَثِيراً مَا كَانَ الْمَلِكُ يَتَزَوَّجُ أُخْتَهُ ، بَلْ كَانَ يَحْدِثُ أحياناً أَنْ يَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُ ،
لِيَحْفَظَ بِالدَّمِ الْمَلَكِيِّ خَالِصاً مِنَ الشَّوَابِ .. وَانْتَقَلَتْ عَادَةُ الزَّوْجِ بِالْأَخَوَاتِ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى عَامَّةِ
الشَّعْبِ .

كامس ، ثم من أخيها أحمس ، وظلَّ نفوذها كبيراً في زمن ابنها أمنحوتب الأول ، حتى نظر إليها المصريون نظرة عبادة واحترام ، وأقاموا لها معبداً في طيبة ، ومن الملكات الشَّهيرات أيضاً حاتشبسوت .

وَعُرِفَت الوزارة بعد الأسرة الثالثة ، أوجدها زوسر ، وعهد بها إلى نابغة عصره .
هـ إيمحوتب ، ومن اختصاصاته الاهتمام بجميع أمور الدولة ، فالوزير هو قاضي القضاة ، ورئيس بيت المال والمشرف عليه ، وهو على رأس السُّلطة ، لا يعلو عليه إلا فرعون .

وفي الأقاليم ، قام حكامها الذين مثلوا الملك الإله بوظيفة القضاء ، وحلوا لقب (قاضي ، وكاهن) ، وأهم قانون وصل إلينا من مصر الفرعونية ، هو المرسوم الذي وضعه حورمحب للقضاء على الظلم والرشوة والفساد .

١٠ والقوانين المدنية والجنايئة راقية ، « فالتساويان في الموارد وفي النفوذ متساويان أمام القانون » ، كما كانت قوانين الملكية والميراث من أيام الأسرة الخامسة ، قوانين مفصلة دقيقة .

ومن الوظائف الهامة التي تلي مرتبة الوزير ، وظيفة مدير بيت المال (حامل خاتم الإله) ، ووظيفة مدير القصر الملكي ، ووظيفة مدير المنشآت الملكية .

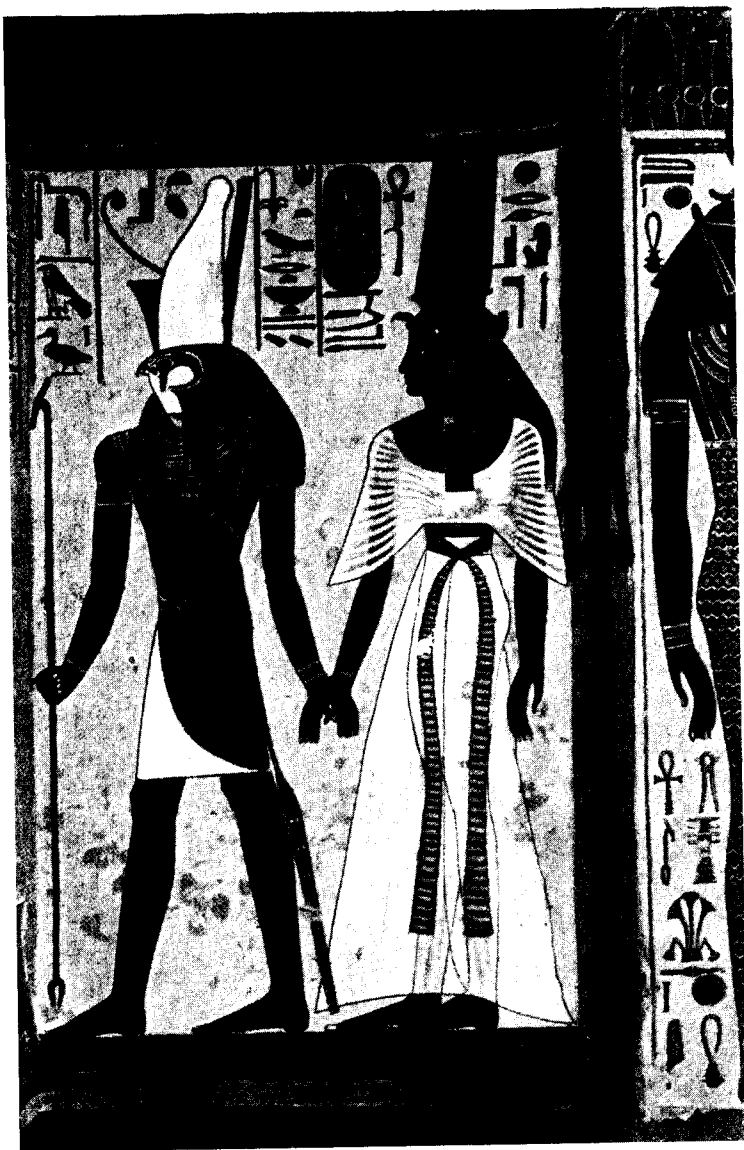
١٥ ولم يكن لمصر جيش دائم منظم يُعَدُّ أفرادَه الجندية مهنة خاصة بهم ، مع أنَّ رتبة (قائد الجيش) كانت موجودة ، فقد كان الجيش يُجمع في المناسبات ، فيطلب الملك عند الضرورة من حكام الأقاليم جنوداً للحرب ، فيجهزونهم له ويرسلونهم للقتال ، أو للحراسة ، أو لحماية البعثات التجارية أو الاستشارية التي تستثمر المناجم ، أو تقوم بحفر الترع والأقنية ، وتبني الجسور ، حتى إذا أتم الجنود المهمة التي نُدبوا لها ، عادوا إلى أقاليمهم ، ولحياتهم المدنية ثانية . ٢٠

= ولعلَّ السَّبب أيضاً الحفاظ على ميراث الأسرة ، الذي ينحدر من الأم إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة .

وفي عصر الدولة الوسطى ، تم تأسيس فرق الجيش الدائم للدفاع عن البلاد ، فتأسست إلى جانب فرق المشاة ، فرق المركبات الحربية والرماة ، وكانت ملابس الجند بسيطة ، تتألف من سروال قصير ، ودرع من جلد أو معدن ، وعني المصريون بإقامة الحصون ، كما اهتموا بوسائل خرقها واقتحامها ، وبنوا أسطولا منذ عصر ما قبل الأسرات للتجارة والقتال .

- ٥
- أما الحياة الدينية عند المصريين القدماء ، فتدل على أنهم عبدوا قوى الطبيعة^(٥) ، ولعل القمر أقدم ما عبدوا من آلهة ، وصوّروا الآلهة الكونية بصورة إنسانية أو حيوانية ، ثم ارتأى القدماء أن يخصصوا تلك الآلهة بصفات وعواطف إنسانية ، فأخذوا يرسمون صور الآلهة بجسم إنسان ورأس حيوان ، أو بصورة إنسان يحمل أي جزء من الحيوان يرمز إلى صورته الأصلية ، والآلهة يموتون لحيوا حياة ثانية ، وآمن المصريون بالحياة بعد الموت وبالحساب ، وكانوا يرون أن الموت ما هو إلاّ تبديل في طريقة حياة الإنسان ، وهذه الحياة الجديدة لا يتّبع بها الإنسان إذا لم يحتفظ بجسده سليماً بعد الموت ، ولهذا اهتموا بتحنيط جثث الموتى ، واعتقدوا أن الميت يعيش في قبره ، وأنّ المقبرة مدخل إلى العالم الأسفل الذي يسكنه الموتى ، ويحكمه أوزيريس ، وأنّ الشمس تضيء هذا العالم ليلاً بعد غروبها من الدنيا ، وتنسب العقيدة المصرية القديمة إلى إله الشمس (رع) خلق العالم ، وإيجاد النظام الملكي ، وجاء الفراعنة من بعده لتولي مهام الملك وفقاً لذلك الحق الإلهي .
- ١٠

(٥) يفسّر بعضهم تعدّد الآلهة في الحضارات القديمة ، بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعبدوها ، ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات إن هي إلا رموز تدل على حقيقة واقعية .



* (الإله) حورس يقود الملكة نفرتيتي



* إله يصوّر إنساناً حسب العقيدة
المصريّة القديمة : إلهان ذوا رأسي حيوان ،
الإله (خنوم) يصوّر إنساناً على دولاب
فخاري ، بينما يقدر (توت سني) حياته
على سعة نخلة محزّزة



* (الإله) أنوبيس يحنّط جثّة

وئمة ترنمة تستوقف النظر في التسبيح بمحمد (آمون رع) ، نظمت في عهد
 أمنحوتب الثالث ، تذكر آمون رع على أنه في جوهره الشمس ، وتدعوه (رع خبرع
 Ra Khepera) ، وحورس الأكبر ، وآتون ، وخنومو Khnumu بارئ الخلق ، وبتاح
 إله منف الصنّاع المتفنّن ، وهذه الترنمة وإن كانت تعتمد على أساطير الأولين ، فإنّها
 تجمع كثيراً من الصفات في إله واحد ، وهي نفحة معجّلة من فيض الحماسة ، وروح
 التوحيد اللذين فاضت بهما ترانيم آتون فيما بعد ، ومن هذه الترنمة :

أيّها الموجد الذي لا موجد له
 أيّها الواحد الأحد الذي يطوي الأبد
 إنك لتقطع على عجل مسيرة الملايين ، ومئات الألوف من الفراسخ في لحظة
 حين تشرق في البكور تفتّح العيون لأشعتك ١٠
 وحين تغيب وراء الجبال الغريبة
 يغشى النوم البرايا كأنهم موتى
 أنت الأمّ البارّة للآلهة والبشر
 والصانع الدؤوب الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر
 والراعي ذو القوّة والبأس ، يرعى رعيّته ، ولولا أنك ملاذهم لما تهيّأت لهم ١٥
 حياة .

وقبل ذلك بقرن من الزّمان ورد على لسان أحد الشعراء يسبح بمحمد آمون رع :

طلعتك الفاتنة تنفّثر لها الأوصال ، ويذهل اللب حين يتطلّع إليك
 يا من يصدر عن عينيه البشر ، وتصدر عن فمه الآلهة
 يا منبت الكلأ لماشية ، وأشجار الثّمار لبني الإنسان ٢٠
 يا من جعل قوام السمك في الماء ، وقوام الطّير في الهواء
 يانافث الرّوح في الكائن المكنون في البيضة ، وباعث الحياة في الوليد من
 الزّواحف

ورازق البعوض والذود والبراغيث
ومطعم الفئران في جحورها ، والطَّير على الشَّجر
سبحانك بارئ البرايا كافَّة ، أنت واحد أحد ، ولكن أيديك كثيرة
يامن لا تأخذه سنةٌ طوال اللَّيل ، والنَّاس رقود ، البار برعيَّته يتحرَّى لهم
الخير^(٦) .

وفي الدَّولة الوسطى ، أصبح للإله المحلي لمدينة طيبة (آمون) ، المقام الأوَّل في
العقيدة الدِّينية الرِّسميَّة ، واندمج اسم آمون برع ، وأصبح آمون بعد خروج الهيكسوس
إلهاً عالمياً في الشَّرق الأدنى بأجمعه ، وجرى تحوُّل إلى عبادة الشَّمس سنة
(١٣٨٠ ق.م) ، وذلك في عهد أمنحوتب الرَّابع ، الَّذي دعا دعوة صريحة إلى عبادة
الشَّمس ، وأعلن خروجه على عبادة آمون ، ودعا إلى عبادة قرص الشَّمس (آتون) ،
الَّذي يعبر عن القوَّة الكامنة في الشَّمس ، وبدل اسمه من أمنحوتب إلى أخناتون ، أي
المعجب بآتون ، أو المفيد لآتون ، أو آتون راضي ، وأعلن حرباً منظَّمة على آمون وغيره
من الآلهة ، ساعده على ذلك تصرُّفات كهنة آمون ، فالسراري في الهيكل العظيم
بالكرنك ، يتخذن لآمون في الظَّاهر ، وليستمتع بهن الكهنة في الحقيقة ، فثار أخناتون
على (العهر المقدَّس) ، وأعلن أنَّ كلَّ هاتيك الآلهة مزيفة ، والطَّقوس منحطَّة « وأنَّ
ليس للعالم إلَّا إله واحد هو آتون »^(٧) ، ومن قصائده وأغانيه في مدح آتون :

أيُّها الإله الأوحد الَّذي ليس لغيره سلطان كسلطانه
يامن خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً
إنَّ النَّاس والأنعام كبيرها وصغيرها
وكلَّ ما على الأرض من دابةٍ
وكلَّ ما هو في العُلا ويطير بجناحيه

(٦) تاريخ العالم : ٦٧٣/١

(٧) قصَّة الحضارة : ١٧٢/٢

إنك تضع كلَّ إنسان في موضعه ، وتمدُّهم بحاجاتهم ...
ألا ما أعظم تدبيرك يا ربَّ الأبدية
أنت أوجدت العالم
وأقمت كلَّ ما فيه لابنك
أخناتون ذي العمر المديد ^(٨) ..

٥

وأخناتون يرى الإله الحقَّ هو خالق حرارة الشَّمس ومغذيها ، وهو ربَّ المحبة
والسَّلام ، فأغلق جميع الهياكل القديمة ، ومحا جميع أسماء الآلهة باستثناء آتون ، لقد
ضرب ضربة واحدة ، جَرَّد بها طائفة غنيَّة قويَّة من ثرائها وامتيازاتها ، فأغضبها عليه ،
وانحطَّت مئات الحرف التي لم تكن لها حياة إلاَّ على حساب الهياكل ، فحققوا عليه ،
وتمنَّوا موته .

١٠

وكان من صلب هذه العقيدة أن يعبد البشرُ الملكَ (فرعون) ابن الإله ورسوله ،
فسبَّبت هذه الناحية انهيار هذه الديانة بعد موت الملك سنة ١٣٦٢ ق.م ، وعمره
ثلاثون سنة فقط .

إنَّ عبادة (آتون) فكرة توحيد ، لما فيها من القضاء على تعدُّد الآلهة ، ولكنها لم
تصل إلى فكرة التَّوحيد المطلقة ، التي جاءت بها الأديان السماويَّة ، ولكنها تبقى
« أفضل ديانة وثنيَّة عرفها الشَّرق الأدنى » ، وبعد موت أخناتون عادت عبادة آمون .

١٥

وكانت الأعياد الدينيَّة كثيرة في مصر ، ويمكن القول إنَّ أيَّام السَّنة كانت كلُّها
أعياداً ، إمَّا للآلهة ، أو للموت ، ومن هذه الأعياد عيد زيارة آمون في معبد الأقصر ،
وكانت عندهم أعياد زراعيَّة ، وكانت تتَّخذ صفة دينيَّة أيضاً ، ومنها عيد رأس السَّنة ،
وعيد الحصاد ، وعيد الفيضان (وفاء النيل) .

٢٠

أمَّا الحياة الاجتماعيَّة ، فقد اعتاد المصريون القدماء على الزَّواج المبكر ، ليتَّقي

(٨) قصَّة الحضارة : ١٧٢/٢

الشَّابُّ مواطنُ الزَّلَّل ، وقال أحدُ حُكَّاءِ الدَّولةِ القديمةِ (بتاح حوتب) : إذا كنت رجلاً حكيمًا ، فكوِّنْ لنفسك أسرة .

ومن أسباب الزواج المبكر حاجة الزراعة إلى أيدي عاملة قويّة ، فكان استكثار النسل لتقوية الأسرة ، والدّم الحار في عروق سكّان وادي النيل ، أهل البنات لواج في سنّ العاشرة ، وكان الاتّصال بينهم وبين الفتيان قبل الزواج حرّاً ميسراً ، حتّى جمعت إحدى السّراري أيام البطالة أموالاً تكفي لبناء هرم ^(٩) .

وعرف المصريون القدماء تعدّد الزوجات ، واكتفى معظمهم بالزوجة الواحدة ، وتعرف باسم الزوجة الشرعيّة (سيّدة البيت) ، فكانت المرأة مكانة سامية ، حتّى كانت الأملاك الزراعيّة كلّها تنقل إلى الإناث .

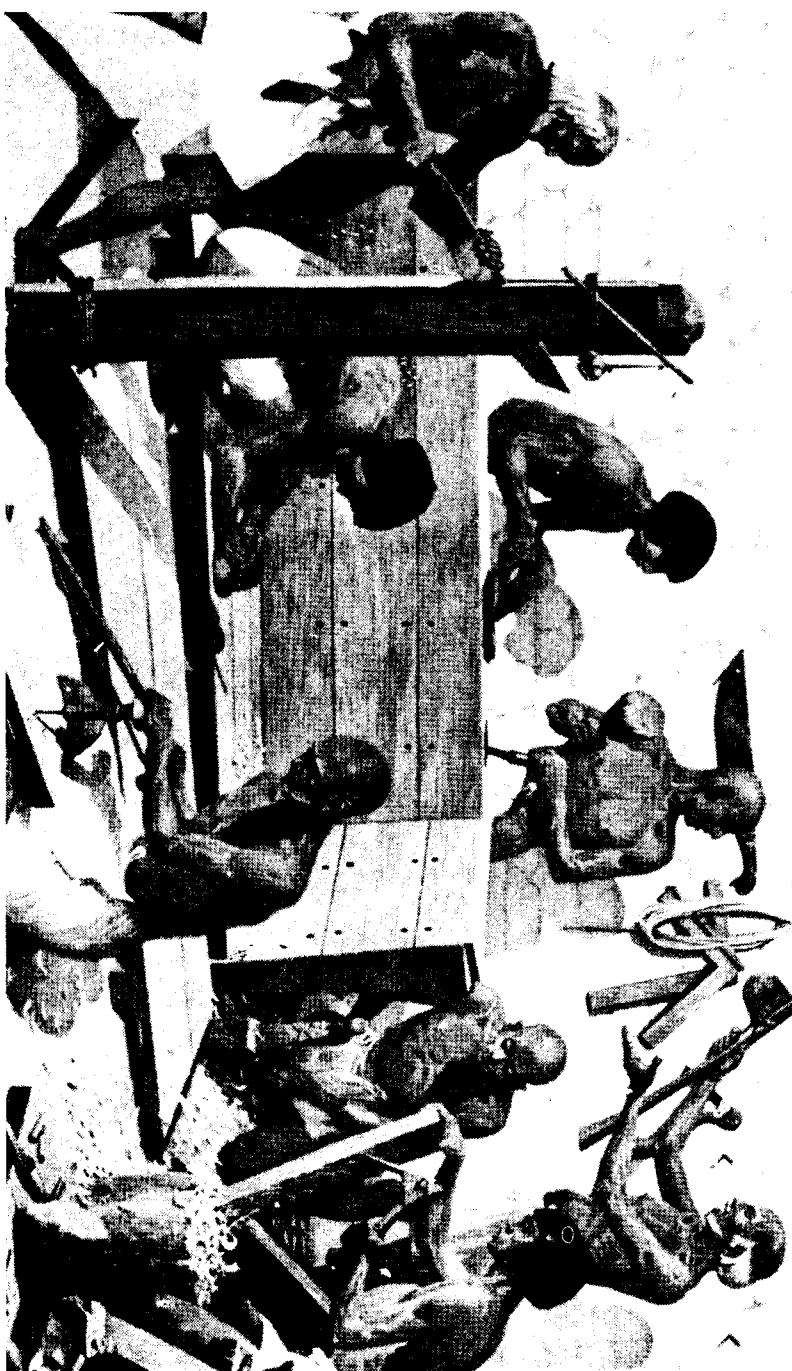
وشغف الشعب بأدوات التّجميل والحلي والزّينة - رجالاً ونساءً - فلبسوا الأساور ١٠ والحوامم والأقراط والقلائد .

وعلم المصريون القدماء أولادهم ، حيث لقّن الكهنة أبناء الأسر الغنيّة مبادئ العلوم في مدارس ملحقة بالهيكل ، ثمّ درّبوا بعض الأطفال عند كتّاب الدّواوين ، ليصبحوا كتاباً في وظائف الدّولة ، تقول بُرديّة :

أفرغ قلبك للعلم وأحبّه كما تحبّ أمّك ، فلا شيء في العالم يعدل العلم في قيمته . ١٥
لا تضع وقتك في التّمني ، وإلاّ ساءت عاقبتك ، اقرأ بفمك الكتاب الذي بيدك ، وخذ النّصيحة ممّن هو أعلم منك .

وكانت الكتابة تصويريّة ، تعبّر عن الشّيء برسم صورة له ، أو برمز ، فالهيروغلوفيّة قديمة قدّم الأسر المصريّة الأولى ، والهيراظقيّة (المقدّسة) استعملت في

(٩) قصّة الحضارة : ٩٩/٢



معمل خشب من الأسرة الحادية عشرة

حيث نجية من النجارين المهرة ، وقد انهمكوا في صنع تابوت

خشي

الهياكل ، وهي مهذبة عن الهيروغليفيّة ، وظهر غطّ ثانٍ مختصر شعبي هو الديموطيقية (الشعبيّة)^(١٠) .

وعرف المصريون المكتبات منذ عام ٢٠٠٠ ق.م ، حيث البرديات المطوية المحفوظة في جرار معنونة ومصفوفة على رفوف ، فيها أقدم قصّة لملاح تحطمت سفينته ، لم ينجُ غيره ، ومغامرات سنوحي ، وهي قصّة موظف قرّ من مصر إثر وفاة منحوتب الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد في الشرق الأدنى ، وكوّن ثروة طائلة ، ولكن عشق الوطن ، والحنين إلى الأهل برّحاً به ، فترك ثروته ، وعاد إلى وطنه .
وكتابة التاريخ في مصر قديمة قدم التاريخ نفسه .

أمّا المجتمع ، فقد انقسم إلى ثلاث طبقات : طبقة النبلاء والأشراف والكهنة ، وتمتّع أفرادها بامتيازات كبيرة ، والطبقة المتوسطة ، أو الأحرار ، وتتألّف من صغار الموظفين ، وأصحاب المهن والصناعات ، والفلاحين الأحرار الذين يعيشون من كدّهم وجهدهم ، وطبقة الأرقاء ، وهم أكثرية الشعب ، يرتبطون بالأرض ، وينتقلون معها إذا انتقلت ملكيّتها من شخص إلى آخر ، ومع أنّهم يقومون بأشقّ الأعمال ، فقد كانوا يعيشون في بؤس وفقير مدقع ، يسكنون أكواخاً صغيرة مبنية من جذوع بعض النباتات التي تطلّى أحياناً بالطين ، وكان الفلاح معرضاً لنظام السخرة في العمل لخدمة الملك ، فهو الذي ينظّف قنوات الريّ ، وينشئ الطرق ، ويحرث الأرض الملكيّة ، ويجرّ الحجارة الضخمة لإقامة المسلات ، وتشيد الأهرام ، والهياكل والقصور^(١١) .

واعتمدت الحياة الاقتصاديّة على الصناعة والتجارة الخارجيّة والزراعة .

لقد استخرجوا المعادن من مناجم سيناء ، كالنحاس والقصدير ، وعرفوا البرونز

(١٠) وعندما حُلّت رموز الهيروغليفيّة على يد شمبليون عام ١٨٢٢ م كشف عن عالم عظيم كان مفقوداً ، (انظر حجر رشيد ص ٣٠) .

(١١) لذلك قيل : أي حضارة هذه التي سخرت شعباً كاملاً لبناء قبر (هرم) لشخص واحد ، هو فرعون ؟!

منذ عهد الأسر الأولى لصناعة الأسلحة والعجلات والرافعات والمناشير ، ولم يستخدموا الحديد الذي استوردوه من آسية الصغرى^(١٢) ، إلا في عصر الأسرة الثامنة عشرة ، كما استعملوا الذهب وصاغوه بمهارة ، وبنوا السفن من الخشب الجيد المستورد من لبنان أو غربي آسية ، أو النوبة والسودان ، وصبغوا الأواني الفخارية ، وعرفوا صناعة الزجاج بشكل محدود ، والمنسوجات الجيدة من أدق الخيوط ، حتى استورد اليونانيون الأقمشة الكتانية من مصر ، وصنع من نبات البردي الورق^(١٣) ، « وورق البردي أعظم هدية قدمتها مصر إلى العالم » ، منذ أوائل عصر الدولة القديمة ، وظلت هذه الصناعة تزود جميع بلاد الشرق الأدنى ، وحتى العالم القديم من بلاد فارس إلى إنكلترا ، وذلك بسبب خفة وزنه ، وسهولة حمله ، وصلاحيته للكتابة والحفظ .

١٠ كما صنعوا من نبات البردي الجبال والحصار والأخفاف .

ولأهمية مياه نهر النيل لحياة مصر ، أنشأ المصريون مقياساً على الضفة الصخرية لجرى نهر النيل في جنوبي الشلال الثاني ، لمعرفة نسبة ارتفاع النهر كل يوم ، ولما كانت الأعمال الزراعية تتوقف أيام الفيضان لمدة ثلاثة أشهر كل سنة ، فقد استغل الفلاحون فراغهم بصيد الأسماك والطيور ، أو بأعمال البناء .

١٥ وتميزت الحياة العلمية بأن العلوم استخدمت لفوائدها التطبيقية بالدرجة الأولى ، فبنوا السدود الصغيرة ليتمكنوا من رفع منسوب الماء لري أكبر قسم ممكن من الأرض ، ومن المنجزات الهامة التي قام بها المهندسون المصريون القدماء ، تحويل مجرى النيل في عهد مينا ، وبنوا مدينة منف في مكان النهر المحوّل ، وأقاموا سدّاً عظيماً في منخفض

(١٢) ومناجم الذهب والنحاس كانت محتكرة لفرعون فقط .

(١٣) وكانت طريقة صنعه ، أن تقطع سوق نبات البردي شرائح يوضع بعضها إلى جانب بعض في طبقتين متعارضتين بين قطعتين من الكتان ، ثم تطرق بمطرقة خشبية أو حجرية ، وتضغط بعد ذلك بوضع أثقال فوقها مدة من الزمن ، فإذا جفت تكونت قطعة متينة من الورق المستعمل في الكتابة ، (تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص : ١٥٤ ، وقصة الحضارة : ١٠٦/٢) .

الفَيُوم ، لسقاية أكبر قسم ممكن من الأراضي بعد تخزين مياه الفيضان ، وحفروا قناة
سيزوستريس ، التي وصلت البحر المتوسط بالأحمر عن طريق النيل ، والأهرامات
شواهد باقية على تقدم علمي الهندسة والحساب .

* الجيزة : أبو الهول ، وهرم خوفو ،
(التَّشَوُّه في وجه أبي الهول ، من أثر قصفه
من قبل الحملة الفرنسيَّة بقيادة نابليون
سنة ١٧٩٨ م) .



ولما كان النيل يغيَّر مجراه ، فيضيف إلى إحدى ضفَّتَيْهِ أرضاً جديدة ، ويأخذ من
الأخرى بفعل التَّآكل المستمر ، فكان لا بُدَّ من مسح الأراضي الزراعيَّة ، ووضع حدود
ثابتة لها وتسجيلها في القيود والسَّجلات والمخطَّطات ، وهكذا نشأ علم المساحة في مصر
القديمة .

وعرف المصريُّون منذ أوائل العصور التَّاريخيَّة التَّعداد العُشري حتَّى المليون .

أمَّا في مجال الفلك ، فقد درسوا النُّجوم ومواقعها ، وكان نجم الشعرى المسمَّى
سريوس Sirius أو سوthis هو أهمُّ النُّجوم عندهم ، لأنَّه يؤذَن بالفيضان ،
فأقاموا لظهوره احتفالات دينيَّة ، وكانوا يعدُّونه روحاً لإيزيس ، وكانت الأسطورة
تذكر أنَّ الدُّموع التي تسكبها إيزيس عند الذِّكرى السَّنويَّة لموت زوجها أوزوريس ،
هي التي تسبَّب الفيضان .

ومنذ عصور ما قبل التاريخ ، قَسَمُوا السَّنة إلى اثني عشر شهراً ، وكلُّ شهر إلى ثلاثين يوماً ، ثمَّ أضافوا خمسة أيَّام إلى السَّنة ليجعلوها تتفق مع الحقائق الفلكية .
واخترعوا السَّاعة المائيَّة في عهد الأسرة الحادية عشرة .

وفي مجال الطَّبِّ ، يَعَدُّ الوزير أمحوتب أوَّل مكتشف للدَّواء ، ويسمُّونه الإله الشَّافي ، وعرفوا التَّخصُّص : أطباء عيون ، أسنان ، داخلية ، جراحة ، توليد ، عظام .. وفي بردية تعود إلى عام ١٦٠٠ ق.م وصف لثان وأربعين حالة من حالات الجراحة التَّطبيقيَّة ، من كسر جمجمة ، إلى إصابة النُّخاع الشَّوكي .. وفي بردية أخرى أسماء سبع مئة دواء ، لكلِّ الأدوية المعروفة ، وساعدت عمليَّات تحنيط الموتى^(١٤) ، وإخراج الأحشاء على تقدُّم الطَّبِّ .

أما من النَّاحية الفنِّيَّة ، فالعمارة أفخم الفنون المصريَّة القديمة على الإطلاق ، وفضَّل المصريُّون بصورة عامَّة النَّقش على التَّصوير ، لأنَّه أثبت وأبقى على الدَّهر ، من صورة مرسومة على جدران مبنية باللَّبن .

واهتمُّوا ببناء الأهرامات قبوراً لهم ، وبنوا لآلهتهم معابد ضخمة ، جعلوها على نمط قصور الفراعنة ، من أشهرها : معبد الكرنك ، ومعبد الأقصر .. وبقاؤها حتَّى يومنا هذا متحدِّية عوامل الطَّبيعة ، سببه عظمة المهندسين والبنَّائين من جهة ، وبنائها من الحجر الصُّلب من ناحية ثانية ، على عكس الحال في بلاد الرَّاقدين ، إذ بُنيت فيها القصور والمعابد من الطِّين فاندثرت .

(١٤) من طرق التَّحنيط عند المصريِّين القدماء بعد نزع الأحشاء ، تنظيف الجوف وملؤه بالمُرِّ والمواد العطريَّة ، ثمَّ معالجة الجسم بالنَّطرون ، وتلصق به لفائف الكتَّان ، أو يحقن الجسم بزيت خشب الأرز ومعالجته بالنَّطرون ، ومن الجدير بالذِّكر أن مومياء الفراعنة لا تزال بحالة جيِّدة حتَّى اليوم بفضل دقَّة تحنيطها على الرُّغم من مرور أكثر من ٤٠٠٠ سنة عليها ، بينما عولجت جثَّة لينين المخطَّطة أكثر من خمسين مرَّة ، خلال خمسين سنة فقط لسوء حالها .

وسبب التَّحنيط فكرة الخلود ، وفي (كتاب الموت) ألفا ملف من ورق البردي فيها صيغ لإرشاد الموتى .

هذا ، وعند المصريين القدماء فلسفة أخلاقية قبل كنفوشيوس وسقراط وبوذا
بألفي عام على الأقل^(١٥) ، منها تعاليم بتاح حوتب (٢٨٠٠ ق.م) : « لا تزه بنفسك
لأنك عالم ، بل تحدّث إلى الجاهل كما تحدّث إلى الحكيم ، لأنّ الحذق لا حدّ له ، كما أنّ
الصّانع لا يبلغ حدّ الكمال في حذق صناعته ، والكلام الجميل أندر من الزُّمرد الذي تعثر
عليه بين الحصى .. ولا تتخطّ الحقّ ولا تكرّر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان
أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب النّاس له ، لأنّ ذلك بغيض إلى النّفس .

وفضيلة الابن من أثن الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شيء لا يُنسى أبداً ..

وحيثما ذهبت فاحذر الاتّصال بالنّساء .. واعلم أنّ السّكوت أنفع لك من كثرة
الكلام ، وفكّر في أنّك قد يعارضك خبير ممّن يتحدّثون في المجلس ، ولذلك كان من
السّخف أن تتكلّم في كلّ نوع من أنواع العمل .. »^(١٦) .

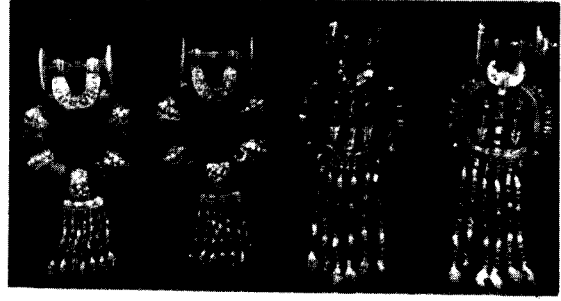
ولا يسعنا ونحن نطوي آخر الأسطر عن هذه الحضارة التي أثّرت بحضارة
الفينيقيّين ، وكريت ، واليونان والرومان .. إلا أن نلمح أصالتها وعظمتها - على الرغم
من تدهور قيمة الإنسان فيها - فهي التي أقامت أوّل حكومة منظّمة ، وأوّل من أنشأ
نظام البريد ، والتّعداد ، والتّعليم الابتدائي والثّانوي ، والفنّي لإعداد الموظّفين ورجال
الإدارة ، وارتقت بالكتابة ، وأوّل من دعا إلى التّوحيد في الدّين .

(١٥) قصّة الحضارة : ١٥٠/٢

(١٦) قصّة الحضارة : ١٥٠/٢



متلة رمسيس الثاني



* حلي مصرية قديمة (أقراط)

حَضَارَةُ بِلَادِ الرَّافِدِينَ

حضارة بلاد الرافدين ، من الحضارات العالمية القديمة ، سُميت بأسماء القبائل العربية التي أقامتها^(١) ، والتي جاءت من شبه جزيرة العرب بهجرات ، بدأها إلى بلاد الرافدين الأكاديون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م ، والذين سكنوا شمال سهل شنعار^(٢) ، وورثوا حضارة الشعب السومري ، الذي لمّا تفكّ بعدُ - عند المؤرخين - أحجية أصله وجذوره ، ولما أقام البابليون^(٣) دولتهم حوالي ٢٠٠٠ ق.م ، مؤسسين الدولة البابلية الأولى ، ورثوا تراث بلاد الرافدين السومري والأكادي ، ثم ورث الآشوريون

(١) أطلق المؤرخ الألماني شلوتر لأول مرة عام ١٨٧٠ م ، على بعض اللغات الشرقية اسم السامية ، وعُمت هذه التسمية الأقوام التي تكلمتها ، فأصبحت تسمى السامية أيضاً ، وهذه التسمية مأخوذة من التوراة (العهد القديم) ، والأصح أن نسميها بالشعوب العربية القديمة ، لأن أصلها ومنبتها كان في شبه جزيرة العرب ، وذكر هيرودوت أن الرواة القدامى أطلقوا على الآشوريين اسم العرب ، فلم يكن الرواة يسمونهم بالساميين ، بل « العرب » .

(٢) سهل شنعار : الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات ، من موقع بغداد حتى الخليج العربي ، انظر أطلس التاريخ العربي ص : ١٤

(٣) وهم أموريون وصلوا أواسط العراق عن طريق سورية .

[١٣٩٢ - ٥١٢ ق.م] ، لواء حضارة بلاد الرافدين ، ليستلمه الكلدانيون عندما أسسوا الدولة البابلية الثانية [٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م] ، وفي سنة ٥٣٩ ق.م اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل ، فانهى باقتحام أسوارها حكم العرب القدماء في بلاد الرافدين مدة من الزمن ، إذ انتقلت السيادة للفرس حتى عام ٣٣١ ق.م ، حين استولى الإسكندر المكدوني على الشرق ، ولكن السيادة العربية عادت عندما قامت الدولة العربية الإسلامية ، وحررت بلاد الرافدين .

عصور ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين :

عثر (بريد وود) عام ١٩٤٨ م في قرية (جرمو) الواقعة في غربي السليمانية ، على حضارة تعود إلى العصر الحجري الحديث ، أرجعت إلى ٦٥٠٠ ق.م ، وعرف من هذا الكشف أن الحياة كانت زراعية مستقرة .

وجنوبي مدينة الموصل ، عثرت بعثة مديريّة الآثار العراقية عام ١٩٤٣ م على حضارة عصر تل حسوّة ، التي تعود إلى عام ٥٧٥٠ ق.م ، وهي حضارة عاش أهلها على الصيد والزراعة الابتدائية ، وعثرت البعثة على تماثيل فخار صغيرة الحجم ، تمثل أشكالاً بشرية ، مما يدل على ظهور نوع من العبادات الوثنية .

وعثر (مالوان) عام ١٩٣١ م على نماذج ماثلة لحضارة تل حسوّة في نينوى ، وفي تل حلف (رأس العين) عثر البارون الألماني (فون أوبنهايم) على حضارة امتازت بالفخار الناعم الجميل المصبوغ .

أمّا حضارة العصر النحاسي فقد تمثّلت في مواقع : تل العبيد ، وتعود إلى حوالي ٣٤٠٠ ق.م ، وأوروك (الوركاء) ، وتعود إلى حوالي ٣٤٠٠ ق.م أيضاً ، وجمدة نصر وتعود إلى حوالي ٣٠٠٠ - ٢٩٠٠ ق.م ، وكلّها في جنوبي بلاد الرافدين .

وفي حضارة هذا العصر ، بُنيت أوّل زقورة ، وهي معبد على شكل برج متدرّج ، واخترعت الكتابة وكانت تصويرية ، ثم أصبحت رمزية بإشارات مسارية .

السومريون : [٣٤٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م] :

وَجَدَ السُّومَرِيُّونَ فِي جَنُوبِي بِلَادِ الرَّافِدِينَ مِنْذُ بَدْءِ الْعُصُورِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَيَعْدُونَ
أَوَّلَ مَنْ سَكَنَ بِلَادَ الرَّافِدِينَ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، وَيُرَدُّ اسْمُ الْأَرْضِ الَّتِي سَكَنُوهَا وَعَمَرُوهَا فِي
الْكَتَابَاتِ الْقَدِيمَةِ السُّومَرِيَّةِ بِاسْمِ كَنْجِي ، وَفِي الْكَتَابَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ سُمِر ، وَلَمْ
يَعْرِفْ أَصْلَهُمْ بِشَكْلِ يَقِينِي ، أَهَمُّ مِنْ تَرْكِسْتَانِ ، أَمْ مِنْ آسِيَةِ الصُّغْرَى ، أَمْ مِنْ دِلْمُونِ
(الْبَحْرِينَ) ؟ وَأَيَّةُ طَرِيقٍ سَلَكَوْهَا حَتَّى وَصَلُوا جَنُوبِي بِلَادِ الرَّافِدِينَ ؟

يَرْجِّحُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنََّّهُمْ أَتَوْا مِنْ أَوَاسِطِ آسِيَةِ ، وَالْمَنَاطِقِ الْقَرِيبَةِ مِنْ شَمَالِي بَحْرِ
قَزْوِينَ ، وَجَعَلَهُمُ الْمُتَعَصِّبُونَ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُونَ كُلَّ حَضَارَةٍ عَرَبِيَّةٍ قَدِيمَةٍ ، يَعُودُونَ
بِأَصُولِهِمْ إِلَى حَضَارَةٍ سَابِقَةٍ لَهُمْ مَنَسُوبَةٍ إِلَى عُنْصَرٍ آخَرَ مِنَ الْعُنْصَارِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَهَمُ
يُبَالِغُونَ فِي قَدَمِ الْحَضَارَةِ السُّومَرِيَّةِ ، وَتَقْدِيرِ زَمَانِهَا السَّابِقِ لِجَمِيعِ الْحَضَارَاتِ ، فَجَعَلُوا
مِنْ أَصْلِهِمْ لَغْزاً .

وَنَتَسَاءَلُ : لِمَ يَعْدُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَخْصَابَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَالِيَةً مِنْ سَكَّانٍ
الْمَنْطَقَةِ الْأَصْلَاءِ ؟ خُصُوصاً وَأَنَّ مَنَاطِقَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَلَاصِقَةَ لَهَا ، وَالْقَرِيبَةَ جَدّاً
مِنْهَا ذَاتِ أَرْضٍ مَجْدَابٍ ، مِمَّا يَجْعَلُ أَرْضَ سَهْلِ شَنْعَارِ مَنَاطِقَ جَذْبٍ لِلْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ
قَبْلَ الْأَكَادِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ ، هَذَا ، وَقَدْ قُرِئَتْ مَعْظَمُ الرُّقْمِ السُّومَرِيَّةِ ، فَلَوْ جَاءُوا مِنْ
مَنْطَقَةٍ أُخْرَى لَذَكَرُوا ذَلِكَ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْأَقْلَ ، وَهَمُ يَرُونَ جَنَّتَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ
(دِلْمُونِ) أَيِ الْبَحْرِينَ ^(٤) ، فَلَمْ لَا يَكُونُ أَصْلُهُمْ مِنْهَا ، وَهَاجَرُوا مِنْهَا شَمَالاً حَيْثُ
الْخَصْبُ وَالْمِيَاهُ عِنْدَمَا ضَاقَتْ بِهِمْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ ؟ ! وَإِنْ قِيلَ : وَلَكِنْ هُنَاكَ تَشَابَهُ بَيْنَ

(٤) جَاءَ فِي آدَبِ السُّومَرِيِّينَ عَنْ دِلْمُونِ (الْجَنَّةُ) : أَرْضٌ دِلْمُونُ مَكَانٌ طَاهِرٌ ، أَرْضٌ دِلْمُونُ مَكَانٌ نَظِيفٌ ،
أَرْضٌ دِلْمُونُ مَكَانٌ مَظِيءٌ ، فِي أَرْضِ دِلْمُونِ لَا تَنَعَقُ الْغُرَبَانُ ، وَلَا تَصْرُخُ الشُّوحَةُ صَرَاحَهَا الْمَعْرُوفَ ،
حَيْثُ الْأَسَدُ لَا يَفْتَرِسُ أَحَداً ، وَلَا الذَّنْبُ يَنْقُضُ عَلَى الْحِمْلِ ، وَلَا الْكَلْبُ الْمَتَوَحَّشُ عَلَى الْجَدْيِ ،
وَلَا الْخَنْزِيرُ الْبَرِّيُّ يَلْتَهُمُ الزَّرْعَ ، حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَعْرِفُ رَمْدَ الْعَيْنِ ، وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ آلَامَ الرَّأْسِ ، حَيْثُ
لَا يَشْتَكِي الرَّجُلُ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ ، وَلَا تَشْتَكِي الْمَرْأَةُ مِنَ الْعَجْزِ ، حَيْثُ لَا وُجُودَ لِنَشْدِ يَنْوَحُ ، وَلَا لَجَوَالِ
يَعُولُ . [مَغَامِرَةُ الْعَقْلِ الْأَوَّلَى ص : ١٩٢] .

حضارة السومريين وحضارة (أناو) جنوبي التركستان ، نقول : هذا التشابه فرضته حضارة (سوزا) الملاصقة لسومر ، أو التجارة ، كالشبه الموجود بين حضارة بلاد الرافدين ومصر ، أو الهند والصين ، أو مصر وكريت .. فهذا التشابه لا يعني أن سكان مصر أصلهم من بلاد الرافدين ، أو سكان الصين أصلهم من الهند ..

هذا رأينا ، وهو رأي ليس غير ، ولكن ما يجب أن يضعه الباحثون العرب نصب أعينهم ، وبموضوعية وبقطة ، أن عدداً لا يستهان به من المؤرخين والباحثين الغربيين عنصرئون ، يصرون على جعل هذه الحضارة الأصلية السامية ، منسوبة إلى حضارة سابقة وإلى عنصر آخر من العناصر البشرية ، لا يهمهم من يكون ، ولكن يجب ألا يكون - حصراً - من العرب القدماء .

لقد تأسست دويلات صغيرة في بعض أجزاء من بلاد الرافدين ، ويعتقد أن حكام مدينة (كيش) ، هم أول من سيطر على جميع أجزاء سهل شنعار بعد الطوفان ، ثم آلت الزعامة إلى أوروك ، وتلتها أور ، وكان نظام الحكم مبنياً على أساس ديني ، وتدل كلمة باتيسي ، أو إيشاكو ، العربية القديمة التي لُقّب بها الملوك السومريون على أنهم لم يكونوا إلا نواباً عن الإله في الأرض ، وبما أن الإله مطلق التصرف ، فقد كان نائبه الملك كذلك .

والملك هو القائد الأعلى للجيش ، وكانت الجندية مهنة عند السومريين ، يعيش منها أصحابها .

ووجدت منذ عصر الوركاء وجمدة نصر قواعد حقوقية ، ومواد قانونية ، من عهد أوروكاجينا ، الذي يعد أول مشرع ، وأول مصلح اجتماعي عرفه العالم ، قمع ابتزاز الكهنة ، وطهر المحاكم ، فسن القوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤول إليهم ، ومن قواعده الحقوقية : إذا هيا ابن الفقير بركة للصيد ، فلا يجزؤ أحد أن يسرق سمكها ، ومنها : لن يُسمح أن تقع الأرامل واليتامى فريسة لظلم الأقوياء ، ومنها : إن الكاهن لن يتمكن بعد الآن من الدخول إلى بستان الفقير لأخذ أشجاره وثماره .

عبد السُّومريُّون قوى الطَّبيعة ، ومن آلهتهم أنليل وقرينته ننليل ، وهما الإلهان اللذان خلَّقا كلَّ شيء ، وعندما أنشئت المدن ، أصبح لكلِّ مدينة إله خاصٌّ بها ، وأشهر الآلهة : أنو ربُّ الأرباب ، وكانت قرينته نين هورساک ، أو ننتو ، أي السيِّدة الوالدة ، وأنليل ربُّ الأرض وقرينته ننليل ، وهي عشتار عند العرب القدماء ، وإنكي ه (أيا) إله المياه ، وتنجرسو إله الرِّي وربُّ الفيضانات ، ونانا إله القمر ، وهو (سين) عند العرب القدماء ، وأبو (تموز) إله الزَّرع ..

وكان الإله الأعظم بلا منازع (شمس) ، الذي سنَّت الشرائع باسمه .

وآمن السُّومريُّون بالحياة الآخرة بعد الموت ، لذلك دفن الطَّعام والأدوات مع الموتي في القبور .

١٠ عمل السُّومريُّون بالزَّراعة ، وقَدَّموا إلى الحضارة نظام الرِّي المحكم ، الذي يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ ق.م ، فحفروا التَّرع ، والجداول والقنوات ، كقناة شطِّ الحي ، التي ما تزال مستعملة حتَّى أيَّامنا هذه ، وظهر عندهم المحراث الذي تجرُّه الثَّيران ، وجعلوا به أنبوبة مثقوبة لبذر البنذور ، كما درسوا الحبوب بعربات من الخشب رُكِّبت فيها أسنان .



* المحراث الباذر : عمليَّتان بآن واحد ، فهو يشقُّ الأرض ويودعها الحَبَّ في الوقت نفسه ، وإلى جانب المحراث عامل يفرغ الحَبَّ في قمع يتسرَّب منه إلى الأرض

وفي مجال الصّناعة ، عرف السُّومريُّون بعض المعادن كالنُّحاس والقصدير والفضّة والذَّهَب ، وعرفوا البرونز في منتصف الألف الثَّالث قبل الميلاد ، وعرفوا صنع المنسوجات الّتي أشرف عليها مراقبون يعيّنهم الملك .

وفي مجال التّجارة ، بلغت مبادلاتهم التّجاريّة عيلاً شرقاً ، والأناضول شمالاً ، وسورية ومصر غرباً ، وعرفوا خلال تجارتهم هذه الصُّكوك لكتابة المقاولات والعقود ، وعرفوا الشُّهود ، والرَّهن ، والفوائد العالية ، والسُّلف ..

وفي مجال العلوم ، اتّبع السُّومريُّون في الحساب نظاماً خلط بين النّظامين العشري والسّيني ، وأشارت إحدى الوثائق السُّومريّة إلى أنّ الطّب كان مهنة تتمتّع ، ولكنّه بقي مرتبطاً بالكهانة ، ويركّب الطّبيب عقايره بيده .

وَعَرَفَ السُّومَرِيُّونَ التَّقْوِيمَ : اثني عشر شهراً قريّاً يزيدونها شهراً في كلّ ثلاثة أعوام أو أربعة ، حتّى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السّنة ، ومع منازل الشّمس .

هذه جوانب من حضارة الشّعب السُّومري ، الّذي على الرّغم من أنّه كان مقدّماً إلى طبقات ، وعرف الرّقيق ، إلّا أنّه قدّس حقوق الملكيّة ، وسبق الكتابة أثمن ما قدّمه السُّومريُّون إلى الحضارة الإنسانيّة ، لقد انبثق الخطُّ المسماري عن الكتابة التّصويريّة الّتي كان السُّومريُّون يستعملونها أصلاً في جنوبي بلاد ما بين النّهرين ، وعندما فُكّ الخطُّ المسماري الفارسي القديم ، والبابلي والعيلامي ، ملّك العلماء مفتاح قراءة المكدّسات الهائلة من النّصوص الآشوريّة والبابليّة والسُّومريّة المكتوبة بخطِّ مسماري أصعب^(٥) .

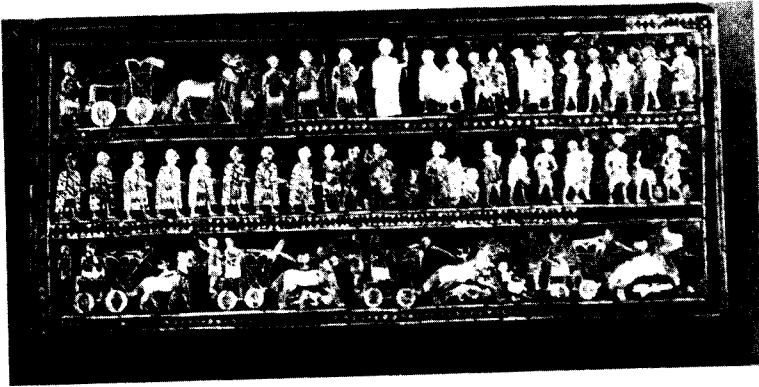
هذه جوانب من حضارة السُّومريّين الّذين عرفوا أوّل مدارس ، وأوّل مكاتب (ألواح منظّمة) ، وأوّل أدب وشعر ، ففي آدابهم قصص عن بداية الخلق ، وعن الطّوفان ، وأوّل أصباغ للتّجميل والحلي ، وأوّل نحت ونقش بارز ، وأوّل قصور

(٥) بهجة المعرفة ، المجموعة الثّانية : ٤٧/٣

وهياكل ، وأوّل استعمال للمعادن في التّزيين ، وفي بناء أوّل عقود وأقواس وأوّل قباب ..

ولا غضاظة على مصر القديمة في أن تعترف بالسّبق لبلاد سومر ، وبأثر السّومريّين الّذي تمّ عبر برزخ في السّويس ، فعجلة الفخّار مثلاً عُرِفَتْ في مصر في عهد الأسرة الرّابعة ، أي بعد أن ظهرت في سومر بزمان طويل ^(٦) .

ولعظمة هذه الحضارة وسبقها ، اشتطّ (زيكاريا سيتشين Z. Sitchin) في كتابه : (الكوكب الثّاني عشر) وقال تحت عنوان : (رواد الفضاء السّومريّون) : « فهم السّومريّون مجموعتنا الشّمسية ، وأطلقوا على الأرض الكوكب السّابع ، لأنّهم عدّوا من محيط المجموعة الشّمسية باتجاه الشّمس » ، ويعتقد سيتشين أن السّومريّين متطوّرون علمياً نتيجة قدوم رواد فضاء من الكواكب الأخرى إلى الأرض قبل حوالي ٤٥٠ ألف سنة ، خصوصاً وأنّه قد عثِرَ ضمن الكتابات السّومريّة على جملة : « أناس السفن الفضائيّة » !!



* السّومريّون في طريقهم إلى الحرب

(٦) قصّة الحضارة : ٤٠/٢ و ٤١ ، سيطر العيلاميّون والعموريّون على بلاد سومر ، ثمّ أقبل من الشّمال حورابي ملك بابل وقضى على السّومريّين .

الأكاديّون :

استوطن الأكاديّون شمالي سهل شنعار منذ سنة ٣٥٠٠ ق.م ، وتمكّن سرجون (شاروكين) الأوّل من القضاء على المملكة السومريّة^(٧) ، وتكوين إمبراطوريّة حوالي ٢٤٠٠ ق.م ؛ وبقيت إلى أن قضى عليها الكوتيّون سنة ٢٢٥٥ ق.م ، والّذين سيطروا على معظم أجزاء بلاد الرّافدين حتّى ٢١٣٠ ق.م ، ويبدو أن بعض المدن السومريّة عادت وانتعشت ، مؤسّسة عهد الملكيّة السومريّة الثّانية ، ويعدّ أور - نامو [٢١٢٣ - ٢١٠٦ ق.م] أعظم ملوك السومريّين في هذه الفترة ، وأكبر مشرّع في بلاد الرّافدين قبل عهد حمورابي .

ظلّت الحضارة السومريّة مهيمنة على مختلف نواحي الحياة ، فبقيت عند الأكاديّين المعتقدات الدّينيّة السومريّة ، فعندهم مثلاً ثالوث إلهي كما كان عند السومريّين (أنو) إله السّماء ، و (أنليل) إله الهواء والأرض ، و (أيا) إله المياه ، وكان السومريّون يسمّونه إنكي .

وفي عهد الأكاديّين كُتبت أوّل لغة عربيّة قديمة بـرموز مساريّة .



البابليّون : [١٨٣٩ - ١٥٩٤ ق.م] :

البابليّون من القبائل العربيّة الأموريّة القديمة ، سمّيت إمبراطوريتهم (البابليّة) نسبة إلى عاصمتهم باب إيل ، أي باب الإله ، وأشهر ملوكهم حمورابي : [١٧٩١ - ١٧٤٩ ق.م] .الّذي توسّع في عيلام ، واستولى على ماري^(٨) .

اتّصف نظام الحكم عند البابليّين ، بالحقّ المطلق الّذي يتوخّى العدالة في ظلّ

(٧) يعدّ سرجون ونارام سين ، أي المحبوب من إله القمر سين ، أعظم ملوك السّلالة الأكاديّة .

(٨) ماري هي تل حريري شمالي البوكمال (سورية) ، اكتشفها (بارو) سنة ١٩٢٣ م .

القانون : « أنا حورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العالم ، وأقضي على الأشرار والأتين ، وأمنع الأقوياء من أن يَظْلِمُوا الضُّعْفَاء ، وأنشر النُّور في الأرض ، وأرعى مصالح الخلق .. أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكَّاد .. وبحكمتي قيَّدتهم حتَّى لا يظلم الأقوياء الضُّعْفَاء ، وحتَّى ينال العدالة اليتيم والأرملة .. فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صوري ، أنا ملك العدالة .. حقاً إن حورابي حاكم كالوالد الحقُّ لشعبه ، لقد جاء بالرِّخاء إلى شعبه مدى الدهر كلَّه ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة » .

ويُتَلَّ قول حورابي هذا « صوت الحاكم الماهر ، والسِّيَاسي القدير »^(٩) ، وسار جميع ملوك بابل على هذا النهج تقريباً^(١٠) .

١٠ شريعة حمورابي : وجدت مجموعات من التَّشريع قبل حورابي ، كمجموعة (أنا - أتيشو) السُّومريَّة ، و (بيلا لاما) الذي جمع الأنظمة ووحَّدها وربَّتها بإحدى وستين مادة .

وهكذا وجدت مجموعات من الشَّرائع قبل حورابي بمئة وخمسين سنة ، فلمَّا جاء حورابي كان لديه عدد من الأنظمة والقوانين ، فنسَّقها وربَّتها وعدَّل فيها ، ثمَّ أصدرها بمئتين واثنين وخمسين مادة ، هي القواعد العامَّة والخاصَّة للحقوق في الشَّرق البابلي ، وفي حال عدم ورود نصٍّ لحدث ما ، فإنَّه يحكم حسب العُرف السَّائد في المنطقة .

ومن شريعة حمورابي : « العين بالعين ، والسِّن بالسِّن » ..

المادَّة ٢٢٩ : إذا بنى مهندس بيتاً لأحد الأشخاص ، ولم يكن بناؤه متيناً ، فانهار البيت ، وسبَّب قتل من فيه يعاقب المهندس بالموت .

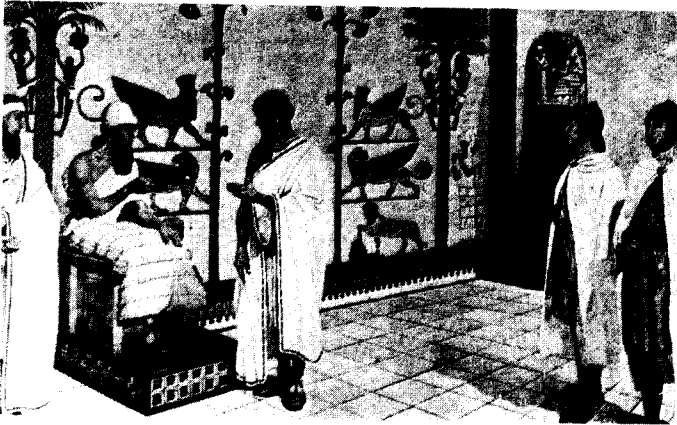
(٩) قصَّة الحضارة : ١٩٠/٢ .

(١٠) الملك قانوناً وكيل لإله المدينة ، فالخروج عليه كفر ليس كمثل كفر ، فرض الضَّرائب باسم الإله ، ولا يعدُّ ملكاً بحق في أعين شعبه إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكيّة ، لقد ظلَّت بلاد الرّافدين في واقع الأمر دولة دينيّة خاضعة لأمر الكهنة إلى يوم تتويج نبوخذ نصر .

المادة ٢٢٣ : إذا بنى مهندس بيتاً لأحد الأشخاص ، ولم يضع له أسساً متينة ، فانهار أحد الجدران ، فعلى المهندس أن يعيد بناء هذا الجدار على نفقته الخاصة .

ويمكن توقيع عقوبة الإعدام على من اقترف الجرائم التالية : شاهد الإثبات المزور في قضية جنائية ، واللص الذي يسرق كنوزاً من المعابد ، أو قصر الأمير ، واللص الذي يسرق منقولات ذات قيمة ، والشخص الذي يخفي الأشياء المسروقة أو يبيعها ، والشخص الذي يشتري أو يأخذ وديعة تخص قاصراً أو عبداً ، والشخص الذي يتيح فرصة لهرب أحد العبيد ، أو إيوائه أو قبول خدماته . إذ إنها جميعاً تعدّ من جرائم السرقة .

وكانت عقوبة الإعدام تفرض في الحالات الآتية أيضاً : هتك الأعراس ، وخطف الأطفال ، وقطع الطرق على القوافل ، والسطو والفسق بالأهل ، والجبن في القتال ، وسوء استعمال الوظيفة ، والمرأة التي تتسبّب في قتل زوجها كي تتزوّج سواه ، وإيواء عبد آبق ، وإذا اتهم رجل آخر بجرمة يعاقب عليها بالإعدام ، ثمّ عجز عن إثباتها ، حكم على المدّعي نفسه بالإعدام .



* حمورابي يصدر أوامره لوزيره ، ويقف إلى جانبه أحد الفلكيين ، الذي كان يعلم حمورابي ببداية الشهر

وهناك عقوبات رادعة اعتمدت مبدأ : « العين بالعين ، والسِّن بالسِّن » ، منها :
إذا كسر إنسان لرجل شريف سنّاً ، أو فقأ عينه ، أو هشم له طرفاً من أطرافه ، حلّ
به الأذى نفسه الذي سببه له ، وإذا انهار منزل وتسبّب عن سقوطه موت ابن الشّاري ،
حكم بالموت على ابن البائع ، أو ابن الباني ، وإذا ضرب إنسان طفلاً ومات ، حكم
بالموت على طفله ، وإذا ضرب رجل أباه عوقب بقطع يده ، وإذا تسبّب طبيب بموت
مريض أثناء إجراء عمليّة جراحية ، أو في فقد إحدى عينيه ، قُطِعَت أصابع الطبيب .

ومع أنّ شريعة حمورابي كانت قاسية في العقوبات ، وخاصة على كلّ من يخرج على
العُرف السائد ، أو يقترب ذنباً لا يتفق مع التقاليد والأخلاق والنّظام العام ، ولكنها
بقيت مدّة خمسة عشر قرناً كاملة محتفظة بجوهرها ، وعلى الرّغم ممّا طرأ على أحوال
البلاد من تغيير ، ورغم ما أدخل على الحياة الاجتماعيّة من تبدّل ، ولقد عدّلت بعض
موادّه ، ولكن من الغريب حقّاً أنّ هذا التطوّر كان يهدف باستمرار إلى إحلال
العقوبات الدنيويّة مكان الدّينيّة ، أي إنّ كان يرمي إلى اتخاذ الشدة والقسوة
والعقوبات البدنية بدل الرحمة والغرامات الماليّة بالعقوبات البدنيّة .

وحدّدت شريعة حمورابي أجور البنّائين ، وضاربي الطّوب ، والحيّاطين ،
والبحّارة ، والرّعاة ، والفعلة ..

وعرفت بابل محاكم الاستئناف ، يحكم فيها قضاة الملك ، وكان محرّماً على القاضي
لأي سبب من الأسباب أن يغيّر حكماً أصدره ، وكانت عقوبة الغزل لكلّ قاضٍ يفعل
ذلك ، ولا يجوز إيقاع عقوبة دون شهود ، تحاشياً للخلاف والنّزاع في المستقبل ، وكان
القسم يلعب دوراً هاماً في المحكمة ، فالطرفان المتنازعان كانا يتمهّدان أمام الآلهة
باحترام الحكم الصّادر ، كأمر نهائي غير قابل للتّعديل ، وكان بالإمكان الاستئناف
النّهائي إلى الملك نفسه .

وأصفت ديانة البابليّين بكثرة الآلهة^(١١) ، فبابل دولة دينيّة خاضعة لأمر

(١١) في القرن التاسع قبل الميلاد كان في الدّولة البابليّة ٦٥,٠٠٥ إلهاً ، لكلّ مدينة إله ، وللقري إلهة صغرى =

الكهنة ، ولكل مدينة ربٌ يحميها ، بل ولكل أسرة آلهتها المنزلية تقام إليها الصلاة ، حتى شريعة حمورابي استهلّت بأسماء الثالوث الأكبر للآلهة البابلية المؤلفة من أنو وبل ومردوخ كبير الآلهة البابلية .

وكان عند البابليين ثالوث ثانٍ مؤلف من : سين إله القمر ، وهو الابن الأكبر للإله أنليل ، وشماش إله الشمس ، وهو القاضي الأعظم ، إله العدالة ، والحق والنور ، وعشتار إلهة الجمال والحب والعطف على الأمومة الولود والخصب الخلاق في كل مكان ، وعشتار هي نجم الزهرة ، ابنة أنو ، وأحياناً ابنة سين ، وتدلُّ عبادة عشتار على المكانة السامية التي كانت للمرأة والأمومة في بابل^(١٢)



* عشتار :
إلهة الحب والخصب
والحرب

= تعبيدها وتخلص لها ، وأحياناً لكل أسرة آلهتها المنزلية ، لقد هذب الدّين طباع البابلي ، ومع ذلك وصفها أعداؤها « بيبابل العاهرة » للتّرف العام والانحلال ، فقد كان الشّبّان يصبغون شعورهم ويقصّونها ، ويعطّرون أجسامهم ، ويمجّرون خدودهم ، ويزيّنون أنفسهم بالعقود والأساور والأقراط والقلائد ، لقد انهك أهل بابل في ملذّاتهم ، فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيّين والآشوريين والفرس واليونان .

(١٢) وهناك رأي - وهو الأصح - أن مركز المرأة في بابل كان أقلّ منه في مصر ، (فالعهر المقدّس) كان يفرض على كلّ امرأة بابلية ، أن تجلس في هيكل الزهرة مرّة في حياتها ، وأن تضاع رجلاً غريباً .

وعقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلي ، ذلك ان دينه كان دينا
أرضياً عملياً ، فإذا صُلّي لم يكن يطلب في صلاته ثواباً في الجنة ، بل كان يطلب متسعاً
في الأرض ، مع أن هناك نصوصاً ذكرت عن الإله مردوخ « الذي يحيي الموتى » .

أما في مجال الحياة الاجتماعية عند البابليين ، فقد كان الرجل يتزوج من امرأة
شرعية واحدة ، وتسمح له التقاليد أن تكون له محظية أو أكثر ، ويتم الزواج بوثيقة
مكتوبة ، يحدد الزوج بموجبها حقوق الزوجة وواجباتها ، ويدفع والد العروس
أو إختها أو وليها بائنة للزوج ، وتبقى البائنة ملكاً للزوجة حتى وفاتها ، فتنقل
إلى أولادها ، أو تُرد إلى بيت أبيها إن لم يكن لها أولاد ، ولا يلزم أحد الزوجين
بتسديد ديون ما قبل الزواج ، ولكنها مسؤولان بالتضامن عن ديون ما بعد الزواج ،
ومنحت شريعة حمورابي المرأة المتزوجة إذا أحسنت تدبير شؤون البيت ، الحق في أن
تستعيد بائنتها وتهجر زوجها ، وتعود إلى بيت أبيها إن ثبت لدى القاضي إهمال
الزوج ، أو طول غيابه ، أو هجره لها ، وإذا أَسِر الزوج كان على المرأة أن تظل وفيّة
له ، إلا إذا لم يترك لها شيئاً تعيش منه ، فإنها تستطيع أن تتزوج من جديد ، فإن عاد
زوجها عادت إليه ، وتركت زوجها الثاني وأولادها منه لأبيهم .

وكانت التركة تقسم ودياً ، أو عن طريق المحكمة بين الورثة ، ويحرر لكل وارث
لوحة تسجل فيها حصته ، ولم يكن يسمح بانتقال أملاك الدولة التي تخصّ لرجال
الجيش إلى الورثة .

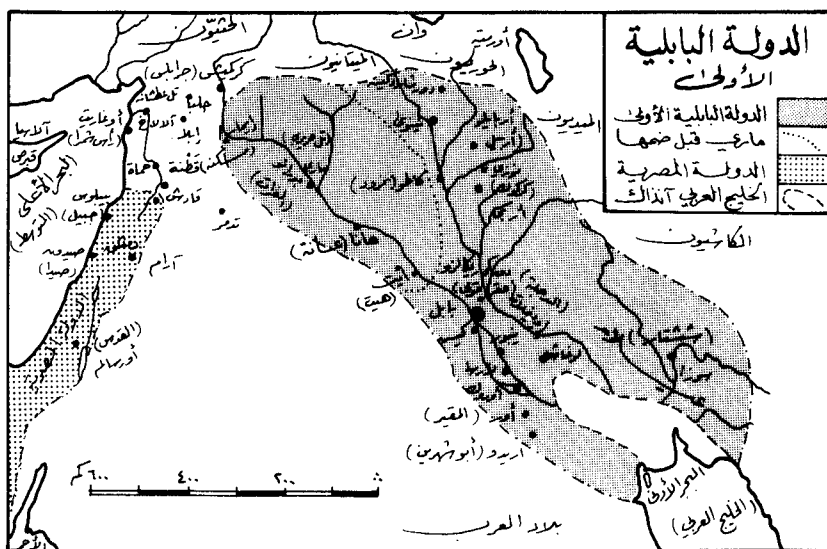
أما طبقات المجتمع فهي :

١ - الطبقة العليا (الأميلو) : وُلِد أفرادها أحراراً من أبوين حُرّين ، أو من أم
حرّة ، أما إذا كان أبوه حرّاً ، وأمّه جارية فيصبح مُحَرَّراً ، وليس له كافّة حقوق
الأحرار ، وكان الأحرار يتمتعون بكلّ الحقوق ، ولهم السيادة في المجتمع .

٢ - طبقة العامة (الموشكينو) : أي المساكين ، وأفراد هذه الطبقة الفقراء من

الأحرار أو الأرقاء الذين تحرّروا ، وكان معظم أفراد هذه الطبقة من الأحرار الذين تزوّجوا بالإماء ، فولدوا لهم أبناء عدّوا من طبقة الأرقاء ، ولكنهم تحرّروا بموت والدهم ، ويعمل أفراد هذه الطبقة بشتّى المهن .

٣ - طبقة العبيد الأرقاء (واردوم) : وأفراد هذه الطبقة هم الذين وَلِدُوا في الرِّق ، وأسرى الحرب ، واعترفت لهم شريعة حمورابي ببعض الحقوق ، كإمكانية الزواج من امرأة حرة ، والأولاد من الحرة أحرار ، وفسحت لهم إمكانية التحرر بدفع مبلغ من المال يستقرضه من المعبد ، وكانت أجساد العبيد تكوى وتوشم بعلامات خاصة للتمييز بينهم ، وكانوا يؤدّون أعمال السخرة ، ومعرّضين للبيع أو الرهن وفاء لدين ، لأنّ العبد وما ملكت يمينه لسيّده ، وكان السيّد أحياناً يعهد إلى أحد عبيده بعمل تجاري ، ويسمح له أن يحتفظ بحصة من أرباح عمله ، وأن يبتاع بها حرّيته .



واهتمَّ البابليُّون بالزِّراعة ، فاكْتسبوا من حفر الأقيّة ، وإقامة السُّدود الصَّغيرة للحماية من الفيضان ، معلوماً هندسيّةً واسعة ، وعيّنوا المفتّشين للإشراف على تطهير الأقيّة ، وعلى حُسْن توزيع حصص كل حقل من مياه الرّي ، لأنّ الأراضي كانت ممسوحة ومحدّدة .

⁵ وانتشرت أيّام حمورابي صناعة صهر المعادن وسكبها ، ومنها : النحاس والقصدير والأثيموان لصنع البرونز ، والرصاص ، وعرفوا الحديد على نطاق ضيّق ، واهتمَّ البابليُّون بصناعة الأسلحة ، ودبغ الجلود ، وصبغ المنسوجات ، ومعاصر الزيتون ، ومن الآلات الصنّاعيّة في الحضارة البابليّة نول النّساج ، وعجلة الفخاري .

وبفضل موضع بابل الجغرافي ، أضحت المركز الرّئيسي لتجارة الشرق ، فالحضارة ١٠ البابليّة تجاريّة في جوهرها ، لذلك عرفوا القروض بفائدة ، ودون فائدة ، ولكنهم لم يتوصّلوا إلى سكّ النقود ، فاستعملوا أسلوب المقايضة ، وبسبب مركزهم التجاري المتميّز ، أصبحت الكتابة المسماريّة البابليّة دوليّة ، ولكن ما وافي القرن السّابع قبل الميلاد حتّى أخذت الحروف الهجائيّة تزاوحها .

أمّا من النّاحية العلميّة ، فالبابليُّون هم الذين قسّموا محيط الدّائرة إلى ٣٦٠ درجة ، ١٥ وكلّ درجة إلى ٦٠ دقيقة ، وكلّ دقيقة إلى ٦٠ ثانية ، ووضعوا قواعد لاستخراج مساحة الأشكال غير المنتظمة والمساحات المعقّدة ، وأوجدوا إشارات الطّرح والتّقسيم ، واعتمدوا التّعداد العشري ، والتّعداد السّتيني ، وقسّموا اليوم إلى ١٢ قسمًا ، وكلّ قسم يتألّف من ساعتين ، وكلّ ساعة من ٦٠ دقيقة ، وقدّروا الزّمن بالسّاعات المائيّة وبالزّولة .

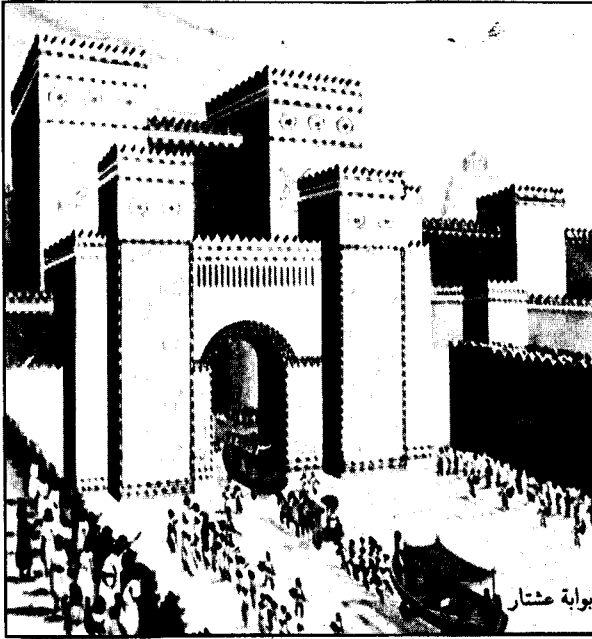
وكانت سنتهم اثني عشر شهرًا قريّا ، ستّة أشهر منها مؤلّفة من ٣٠ يومًا ، وستّة ٢٠ أشهر مؤلّفة من ٢٩ يومًا ، ولمّا كان مجموع أيّام السّنة بذلك ٣٥٤ يومًا فقط ، أضافوا شهرًا استثنائيّا قصيرًا تضبط به أيّام السّنة .

وتقدّم علم الفلك أيّام البابليّين تقدّمًا كبيرًا ، لأنّ اهتمامهم العظيم بالنّجيم قادم

إلى رصد النجوم ، وصوّروا مساراتها ، ولاحظوا الفرق بين الكوكب السيّار ، والنجم الثّابت ظاهريّاً ، فالبابليّون « خالقو علم الفلك »^(١٣) .

ومع امتزاج الطبّ بالسّحر ، إلّا أنّ التّجربة لعبت دوراً مهمّاً ، واستُخدمت أدوية من عدّة أنواع معدنيّة أو نباتيّة أو حيوانيّة .

وعرف البابليّون الأراضي القطبيّة « حيث الظّلام هناك كثيف ، ولا يوجد هـ ضوء »^(١٤) .



* بوابة عشتار

(١٣) قصّة الحضارة : ١٩٠/٢

(١٤) عثر المنقبون في خرائب جاسور ، الّتي تبعد عن بابل مئتي ميل شمالاً ، على لوح من الطّين يرجع تاريخه إلى ١٦٠٠ ق.م ، يحتوي في مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة على خريطة لمحافظة (شط - أزلا) مُثّلت فيها الجبال بخطوط دائريّة ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار بخطوط متوازية ، وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، ويبيّن في هامشها اتّجاه الشّمال والجنوب ، [قصّة الحضارة : ٢٥٢/٢] .

ولم تتقدّم الفنون تقدّماً يذكر في عهد البابليين ، على الرّغم من انتشار المدارس والتّعليم ، لقد شجّعوا التّلاميذ بحكمة تقول : « إِنَّ مَنْ يَتَفَوَّقُ فِي كِتَابَةِ الرُّقْمِ سِيزِيءُ كَالشَّمْسِ » .

« زيادة الثروة يخلق المدنيّة وينذر باخلاها وسقوطها ، فالدّعة والنّعيم والتّرف تغري أصحاب السّواعد والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثّراء » ، لقد هاجم الحثيّون بابل سنة ١٥٩٤ ق.م ونهبوها ودمروها ، ولكنّهم لم يستقرّوا فيها ، إذ ردّهم أحد ملوك دولة المنطقة البحريّة ، الّتي تأسّست حول الخليج العربي أيّام ضعف البابليين ، ووطّد حكمه في بابل ، ولكن لفترة قصيرة ، حيث هبطت قبائل من جبال زاغروس واحتلّت بابل ، وأسّست دولة عُرِفَت باسم الدّولة الكشيّة ، دامت حتّى ١١٧٠ ق.م ، وكانت عاصمتها قرب بابل ، تعرف باسم (دوركوريكالزو)^(١٥) ، ويعدّ عهد الدّولة الكشيّة عهد تأخّر وتقهقر بالنّسبة إلى بلاد الرّافدين ، فقد اقتبست الحضارة البابليّة ، ولم يأت الكاشيّون بجديد ، إلّا إدخالهم تربية الخيل ، وصناعة الحديد .

وسّع الكاشيّون نطاق حكمهم جنوباً وشمالاً ، واصطدموا بالحثيّين ، وهزمهم سنة ١٥٣٠ ق.م ، أشهر ملوكهم أجوم الثّاني الّذي انتصر على الحثيّين ، وكوريكالزو الأوّل ، وبورنابورياس الأوّل ، ثمّ قضى الآشوريّون على حكم الكاشيّين .



الآشوريّون : [١٩٠٠ - ٦١٢ ق.م] :

الآشوريّون قبائل عربيّة قديمة ، هاجرت حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م إلى شمالي بلاد الرّافدين ، ولم يعرفوا الطّمانينة والاستقرار قرابة ألف سنة ، بسبب الحروب والغارات ، وخضوعهم لشعوب وأمم جاءت من أواسط آسية .

(١٥) دوركوريكالزو : عقرقوف حالياً ، (أطلس التّاريخ العربي ، ص ١٤) .

نَسَبُوا إِلَى إلههم آشور ، الذي مثل قسوتهم وخشونتهم وبأسهم الحربي الشديد ، لقد عاشوا للحرب ، يذكون نارها ، ويخوضون غمارها ، عاصروا حمورابي ، وخضعوا له ، ثم وقعوا بين نارَيْن ، نار الكاشيين من الجنوب ، ونار الميتانيين من الغرب ، الذين دخلوا آشور في عهد ملكهم شوشتر ، ولكن آشور أوباليط : [١٣٩٢ - ١٣٣٧ ق.م] تمكن من القضاء على الميتانيين ، والاستقلال بتحالفه مع الحثيين .

توسَّعت الإمبراطورية الآشورية حتَّى مصر والأناضول وعليلام ، بسبب الأسلحة الحديدية التي كانت بجوزتها ، والتي كانت تتفوق كثيراً على الأسلحة البرونزية ، التي استعملها أعداؤها^(١٦) ، وكان أوج المجد والتَّوسُّع أيام آشوربانيبيل : [٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م] ، ولكنها سقطت سنة ٦١٢ ق.م لاعتقادها على الإرهاب العسكري ، وخشونة طباع جندها ، ووحشية قادتها ، ولكثرة الحروب التي سببت الفقر والمرض ، فقامت دولة قوية في بابل على يد أسرة كلدانية ، وكان من أشهر ملوكها نبوخذنصر الذي قضى على مملكة يهوذا سنة ٥٨٥ ق.م^(١٧) ، وفي عام ٥٣٩ ق.م اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل ، وانتقلت السيادة السياسية إلى الفرس حتَّى سنة ٣٣١ ق.م ، حين استولى الإسكندر المكدوني على الشرق ، ولكن السيادة العربية عادت إلى بلاد الرافدين عندما خرج الجيش العربي الإسلامي محرراً العراق وبلاد الشام ومصر .. منذ الثلث الأوَّل للقرن السابع الميلادي .

كانت الحكومة الآشورية كلها أداة حرب قبل أي شيء ، اعتمدت العنف ، وبالغت في الوحشية ، وأسرفت في إتلاف الحياة البشرية بطريقة مؤلمة ، لقد دُمِّرت المدن المغلوبة تماماً ، وحرقت عن آخرها ، وقُطِّعت أشجارها ، وكوفئ الجندي الآشوري بعدد الرؤوس التي قطعها ، وهكذا كان مصير سكَّان المدن المغلوبة الإبادة ، أمَّا الأشراف والحكَّام المغلوبون ، فكانوا يلقون معاملة خاصَّة ، فتُصَلَّم أذانهم ، وتجعد

(١٦) بهجة المعرفة ، المجموعة الثانية : ٩٥/٣

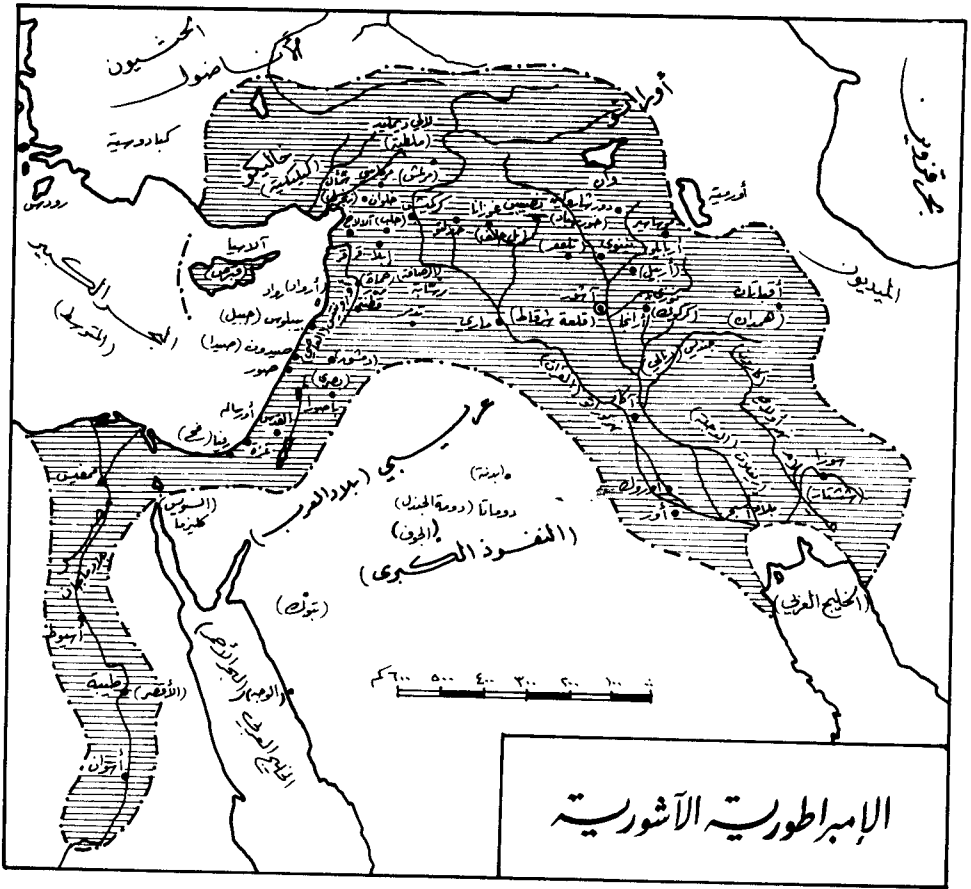
(١٧) ويثَّمل هذا التاريخ السَّيِّ البابلِي .

أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسادهم فوق نار هادئة ، وهكذا تأسست إمبراطوريتهم على الجحاش ، وركام المدن ، وأنين الجرحى ، وآلام الثكلى .

والمملك نائب الإله على الأرض ، يحكم باسمه ، يمسك بيده جميع السلطات ، ويشرف بنفسه على جميع الأعمال الإدارية في البلاد ، وهو رئيس الكهنة ، يساعده عدد من كبار الموظفين ، على رأسهم الوزير الأكبر ، وقائد الجيش (التارتان) ، الذي يعدُّ بمثابة وزير الحربية ، يُنبيه الملك أحياناً إن لم يتولَّ بنفسه قيادة الجيش ، الذي امتاز بسرعته في مهاجمة العدو ، واستعماله الحديد بكثرة في صناعة الأسلحة ، مع شجاعة وشِدَّة بأس ، ونظام وطاعة ، والآشوريون هم الذين اخترعوا آلات القتال التي تدكُّ الحصون والقلاع كالذبابة والكبش .. ممَّا أعطى المهندسين مكانة خاصَّة في جيش الآشوريين .

ويظهر من الرُّقْم الآشورية التي احتوتها مكتبة آشور بانيبعل ، والتي كُتبت بالخطِّ المساري^(١٨) ، أنَّ الآشوريين كانوا يعرفون جيِّداً شريعة حمورابي ، لأنَّ آشور بانيبعل أمر عدداً من الكتَّبة ، بجمع كلِّ ما خلفه السُّومريُّون والبابليُّون من آداب ونسخه ، وجمَع ما نسخوه وما جمعوه في مكتبة عظيمة في نينوى ، لذلك ربَّما كانوا يطبِّقون شريعة حمورابي ، غير أنَّ القوانين الآشورية امتازت بدقَّتِها ، وكانت أكثر شِدَّة في أحكامها من شريعة حمورابي ، ومن أسباب ذلك طبيعة المنطقة الجبلية التي

(١٨) سُمِّي علم قراءة الكتابات المسارية بالعلم الآشوري ، لأنَّ الكتابات المسارية اكتشفت لأوَّل مرَّة في بلاد آشور ، ثمَّ أطلق عليه العلم الآشوري - البابلي بعد اكتشاف الحضارة البابلية ، لقد حثَّرت الكتابة البابلية المسارية العلماء ، وكان حلُّ رموزها من أجلِّ الأعمال في تاريخ العلم ، واستطاع هنري رولنسن أن يقرأ ثلاثة أسماء في نقش مكتوب بالخطِّ الفارسي القديم ، وهو خطُّ مساريٍّ مشتقٌّ من الكتابة البابلية ، ثمَّ قرأ الوثيقة كُلَّها ، ثمَّ عثر على نقش على صخرة في جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأول الحفَّارين أن يسجِّلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسيَّة القديمة ، والآشورية والبابلية ، وثمَّت معرفة النَّصِّين الآشوري والبابلي على ضوء النَّصِّ الفارسي القديم ، وذلك سنة ١٨٤٧ م .



سكنوها ، لذلك لم تختلف الحياة الاجتماعية كثيراً عما كانت عليه أيام البابليين ، وانقسم مجتمعهم إلى طبقتين رئيسيتين :

الأحرار : وتضم الأعيان ، ورجال الصناعة المنتظمين في نقابات ، وأرباب المهن والحرف والعمال الأحرار من صنّاع المدن ، وزرّاع الرّيف .

والعبيد : وتضم الأتقان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، والأرقّاء من أسرى الحرب ، أو المرهونين لِدَيْن ، ولقد عوملت هذه الطبقة معاملة سيئة جداً ، إذ ألزموا بالإعلان عن مركزهم الاجتماعي بخرق آذانهم ، وحلّق رؤوسهم ، وكلفوا بأشقّ الأعمال وأحقرها ، وإذا بيع العبد ، فإنّ أسرته كلّها تباع معه .



* تمثال منقوش لحيوان مجنَّح رأسه رأس إنسان ، يمثل نموذجاً من حضارة بلاد ما بين النهرين ، عُثِرَ عليه في مدينة دورشاروكين .

أما الناحية الدنيَّة ، فقد كانت عقيدة الآشوريِّين شبيهة بصورة عامَّة بعقيدة البابليِّين ، مع تعديل تناسب مع الرُّوح العسكريَّة للآشوريِّين ، فاستبدلوا بالإله مردوخ البابلي ، الإله الوطني آشور ، وأصبحت عشتار (قرينة آشور) تُسمَّى بعليث ، ربَّة السَّماء والمعارك .

وفي نسخة آشوريَّة من القرن السَّابع قبل الميلاد - قد تكون وثيقة يظنُّ أنها نصٌّ بابليٌّ قديم - نجد الوصايا التَّالية :

« لا تغتَبُ أحداً ، وكُنْ عَفَّ اللِّسان .

لا تنطق بالشرِّ ، تلطَّف في كلامك .

إنَّ من يغتَب وينطق بالشرِّ ، يصب شماش (إله العدالة) عقابه على رأسه .

إيَّاك والإسراع في الكلام حين تكون مغضباً .

إذا تكلمت في أثناء غضبك ندمت فيما بعد .

وأحزنت عقلك بالسُّكوت ، تقدِّم إلى إلهك كلَّ يوم بالهبات والصَّلَاة ، فهي خير أنواع البخور .

أقبل على إلهك بقلب طاهر ، لأنّ هذا هو ما يليق بالإله .
عليك بالصّلاة والاستغفار والسّجود له في الصّباح الباكر ، تسعد بمعونة الإله .
وتعلّم بحكمتك من اللّوح (الّذي سطر فيه هذا الكلام) .
إنّ مخافة الإله تجلب الرّضا .
والقربان يغني الحياة .

والصّلاة تؤدّي إلى غفران الذّنوب » ^(١٩) .

ولكن الآشوريّين اختلفوا عن البابليّين باهتمامهم بالزّراعة كثيراً ، بينما اهتمّ البابليّون بالتجارة اهتماماً كبيراً ، لقد أنشئ في عهد سنحريب مجرى مائي فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلاً ، ولعلّه أقدم مجرى مائي فوق قناطر عرف في التّاريخ .

أمّا الصّناعة ، فكانت واحدة في كلّ من بابل وآشور ، مع انتشار صناعة الحديد خاصّة ، والمعادن عامّة ، كما ازدهرت صناعة النّسيج .

أمّا علوم الآشوريّين ، فهي إلى حدّ بعيد ، علوم البابليّين في الرّياضيّات والهندسة والطّب والجغرافية .

وعندما قامت الدّولة الكلدانيّة ^(٢٠) بعد الدّولة الآشوريّة ، وذلك سنة ٦٢٦ ق.م ، زالت سلطة الإله آشور ، وأصبح مردوخ صاحب المكان الأوّل بين الآلهة .

ولمّا استولى نبوخذنصر على بلاد الشّام بعد معركة كركيش ، جعل بابل عاصمة الشّرق الأدنى كلّها بلا منازع ، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أثبة وفخامة ، وراح يتباهى ويفتخر : « أنا نبوخذنصر ملك بابل » ^(٢١) .

(١٩) تاريخ العالم : ٦٨٤/١

(٢٠) وهي الدّولة البابليّة الثّانية : [٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م] .

(٢١) قصّة الحضارة : ١٩٧/٢

وبقيت الناحية العلمية عند الكلدانيين تشبه إلى حد بعيد علوم البابليين في الرياضيات والهندسة والطب .. وحصل تقدم في علم الفلك ، فرسموا مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا الخسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب ، وحددوا الانقلابين الشتائي والصيفي ، والاعتدالين الربيعي والخريفي .

وإذا ذكرت بابل أيام الكلدانيين ، ذكرت الحقائق المعلقة في بابل ، فهي إحدى عجائب الدنيا السبع^(٢٢) ، لقد كانت جنائن بارزة على شكل مصاطب مرتفعة وفسحة ، مبنية فوق أقواس تُسقى بواسطة مضخات لولبية ، هي أعجوبة بحد ذاتها ، تديرها أيدي الرقيق ، أمر ببنائها نبوخذنصر عام ٥٠٠ ق.م تكريماً لزوجته الميديّة أميتس .

ومن أجل آثار بابل أيضاً عشتار ، التي أعاد بناءها نبوخذنصر^(٢٣) .



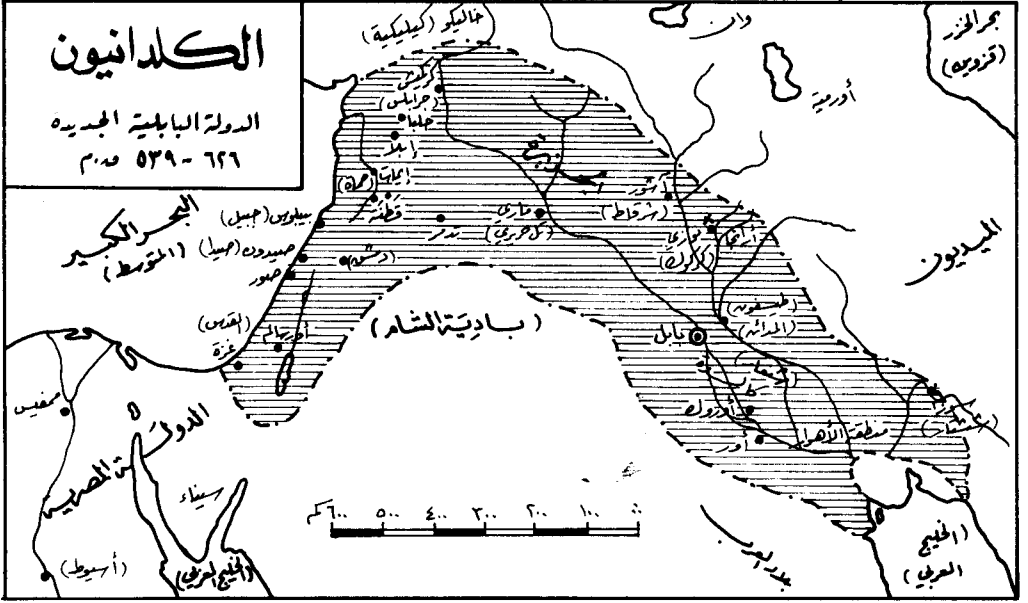
حَضَارَةُ بِلَادِ الشَّامِ

عُثِرَ في كهوف متعدّدة في سورِيّة^(٢٤) على أدوات حجرية ، يرجع عهدها إلى حوالي مئة وخمسين ألف سنة ، كما وجدت بقايا فحم في كهوف جبل الكرمل ، مما يدل على بدء استعمال النار ، وفي العصر الحجري الوسيط [حوالي ١٢٠٠٠-٧٠٠٠ ق.م] ، سكن الإنسان في الأكواخ بدل الكهوف ، وبدأ يعمل في الزراعة وتدجين الحيوان ، وتمثل

(٢٢) لم يبق من عجائب الدنيا السبع حتّى أيّامنا هذه إلاّ أهرامات الجيزة بالقاهرة ، والعجائب هي إضافة إلى الحقائق المعلقة في بابل والأهرامات ، تمثل زيوس في أولمبية ، صنعه النحات الإغريقي فيدياس عام ٥٥٠ ق.م ، ومعبد أرتيس في إفسوس في ليديّة ، بُني سنة ١٠٥٠ ق.م ، وضريح هاليكارناس في أسيّة الصغرى ، بُني سنة ٣٥٣ ق.م ، وتمثال عملاق رودس صنعه كارلس عام ٢٨٠ ق.م ، ومنارة الإسكندريّة بُنيت أيّام بطليموس الأوّل ، وتهدّمت سنة ١٣٧٥ ميلاديّة .

(٢٣) انظر الصّورة ص ١٤٩

(٢٤) أي سورِيّة الطّبيعيّة ، بلاد الشّام .



حضارة هذا العصر في الحضارة النَّطُوفِيَّة^(١) ، الَّتِي وجدت نماذج منها في أريحا^(٢) وجبيل ، ورأس شمرا ، وأدَّت حياة الاستقرار إلى ظهور المجتمعات البشريَّة ، وملكِيَّة الأراضي ، وانتشار المعتقدات الدينيَّة .

وفي العصر الحجري الحديث الَّذِي دام حتَّى حوالي عام ٤٠٠٠ ق.م ، صُنِعَت الأواني الفخاريَّة الَّتِي ظهرت في الطبَّقات الدُّنيا في أريحا^(٣) ، كما ظهر الخزف في أرض الجزيرة ، وأشهر أنواعه الَّتِي اكتشفت في غوزانا^(٤) ، وتميَّز هذا الخزف بدقته ونعومة طينه ، وعثر في وادي الطَّاحون - بالقرب من بيت لحم في فلسطين - على بقايا ترجع إلى هذا العصر ، وسُمِّيت الحضارة الماثلة لحضارة هذا الموقع بالحضارة الطَّاحونيَّة ، ومن نماذجها ما عثر عليه في تلِّ السُّلطان قرب أريحا ، وتلِّ الجزر ، ومَجْدُو (تل المتسلم حاليًّا) .

١٠

(١) نسبة إلى وادي النَّطُوف الواقع إلى الشَّمال الغربي من القدس .

(٢) في غور الأردن شمالي البحر الميت .

(٣) ورثًا كانت أقدم خزف معروف في سورِيَّة حتَّى اليوم .

(٤) غوزانا : تل حلف اليوم ، انظر المصوِّر للتعرُّف على هذه المواقع .

ثمَّ بدأ العصر النحاسي - الحجري ، عندما بدأ الإنسان في سوريّة باستعمال النحاس منذ منتصف الألف الخامس قبل الميلاد ، ثمَّ انتشر البرونز ، ومن أهمِّ مراكز حضارة هذا العصر أوغاريت (رأس شمرا) ، وعدّة مراكز في شمالي سوريّة مثل : تل حلف ، وتل براك ، وعُثِرَ على غاذج قيّمة من حضارة هذا العصر ، في موقع تلييلات غسل شمال شرقي البحر الميت ، ويعدُّ هذا الموقع من أهمِّ مراكز حضارة العصر النحاسي - الحجري ، فأصبح نموذجاً تُنسب إليه حضارة المراكز المماثلة ، فتسمّى بالحضارة الغسوليّة ، ووجدت



نماذج من هذه الحضارة في مجدو ، والعفولة ، وبيسان ، وجبيل .. ومما يذكر أن الغسوليين اشتعلوا عادة الدفن في جرار كبيرة مؤلفة من نصفين كبيرين ، وحرقوا جثث موتاهم أحياناً .

الأموريون :

يَعُدُّ الأموريون^(٥) أوَّل الشعوب العربيَّة القديمة الَّتِي هاجرت من الجزيرة العربيَّة باتجاه سوريَّة ، وذلك حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م ، فانتشروا في أواسطها وشمالها وشرقها ، وأسَّسوا عدَّة ممالك مدن ، من أشهرها :

مملكة يحاض ، وكانت عاصمتها مدينة حلب ، ومن أشهر ملوكها (يارمليم) وابنه حمورابي ، معاصر حمورابي ملك بابل .

ومملكة آيسن الَّتِي تأسَّست في بلاد ما بين الرِّافدين .

وكانت الدَّولة البابليَّة أموريَّة كما مرَّ خلال الصَّفحات السَّابقة .

أما مملكة ماري الَّتِي سكنها قبل عام ٢٥٠٠ ق.م أقوام أكاديَّة - سوميَّة ، فكانت حضارتها تشبه حضارة السُّومريِّين ، وأخذ الأموريُّون حضارة السُّومريِّين والأكاديِّين ، فازدهرت ماري ازدهاراً عظيماً ، وسيطرت على طرق المواصلات الَّتِي تصل الخليج العربي بسوريَّة والأناضول قرابة قرنين : [١٩٥٠ - ١٧٥٠ ق.م] ، ولكن حمورابي بعد أن سيطر على جنوبي ما بين النهرين كلَّه ، سار بجيشه نحو ماري سنة ١٧٥٠ ق.م فأخضعها لحكمه ، ثم دمرها وأحرقها ، وقتل من قتل من سكَّانها ، وساق الباقي عبيداً ، وأضحت ماري ركناً من تراب .

(٥) أمورو كلمة استعملها سكَّان بلاد الرِّافدين ، تعني المنطقة الغربيَّة ، أي غربي بلاد الرِّافدين ، ثم أطلقت على سوريَّة كلَّها .

أمّا حضارة الأموريّين ، فهي الحضارة البابليّة في جميع وجوهها ، وتدلّ منحوتات ماري على مستوى فنيّ رفيع .



* إلهة الينبوع « مملكة ماري » في متحف حلب ، الثوب الطويل المتموّج تتدلّى منه بعض الخطوط المتعرجة رمزاً لتموّج الماء ومجاري الأنهار ، والإناء رمز للحياة والخصب .

وهاجر الكنعانيّون مع الأموريّين ، حوالي عليم ٢٥٠٠ ق.م ، ولكنهم استوطنوا سورية الجنوبيّة ، ولاختلاف توضع الشّعبيّن ، تأثّر الأموريّون بالحضارة السومريّة - الأكاديّة ، وتأثّر الكنعانيّون بالحضارة المصريّة ، وحضارة شعوب البحر المتوسّط .

واتشر الكنعانيّون شيئاً فشيئاً على طول السّاحل الشّامي لسوريّة ، وأطلق اليونانيّون اسم فينيقية المشتق من فينيقس Phinix ، أي الأحمر الأرجواني ، على القسم المتوسّط والشّامي من ساحل سوريّة ، كما أطلقوا اسم الفينيقيّين على الكنعانيّين سكّان هذا السّاحل .

أسس الكنعانيون ممالك مدن مثل : حبرون ، ييوس ، ييسان ، عمون ، مدين ، عكو ، صور ، صيدا ، بيروت ، طرطوس ، أرواد ، أوغاريت ..

والكنعانيون مسالمون بطبيعتهم ، لا يرغبون في الحرب إلا دفاعاً عن النفس^(٦) ، فاستفاد قوم موسى من ذلك ، ومن المنازعات بين المدن الكنعانية ، فأخذوا في الاستيلاء على فلسطين تدريجياً ، حتى بسطوا نفوذهم عليها .

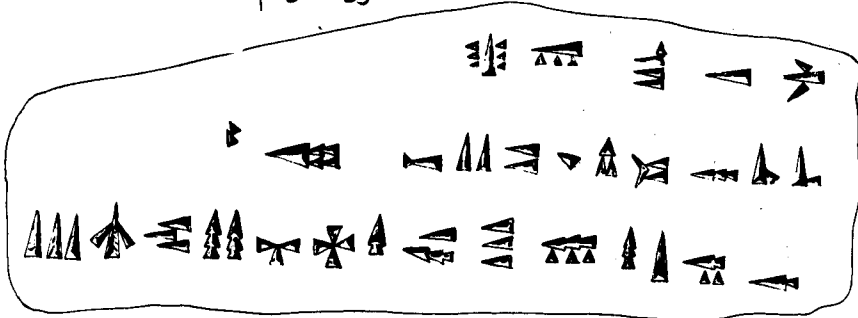
أما الفينيقيون (كنعانيو الساحل)^(٧) ، فقد أملت عليهم طبيعة المنطقة التي سكنوها أن ينظروا إلى البحار ، لأن السهل الساحلي ضيق ؛ حيث شكّلت الجبال سداً بين المنطقة الساحلية ، والمناطق الداخلية ، لذلك صنعوا سفنهم ، وركبوا البحر للتجارة فيه ، ومن أهم مدنها : أوغاريت (رأس شمرا) ، الذي نقّب فيه منذ عام ١٩٢٩ م كلودشيفر ، وتبيّن أنها كانت مركزاً تجارياً هاماً ، تقيم فيها الجاليات الأجنبية .

(٦) ومع ذلك عرفوا تحصين المدن بشكل جيد .

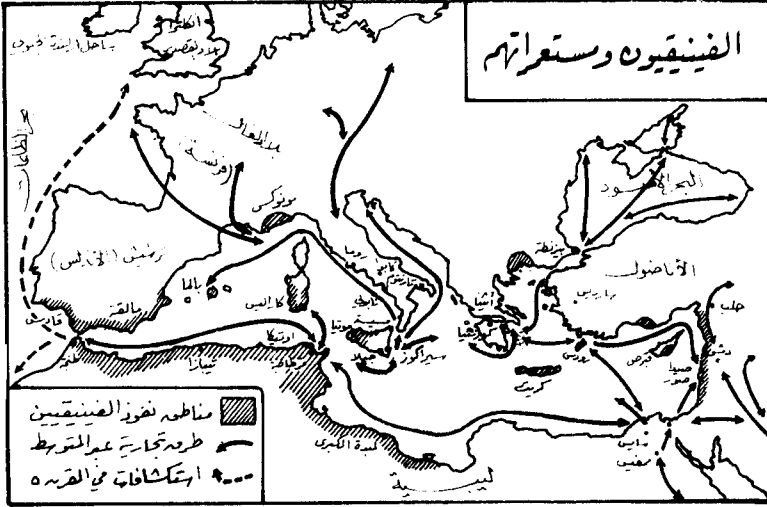
(٧) وجد العالمان الفرنسيان فيرولو Virolleaud ، ودوسو Dussaud في الملاحم الفينيقية التي اكتشفت في أوغاريت ، أن الفينيقيين أنفسهم يذكرون بأن أجدادهم قد هاجروا من منطقة النقّب إلى الساحل السوري ، ومن المعلوم أن النقّب كانت محطة انتقال من حياة البداوة إلى حياة التحضر ، وهذا دليل كافٍ لنقض افتراءات من أسقط الكنعانيين من جدول الشعوب العربية القديمة ، ليجعلوا قوم موسى أول من سكن فلسطين ، وكأنها كانت بلاسكان ، حتى قال صاحب كتاب (السريان حضارة وإيمان) ٨٦٢ : « ويتضح هذا من مراجعة الجدول الخاص بأنساب نوح الواردة في التوراة ، إذ نرى عدم ذكر الكنعانيين بين أبناء سام ، لكونهم غير سامي الجنس والدم ، في حين أن لغتهم تعد سامية محضة ، ولقد توهم كثيراً من جعل الكنعانيين ساميين ، وشك في صحة الجدول التوراتي ، لعدم ذكره الكنعانيين بين أبناء سام ، ولا صحة لقول بروكلمان إن بني إسرائيل هم الذين أقصوا الكنعانيين من الجنس السامي لأسباب سياسية ودينية .. إن الكنعانيين غير ساميين » ، ولخطورة هذه الأسطر وأمثالها في الكتاب ، زرت المؤلف مع بعض الزملاء ، ومع الاحترام ناقشنا الأمر ، وتراجع - عن قناعة أو عن غير قناعة - في الجزء الرابع ، وجعل الأمر الخطير هذا « خطأ مطبعياً » ليس غير !!

من بابل ومصر وقبرص وجزر بحر إيجه .. للتبادل التجاري ، وفيها اكتشفت أبجدية يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، مكتوبة بالمسارية ، وتضم ثلاثين حرفاً ، وجَبِيل (بيبيلوس) : التي كانت علاقاتها بمصر متينة ، حتى عُدت من أتباع فرعون مصر ، وصيدا سيّدة الساحل الفينيقي ما بين عامي : ١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق.م ، مع أنها كانت تحت النفوذ المصري ، لقد سيطر تجّار صيدا على قبرص الغنيّة بالنحاس ، ورودس ، وعدد من جزر بحر إيجه ، حيث الرّخام والكبريت والذهب والأرجوان .
* أبجدية رأس شمرا ، (أوغاريت) ،

القرن ١٤ ق.م



أمّا صور التي أصبحت زعيمة المدن الفينيقيّة من عام ١٠٠٠ ق.م إلى عام ٥٠٠ ق.م ، فكانت مراكبها تجوب البحر الأحمر ، ووصلت الهند وعادت محمّلة بالتوابل والذهب والأحجار الثمينة ، ووصل تجّارها إلى إنكلتر (بلاد القصدير) ، وهم الذين أسسوا قرطاجة (قارط هادشت : المدينة الجديدة) حوالي عام ٨١٤ ق.م ، والتي تبعت صور ، ولكنها أشرفت على بقيّة المراكز في غربي المتوسط ، وكانت ترسل كلّ سنة بعثة إلى معبد ملقارت إله مدينة صور ، وتقديم إليه عَشْر وارداتها ، وازدادت أهميّة قرطاجة بعد سقوط صور بيد الكلدانيين ، فانتقل إليها التجّار الصوريّون ، ولمّا بدأت الدّولة الرّومانيّة في التّوسّع اصطدمت بقرطاجة ، وحروب هانيبال القائد القرطاجي الذي غزا إيطاليا نفسها مشهورة ومعروفة باسم : الحروب البونيّة ، التي انتهت باستيلاء الرّومان على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م ، وحرّقها وتدميرها تماماً .



كانت سياسة القرطاجيين الاستعمارية سياسة شعب تجاري ، لا شعب محارب ، ومع ذلك امتازت مراكبهم الحرية بسرعتها ومتانة بنائها ، ومهارة مجذفيها ، مما ساعدهم على سيادة البحر ، والطواف بهذه المراكب على مستعمراتهم لحراستها ^(٨) .

عهد القرطاجيون بأمور الحكم إلى ملكين أو قاضيين ، اسم كل منهما (شوفيتيم) ، صارا بعد مدة يوليان سنة واحدة فقط ، وكان يساعدهما في تصريف أمور البلاد مجلس الشيوخ ، ولجنة مصغرة عن هذا المجلس . وإلى جانب هذين القاضيين ، كان يوجد خمسة موظفين كبار ، يعرفون باسم (الخمسة) ، مهمتهم انتخاب أعضاء المحكمة القرطاجية العليا ، ذات الصلاحيات الواسعة ، وعدد هؤلاء الأعضاء مئة وأربعة أعضاء ، وكانت مهمة الخمسة أن يراقبوا القاضيين ، وأن يعارضوها إذا أساء التصرف .

(٨) روما والشرق الروماني ، د . سليم عادل عبد الحق ، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م ، دمشق ، ص ١٢٣ وما بعدها .

وكان الحكم في قرطاجة (أرستقراطيًا) ، يتركز بيد عدد قليل من الأسر ، غير أن هذه الطبقة الأرستقراطية ، لم تكن مغلقة كما كان الأمر في طبقة الخواص الرومانيين ، بل كانت مفتوحة ، ويمكن حتى للأجانب النفوذ إليها ، ويأتي بعدها في السلم الاجتماعي طبقة الشعب .

٥ وامتدح أرسطو دستور قرطاجة ، الذي كان يمنع قيام الحكم الاستبدادي ، وذكر أن العادة جرت إذا حصل نزاع بين القضاة ومجلس الشيوخ أن يستفتى الشعب الذي يقبل أو يطرح المشروعات المتنازع عليها ، أما إذا كان القضاة ومجلس الشيوخ متفقين على تنفيذ هذه المشروعات ، فعلى الشعب أن يرضى بالأمر الواقع .

واستطاع هانيبال تقويم شؤون الحكم ، وإضعاف سلطة مجلس الخمسة ، وقصر عددهم على واحد . ١٠

واستطاع القرطاجيون السيطرة على مستعمراتهم بعقد اتفاقات معها على أشكال مختلفة ، كما أخذوا منها بعض الرهائن ، أو يستضيفون زعماءها ، وسمحوا لبعضهم بالزواج بالنساء القرطاجيات ، ومع هذه الطرق الدبلوماسية ، استخدموا طرقاً عنيفة لتحقيق سيادتهم على الشعوب الخاضعة لهم ، وقد استخدم هذه الطرق من قبلهم الآشوريون ، والمكدونيون والرومان ، منها ترجيل السكان العاصين أو المشبوهين ١٥ جميعاً من أراضيهم ، ولقد نفذ القرطاجيون ذلك في شرقي صقلية ، وإسبانية ، وإفريقية ، فتنظيم الإمبراطورية القرطاجية اعتمد على روابط اتحادية معقدة بين مدينة قوية ، وعدد من المدن الهامة ، باعها القرطاجيون المصنوعات الشرقية المختلفة ، كالأشياء البرونزية والمعدنية الثمينة والأواني المختلفة والعطور والجرار الفخارية المطلية ، والأقشة الثمينة ، والأدوات الفينيقية والمصرية كالعاديات والأحجار الكريمة ، وكانوا يبادلون الشعوب بضائعها بالخلي الزجاجية ، ويجذبونها إليهم بذلك ، وسعت قرطاجة إلى احتكار هذه التجارة ، معتمدة مبدأ المفاوضة على حاصلات الشعوب ، ولم تضرب النقود قبل القرن الرابع قبل الميلاد . ٢٠

ولعبت الزراعة دوراً مهماً أيضاً في حياة قرطاجة الاقتصادية ، فأنتجت الحبوب والزيتون والخضر والفواكه .. وكانت طرق القرطاجيين الزراعية مبنية على أحدث النظريات المعاصرة لاستثمار الأرض ، كما اخترعوا عدة أدوات زراعية ، حتى إن مجلس الشيوخ في رومة أمر جونيوس سيلانوس Junius Silanus أن يترجم إلى اللاتينية كتاباً في الزراعة ، ألفه القرطاجي ماغون ، وقد لُخص أيضاً هذا الكتاب باللغة الإغريقية . ٥

ولم يبرع القرطاجيون كثيراً بالفنون ، لأن فاعليتهم كانت منصرفة إلى المنشآت البحرية ، واكتشاف المحيط الأطلسي وغيره من البحار ، وتعميم استعمال الأجدية ، ومن أجل مخلفات الفنون القرطاجية ، قطع النقود التي تمثل أحياناً رأس الربة برسفونة ، وأحياناً النخلة ، أو رأس حصان ، وتجلت عبقرية القرطاجيين خاصة في المسائل العملية ، فقد كانوا مطلعين على كل اللغات الشائعة في حوض البحر المتوسط ، ١٠ ويتكلمونها بسهولة ، حتى إن الرومان كانوا يدهشون من براعة القرطاجيين في ذلك ، ولم يستطيعوا مجاراتهم في ذلك .

أما معتقدات القرطاجيين الدينية ، فقد كانت شبيهة بمعتقدات الفينيقيين الدينية ، عبدوا الأحجار المسماة (البيتيل) ، التي تحمل بها الآلهة ، كما عبدوا الأشجار والكواكب وقوى الطبيعة وبعض أنواع الحيوانات كالنخل مثلاً ، كما انتظمت لديهم عناصر عبادة الأموات ، وجعلوا لها أعيادها السنوية .

وعبد القرطاجيون الآلهة الكبرى الفينيقية ، ومنها الرب ميلقار إله مدينة صور الفضل ، والربة عشتروت ، والرب بعل - عمون ، والربة تانيت - بيني - بعل التي كانت تقدس خاصة في معبد بالقرب من مرفأ قرطاجة ، حيث وُجد عدد من الأواني الفخارية التي تحوي عظاماً محروقة لأطفال صغار ، مما يدل على أن القرطاجيين كانوا يضحون على شرف هذه الربة بأبكارهم ، شأن بعض الشعوب القديمة في الشرق الأدنى ، ومن هذه الآلهة الرب أشمون الذي كان ينسب إليه تشييد قرطاجة ، وقد بني له معبد ٢٠

كبير على تل بيسا في قرطاجة ، وكان لهذا المعبود درج فيه ستون درجة ، وكان أكبر معبد بين معابد المدينة .

كما عبد القرطاجيون بعض الآلهة الأجنبية ، مثل أبولون .

الآراميون :

هاجر الآراميون من الجزيرة العريضة حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، واستوطنوا أجزاء من المنطقة الوسطى والشرقية من سورية ، ثم تسرب قسم منهم إلى الشمال وجنوبي بلاد الرافدين ، فاصطدموا بالآشوريين ، ومن ممالكهم : مملكة بيت عدن وعاصمتها مدينة تل برسيب (تل أحمر على الفرات حالياً) ، وامتدت إلى البليخ شرقاً ومنابع الساجور في الشمال الغربي ، وبقيت حتى حوالي ١٠٠٠ ق.م ، ومملكة بيت بختاني أو آرام النهرين ، وعاصمتها غوزانا (تل حلف قرب رأس العين حالياً) .
ومملكة فدان آرام ومركزها مدينة حران ، ومملكة بيت آغوشي ، ومملكة شمال ، أي مملكة الشمال ، وعاصمتها مدينة زنجري ، كانت في سفوح جبال الأمانوس الشمالية ، وكانت تسمى (يعودي) أيضاً ، ومملكة حماة ، ومملكة دمشق ، ومملكة صوبة في البقاع .

وفي سنة ٧٤٥ ق.م اجتاحت تيغلات بيلاسر الثالث - أحد ملوك الآشوريين الجبابرة القساة - الممالك الآرامية وهزمها ، ولما عادت إلى التحالف تحت زعامة مملكة حماة ، هزمهم سرجون الثاني في معركة قرقر الثانية عام ٧٢٠ ق.م ، فوطد حكم الآشوريين في سورية .

الأبجدية : وما زال العالم بأسره حتى يومنا هذا مديناً لحضارة سورية القديمة ، بأعظم الاختراعات البشرية وأهمها في التاريخ القديم ، هو اختراع الحروف الأبجدية ، وأقدم كتابة بأقدم حروف أبجدية معروفة حتى الآن ، هي الكتابة الكنعانية السينائية القديمة ، والتي اشتقت منها أبجدية أوغاريت (رأس شمر) .

واعتنى الكنعانيون بالزراعة ، كالكروم والتين .. وعرفوا أدوات لدراسة الحبوب ، التي طحنوها في مطاحن حجرية تدار باليد ، واستعملوا وزنات من الفضة بدلاً من النقود .

وتفوق الفينيقيون في صناعة الزجاج ، والنسيج الصوفي والقطني ، وصنع الأقمشة بالأرجوان ، وهم من أول الشعوب البحرية في التاريخ ، يذكر المؤرخ القديم سترابون أن السفن الرومانية تعقبت سفينة فينيقية لكي تتعرف إلى الأسواق التجارية ، ولكن قائد السفينة الفينيقية قذف بسفينته عمداً إلى اليابسة ، واستلم من دولته ثمن المحمول الذي فقده ، وهذا يشير إلى احتكار حقيقي للتجارة ، وخصوصاً لتجارة القصدير ، وإلى نوع من الضمان تقوم به الدولة تأييداً لهذا الاحتكار .

وارتقى فن الملاحة بسبب هذه التجارة الواسعة النشطة ، حتى استطاع أدلاء السفن الفينيقية البحار ليلاً مسترشدين بالنجم القطبي ، أو النجم الفينيقي كما كان يسميه اليونانيون ، وطافوا حول القارة الإفريقية ، وكشفوا رأس الرجاء الصالح قبل فاسكودوغاما بألفي عام .

وكما يقول ديورانت : « ربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية ، وشرعوا ينتشلون أوربة من براثن الممجية »^(٩) ، وذكر مثالا لذلك اقتباس اليونانيين لحروف الفينيقين : « ولكن حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إيّاها الفينيقيون ، والتي علموها هم أوربة ، وهذه الرموز العجيبة هي بلا جدال ، أثني ما ورثته الحضارة من الأمم القديمة » .

ومما يذكر أخيراً بالنسبة للفينيقيين ، أنهم عرفوا تخنيط جثث موتاهم بطريقة لا تقل إتقاناً عن الطريقة المصرية ، واحتكر الآراميون تجارة سورية الداخلية ، ونشروا لغتهم وأبجديتهم في المناطق التي وصلوا إليها ، أو تاجروا معها ، وأصبحت لغتهم اللغة الدولية آنذاك .

(٩) قصة الحضارة : ٣١٣/٢

شِبْهُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

ليس من الغريب أو ليس من الخطأ القول : قامت على أطراف الجزيرة العربية ، شرقاً وشمالاً ، غرباً وجنوباً حضارات متقدمة ، كما قامت في وسطها أيضاً ، تشهد على ذلك آثار هذه الحضارات المتبقية حتى اليوم .

٥ ففي الشرق قامت حضارة ذات طابع تجاري في دِلْمُون^(١) ، والتي شملت الأحساء وشواطئ الإمارات الحالية على مدى عشرين قرناً ، حضارة قامت منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، ودامت حتى عصر الميلاد .

وكانت جزيرة فيلكة^(٢) التي أطلق عليها السلوقيون (إيكاروس) محطة تجارية ومركزاً دينياً ، حيث وجدت فيها ثلاثة معابد ذات طراز هليّني ، وفي جزيرة تاروت وتلال مستوطناتها في الأحساء آثار حضارة ذات طابع سلوقي . ١٥

وعُمان ، تدلُّ آثارها على أنظمة زراعية متقدمة منذ الألف الثالث حتى الألف الأول قبل الميلاد ، كبناء السدود ، وفي بعض الجهات مواقع للتّعددين ، وصهر النّحاس ، مع شواهد عديدة للعلاقات التجارية مع بلاد الرّافدين ووادي السّند .

لقد كانت سفن شرقي الجزيرة العربية (دلمون و عُمان) تحمل الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأصداف والنّحاس والنّسيج واللؤلؤ والأواني الفخّارية والحجرية والتّمر . ١٥

وفي الشّمال قامت في دُومَة الجَبْدَل (دُوماتا ، الجوف حالياً) مملكة عربية قديمة في القرن التاسع قبل الميلاد ، ضمّت الواحات التي حولها ، وكان لها نظامها وحكومتها وجيشها ومعاهداتها مع جيرانها ، وكان لها قصورها .

(١) دِلْمُون : هي جزر البحرين اليوم ، والبحرين في التاريخ القديم والوسيط : ساحل الإمارات حتى الكويت شمالاً .

(٢) بهجة المعرفة ، المجموعة الثانية : ١٢١/٣ وما بعدها ، وفيلكة جزيرة في شمالي الخليج العربي ، تابعة إلى الكويت .

لقد كانت (مملكة دوماتا) في دومة الجندل محطة قوافل تسيطر على عقدة الطرق التجارية في شمال شبه الجزيرة العربية ، وكان اشتراك ملكها (جندب) في حلف دمشق وموقعة قرقر (قرب حماة) ضد سلميصر الثالث سنة ٨٥٤ ق.م أحد التحالفات للدفاع عن طريق التجارة نحو الأناضول ، وتلتها تحالفات أخرى عديدة تماثلته ، كان أخطرها اشتراك شعب هذه المملكة العربية في ثورة بابل ، حوالي سنة ٧٧٥ ق.م ضد آشوربانيپيل .

ووردت أسماء عدة ملكات في هذه المملكة ، منهن : شمس ، وزيبية ، وسمورامات (سمرأميس) ، وباتعة .. وكُنَّ يُحضرن الحروب ، وكانت منهن كاهنات .

كان قوام تجارة هؤلاء العرب الذهب والفضة والقصدير والحديد وجلود الفيلة والعاج وأنواع الثوب ، والملابس الصوفية الملونة والكتانية ، والصوف الأزرق والأرجواني ، عدا الخيول والبغال والإبل ..

وفي غربي الجزيرة العربية قامت دولة التموديين ، وذلك في تبوك والعلا ومدائن صالح وتبء ووادي السرحان وحائل ، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم ^(٣) . يعيدها بعضهم إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، ويقول آخرون : والثابت أن هذا الشعب العربي كان موجوداً يحارب سرجون الثاني ملك الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد ، كما كان لدى الروم البيزنطيين فرقة حربية من التموديين في أواسط القرن الخامس الميلادي ، ونرى أن لا تناقض بين الرأيين ، إن قوم ثمود الذين ذكروا في القرآن الكريم هم فعلاً يعود تاريخهم إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وهم الذين قال عز وجل بحقهم : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَذَا أَمِينٌ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ^(٤) ،

(٣) في ستة وعشرين موضعاً .

(٤) الهضيم : اللطيف النضيج ، (اللسان : هضم) .

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ .
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَا أَنْتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ
يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَفَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا
نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ١٥٩ ﴾ [الشعراء : ١٤١/٢٦ - ١٥٩] .

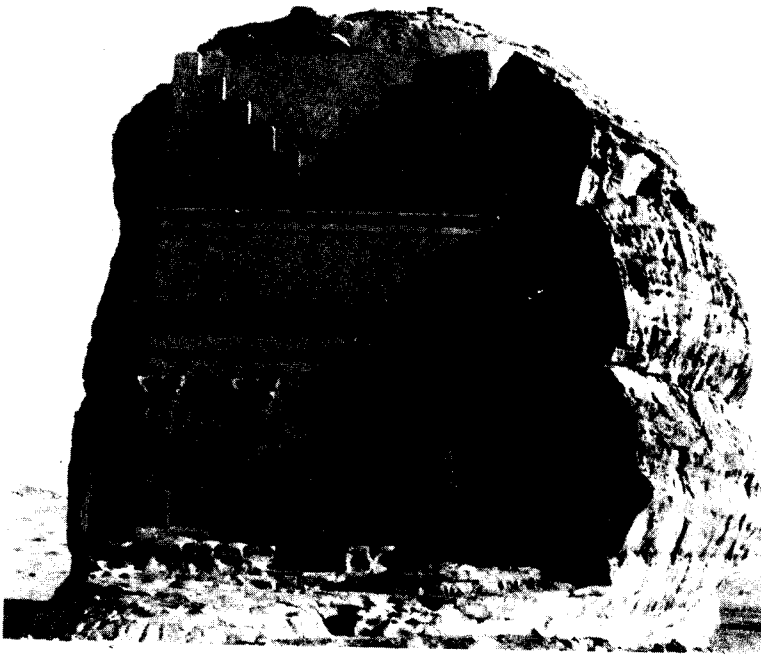
أما الذين حاربوا سرجون الثاني في القرن الثامن قبل الميلاد ، والذين كان لهم
فرقة حربية لدى الروم البيزنطيين في أواسط القرن الخامس الميلادي ، فهم العرب
الذين قطنوا هذه المنطقة الخصيبة وذات الموقع الهام بعد ثمود بسنين ، ولكنهم أخذوا
اسم المنطقة (ديار ثمود) ، ولا تزال المنطقة معمورة بالسكان حتى وقتنا الحاضر ،
فهي من الواحات الاستراتيجية الغنية بالمياه والنخيل والتربة الصالحة للزراعة .

والثموديون المتأخرون ، شعب تجارة سيطر على طرقها في منطقة انتقالها من
الخليج العربي - أو من اليمن - وهي في طريقها شمالاً إلى الشام ، وكانت لغة الثموديين
عربية شبيهة بلغتنا اليوم ، واشتقوا لأنفسهم أبجدية خاصة كتبوا بها .

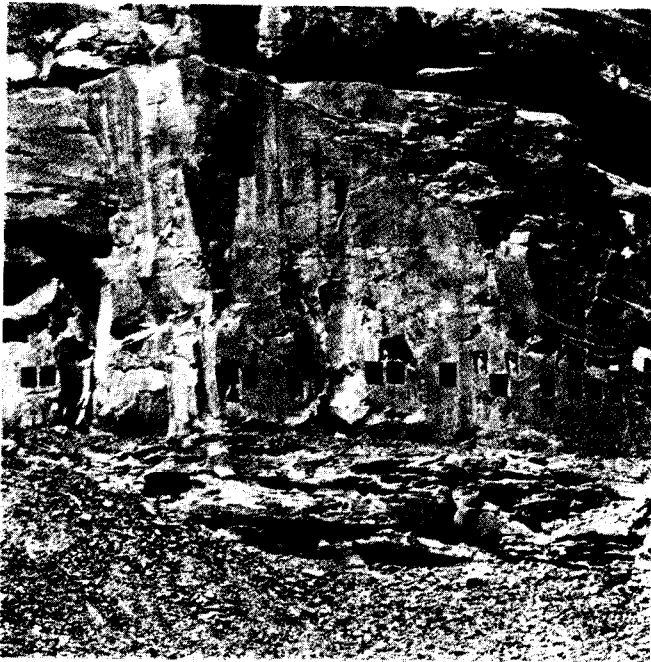
١٥ اندثر الشعب الثمودي كله وتمزق منذ القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس ،
ودخل في المجتمعات البدوية ، والحضريّة التي خلفته في المنطقة .

وقامت في الغرب أيضاً مملكة اللحيانيّين^(٥) ، قاعدتها ديدان (عند مدائن
صالح) ، التي سيطرت حتى تبوك والعلا ومدّين ودومة الجندل ، وبعد سقوط البتراء
في القرن الثاني الميلادي استولى اللحيانيّون على منطقة البتراء ، وورثوا مركزها
التجاري ، وكشفت الآثار اللحيانيّة والبقايا الفخاريّة والقبور المزخرفة بالنقوش في
بلدة العلا عن حضارة راقية .

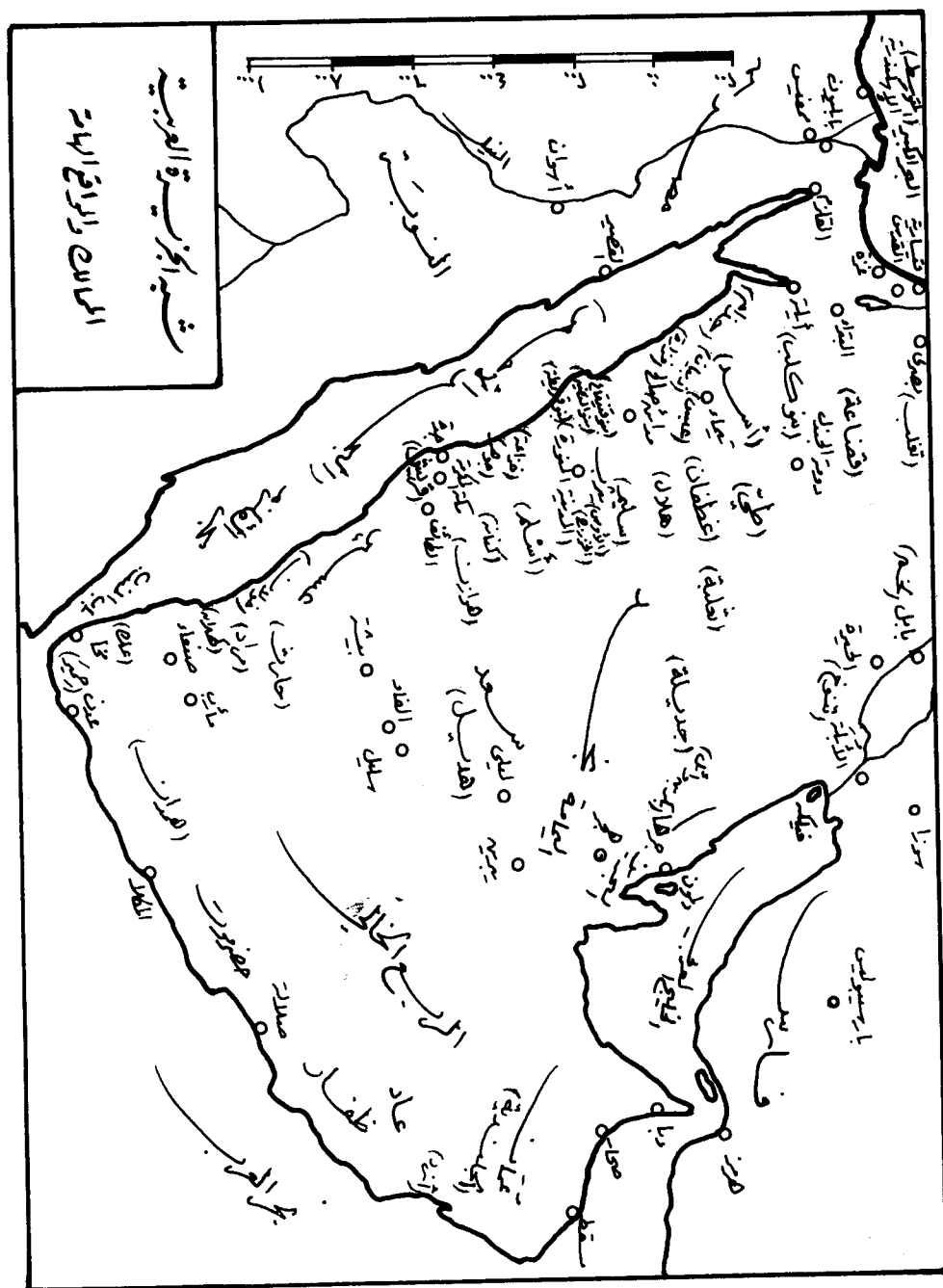
(٥) اللحيانيّون : شعب عربي لعله من فروع ثمود ، عمل بالتجارة مثلها ، واللحيان (لغة) : حائطا الفم .



* مدائن صالح (الحِجْر)



* العَلا



عرف الشعب اللحياني كتابة بين الخط المسند اليمني والآرامي ، وكانت لهذا الشعب صلاته التجارية المتينة مع جنوبي بلاد الرافدين ، تبرهن على ذلك الأختام اللحيانية المنقوشة بالرسوم البابلية .

تميّزت من بين المدن الثمودية - اللحيانية مدينة تيماء الجبلية ، التي بلغ من شأنها التجاري أن اتخذها نابونيد (٥٥٥ - ٥٣٨ ق.م) ، آخر ملوك بابل مقراً إقليمياً له ، ٥ بعد أن فتحها ، وبنى لنفسه فيها قصراً كقصوره في بابل ، ويبدو أن هذا الملك التقى المحب للآثار ، وجد في تيماء ملجأً له من حملات قورش الإمبراطور الفارسي ، فبقي فيها عشر سنوات ، وكان مستقراً هناك حين سقط عرشه .

الجنوب العربي (اليمن)

١٠ من الطبيعي أن تقوم مجتمعات مستقرة تمتهن الزراعة في منطقة خصبة معرضة لرياح موسمية صيفية ممطرة ، ومن الطبيعي أيضاً أن تشكل هذه المجتمعات فيما بعد حكومات تنظم حياة هذه المجتمعات وشؤونها ، ومن أهم هذه الدول التي قامت في اليمن ، حسب تسلسل قيامها :

ملكة معين : ١٢٠٠ ق.م - على أرجح الأقوال - وبقيت حتى ٦٠٠ ق.م .

١٥ مملكة قتبان : عاصرت معين سنة ١٠٠٠ ق.م ، وبقيت حتى ٢٠٠ ق.م .

ملكة حضرموت : اندمجت في مملكة معين قرابة ثلاثة قرون ، انتهت نحو سنة ٦٣٠

ق.م ، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة سبأ من سنة ٦٣٠ ق.م حتى سنة ١٨٠ ق.م ، ثم استقلت وبقيت حتى سنة ٣٠٠ م .

ملكة سبأ : ورثت معين ، ودامت من سنة ٩٥٠ ق.م ، وحتى سنة ١١٥ ق.م .

٢٠ مملكة حمير : من سنة ٣٠٠ م ، وحتى سنة ٥٢٥ م .

ومَّا يذكر أَنَّهُ لَمَّا تَسَلَّمَ أَغُسْطُسُ عَرْشَ الإِمْبَرَاتُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ ، عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى احتلالِ الْيَمَنِ ، فَأَوْعِزَ إِلَى غَالُوسٍ وَآلِيهِ عَلَى مِصْرَ سَنَةَ ٢٤ ق.م بالسَّيْرِ عَلَى رَأْسِ حَمْلَةٍ نَحْوَ الْيَمَنِ ، لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا ، وَبِالْثَّالِي عَلَى ثَرَوَاتِهَا^(١) ، وَلَكِنْ الْحَمْلَةُ أَخْفَقَتْ بِسَبَبِ تَعَرُّضِهَا لَهْجَمَاتِ الْعَرَبِ ، وَفَتَكَ الْأَمْرَاضُ بِأَفْرَادِهَا .

٥ وبدأ دور الاحتلال الحبشي لليمن سنة ٥٢٥ م ، وبقي حتى سنة ٥٧٥ م ، وبات التنافس بين المسيحية واليهودية شديداً على اليمن ، وتمكَّن سيف بن ذي يزن بعون فارسي أن ينهي الاحتلال الحبشي ، ليبدأ دور النفوذ الفارسي سنة ٥٧٥ م ، الذي بقي حتى إسلام باذان حاكم اليمن ومن معه من أبناء الفرس سنة ٦ هـ = ٦٢٨ م ، وأصبحت اليمن بذلك ولاية إسلامية .

١٠ كانت اليمن مقسمة إلى مخاليف ، والمخاليف مقسمة إلى محافد وقصور ، وفي حال اجتماع عدَّة مخاليف في وحدة إدارية تشكَّل (قِيْلًا)^(٢) ، ثمَّ ظهرت الملكية الوراثية نتيجة لتوسُّع الأقبال ، واستعان الملك بمجالس استشارية ساعدته في وضع القوانين ، وتنفيذ الأعمال ، وإدارة الحرب إن وقعت ، فدخل اليمن لم تكن دول حروب وفتوح ، بل تركَّزت جهودها في الأمور الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة ، ولذلك كان اختصاص جيشها حفظ النظام وحراسة القوافل التجارية ، وما كان ليدعى إلى حرب إلا إذا دعت الحاجة للدِّفاع عن سلامة البلاد .

لقد كان اليمنيون وسطاء نشيطين في تجارتهم الواسعة ، فنقلوا من الصين والهند وسواحل إفريقية الشرقية إلى المصريين والفينيقيين والآشوريين المعادن الثمينة ،

(١) وكان قوام الحملة عشرة آلاف جندي ، رافقها المؤرخ اليوناني سترابون ، والوزير النبطي صالح ، وعزا سترابون إخفاق الحملة إلى خيانة الوزير النبطي صالح ، واتهمه بتضليل الرومان ، والسَّير بهم في طريق مقفرة ، وفي أراضٍ لا زرع فيها ولا ماء ، بقصد إهلاك الجيش الروماني .

(٢) القَيْلُ : الملك من ملوك حِمْيَر يَتَقَيَّلُ مَنْ قَبْلَهُ من ملوكهم يشبهه ، وجمعه أقبال وقُيُول ، (اللسان : قيل) .

والأقمشة الحريرية ، والتوابل والأفاويه ، وريش النعام .. تفرغها سفنهم في مسقط ،
ثم تحملها قوافلهم عبر بادية الدهناء والخليج العربي إلى نجد فالحجاز ، حيث تتجه شمالاً
إلى معان ، لتتفرّع فرعين ، إمّا إلى مصر عبر سيناء ، وإمّا إلى فلسطين وفينيقيّة
وتدمر .. أو تحملها قوافلهم من مسقط إلى حضرموت فالين لتتجه شمالاً إلى العقبة ،
لتسلك بعدها الفرعين السّابقين إلى مصر وبلاد الشّام .

٥

وكان للمينيّين على طول هذه الطّرق محطّات فيها من الوسائل والمعدّات ما يوفرّ
راحة القوافل وأمنها ، ومأً لاشكّ فيه ، أنّ هذه التّجارة الواسعة أمّنت ثروة هائلة
للمينيّين نعموا بها .

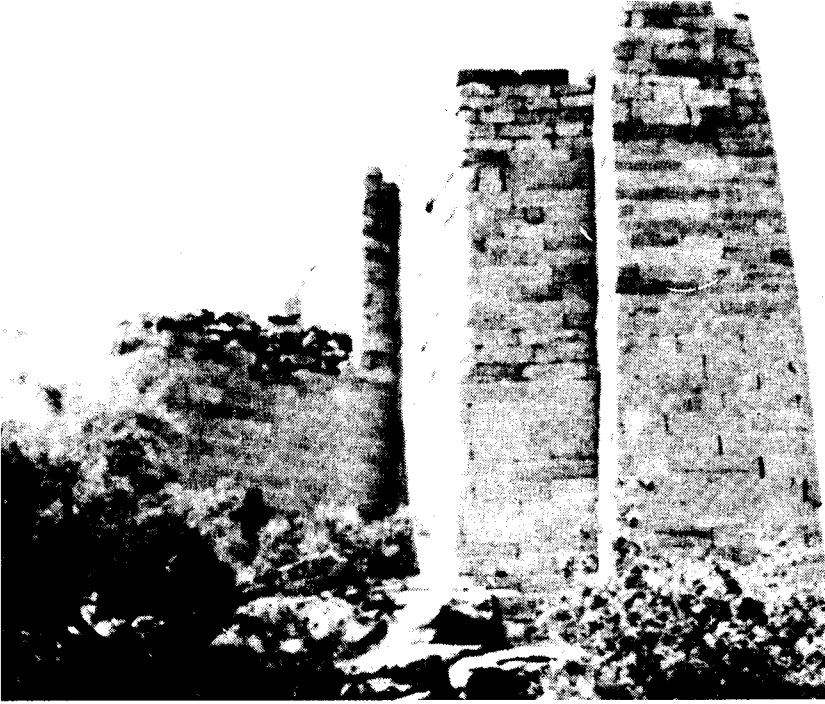
وساعدت الثّروة على تقدّم الصّناعة المينيّة ، خصوصاً وأن أرضها قد استخرج منها
الذهب والفضّة والأحجار الكريمة ، فامتدح السّيف الياباني ، والبُرْد اليابانيّة المستوردة ١٠
مادّتها الحريريّة الخام من الهند ، كما عرفوا دبغ الجلود ، وصنع التّروس والدّروع ،
وتحضير البخور واللّبان والطّيوب .

وتقدّم المينيّون في فنّ البناء ، فقد كانت القصور عدّة طبقات ، كقصر غمدان ،
وقصر ناعط ، ووجود سد مأرب^(٣) - وهو سدّ من سدود كثيرة - دليل واضح على أنّ
فنّ البناء والهندسة كانا على جانب كبير من التّقدّم والرّقي .

١٥

أمّا ديانة المينيّين القدماء فقد كانت وثنيّة ، لها معابدها وهيكلها ، فيها رموز
لآلهتهم ، ويحملون إليها ربح تجارتهم فيحتجز سدنتها ثلث الأرباح ، ويتركون الباقي
لأصحابها ، وأهمّ الآلهة الّتي عبّدت ثالوث : القمر ، والشمس ، وكوكب الزّهرة .

(٣) كان على ارتفاع ٣٩٠٠ قدماً عن سطح البحر ، بطول ٨٠٠ ذراعاً ، وعرض ١٥٠ ذراعاً ، وارتفاع بضعة
عشر ذراعاً ، بُني بالحجارة الضّخمة .



* سد مأرب

أما دولة كِنْدَةَ الَّتِي شغلت قلب الجزيرة العربيَّة ، فقد كانت عاصمتها الفاو^(٤) ، تربط بين جنوبي الجزيرة العربيَّة وشمالها ، وشمالها الشرقي ، تمرُّ بها القوافل القادمة من سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحِمْيَر ، فهي بذلك تعد مركزاً تجارياً واقتصادياً هاماً في قلب الجزيرة العربيَّة لمدة تزيد على خمسة قرون ، ولم تكن الفاو بمعزل عن منابع الحضارات آنذاك ، فجذبت أجمل مميَّزات حضارات العصر ، وأنتجت حضارة خاصَّة بها متميِّزة عما جاورها ، تتجلَّى بفنِّ العبارة والتزيين والنَّحت .

(٤) تقع بلدة الفاو شمال شرقي اليمن ، تسمَّى اليوم (قرية) ، فهي على أطراف الرُّبع الحالي قرب سليل ، شرقي ييشة ، قامت دولة كندة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد ، وحتى القرن الخامس الميلادي .

لقد تاجر (الكِنْدِيُّون) بالحبوب والطُّيُوب والنَّسِيج والأحجار الكريمة والمعادن ، فأثروا ثراء انعكست آثاره فيما بنوه من قصور وأسواق ومقابر ومعابد ، وما زَيْنُوا به بيوتهم من رسوم متنوّعة في موادّها وموضوعاتها ، وتماثيل معدنيّة ، وأخرى مصنوعة من المرمر . وقبّة تقدّمهم في سكّهم عملة خاصّة بهم ، ضربوا عليها اسم إلههم (كهل) ، واهتمّوا بأنواع من المكاييل والموازين والأختام ، كما اهتمّوا بالزّراعة فحفروا الآبار ، وشقّوا القنوات السطحيّة والجوفيّة ، فزرعوا النّخيل والكروم والحبوب ، وبعض أنواع اللُّبان .



* من آثار الفاو

وقامت دولة الحَضَر (عربايا) سنة ٥٠ ق.م ، وقضى عليها الفرس في ١ نيسان (إبريل) ٢٤١ م ، قُيِّمَت بين نهري دجلة والفرات في أرض الجزيرة ، والحضر^{١٠} العاصمة^(٥) من مدن القوافل تشبه تماماً تدمير والبتراء وجَرَش ، وفن البناء والنّحت فيها لا يقلُّ روعة ولا عظمة عن آثار تدمير والبتراء .

لقد كانت الحضر على طريق هام قادم من الصّين والهند ، ذاهب إلى آسية الصّغرى وأوربة ، ومن أهمّ عوامل قيام دولة الحضر عبادة الشّمس ، والشّمس في بادية الجزيرة لا تحجبها غيوم طوال أيّام السّنة ، لقد خصّ الحضريّون الشّمس بالألويّة في عبادتهم ،^{١٥}

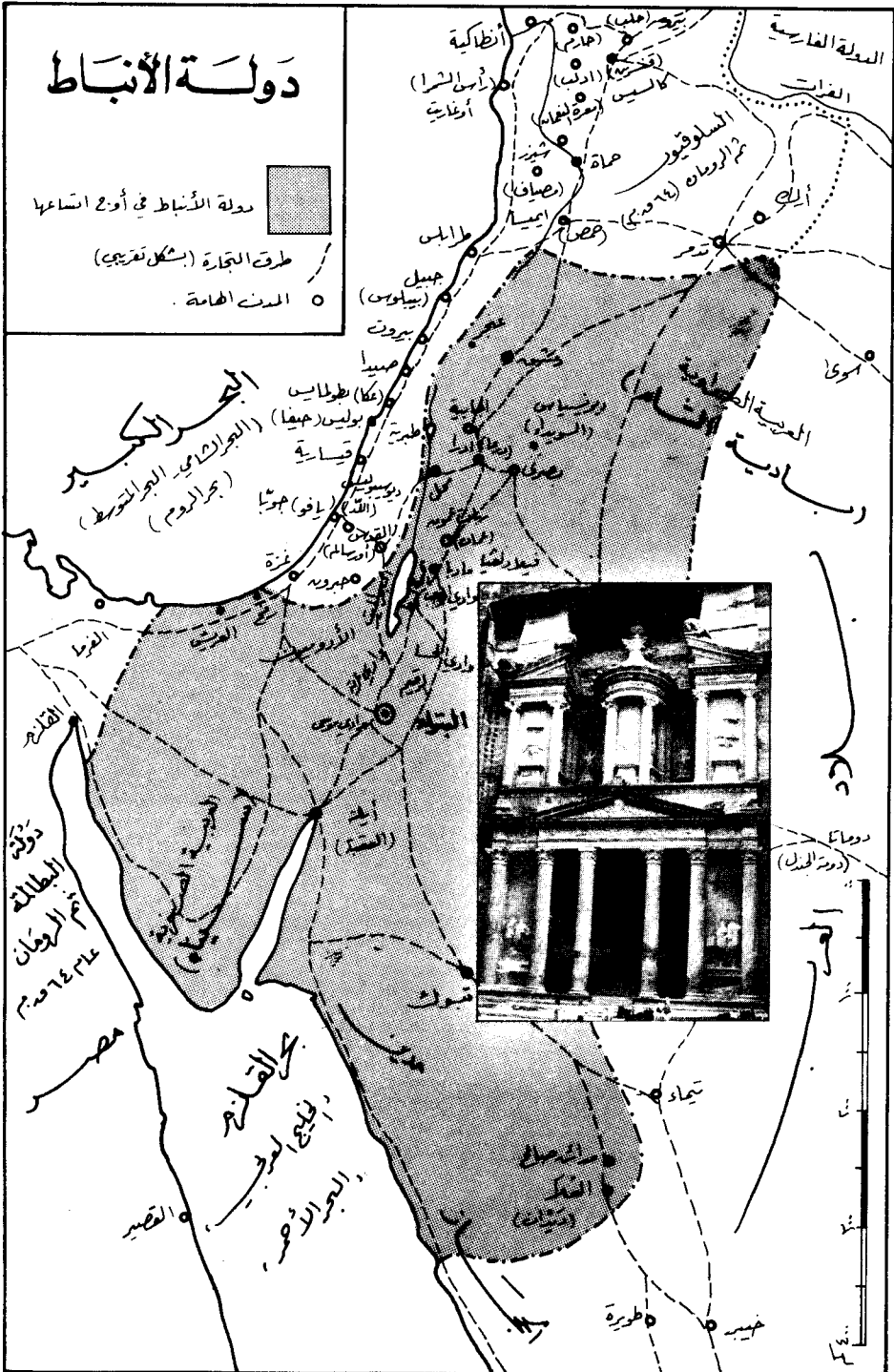
(٥) تبعد ١١٠ كم جنوب غربي الموصل .

دولة الأنباط

دولة الأنباط في أوج اتساعها

طرق التجارة (بشكل تقريبي)

المدن الهامة



وهي عندهم مذكر يعرف باسم شمس أو شمشا ، ويعبدونه كبير الآلهة ، وللنسر منزلة سامية في الحضرة ، فهو يرمز إلى السيادة .

أما الأنباط^(٦) ، فقد كانت دولتهم دولة تجارية ، وصلت علاقاتها إلى أبعد المناطق المتدنة آنذاك ، واهتمت بالزراعة فحفرت الآبار ، وجمعت مياه السيول في صهاريج حفروها ، ووصلوا بعضها ببعض بأقنية نُقبت في الصخر ، وجعلوا لها علامات لا يعرفها سواهم ، وتركزت صناعتهن على صنع الأواني الخزفية .

وعمران الأنباط نوع فريد متأثر بالفن الهلنستي ، فهيكल الخزنة المحفور بالصخر الوردي ، باقٍ إلى يومنا هذا ، يشهد بعظمة علم الهندسة وفن النحت عند الأنباط ، كما يتضح ذلك من آثار مدينتهم البتراء المنقوبة في الصخر .

أما ديانتهم فقد كانت وثنية ، فعبدوا من الآلهة اللات (وترمز إلى القمر) ،^{١٠} ومناة ، والغزى ، وهبل .

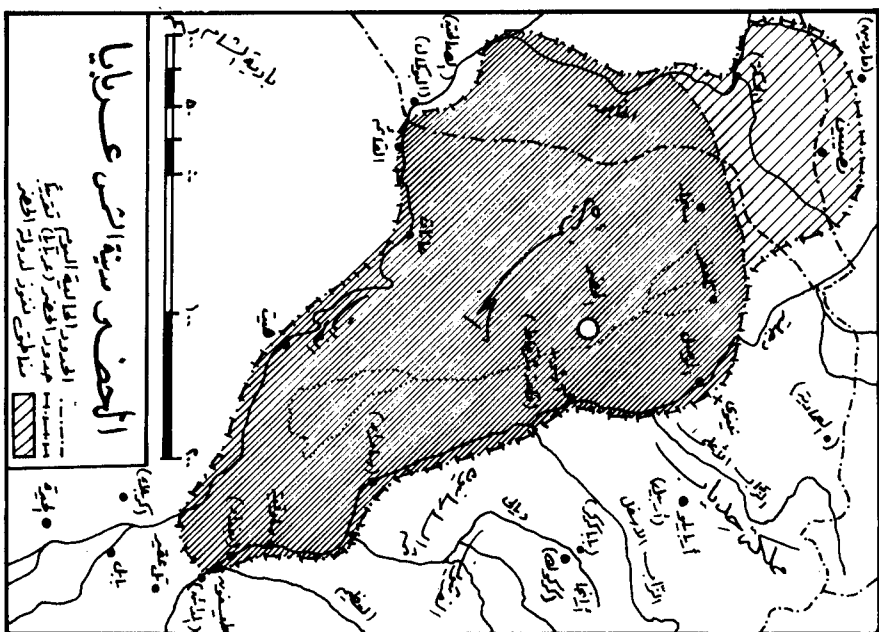
ومملكة تدمر^(٧) التي كانت أهم المحطات للقوافل التجارية ، امتد نشاطها حتى رومة وفرنسة وإسبانية غرباً ، وحتى الهند والصين شرقاً ، ووضعت قانوناً مالياً للتدريين والجاليات الأجنبية ، فيه أساء المواد التجارية التي تمر بتدمر ، مع نسبة الرسوم الجمركية المفروضة عليها ، وآثار تدمر تشهد على عظمة فن البناء المتأثر بالبناء اليوناني .^{١٥}

أما من ناحية نظام الحكم ، فقد ساعد الملك مجلس شيوخ .

وكان للتدريين أربعون إلهاً ، وبعل الذي يمثل الشمس يعد الإله الوطني المهم أو الأول ، وبعل شمين (إله السماوات) حامي الزراعة ، والإله يرحبل (إله القمر) .

(٦) هاجر الأنباط عام ٥٠٠ ق.م من غربي الجزيرة العربية إلى منطقة عربة ، قضى الرومان على هذه المملكة عام ١٠٦ م .

(٧) قامت مملكة تدمر في القرن الميلادي الأول ، قضى عليها الرومان سنة ٢٧١ م .



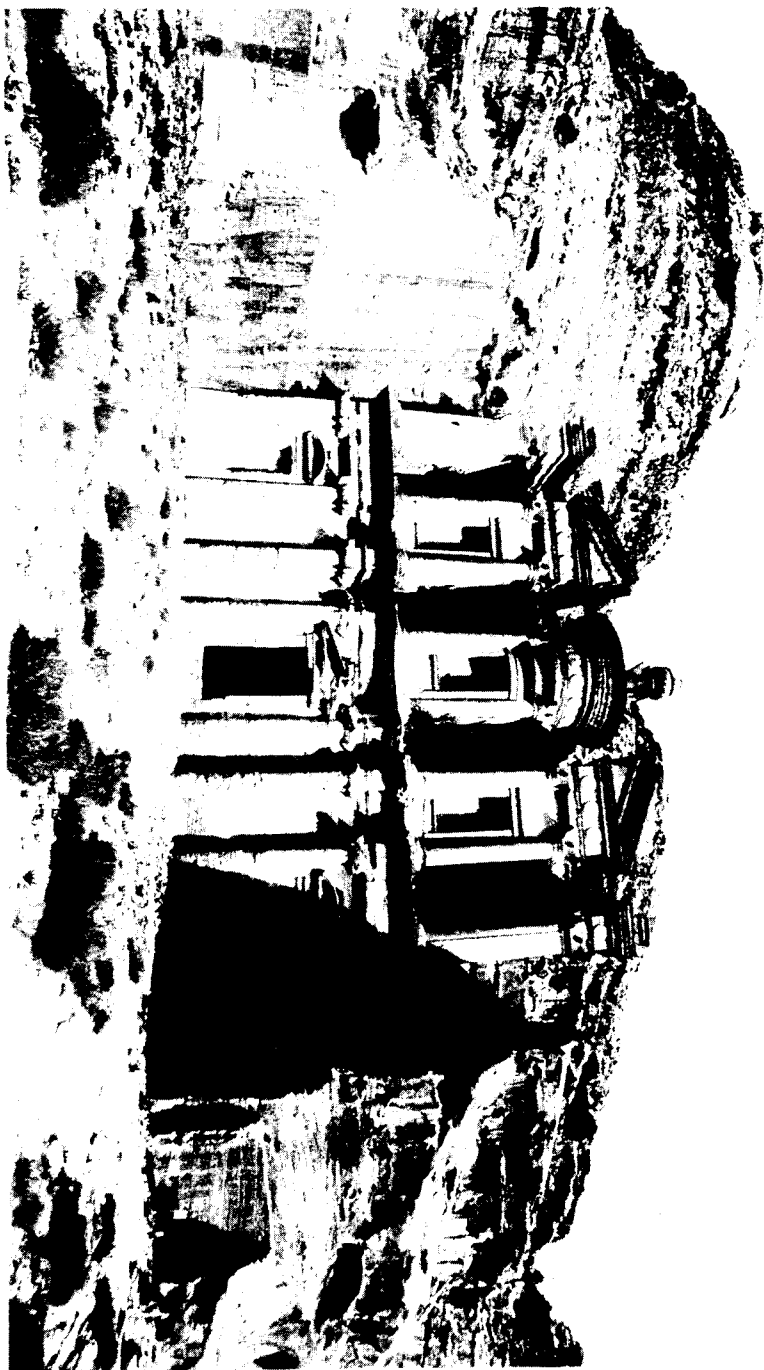
أما اليد

النحت في الخصر (نموذج النحت بالبحر الطبيعي)

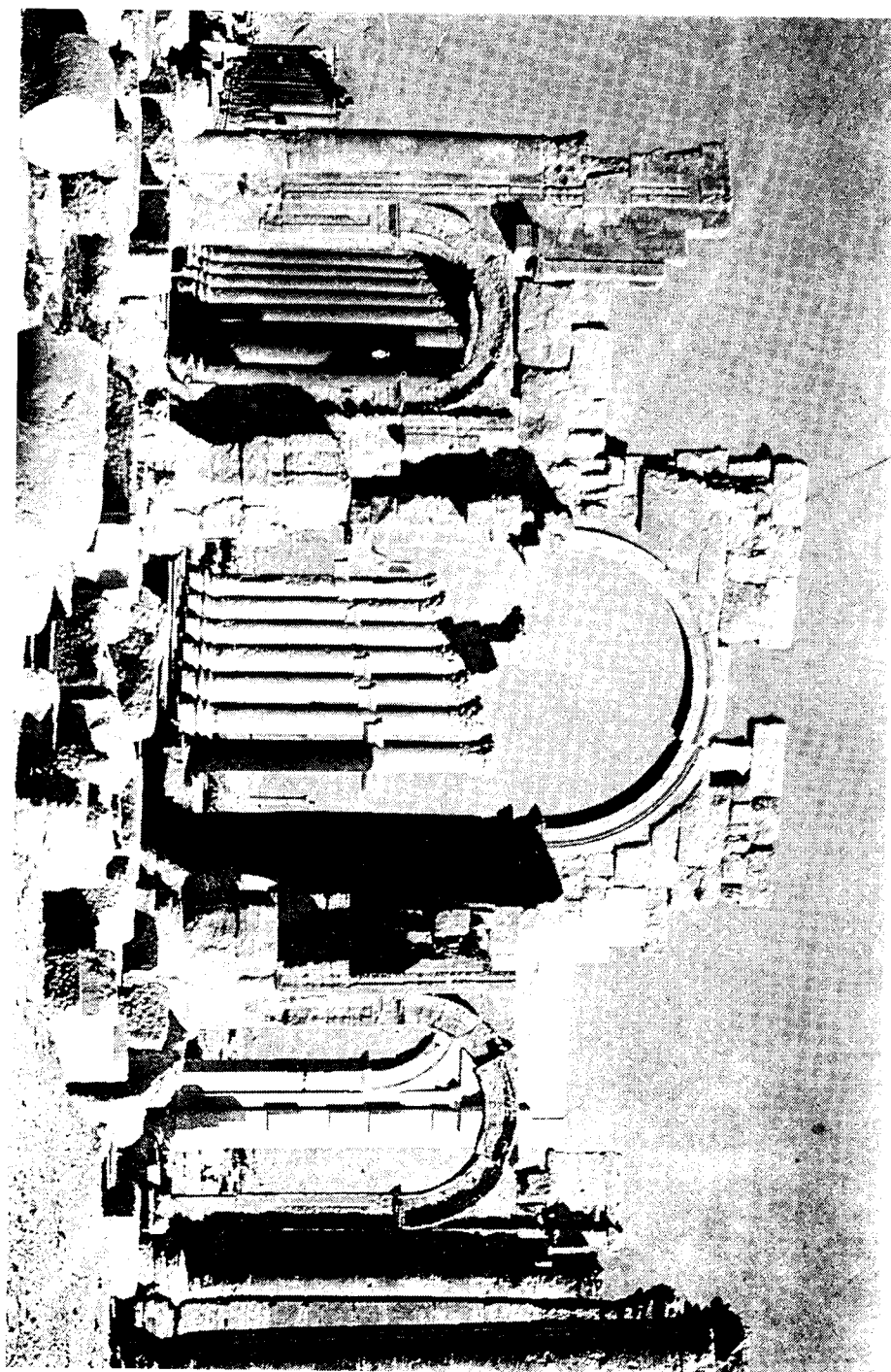
* تمثال (أبو) بنته دميون الذي نحت بالبحر الطبيعي
المرفوعة فهي علامة العبادة ١٤٧٦



ومن آثار البتراء الرائعة



* من آثار تدمر (سورية)

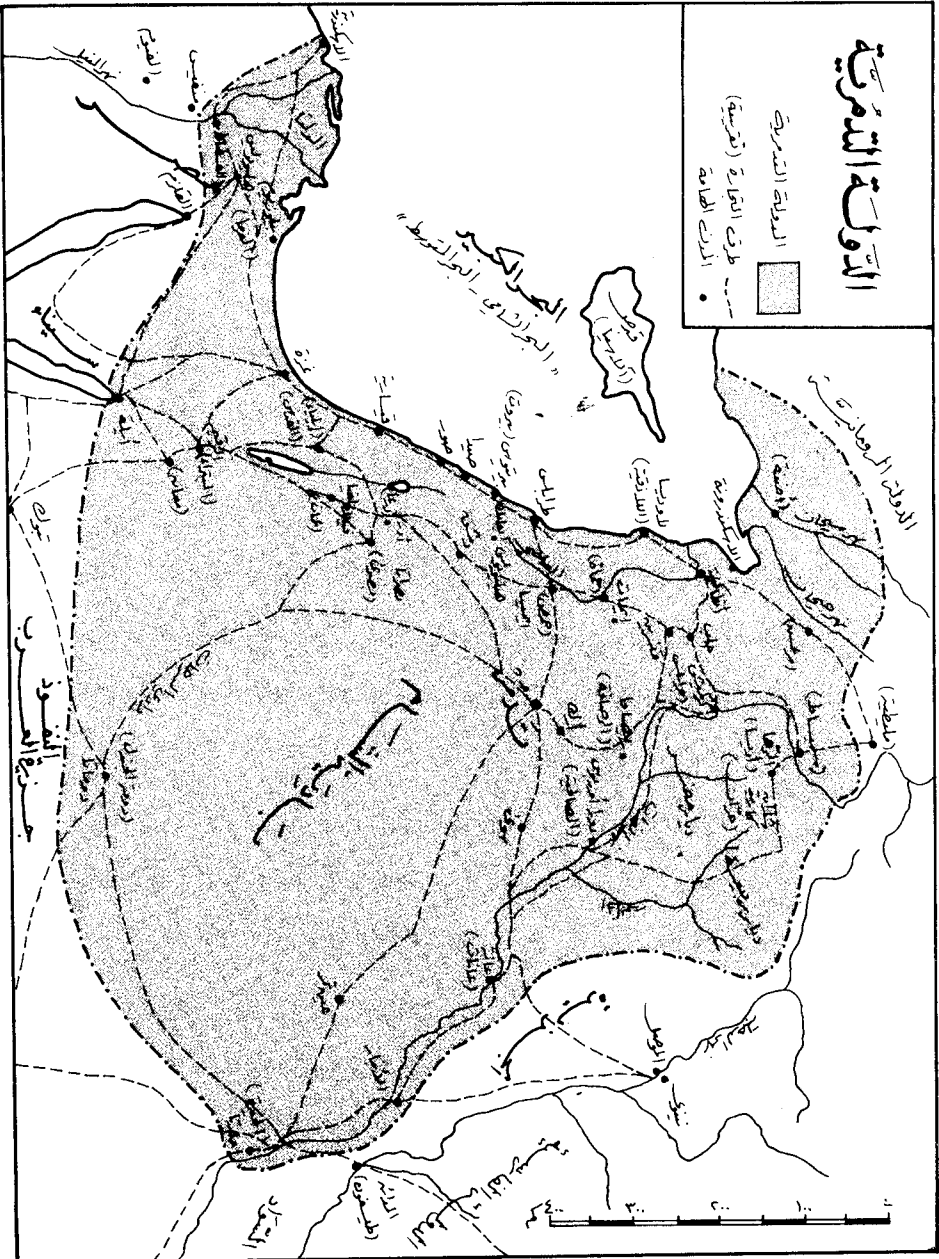


الدولة الممركية

الدولة القديرة

طَرَفَ الْحَجَّارَةِ (تَقْرِيبًا)

- **الدرج الطامة**



هل هناك حضارة عربية وإسلامية ؟

« إنَّ ما قام به العرب المسلمون هو عمل إقناذي له مغزاه الكبير في تاريخ العالم »^(١) .

« لئن أشعل العرب سراجهم من ثقافة اليونان ، فإنَّهم مالبشوا أن أصبحوا شعلة وهَّاجة استضاء بنورها أهل الأرض »^(٢) .

وقبل الشروع في دراسة الحضارة الإسلامية ، نطرح التساؤل التالي :

هل هناك حضارة عربيَّة وإسلاميَّة ، أو إنَّ العرب القدماء لم يرفدوا نهر الحضارة بشيء ، وإنَّ المسلمين كانوا وسطاء (سعاة بريد) ، ترجوا ونقلوا (المعجزة اليونانيَّة) إلى أوربة ؟

يقول السيِّر هنري مين Sir Henry Maine : « إذا استثنينا قوى الطَّبَّيعة العمياء ، لم نجد شيئاً يتحرَّك في العالم ، إلَّا وهو يوناني في أصله »^(٣) .

ويقول فيليب حتّي - مردِّداً ادِّعاءات بعض المستشرقين - بحقَّ العرب المسلمين : « وقاموا مقام الوسيط ، في أن نقلوا إلى أوربة خلال العصور الوسطى كثيراً من هذه المؤثرات الفكريَّة ، الَّتِي أنتجت بالتَّالي يقظة أوربة الغربيَّة ، ومهدت لها سبيل نهضتها الحديثة »^(٤) .

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيفريد هونكه .

(٢) الكيمياء عند العرب ، سلسلة من الشرق والغرب ، وليم أويسلر ، ص ٩

(٣) Semple Ellen Geography of The Mediterranean Region N.Y. 1931, 507

(٤) تاريخ العرب المطوَّل ٢/١ ، دار الكشَّاف للنَّشر والطَّبَّاعة والتَّوزيع - بيروت .

وجوابنا عن هذا السؤال الهام ، التالي :

الحضارة بساط نسجته وتنسجه أيدي كثيرة ، كلها تهيه طاقاتها ، وكلها تستحق الثناء والتقدير ، ولا ننكر أن الحضارة العربية الإسلامية اعتمدت في نموها وتطورها وازدهارها على حضارات عربية وشرقية سبقتها ، ولكنها واصلت العطاء ، وقدمت إلى بساط الحضارة ما طُلب منها وأكثر .

والحقيقة العلمية تقول : إنَّ ازدياد المعلومات عن حضارات الشرق الأدنى ، للمصرية ، والسومرية ، والبابلية ... يضطر المؤرخين إلى تعديل جذري في النظر إلى الحضارة اليونانية ، فليست هناك (معجزة يونانية) مطلقاً ، لأنَّ الحضارة اليونانية امتداد واقتباس للحضارة العربية القديمة في وادي الرافدين ، ووادي النيل ، وبلاد الشام ، فالإغريق اقتبسوا من الحضارة العربية في شرقي البحر المتوسط ومصر الشيء الكثير من مختلف العلوم ، وعاد إلينا على أنه علم وطب يونانيان ، ونبي الأصل أوتوسي ، يقول ديورانت : « إنَّ اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً ، لأنَّ ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم ، مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغام التجارة والحرب »^(٥) .

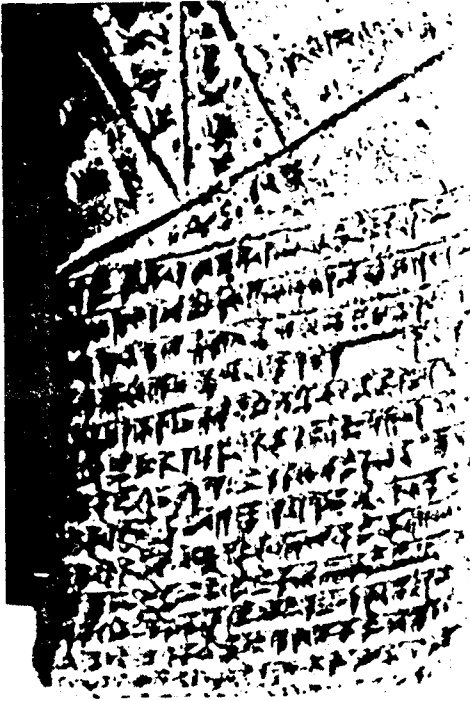
ف (طاليس) : [٦٢٤ - ٥٣٦ ق.م] من أوائل علماء اليونان المتخصصين بالعلم والحكمة ، زار مصر عدة زيارات ، ونقل معه العلوم الهندسية المتقدمة من مدارس الإسكندرية .

و (فيثاغورس) : [٥٧٢ - ٤٩٧ ق.م] زار مصر عدة مرّات ، وتعلّم فيها العلوم الرياضية ، ومكث في بابل مدة طويلة ، ودرس علم الرياضيات فيها ، وابت من المعروف أنَّ نظرية مساحة المربع المُشأ على وتر مثلث قائم الزاوية ، تساوي مساحة المربعين المنشأين على الضلعين القائمين ، أخذها فيثاغورس من بابل ، ونسبت إليه ،

(٥) قصّة الحضارة : ١٠/٢

إنَّ لوحة (تل حرمل) الحجرية ، والتي عُثِرَ عليها في ضواحي بغداد ، تدلُّ على أنَّ البابليين سبقوا اليونان في حسابات المثلثات القائمة والمتشابهة بمئات مئات السنين .

وَ (ديمقراطس) : [٤٧٠ - ٣٦١ ق.م] ، وأفلاطون : [٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م] أقاما في مصر ، ودرسا فيها العلوم المصرية المختلفة التي نقلها إلى اليونان .



* لوحة تل حرمل : المدينة البابلية
(ضواحي بغداد) ، سبق رياضيو هذه
المدينة فيثاغورس وتالس إلى معرفة
حسابات المثلثات القائمة والمتشابهة بمئات
مئات السنين

والطَّبَّ اليوناني استفاد الكثير الكثير من العلوم الطَّبية المصرية والبابلية ، وشعار
الأفعى رمزاً للشِّفاء ، اعتُقدَ بأنَّه من (أسقلابيوس) اليوناني ، مع أنَّه في متحف اللوفر
منحوتة من مدينة لكش العراقية ، تعود إلى عام ٢٠٠٠ ق.م ، فيها دورق عليه صورة
الأفعى تلوي إحداها على الأخرى ، يقف خلفها (جوديا) أمير لكش ، مكتوب

عليها : إنها مهداة إلى (نينكيش زيدا) مع الشفاء ، وأثبت (ريجتال تومبسون) في كتابه : النباتات الطِّبِّيَّة الآشوريَّة ، جدولاً بما اقتبسه اليونانيُّون من النَّباتات الطِّبِّيَّة العربيَّة منها^(٦) :

اللَّفظة الآشوريَّة	اللَّفظة العربيَّة اليوم	اللَّفظة اليونانيَّة
Murra	المُرَّة	Myrrha
Tormus	الترمس	Termis
Arzallu	الوزال (البلوط)	Azaolus
Kurkamu	الكَرْكَمْ	Curcuma
Samassamu	السَّمْسَم	Sesamum
Azupiramu	الزَّعفران	Saffaran
Anber	العنبر	Amber
Karru	الكرز	Cherry
Marabu	الخَرْوب	Carob
Kitu	القطن	Cotton

ونقل اليونان الأبجدية الفينيقية بين عامي : ٨٥٠ - ٧٥٠ ق.م ، واعترف اليونان بهذا النقل في قصَّة (قدموس) الذي أدخل ستة عشر حرفاً ، وفي القرن السادس قبل الميلاد ، انتقلت الأبجدية إلى الرومان ، وكتبت بها اللغة والآداب اللاتينية ، ومنها انتقلت إلى سائر العالم الغربي ، وكذلك فإنَّ الآراميين نقلوا أبجديتهم عن الفينيقيين ، وأخذها منهم الأنباط والتدمريُّون والهنود والأرمن ، وعدد كبير جداً من شعوب الشرق ، ومن أهمَّ صفات الأبجدية الفينيقية بساطتها ، وسهولة استعمالها .

(٦) الفيلسوف ، العدد ٩٢ ، مقالة د. غازي الحاجم .

ويقول ديورانت في قصة الحضارة : بابل علّمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعية والفلسفة^(٧) ، ويقول :

من بابل لا من مصر جاء اليونان الجوّالون إلى دويلات مدنها بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضيات والفلك والطب والنحو وفقه اللغة وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة ، ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومة ، ومنها إلى الأوربيين والأمريكتين ، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ، والموازين ، والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسائها البابلية إلى اليونانية ، بينما استمدّ فنُّ العبارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت^(٨) .

١٠ حتّى في الآلهة ، فعشتار البابلية هي استارثي عند اليونان ، وهي النموذج الذي صاغ اليونان على أمثاله آلهتهم أفروديت ، والرومان فينوس^(٩) .

لما سبق ، ولأسباب أخرى كثيرة نقول : إنّ المعجزة اليونانية المزعومة - كما يقول جورج سارتن في كتابه « تاريخ العلم » - : لها أب وأمٌّ شرعيّان ، أمّا أبوها فهو تراث مصر القديمة ، وأمّا أمُّها فهي ذخيرة بلاد ما بين النهرين ، والشرق القديم مهد الحضارات ، والمعلم الأول للبشرية في المجالين : المدنية المادية والعلوم كلّها ، وفي المجال الروحي والمعتقدات الدينية .

وجاء في كتاب (انتصار الحضارة)^(١٠) : الشادوف المصري أقدم أنواع الأجهزة لرفع المياه لريّ الحقول ، وأقدم الساعات في العالم مزوّلة مصرية تحمل اسم الملك

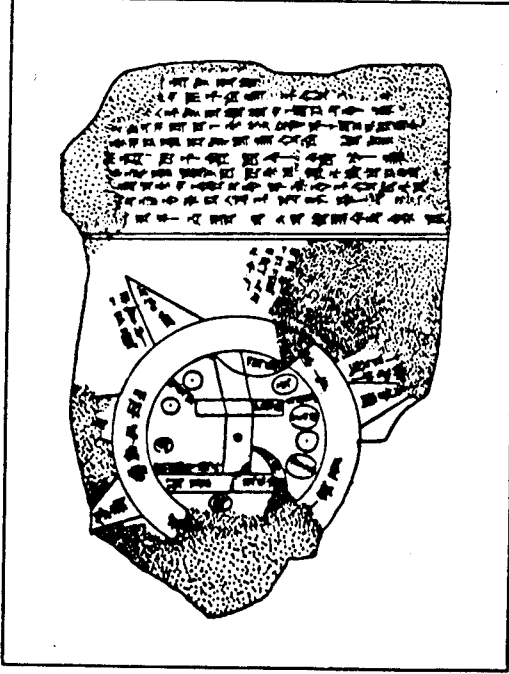
(٧) قصة الحضارة : ١٨٧/٢

(٨) قصة الحضارة : ٢٦٢/٢

(٩) قصة الحضارة : ٢١٥/٢

(١٠) انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم) ، جيمس هنري برستد ، ترجمة د. أحمد فخري ، نشر الجامعة العربية ، الإدارة الثقافية .

تخوتس الثالث ، وبعد عهد تخوتس الثالث بما يقرب من ألف سنة ، اقتبس اليونانيون هذا النوع من الساعات ، والساعة محفوظة اليوم في متحف برلين ، بعد أن رَقَّمها العالم الأثري بوخارست .



* خريطة العالم كما وضعها البابليون ،
الدائرة الكبرى تمثل المحيط ، والدوائر
الصغرى تحتوي على بابل وغيرها من المدن ،
وفيما عدا ذلك توجد الجبال ، وغياض الدلتا
البابلية ، أمّا الكتابة فهي سجل لحملات
سارجون ملك أكاد .

« ولقد ترك علم الفلك الكلداني^(١١) أثراً لا يُمحى في تقويمنا فيما يتعلق بالأسماء

التي نطلقها على أيام الأسبوع ، فهذه الكواكب الخمسة .. (عطارد ، والزهرة ،
والمرّيخ ، والمشتري ، وزحل) ، بالإضافة إلى الشمس والقمر ، تكون مجموعة من سبعة
أجرام سماوية ، كان كلٌّ منها إلهاً على جانب عظيم من الأهمية ، ولما كانت العبادة
الكلدانية قد انتشرت في سورية وذاعت ، فقد جرت العادة أخيراً على العبادة والتغني

(١١) الدولة الكلدانية : هي الدولة البابلية الثانية : [٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م] .

بمدح كلِّ إله منها في يوم خاص مُعَيَّن ، وهكذا كانت عبادة كلِّ إله من هذه الآلهة تتكرَّر بعد مرور سبعة أيَّام ، ثمَّ أُطلق اسم الإله الذي يُعْبَد في يومٍ ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرَّس لعبادة الشَّمس الأحد (يوم - الشمس Sun) ، وبات اليوم الخاص بعبادة القمر الإثنين (يوم - القمر Mon) ، وهكذا حتَّى نهاية الأسبوع ، وعُرف اليوم الأخير المختص لعبادة زحل باسم يوم سارتن وهو يوم السَّبْت ، ولمَّا كانت اللُّغة الإنكليزيَّة قد وصلت عن طريق الشُّعوب الشَّاليَّة ، فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسيَّة ، وظهرت في أسماء أيَّام الأسبوع ، مثل : Wednes day ، Wodon s day أي يوم الأربعاء ، و Thrus day Thors day أي الخميس ، ومع هذا ، فإنَّ هذه الأسماء جميعها ترجع إلى الآلهة البابليَّة القديمة ، الَّتِي ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشُّعوب الغربيَّة ، يذكرونها كلِّما نطقوا باسم أيِّ يوم من أيَّام الأسبوع »^(١٢) .

أما الحضارة الإسلاميَّة :

فقد أخذ المسلمون من الحضارات السَّابقة ، ولكن لم ينقلوها كما هي ، إنَّهم أعادوا التَّفكير والنَّظر تماماً في العلوم اليونانيَّة ، فما ورَّثه المسلمون إلى أوربة يختلف كثيراً عما ورَّثوه من سابقهم .^{١٥}

والمنهج العلمي هو أجلُّ خدمة أسدتها الحضارة الإسلاميَّة إلى العالم ، فالإغريق (اليونان) اقتبسوا ونظَّموا وعمَّموا ووضعوا النظريَّات ، ولكن روح البحث والتَّدقيق والتَّحقيق للوصول إلى المعرفة اليقينيَّة ، وطرائق العلم الدَّقيقة ، والملاحظة الدَّائبة كانت عربية في المزاج الإغريقي ، والمسلمون هم أصحاب الفضل في تعريف أوربة بهذا كلِّه ، فالعلم الأوربي مدين بوجوده للمسلمين^(١٣) .^{٢٠}

(١٢) انتصار الحضارة ، جيس هنري برستد ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤

(١٣) أورد هذا القول روم لاندو ، وهو لبريفو Briffoult في كتابه (تكوين

الإنسانيَّة) : Making of Humanity

فللحضارة الإسلامية الفضل الكبير في المحافظة على التراث القديم والتراث اليوناني أيضاً ، لأنَّ الأوربيين كانوا يجهلون العديد من مؤلفات اليونان ، التي اعتمدت في الحوادث وأعظمها شأنًا في تاريخ العالم «^(١٥)

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) : « إنَّ ما قام به العرب المسلمون لهو عمل إنقاذي له مغزاه الكبير في تاريخ العالم » .

« لمدة خمسة قرون سيطر الإسلام على العالم بقوَّته وبعلمومه وبحضارته المتفوّقة ، وكونه لكنوز العلوم والفلسفة الإغريقية ، نقل الإسلام هذه الكنوز بعد أن أغناها بالفكر الإسلامي إلى أوربة الغربية ، وكان أن وسَّع الإسلام آفاق الفكر الأوربي في القرون الوسطى ، وترك ملامحه العميقة على الحياة والفكر الأوربيين «^(١٤) . لذلك ١٠ يقرر ديورانت أن نقل علوم اليونان إلى أوربة وإعادة النُّظر فيها : « من أجل الحوادث وأعظمها شأنًا في تاريخ العالم »^(١٥) .

« إنَّ الحضارة الإسلامية المبتكرة ، لم تأخذ من الحضارة الإغريقية ، أو الحضارة الهندية ، إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس من الحضارتين البابليَّة والمصريَّة .

لقد طوَّر المسلمون ، بتجارهم وأبحارهم العلميَّة ، ما أخذوه من مادَّة خام عن ١٥ الإغريق ، وشكَّلوه تشكيلاً جديداً ، فالمسلمون في الواقع ، هم الذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التجربة .

إنَّ المسلمين لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال وحسب ، بل ونظَّموها وربَّتها ، ثمَّ أهدوها إلى الغرب ، إنَّهم مؤسَّسو الطُّرق التجريبيَّة في الكيمياء والطَّبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع ، وبالإضافة إلى عدد ٢٠

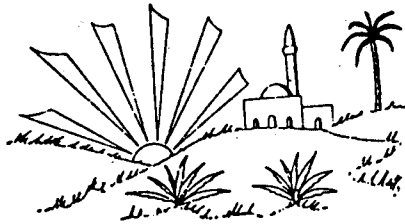
(١٤) Jacques C. Riesler : La civilisation arabe, Paris 1955

(١٥) قصَّة الحضارة : ١٨٠/١٣

لا يَحْصِي من الاكتشافات والاختراعات الفرديّة في مختلف فروع العلوم ، التي سُرق أغلبها ونُسِبَ لآخرين ، لقد قدّم المسلمون أثمن هديّة ، وهي طريقة البحث العلمي الصّحيح ، التي مهّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطّبيعة وتسلطه عليها اليوم»^(١٦) . لقد أنقذوا الحضارة اليونانيّة ، ونقدوا مواطن الخلل ، وصحّحوا الخطأ فيها ، ونظموها ، وأضافوا إليها الكثير .

لقد ارتقى العرب المسلمون بالحضارة الإنسانيّة عندما جاء دورهم في بنائها ، منذ نزل الوحي الأمين ب ﴿ اقرأ ﴾ على قلب محمّد بن عبد الله ﷺ ، فنقلوا ، وترجموا ، وصحّحوا ، ودرسوا ، ثمّ أضافوا فأبدعوا .

﴿ اقرأ ﴾ نور حضارة انطلق من غار حراء ، فأشرقت به الأرض ، وأحيا أمة كانت على هامش تاريخ الأمم آنذاك ، فأصبحت أمة عقائديّة تحمل رسالة ربّانيّة ، وقدمت للعالم أروع الصّور الأخلاقيّة والإنسانيّة ، ودولة مترامية الأطراف ، احتوت الحضارات وهضمتها ، لتبدع وتقدّم حضارة إسلاميّة ، رفدت مسيرة نهر الحضارة الإنسانيّة ، بما هو مطلوب منها على أتم وجه ، وأبهى صورة .



(١٦) شمس العرب تسطع على الغرب : ٤٠١/٤٠٠



الحضارة العربية الإسلامية

مصادر التشريع، نظام الحكم: الخلافة، الوزارة، الإمارة،
الحسبة، القضاء، الشرطة، الدواوين، بيت المال، البريد
وصاحب الخبر، الجيش والأسطول، النشاطات الاقتصادية،
المجتمع، الحياة الفكرية، المظهر الفني .

تمهيد لمحة تاريخية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ ، قُلْ إِنَّمَا يُدَوِّحُنِي إِلَهِي أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .
[الأنبياء : ١٠٧/٢١ - ١٠٨]

ولد محمد بن عبد الله ﷺ في ٢٠ نيسان (إبريل) سنة ٥٧١ م ، [٥٣ ق.هـ] ،
وهي السنة المعروفة بعام الفيل ، مات أبوه قبل أن يولد ، وتوفيت أمه وهو في
السادسة من عمره .

١ عرف بين قومه شاباً ذا مروءة ووفاء ، وحسن جوار ، وعفة وشجاعة وصدق ،
وأمانة حتى سمي (الأمين) ، لم يسجد لوثن ، ولم يشرب خمرأ ، تزوج (الطاهرة)
خديجة بنت خويلد ، وأنجب منها ستة أطفال ، منهم فاطمة رضي الله عنها .

وفي الأربعين من عمره ﷺ ، وبينما كان يتحنث - يتعبد معتزلاً الأصنام - في غار
حراء ، نزل عليه الوحي يوم الإثنين ١٧ رمضان ١٣ ق.هـ ، (٦١٠ م) ، وكانت أولى
كلمات القرآن الكريم : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ثم توالى الآيات والسور ، واعتنق هذا الدين
الجديد (الإسلام) ، الذي من أهم أركانه التوحيد المطلق لله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ ﴾ ، ومن أجل أهدافه كرامة الإنسان وحرّيته : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ،

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، اعتنقه بعض المتصلين بالرسول الكريم ﷺ ، وهم من أعز رجال قريش ، كأي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبي عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم ..

استمرت هذه الفترة التي سُميت « دعوة الأفراد » ، وآمن بها السابقون الأولون ، ثلاث سنوات ، لتبدأ بعدها فترة الجهر بالدعوة ، فأذت قريش المستضعفين ، وأذاقتهم مرَّ العذاب ، فنصحهم ﷺ بالمهجرة إلى الحبشة : « فَإِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِيَ أَرْضُ صَدَقَ ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مَّا أَنْتُمْ فِيهِ » .

ثمَّ كانت هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة (يثرب) ، وسببها المباشر ، وصول قريش إلى قرار بقتل رسول الله ﷺ ، بعد أن فقد الحامي والنصير ، عمه أبا طالب ، وزوجه خديجة . وسبب انتقاء يثرب داراً للهجرة ، إسلام عدد من أهلها ، من الأوس والخزرج في مواسم الحج ، في بيعتي العقبة الأولى والثانية . واتخذ المسلمون من هذه الهجرة بداية للتأريخ الهجري ، الذي وافق سنة ٦٢٢ م ، ونشأت بهذه الهجرة حكومة نظامية في المدينة ، فتحوّلت قريش من الإيذاء الشخصي في مكة ، إلى حرب معلنة للقضاء على العقيدة ، التي اتخذت المدينة المنورة غاصتها لها .

استطاع رسول الله ﷺ أن يقيم رابطة العقيدة مقام رابطة الأسرة والدَّم ، فوحد بين قلوب كانت متباينة ، وبين أفراد فرقتهم بالأمس العصبية القبليّة ، وجمعهم اليوم شخصية فريدة قويّة ، متصلة بالله تتلقّى وحياً وأوامر إلهية ، وافية بطلبات البشرية الخلقيّة والروحيّة والحياتيّة .

ولمّا تفاهم أذى قريش المشركة ، أذن بالجهاد ، وهو القتال الخالص لله تعالى ، وللدِّفاع عن النفس ، وتذليل العقبات التي تقف في سبيل نشر عقيدة أمر الله بها أن

تنشر ، ولكي لا يخشى من يريد اعتناق الإسلام الفتنة عن دينه ، فكانت معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة ، حيث حقق المسلمون نصراً حاسماً - ولأول مرة - على قريش المشركة ، وتوالت السرايا والغزوات ، حتى عاد ﷺ منتصراً فاتحاً إلى مكة سنة ٨ هـ .

- كانت وفاته ﷺ بعد حجة الوداع بثلاثة أشهر ، وذلك في يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ ، الموافق ٨ حزيران (يونية) سنة ٦٣٢ م ، وهو في الثالثة والستين من عمره ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة . لم يتغير ﷺ في الرخاء عما كان عليه في الضراء ، ولم تبعث انتصاراته في نفسه الفخر والزهو ، لأنها لم تكن لمأرب شخصي عنده ، « ولما بلغ أوج سلطانه ظل محتفظاً بالبساطة في مظهره وأخلاقه ، حكم الجزيرة وبقي يحقر أبهة الملوك ، يمشي بلا حراس ، ولا يقوم دون أصحابه ١٠ الحجاب » (١) .

لقد امتاز ﷺ : « بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير ، كما فعل محمد » (٢) .

- « وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا إنَّ محمدًا كان ١٥ من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقته به في دياجير الهمجية حرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله .. » (٣) .

وبعد رسول الله ﷺ قامت دولة الخلفاء الراشدين : [١١ - ٤٠ هـ] ، وهم :

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، خوجة كمال الدين .

(٢) Muir: The Life of Muhammed P. 523, 528

(٣) قصة الحضارة : ٤٧/١٣

أبو بكر الصّدِّيق رضي الله عنه : [١١ - ١٣ هـ = ٦٣٢ - ٦٣٤ م] ، الذي وطّد دعائم الدّولة الإسلاميّة بقضائه على حركة الرّدة ، وتوجيهه الجيوش إلى الفتح في العراق وبلاد الشّام ، لا يفرّض عقيدة ، بل لإنهاء ظلم ، ونشر إنسانيّة وإخاء ومساواة .

٥ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : [١٣ - ٢٣ هـ = ٦٣٤ - ٦٤٤ م] ، الذي نظّم شؤون الدّولة ، وتمّت في عهده - وبتوجيه منه - فتوح عظيمة في بلاد الشّام بعد اليرموك ١٣ هـ ، بقيادة خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وفي العراق بعد القاديّة ١٤ هـ بقيادة سعد بن أبي وقّاص ، وفي مصر بعد فتح حصن بابليون سنة ١٩ هـ على يد عمرو بن العاص ، وفي فارس بعد نهاوند سنة ٢١ هـ ، بقيادة النّعمان بن مقرّن المزني .

١٠ عثمان بن عفّان رضي الله عنه : [٢٣ - ٣٥ هـ = ٦٤٤ - ٦٥٦ م] ، الذي فتحت في عهده أرمينية ، وقبرص ، والشّمال الإفريقي .

١٥ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [٣٥ - ٤٠ هـ = ٦٥٦ - ٦٦١ م] ، الذي جابه يدًا خفيّة حرّكت فتنة قادها عبد الله بن سبأ ، فتنة لم يكن الصّحابة الكرام أبطالها ، بل آخرون منافقون عملوا من وراء ستار بدهاء ومكر ، فكانت معركة الجمل ، ومعركة صفّين التي انتهت بالاتّفاق على التّحكيم بين علي ومعاوية بن أبي سفيان ، وفي مدينة الكوفة مقرّ علي رضي الله عنه ، وبينما كان يوقظ النّاس لصلاة الفجر ، إذا بعبد الرّحمن بن ملجم الخارجي يترصّده بحسام مسموم ، وبضربة غادرة قتل ابن ملجم عليّاً رضي الله عنه ، لتنتقل الخلافة إلى الدّولة الأمويّة : [٤١ - ١٣٢ هـ = ٦٦١ - ٧٥٠ م] ، حيث توالى على سُدّة الحُكم في العاصمة الجديدة (دمشق) ، ٢٠ أربعة عشر خليفة ، أشهرهم :

معاوية بن أبي سفيان : [ت ٦٠ هـ = ٦٨٠ م] ، وهو مؤسّس الدّولة ، بلغ أسطوله رودس ، وبعض جزر بحر إيجه ، وحاصر عاصمة الرّوم البيزنطيّين

القسطنطينية ، وأتمّ الفتح في الشمال الإفريقي على يد عقبة بن نافع باني مدينة القيروان سنة ٥٥ هـ .

ومروان بن الحكم الذي كان من ذوي الرأي والفصاحة والشجاعة ، وعبد الملك بن مروان : [٦٥ - ٨٦ هـ = ٦٨٥ - ٧٠٥ م] ، الذي عرّب الدواوين والنقد ، وبلغت الدولة الأموية قمة مجدها ، وذروة فتوحها أيام الوليد بن عبد الملك : [٨٦ - ٩٦ هـ = ٧٠٥ - ٧١٥ م] ، ففي عام ٩٣ هـ تمّ فتح سمرقند في ما وراء النهر على يد قتيبة بن مسلم الباهلي ، وفتح الديّبل^(٤) على يد محمد بن القاسم الثقفي ، وفتح طليطلة في الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير .

وعمر بن عبد العزيز : [٩٩ - ١٠١ هـ] ، الخليفة الراشدي الخامس ، الذي كانت العلماء معه تلامذة ، والذي أعاد إلى الإسلام صفاءه ، ونظّم حركة ملؤها الحماسة في نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، يذكر توماس أرنولد^(٥) : « وبلغ من تسامح عمر بن عبد العزيز ورعايته لأهل الذمة ، وما ذاع عن زهده وورعه وتقشفه ، أن أحد كتّاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتّقدّيس إلى اسم الرسول ﷺ ، وإلى أسماء الخلفاء الأوّل كلّما عرض لذكرهم ، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز » .

١٥

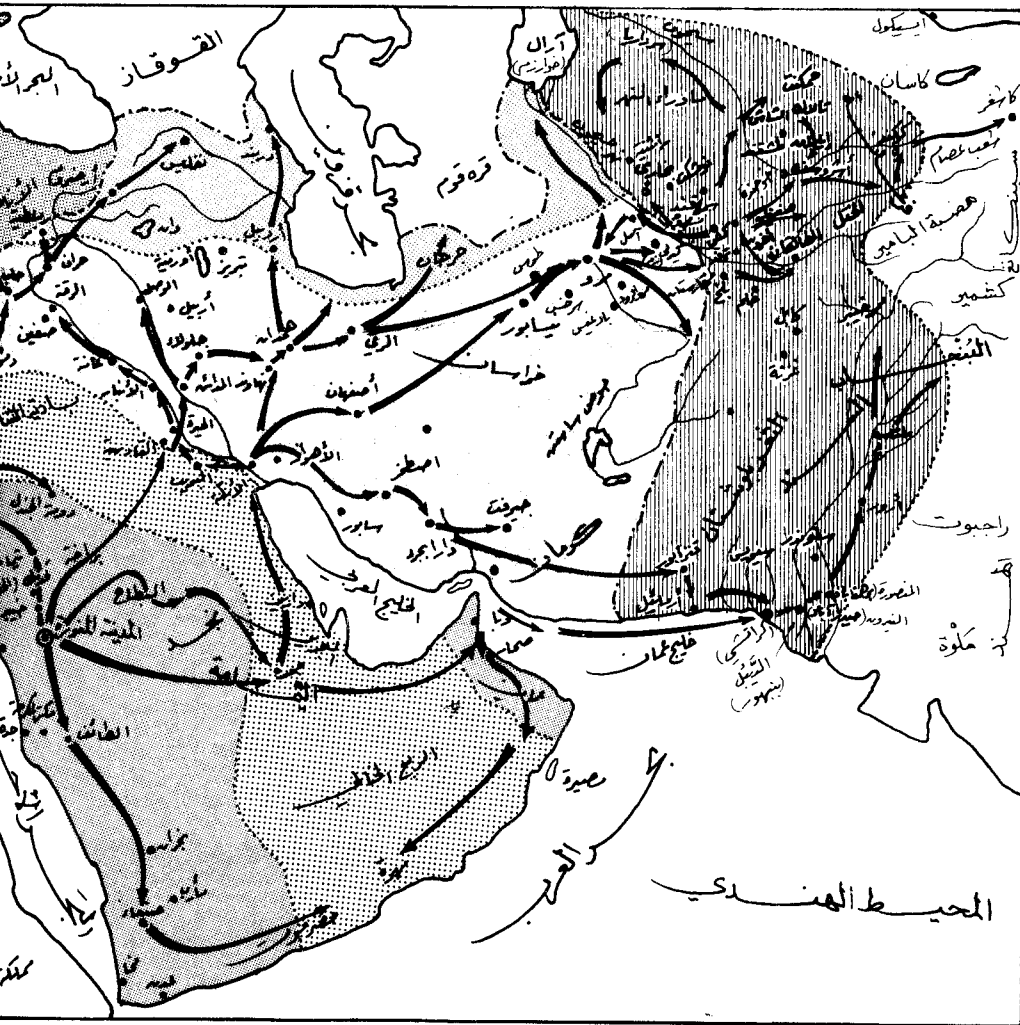
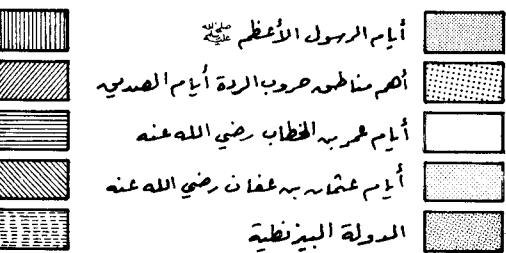
لقد سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م لأسباب كثيرة ، منها نظام ولاية العهد ، الذي أوصل إلى الحكم أحياناً من ليس أهلاً له ، وخصوصاً تولية العهد لاثنتين ، حيث ظهر التنافس بين أفراد البيت المالك على أثرها .

والروح العصبية هي السبب الثاني لسقوط الدولة الأموية ، تلك الروح التي

(٤) الديّبل (كراتشي حالياً) ، قرب مصبّ نهر السند في بحر العرب ، على المحيط الهندي .

(٥) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ٤٦٦

انتشار الإسلام



بُعِثَتْ بين القبائل العربيّة ، كما بدأ التّعصّب للعرب يظهر على الألسنة ، وفي نتاج الفكر ، وفي سياسة الدّولة ، فن الطّبيعي أن يحنق الموالي على الأمويّين ، ومن الطّبيعي أيضاً أن يتلمّسوا فرصاً للإيقاع بها ، فلمّا نشطت الدّعوة العبّاسيّة ، انضمّوا إليها لينالوا حقوقهم الّتي هُضِمَتْ ، ولقد فطن العبّاسيون حقّاً إلى ما يمكن في نفوس الموالي نحو بني أميّة ، فاستعانوا بهم في نشر الدّعوة العبّاسيّة في خراسان ، ولم تلبث الرّايات السّود ، رايات العبّاسيّين أن باغت الرّايات البيض ، رايات بني أميّة ، وقضت عليها ، ويُعدّ زوال الرّايات البيض ، تحجيماً للنّفوذ العربي ، الّذي تعصّب له الأمويّون ، وانحازوا إليه ^(٦) .

قامت الدّولة العبّاسيّة سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ^(٧) ، وانتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد أيّام أبي جعفر المنصور : [١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م] ، الّذي كان من الحزم وصواب الرّأي ، وحسّن السّياسة ما تجاوز كلّ وصف ^(٨) ، « كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلماهم ، وذوي الآراء الصّائبة منهم ، والتّدبيرات السّديدة ، وقوراً شديد الوقار ، حسن الخلق في الخلوة .. » ^(٩) .

وبلغت الدّولة العبّاسيّة ذروة مجدها ، وأوج عظمتها أيّام هارون الرّشيد : [١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م] ، سيّد ملوك بني العبّاس بلا منازع ، بلغ بملكهم ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده من سعة الآفاق ، وهيبة السّلطان ، وتأمين الحدود والثّعور ، عرفه الشرق من الصّين ، وعرفه الغرب حتّى فرنسا ، فترنّم بسيرته ، وبعظمة دولته ، وبنظامها ، ورفاهيتها ، وعلماها .. من لم يقرأ التّاريخ ، أو يهتم به .

(٦) عوامل النّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ، ص ٩٧

(٧) الّتي توالى خلالها سبعة وثلاثون خليفة ، أوّلهم أبو العبّاس السّفّاح ، وآخرهم المستعصم بالله ، كما قامت إمارة أمويّة في الأندلس ، أسّسها عبد الرّحمن الدّاخل (صقر قريش) .

(٨) مروج الذهب : ٢٤٥/٢ - ٢٤٦

(٩) الفخري : ١٤٢/١٤١

وبطلب من الرّشيد وضع الفقيه الشّهير ، قاضي القضاة ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب كتاب (الخراج) ، أثراً من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية منظمّ واردات بيت المال حسب الكتاب والسنة ، كي لا يقع حيف على الرعية ، أو يثقل الجور كاهلهم .

كما وضع قاضي القضاة بعد أبي يوسف ، محمد بن الحسن الشيباني كتاب (السير الكبير) ، وهو أول كتاب في العلاقات الدوليّة .

وكانت بغداد^(١٠) في عهد الرّشيد ، قبلة العلم والعلماء من جميع الأمصار الإسلامية ، يرحلون إليها ليتّموا مابدؤوا من علوم وفنون ، فهي المعهد العالي للتّخصّص .

وفي زمن ابنه عبد الله المأمون : [١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م] ، (الخليفة العالم) ، يتّثل عصر ازدهار الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، بازدهار بيت الحكمة ، أعظم مكتبات العالم آنذاك ، وبتشجيع العلم والعلماء ورعايتهم .

بدأ عصر الضّعف يسري في كيان الدولة العبّاسيّة بعد الواثق (٢٣٢ هـ) ، وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العبّاسيّة ، وصارت ميداناً للدّسائس ، وغدت في أيدي الأتراك ، يؤلّون ، ويعزلون ، ويحبسون ، ويقتلون ، ومن هنا بدأ العامل الرّئيس في اضمحلال الدولة العبّاسيّة وسقوطها ، فظهرت الدّول المستقلّة ، وشبه المستقلّة ، كالطاهريّة ، والصفّاريّة ، والسّامانيّة ، والغزنويّة ، والغوريّة ، والفاطميّة ، والزّيدية .. مع إعلان الخلافة في الأندلس سنة ٣١٦ هـ .

وركن المستعصم بالله - آخر خلفاء العبّاسيّين - إلى وزيره مؤيد الدّين العلقمي ، الذي أهلك الحرث والنّسل ، وأرسل التّتار سراً ، وناصرهم ، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ، بينما يطالع التّتار بأخبار الخلافة ، وطلب أن يكون نائبهم ،

(١٠) التي سكنها أيام الرّشيد مليونان من البشر ، تتعالى فيها القصور ، وتجري إليها التجارة من أقصى الأرض إلى أقصاها ، ومن شرقي آسية حتّى أواسط أوربة وأعالي النّيل في إفريقية .

فوعده بذلك ، وقصدوا بغداد ، فوصلوها سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م ، وقتلوا المستعصم بالله ، لتنقضي بمقتله الخلافة العباسية ، ولم يتم للعقبي ما أراد ، وذاق من التتار الذل والهوان ، فمات كمدأ وعمّا .

قامت دويلات أعلنت تبعيتها لبغداد ، كانت ومضات رائعة ، في ركب الحضارة ، منها : الدولة الغزنوية^(١١) في أفغانستان والبُنجاب ، ودولة المرابطين^(١٢) والموحدين^(١٣) في المغرب الأقصى والأندلس ، والدولة النورية^(١٤) والصّلاحية^(١٥) في مصر وبلاد الشام .

كما بلغت الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر : [٢٧٧ - ٣٥٠ هـ = ٨٩٠ - ٩٦١ م] أوج نهضتها ، حتى غدت قرطبة جوهرة العالم ، يؤمها طلاب العلم الأوربيون لينهلوا من معين جامعاتها ومعاهدها العالية . ١٠

وشهد الشرق الأوسط في مطلع القرن السادس عشر للميلاد صراعاً أدى إلى تغيير في حدوده الجغرافية ، وكان هذا الصراع بين ثلاث قوى ، حين التقت مناطق نفوذ العثمانيين والمماليك ، بمنطقة نفوذ الصفويين الفرس^(١٦) ، ومال ميزان القوى لصالح العثمانيين بعد انتصارهم على الصفويين في شالديران (آب ١٥١٤ م) ، وبدأ الاحتكاك بينهم وبين المماليك بسبب اعتداء المماليك على قوافل المؤن العثمانية ، وفي ٢٣ آب ١٥١٦ التقى سلطان المماليك قانصوه الغوري بالعثمانيين الذين كانوا بقيادة سليم الأول ، وذلك شمالي حلب في مرج دابق ، فتغلب العثمانيون على المماليك ، ودخلوا حلب ودمشق والقاهرة بعدها . ١٥

(١١) الدولة الغزنوية : [٣٥١ - ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ - ١١٣٦ م] .

(١٢) المرابطون : [٤٣٠ - ٥٤١ هـ = ١٠٢٨ - ١١٤٧ م] .

(١٣) للموحدين : [٥٤١ - ٦٦٨ هـ = ١١٤٧ - ١٢٦٢ م] .

(١٤) نور الدين محمود بن زنكي : [٥٤١ - ٥٦٩ هـ = ١١٤٦ - ١١٧٣ م] .

(١٥) صلاح الدين الأيوبي : [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م] .

(١٦) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ، ص ١٢٦

لماذا انتصر العثمانيون في شالديران ، وانهزم الصفويون ؟

ولماذا انتصر العثمانيون في مرج دابق ، وانهزم المماليك ؟

لقد انتصر العثمانيون بسبب تسلحهم الحديث ، وصناعتهم لمدافعهم وبنادقهم النارية ، مع حسن استخدامها ، وانهزم الصفويون والمماليك بسبب جمودهم ، وإهمالهم الأسلحة النارية الحديثة ، واعتمادهم على الأسلحة القديمة التي تجاوزها الزمن .

وبالفعل ظهر في بلاط عباس الكبير الصفوي : [١٥٨٨ - ١٦٢٩ م] مغامر إنكليزيان ، وهما السير أنطوني وُالسِر روبرت شيرلي ، اللذان مكّناه آخر الأمر ، وبمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبها ، من أن يسلّح الجيش الصفوي بسلّاح المدفعية ، هذا السلّاح الذي كان يعوز الصفويين من قبل ، واستغلّ الصفويون الفرص فيما بعد ، فعندما انهمكت الإمبراطورية العثمانية في حروبها مع الإمبراطورية النمساوية المقدسة ، أعلن عباس الكبير الصفوي الحرب على العثمانيين عام ١٦٠٢ م ، وتمكّن بجيشه الجديد من استرداد تبريز ، والوصول إلى بغداد .

أمّا المماليك ، فقد اعتمد جيشهم كلياً على الفروسية التقليدية من سيف ورمح ، ومالوا أيضاً إلى الراحة والتّرف ، حتّى إنّ غالبية الميادين التي بنيت للتدريبات العسكرية الحربية تهدّمت ، ولم تُبنَ ميادين جديدة ، ولما حاولوا إدخال الأسلحة الحديثة في جيشهم ، جاء ذلك متأخراً ، بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية ، التي سببها تحوّل طرق التجارة العالمية من شواطئ بلاد الشام ومصر ، إلى رأس الرّجاء الصّالح .

وهذا الجمود الذي سبّب انهزام المماليك في مرج دابق ، وقعت فيه الدولة العثمانية في سنها الأخيرة ، فأضّر ذلك بالإسلام والمسلمين ، لقد أصبحت القاعدة في أواخر الدولة العثمانية : إبقاء القديم على قديمه ، كرهوا التّغيير ، فسبقهم الزمن ، وتقدّمت العلوم وازدهرت الصّناعات ، وهيهات أن يقف الجمود والمخطّون في وجه مطامع

الأوربيّين المستعمرين ، الذين امتلكوا مع مطامعهم وحقدهم ودسائسهم وسائل الحرب الحديثة ، والصّناعة المتقدّمة ، فسقطت الدّولة العثمانيّة أمام ضربات الطّامعين بأراضيها من قياصرة الرّوس ، وأباطرة أوربة ، الذين يهتمهم ثروة الشّرق ، ومركزه الاستراتيجي الهام .



المظهر السياسي

مصادر التشريع

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ .

[الإسراء : ٩/١٧]

إنَّ النُّظْمَ التَّشْرِيعِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ رَسِمَتْ حُدُودَهَا ، وَوَضَّحَتْ مَعَالِمَهَا فِي الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنْبَاءِ ﷺ عَنْ الْمَصْدَرَيْنِ الرَّئِيسِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ يَنْظُمَانِ
حَيَاةَ الْأُمَّةِ فِي شُؤْنِهَا التَّشْرِيعِيَّةَ كَافَّةً ، عِنْدَمَا قَالَ : « إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ إِنْ
تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا فَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا ، كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي » .

ومصادر التشريع أربعة أساسية هي : القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، والإجماع
أو الاجتهاد ، والقياس .

ومصادر ثانوية تابعة ، تلحق بالأصول الأربعة الأساسية ، منها : الاستحسان ،
والمصالح المرسلة .

المصادر الأساسية :

القرآن الكريم : تعددت مواقف اللغويين من اشتقاق اسم (القرآن الكريم) ،
فالشافعي يرى أن القرآن اسم علم غير مشتق ، خاص بكلام الله تعالى ، ويرى الفراء
أنه مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً ،

وهي قرائن ، وقال قُطْرُب^(١) : إِنَّمَا سُمِّيَ قرآنًا لِأَنَّ القارئ يظهره ويبينه من فيه ، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ، ويلقيه فيسمّيه قرآنًا ، ويرى ابن عَطِيَّة أَنَّ القرآن مصدر من قولك قرأ الرجل يقرأ قرآنًا وقراءة ، ومن كل هذه الآراء يختار السيوطي رأي الشافعي ، فيقول : « والمختار عندي في هذه المسألة مانصّ عليه الشافعي »^(٢) .

﴿ كِتَابُ أَنْزِلْنَاهُ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ، [ص : ٢٩/٢٨] .
 ﴿ كِتَابُ أَنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، [إبراهيم : ١/١٤] .

إنه كلام الله عز وجل ، نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ ، ليكون حجة له على أنه رسول الله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت : ٥١/٥٠] ، ودستور هدى للناس يهتدون بهداه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، [المائدة : ١٥/٥ و ١٦] .

وهو كتاب معجز : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

(١) قُطْرُبُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُسْتَنِيرِ (ت : ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م) ، نحوي عالم بالأدب واللغة ، من أهل البصرة ، وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه فلزمه ، [الأعلام ٩٥/٧] .

(٢) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ، د . محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة ، وانظر : تاريخ التشريع الإسلامي ، الشيخ محمد الحصري .

المدخل لدراسة التشريع الإسلامي ، د . عبد الرحمن الصابوني .
 مصادر التشريع الإسلامي فيما لانصّ فيه ، عبد الوهاب خلاف .



*أطلال سوق عكاظ

أحد أسواق العرب في الجاهليّة ، حيث كانت القبائل تجتمع في ذي القعدة من كلّ عام . وفيه كان الشعراء يتناشدون الجديد من أشعارهم ، فالعرب سادة البلاغة تهزهم القصيدة العصماء ، ترفع منهم أقواماً ذُلُّوا ، أو تذلل أقواماً عزُّوا ، تحدّاهم القرآن الكريم وهم « الخطباء اللد ، والفصحاء اللسن » أن يأتوا بسورة من مثله ، ففجزوا .

يقول الرافعي : « فمن ثمّ لم يقيم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة الّتي هي أكبر همهم ، ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم » .

مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ، [البقرة : ٢٣/٢٤] ، وهذا التَّحْدِي للعرب خصوصاً ، فهم سادة البلاغة ، تهزُّهم القصيدة العصماء ، فترفع منهم قوماً ذُلُّوا ، أو تذُلُّ قوماً عَزُّوا ، فهو معجزة خالدة تتحدَّى الزَّمان والمكان ، ولما طالب العربُ محمداً بمعجزة ، إذا هو بشجاعة باهرة ، وثقة مطلقة يدعوهم إلى ظاهرة القرآن الكريم ذاته ، فهم أئمة اللُّغة والأدب ، فعليهم إن هم زعموا أن القرآن من عنده ، لا من عند الله ، أن يأتوا بقول مثله ، فإن هم عجزوا ، والثَّابِت تاريخياً أنَّهم عجزوا ، فليقبلوا القرآن معجزة سافرة العيان : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ... ﴾ ؟

١٠ وليس لهذا الكتاب المجيد ، « الإلهي مصدراً ، والبشري هدفاً » ، من غاية إلاَّ سعادة البشريَّة ورفاهيَّتها ، عندما قدَّم للإنسان فكرة امتزاج الجسد والروح ، أو امتزاج الأرض والسماء ، أو امتزاج الدُّنيا بالآخرة : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، [القصص : ٧٧/٢٨] .

١٥ والقرآن الكريم ، المصدر الأساسي الأوَّل في التشريع .
وقام التشريع الإسلامي في القرآن الكريم على أسس ثلاثة :

- عدم الحَرَج : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، [الحج : ٣٧/٢٢] .

- وعدم إثقال كواهل المسلمين بالأوامر والنواهي : ﴿ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴾ ، [البقرة : ٢٨٦/٢] .

٢٠ - تمجيد العقل بمخاطبته ، والدَّعوة إلى التفكير السليم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ،

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ، [الحج : ٤٦/٢٢] .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ، أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ، [الزُّمَر : ١٨/٢٠] .

السُّنَّةُ الشَّرِيفَةُ : يراد بالسُّنَّةُ في اصطلاح الشرع : قول رسول الله ﷺ ، وفعله ، وتقريره .

لقد أشاد القرآن الكريم ذاته بطاعة المسلمين لرسول الله ﷺ ، والتزام سُنَّته ، فأنتهى العلماء المحققون إلى أن الحديث الصحيح حُجَّةٌ على جميع الأمة ، قال عز وجل : ١٠ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] ، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، [النساء : ٧٥/٤] ، وهكذا خصَّ الله سبحانه نبيّه بشيءٍ يطاع فيه ولا يُعصى ، وهو سُنَّته الَّتِي جَاءَ بِهَا .

١٥ فالسُّنَّةُ تفصيل لما أجمله القرآن الكريم ، وتقييد لما أطلقه ، وتخصيص ما ورد فيه من ألفاظ العموم ، وتبيان المراد منه في جميع الأحوال ، وتثبيت السُّنَّةِ أحكاماً لا يُعرض لها القرآن الكريم بنفي ولا إثبات ، وما تثبته السُّنَّةُ حينئذٍ من الأحكام لا بُدَّ أن أصله في كتاب الله ، فلا عجب إذا كانت السُّنَّةُ هي المصدر الثاني للتَّشريع بعد القرآن الكريم .

٢٠ الإجماع « أو الاجتهاد » : وهو اتفاق جميع المجتهدين في عصر من العصور ، بعد وفاة رسول الله ﷺ على حكم شرعي ، وقد كان ذلك ميسوراً في عهد كبار الصحابة ،

لأنّ ذوي الرأى منهم كانوا موجودين في بلد واحد هو المدينة المنورة ، ولكنّه بعد عصر الخلفاء الراشدين ، وتفرّق العلماء في الأمصار ، أصبح بعيد الوقوع ، وقد ذهب جمهور أهل السنّة والجماعة ، إلى أنّ الإجماع حُجّة قطعيّة ، لما ورد في الحديث الشريف : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »^(٣) ، وقوله ﷺ : « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »^(٤) .

ويبدو أنّ فكرة الإجماع مستمدّة من نظام الشورى ، الذي فرضه الإسلام على أولى الأمر أن يتشاوروا فيما بينهم : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ ، [الشورى : ٢٨/٤٢] ، ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، [آل عمران : ١٥٧/٣] .

ومثال الإجماع : إجماع الصحابة على إعطاء الجذّة في الميراث السُدس ، إذا لم يكن للميت أمّ ، إذ إنّها بمنزلة الأمّ ، وقد بُنيَ هذا الإجماع على نصٍّ من السنّة ظنيّ الثبوت ، فقد جاءت جذّة إلى أبي بكر رضي الله عنه تطلب ميراثها ، فقال : مالك في كتاب الله عزّ وجلّ شيء ، وما أعلم لك في سنّة رسول الله شيئاً ، ولكن ارجعي حتّى أسأل الناس ، فقال للمغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله ﷺ أعطهاها السُدس ، فقال : هل معك غيرك ؟ فشهد له محمد بن مسلمة ، فأمضاه لها أبو بكر .

وعلى هذا فالإجماع (أو الاجتهاد) يرمي إلى أمرين : فهم النصوص الثابتة التي وردت في القرآن الكريم والسنّة الشريفة ، واستنباط الأحكام منها ، وإيجاد الأحكام للوقائع الجديدة التي لم يرد نصّ بعينه بشأنها ، والتي تنشأ مع الزمن .

والاجتهاد هو الوسيلة الأولى في تاريخ التشريع الإسلامي لأجل إظهار حيويّته ، ولقد ظلّ الفقه الإسلامي مزدهراً ما بقي باب الاجتهاد مفتوحاً .

(٣) الثّامري ؛ (المقيّمه ٢٥/٨) .

(٤) الإمام أحمد : ٣٧٩/١

القياس :

القياس في اللغة : التسوية ، يقال : فلان لا يقاس بفلان ، أي لا يسوّى به ، والقياس اصطلاحاً : تسوية واقعة لم يرد نصٌ بحكمها بواقعة ورد نصٌ بحكمها في الحكم الذي ورد به النص ، لتساوي الواقعتين في علّة هذا الحكم .

- هـ فلو وردت حادثة لم يرد في حكمها نصٌ خاصٌ من كتابٍ أو سنةٍ أو إجماع ، وكان لها نظير ورد في حكمه نصٌ ، وتبين أنّ علّة حكم هذا النظير متحققة في تلك الحادثة ، ألحقت به ، وأعطيت الحكم نفسه .

ومثال القياس : ابتياع الإنسان على ابتياع أخيه منهياً عنه بنص الحديث الشريف : « لا يحلُّ لإنسان أن يخطب على خطبة أخيه ، ولا أن يبتاع على بيع أخيه » ، وقيس عليه استئجار الإنسان على استئجار أخيه ، لتساويهما في أنّ كلّاً منهما فيه اعتداء إنسان على غيره .

وكقتل الوارث مورثه مانع من الإرث بالحديث الشريف : « لا يرث القاتل » ، وقيس به قتل الموصى للموصي ، وقتل الموقوف عليه للواقف ، لتساويهما في أنّ القتل فيه مظنة استعجال الشيء قبل أوانه ، والانتفاع بالإجرام .

- ١٥ ونبّه الإمام الغزالي إلى وجوب الاجتهاد في القياس لتخريج مناط الحكم واستنباطه ، لأنّ القياس عمل عقلي يثبت به المجتهد الحكم للواقعة التي لم يرد دليل على حكمها بعد مساواة الفرع لأصله في علّة الحكم .

واستدلّ على حجّية القياس بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ، [النساء : ٥٩/٤] ، وهذا الرّدّ هو القياس ، لأنّه ردّ ما لا حكم فيه على نصٍ فيه حكم للتساوي بين الواقعتين بعلّة واحدة .

كما استدلل على القياس بالسُّنة النبويَّة ، إذ ورد أنَّ امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنَّ أبي أدركه الحجُّ ولم يحجَّ لأنَّه شيخ هرم ، أفأحج عنه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « رأيت لو كان على أبوك ذنُّنٌ ففقيته ، أكان ينفعه ذلك ؟ قالت : نعم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : فذَّين الله أحقُّ بالقضاء » .



٥

ومن المصَادِرِ الثَّانَوِيَّة :

الاستحسان : لغةً : هو عدُّ الشيء حسناً ، واصطلاحاً : هو العدول بحكم المسألة عن نظائرها إلى حكم آخر لدليل شرعي ، فالاستحسان هو العدول عن قياس إلى قياس أقوى منه ، أو هو العمل بأقوى الدليلين ، أو ترجيح دليل على دليل يعارضه بمرجِّح معتبر شرعاً . ١٠

مثال : الأجير المشترك ، إذا هلك المال في يده ، مقتضى القياس أنَّه لا يضمن ، ولكن عدل عن هذا ، وحكم بضمانه للمصلحة ، وهي المحافظة على أموال النَّاس وتأمينهم ، فالأمين لا يضمن ما يهلك في يده من غير قصد أو تقصير ، ويستثنى من هذا استحساناً ليطمئن النَّاس على ما يكون عند الأجير ، إلّا إذا كان هلاكه بقوة قاهرة ، فالحيَّاط أو الكوَّاء أو الصَّبَّاغ .. يضمن ما يهلك بيَّعه ، لضمان المصلحة العامَّة ، وللحفاظ على أموال النَّاس . ١٥

المصالح المُرْسَلَة « الاستصلاح » : وهو الحكم في مسألة لاحكم فيها لمصلحة يهتدي إليها المجتهد برأيه ، أو استنباط حكم في واقعة لانصَّ فيها ولا إجماع بناء على مصلحة لا دليل من المشرِّع على إقرارها ولا على إلغائها ، ويشترط في الاستصلاح أن يكون أخذاً بمصلحة حقيقية عامَّة ، وألاً يتعارض مع حكم ثابت بنصٍّ أو إجماع . ٢٠

مثال : اشتراط وثيقة الزواج لسماح الدَّعوى به .

إنَّ مصادر التشريع الإسلامي ليس فيها مصادمة لمصالح الناس ، لأنَّ فيها مرونة وخصوصية تكفل المصلحة العامة للفرد والمجتمع ، وتلائم البيئات المختلفة . ومهما تتباين آراء الفقهاء في الاجتهاد ، فإنَّهم جميعاً مدعوون إلى إعمال العقل ، والأخذ بمصلحة الأمة ، وأثبت الفقهاء المجتهدون أنَّ شرع الله يوافق مطالب الحياة ، لأنَّه امتاز بعنايته بمصالح كلِّ من الفرد والمجاعة ، وبرزت في جميع تشريعاته نزعته الجماعيَّة الواضحة . ٥

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لشريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي لما ولَّاه قضاء الكوفة : « انظر مليّتين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك فاتَّبع به سنَّة رسول الله ﷺ ، وما لم يتبين لك في السنَّة فاجتهد به برأيك » .



١٠

لقد حقَّق الإسلام بما احتوته المبادئ التي حدَّدتها مصادره ، تغييرات جذريَّة في المجتمع العربي ، وأوجد مفهومات جديدة كان من شأنها قلب العالم القديم رأساً على عقب .

فالتَّوحيد المطلق لله عزَّ وجلَّ جوهر العقيدة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ، ١٥ [النساء : ٤٨/٤] .

ونظام الحكم الذي أخذ به رسول الله ﷺ والرَّاشدون ، كان من المفهومات الجديدة التي طبعت حكم الإسلام بالشورى ، مع البساطة والعدالة .. فهزَّت المجتمعات المجاورة هزَّة نفسية عميقة .

وعرف العالم نظاماً اجتماعياً جديداً ، هو نظام التَّكافل الاجتماعي ، فلمحتاج حدُّ ٢٠ الكفاية من مسكن وملبس ومأكل .

وخاطب العقل ، فلا أسرار ولا خرافات ، وأطلقه من عقاله ، وجعله على طريق البحث العلمي والإبداع : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٢٤/٢١] ، ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، [يونس : ١٠١/٨٠] ..

٥ لقد صحب الفتوح نشاطٌ فكريٌّ لا عهد للشَّرق بمثله من قبل ، حتَّى لقد لاح أنَّ النَّاس جميعهم ابتداءً من الخليفة إلى أيِّ رجل في الشَّارع ، قد أصبحوا طلباً للعلم ، أو على الأقلَّ من مناصريه ، وكان النَّاس طلباً للعلم يسافرون عبر قارات ثلاث ، ثمَّ يعودون إلى ديارهم وكأنَّهم نخل تشبَّع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول علمي ثمين إلى حشود من التلاميذ المتشوقين للعلم ، وليؤلَّفوا بهمة عظيمة ، تلك الأعمال التي اتَّصفت بالدقَّة ، وسعة الأفق ، والتي استمدَّت منها العلم الحديث - بكلِّ ما تحمل هذه العبارة من معان - مقوماته بصورة أكثر فعاليَّة ممَّا نفترض ^(٥) .

« أمَّا الفكر الشرعي المتمثِّل في الفقه بمعناه الواسع سواء كان متعلِّقاً بالسياسة ، أو بالمعاملات الاجتماعيَّة ، أو بالعبادات ، فإنَّ الواقعيَّة تعتبر خاصيَّة من أهمَّ خصائصه وأبرزها ، عليها نشأ ، وعليها تطوَّر في عهوده الذهبيَّة الأولى » ^(٦) .

١٥ والشَّريعة الإسلاميَّة مرنة ، ودليل ذلك تعدُّد أدلَّة أحكامها ، وباب الاجتهاد فيها مفتوح إلى أن تقوم السَّاعة ، ويرث الله الأرض ومن عليها ، ومضي خمسة عشر قرناً على نزولها على قلب المصطفى ﷺ إنما هو أمر يحسب في صالحها ، ذلك أن عطاءها لا يزال متَّصلاً . ومعروف أنَّها جاءت أحكامها وقواعدها ثابتة فيما يخصُّ المعتقدات والأصول ، ومن ذلك الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وأمَّا فيما يخصُّ الفروع واستنباط الأحكام الخاصَّة بما يَجِدُ في المجتمعات من أمور ومستحدثات فمுகول أمرها إلى قاعدة

(٥) Nicholson: A Literary History of Arabs P. 281

(٦) مجلَّة كَلِيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة ، العدد الثَّاني ١٩٨٥ ، مقال : دور الفكر الواقعي في النهضة الإسلاميَّة ،

د . عبد المجيد النُّجَّار .

أو أصل إسلامي عظيم ، هو الاجتهاد ، ومعروف أن الاجتهاد من خصائص الإسلام ، إذ لم يعرف من قبله في الأديان ، أو الشرائع السابقة ، وبالاجتهاد تتأكد صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان .

ومن أهداف الشريعة الإسلامية توسيع الشعور بالرباط الإنساني ، مع يقظة الضمير : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] ، ومع ربط المسلم بمثل أعلى ، وجعل عمله مرتبطاً بالجزاء والثواب : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ، [آل عمران : ٣٠/٣] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ، [الكهف : ٣٠/١٨] ، ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَبَاجُلَ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، [النحل : ١١١/١٦] ، ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ، [النجم : ٣٩/٥٣ ، ٤٠ ، ٤١] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، [الزلزلة : ٦/٩٩ و ٧٠]

فالمسلم المؤمن مطمئن بالله ، فهو في كل حالاته وساعاته في عبادة ، لقد أيقظ الإيمان عنده الوجدان ، فارتاحت نفسه وسعدت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ، [الرعد : ٢٨/١٣] ، ولهذا .. فالعقيدة الإسلامية تحقق بُعداً نفسياً وروحياً ، يلا القلب راحة وسعادة ، وتقيم مجتمعاً على أساس التعارف والتراحم ، والتكافل والتضامن ، إنه مجتمع الطمأنينة ، المؤمن بالله ، والمتعاون فيما بينه بأمر الله .



نظام الحكم الخلافة

* « من كانت فيه أربع خصال
ساد قومه غير مدافع : من كان له
دين يحجزه ، وحسب يصونه ، وعقل
يرشده ، وحياء يمنعه » .

[الأحنف بن قيس]

نظام الحكم في شبه جزيرة العرب قبيل الإسلام :

عرف العرب الملكية في اليمن ، وفي مملكة كِنْدَة ، ولكن النظام القبلي كان أحد
الأنظمة الاجتماعية التي لازمت حياة البداوة ، وكان زعيم هذا النظام (شيخ القبيلة) ،
الذي يُختار ضمن شروط ، منها : عَرَاقة الأصل ، والنُّضج ، والكرم ، والشجاعة ،
والجَلَم ، وكان لشيخ القبيلة مجلس استشاري من عقلاء القبيلة ، وليست دار الندوة في
مكة المكرمة ، إلا شكلاً من أشكال المجالس الاستشارية .

حكومة الرسول ﷺ :

لقد كانت حكومة رسول الله ﷺ حكومة دينية ، اعتمدت على عقيدة الرعية ،
وقامت على أساس إحلال الوحدة الدينية بدل العصبية القبلية ، وأخذت صورة الجهاز
الحكومي بالظهور ، فالسلطة التنفيذية بدت في قيادته ﷺ للغزوات ، وبعثه
السرايا ، وتوزيع الغنائم ، وتولية الأمراء .. وكان ﷺ يجلس في مسجد المدينة
المنورة ، ويُقبل عليه الناس يسألونه عن قضاياهم ، وكثيراً ما كان ﷺ يستشير
أصحابه ، وخصوصاً أبا بكر الصديق ، حتى عدَّ بعضهم أبا بكر وزير
رسول الله ﷺ .

كما وجدت السلطة القضائية ، فكان ﷺ يحكم بين المتخاصمين ، وكان حكمه ملزماً .

أما السلطة التشريعية ، فقد كانت آيات كتاب الله ، وأحاديث رسول الله ﷺ تسنُّ للناس قواعد السلوك في حياتهم الاجتماعية .

سِمَاتُ حُكُومَةِ الرَّسُولِ ﷺ :

المساواة : النَّاسُ متساوون تجاه القانون ، وفي المثل أمام القضاء ، لا فرق بينهم : « النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِّ ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى » ، وكانت هذه المساواة عامة في كلِّ شيء ، سرقت امرأة فأراد ﷺ قطع يدها^(١) ، ففرع قومها إلى أسامة بن زيد بن حارثة يستشفعون به ، فلما كلَّمه أسامة ، تلَوْن وجهه ﷺ ، وقال : « أَتَكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ » ، فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله ، ثُمَّ قَامَ ﷺ خَطِيْبًا ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »^(٢) .

أما المساواة في القضاء ، فلم يكن لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة سوى قضاء واحد ، يجلس أمامه النَّاسُ كُلُّهُمْ لا فرق بينهم .

مع مساواة في المناصب ، قال ﷺ : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحْداً مَحَابَةً ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدلاً حَتَّى يَدْخُلَهُ

(١) يعذب بعضهم على الإسلام قطع اليد ، ورجم الزَّانِي المحسن ، ويقولون إنها عقوبة موسومة بالوحشية والقسوة ، لن تناقش القول هنا ، فقد فضَّلناه في كتابنا : « آراء يهدمها الإسلام » ، انظر الطبعة الثالثة ، ص ٥٣

(٢) السيرة الحلبية : ١٢٠/٣ ، البداية والنهاية : ٣١٨/٤

جهنم .. »^(٣) ، ومثل هذا يقال في الضرائب ، فإنها تجبي من الناس على قدم المساواة ، فمن كثر ماله كثر زكاته ، ومن قل ماله قلت صدقاته .

وهكذا هدم رسول الله ﷺ - وصحابته الذين عاشوا الإسلام ، وفهموا أهدافه - نظام الطبقات ، وأقاموا المساواة بين الناس ، المساواة في الأصول ، أو المساواة رغم الأصول ، ولم يضق العربي بغير العربي ، فنبغ فيهم الكثير من الأعاجم ، ولم يضق بغير المسلم ، ولا بأسود ، ولا بأصفر ، ولا بأحمر .. مع تحقيق كامل إنسانية المرأة ، والمساواة في فرص العيش ، والتعليم .

الأخوة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، [الحجرات : ١٠/٤٩] ، وهذه الأخوة جعلت الأمة والدولة أسرة واحدة ، لقد آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، حتى تقاسمو البيوت والأموال ، وخصّ الفقراء بالأوفر من موارد الدولة . ١٠

الحرية : كانت العرب قبل الإسلام يسترق بعضها بعضاً ، خطفاً أو ميسراً أو ديناً أو غزواً ، فنعى ﷺ كل هذا ، فعا عاد يجوز لمسلم أن يسترق مسلماً ، ولا لعربي أن يسترق عربياً ، وسار بخطوات مدروسة إلى إلغاء الرقيق ، وذلك بتضييق المدخل ، وتوسيع المخرج .

ضيق المدخل وسدّ الموارد والمنايع ، ولم يبق منها إلا مدخلاً واحداً ، وقد ضيقه حتى لم يعد ينفذ منه إلى الرق إلا القليل النادر ، وذلك المدخل هو الجهاد في سبيل الله ، لردّ اعتداء يقوم به غير المسلمين ، فلا استرقاق إلا في حرب شرعية ، معاملة بالمثل ، أو المنع عليهم ، تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ : « عودوا المريض ، وأطعموا الجائع ، وفكّوا العاني »^(٤) . ١٥

(٣) كنز العمال : ٣٨٦ ، الإمام أحمد ، والحاكم عن أبي بكر ، وفي كنز العمال أيضاً ٣٨٦ : « من ولي عملاً وهو يعلم أنه ليس لذلك أهل ، فليتبوأ مقعده من النار » .

(٤) رواه البخاري .

ووسَّعَ المخرج ، وفسح ووسَّعَ المصارف ، لأنَّ الإسلام عدَّ الرِّقَ عارِضاً ، وعمل على إزالته ، ففتح الأبواب ليعيد الحرِّيَّةَ إلى الرِّقِيق ، وهذه الأبواب هي : العتق ، الكفَّارات ، المكاتب ، التَّديير^(٥) .. وقال ﷺ عن الأرقَّاء : « هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممَّا يأكل ، ويكسسه ممَّا يكتسي ، ولا يكلِّفه ممَّا يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليُعنه »^(٦) .

والمواطن غير المسلم ، يتَّعَّ بكامل حرِّيَّته ، فما عُرِفَ عنه ﷺ أنَّه أمر بقتل أحدٍ من أهل الكتاب لأنَّه لم يُسلِّم ، أو أنَّه منعه من التَّعبُد على طريقته ، ولم يهدم ﷺ كنيسة أو بيعة : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ، [الممتحنة : ٨/٦٠] .

وكان ﷺ يحضر ولائم غير المسلمين ، ويشيِّع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ولَمَّا جاء وفد نجران المسيحي فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وقال : « من آذى ذمياً فأنا خصمه »^(٧) ، « من قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة »^(٨) .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٦/٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ،

[الكهف : ٢٩/١٨] .

(٥) التَّديير - على أصحِّ الأقوال - مَنْ قال له سيِّده : « أنت دبر حياتي حرٌّ » .

(٦) رواه البخاري .

(٧) رواه أبو داود عن عدد من أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم ، وسنده لا بأس به ، وذكره البيهقي في سننه ، انظر : (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) ، لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي : ٢١٨/٢٤ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٣٥٢ هـ .

(٨) رواه البخاري .

التنظيمات الإدارية :

كان رسول الله ﷺ في المدينة المنورة يمثل السلطتين المدنية والروحية معاً ، وبعد فتح مكة المكرمة واتساع رقعة الدولة ، بدأت تتوضح الإدارة الجديدة لجزيرة العرب ، التي خضعت - معظم أجزائها - لرئاسة واحدة ، فكان يساعده في عمله عدد من الكتاب ، منهم من يكتب الوحي ، ومنهم من يكتب في حوائج الناس ، وكتب زيد بن ثابت إلى الأمراء والملوك ، واختص أحد الكتاب بالنيابة عن كل كاتب يغيب ، ويحفظ خاتمه ^(٩) .

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على مشورة أصحابه ، ومنهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وحمة بن عبد المطلب ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ..

كما أرسل الأمراء والعمال إلى البلاد التي أسلمت ، يجبون الزكاة لإنفاقها على فقراء البلدة ذاتها ، ويُرسل الفاض إلى العاصمة لينفق في المصالح العامة ، منهم : أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) على مأرب ، والمهاجر بن أبي أمية على صنعاء ، وزيد بن لبيد على حضرموت ، وعدي بن حاتم على طيء ، والعلاء بن الحضرمي على البحرين ، وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل بين حضرموت واليمن .



نظام الحكم بعد رسول الله ﷺ

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، [الشورى : ٣٨/٤٢] .

مدأ الشورى ، ظاهرة سلبية ، تجعل الفرد إيجابياً وفعالاً ومساهماً بدور بارز في

(٩) الوزراء والكتاب ، الجهشيارى : ١٢

إدارة مؤسسات الحكم ، كما يجعل المسؤولين في المؤسسات الإدارية ملتزمين برأي المجتمع ، مع إشراك الأفراد في المسؤولية الإدارية التي تتميز بقوة الإيمان والتقوى والورع ، والسلطة في الإسلام لا تستند إلى وضع طبقي تسلطي ، بل تستند إلى درجة المعرفة ، والعمل ، والتقوى ، والتفاني ، والأمانة ، والإخلاص .. الإمارة في الإسلام تسعى للمشاركة ، وتتميز بدرجة عالية لتقبل النقد من أجل المصلحة العامة ، فعندما أراد عمر رضي الله عنه تحديد المهور ، قالت له امرأة من آخر الصُفوف : ليس لك ذلك يا ابن الخطّاب ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ؛ [النساء : ٢٠/٤] ، أتدري ما القنطار ؟! فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وسأل رضي الله عنه يوماً : ماذا تقولون إذا عوججت ؟ أجابوا : تقوّمك بمجدّ سيفونا^(١٠) .

والقرآن الكريم ، والسنة الصحيحة لم يعرض لموضوع الخلاف بمفهومها الحديث ، وليس هذا قصوراً أو نقصاً في التشريع الإسلامي ، ولكن شاء الله ورسوله ترك هذا الأمر للأمة الإسلامية في اختيار الحاكم الذي يرتضونه ، متّخذين ما في القرآن الكريم والسنة الصحيحة من قواعد عامّة وشمولية في إقامة النظام ، ووكل للأمة طريقة الاختيار .

ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده ، لقد ترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من أحبّوا ، مع إشارات إلى الصديق رضي الله عنه ، قال ﷺ عند مرضه : « لِيُصَلَّ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ » ، قالوا : لو أمرت غيره ؟ - لرأفته وضعف صوته - قال ﷺ : « لا ينبغي لأمتي أن يؤمّهم إمام وفيهم أبو بكر »^(١١) ، وجاءت

(١٠) في الرّياض النّضرة في مناقب العشرة ، للمحب الطّبري ٥٠/٢ : قال يوماً على المنبر : يامعشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا (وميل رأسه) ، فقام إليه رجل فقال : أجل ، كنّا نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع) ، فقال : إيّاي تعني بقولك ؟ قال : نعم إيّاك أعني بقولي ، فقال عمر : رحك الله ، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجت قومني !

(١١) منتخب كنز العمال ٣٤٣/٤ ، أسد الغابة ٣٣٠/٣ ، وفي ابن سعد ١٧٨/٣ : « مروا بلالاً فليؤدّن ، ومروا أبا بكر فليصل بالناس » .

امراً لرسول الله ﷺ في شيء فأمرها بأمر ، فقالت : أرأيت يا رسول الله إن لم أجدك ؟ - تعني الموت - قال ﷺ : « إن لم تجديني ، فأتي أبا بكر »^(١٢) ، فبايع الناس أبا بكر بيعة خاصة في سقيفة بني ساعدة ، وفي اليوم التالي بايع الناس في المسجد البيعة العامة ، وفي رواية الطبري ٢٠٧/٣ : كان علي في بيته إذ أتى ف قيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج في قيص ما عليه إزار ولا رداء ، عَجلاً كراهية أن يُبطئ عنها ، حتى بايعة ، ثم جلس إليه ، وبعث من أتاه بثوبه فتجلله ولزم مجلسه .

نتائج السقيفة : بيعة السقيفة توضح أن ليس في القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف نص على خلافة رجل ما ، ولو وجد ما خالفه أحد من ألوف الصحابة ، ولم يخص ﷺ الخلافة من بعده في قبيلة أو أسرة ما : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

وفي السقيفة اتضح إجماع المسلمين على ضرورة الخلافة ، للنظر في المصلحة العامة ، وأن للمهاجرين فضلهم على سائر المسلمين لسبقهم إلى الإسلام ، فأسرعوا في بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، كي لا يبقى منصب الرئاسة شاغراً ، لسبقه في الإسلام ، وفضله ، وسنّه ، مع إشاراته ﷺ إليه^(١٣) .



(١٢) ابن سعد : ١٧٨/٣ ، أسد الغابة : ٣٣٠/٣ ، الاستيعاب : ٢٤٩/٢ ، صحيح مسلم : ١٨٥٦/٤ الحديث ٢٣٨٦

(١٣) لبحث الخلافة ونظام الحكم في الإسلام ، انظر مع عبقرية الإسلام في أصول الحكم للدكتور منير العجلاني الكتب التالية :

- مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، للقلقشندي .
- الأحكام السلطانية ، للماوردي ، والأحكام السلطانية للقرطبي .
- الفخري في الآداب السلطانية ، لابن طباطبا .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم الأندلسي .
- النظم الإسلامية ، د . حسن إبراهيم حسن ، وعلي إبراهيم حسن .

الْخِلَافَةُ

الخلافة مصدر خَلَفَ ، يقال : خَلَفَهُ في قومه يَخْلُفُهُ خلافة فهو خَلِيفَة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي ﴾ ، [الأعراف : ١٤٢/٧] ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ في العُرف العام على الزَّعامة العظمى ، وهي الولاية العامّة على الأمّة كافّة ، والقيام بأمورها ، والنّهوض بأعبائها .

والخِليفي - بكسر الحاء وتشديد اللام المكسورة - لغة في الخلافة حكاها الجوهري في الصّحاح ، وقال ابن الأثير في نهايته في غريب الحديث : وهو من المصادر الدّالة على معنى الكثرة ، ومنه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : لو أُطِيق الأذان مع الخِليفي لأذّنت ، يريد أنّه مشغول عن الأذان بكثرة اجتهاده في ضبط أمور الخلافة ، وتصريف أعنتها .

وقد اختلف في لفظ الخليفة ، فقليل : هو فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، كجريح بمعنى مجروح ، ويكون المعنى أنّه يخلفه مَنْ بعده ، وعليه حُمِلَ قوله تعالى في حقّ آدم عليه السّلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، [البقرة : ٣٠/٢] ، على قول من قال : إنّ آدم أوّل من عمّر الأرض ، وخلفه فيها بنوه بعده .

وقيل : هو فاعيل بمعنى فاعل ، كعليم بمعنى عالم ، وقدير بمعنى قادر ، ويكون المعنى فيه أنّه يَخْلُف من قبله ، وعليه حَمَلَ الآية السّابقة من قال : إنّهُ كان قبل آدم في

= - تاريخ التّشريع الإسلامي ، محمد الحصري .

- المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، للمقرئزي .

- صبح الأعشى ، للقلقشندي .

- السّلوک في دول الملوك ، لمقرئزي .

- الخُراج ، لأبي يوسف القاضي .

- وكتب التّاريخ المعتبرة : طبقات ابن سعد ، الطّبري ، الكامل في التّاريخ ، البداية والنّهاية ، تاريخ

الخلفاء ، وكتاب السّير الكبير للشّيباني .

الأرض مخلوقات منها الملائكة مثلاً ، وإِنَّه خلفهم فيها ، وعليه خطوب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله .

ويُجمع الخليفة على خلفاء ، كما في كريم على كرماء ، وعليه ورد قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، [الأعراف : ٦٩/٧] ، ويجمع أيضاً على خلائف حملاً على تأنيث اللفظ ، كما تجمع صحيفة على صحائف ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ ، [الأنعام : ١٦٥/٦] ، ويجوز أن يُجمع على خلافٍ ، ككريم وكرام ، لأنَّ الهاء في (خليفة) زائدة حسب رأي بعض النحويين .

وتكون الخلافة عن الله ، فيقال في الخليفة : خليفة الله^(١٤) ، وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك ، محتجين بأنَّه إنَّما يَسْتَخْلِفُ من يغيب أو يموت ، والله باقٍ لا يغيب ، ويؤيد ذلك ما روي أنه قيل لأبي بكر الصديق : يا خليفة الله ، فقال : لست بخليفة الله ، ولكنني خليفة رسول الله ﷺ^(١٥) ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا خليفة الله ، فقال : ويلك لقد تناولتَ متناً ولا بعيداً ، إنَّ أُمِّي سَمَّتْني عَمْرَ ، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلتُ ، ثمَّ كبرتُ فَكُنْتُ أبا حفص^(١٦) ، فلو دعوتني به قبلتُ ، ثمَّ وَلَّيْتُونِي أُمُورَكُمْ فَسَمَّيْتُونِي أمير المؤمنين ، فلو دعوتني بذلك كفاك .

وتكون الخلافة عن رسول الله ﷺ ، فيقال فيه : خليفة رسول الله ﷺ لأنَّه خلفه في أمته ، وعلى ذلك خطوب أبو بكر رضي الله عنه .

وتكون الخلافة عن الخليفة قبل ذلك الخليفة ، ويقال : فلان خليفة فلان ، واحداً بعد واحد ، حتَّى ينتهي إلى أبي بكر رضي الله عنه فيقال فيه : خليفة رسول الله ﷺ ، وعلى ذلك خطوب أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، في أوَّل أمره بخليفة خليفة رسول الله .

(١٤) هذه إضافة تشريف ، مثل : ناقة الله ، بيت الله .

(١٥) مآثر الخلافة في معالم الخلافة ، للقلقشندي : ١٥/١

(١٦) الأسد يكتنى أبا حفص ، ويسمى شبلة حفصاً ، (اللسان : حفص) .

ألقاب الخلافة : أمّا ألقاب الخليفة فأربعة ، هي : عبد الله ، وأوّل من تَلَقَّبَ بذلك من الخلفاء عمر بن الخطّاب ، فكان يكتب في كتبه الصّادرة عنه : من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء على ذلك ولزموه ، وأضاف الفاطميّون (وَوَلِيَّهِ) ، فكان يكتب في كتبهم : من عبد الله وولِيَّهِ أمير المؤمنين .

واللقب الثّاني : الإمام ، وهو من الألقاب المُستجدة للخليفة في أثناء الدّولة العباسيّة بالعراق .

واللقب الثّالث : لقب الخِلافة الخاص بها ، كالمنصور ، والهادي ، والرّشيد ، والمأمون ، والمعتمد بالله ، والمتوكّل على الله ، وابتدئ بها في الدّولة العباسيّة .

واللقب الرّابع : أمير المؤمنين ، وأوّل من لُقِّبَ به أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في أثناء خلافته ، وكان يدعى في أوّل خلافته خليفة خليفة رسول الله ، وذكر أبو هلال العسكري في كتابه (الأوائل)^(١٧) أنّ أصل ذلك أن عمر خليفة خليفة رسول الله رضي الله عنه بعث إلى عامله بالعراق أن يبعث إليه رجُلَيْن عارِفَيْن بأُمُور العراق ، يسألهما عمّا يريد ، فأنفذ إليه لبيد بن ربيعة وعديّ بن حاتم ، فلمّا وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص ، فقالا له : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال لهما عمرو : أنتم والله أصبتم اسمي ، ثمّ دخل على عمر ، فقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ما بَدَا لك يا ابن العاص ؟ لتخرجنّ من هذا القول ، فقصّ عليه القصّة فأقرّه على ذلك ، فكان ذلك أوّل تلقيبه بأمرير المؤمنين^(١٨) .

(١٧) كتاب الأوائل لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، المتوفّى سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م .

(١٨) مآثر الخلافة في معالم الخلافة : ٢٧/١ ، وفي تاريخ اليعقوبي ١٥٠/٢ : كتب أبو موسى الأشعري لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، وجرت عليه ، وقيل إنّ المغيرة بن شعبة دخل على عمر فقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخرجنّ ممّا قلت ، فقال : ألسنا مسلمين ؟ قال : بلى ، قال : وأنت أميرنا ، قال : اللّهم نعم .

ولزم هذا اللقب مَنْ ولي الخلافة بعده ، خلا خلفاء بني أمية بالأندلس ، فإنهم كانوا يخاطبون بالإمارة فقط ، إلى أن ولي عبد الرحمن بن محمد ، فتلقب بأمر المؤمنين ، أمّا في المغرب الأقصى ، فنجد أيّام يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، خوطب أمراؤها بلقب (أمير المسلمين) ، واستخدمه من بعدهم الموحدون وبنو مَرِين ، حتّى عندما انفصلت مملكة غانة عن دولة المرابطين ، وأعلنت استقلالها ، أصبح ملكها يخطب لنفسه تحت رعاية أمير المؤمنين العباسي في بغداد^(١٩) .

وهكذا (الخلافة) ، أُطلقت على الولاية العامة على الأمة والقيام بأمرها ، والنهوض بأعبائها ، إنها رئاسة عامة في أمور الدّين والدّنيا نيابة عن رسول الله ﷺ ، فهي خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين ، وسياسة الدّنيا به ، فالخليفة حاكم زماني وروحي بأن واحد ، ومهما اتّسعت سلطته ، لا يستطيع مخالفة الشريعة : القرآن الكريم ، والسنة الشريفة^(٢٠) .

آراء المسلمين حول اختيار الخليفة :

اختلاف الصحابة^(٢١) ، دليل على أنّ هذا الأمر متروك للمسلمين ليروا فيه رأيهم ،

(١٩) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا : ص ١٣٧

(٢٠) لبحث الخلافة ينظر في كتاب « مآثر الإنافة في معالم الخلافة » للقلقشندي ، ويمكن الرجوع إلى الجزء ٣٥ والجزء ٣٦ من (المختار من التراث العربي) ، الذي تصدره وزارة الثقافة في القطر العربي السوري ، حيث قدّمت في الجزء الأول كلّ ما يتعلّق بالخلافة ، وفي الجزء الثاني ولاية الأمصار زمن الخلفاء ، والجزآن نشرتا تحت عنوان : [من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة] ، اختار النصوص وعلّق عليها وقدّم لها : شوقي أبو خليل .

(٢١) عرّف ابن حجر الصّحابي بما يلي : الصّحابي من لقي النّبي ﷺ ، مؤمناً به ومات على الإسلام ، فدخل في من لقيه من طالت مجالسته له ، أو قصّرت ، ومن روى عنه أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى ، (مقدّمة الإصابة) . وعند الشيعة لا يقال (صحابي) إلا لمن كثرت ملازمته ، إن الصّحبة تقتضي طول اللبث ، والمعاشرة ، ولا يقال إلا لمن كثرت ملازمته ، والصّحبة نسبة بين اثنين .

والمسلمون كُلُّهم متَّفَقون : على إقامة خليفة لرسول الله ﷺ ، فقال المهاجرون : تحصر الخلافة في قريش ، قوم رسول الله ﷺ وعشيرته : « الأئمة في قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا فوفوا ، واستُرْجِمُوا فرحموا » ، أمَّا الأنصار فرأيهم أن يكون منهم لأنَّهم أعزُّوا الدِّين ، ونصروا رسول الله ﷺ عندما تنكَّرت له قريش وحاربتَه .

و يرى الشيعة أن تكون الخلافة في بيت رسول الله ﷺ ، وترى الإمامية أنَّ رسول الله ﷺ عيَّن علياً رضي الله عنه صراحة : « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

ورأي الخوارج الاختيار الحرَّ ، يتولى الخلافة من تتوفر فيه شروطها ، ويصحُّ أن يكون الخليفة من قريش أو من غيرها ، ولو كان عبداً حبشياً ، واشتراطوا : الإسلام والعدل .

والمرجئة محايدون ، ونظرتهم واحدة نحو جميع الذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة .

والمعتزلة يقولون بحريَّة إرادة الإنسان ، وأنَّ الأُمَّة تختار إمامها ، وقالوا بصحَّة الخلافة الرَّاشدية ، وأنَّ خلافة بني أُمَيَّة غير صحيحة ، فوقفوا منها موقف الكراهة ، ولم يثوروا عليها كما ثار الخوارج .

طريقة اختيار الخليفة :

- ١ - المرشَّحون للخلافة ، وهم الذين يستوفون شروط الخلافة .
- ٢ - فحص الشُّروط المتوافرة في المرشَّحين ودراستها ، من قِبَل أهل الاختيار ، وهم أهل الحلِّ والعقد ، وأورد الماوردي لهم شروطاً ، منها العلم والحكمة ..
- ٣ - الأُمَّة ، وهي المرجع الأوَّل والأخير في اختيار الخليفة ، وهو حقٌّ من حقوقها ، لا يصلح اختياره إلَّا برضاها .



الخلافة وتطورها زمن الراشدين والأمويين والعباسيين :

أيام الراشدين : الأنصار أول من فكّر في ضرورة الإسراع في انتخاب خلف لرسول الله ﷺ ، كي لا تدبّ الفوضى ، وتتشعب الآراء ، وفي سقيفة بني ساعدة رشّحوا سعد بن عبادة سيّد الخزرج ، وقالوا : منّا أمير ، ومنكم أمير ، فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : يا معشر الأنصار ، أستم تعلمون أنّ رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤمّ الناس ؟ فأأيكم تطيب نفسه أن يتقدّم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدّم أبا بكر^(٢٢) ، فكانت البيعة ، وهي أن يجتمع أهل الحلّ والعقد ، ويعقدون الخلافة لمن يستجمع شرائطها .

واستشار أبو بكر رضي الله عنه في مرضه كبار الصحابة ، كعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفّان ، وأسيد بن حضير ، وسعيد بن زيد ، فأثنوا كلّهم على عمر بن الخطّاب ، فعينه خلفاً له : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله عند آخر عهده بالدنيا وأوّل عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ، ويتقي فيها الفاجر : إنّي استعملت عمر بن الخطّاب ، فإن برّ وعدك فذلك علمي به ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكلّ امرئ ما اكتسب ﴿ وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ »^(٢٣) .

وكانت وصيّة أبي بكر الصّدّيق لعمر بن الخطّاب ، التّالي :

« إنّي مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله : إنّ الله عملاً بالليل لا يقبله بالنّهار ، وعملاً بالنّهار لا يقبله بالليل ، وإنّه لا تقبل نافلة حتّى تودّي الفريضة ، فإنّا ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحقّ في الدّنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلّا الحقّ أن يكون ثقيلاً ، وإنّا خفّت موازين من خفّت

(٢٢) أسد الغابة ٣/٣٣٢ ، الاستيعاب ٢/٢٥١ ، طبقات ابن سعد ٣/١٧٩

(٢٣) عيون الأخبار لابن قتيبة : ١٤/١

موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفّته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلاّ الباطل أن يكون خفيفاً . إنّ الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنّني أخاف أن لا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنّني لأرجو أن لا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرّحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة ، فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبّ إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيّعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ، ولست بمعجز الله » (٢٤) .

فانتقال الخلافة بالعهد هو أن يعهد الخليفة إلى غيره ممّن استجمع شرائط الخلافة بعد موته إلى المعهود إليه ، ولا تتم إلا بعد بيعة المسلمين له .

وجعل عمر رضي الله عنه لجنة سداسيّة هي : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفّان ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فانتخب عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

وكانت وصيّة عمر للخليفة من بعده ، التّالي :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مُسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنّهم درء العدو ، وجباة الفبي ، لا تحمل فيئهم إلاّ عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنّهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فتردّ على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذّمّة خيراً أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدّوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يدٍ وهم صاغرون ، وأوصيك أن تحشى الله في النّاس ، وتحشى النّاس في الله ، وأوصيك بالعدل

(٢٤) البيان والتبيين ، ص : ٢٣٥

في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فإن ذلك بإذن الله سلامة لقلبك ، وحطّ لوزرك ، وخير في عاقبة أمرك ، حتّى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك ، وأمرك أن تشتدّ في أمر الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثمّ لا تأخذك في أحد رافة ، حتّى تنتهك منه ٥ مثل ما انتهك من حرم الله ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالي على من وجب الحق ، ثمّ لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحابة فيما ولّك الله ، ممّا أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسّعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فإن اقترفت لذنباك عدلاً وعفة عما بسط الله لك اقترفت به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبك الهوى اقترفت به سخط الله ، وأوصيك أن لا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمّة .. ١٠

وجاء في آخرها :

ثمّ اركب الحقّ وخض إليه الغمرات ، وكن واعظاً لنفسك ، أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فيذلّوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقروهم ، ولا تجمّرهم^(٢٥) في البعوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم ، هذه وصيّتي إياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السّلام »^(٢٦) . ١٥

وانتخب علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عثمان بن عفّان ، إلّا أنّ البيعة لم تكن تامّة ، إذ امتنع بنو أميّة وطلحة والزبير عن البيعة .

(٢٥) تجمير الجند : حبسهم وإبقاؤهم في ثغر العدو عن العود إلى أهليهم ، (اللسان جر) .

(٢٦) البيان والتبيين ، ص : ٢٣٥ و ٢٣٦

أيام الأمويين : أصبحت الخلافة أيام الأمويين ملكاً وراثياً^(٢٧) ، بقوة السيف والسياسة ، قال معاوية : « لأضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدووها خلّيتها ، وإذا خلّوها مددتها »^(٢٨) .

وقال عبد الملك بن مروان : « أنصفونا يا معشر الرعية ، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كلاً على كل »^(٢٩) .

وقال الوليد لعبد الملك : يا أبت ما السياسة ؟ قال : « هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع »^(٣٠) .

لقد أوجد معاوية بن أبي سفيان نظام (ولاية العهد) ، الذي قد يوصل إلى الحكم أحياناً من ليس أهلاً له ، وسنّ مروان بن الحكم العهد لاثنين ، فظهر التنافس بين أفراد البيت المالكي على أثرها ، ويمكننا القول : إنّ ولاية العهد لاثنين كان لها أثر خطير على كيان الدولة الأموية ، إذ أوصلتها - مع عوامل أخرى - إلى نهايتها .

أيام العباسيين : وحذا العباسيون حذو الأمويين في ولاية العهد ، مع تأثر بنظم الحكم لدى ملوك الفرس (الحق الملكي المقدس) ، خطب أبو جعفر المنصور على منبر^{١٥} عرفة ، فقال : « أيها الناس ، إنّنا أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنّه على فيئه بمشيئته ، أقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، وقد جعلني الله تعالى عليه

(٢٧) باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقد عادت الخلافة سيرتها الدينية الأولى أيام الراشدين .

(٢٨) عيون الأخبار : ٩/١

(٢٩) عيون الأخبار : ١٠/١

(٣٠) عيون الأخبار : ٩/١

قفلًا ، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، وإذا شاء أن يُقفلني عليه أقفلني ، فارغبوا إلى الله تعالى .. » (٣١) .

شروط الخلافة :

أولها (الحرّية) : فالعبد لا يملك نفسه ، وحديث : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » ، من قبيل المبالغة في طلب الطاعة ، وثانيها (الذُكُورَة) : والإجماع في هذه القضية يكاد يكون تامًّا ، وثالثها (البلوغ) : فلا تنعقد إمامة الصبيّ لأنّه مؤلّى عليه ، والنظر في أموره إلى غيره ، فهو وإن ورث الملك عن أبيه (٣٢) ، إلّا أنّه لا يباشر الحكم حتّى يدرك سنّ البلوغ ، ورابعها (سلامة العقل) : فلا تنعقد إمامة ذاهب العقل بجنون أو غيره ، لأنّ العقل آلة التّدير ، فإذا فات العقل فات التّدير ، وخامسها (سلامة الخواص والأعضاء) : فالفقدان الكامل للبصر أو لليدَيْن أو الرّجلَيْن يمنع من عقد الخلافة ومن استدامتها ، وفقدان السّمع والنّطق يمنع من عقد الخلافة ابتداءً ، ولكنّه إذا طرأ بعد الخلافة لا يمنع من استدامتها .

وهناك شروط متّمة هي :

(العِلْمُ) : بشؤون الدّين والأحكام الشرعيّة ، لأنّ الخليفة يجتهد في أمور المسلمين وحقوقهم ، فينبغي له أن يكون عالماً يُصَرِّفُ الأمور على النهج القويم ، و (العدالة) : فلا تنعقد إمامة الفاسق ، لأنّ الخليفة مؤتمن على أموال المسلمين وحقوقهم ، فينبغي له أن يكون نزيهاً ، مع تجنّب المعاصي ، معروفًا بحسن السّيرة والأخلاق ، (والكفاية) :

(٣١) تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلد ٢٨ ، ص ٢١٢ ، وكان على رأس نظام الحكم في أوربة في العصور الوسطى إمبراطور هو الحاكم الزّمني ، وبابا هو الحاكم الرّوحي ، وهو يغيّر ويلغي القوانين ، بينما الخليفة المسلم يجمع السلطتين الزّمنيّة والرّويّة في شخصه ليطبّق شرع الله ، لأنّ الإسلام يتحور حول كتاب ، والمسيحيّة تتحور حول شخص .

(٣٢) كان العرب يكرهون ولاية العهد لحدث .

أي الشجاعة والرأي والنجدة ، فلا تنعقد خلافة الجبان ، لأنه محتاج إلى الشجاعة ، ليتوصل بذلك إلى حماية الحدود ، وجهاد العدو ، وتجهيز الجيوش .. فإذا لم يكن شجاعاً لم يستطع ذلك .

أما (النسب) ، والمراد به أن يكون الخليفة من قريش ، فقد اختلف فيه ، وقيل : صحيح أن المسلمين في سقيفة بني ساعدة أجمعوا على أن تكون الخلافة في قريش ، ولكن تخصيص قريش بها لم يكن مطلقاً ، إنما بسبب المصلحة العامة ، وذلك أن العرب كانت تعرف لقريش تقديراً ورئاستها فتستكين لها إذا حكمت ، ولو جعلت الرئاسة في غير قريش لتفرقت الكلمة ، ووقعت الفتنة آنذاك .

ويرى ابن خلدون : أن هذا الشرط - شرط النسب - إنما كان سارياً في مرحلة زمنية معينة ، كانت العصبية فيها لقريش ، فكانت تمثل العمود الفقري للدولة الإسلامية آنذاك ، أما فيما بعد حيث ذابت العصبية القرشية في غار الشعوب والأعراق الكثيرة التي دخلت في الإسلام ، فلم تعد ضرورة لبقاء هذا الشرط^(٢٣) .

(٢٣) ولشخصية المرشح دورها أيضاً ، يقول عمر : إن هذا الأمر لا يصلح له إلا اللين في غير ضعف ، والقوي في غير عنف ، (وفي بعض الروايات : والجواد في غير سرف) ، [عيون الأخبار : ٩/١] ، وفي كتاب الخراج ص : ١٢٨ : وكان عمر يقول : لا يصلح هذا الأمر إلا بشدة من غير تجبر ، ولين في غير وهن ، وقال علي : إنما يستحق السيادة من لا يصانع ، ولا يخادع ، ولا تغرّه المطامع . وقال الأحنف بن قيس : من كانت فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع ، من كان له دين يحجزه ، وحسب يصونه ، وعقل يرشده ، وحياء يمنعه ، وفي عيون الأخبار : ١٢/١ : كَلَّمَ النَّاسُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَنْ يَكَلِّمَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي أَنْ يَلِينَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَخَافَهُمْ حَتَّى إِنَّهُ قَدْ أَخَافَ الْأَبْكَارَ فِي خَدُورِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنِّي لَا أَجِدُ لَهُمْ إِلَّا ذَلِكَ ، إِنَّهُمْ لَوْ يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ عِنْدِي لَأَخَذُوا ثَوْبِي عَنْ عَاتِقِي . وقال عبد الملك بن مروان لمصعب بن الزبير بحق أخيه عبد الله ، إنه لا يصلح للخلافة : لعجب في نفسه ، واستقلال في رأيه ، وبخل لزمه .

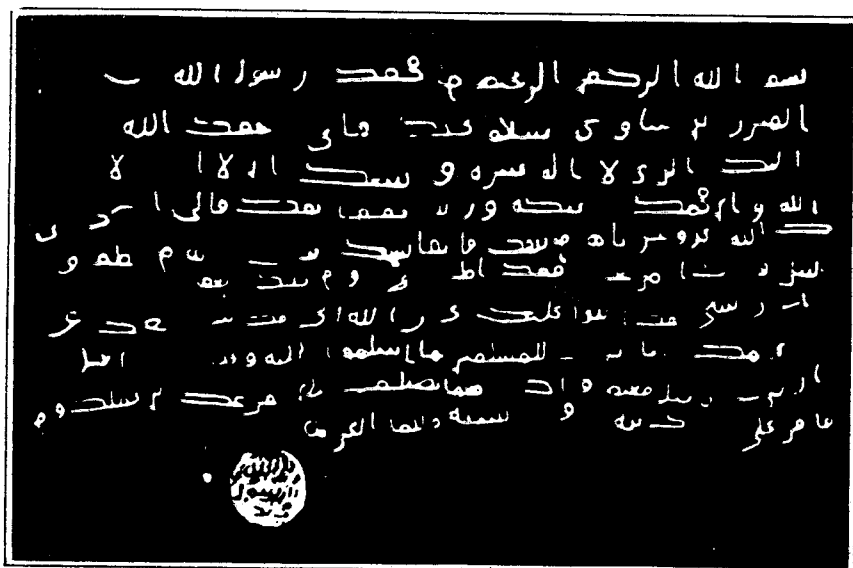
عَلَامَاتُ الْخِلَافَةِ :

وهي (البردة) : بردة رسول الله ﷺ ، خلعها على الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني^(٣٤) لما رجع تائباً مسلماً ، وقال قصيدته اللامية ، التي مطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » ، وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها معاوية بن أبي سفيان من الورثة بعشرة آلاف درهم ، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون .

و (الخاتم) : والأصل فيه ما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قيل له : إن الملوك لا يقرؤون كتاباً غير مختوم ، فاتخذ خاتماً من الفضة ، وجعل نقشه : (محمد رسول الله)^(٣٥) ، فلما توفي رسول الله ﷺ لبسه أبو بكر الصديق بعده ، ثم لبسه عمر بن الخطاب بعد أبي بكر ، ثم لبسه عثمان بن عفان بعد عمر ، فوقع منه في بئر (أريس)^(٣٦) ، فالتسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه ، ثم اتخذ الخلفاء اختاماً خاصة ، على بعضها مواعظ وحكم ، مثل : على الله توكلت ، اعتماداً على الله وهو حسبي ، ثم أصبحت (الطغراء) علامة الخلافة ، وهي نسبة إلى الحسين أبي إسماعيل الطغرائي وزير السلطان مسعود السلجوقي ، الذي امتاز بخط جميل ، وتشكيلات بديعة .

و (القضيب) : وهو عُود كان رسول الله ﷺ يأخذه بيده ، فقلّده الخلفاء في حمله^(٣٧) .

(٣٤) من أغرق الناس في الشعر ، هجا المسلمين وشبّب بنسائهم ، فهدر رسول الله ﷺ دمه ، فجاءه كعب مستأماً وقد أسلم ، وأنشده لاميته فعفا عنه وخلع عليه بردته ، توفي كعب سنة ٢٦ هـ = ٦٤٥ م .
(٣٥) في فتوح البلدان ص : ٤٤٨ : كان خاتم رسول الله ﷺ من فضة كله ، وفصه منه .
(٣٦) هي بئر معروفة بالقرب من مسجد قباء عند المدينة المنورة .
(٣٧) تناول جهجاه بن قيس عصا رسول الله ﷺ من يد عثمان بن عفان وهو يخطب ، فكسرها على ركبته ، فأخذته الإكلاة في ركبته فمات منها ، (أسد الغابة : ١ / ٣٦٥) .



* صورة رسالة رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى ، (لاحظ الخاتم)

شَارَاتُ الْخِلَافَةِ :

وهي (الخطبة) : أي الدُّعاء للخليفة على المنابر في المساجد ، وشاركهم الأمراء بذلك عند ضعفهم ، و (السَّكَّةُ) : وهي ضرب النقود المتعامل بها بين الناس باسم الخليفة ، وكان عليها آية كريمة قصيرة ، أو دعاء موجز ، و (الطَّرَازُ) : وهي ثياب الخلافة ، لقد كانت ثياب الخلفاء الراشدين لا تميّز من ملابس أقلّ رعاياهم شأنًا ، ولبس معاوية بن أبي سفيان الحلل الفاخرة ، ثم أخذ الخلفاء يبالغون في اقتناء أغلى الثياب وأجلّها ، مع شكل خاص من الثياب لموظفي البلاد والأمراء والقادة .

ومن شارات الخلافة أيضاً (لون الأعلام) : فبنو أميّة كان شعارهم اللون الأخضر ، أمّا بنو العبّاس فشعارهم السّواد .

رَاتِبُ الْخُلَفَاءِ :

لما ولي أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، أصبح فحمل على عاتقه أثواباً ، وغدا إلى السّوق يبيع ويشترى على عادته ، فلقبه عمر وأبو عبيدة ، فقالا : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السّوق ، قالوا : ماذا تصنع وقد وُلّيت أمور المسلمين ؟ قال : فن

أين أطعم عيالي ؟ قالوا : انطلق معنا حتّى نفرض لك شيئاً ، فانطلق معها ففرضوا له بعض شاة كل يوم ، ومئتين وخمسين ديناراً في السنة ، ثم جعلوها شاة كاملة ، وثلاث مئة دينار في السنة .

وكان أبو بكر يقول : ولقد أقت نفسي في مال الله وفيء المسلمين مقام الوصي في مال اليتيم ، إن استغني تعفف ، وإن افتقر أكل بالمعروف ، وإن والي الأمر بعدي عمر بن الخطاب ، وإنني استسلفت من بيت المال مالاً ، فإذا مت فليبع حائطي في موضع كذا ، وليرد إلى بيت المال^(٣٨) .

ولما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، مكث زماناً لا يأكل من أموال المسلمين العامة شيئاً ، وكان يتجر وهو خليفة ، فيعامل الناس ويستدين ويوفي ، ويبيع ويربح ، ولما افتقر ودخلت عليه خصاصة ، ولم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته ، لأنه اشتغل عنها بأموال الرعية ، ففرض له ما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف ، لقد ورد « وكان يأخذ في كل يوم من بيت المال ثلاثة دراهم أجرة » ، وقال رضي الله عنه كما قال الصديق من قبل : إنني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت^(٣٩) .

ولما جاءته رضي الله عنه برود من الين ، فرّقها على الناس برّداً برّداً ، ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلّة منها (أي برّدان) فقال : اسمعوا رحمكم الله ، فقام إليه سلمان الفارسي ، فقال : والله لانسع ، فقال : ولم يا أبا عبد الله ؟ فقال : يا عمر ، تفضلت علينا بالدنيا ، فرقت علينا برّداً ، وخرجت تخطب في حلّة منها ؟ فقال : أين عبد الله بن عمر ؟ فقال : هأنذا يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : لمن أحد هذين البردّين اللذين عليّ ؟ قال : لي ، فقال لسلمان : عجلت عليّ يا أبا عبد الله ، إنني كنت

(٣٨) تاريخ يعقوبي : ١٢٧/٢

(٣٩) ابن الجوزي : ٩٠ ، ابن سعد (الطبقات) : ١٩٨/١

غسلت ثوبي الخلق ، فاستعرت ثوب عبد الله ، قال سلمان : أمّا الآن فقل نسع ونطع ^(٤٠) .

هذا ما كان يأخذه الخلفاء الراشدون من بيت المال ، من خزينة الدولة ، ثمن طعامهم وكسوتهم ^(٤١) لا أكثر ولا أقل ، فقد كان عمر رضي الله عنه يغسل ثوبه ، فيضطر إلى انتظاره حتى يجف ، لأنه لا يجد غيره ، وأمّا الطعام فقد كان بسيطاً ٥ جداً ، وكان يترك اللحم والسمن في زمن الغلاء ، حتى لا يكون له منها ما لا يكون لفقير من فقراء المسلمين ، لذلك قيل : إنّنا الملك الذي يأكل خبز الشعير ، ويعس على رجله بالليل ماشياً ، ويفتح مشارق الأرض ومغاربها .

وأخذ الخلفاء الأمويون - باستثناء عمر بن عبد العزيز ^(٤٢) - من بيت المال بغير حساب ، لتوطيد دعائم الدولة ، وتأليف القلوب ، فلم يكن للخليفة الأموي ١٠ - والعبّاسي - راتب معيّن ^(٤٣) ، فقد نظروا إلى بيت المال وكأنه بيت مالهم يتصرفون به كما يشاؤون .

وَاجِبَاتُ الْخَلِيفَةِ :

يلزم الرعية للخليفة أمران : (الطاعة) : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ أو كره ، إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ^(٤٤) ، و (المعاضدة والمناصرة) ١٥

(٤٠) الرياض النضرة : ٥٦/٢ ، ابن الجوزي ١٢٧ .

(٤١) كان لأبي بكر كسوة شتاء ، وكسوة صيف ، إذا أخلقت واهترأت ردها وأخذ غيرها .

(٤٢) جاء في عيون الأخبار ٢٦٤/١ : قام عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فأصلح من السراج ، فقال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين لم لأمرتي بذلك ، أو دعوت له من يصلحه ؟ فقال : قت وأنا عمر ، وعدت وأنا عمر .

(٤٣) ومحمد بن زكري كان ممن زهد بأموال الأمة ، وأنفق من ماله الخاص .

(٤٤) كما ورد في حديث شريف متفق عليه .

في أمور الدِّين ، وجهاد العدو : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ ، [المائدة : ٢/٥] ،
و « من خرج من الطَّاعة ، أو فارق الجماعة ، مات ميتةً جاهليَّة » ^(٤٥) .

ولخصَّ الماوردي في (الأحكام السُّلْطانيَّة) ، والقاضي أبو يَعْلَى محمد بن الحسين
الفراء في (الأحكام السُّلْطانيَّة) أيضاً ، واجبات الخليفة بعشرة أشياء ، هي :

٥ - ١ - حفظ الدِّين على الأصول الَّتِي أجمع عليها سلف الأُمَّة ، فإن زاغ ذو شبهة
عنه ، بيَّن له الحجَّة وأوضح له الصَّواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون
الدِّين محروساً من الخلل ، والأُمَّة ممنوعة من الزَّلَل .

٢ - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بينهم ، حتَّى تظهر النِّصْفَةُ ،
فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

١٠ - ٣ - حماية البيضة ^(٤٦) ، والذَّب عن الحوزة ليتصرَّف النَّاس في المعاش ، وينتشروا
في الأسفار آمنين .

٤ - إقامة الحدود لئُصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من
إتلاف واستهلاك .

٥ - تحصين الثُّغور بالعدَّة المانعة ، والقوَّة الدَّافِعة ، حتَّى لا يظفر الأعداء بغرة
١٥ ينتهكون بها محرَّماً ، ويسفكون فيها دمًا لمسلم أو معاهد .

٦ - جهاد من عاند الإسلام بعد الدَّعوة ، حتَّى يسلم أو يدخل في الذِّمَّة .

٧ - جباية الفِئ والصدقات على ما أوجبه الشرع نصّاً واجتهاداً من غير عسف .

(٤٥) في صحيح مسلم : وفارق الجماعة فمات ميتة جاهليَّة .

(٤٦) بيضة القوم : ساحتهم ، وبيضة الإسلام : جماعتهم ، (اللسان : بيض) .

٨ - تقدير العطاء ، وما يُسْتَحَقُّ في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ - استكفاء الأمانة ، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال ، ويكله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال مضبوطة ، والأعمال محفوظة .

١٠ - أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور ، وتصفح الأحوال ، ليهتم بسياسة الأمة ، وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذّة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ، ويغشّي الناصح ، وقد قال الله تعالى ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ [ص : ٢٦/٢٨] ، فلم يقتصر سبحانه على التفويض دون المباشرة ، وقد قال النبي ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » ^(٤٧) .

١٠ وتصدر عن الخليفة عشر وظائف :

وهي : الوزارة ، الإمارة ، الإمارة على القتال ، القضاء ، ولاية المظالم ، النّقابة على ذوي الأنساب ، النّظر على إقامة الصّلوات ، الإمارة على الحجّ ، جباية الصّدقات ، والنّظر في الحِسبة .

ويجب أن يوصف (الوزير) بحسن التّدبير ، وجزالة الرّأي ، والاحتياط في الأمور ، وعمارة البلاد ، والنّهوض في المهمّات .. ويوصف (الوالي) الذي هو نائب السّلطان في ولايته ، بالشّجاعة والنّجدة وقوة الحزم ، وشدة التّحرّز ، و (كاتب السّر) يوصف بالفصاحة والبلاغة ، وسداد الرّأي ، وكم الأسرار ، و (ناظر المال) يوصف بالأمانة والعفّة ، و (القاضي) بغزارة العلم ، وسعة الفضل ، ونصرة الحق ، وقع البدعة ، والعدل في الأحكام ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضعيف من القوي ، والبعد عن الأهواء في الحكم ، و (المحتسب) يوصف بالفضل والعفّة والأمانة ، ٢٠

(٤٧) الأحكام السّلطانيّة للفرّاء ، ص ٣٧ ، دار الكتب الوطنيّة .

وعلوّ الهمة ، وقوّة العزم ، والنظر في مصالح المسلمين ، وعدم محابة أهل الدنيا وأرباب الجاه ، وأن لا تأخذه في الله لومة لأئم^(٤٨) .

مقرّات الخلفاء :

كانت أوّل عاصمة للمسلمين (المدينة المنورة) ، ثمّ انتقل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى (الكوفة) ، ثمّ (دمشق) أيّام بني أميّة ، ثمّ بنى أبو العبّاس السّفّاح مدينة قرب الأنبار^(٤٩) وسّماها (الهاشمية) ، وبقيت مقرّ الخلافة العبّاسيّة حتّى بنى أبو جعفر المنصور (بغداد) ، فصارت منزلاً لخلفاء بني العبّاس بعده إلى حين قتل المستعصم بالله^(٥٠) ، فانتقلت العاصمة إلى (القاهرة) أيّام المماليك ، الذين حكموا باسم العبّاسيّين حتّى سنة ١٥١٧ م ، ثمّ انتقلت العاصمة إلى (الأستانة ، إسطنبول) إلى أن ألغيت الخلافة في آذار سنة ١٩٢٤ م . ١٠

ومّا يذكر أنّه بعد دور الضّعف في الخلافة العبّاسيّة ، وتسّلط الأعاجم ، تجزأت وحدة العالم الإسلامي ، وتشكّلت : خلافة أمويّة في الأندلس ، وخلافة فاطميّة في المغرب ومصر ، إلى جانب الخلافة العبّاسيّة في بغداد ، التي قضى عليها التتار سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م ، بعد أن أصبح الخلفاء رمزاً دينياً فقط ، في دولة يحكمها وزراءهم قادة الجند ، مع انغماس الخلفاء في اللّهو والملذّات بين نسائهم ، وإحاطة أنفسهم بالخصيان والعبيد ، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦/١٧] ، لقد أفقدهم الترف والانغماس في الشّهوات صفات الرّجولة ، فتركوا وزراءهم يلقّبون أنفسهم بالملوك ، ويوزعون مناصب الدّولة ، ويتصرّفون بالحكم كما يشتهون . ١٥

(٤٨) صبح الأعشى : ٨٧/١١

(٤٩) مدينة على الفرات في غربي موقع بغداد ، فتحت سنة ١٢ هـ أيّام الصّدّيق على يد خالد بن الوليد ،

(معجم البلدان : ٢٥٧/١) .

(٥٠) انتقلت العاصمة إلى (سامراء) من عام ٨٣٣ م أيّام المعتصم بالله ، وحتّى المعتمد عام ٨٩٢ م ، حيث

عادت إلى بغداد ثانية .

الوزارة

« إِنِّي قَلَدْتُكَ أَمْرَ الرِّعْيَةِ ،
وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما
تري ، واستعمل من شئت ، واعزل
من شئت ، وافرض لمن رأيت ،
وأسقط من رأيت ، فإني غير ناظر
معك في شيء » .

[هارون الرشيد]

جاءت كلمة وزير في كتاب الله المجيد في سورة طه : ﴿ وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ﴾ ، وهي تعني المشير والمؤازر ، وجاء في حديث السَّقِيفَةِ : « نَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ » ، وفي طبقات مُحَمَّد بن سعد أَنَّ أبا بكر كان وزيراً للنَّبِيِّ ﷺ .

وجاء في (عيون الأخبار) : إِنَّ كلمة (الوزير) مشتقة من الوزر ، وهو الحِمل ، يراد أَنَّهُ يحمل من الأمور مثل الأوزار ، ويقال للإثم وَزْرٌ تشبيهاً له بالحمل على الظهر ، قال تعالى في سورة الانشراح : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

وفي (اللسان) الوزر : الحِمل الثقيل ، والوزر : الذنب لِثِقَلِهِ ، وجمعها أوزار ، ١٥
والوزير : الَّذِي يحمل ثقل الْمَلِكِ ويعينه برأيه ، وقد استوزره وحالته الوزارة
والوزارة ، ووازره على الأمر أعانه وقواه ، والأصل آزره ، والوزير في اللغة اشتقاقه
من الوزر ، والوزر الْجَبَل الَّذِي يُعْتَصِمُ بِهِ لِيُنْجَى مِنَ الْهَلَاكِ ، وكذلك وزير الخليفة ،
معناه الَّذِي يعتمد على رأيه في أموره ، ويلتجئ إليه ، وقيل لوزير السُّلْطَانِ وزيرٌ لَّأَنَّهُ
يزر عن السُّلْطَانِ أَثْقَالَ مَا أُسْنَدَ إِلَيْهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْمَمْلَكَةِ ، أي يحمل ذلك . ٢٠

قال ابن طباطبا^(١) في (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية) :
 « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطرٌ يناسب طباع
 الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول
 والمحبة ، والأمانة والصدق رأسُ ماله ، قيل : إذا خان السفير ، بطلَ التدبير ، وقيل :
 ليس لمكذوب رأي ، والكفاءة والشَّامة من مهمَّاته ، والفطنة والتَّيقُّظ والدَّهاء والحزم
 من ضروريَّاته ، ولا يستغنى أن يكون مفضلاً مطعماً ، ليستيل بذلك الأعناق ،
 وليكون مشكوراً بكلِّ لسان ، والرَّفَقُ والأناة والتَّثَبُّت في الأمور ، والحلم والوقار
 والتَّكُنُّ ونفاذ القول بما لا بدَّ له منه » .

قال الجهشيارى في كتاب (الوزارة والكتَّاب) : قال الرَّشيد لوزيره يحيى بن
 خالد : « إنِّي قلَّدتك أمر الرِّعيَّة ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل
 ماشئت ، واعزل من شئت ، وافرض لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنِّي غير ناظر
 معك في شيء »^(٢) .

تاريخ الوزارة :

ظهرت الوزارة في عهد رسول الله ﷺ : « .. وزيراي من أهل الأرض أبو بكر
 وعمر »^(٣) ، وكان عمر وزير أبي بكر ، وعثمان وعلي ويزيري عمر ، وعلي ثم مروان بن
 الحكم ويزيري عثمان ، وعمر بن العاص وزياد^(٤) وغيرها وزراء معاوية ، وبذلك اتَّخذ
 الأمويُّون منذ أيام معاوية المساعدين أو الوزراء كما كانوا يدعون أيضاً ، فأل المهلب ،
 والحجاج كانوا من وزراء بني أميَّة ، لا بمعنى أن منصب الوزارة كان قد أصبح محدوداً
 معروفاً ، بل بمعنى أن هؤلاء كانوا يساعدون الخلفاء ، ويقومون بجميع الأعمال التي

(١) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، الفخري ، ص : ١٥٢

(٢) وانظر الطُّبري : ٢٣٢/٨ ، والمسعودي (مروج الذهب) : ٣٤٨/٣

(٣) طبقات ابن سعد ، وهذا الحديث أخرجه الترمذي ، وفيه ضعف .

(٤) في الطُّبري : « إنَّ زياداً كان يسمَّى وزير معاوية » .

يقوم بها الوزراء عادة في كلِّ زمان ، ومعنى الوزارة في بني أمية : حجب العامة عن الخليفة ، والقيام بالأعمال^(٥) .

تبلورت الوزارة في العصر العباسي ، فعرفت قواعدها ، وتقررت مهماتها ، وسُمي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمّى كاتباً أو مشيراً ، وكان أول من لُقّب بالوزارة في الإسلام أبو سلمة الخلال (حفص بن سليمان الخلال) ، وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس ، ولم يكن ذلك قبله^(٦) .

وكان أبو أيوب المورياني^(٧) وزير المنصور ، ثم أبو الفضل الربيع بن يونس ، وفي أيام محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ظهرت أبهة الوزارة ، بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، وهو أول من صنّف كتاباً في الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك ، فصنّفوا كتب الخراج^(٨) ، ثم تسلم الوزارة أبو عبد الله يعقوب بن داود^(٩) ، ثم الفيض بن أبي صالح . وفي خلافة موسى الهادي : الربيع بن يونس ، وقد سبقت له الوزارة ، ثم إبراهيم بن دكوان الحراني .

وفي أيام الرشيد : يحيى بن خالد البرمكي ، ومن بعده أبو العباس الفضل بن الربيع « الذي كان شهماً خبيراً بأحوال الملوك وأدابهم »^(١٠) ، وأيام المأمون : الفضل بن سهل (ذو الرّياستين)^(١١) ، ومن بعده الحسن بن سهل ، استوزره المأمون بعد أخيه الفضل ، وزوجه ابنته بوران^(١٢) .

(٥) مروج الذهب : ٣٢٠/٢ و ٣٣٢ ، و ٢٥١/٣

(٦) الفخري : ١٥٣ ، وصبح الأعشى : ٢٧٣/٣

(٧) موريان : قرية من قرى الأهواز ، (الفخري ١٧٥) .

(٨) الفخري : ١٨٢

(٩) الفخري : ١٨٥

(١٠) الفخري : ٢١١

(١١) ذو الرّياستين : لجمعه السيف والقلم .

(١٢) وتوالى الوزراء في دولة بني العباس ، واشتهر منهم محمد بن عبد الملك الرّيات (أيام المعتصم) ، =

أما في الأندلس ، فكما يقول ابن خلدون^(١٣) : « وأما دولة بني أمية بالأندلس ، فأُنْفِقُوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قَسَمُوا خَطَّتَهُ أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللتَّرسيل وزيراً ، ولللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، ولللنظر في أحوال الثُّغور وزيراً ، وجعل لهم بيتاً يجلسون فيه على قُرْشٍ منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك ، كلُّ فيما جُعِلَ له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمعاشرة السلطان في كلِّ وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصَّوه باسم (الحاجب) ، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم ، فارتفعت خطة الحاجب على سائر الرُّتب »^(١٤) .

فالحجابه^(١٥) : كان موضوعها حفظ باب الخليفة ، والاستئذان للدَّاخِلين عليه ، لا التَّصَدِّي للحكم في المظالم ، وهو في أصل الوضع عبارة عَمَّن يبلِّغ الأخبار من الرَّعيَّة إلى الإمام ، ويأخذ لهم الإذن منه ..

وفي دولة المرابطين لم يكن هناك مجلس للوزراء ، وإنما كانت هناك هيئة استشاريَّة يشارك فيها مجموعة الفقهاء والأعيان والوزراء جنباً إلى جنب ، وكان الوزير أو جماعة الوزراء يلزمون أمير المسلمين في قصره أو تنقلاته ، تطرح المشكلة فييدي الوزراء والفقهاء وشيوخ المرابطين وجهة نظرهم فيها ، وتبقى الكلمة العليا لأمر المسلمين^(١٦) .

= وعبيد الله بن يحيى بن خاقان (أيَّام المتوكِّل) ، وعلي بن الفرات ومحمد بن علي بن مقله - صاحب الخط الحسن المشهور - (أيَّام المقتدر) .. انظر الفخري ، الذي أفرد بعد ترجمة كلِّ خليفة عباسي فقرة لوزرائه .

(١٣) المَقْدَمَة ص : ٩٩

(١٤) تَوَضَّحت في هذا النَّص وزارة المالِيَّة ، ثمَّ وزارة للبريد (التَّرسيل أي المراسلات) ، ثمَّ وزارة العدل ، ثمَّ وزارة الدِّفاع ، والحاجب يمثِّل رئيس الوزراء في عرفنا اليوم .

(١٥) صبح الأعشى : ٤٤٩/٥

(١٦) النِّظام السِّيَاسي والحربي في عهد المرابطين ، ص ٨٨

بينما في مملكة مالي الإسلامية حيث النظام الصّارم كثير التّشعب : نائب السُّلطان ، وزراء ، قضاة ، كُتاب ، دواوين ، ولاية في الولايات ، ووالي كل ولاية هو القائد للجيش المحلّي ، يتلقّى تعليماته من السُّلطان مباشرة ، وكان الوزير في مملكة مالي يسمّى Fama أو Farama ، ووجد وزير ثقافة ، وآخر للأُملاك ، وثالث لشؤون مياه نهر النيجر والملاحة النهرية والصّيد ، ورابع للغابات ، وخامس للخزانة ، وكانت هناك وظيفة كبيرة تدعى صاحب السُّلطان (الحاجب) ، وفي مقدّمة هؤلاء الوزراء نائب السُّلطان ، وهو رئيس للوزراء ، يليه القاضي الأعلى^(١٧) .

أمّا في مملكة السونراي في (غاؤ)^(١٨) ، فقد سادت الشريعة الإسلامية بحذافيرها ، أمّا المجالس الملكيّة فهي تشبه تلك الّتي كانت موجودة في مالي ، وكان قائد الجيش والقاضي يجلسان إلى جانب الملك أثناء مقابلاته ، ونشير هنا إلى أن نظام الوزراء في (غاؤ) يضمّ وزيراً للقصر ، وهو رئيس الوزراء ، وآخر للزراعة والغابات ، وثالث للخزانة ، ورابع للرّي ، وخامس للعلاقات الأجنبيّة ، وقد يجمع الوزير بعض المهامّ الأخرى بالإضافة إلى وظيفته الأصليّة^(١٩) .

وفي الدّولة السّعديّة في المغرب الأقصى ، من المناصب العليا في بلاط أحمد المنصور (صاحب انتصار وادي الحازن ، أو الملوك الثلاثة سنة ١٥٧٦ م) منصب (المزوّار)^{١٥} أو الحاجب ، ومن أبرز الّذين تولّوه في عهده عزوز بن سعيد الوزكيّتي ، ومقام (المزوار) دون مقام الحاجب (رئيس الوزراء) عند الحفصيّين أو المرينيّين ، أو أيّام الأمويّين في الأندلس .



(١٧) إفريقية الغربيّة في ظلّ الإسلام ، ص : ١٠٦ .

(١٨) قامت في حوض نهر النيجر - إفريقية الغربيّة - في القرن الخامس عشر الميلادي .

(١٩) إفريقية الغربيّة في ظلّ الإسلام ، ص : ١٠٩ .

نوعاً الوزارة :

وزارة التفويض : وهي أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضائه على اجتهاده ، وهي أجلُّ الولايات بعد الخلافة ، قال الماوردي ^(٢٠) : فهو ينظر في كل ما ينظر فيه الخليفة ، وهذا لا يعني تخلي الخليفة عن كل شيء ، فهو الأصل ، وله مباشرة الأمور كلها متى أراد .

ويرى الفقهاء ^(٢١) أن على وزير التفويض مطالعة الخليفة بما أمضاه من تدبير ، وأنفذه من ولاية وتقليد كيلا يستبد بأمر الدولة ، وعلى الخليفة أن يتصفح أفعال الوزير وتديره الأمور ليقر منها ما وافق الصواب ، ويستدرك ما خالفه ، لأنَّ تدبير الأمة موكل إلى إليه وإلى اجتهاده ، ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه ، وأن يقلد الحكم ، كما يجوز ذلك للخليفة ، لأنَّ شروط الحكم فيه معتبرة ، ويجوز أن ينظر في المظالم ويستنيب فيها ، لأنَّ شروط المظالم فيه معتبرة ، ويجوز أن يتولَّى الجهاد بنفسه ، وأن يقلد من يتولاه ، لأنَّ شروط الجهاد فيه معتبرة ، ويجوز أن يباشر تنفيذ الأمور التي دبرها ، وأن يستنيب في تنفيذها لأنَّ شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة ، وكلُّ مناصح من الإمام صحَّ من هذا الوزير ، إلا ثلاثة أشياء :

أحدها : ولاية العهد ، فإن للخليفة أن يعهد إلى من يرى ، وليس ذلك للوزير .
والثاني : للخليفة أن يستعفي الأمة من الإمامة ، وليس ذلك للوزير .
والثالث : للخليفة أن يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام ، وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يقتضي جواز فعله وصحة نفوذه منه .

ويستوجب الماوردي أن يكون وزير التفويض جامعاً للخصال المطلوبة في

(٢٠) الأحكام السلطانية ، ص : ١٨ - ٢١

(٢١) الأحكام السلطانية ، ص : ٣٠

الخليفة ، ينقص عنه في واحدة وهي النسب ، ويزيد في واحدة ، وهي المعرفة بأمرَي الحرب والخُراج ليباشرها بنفسه ، أو يختار من يباشروها تحت إشرافه .

وَزَارَةُ التَّنْفِيذِ : النَّظَرُ فِيهَا مَقْصُورٌ عَلَى رَأْيِ الْخَلِيفَةِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَالْوَزِيرُ فِيهَا وَاسِطَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَالْوَلَايَةِ ، يُؤَدِّي عَنْهُ مَا أَمَرَ ، وَيَنْفِذُ مَا ذَكَرَ ، وَيُمْضِي مَا حَكَمَ ، وَيُجِيزُ تَقْلِيدَ الْوَلَاةِ ، وَتَجْهِيْزَ الْجِيُوشِ وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَيَعْرِضُ عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا وَرَدَ مِنْهُمْ ، وَمَا جَرَى وَمَا حَدَثَ فِي الْأُمُصَارِ ، لِيَعْمَلَ بِمَا يُؤْمَرُ بِهِ ، فَهُوَ مُعَيَّنٌ فِي تَنْفِيْذِ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَ بِوَالٍ عَلَيْهَا ، وَلَا مُتَقَلِّدٌ لَهَا ، فَإِنْ شُورِكَ فِيهَا بِالرَّأْيِ كَانَ بِاسْمِ الْوَزَارَةِ أَخْصَ ، وَإِنْ لَمْ يَشَارَكَ فِيهِ كَانَ بِاسْمِ الْوَاسِطَةِ وَالسَّفَارَةِ أَشْبَهَ .

ولا يشترط الفقهاء في وزير التنفيذ أن يكون حرّاً ، ولا أن يكون عالماً ، وأجازوا أن يكون من أهل الذمّة^(٢٢) ، واستوجبوا فيه سبعة أوصاف^(٢٣) :

- ١ - الأمانة حتّى لا يخون فيما أوّتمن فيه .
- ٢ - صدق اللّهُجة ، حتّى يوثق بخبره فيما يؤدّيه ويعمل على قوله فيما ينهيه .
- ٣ - قلة الطّمع ، حتّى لا يرتشي فيما يلي ، ولا ينخدع فيتساهل .
- ٤ - أن يسلم فيما بينه وبين النّاس من عداوة وشحناء ، لأنّ العداوة تصدّ عن التّناصف ، وتمنع من التّعاطف .
- ٥ - أن يكون ذكوراً لما يؤدّيه إلى الخليفة وعنه ، لأنّه شاهد له وعليه .
- ٦ - الذّكاء والفتنة ، حتّى لا تدلّس عليه الأمور فتشبهه ، ولا تموّه عليه فتلتبس ، فلا يصح مع اشتباهها عزم ، ولا يتم مع التباسها حزم .
- ٧ - أن لا يكون مع أهل الأهواء ، فيخرجه الهوى عن الحقّ إلى الباطل ، ويتدلّس

(٢٢) أجاز الماوردي في وزير التنفيذ أن يكون ذميّاً ، وأنكر عليه الجويني - إمام الحرّمين - ذلك إنكاراً شديداً ، فيعقوب بن كلّس (اليهودي) أوّل من قيل له الوزير في الدّولة الفاطميّة (وزير العزيز بالله الفاطمي) ، المقرئ : ٤٣٩/١ ، ابن خلكان : ٤٩١/٢

(٢٣) الأحكام السلطانيّة (الفراء) ، ص : ٣٢

عليه الحقُّ بالمبطل ، فإن الهوى خادع الألباب ، وصارف عن الصَّواب ، وقد روى بعضهم عن النَّبِيِّ ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » ^(٢٤) .

فإن كان هذا الوزير مشاركاً في الرَّأي احتاج إلى وصف ثامن ، وهو : الحنكة والتَّجربة الَّتِي تُوَدِّي به إلى صَحَّة الرَّأي ، وصواب التَّدبير ، فإنَّ في التَّجارب خبرة لعواقب الأمور ، وإن لم يُشَارَك في الرَّأي لم يحتج إلى هذا الوصف .

والفرق بين وزير التَّفويض ووزير التَّنفيذ وجوه أربعة :

يجوز لوزير التَّفويض مباشرة الحكم ، والنَّظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويجوز لوزير التَّفويض أن يتصرَّف بتقليد الولاية ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويجوز لوزير التَّفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش ، وتديير الحرب ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويجوز لوزير التَّفويض أن يتصرَّف في أموال بيت المال ، بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويفترقان أيضاً في أربعة شروط :

أحدها : أن الحرِّيَّة معتبرة في وزارة التَّفويض ، وغير معتبرة في وزارة التَّنفيذ .

الثَّاني : أن الإسلام معتبر في وزارة التَّفويض ، وغير معتبر في وزارة التَّنفيذ ، على رأي من جَوَّز أن يكون من أهل الذِّمة .

الثَّالث : أن العلم بأحكام الشَّريعة معتبر في وزارة التَّفويض ، وغير معتبر في وزارة التَّنفيذ .

(٢٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود والبخاري في التَّاريخ عن أبي الدُّرداء (عويمر بن عامر بن مالك الخزرجي) ، وقال السيوطي والقاري وغيرهما : حديث حسن .

الرَّابِع : المعرفة بأمر الحرب والخراج معتبرة في وزارة التَّفويض ، وغير معتبرة في وزارة التَّنفيذ^(٢٥) .

هَلْ يُعْزَلُ الْوَزِيرُ ؟ : نعم ، قد يُعزل الوزير من غير سبب ، لذلك قيل : « العزل أحد الطَّلَاقَيْن » ، وقد يُعزل لخيانة ظهرت ، فيعزل ويعاقب ، أو لعجز وقصور ، ويجوز عندها أن يُقلَّد من العمل ما هو أسهل ، أو لعسف وخرق ، فإمَّا أن يعزل ، ه وإمَّا أن يكفَّ عن العسف ، أو للين وقلة هيبة ، فإمَّا أن يعزل ، أو يضم إليه من تتكامل به القوَّة والهيبة ، أو يعزل لوجود من هو أكفأ منه ، فيحلَّ محله ، أو لقصور العمل عن كفاءته ، وهذا أجل ألوان العزل ، فيعزل من هذه المرتبة ليؤلَّى أعلى منها .
ولا يجوز لوزير التَّنفيذ أن يُؤلَّى معزولاً ، ولا يعزل مؤلَّى .

ويجوز لوزير التَّفويض أن يؤلَّى معزولاً ويعزل مولاه ، ولا يجوز له أن يعزل ١٠ من ولأه الخليفة^(٢٦) .

من تاريخ الوزارة :

حينما صحَّت عزيمة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور على الفتك بقائده الأكبر أبي مسلم الخراساني^(٢٧) ، فرع من هول ذلك الموقف وزيره عيسى بن موسى ، فكتب إلى أبي جعفر المنصور يقول :

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا تَدَبُّرٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَعَجَّلَا

فأجابه المنصور :

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَرْتَدَّدَا

(٢٥) الأحكام السُّلطانيَّة (القراء) ، ص : ٣٢

(٢٦) المرجع السَّابِق ، ص : ٣٣

(٢٧) لرفضه ولاية الشَّام ، ورغبته في ولاية خراسان حيث أنصاره .

ولا تهمل الأعداء يوماً بَعْدُوةٍ وَبادرهمو أن يملكو مثلها غداً

ولما عزم المأمون على قتل إبراهيم بن المهدي - وكان مصمماً على قتله - شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قتلتَه فَلَكَ نظراء ، وإن عفوتَ فمالك نظير ، فعفا عنه ^(٢٨) .

وأورد الماوردي أن المأمون كتب في اختيار وزير : « إِنِّي التمسْتُ لأُموري رجلاً جامعاً لخصال الخير : ذا عِفَّةٍ في خلائقه واستقامةٍ في طرائقه ، هَذَبَةً في الآداب ، وأحكمة التجارب ، إن أوْتَمَن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِدَ مهمَّات الأمور نهض فيها ، يسْكُتُه الحلم ، وينطِقُه العلم ، وتكفيه اللَّحظة ، وتغنيه اللَّمحة ، له صولة الأُمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتليَ بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بجرمان غده ، يسترق قلوب الرِّجال بخلاصة لسانه ، وحسن بيانه » .

هذه صفات المثل الأعلى ، والإنسان الكامل المنشود لتسُم منصب الوزارة .

ولكن الخلفاء لم ينشدوا كلهم في وزرائهم مانشده المأمون ، لقد استوزر المقتدر مثلاً محمد بن يحيى بن خاقان ^(٢٩) ، فكان سيئ الرأي ، سيئ التدبير ، سيئ الضمير ،

(٢٨) أقسم الواثق أن يعزل محمد بن عبد الملك الزيات فقال له : يا أمير المؤمنين أنا عبدٌ إن عاقبته فانت حاكم فيه ، وإن كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلّو الدولة من مثلك ، وسأكفر عن يميني ، فأني أجد عن المال عوضاً ، ولا أجد عن مثلك عوضاً ، ثم كفر عن يمينه واستوزره وقدمه وفوض الأمور إليه ، وكان ابن الزيات شاعراً مجيداً ، ولما ولي المتوكل ، قبض على ابن الزيات وقتله ، وقيل السبب أن ابن الزيات عمل تنوراً من حديد ومساميره إلى داخل ليعذب به من يريد عذابه ، فكان هو أول من جعل فيه ، وقيل له : ذق ما كنت تذيق الناس ، (الفخري ، ص : ٢٣٤) .

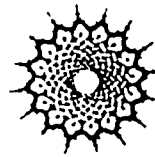
(٢٩) محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولي الوزارة للمقتدر سنة ٢٩٩ هـ ، ولم يكن من الأكفاء ، وفيه يقول أحد الشعراء :

وزير لا يمل من الرِّقاعِ يُؤلِّي ثم يعزل بعد ساعة =

سأله أحد القادة أمراً ، فقال : اكتب رقعة حتى أوقع لك فيها ، فاحضر بياضاً وقال : يوقع الوزير في آخره بالإجابة إلى المسؤول لأكتب العرض بعد ذلك ، فوقع له بذلك ، وكان يدخل إليه الرجل يعرفه طويلاً ، فيسأل عنه ، ثم يتلقاه بعد يوم فتكون حاله معه مثل الحال الأولى .

وأصبحت للوزارة ألقاباً ، ولعلّ المهدي العبّاسي أول من أطلق على وزيره لقباً ،^٥ وقد لُقّب وزيره يعقوب بن داود^(٣٠) : (الأخ في الله) ، وجاء المأمون فلُقّب وزيره الفضل بن سهل : (ذا الرّياستين) ، ولُقّب وزيره بعده الحسن بن سهل : (ذا الكفائتين) ، لأنّه جمع له بين السيف والقلم .

ثمّ ظهرت الألقاب الفخمة في أواخر العهد العبّاسي ، وفي الدّولة الفاطميّة ، وفي العهود المتأخّرة ، فالألقاب تتعاضد حين تتضاءل الحقائق ، ففي سنة ٤١٦ هـ خلع^{١٠} جلال الدّولة ببغداد على وزيره لقب : علم الدّين ، سعد الدّولة ، أمين المِلّة ، شرف المُلْك .



= عزله المقتدر قبل أن يُتمّ عامين ، وحجسه أيّاماً ، ولم يَلِ عملاً بعد ذلك ، توفي سنة ٣١٢ هـ = ٩٢٤ م ، (الأعلام : ١٣٥/٧) .

(٣٠) استحضره المهدي وخاطبه ، فراه أكل النّاس عقلاً ، وأفضلهم سيرة ، فشغف به ، واستخلصه لنفسه ، ثمّ استوزره وفوّض الأمور إليه ، (الفخري ، ص : ١٨٤) .

الإِمَارَةُ

« دَلُونِي عَلَى رَجُلٍ أُسْتَعْمِلَهُ عَلَى
أَمْرِ قَدْ أَهْمَنِي .. أُرِيدُ رَجُلًا إِذَا كَانَ فِي
الْقَوْمِ وَلَيْسَ أَمِيرُهُمْ كَانَ كَأَنَّهُ أَمِيرُهُمْ ،
وَإِذَا كَانَ أَمِيرُهُمْ كَانَ كَأَنَّهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ ،
قَالُوا : مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الصِّفَةَ إِلَّا فِي
الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ ، قَالَ :
صَدَقْتُمْ ، فَوَلَّاهُ . »

[عمر بن الخطاب]

١٠ استعملت كلمة أمير في تاريخنا العربي الإسلامي في موضعين : (أمير الجيش) ،
أي قائده ، و (أمير البلاد) ، وهو يقابل المحافظ في لغة الإدارة اليوم ، كما استعملت
كلمتا عاملٍ ووالٍ في هذا المعنى أيضاً ، ولعلَّ كلمة أمير الإداريّة مأخوذة من الإمارة
الحربيّة ، فإنَّ الخليفة كان يؤمِّر الرّجل على جيش الفتح ، فإذا كتب الله له الطّفَر ،
فقد يستبقيه عاملاً على البلاد المفتوحة ، فيسمّيه النَّاس باسمه الَّذِي عرفوه به من قبل
(أمير)^(١) . ١٥

لقد أدار الخليفة الأمور في مقرِّ الخلافة ، أمّا في الأمصار فكان يديرها
(الأمراء) ، وكانت الإمارة تعني ولاية الأمور الدنيّة والسياسيّة والحربيّة والقضائيّة
والإداريّة ، باستثناء جباية المال ، فإذا جمع الأمير الصّلاة والخراج ، كانت إمارته
(عامّة) ، وإن قصرها إمارته على الصّلاة ، فهي إمارة (خاصّة) .

(١) في (اللسان) أمر : للصدر الإمرة والإمارة بالكسر ، والتأمر تولية الإمارة ، وأمير مؤمّر : مَمْلُوك ،
وأولو الأمر : الرؤساء وأهل العِلْم ، وفي (صبح الأعشى ، ٤٤٩/٥) : الأمير : وهو زعيم الجيش أو
النّاحية ونحو ذلك من يوليه الإمام ، وأصله في اللّغة ذو الأمر .

نوعا الإمارة :

١ - الإمارة العامة : وهي إمّا : استكفاء أو استيلاء :

إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، ويشمل عمل الأمير فيها سبعة أمور : تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي ، وتقدير أرزاقهم^(٢) ، والنظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام ، وجباية الخراج واستلام الصدقات وتقليد العمال فيها ، وتفريق ما استحق منها ، وحماية الدين ومراعاته دون تغيير أو تبديل ، وإقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين ، والإمامة في الجتمع والجماعات ، يؤم بها أو يستخلف عليها ، وتسيير الحجيج بأمان وراحة .

وإذا كان الإقليم ثغراً متاخماً للعدو ، كان عليه واجب ثامن ، وهو جهاد من يليه من الأعداء ، وقسم غنائمهم في المقاتلة ، وأخذ خمسيها لأهل الخمس^(٣) .

إمارة استيلاء ، وهي عقد على اضطرار ، أو إقرار حالة راهنة ، وهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلد من بلاد الخلافة ، فيقر الخليفة واقعاً ، رغبة في حقن الدماء ، واستدعاء للطاعة ، وحفاظاً لمنصب الخلافة ألا يتعدد ، مع اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ، ليكون المسلمون يبدأ على من سواهم .

وحفاظاً لأحكام الدين حتى تكون الولاية جائزة ، والحدود مستوفاة بحق .

٢ - الإمارة الخاصة : مقصور دور الأمير فيها على تدبير الجيش ، وسياسة الرعية ، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام وجباية الخراج والصدقات .

(٢) إلا أن يكون الخليفة قدرها .

(٣) الأحكام السلطانية (الفراء) ، ص : ٣٤

تقليد الأمير :

إذا ولى خليفة أميراً ، كتب له بذلك كتاباً يُسمى (التقليد) ، أو (العهد) ، يحدّد له فيه مهمّته ، ويوصيه بالآداب المطلوبة .

عزل الأمير :

٥ إذا قلّد وزير أميراً ، فإنّه ينعزل بعزله ، أو بموته ، لأنّه وكيل عنه ، إلا إذا جدّد له خلف الأمير العهد ، أمّا الأمير الذي قلّده الخليفة فلا ينعزل بموته ، ويعزل الأمير لحياته ، أو لعجزه ، أو للرغبة في رجل أصلح منه ، أو استجابة لرغبات الرعيّة ، وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إذا عزلّ عاملاً من غير خيانة ، يعلن ذلك بكلّ وسائل الإعلام ليُعزّف ، ويذكر الأسباب التي دعت به إلى صرفه ليُعذر .

١٠ وهناك نوع آخر من الإمارة ، هو : الإمارة على القتال^(٤) ، وعلى أمير الجيش المكلف بالقتال مراعاة الأمور التالية :

أن يرفق بالجند أثناء المسير ، وأن يتفقد خيلهم التي يجاهدون عليها ، مع تفقّدهم جنّداً نظاميين ومتطوعة ، وأن يجعل عليهم العرفاء والنُقباء ، ليعرف منهم أحوال جنده ، وأن يجعل لكلّ طائفة شعاراً يتداعون إليه ليصيروا به متميّزين ، وأن يتصفّح الجيش ومن فيه ، فيُخرج من كان فيه لتخذيل المجاهدين ، وإرجاف المسلمين ، أو كان عيناً عليهم للأعداء ، وأن لا يمالئ من ناسبه ، أو وافق رأيه ، وأن يبتعد عن كلّ ما يفرّق الكلمة .

ويلزم أمير الجيش أيضاً بحراسة جيشه من غرة يظفر بها العدو ، وأن يتخيّر لجنده المنازل المناسبة لمحاربة عدوّهم ، مع إعداد ما يحتاجون إليه من زاد وعلوفة تفرّق

(٤) القتال أو الجهاد مرتبط دوماً في القرآن الكريم بعبارة (في سبيل الله) ، ممّا يدلّ على أن الغاية من القتال غاية مقدّسة نبيلة هي إعلاء كلمة الله ، لا السيطرة أو المغنم ، أو إظهار بطولة ، أو شجاعة ، أو استعلاء في الأرض .

عليهم في أوقات الحاجة ، وأن يعرف أخبار عدوّه فيأمن مكره ، وتعبئة جيشه في مصافّ الحرب ، ويضع لكلّ جهة من يراه كفؤاً لها ، ويرفع الرّوح المعنويّة ، وأن يقوّ نفوس الجند بما يشعّرون من الظّفر ، وأن يشاور ذوي الرّأي فيما أعزل من الأمور ، ويرجع إلى أهل الحزم فيما أشكل ، ليأمن من الخطأ ، ويسلم من الزّلل ، وأن لا يميّن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ، يصرفه الاهتمام بها عن مصابرة العدو^(٥) .

ويقسم الفقهاء الإمارة على القتال ، إلى أربعة أقسام :

١ - إمارة على الجهاد ، جهاد الأعداء المقيمين في (دار الحرب) ، خارج دار الإسلام .

٢ - وإمارة على قتال المرتدّين ممّن اعتنق الإسلام ثمّ أنكره ، بعد استتابتهم ثلاثة أيّام ، ولا يجوز إقرار المرتد على ردّته بجزية ولا عهد ، وإذا قتل لم يغسل ، ولم يصلّ عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين لخروجه بالردّة عنهم^(٦) .

٣ - وإمارة على قتال أهل البغي : وهم الخارجون على طاعة الخليفة ، المخالفون للجماعة .

٤ - وإمارة على قتال قُطّاع الطّرق ، إذا اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر ١٥ السّلاح ، وقطع الطّريق ، وأخذ الأموال ، وقتل النفوس ، وقتل السّابلة .. فمن قتل وأخذ المال قتل وصلّب .. وإن تاب قاطع الطّريق قبل أن يقدر عليه السّلطان ، سقطت عنه حدود الله تعالى ، ولا تسقط حقوق العباد .

وربّما جمع الفقهاء الأقسام الثلاثة الأخيرة (قتال المرتدّين ، وقتال أهل البغي ، وقتال قُطّاع الطّرق) تحت عنوان واحد هو : (حروب المصالح) .

(٥) الأحكام السّلطانيّة (الفراء) ، ص : ٤٥

(٦) المرجع السّابق ، ص : ٥٨ ، ورأي بعض الفقهاء : لا يقتل إلا المرتدّ الخرب .

اختيار الأمراء :

الأصل في اختيار الأمراء أن يكونوا من أصحاب الأمانة والزهد^(٧) ، والبصر بالعمل الموكل إليهم ، دون النظر إلى قرابة . وفي العصرين الأموي والعباسي اختير الرجل القوي القادر على قمع الفتن ، وضبط الأموال .

٥ أراد عمر رضي الله عنه أن يستعمل رجلاً ، فبدر رجل بطلب العمل ، فقال له : قد كنّا أردناك لذلك ، ولكن من طلب هذا العمل لم يُعَن عليه .

ولم يكن رضي الله عنه ينظر إلى صلاح الرجل في ذاته ، ولكن إلى صلاحه للولاية ، لذلك كان يولّي الولايات ناساً وعنده من هو أبقى منهم ، وأكثر علماً ، وأشدّ عبادة ، وكان يقول : إنّي لأتخرّج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه ، قال رضي الله عنه لأصحابه : دلّوني على رجل أستعمله على أمرٍ قد أمني ، قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟ قال : أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم ، قالوا : مانع من هذه الصفة إلّا في الربيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم فولاه^(٨) .

وأمر رضي الله عنه بكتابة عهد لرجل قد ولّاه ، فبينما الكاتب يكتب ، جاء صبي فجلس في حجر عمر فلاطفه ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، لي عشرة أولاد مثله ، مادنا أحد منهم منّي ، قال عمر : فما ذنبك إن كان الله عزّ وجلّ نزع الرحمة من قلبك ، وإنّا يرحم الله من عباده الرّحماء ، ثمّ قال : مزّق الكتاب ، فإنّه إذا لم يرحم أولاده ، فكيف يرحم الرعيّة ؟

٢٠ وكان رضي الله عنه إذا استعمل رجلاً كتب عليه كتاباً أشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار ، بأنّه لا يظلم أحداً في جسده ، ولا في ماله ، ولا يستغل منصبه

(٧) ويعتبر في هذه الإمارة الشروط المعتبرة في وزارة التفويض .

(٨) الإصابة : ٥٠٤/١ ، وعيون الأخبار : ١٦/١

لفائدة أو مصلحة له أو لمن يلوذ به ، فكان ذلك بمثابة القَسَم الذي يوجبه القانون على القضاة والأطباء وأمثالهم قبل مباشرتهم العمل ، وكان يقول للعامل بعد ذلك محدداً سلطته ، مبيناً له حقيقة عمله : إنني لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن أستعملك لتقيم فيهم الصَّلَاة ، وتقسم بينهم^(٩) ، وتحكم فيهم بالعدل ، ثم يشترط عليه رابعاً : ألا يركب بردونا^(١٠) ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقيّاً ، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس^(١١) .

وكتب إلى أبي موسى الأشعري : لئن سَوَّ بين الناس في مجلسك وجاهك ، حتَّى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك^(١٢) .

وكان رضي الله عنه إذا قدم عليه الوفد سأله عن حالهم وأسعارهم ، وعن يَعْرِفُ من أهل البلاد ، وعن أميرهم هل يدخل عليه الضَّعِيف ؟ وهل يعود المريض ؟ فإن قالوا نعم ، حمد الله تعالى ، وإن قالوا لا ، كتب إليه : أقبل^(١٣) .

وكان رضي الله عنه إذا بلغه أن عاملاً لا يعود المريض ، ولا يدخل عليه الضَّعِيف نزع^(١٤) ، وكان يقول : أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ماعلي ؟ قالوا : نعم ، قال : لا ، حتَّى أنظر في عمله أعْمَل بما أمرته أم لا .

وكتب رضي الله عنه إلى عُمَّاله أن يوافوه بالموسم ، فوافوه ، فقام فقال : يا أيُّها النَّاس ، إنني بعثت عُمَّالي هؤلاء ولاية بالحق عليكم ، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ،

(٩) أعطيتهم من بيت مال المسلمين .

(١٠) البرْدُون : الدَّابَّة ، (اللسان : برذن) .

(١١) الخَرَّاج : ١٢٥ ، عيون الأخبار : ٥٣/١

(١٢) الخَرَّاج : ١٢٦

(١٣) عيون الأخبار : ١٤/١

(١٤) الخَرَّاج ، ص : ١٢٦

ولا من دمائمكم ، ولا من أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم ، قال : فما قام من الناس يومئذٍ إلا رجل واحد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، عاملك ضربني مئة سوط ، فقال عمر : أتضربه مئة سوط ، قُمْ فاستقَدْ منه ، فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كَبَرَّ عليهم ، وكانت سُنَّة يأخذ بها مَنْ بعدك ، فقال عمر : ألا أقيده منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه ؟ قُمْ فاستقَدْ ، فقال عمرو : دعنا إذا فلنرضه ، فقال : دونكم ، فأرضوه بأن اشتريت منه بمئتي دينار ، كلُّ سوط بدينارين ^(١٥) .

ولما سبق ، كان لعمر رضي الله عنه جهاز سِرِّي ، مربوط به ^(١٦) ، لمراقبة أحوال الولاة ، فكان علمه بن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ، ولا مصر من الأمصار ، ولا ناحية من النواحي وإلٍ ولا عاملٌ ولا أميرٌ جيش إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه ما وجده ، فكانت أخبار من بالشرق والمغرب عنده في كلِّ مُمَسَّى ومُصْبَحٍ ، حتَّى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه ، وأخصهم به .

وكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله ^(١٧) ، وقد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله ^(١٨) ، استناداً على الاحتياط ، ولو تبَيَّن خيانتهم لم يدع لهم شيئاً ، وكان يأمر إذا قدم عليه العمال أن يدخلوا نهاراً ، ولا يدخلوا ليلاً كيَّ يحجبوا شيئاً من الأموال .

(١٥) الخَزَاج ، ص : ١٢٥

(١٦) كان برئاسة الصحابي الجليل محمد بن مسلمة الأنصاري (أبي عبد الرحمن) : [٣٥ ق.هـ - ٤٣ هـ = ٥٨٩ - ٦٦٣ م] ، شهد بدرًا وما بعدها إلا تبوك ، كان عند عمر مُعَدًّا لكشف أمور الولاة في البلاد ، (الأعلام : ٩٧/٧) .

(١٧) ابن سعد : ٢٠٣/١ و ٢٢١ ، وابن الجوزي ، ص : ١٠٥

(١٨) منهم سعد بن أبي وقَّاص وأبو هريرة ، ولم يظهر له منهم ما يوجب التهمة ، فقاسمهم من قبيل الاحتياط ، (عيون الأخبار : ٥٣/١ و ٥٤) .

وأوصى عمر بن عبد العزيز والياً ، فقال : عليك بتقوى الله ، فإنها جماع الدنيا والآخرة ، واجعل رعيّتك الكبير منهم كالوالد ، والوسط كالأخ ، والصغير كالولد ، فبرّ والدك ، وصل أخاك ، وتلطّف بولدك .

واستشار عمر بن عبد العزيز في قوم يستعملهم ، فقال له بعض أصحابه : عليك بأهل العذر ، قال : ومن هم ؟ قال : الذين إذا عدلوا فهو ما رجوت منهم ، وإن قصّروا قال الناس : قد اجتهد عمر^(١٩) .

ويمكن قبل إيراد نموذج مثالي من ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، القول إنّ فلسفة الإمارة في الإسلام تتلخّص بكتاب عمر رضي الله عنه ، إلى أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) ، يقول فيه : « أمّا بعد ، فإنّ للنّاس نفرة من سلطانهم ، فأعوذ بالله أن يدركني وإياك عياءٌ مجهولة ، وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله ، والآخر للدنيا ، فأثر نصيبك من الله فإنّ الدنيا تنفد ، والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفسّاق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً ، وعدّ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنّا أنت رجل منهم غير أنّ الله جعلك أثقلهم حملاً ، وقد بلغني أنّه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فيأياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة^{١٠} البهيمة مرّت بوادٍ خصب فلم يكن لها همّ إلاّ السّمن ، وإنّا حتفها في السّمن ، واعلم أنّ العامل إذا زاغ زاغت رعيّته ، وأشقى النّاس من شقي النّاس به والسّلام »^(٢٠) .

فأية عدالة تلك التي أراد عمر رضي الله عنه أن تتحقّق في حياة المسلمين ؟ فالأمير في حكم الإسلام يجب أن يكون من طينة أخرى تختلف عن طينة الحكومين ! فالأمير من طينة تجعله أثقل من الرعيّة حملاً ومسؤوليّة ، من طينة ستجعله يبرّ الكبير ، ويرحم الصغير ، ويقسم بينهم بالحقّ أعطياتهم ، ويحكم فيهم بالعدل .

(١٩) عيون الأخبار : ١٧/١

(٢٠) عيون الأخبار : ١١/١ ، والبيان والتبيين ، ص : ٣٥٨

قام رضي الله عنه في يوم جمعة خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر
 نبي الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ
 الْأُمَّارِ ، فَإِنِّي إِنَّمَا بَعَثْتَهُمْ لِيَعْلَمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَيَقْسِمُوا فِيهِمْ
 فِيئْتُهُمْ ، وَيَعْدِلُوا بَيْنَهُمْ ، فَن أَشْكَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ رَفَعَهُ إِلَيَّ » (٢١) .

٥ نموذج من أُمراء عُمَر رضي الله عنه :

سعيد بن عامر المجحي [ت ٢٠ هـ = ٦٤١ م] ، ولأه عمر رضي الله عنه على مدينة
 حمص ، ولما قدم عمر حمص أمرهم أن يكتبوا له أسماء فقرائهم ، فَرَفَعَ الكتاب ، فإذا فيه
 سعيد بن عامر ، قال عمر : مَنْ سعيد بن عامر ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، أميرنا ، قال
 عمر : وأميركم فقير ؟ قالوا : نعم ، فعجب وقال : كيف يكون أميركم فقيراً ، أين
 رزقه (٢٢) ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين لا يُمَسِّكُ شَيْئاً ، فبكى عمر ، ثم عمَد إلى ألف دينار
 فَصَرَّهَا وبعث بها إلى سعيد بن عامر ، وقال : أَقْرئُوهُ مِنِّي السَّلَام ، فذهبوا بالمبلغ إلى
 سعيد بن عامر ، وقالوا له : بعث بها إليك أمير المؤمنين ، فاستعن بها على حاجتك ،
 فنظر إليها فإذا هي دنانير ، فجعل سعيد يسترجع ، فقالت له امرأته ، ما شأنك ؟
 أَصِيب أمير المؤمنين ؟ قال : أعظم ، قالت : فظهرت آية ؟ قال : أعظم من ذلك ،
 قالت : فأمر من السَّاعَةِ ؟ قال : بل أعظم من ذلك ، قالت : فما شأنك ؟ قال : الدُّنْيَا
 أَتَتْنِي ، الْفِتْنَةُ أَتَتْنِي ، دَخَلَتْ عَلَيَّ ، قالت : فاصنع بها ما شئت ، قال لها : أَعْنَدُكَ
 عَوْنٌ ؟ قالت : نعم ، فَصَرَّ الدُّنَانِيرَ فِيهَا صَرّاً ، ثُمَّ جَعَلَهَا فِي مِخْلَاةٍ ، ثُمَّ بَاتَ يُصَلِّي
 حَتَّى أَصْبَحَ ، ثُمَّ وَزَعَهَا إِلَى أَرْمَلَةٍ ، أَوْ يَتِيمٍ ، أَوْ مَسْكِينٍ ، أَوْ إِلَى مَبْتَلَى .

وقال عمر : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملكم ؟

(٢١) الْخَرَج ، ص : ١٥

(٢٢) كان عمر رضي الله عنه يفرض للأُمراء في العطاء على قدر ما يصلحهم من الطَّعام ، وما يقومون به من
 الأُمُور ، (الْخَرَج : ٥٥) .

قالوا : نشكو أربعاً ، لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا ، ويغنط^(٢٣) الغنطة بين الأيَّام ، فجمع عمر رضي الله عنه بينهم وبينه ، وقال : اللهم لا تُقِيل^(٢٤) رأيي فيه اليوم ، فقال سعيد بن عامر : ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ، ثم أخرج إليهم ، وليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثياب أبدلها ، فأجلس حتى تجف ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم من آخر النهار ، وشهدت مصرع خُبِيب الأنصاري بجكة ، وقد بضعت قريش لحمه ، ثم حملوه على جذعة ، فقالوا : أتحب أنَّ محمداً مكانك ؟ فقال : والله ما أحب أني في أهلي وولدي ، وأنَّ محمداً عليه السلام شيك بشوكة ، فما ذكرت ذلك اليوم ، وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك ، إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً ، فتصيبني تلك الغنطة ، وجعلت النهار لهم والليل لله عز وجل^(٢٥) ، فقال عمر : الحمد لله الذي لم يُقِيل فراستي .

وأخيراً .. عندما وصلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه غنائم المدائن ، وفيها تاج كسرى وسواراه ، جعل يقبله بعود في يده ويقول : والله إنَّ الذي أدَّى إلينا هذا لأمين ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، أنت أمين الله ، يؤدُّون إليك ما أدَّيت إلى الله ، فإذا رتعت رتعوا ، قال : صدقت^(٢٦) .



(٢٣) يذهب وعيه ، وفي أسد الغابة : ١٩٢/٢ ، يصيبه لَمَمٌ ، غَشِيَةٌ .

(٢٤) قال رأيي يفيل فيلولة : أخطأ وضعف ، وفيل رأيي خطؤه وقبحه .

(٢٥) أسد الغابة : ٣٩٢/٢

(٢٦) ابن سعد : ٢١٠/١ ، وعيون الأخبار : ٥٢/١

الحِسْبَةُ

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

[التوبة : ٧٧/٨]

٥

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

[آل عمران : ١١٤/٣]

١٠

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى
الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٤/٣]

١٥ الحِسْبَةُ لغة : مصدر احتسابك الأجر على الله ، تقول : فعلته حِسْبَةً ، واحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب : طلب الأجر ، والاسم : الحِسْبَةُ (بالكسر) ، وهو الأجر ، [اللسان : حسب] ، والمحتسب - كما يقول الماوردي - مشتق من قولهم حسبك بمعنى (اكف) ، سمي بذلك لأنه يكفي الناس مؤنة من يبخسهم حقوقهم ^(١) .. وفي صبح الأعشى [٢٠٩/١١] : الحسبة : موضوعها التحدث على أرباب المعاش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته .

٢٠

والحِسْبَةُ (وظيفة) يتولأها مسؤول من قبل ولي الأمر ، وهي فرض عين عليه

(١) صبح الاعشى : ٤٥٢/٥

وعلى من تبعه من أعوان وعاملين عليها معه ، فحكمها إذن ، الوجوب على الكفاية ، فهي واجب ملقى على عاتق المجتمع الإسلامي ، لتضبط حركة الحياة في داخلها ، ومن حولها ، من خلال الشريعة ، لذلك فرّقوا بين المحتسب (الموظف) المُعَيَّن من قبل الدولة ، وبين المحتسب الفرد ، وهو المسلم (المتطوع) في المجتمع عند قيامه بهذا الواجب ، دون تعيين من الدولة ، ولا تعارض بينهما ، لأنّ ترك زمام الحسبة في يد موظفيها فحسب ، تفتقد الحسبة فاعليتها ، خصوصاً إذا اتّسع نطاق المجتمع ، أو تهاون ولاية الحسبة لرقّة في الدّين عن الالتزام بأوامره ، ولكن للمحتسب (الموظف) أن يبحث عن المنكرات ، وليس ذلك على المحتسب (المتطوع) ، وللمحتسب (الموظف) سلطة التعزير عقاباً وتأديباً ، وليس ذلك للفرد (المتطوع) ، والمحتسب (المتطوع) أقدم زمناً وأجره على الله ، والمحتسب (الموظف) أحدث زمناً ، وله أن يتقاضى أجراً مادياً ، لكونه موظفاً .

والحسبة نظام من النظم الإدارية الإسلامية ، يطلق بالمعنى الواسع على وظيفة المحافظة على النظام العام ، والمراقبة ، لما يجري بين الناس من معاملات ، والفصل الفوري في المنازعات ممّا لا يدخل في اختصاص القاضي ^(٢) .

ويمكن القول عموماً : الحسبة أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله ، وهي تتعلّق بالنظام العام ، والآداب ، ومراقبة الأسواق والتجارة وأرباب الحرف ، يمنعهم من الغش في تجارتهم وعملهم ومضروعاتهم ، ويأخذهم باستعمال المكاييل والموازين الصحيحة ، وربّما سَعَر عليهم بضائعهم ^(٣) .

(٢) وموضوع (الحسبة) هنا ، الحسبة الرّسميّة ، وظيفه في النظم الإدارية الإسلامية .

(٣) كتب في الحسبة : (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) لعبد الرحمن بن نصر الشيزري ، و (معالم القرية في أحكام الحسبة) لمحمد بن محمد القرشي المشهور بابن الإخوة ، و (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) لابن بسّام - وهو غير المؤلّف الأندلسي صاحب الدخيرة - ، و (آداب الحسبة) لمحمد بن أحمد السّقطي المالقي ، و (كتاب الحسبة) لجمال الدّين يوسف بن عبد الهادي ، و (الثّولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) للمرحوم الأستاذ محمد المبارك .

منشأ الحسبة :

لقد نهى ﷺ عن الغش ، وقال : « مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا »^(٤) ، وربما تعرّض للغشّاش فزجره ، كما جاء في صحيح مسلم : أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَرَّ عَلَى صَبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعَهُ بِلَالاً ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ، فَقَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كِي يَرَاهُ النَّاسُ ، « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

وكان عمر رضي الله عنه يطوف الأسواق ودرّته معه ، فمضى رأى غشاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه ، وربما أتلّف بضاعته .

وأجمع المؤرّخون على أن منصب الحسبة نشأ في العهد العباسي أيام المهدي ، وظلّت من جملة التشكيلات التي أخذت بها الممالك الإسلامية فيما بعد ، ولخطورة هذا المنصب ، كان يُنتقى المحتسب من أصحاب الرأي والصّرامة والعلم والورع والتّقوى ، لأنّ الحسبة : صيانة حقوق الله ، ورعاية حقوق العباد .

وأفرد للمحتسب أيام الماليك مجلس بدار العدل في القاهرة مع القضاة^(٥) ، وأورد القلقشندي وصيّة محتسب ، تقتطف منها بعض المقاطع لطولها : « وَقَدْ وَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الرَّتْبَةِ ، وَوَكَّلَ بَعِيْنَهُ النَّظْرَ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ لِلَّهِ حِسْبَةً ، فَلْيَنْظُرْ فِي الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ ، وَالكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ ، وَمَا يُحْصَرُ بِالْمَقَادِيرِ وَمَا لَا يَحْصُرُ ، وَمَا يُؤْمَرُ فِيهِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ يُنْهَى عَنْ مَنكَرٍ ، وَمَا يَشْتَرَى وَيُبَاعَ .. وَلْيَعْمَلْ لَدَيْهِ مَعْدَلاً لِكُلِّ عَمَلٍ ، وَعِيَاراً إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْمَعَايِرُ يَعْرِفُ مَنْ جَارٍ وَمَنْ عَدُوٍّ ، وَلْيَتَفَقَّدْ أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَيَحْذَرُ مِنَ الْغِشِّ فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُهُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ ، وَلْيَتَعَرَّفْ الْأَسْعَارَ وَيَسْتَعْلِمِ الْأَخْبَارَ ، فِي

(٤) رواية مسلم : « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

(٥) الصّبرة : ما جُمِعَ من الطّعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض ، (اللسان : صبر) .

(٦) صبح الأعشى : ٢٠٧/١١

كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليقيم عليهم من الأمناء من ينوب عنه في النظر ، ويطمئن به وإن غاب أو حضر ، ويأمره بإعلامه بما أعطل ، ومراجعته مهما أمكن فإن رأي مثله أفضل ، ودار الضرب والنقود التي منها تنبت ، وقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر إلا بعد طول اللبث ، فليتصد لمهماتا بصدرة الذي لا يخرج ، وليعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ... وليقيم الضمان على العطارين والطريقة من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب فيه وهو معروف ، وبخط متطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف ... ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان ، وكل إنسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا إنسان ، امنعهم كل المنع ، وأصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينجر لهم صدع ، وضب عليهم النكال ، وإلا فما يجدي في تأديبهم ذات التأديب والصفع ، وأخس كل هذه ١٠ المواد الخبيثة ، واقطع ما يجدد ضعفاء الناس من هذه الأسباب الرثيثة ، ومن وجدته قد غش مسلماً ، أو أكل بباطل درهماً ، أو أخبر مشترياً بزائد ، أو خرج عن معهود العوائد ، أشهر في البلد ... وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرها من الأنواع ممن يخاف من ذنبه العائث في سرب الأطباء والجاذر^(٧) ، ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر ، أرشقهم بسهامك ، وزلزل أقدامهم بإقدامك ، ولا تدع منهم إلا من ١٥ اختبرت أمانته ، واخترت صيانتة ... »^(٨) .

وظائف المحتسب :

مراقبة الأسواق والحرف : من مهام المحتسب ومسؤولياته مراقبة كل صاحب مهنة يتكسب بها ، مهما يكن نوع هذه المهنة ، سواء كان طبيباً ، أو معلماً ، أو بائع حلوى .. ويراقب الصناعات والتجار مراقبة حازمة ، ويفاجئ أرباب الحرف مفاجأة ، ٢٠ أو يدس إليهم رجالاً لا يعرفونهم ، وتوصل المحتسبون إلى تقرير مبدأ قانوني لم يصل

(٧) الجوذور والجودر : ولد البقرة ، وفي الصحاح : البقرة الوحشية ، والجمع جاذر ، (اللسان : جذر) .

(٨) صبح الأعشى : ٢١٤/١١

إليه الأوربيون إلا في العصر الحاضر ، وهو أن يجعلوا صاحب العمل (المَعْلَم) مسؤولاً عن أجيره بطريقة التكفيل ، وذلك أن بعض أصحاب المتاجر والصناعات يحاولون التهرب من تبعة أعمالهم بادّعاءهم أنهم غير مسؤولين عنها ، لأنّ أجراءهم هم الذين فعلوها .

٥ وجعل المحتسبون لأهل كلّ صنعة منهم سوقاً يختصّ به ، وتعرف صناعتهم فيه ، فإنّ ذلك لقاصدهم أرفق ، ولصنائعهم أنفق ، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار ، كالخبّاز والطّبّاخ والحدّاد ، فلمحتسب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين ، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار .

١٠ وينبغي أن يمنع أحوال الحطب وأعدال^(٩) التبن ، وروايا^(١٠) الماء ، وشرائج^(١١) السرجين والرّماد ، وأشباه ذلك من الدّخول إلى الأسواق ، لما فيه من الضرر بلباس الناس ، ويأمر جلالي الحطب والتبن ونحوهم ، إذا وقفوا بها في العراض أن يضعوا الأحمال عن ظهور الدّواب ، لأنّها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتّها ، وكان في ذلك تعذيب لها .. ويأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطّين المّجتمّع ، وغير ذلك ممّا يضرّ بالنّاس .

١٥ ومن أمثلة مراقبتهم للخبّازين مثلاً ، أنّهم كانوا يأمرون عمّلة الخبز أن يصنع كلّ واحد منهم طابعاً ينقش فيه اسمه ويطبعه على خبزه ، لتمييز خبز كل واحد بطابعه ، وتقوم الحجّة به على صاحبه ، وكانوا يأمرون الخبّازين برفع سقائف أفرانهم ، ويجعل منافذ واسعة للدّخان في سقوفها ، وبكنس بيت النار في كلّ تعميرة ، وغسل مستودع الماء ، وتنظيف مائه ، وغسل المعاجن وتنظيفها .. ولا يعجن العجّان بقدميه ،

(٩) جمع عدل ، وهو الحمل ، سميّ كذلك لتعادل الحقلين على ظهر الدّابة .

(١٠) جمع راوية ، وهو البعير أو البغل أو الحمار الذي يستقى عليه الماء ، (اللسان : روي) .

(١١) الشريحة قفص أو وعاء كبير يصنع من سعف النّخل وما يشبهه ، يوضع على ظهر الدّابة ليحمل فيها ، والسرجين : الرّوث والزّبل .

ولا بركبتيه ، ولا بمرافقه ، لأنَّ في ذلك مهانة للطَّعام ، وربما قَطَرَ في العجين شيء من عرق إبطينه أو بدنه ، ولا يعجن إلاَّ وعليه مِلْعَبَةٌ ^(١٢) ضَيِّقَةُ الكُمَيْنِ ، ويكون ملثماً أيضاً ، لأنَّه ربُّما عطس ، أو تكلم فقطر شيء من لعابه أو مخاطه في العجين ، ويشد على جبينه عصابة بيضاء ، لئلا يعرق فيقطر منه شيء ، ويخلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين ، وإذا عجن في النَّهار ، فليكن عنده إنسان على يده مذبَّة يطرد عنه الذُّباب ، ويتفَقَّد المحتسب ما يغشون به الخبز من الكرم والزَّعفران ، وما يجري مجراه ، فإنَّهما يورِّدان وجه الخبز ، ومنهم من يغشه بالحُصِّ والبقول ، ويلزمهم ألاَّ يخزوه حتَّى يختمر ، فإنَّ الفطير يثقل في الميزان ، وفي المِعدة .

مراقبة الأسعار والموازين : وهي من أعظم أعمال المحتسب ، فقد يتدخَّل المحتسب في التَّسعير ، وينع احتكار السِّلَع ، وللمحتسب أن يكره المحتكر على بيع النَّاس ^{١٠} ما عنده بقيمة المثل ، وكانوا في الأندلس يُسْعِرُونَ الأشياءَ الضَّرورية للحياة ، كالخبز واللَّحم ، ويضعون عليها أوراقاً بسعرها ، يقول المقرئ في (نفح الطَّيب) : « ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدَّد له المحتسب في الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانتة ، فإنَّ المحتسب يدسُّ عليه صبيّاً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثمَّ يختبر المحتسب الوزن ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع النَّاس ، فلا تسأل عما يلقي ، ^{١٥} وإن كثر ذلك منه ، ولم يتب بعد الضَّرْب والتَّجريس ^(١٣) ، نفى من البلد » .

« وكانت الحكومة تحدِّد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأغلى منها ، ويطاف به في شوارع المدينة على جمل ، وهو يدقُّ بيده ناقوساً ، ويعلن بنفسه جرَّمة ^(١٤) » .

(١٢) المِلْعَبَةُ - أصلاً - ثوب لا كُم له ، (اللِّسان : لعب) .

(١٣) التَّجريس لغة : التَّحكيم والتَّجربة (اللِّسان : جرس) ، والمراد هنا : التَّعزير .

(١٤) قصَّة الحضارة ٢٦٧/٣

وورد : « إذا سَعَر الإمام انقادت الرعيّة لحكمه ، وَمَنْ خالفه استحقّ التعزير » (١٥) .

مراقبة الأخلاق العامة : وكان المحتسبون يريقون الخمر ، ويمنعون الناس من تطيير الحَمَام ، وعن اتّخاذ الأكساب الفاجرة ، ومنع السّحرة والكهّان عن منكراتهم ، ومنع تعرّض الرّجال للنّساء ، ويتفقّد - المحتسب - المواضع الّتي يجتمع فيها النّسوان ، مثل سوق الغزل والكتّان ، وشطوط الأنهار ، وأبواب حمامات النّساء ، وغير ذلك ، فإن رأى شاباً متعرّضاً بامرأة يكلمها في غير معاملة في البيع أو الشّراء ، أو ينظر إليها عزّره ومنعه من الوقوف هناك ، فكثير من الشّباب المفسدين يقفون في هذا الموضع ، وليس لديهم حاجة .

١٠ جاء في (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري : ٢٩١/٦ : وللمحتسب أن يمنع أرباب السّفن حمل ما لاتسعه ويخاف من غرقها ، أو من اشتداد الرّيح ، وينع اختلاط الرّجال بالنّساء في سوق النّسوان ، ويمنع البناء في الطّريق السّابل .

مراقبة العبادات : وكان المحتسبون يعنون بنظافة الجوامع وهيبتها ، ويمنعون الصّبيان والمجانين من دخول المساجد ، وينهون عن وضع الأمتعة فيها ..

١٥ **مراقبة الأبنية والطّرق :** ومن حقّ المحتسب أن يهدم كلّ بناءٍ يبرز به صاحبه إلى الطّريق ، فالطّريق مُلكُ العامّة ، ويمنع النّاس من فتح النّوافذ على صورة يشرفون منها على منازل غيرهم ، ويدعو أصحاب الدّور المتداعية إلى هدمها ، ورفع أنقاضها عن الطّريق ، ويراقب المحتسب مقاعد الأسواق ، فيمنع ما يضرّ منها بحركة المرور .

٢٠ « وأمّا الطّرقات ودروب المحلّات فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره أو دكّانه فيها إلى الممرّ المعهود ، وكذلك كلّ ما فيه أذية أو إضرار على السّالّكين ، كالميازيب الظّاهرة من الخيطان في زمن الشّتاء ، ومجاري الأوساخ الظّاهرة من الدّور في زمن الصّيف إلى

(١٥) معيد النّعم ومبيد النّقم ، ص : ٥٦

وسط الطريق ، بل يأمر المحتسب أصحاب الميازيب أن يجعلوا عوضها سيلاً محفوراً في الحائط مكلّساً يجري فيه ماء السطح ، وكل من كان في داره مخرج للوسخ إلى الطريق ، فإنه يكلفه سدّه في الصيف ، ويحفر له في الدار حفرة يجتمع بها » .

القضاء في بعض الدعاوى : وهي ثلاثة أنواع من الدعاوى : دعوى البخس في الكيل والوزن ، ودعوى الغش والتدليس في بيع أو ثمن ، ودعوى المثل والتأخير في سداد دين ثابت مع المكنة .

أعمال أخرى مختلفة : مراقبة النُّود من الذهب والفضة المضروبين ، فعليه اعتبار العيار بمحك النظر ، والتثبت من الوزن ، ومراقبة توزيع مياه الأنهار على الأراضي ، ويتحرى صحة هذا التوزيع ..

ويقوم المحتسب بأمور كثيرة تدخل في باب الدعوة إلى عمل الخيرات والمبرات ١٠ والرفق بالضعفاء ، حتى تدخل بعلف البهائم ، وألاً تستعمل في ما لا تطيق ، مع السهر على الدواب الضالة ، والأشياء الضائعة ، والتاس من يحفظها ، ثم يعيدها إلى أصحابها ، ومنع السفن من الإقلاع إذا خاف غرقها لزيادة حمولتها ، أو بسبب الأحوال الجوية المضطربة .

وقد يتعرض للموظفين الذين يتهاونون في قضاء مصالح العباد ، يذكر الماوردي ١٥ أن محتسب بغداد مرّ بدار قاضي القضاة ، فرأى الخصوم جلوساً على بابهِ ينتظرون جلوسه للنظر بينهم ، وقد تعالى النهار ، وهجرت الشمس^(١٦) ، فوقف واستدعى حاجبه ، وقال : تقول لقاضي القضاة ، الخصوم جلوس على الباب ، وقد بلغت الشمس ، وتأذوا بالانتظار ، فإمّا جلست لهم ، أو عرفتهم عذرهم فينصرفوا ويعودوا .

(١٦) المهجير والمهجرة والمهجرة : نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر ، وقيل : هو نصف النهار عند اشتداد الحر ، (اللسان : هجر) .

شروط المحتسب :

(الإسلام) لأنَّ الحسبة من الواجبات الدِّنيَّة التي يراد بها نصره الدِّين ، وإعلاء كلمة الإسلام ، وغير المسلم لا يكون من أهل نصره الإسلام وتعاليمه ، وتكليفه إكراه له على غير ما يعتقد ، و (البلوغ والعقل) ليتحقَّق التَّكليف^(١٧) ، و (القدرة) فوجود ضعف أو مرض أو عي في اللِّسان ، يسقط الوجوب عند الجمهور .

ويشترط بعض الفقهاء : (العدالة) وهي تجنب الكبائر ، وخوارم المروءة ، يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤/٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصَّف : ٢/٦١ و ٢] .

و (الذُّكُورَة) ليست شرطاً في الحسبة ، لأنَّ النُّصوص جاءت تخاطب جميع المسلمين للكُفَّين . ولقد وُلِّي عمر السَّقاء العدوية الحسبة في السوق ، [الإصا بة ١٠٠/٤] .

يقوم المحتسب بأعباء كثيرة وخطيرة ، ولذا اختار لهذه الأعباء نُوَّاباً عنه ، يوزَّعهم في الجهات المختلفة ، وكلُّ واحدٍ من هؤلاء النُّواب يقوم بوظيفة (الحِسْبَة) في محلَّته التي عيَّنت له .

وليس للمحتسب أن يقيم حدّاً من اختصاص الولاية والقضاة ، وله حقُّ (التَّعْزِير)^(١٨) ، فإذا عجز عن استعمال هذا الحق ، طلب من الولاية معاقبة المخالف .

وكان المحتسب يأخذ أجراً عن عمله ، يساوي أحياناً أجور بعض القضاة .

صِفَاتُ الْمُحْتَسِبِ وَأَدَابُهُ :

١ - (الرِّفْقُ) : يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ فِيهَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا

(١٧) إحياء علوم الدِّين : ٣١٢/٢

(١٨) التَّعْزِير : التَّأْدِيب ، ولهذا يُسَمَّى الضَّرْبُ دُونَ الْحَدِّ تَعْزِيراً إِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ ، (اللِّسان : عزر) .

غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ .. ﴿ [آل عمران : ١٥٩/٣] ، ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣/٢] ، ويقول الرسول الكريم ﷺ : « من كان أمراً بمعروف فليكن أمره بمعروف »^(١٩) .

قال المأمون لرجل جلف أغلظ في كلامه وموعظته : يا رجل ارفق ، فقد بعث الله من هو خير منك ، إلى من هو شرُّ مني ، وأمره بالرفق ، قال تعالى : ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٣/٢٠ و ٤٤] .

٢ - (التَّائِي وَالصَّبْرُ) : لَأَنَّ الْعَجَلَةَ تَوْرَثُ الْخَطَأَ وَالنَّدَامَةَ ، « وليكن المحتسب متائياً غير مبادر إلى العقوبة ، ولا يؤاخذ أحداً بأول ذنب صدر منه ، ولا يعاقب على أول زلة تبدو ، لأنَّ العصمة في الخلق مفقودة فيما سوى الأنبياء »^(٢٠) .

٣ - (الْعِفَّةُ عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ) : ومنها التَّوَرُّعُ عَنْ قَبُولِ الْهَدَايَا ، ويتعد عن أخذ الرُّشَى^(٢١) ، والتَّعَفُّفُ أَصَوْنٌ لِعَرْضِهِ ، وأقوم لهيبته ، ويلزم المحتسب أعوانه وأهله بما التزمه من هذه الآداب .

وهناك آداب كثيرة تطلب مع المحتسب ، فهو يراقب الأمور الظَّاهِرة ، ولا يتجسَّس ، ولا يقتحم على أصحاب الدُّور دورهم ليحاسبهم على ما يصنعونه فيها سراً ، فللدُّور حرمة مصانة .

ومن آداب المحتسب ، أن يظهر في الناس بهيئة حسنة ، ويقصَّ شاريه ، ويقلم أظافره ، وينظف ثيابه ، ويتعطر بالمسك ، ويذكر التاريخ أنَّ رجلاً حضر عند السلطان محمود بن سُبُكْتِكِينِ الغزنوي يطلب الحِسْبَةَ ، فنظر السلطان إليه فرأى أنَّ

(١٩) البيهقي في شعب الإيمان .

(٢٠) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، أبو عبد الرحمن الشَّيْزِي ، تحقيق د . مصطفى زيادة ، ص ٩ ، القاهرة

١٩٤٥ م .

(٢١) الرِّشْوَةُ وَالرِّشْوَةُ وَالرِّشْوَةُ ، والجمع رُشَى ورُشَى ، (اللسان : رشا) .

شاربه قد غطى فاه من طوله ، وأذياه تسحب على الأرض ، فقال له : يا شيخ امض واحتسب على نفسك ، ثم عُدْ واطلب الحسبة على الناس .

يقول السَّقْطِي في (آداب الحِسْبَةِ) : « يجب أن يكون من ولي النظر في الحسبة فقيهاً في الدين ، قائماً مع الحق ، نزيه النفس ، عالي الهمة ، معلوم العدالة ، ذا أناة وحلم ، وتيقظ وفهم ، عارفاً بجزئيات الأمور ، وسياسة الجمهور ، لا يستخفه طمع ، ولا تلحقه هواده ، ولا تأخذه في الله لومة لائم^(٢٢) ، مع مهابة تمنع من الإدلال عليه ، وترهب الجاني لديه .. » .

وروى ابن الإخوة أن أتاك بن طفتكين - أحد سلاطين السلاجقة - طلب محتسباً ، فدكر له رجل من أهل العلم ، فأمر بإحضاره ، فلما نظره قال : إني وليتك أمر الحسبة على الناس ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ١٠

قال : إن كان الأمر كما تقول ، فقم عن هذه الطراحة ، وارفع المسند ، فإنهما حرير ، واخلع هذا الخاتم فإنه ذهب ، وقد قال ﷺ هذان حرام على ذكور أممي ، حلّ لإناثها ، فنهض السلطان ، عن طراحته ، وأمر برفع مسنده ، وخلع الخاتم من أصبعه ، وقال : قد ضمت إليك النظر في أمور الشرطة ، فما رأى الناس محتسباً أهيب منه^(٢٣) .

وهكذا .. الحِسْبَةُ نظام إسلامي أصيل ، ليس مستجلباً أو مقتبساً من رومة أو بيزنطة^(٢٤) ، لأن المحتسب لم يكن قط فرضاً أو واقعاً مختصاً بأمر السوق فحسب ، بل إن نشاطه يمتد ، واختصاصاته تتسع لتشمل كل المخالفات التي تقع في المجتمع الإسلامي ، ويمكن الاحتساب فيها على عامة المسلمين ، وعلى ذوي الجاه والسلطان ، وعلى الخليفة نفسه أيضاً . ١٥

(٢٢) وهذا لا يمنع أن يكون رفيقاً ، لين القول ، طلق الوجه .

(٢٣) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص : ٧٨

(٢٤) القائم على أمر السوق في النظام البيزنطي جانب من الحسبة .

والحِسْبَةُ في الإسلام ليست نظاماً وقتياً أقامه عرف ، أو جاء به تاريخ ، ولكنه حكم شرعي ملزم تأثم الأمة الإسلامية كلها بتركه ، كما أنها لا تملك تغييره ، أو التَّخْلِي عنه ، والهدف إقامة مجتمع الطُّمَأْنِينَةِ والعدالة ، حيث تدخل أعماله واختصاصاته ضمن إطار الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أينما كان .

☆ ☆ ☆



القضاء

« القانون الذي يشغّر مرةً يشغّر
مراراً ، ثمّ يكون كالثوب الذي تهلهل ،
حتّى ما تنفع به الرّقع » .
[د . أحمد زي]

٥

تعريف :

يستعمل القضاء والحُكم في معنى واحد^(١) ، قال الجرجاني : « القضاء في الخصومة ، هو إظهار ما هو ثابت » ، وقال ابن فرحون : « حقيقة القضاء ، الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام ، ومعنى قولهم : قضى القاضي ، أي ألزم الحق أهله » ، وقال السبكي : « القضاء جمعه أقضية ، وهو الإلزام وفصل الخصومات ، وولاية رتبة دينيّة » .

أمّا ابن خلدون فعرف القضاء بما يلي : « القضاء : منصب الفصل بين الناس في الخصومات ، حسناً للتداعي ، وقطعاً للتنازع ، ويرعى القلقشندي أنّ : « القاضي : هو عبارة عن يتولّى فصل الأمور بين المتداعين في الأحكام الشرعيّة »^(٢) .

(١) في اللسان (مادة قضي) ، القضاء : الحُكم ، والجمع : الأقضية ، والقضية مثله ، والجمع : القضايا ، وقضي عليه يقضي قضاء وقضية ، والقاضي : القاطع للأمور الحكم لها ، واستقضي فلان ، أي جعل قاضياً يحكم بين الناس ، وقضى الأمير قاضياً : كما تقول أمراً مبرراً ، وتقول : قضى بينهم قضية وقضايا ، والقضايا : الأحكام ، ويقال : قضى يقضي قضاء ، فهو قاض إذا حكم وقض ، وقضاء الشيء : إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ، والقضاء : انقطاع الشيء وتماحه ، وكل ما أحكم عمله ، أو أتم أو ختم أو أدي أداء ، أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضى فقد قضى .

(٢) صبح الأعشى : ٤٥١/٥

تاريخ القضاء :

- في صدر الإسلام : كان رسول الله ﷺ يتولَّى القضاء بين الناس : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥/٤] ، وباتِّساع رقعة الدولة ، بعث ﷺ علياً ، ومعاذ بن جبل إلى اليمن للقضاء ، واختبر ﷺ معاذاً حين بعثه فقال : « بِمَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ قِضَاءٌ ؟ قال : أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، قال : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ قال : أَقْضِي بِمَا قَضَى بِهِ الرَّسُولُ ، قال : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا قَضَى بِهِ الرَّسُولُ ؟ قال : أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو^(٣) » ، قال معاذ : فضرب صدري وقال ﷺ : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله^(٤) .
- وتولَّى عمر القضاء لأبي بكر الصديق^(٥) .

١٠

وعين عمر في خلافته القضاة في كل الأمصار ، لضمان حصانة القاضي في الولاية ، ولبعده عن سلطة الوالي فيها ، وبالتالي تحقيق العدل وإحقاق الحق ، بعيداً عن سلطة الولاية التنفيذية ، وكان رضي الله عنه أول من وضع دستور القضاء ، في رسالته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) :

- « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أمّا بعد : فإنَّ القضاء فريضة محكمة ، وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فافهم إذا أدلي إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنَّه لا ينفع حق لا نفاذ له ، أس بين الناس في مجلسك وجهك^(٦) ، حتَّى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

(٣) ألا يالو ألو أو ألو .. قَصْرٌ وأَبْطَأ ، (اللسان : أ لا) .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢٤٧/٢ - ٢٤٨ ، والإمام أحمد : ٢٣٦/٥ - ٢٤٢ ، وأبو داود في الأفضية (٣٥٩٢ و ٣٥٩٣) باب الاجتهاد بالرأي في القضاء ، والترمذي في الأحكام (١٢٣٧ ، ١٧٢٨) ، انظر

نصب الرأية : ٦٣/٤

(٥) صبح الأعشى : ٤٥١/٥

(٦) أي سَوَّ بين الناس ..

البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً ، أو حرّم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق^(٧) ، فإنّ الحقّ قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحقّ خير من التّماذي في الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ممّا ليس في كتاب ولا في سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثمّ قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبّها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى .

واجعل لمن ادعى حقّاً غائباً ، أو بيّنة أمدأ ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه ، وإلاّ استحللت عليه القضاء ، فإنّ ذلك أنفى للشكّ ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر . ١٠

والمسلمون عدول في الشّهادة بعضهم على بعض ، إلاّ مجلوداً في حدّ ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيماً في ولاء أو قرابة ، فإنّ الله قد تولّى منكم السّرائر ، ودرأ عنكم الشّبّهات .

وإياك والقلق والضّجر والتّأذي بالنّاس ، والتّنكر للخصوم في مواطن الحقّ ، التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن الذّخر ، فإنّه من يخلص نيّته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفّه الله ما بينه وبين النّاس ، ومن تزين للنّاس فيما يعلم الله خلافه منه شانه الله ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنّك بثواب عند الله عزّ وجلّ في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسّلام^(٨) . ١٥

(٧) في دعوى أخرى مثلها ، أمّا التي صدر فيها الحكم وصار حقّاً مكتسباً لصاحبه ، فلا يبدّل الحكم فيها ، قال رضي الله عنه لما سئل عن اختلاف حكمين في دعوتين متشابهتين : « تلك كما قضينا ، وهذه كما نقضي » .

(٨) عيون الأخبار : ٦٦/١ ، وصبح الأعشى : ٢٥٧/١ ، والبيان والتبيين ، ص : ٢٢٧

لقد جمعت هذه الرسالة العجيبة : آداب القضاء ، وأصول المحاكمة .

وكان رضي الله عنه إذا أتاه الخصمان ، برك على ركبتيه وقال : اللهم أعني عليهما ، فإن كل واحد منهما يريدني عن ديني ، وقال : وما أبالي إذا اختصم إلي لأيهما كان الحق^(٩) . ومن روائعه رضي الله عنه ، قوله : لأن أعطل الحدود في الشبهات ، خير من أن أقبحها في الشبهات^(١٠) .

وفي أيام الأمويين : بدأ تسجيل الأحكام ، وطلب عمر بن عبد العزيز من أمرائه أن يمتنعوا من إيقاع عقوبة القتل بمن يستحقها ، إلا بعد عرض الأمر عليه ، والحصول على موافقته ، وكان يوصي قضاته : إياكم والمثلة في العقوبة وجرّ الرأس واللحية .

وفي أيام العباسيين : ظهر منصب (قاضي القضاة) ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم ، وأول من تولّى هذا المنصب أبو يوسف^(١١) ، تلميذ أبي حنيفة ، فكان لا يؤلّى قاض ، أو يعزل إلا بإشارته .

قال المأمون : أول العدل أن يعدل الرجل على بطائنه ، ثم على الذين يلونهم ، حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى^(١٢) .

هذا .. وتحقق في الحضارة العربية الإسلامية فصل السلطة القضائية عن بقية سلطات الدولة ، ولم يجد القاضي حرجاً في إصدار حكم ضدّ الولاة ، أو الخليفة نفسه .

(٩) ابن سعد : ٢٠٨/١ و ٢٠٩

(١٠) الخراج ، ص : ١٦٥ ، قال عليه السلام : « ادروا الحدود عن المسلمين بالشبهات ما استطعتم ، فإذا وجدتم المسلم مخرجاً فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة » ، حتى أن أبا الدرداء (عويم بن عامر الخزرجي) أتى بامرأة سرق ، فقال : أتترقتي قولي : لا ، (عيون الأخبار : ٢٠/١) .

(١١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري : [١١٣ - ١٨٢ هـ = ٧٣١ - ٧٩٨ م] ، أول من دعي (قاضي قضاة الدنيا) ، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب ، أشهر كتبه (الخراج) ، [الأعلام : ١٩٢/٨] .

(١٢) عيون الأخبار : ٢٢/١

شُرُوطُ الْقَضَاءِ :

الذُّكُورَةُ : وشَذَّ الطَّبْرِي فَأَجَازَ الْقَضَاءَ لِلْمَرْأَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ قَضَاءَهَا فِيمَا تَصَحَّ فِيهِ شَهَادَتُهَا .

وَالْبُلُوغُ : لِأَنَّ الصَّبِيَّ نَاقِصَ التَّمْيِيزِ مِنْ جِهَةٍ ، وَلَيْسَ لَهُ وَلَايَةٌ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَا يَعْقِلُ أَنْ تَكُونَ لَهُ وَلَايَةٌ عَلَى النَّاسِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ .

وَالْعَقْلُ : فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَلَّى الْقَضَاءُ مَجْنُونٌ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا ، صَحِيحَ التَّمْيِيزِ ، جَيِّدَ الْفِطْنَةِ ، بَعِيدًا عَنِ السَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ ، يَتَوَصَّلُ بِذَكَائِهِ إِلَى إِيقَاعِ مَا أَشْكَلَ ، وَفَصَلَ مَا أَعْضَلَ .

وَالْحُرِّيَّةُ : فَلَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا .

وَالْإِسْلَامُ : لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَلَّى غَيْرَ الْمُسْلِمِ الْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . ١٠

وَسَلَامَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالنُّطْقِ : لِيَسْأَلَ الْخَصْمُ ، وَيَسْتَعِ إِلَى أَقْوَاهُمْ ، وَيَرَى مَا يَصْنَعُونَ بِحَضْرَتِهِ .

وَالْعَدَالَةُ : وَهِيَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا تَعْلَمَ عَنْهُ جَرَحَةٌ ، فَمَعْنَى الْعَدَالَةِ ضِدُّ الْفُسْقِ هُنَا .

وَالْعِلْمُ : صِفَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْقَاضِي ، وَبَعْضُهُمْ اسْتَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا ، فَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَتَحَنَّنُ مِنْ يَرِيدِهِمُ لِلْقَضَاءِ ، فَقَالَ لِرَجُلٍ : مَا تَقُولُ فِي رَجُلَيْنِ زَوْجٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرُ أُمُّهُ فَوُلِدَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ امْرَأَتِهِ وَلَدٌ ، مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَ الْوَلَدَيْنِ ؟ فَلَمْ يَعْرِفْهَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَلَدَيْنِ عُمُّ الْآخَرِ لَأُمِّهِ ^(١٣) . ١٥

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : « لَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا حَتَّى تَكُونَ فِيهِ

(١٣) عيون الأخبار : ٦٥/١

خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يُستعمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرَّع (١٤) ، منصفاً للخصم ، مقتدياً بالأئمة (١٥) .

وينظر القاضي في الأمور التالية :

ينظر القاضي في الدَّعاوى الحقوقية التي يقدمها إليه الأفراد في المنازعات التي تقع بينهم ، والفصل فيها صلحاً ، أو بحكم بات ، والنظر في الدَّعاوى الجزائية ، كدعوى القذف والجرح ، والنظر في الحدود التي تعدُّ من حقوق الله ، ولو لم تقدّم بذلك دعاوى من رجل ما يتخذ لنفسه صفة المنصهي ، وتنفيذ الأحكام واستيفاء الحدود ، والحجر على السفهاء ، وتنصيب الأولياء والأوصياء .. والنظر في الأوقاف ، والوصايا ، وتزويج الأيامي إذا جاءهن من يخطبهن من أكفأهن وأعضلهن أولياؤهن - أي منعهن من الزواج ظلماً - ، وتصفح الشهود ، والتعديل على النِّزهاء منهم ، وإطراح من لا يوثق به .

مجلسُ القاضي وأدابه :

« قبول الهدايا من أقبح ما يرتكبه القضاة ، فَلَنَسُدَّ بابها بالكليّة ، وقد علم أن مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه لا يجوز له أن يقبل الهدية ممّن لم تكن له عادة أن يهاديه قبل ولايته القضاء ، ولا ممّن كانت له عادة مادامت له حكومة ، والمذاهب في المسألة معروفة ، وأنا أعتقد أنه يحرم على القاضي قبول هديّة من يُهدي للقاضي في العرف ليستميل خاطره لقضاء أربه .. » (١٦) .

امرأة من قريش كان بينها وبين رجل خصومة ، فأراد أن يخاصمها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأهدت المرأة إلى عمر فخذ جزور ، ثم خاصمته إليه ، فوجّه

(١٤) الرَّعُ : الطَّمع والحرص الشديد ، الدُّنَاءة والشَّرُّ وميل النَّفس إلى دنيء المطامع ، (اللسان : رع) .

(١٥) عيون الأخبار : ٦٠/١

(١٦) معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٤٨

القضاء عليها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أفصل القضاء بيننا كما يُفصل فخذ الجزور ،
فقضى عليها عمر وقال : إِيَّاكُمْ والهدايا^(١٧) .

واستعمل الحَجَّاجُ المَغِيرَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيَّ عَلَى الكُوفَةِ ، فكان يقضي بين
النَّاسِ ، فأهدى إليه رجل سِرَاجاً من شَبَهٍ^(١٨) ، وبلغ ذلك خصمه ، فبعث إليه ببغلة ،
فلَمَّا اجتمعَا عند المَغِيرَةِ جعل يحمل على صاحب السَّراج ، وجعل صاحب السَّراج يقول :
إِنَّ أَمْرِي أَضْوَأُ مِنَ السَّراج ، فلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ قال : ويحك ، إِنَّ البَغْلَةَ رَمَحَتْ السَّراج
فكسرتَه^(١٩) .

كان القاضي يجلس للقضاء في داره ، أو في المسجد ، أو في السُّوق ، ورَبَّيَا ركب
وتجول في البلد ، فوقف حيث يطلب للقضاء ، وأتُخِذَتْ دار للقضاء في أغلب المدن
الكبرى ، تحتفظ فيها سجلات الدَّعاوى . ١٠

وكانت لهيئة القاضي في جلوسه وكلامه وحركاته وإدارة الجلسات ، وإقامته هيبة
القضاء ، قواعد ورسوم يُعْنَى بها الفقهاء كثيراً : « عليه السَّكينة والوقار ، لا يتضحك
في مجلسه ، ويلزم العبوسية من غير غضب ، ويمنع من رفع الصَّوت عنده .. » ،
وذكروا عن القاضي ابن حَرْبَوَيْهِ^(٢٠) أَنَّهُ كان شديد الوقار ، فاختم عنده رجلان ،
فضحك أحدهم ، فصاح ابن حَرْبَوَيْهِ صيحة ملأت الدَّار ، وقال : لا أضحك الله
سِنَّكَ ، تضحك في مجلس ، الله مطلع عليك فيه ؟ وَيُحْك ! تضحك وقاضيك بين
الجنة والنَّار^(٢١) .

(١٧) عيون الأخبار : ٥٢/١

(١٨) الشَّبه : النُّحاس الأصفر .

(١٩) عيون الأخبار : ٥٢/١

(٢٠) تولى ابن حربويه القضاء سنة ٣٢٩ هـ أيام الخليفة المقتدر ، وكان آخر من ركب إليه الأمراء ، وكان
لا يقوم للأمير إذا حضر ، وكان عزيز النفس ، عدلاً ، لا يفعل أمام الجمهور ما يحطُّ من كرامته .
لا يتقيد بمذهب من المذاهب ، بل يجتهد .

(٢١) عيون الأخبار : ٦٥/١

كره الفقهاء أن يأخذوا أجراً قَبالة قضائهم ، ثُمَّ عَيَّن لَهُم أَجْرٌ قَلِيلٌ ، والقاعدة أن يكون للقاضي رزق يجري عليه من بيت المال ، ليفرغ من هَمِّ المعيشة إلى هَمِّ القضاء ، فعبد الرَّحْمَنِ بْنِ حُجَيْرَةَ الْخَوْلَانِي : [ت ٨٣ هـ = ٧٠٢ م] ، ولأه عبد العزيز بن مروان القضاء وبيت المال في مصر ، فكان رزقه كل سنة ألف دينار^(٢٢) ، وعبد الله بن لَهَيْعَةَ بْنِ فُرْعَانَ الْحَضْرَمِي : [٩٧ - ١٧٤ هـ = ٧١٥ - ٧٩٠ م] ، ولي قضاء مصر^٥ للمنصور العباسي سنة ١٥٤ هـ ، فأجرى عليه ثلاثين ديناراً كل شهر^(٢٣) ، وتآجر بعض القضاة إلى جانب منصبهم ليعيشوا عيشة لائقة محترمة .

كتب يحيى بن حمزة قاضي دمشق زمن الرشيد إلى الأمير إسحاق بن عيسى كتاباً ، بدأه بقوله : « أمّا بعد ، فلا ينبغي لقاضي أن يكون غارماً^(٢٤) ، لأنَّ الغارم يعد فيخلف ، ويقول فيكذب ، ولا ينبغي أن يكون به حاجة إلى أحد فيهنَّ في الحقِّ ،^{١٠} وينعاق^(٢٥) عن مقطعه ، لأنَّ طلب الحاجات فقر ظاهر وهُمٌّ شاغلٌ ، ولا ينبغي أن يعارض هُمُّ الحكم هُمٌّ غيره ، فيزري بصاحبه ، ويشغله عنه » .

وفي مدينة البصرة كان القاضي سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ^(٢٦) ، فلم يرَ النَّاسُ حاكماً قطُّ ، ولا زَمِيئاً ولا زَكِيئاً^(٢٧) ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، ومَلَكَ من حركته مثل الَّذِي ضَبَطَ وَمَلَكَ ، كان يُصَلِّيُ الغداة في منزله ، وهو قريب الدَّارِ من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يَتَكَبَّرُ ، فلا يزالُ منتصباً لا يتحرَّك له عضوٌ ، ولا يلتفت ، ولا يحلُّ حُبُوتَهُ^(٢٨) ، ولا يحولُ رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيقه ، حتَّى كأنَّه

(٢٢) الأعلام : ٣٠٣/٣

(٢٣) الأعلام : ١١٥/٤

(٢٤) الْقَرْمُ : الدَّيْنُ ، ورجلٌ غارمٌ : عليه ديْنٌ ، (اللسان : غرم) .

(٢٥) هكنا وردت في (تاريخ دمشق) لابن عساكر ، ولعلها (يعاق) عن قضائه .

(٢٦) سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَدَامَةَ الْعَنْبَرِيِّ الْبَصْرِيِّ .

(٢٧) الزَّمِيْتُ : العظم الوقار ، والركن : الرزين .

(٢٨) الْحُبُوتَةُ : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

بناءً مبنيٍّ ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك ، حتَّى يقوم إلى العصر ، ثمَّ يرجع
لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتَّى يقوم لصلاة المغرب ، ثمَّ ربَّما عاد إلى محلِّه ، بل كثيراً
ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشُّروط والوثائق ، ثمَّ يُصَلِّي العشاء
الأخيرة وينصرف ، فالحقُّ يقال : لم يَقُمْ في طول تلك المدَّة والولاية مرَّةً واحدة إلى
الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماءً ولا غيره من الشَّراب ، كذلك كان شأنه في
طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرِّك يده ،
ولا يُشير برأسه ، وليس إلَّا أن يتكلَّم ثمَّ يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة ،
فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السَّماطين^(٢٩) بين يديه ، إذ سقط على
أنفه ذبابٌ فأطال المكث ، ثمَّ تحوَّل إلى مُؤقِّ عينه^(٣٠) ، فرام الصَّبْر في سقوطه على
المؤقِّ ، وعلى عضِّه ونفاذ خرطومِه كما رام من الصَّبْر على سقوطه على أنفه من غير أن
يحرِّك أرنبته ، أو يغضَّ^(٣١) وجهه ، أو يذبَّ بإصبعه ، فلمَّا طال ذلك عليه من
الذُّباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التَّغافلَ ، أطبق جفنه الأعلى
على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن وإلى الإطباق والفتح ، فتنحَّى ريثما
سكن جفنه ، ثمَّ عاد إلى مؤقِّه بأشدَّ من مرَّته الأولى ، فغمس خرطومِه في مكان كان قد
أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصَّبْر في الثَّانية أقوى ، فحرَّك^{١٥}
أجفانه وزاد في شدَّة الحركة وفي فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنجَّى عنه
بقدر ما سكنت حركته ثمَّ عاد إلى موضعه ، فما زال يلحُّ عليه حتَّى استفرغ صبره ،
وبلغ مجهوده ، فلم يجد بُدَّاً من أن يذبَّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيون القوم إليه
ترمقه ، وكأنَّهم لا يرونه ، فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده ، وسكنت حركته ثمَّ عاد إلى
موضعه ، ثمَّ ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كُمِّه ، ثمَّ ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ،^{٢٠}

(٢٩) السَّماط (بالكسر) : الضَّف .

(٣٠) المؤقِّ : طرف العين ممَّا يلي الأنف .

(٣١) غضَّ وجهه : جعل به غضوناً ، وذلك بأن يقبض جلده .

وعلم أنَّ فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أنَّ الذُّباب ألحُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ! واستغفر الله ! فما أكثر من أعجبتَه نفسه ، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أنَّي عند النَّاسِ مِنْ أَرَمَتِ النَّاسِ^(٣٢) ، فقد غلبني وفضحني أضعف خَلْقِه ، ثُمَّ تلا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ ۝ وَالْمَطْلُوبِ ۝ ﴾ [الحج : ٧٢/٢٢] .

وكان بين اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة^(٣٣) .

وللقاضي أن يتخذ كاتباً لتسجيل الأحكام وحجج المتداعين ، وخازناً يحفظ الدَّعاوى ، وأعاوناً يرسلهم في إحضار الخصوم ، وحاجباً ينظم أوقات حضور الخصوم ، ١٠ وأحياناً ترجحاً ينقل إليه أقوال الأعاجم .

وقد يولَّى القاضي على بلد بكامله ، وتكون بذلك ولايته عامّة ، وقد تخصَّص ولايته بالنظر في أفضية معيّنة ، أو في ناحية من المدينة فقط ، عندها تقسم المدينة الواحدة محلات ، وفي كلِّ محلة منها قاضي .

١٥ وعرفت حضارتنا العربية الإسلامية (قضاء العسكر)^(٣٤) أيضاً ، وأورد القلقشندي وصيّة لقاضي العسكر ، منها : « وهو الحاكم حيث لا تنفذ إلا أفضية السيوف ، ولا تزدحم الغرماء إلا في مواقف الصفوف .. وأكثر ما يتحاكم إليه في الغنائم التي لم تحلّ لأحد قبل هذه الأمة ، وفي الشركة وما تطلب فيه القسمة ، وفي المبيعات وما يُردُّ منها بعيب ، وفي الديون المؤجلة وما يُحكَّم فيها بغيب ، وكلُّ هذا مما لا يحتمل

(٣٢) أَرَمَتِ النَّاسِ : آي أَشْدَمَ وَقَاراً وَسَكُوناً .

(٣٣) المنالة : مصدر نلت أنال ، وجلس عبد الله بن سؤار هذا في (كتاب الحيوان) : ٢٤٣/٣

(٣٤) « يجعل له - للقاضي - مستقراً معروفاً في العسكر يُقصد فيه إذا نُصبت الخيام ، وموضعاً يمشي فيه

ليقضي فيه وهو سائر ، وأشهر ما كان على يمين الأعلام » ، صبح الأعشى : ٢٠٧/١١

طَوَّلَ الأناةَ في القضاء ، واشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالترُّدُّ إليه بالإمضاء ، فليكن مستحضراً لهذه المسائل لِيَبْتَ الحكم في وقته ، وَيُسَارِع السَّيْف المُصَلَّت في ذلك الموقف بِيَّتِهِ » (٣٥) .

نزاهة القضاء :

« إِنَّ الغرض من القضاء هو إقامة العدل بين النَّاس بنصر المظلوم ، والأخذ على يد الظَّالم ، وإيصال الحقوق إلى أربابها ، والقضاء على المنازعات والخصومات ، والإصلاح بين النَّاس ، ولا يتحقَّق ذلك إلاَّ بنزاهة القضاة ، وتحرُّيهم العدل ، وإعانتهم عليه ، وبعدهم عن الظُّلم ، وإبعادهم عنه ، وإبتعادهم عن كلِّ ما يوجب الشُّبهة والتُّهمة في أحكامهم وإلزامهم بذلك ، وقد وضعت الشَّريعة الإسلاميَّة نُظماً كفيلاً بتحقيق هذه النزاهة على أكمل وجه ، وأوسع نطاق ، جعلت من نظام القضاء في الإسلام مضرب المثل في العدالة والنزاهة والفقهاء ، وكان للإسلام وسيرة الَّذِينَ أوتوا العلم من رجاله أثر في إصلاح القضاء كبير ، فهو يلقِّن القاضي أَنَّهُ مستقل في قضاؤه ، ليس لأحدٍ عليه من سبيل .. قال ابن عبد السَّلام يصف قضاة الإسلام العادلين : ورَبِّا كان بعضهم يحكم على من ولَّاه ، ولا يقبله إن شهد عنده » (٣٦) .

وهذا لا يعني ألاَّ تتدخلَ الدَّولة في القضاء مطلقاً ؛ لقد كانت تتدخلُ في حال بُعْد السُّلطان عن العدل بين رعيَّته ، أو في حال فقه السُّلطان وخطأ القاضي عن حسن نِيَّة (٣٧) . والأصل : ضمنَت الشَّريعة صون القضاء من التدخل فيه ، وهذه أمثلة على ما كان عليه القضاء في الإسلام :

(٣٥) صبح الأعشى : ٢٠٦/١١

(٣٦) نظام القضاء في الإسلام ، من البحوث المقدَّمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الَّذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ ، أشرفت على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنَّشر بالجامعة سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(٣٧) تاريخ اليعقوبي : ٤٦٨/٢

شريح بن الحارث بن قيس الكندي (أبو أمية) ، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام ، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية ، كان ثقة في الحديث ، مأموناً في القضاء ، له باع في الأدب والشعر^(٣٨) ، أقام خمساً وسبعين سنة في القضاء لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين ، امتنع فيها من القضاء في فتنة عبد الله بن الزبير ، واستغفى الحجاج بن يوسف الثقفي من القضاء ، فأعفاه ولم يقض بين اثنين ٥ حتى مات^(٣٩) .

دخل الأشعث بن قيس بن معديكرب ، أمير كندة في الجاهلية والإسلام^(٤٠) ، على شريح في مجلس القضاء ، فقال له شريح : مرحباً ، أهلاً بشيخنا وسيّدنا ، وأجلسه معه ، فبينما هو جالس معه ، إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث ، فقال له شريح : قم فاجلس مجلس الخصم ، وكلّم صاحبك ، قال : بل أكلّمه في مجلسي ، فقال له : ١٠ لتقومنّ ، أو لأمرنّ من يقيمك ، فقام امتثالاً لأمر القضاء^(٤١) .

كتب أبو جعفر المنصور إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة : انظر الأرض التي يخاصم فيها فلان القائد فلان التاجر ، فادفعها إلى فلان القائد ، فكتب إليه سوار : إنّ البيّنة قد قامت عندي أنّها لفلان التاجر ، فلست أخرجها من يديه إلاّ بيّنة ، فكتب إليه المنصور : والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى فلان القائد ، فكتب إليه سوار : ١٥ والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يدي فلان التاجر إلاّ بحق !

فلما جاءه الكتاب ، قال أبو جعفر المنصور : ملأها والله عدلاً ، صار قضاتي يردوني إلى الحق^(٤٢)

(٣٨) أصله من الين ، عَمَّرَ طويلاً ، ومات بالكوفة سنة ٧٨ هـ = ٦٩٧ م ، (الأعلام : ١٦١/٣) .

(٣٩) وفيّات الأعيان : ٤٦٠/٢

(٤٠) وكان من ذوي الرأي والإقدام ، موصوفاً بالهيبة ، توفي سنة ٤٠ هـ = ٦٦١ م ، (الأعلام : ٣٣٢/١) .

(٤١) تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ٢٢ ، محمود محمد عرنوس .

(٤٢) تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر ، المجلد ٣٨ ، ص : ٢٢٧

وَشَكِيَ سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ عِنْدَهُ شَرًّا ، فَاسْتَقْدَمَهُ مِنَ الْبَصْرَةِ ، فَلَمَّا أَنْ قَدِمَ دَخَلَ عَلَيْهِ ، فَعَطَسَ الْمَنْصُورُ ، فَلَمْ يَشْمُتْهُ سَوَّارُ ، فَقَالَ : مَا يَمْنَعُكَ مِنَ التَّشْمِيتِ ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ ، فَقَالَ : قَدْ حَمِدْتُ فِي نَفْسِي ، قَالَ سَوَّارُ : فَقَدْ شَمُّتُكَ فِي نَفْسِي ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى عَمَلِكَ ، فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَحَابِنِي لَمْ تَحَابِ غَيْرِي ^(٤٣) ! ٥

قَالَ نَوَافُ بْنُ الْمَدِينِيِّ : قَدِمَ عَلَيْنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورُ الْمَدِينَةَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الطَّلْحِيُّ عَلَى قَضَائِهِ ، وَأَنَا كَاتِبُهُ ، فَاسْتَعْدَى الْجَمَّالُونَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَيْءٍ ذَكَرُوهُ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ كِتَابًا بِالْحُضُورِ مَعَهُمْ وَإِنْصَافَهُمْ ، فَقُلْتُ : تَعْفِينِي مِنْ هَذَا ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ خَطِيئَتِي ، فَقَالَ : اكْتُبْ ! فَكُتِبَتْ ، ثُمَّ خَتَمَهُ ، فَقَالَ : لَا يَمُضِي بِهِ - وَاللَّهِ - غَيْرُكَ ، فَضَيْتُ بِهِ إِلَى الرَّبِيعِ ، وَجَعَلْتُ أَعْتَذِرُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا عَلَيْكَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ ، ثُمَّ خَرَجَ الرَّبِيعُ فَقَالَ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ حَضَرَ وَجْهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْأَشْرَافِ ، وَغَيْرِهِمْ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي قَدْ دَعَيْتُ إِلَى مَجْلِسِ الْحُكْمِ ، فَلَا أَعْلَمَنَّ أَحَدًا قَامَ إِلَيَّ إِذَا خَرَجْتُ ، أَوْ تَدَانَى بِالسَّلَامِ ، ثُمَّ خَرَجَ وَالْمُسَيَّبُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالرَّبِيعُ ، وَأَنَا خَلْفُهُ ، وَهُوَ فِي إِزَارٍ وَرْدَاءٍ ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّاسِ ، فَمَا قَامَ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى بَدَأَ بِالْقَبْرِ ، فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الرَّبِيعِ ، فَقَالَ : يَا رَبِيعُ ، وَيْحَكَ ! أَخَشَى أَنْ رَأَى ابْنَ عِمْرَانَ أَنْ يَدْخُلَ قَلْبَهُ لِي هَيْبَةً ، فَيَتَحَوَّلَ عَنْ مَجْلِسِهِ ، وَبِاللَّهِ لَنْ فَعَلَ لَا وَلِيَّ وَلَا يَةَ أَبَدًا ! ١٠

فَلَمَّا رَأَاهُ ، وَكَانَ مَتَكِّنًا ، أَطْلَقَ رِدَاءَهُ عَنْ عَاتِقِهِ ثُمَّ احْتَبَى بِهِ ، وَدَعَا بِالْخُصُومِ وَالْجَمَّالِينَ ، ثُمَّ دَعَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ ادَّعَى عَلَيْهِ الْقَوْمَ ، فَقَضَى لَهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الدَّارَ قَالَ لِلرَّبِيعِ : اذْهَبْ ، فَإِذَا قَامَ وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْخُصُومِ فَادْعِهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا دَعَا بِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ جَمِيعًا ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ٢٠

سَلَّمَ ، فقال : جزاك الله عن دينك ، وعن نبيِّك ، وعن حَسَبِكَ ، وعن خليفتك أحسن الجزاء ، قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار ، فاقبضها ، وكانت عامَّة أموال محمد بن عمران من تلك الصَّلَّة^(٤٤) .

ويروي أبو يوسف - وهو من أفاذا القضاء - عن نفسه ، أنَّه جاءه رجل يدَّعي أنَّ له بستاناً في يد الخليفة ، فأحضر الخليفة إلى مجلس القضاء ، وطلب من المدَّعي البيِّنة ، فقال : غصبه المهدي^(٤٥) مِنِّي ولا بيِّنة لديّ ، وليحلف الخليفة ، فقال أمير المؤمنين : البستان لي اشتراه لي المهدي ، ولم أجِد به عقداً ، فوجَّه القاضي أبو يوسف إلى الخليفة اليين ثلاث مرَّات ، فلمَّا لم يحلف ، قضى بالبستان للرَّجل .

ومن ذلك أن أبا يوسف ردَّ شهادة الوزير الفضل بن الرِّبيع ، فسأله الرِّشيد أعظم ملوك الأرض في عصره في ذلك ، فقال : سمعته يقول : أنا عبد الخليفة ، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد ، وإن كان كاذباً فشهادته مردودة أيضاً لكذبه ، وبالع الخليفة في الجدل ، فقال : وما شأني كشاهد ، أتقبل شهادتي ؟ فقال أبو يوسف : لا ، فيعجب الخليفة ، وسأله عن السَّبب ، فقال : لأنَّك تتكَبَّر على الخلق ، ولا تحضر الجماعة من المسلمين ، وهذا ينافي العدالة الَّتِي هي شرط لقبول الشَّهادة ، فبنى الرِّشيد مسجداً في داره ، وأذن للعامة في الصَّلَاة فيه ، فحضر بذلك صلاة الجماعة .

ويروي البيهقي في الجزء الثَّاني من كتابه (المحاسن والمساوئ) ، ما حدث بين الخليفة المأمون ، وقاضيه يحيى بن أكرم^(٤٦) . قاضي بغداد في زمنه ، وقد وقف رجل من

(٤٤) المهدي والد الرِّشيد ، فالقصة هنا بين الرِّشيد وقاضي القضاء أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة .

(٤٦) يحيى بن أكرم بن محمد بن قطن التَّميمي (أبو محمد) : [١٥٩ - ٢٤٢ هـ = ٧٧٥ - ٨٥٧ م] ، قاضي رفيع القدر ، عالي الشُّهرة من نبلاء الفقهاء ، ولاء المأمون قضاء البصرة سنة ٢٠٢ هـ ، ثمَّ قضاء القضاء ببغداد ، وأضاف إليه تدبير دولته ، فكان وزراء الدَّولة لا يقدمون ولا يؤخرون في شيء إلَّا بعد عرضه عليه ، وغلب على المأمون ، حتَّى لم يتقدَّمه عنده أحد ، (الأعلام : ١٣٨/٨) .

عامّة الشعب بين يدي المأمون ، وهو في مجلس المظالم يتظلم منه ، فترادّ الكلام ساعة فلم يتّفقا ، وقف هذا الرّجل المغمور يحاجج الخليفة على حقّ له عنده ، فلا يصل معه إلى اتّفاق ، فيقول له المأمون الإمام الأعظم : فمن يحكم بيننا ؟ فيقول الرّجل غير هيّاب ولا وِجل : القاضي الذي أقمته لرعيّتك ، وكان يومئذٍ يحيي بن أكثم ، فدعا به المأمون ، فقال له : اقض بيننا ، قال القاضي : في حكم وقضيّة - أي دعوى - قال المأمون : نعم ، قال القاضي : لا أفعل ، فعجب المأمون ، وقال : لماذا ؟ قال القاضي : لأنّ أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضاء ، فإن كانت له دعوى ، فليأت مجلس الحكم ، قال الخليفة : قد جعلت داري مجلساً للقضاء ، قال القاضي : إذا فإنّي أبدأ بالعامّة ليصحّ مجلس القضاء ، وتكون المحاكمة علنيّة ، قال الخليفة : افعل ، ففتح الباب ، وقعد في ناحية من الدّار ، وأذنّ للعامّة ، ونادى المُحضّر ، وأخذت الرّقاع - عرائض الدّعاوى - ودعا الخصوم على ترتيبهم حتّى جاءت النّوبة إلى المتظلم من الخليفة ، فقال له القاضي : ماتقول ؟ قال الرّجل : أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين ، فنادى المحضر : عبد الله المأمون ، فإذا بأمر المؤمنين قد خرج في رداء وقيص وسروال في نعل رقيق ، ومعه غلام يحمل مصلى ، حتّى وقف أمام القاضي يحيي بن أكثم ، ويحيي جالس في مكانه ، فقال للمأمون : اجلس ، فطرح المصلى ليقعد عليها الخليفة ، فنعه القاضي ، حتّى جاء بمصلى مثله ، فبَسِطَ للخصم ، وجلس عليه ، وقضى بينهما^(٤٧) .

وغضب المعتصم على رجل من أهل الجزيرة الفراتيّة ، وأحضر السيّف والنّطع ، فقال له المعتصم : فعلتَ وصنعتَ ، وأمر بضرب عنقه ، فقال له أحمد بن أبي دُواد^(٤٨) :

(٤٧) نظام القضاء في الإسلام ، عن : (القضاء في الإسلام) تاريخه ونظامه ، ص : ٨١ - ٨٢ ، د . إبراهيم نجيب محمد عوض .

(٤٨) أحمد بن أبي دُواد بن جرير بن مالك الإيبادي (أبو عبد الله) : [١٦٠ - ٢٤٠ هـ = ٧٧٧ - ٨٥٤ م] ، أحد القضاة المشهورين من المعتزلة ، قال أبو العيّن : ما رأيت رئيساً قطّ أفصح ولا أنطق من ابن أبي دُواد ، وهو أوّل من افتتح الكلام مع الخلفاء ، اتّصل أولاً بالمأمون ، فلما قرب موته أوصى به أخاه المعتصم ، فجعله قاضي قضاته ، وجعل يستشيره في أمور الدّولة كلّها ، (الأعلام : ١٢٤/١) .

يا أمير المؤمنين ، سَبَقَ السَّيْفَ الْعَدْلَ ، فَنَأَى فِي أَمْرِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ ، قَالَ : فَسَكَنَ قَلِيلًا ،
 قَالَ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ : وَغَرَنِي الْبُولُ ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى حَبْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ قُتِلْتُ قَتَلَ
 الرَّجُلُ ، فَجَعَلْتُ ثِيَابِي تَحْتِي وَبُلْتُ فِيهَا حَتَّى خَلَصْتُ الرَّجُلَ ، قَالَ : فَلَمَّا قُتِلَ نَظَرَ
 الْمُعْتَصِمُ إِلَى ثِيَابِي رَطْبَةً ، فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ كَانَ تَحْتِكَ مَاءٌ ؟ فَقُلْتُ : لَا
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، فَضَحَكَ الْمُعْتَصِمُ وَدَعَا لِي ، وَقَالَ : أَحْسَنْتَ ٥
 بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَأَمْرُهُ لَهُ بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ^(٤٩) .

لَمَّا اشْتَدَّ الصَّرَاعُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْبَيْتِ الْأَيُّوبِيِّ بَعْدَ وَفَاةِ الْكَامِلِ ، عَمِدَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ
 سُلْطَانُ دِمَشْقَ إِلَى مَحَالِفَةِ الصَّلَيبِيِّينَ ، وَسَلَّمَ بَعْضَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُقَابِلَ أَنْ يَقِفُوا مَعَهُ
 ضِدَّ الصَّالِحِ أَيُّوبَ سُلْطَانَ مِصْرَ ، وَسَمَحَ سُلْطَانُ دِمَشْقَ لِلصَّلَيبِيِّينَ بِدُخُولِهَا وَشِرَاءِ
 السِّلَاحِ مِنْهَا ، فَنَارَ الرَّأْيَ الْعَامَ الْإِسْلَامِي ضِدَّهُ ، فَأَفْتَى الشَّيْخُ عَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ ١٠
 بِتَحْرِيمِ بَيْعِ السِّلَاحِ ، وَبَجَلْعِ السُّلْطَانِ ، وَخَطَبَ فِي الْمَسْجِدِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقَ ، وَدَعَا إِلَى
 الْجِهَادِ ، وَحَرَّمَ ذِكْرَ اسْمِ السُّلْطَانِ فِي الْخُطْبَةِ ، فَاعْتَقَلَهُ السُّلْطَانُ ، وَحَدَّدَ إِقَامَتَهُ ، فَتَرَكَ
 دِمَشْقَ قَاصِدًا مِصْرَ ، وَفِي الطَّرِيقِ وَافَاهُ أَمِيرُ مِنَ السُّلْطَانِ لِيَسْتَرْضِيَهُ ، وَوَعَدَهُ بِرَدِّ جَمِيعِ
 مَا كَانَ لَهُ مِنْ سُلْطَةٍ ، وَقَالَ : بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، بِشَرَطِ أَنْ يَخْضَعَ لِلْسُّلْطَانِ ، وَيَقْبَلَ
 يَدَهُ ، فَرَدَّ الشَّيْخُ عَلَى الْأَمِيرِ : وَاللَّهِ يَا مَسْكِينَ مَا أَرْضَاهُ أَنْ يَقْبَلَ يَدِي ، فَضَلَّ عَنْ أَنْ ١٥
 أَقْبَلَ يَدَهُ .. يَا قَوْمَ أَنْتُمْ فِي وَادٍ وَأَنَا فِي وَادٍ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكُمْ بِهِ ^(٥٠) .

وَفِي مِصْرَ وَلِيَ عَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ مَنَصِبَ قَاضِي الْقَضَاةِ ، فَنَظَرَ فِي وَاقِعِ أُمَرَاءِ
 الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَالِيكَ الَّذِينَ اشْتَرَاهُمُ السُّلَاطِينُ بِأَمْوَالِ بَيْتِ الْمَالِ ، وَانْخَرَطُوا فِي سَلَكِ
 الْجُنْدِيَّةِ ، وَبَلَّغُوا رَتْبَةَ الْإِمَارَةِ ، فَكَانَ يَقْضِي بِيْطْلَانَ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَعُقُودَهُمْ مِنْ بَيْعٍ إِلَى
 شِرَاءٍ إِلَى رَهْنٍ ، لَمَّا ثَبَتَ لَدَيْهِ مِنْ بَقَاءِ الرِّقِّ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَلَمَّا نَوَقَشَ فِي ذَلِكَ أَصْرًا عَلَى ٢٠

(٤٩) وفيات الأعيان : ٨٢/١

(٥٠) نظام القضاء في الإسلام ، عن : نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية ، علي علي منصور .

رأيه ، إلا أن ينادى على هؤلاء الأمراء ويبيعون ، ويوضع ثمنهم في بيت المال ، وبذلك ينال كل منهم حرّيته ، ويصبح أهلاً للتعاقد ، فعجبوا لذلك وهُموا بقتله ، واستعدّوا عليه السُّلطان ، فأمره أن يدعهم وشأنهم ، فلم يقبل ابن عبد السَّلام ، واستقال وخرج من مصر ، ووضع أمتعه على حمار ، وأركب أسرته على حمار آخر ، وسار خلفهم ، فهاج الناس في ثورة ، فخاف السُّلطان على ملكه ، وخرج إلى الشَّيخ فلحق به ، واسترضاه وأعادته إلى عمله ، وتمَّ له ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً بعد الآخر ، وغالى في ثمنهم ، ثم كُتب لكلٍّ منهم إسهاداً شرعياً بجرّيته^(٥١) .

١٠ كمال الدّين بن برهان الغزنوي ، قاضي قضاة السُّلطان أبي المجاهد محمد شاه بن غياث الدّين تغلق شاه ملك الهند والسُّند ، جاءه رجل من كبار الهنود يدّعي أنَّ السُّلطان قتل أخاه من غير موجب ، فدعا السُّلطان إلى مجلس القضاء ، ففضى السُّلطان على قدميه ، ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي فسَلَّم وجلس ، وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنّه إذا جاءه إلى مجلسه ، فلا يقوم له ولا يتحرّك ، فصعد إلى المجلس ، ووقف بين يدي القاضي ، فحكم عليه أن يرضي خصمه عن دم أخيه ، فأرضاه^(٥٢) .

١٥ وروي عن إياس بن معاوية أنّه قال : ما غلبني قط سوى رجل واحد ، وذلك أنّي كنت في مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل عليّ رجلٌ ، وشهد عندي أنّ البستان الفلاني ، وذكر حدوده ، هو ملك فلان ، فقلت له : كم عدد شجره ؟ فسكت ، ثمّ قال : منذ متى تحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس ؟ فقلت : منذ كذا ، قال : فكم عدد خشب سقفه ؟ فقلت له : ألحقّ معك ، وأجزت شهادته .

٢٠ وبنى أحد وجهاء البصرة داراً ، وكان في جواره بيت لامرأة عجوز يساوي عشرين ديناراً ، واحتاج صاحب الدّار لبيت العجوز ، كي يوسع داره ، فبذل فيه مئتي دينار ،

(٥١) المرجع السابق ، ص : ٣٧٥-٣٧٦

(٥٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٥٥

فرفضت ، فقبل لها : إِنَّ القاضي يحجر عليك بسفهلك حيث ضيّعت مئتي دينار لما يساوي عشرين ديناراً ، فقالت : لماذا لا يحجر على من يشتري بمئتين ما يساوي عشرين ديناراً ، فأفحمت القاضي ومن معه ، وظلّ البيت في يدها حتّى ماتت .

وفي الأندلس : يحيى بن يحيى الليثي ، أسّس لقضاة الأندلس أسساً متينة ، فقد وضع نظام القضاة ، وسَمّى قاضي القضاة ، وقاضي الجماعة ، ورَتَّب مجلساً للشورى وسَمّى أعضائه ، فكان إذا تُرجم لشخص منهم كان من شرفه أنّه من رجال الشورى ، ينظر هذا المجلس في الفتيا ، وفي المشاكل الفقهية ، ويبيدي فيها رأيه ، وكان عددهم في بعض الأحيان ستّة عشر .

لقد كان يحيى بن يحيى الليثي كأبي يوسف في المشرق ، ومما يدلّ على جلالته وجاهه ، أن الأمير عبد الرحمن الناصر^(٥٣) اتّصل بجارية يحبّها في شهر رمضان ، ثمّ ندم ١٠ على ما فعل ندماً كبيراً ، فسأل يحيى عن الكفّارة ، فقال له : تصوم شهرين متتابعين ، فلما خرج قيل له : لِمَ لم تُفَتِّ بمذهب مالك (وهو مالكي) في التّخيير بين الصّوم وعق رقبة ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب لسهّل عليه أن يتّصل كل يوم بجواريه ، ثمّ يعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمرين لئلا يعود .

وأبو إبراهيم التّميمي القرطبي ، تخلّف عن الحضور في وليمة دعاه إليها عبد الرحمن الناصر ، وكان صديقاً لابنه الحكم ، فلما سئل في ذلك ردّ فقال : إنّ من قبلك من الأمراء والخلفاء ، كانوا يستبقون من هذه الطّبقة بقيّة لا يمتنعونها بما يشينها ويرد منها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزيّنون بها عند رعاياهم ، ولهذا تخلّفت^(٥٤) .

(٥٣) عبد الرحمن الناصر الأموي (٢٧٧ - ٣٥٠ هـ = ٨٩٠ - ٩٦١ م) ، أوّل من تلقّب بالخلافة في الأندلس ، ولد وتوفّي بقرطبة ، وكان عاقلاً ذاهية مصلحاً طموحاً ، حكم خسين سنة ، وكان يكتب في دقّة أيام السّور الأتي كانت تصفو له من غير تكدير فلم تتجاوز أربعة عشر يوماً ، (الأعلام : ٣٢٤/٣) .
(٥٤) ظهر الإسلام : ٦٧/٣ . وما يجدر ذكره أن العرب المسلمين في الأندلس تركوا للنصارى القضاء الخاص فيما بينهم ، وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي على غرار ما كان للنصارى .

وفي إفريقية الغربية ، في مدينة تُمبُكت ، المدينة التجاريَّة الدوليَّة ، وجد إلى جانب القاضي الذي يحكم بالشريعة الإسلاميَّة ، قاض مساعد ، يفصل في قضايا الأجانب .

وكان بيت القاضي في (غاؤ) محرَّماً (له حصانته) للمسجد ، يلتجئ إليه زعماء المعارضة ، خوفاً من السُّلطان ، وكان القاضي يجيرهم ، وجرت العادة ألا يقبل الفقيه في (غاؤ) هذا المنصب ، إلا بعد رفض متواصل ، وإلحاح مستمر من الملك ، وقد أشار ابن بطوطة إلى الاستقرار والأمن والعدل في الأحكام في مملكة مالي الإسلاميَّة ، ونوّه بقيمة القاضي العظيمة^(٥٥) :

جاء في (رحلة ابن بطوطة) ص ٦٧٢ : « فن أفعالهم الحسنة قلَّة الظلم ، فهم أبعد النَّاس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب » . وأورد ابن بطوطة تحت عنوان (حكاية عن عدل السُّلطان) ، هي : « وحضرتُ الجمعة يوماً ، فقام أحد التُّجَّار من طلبية مسوفة ، ويسمى بأبي حفص ، فقال : يا أهل المسجد ، أشهدكم أنَّ منسي سليمان^(٥٦) في دعوتي إلى رسول الله ﷺ ، فلما قال ذلك ، خرج إليه جماعة الرجال من مقصورة السُّلطان ، فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئاً ؟ فقال : منشاجو ايوالاثن يعني مشرفها^(٥٧) ، أخذ مني ما قيمته ستائنة مثقال ، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصَّة ، فبعث السُّلطان إليه للحين ، فحضر بعد أيام وصرفها للقاضي ، فثبت للتاجر حقُّه ، فأخذه ، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله »^(٥٨) .

(٥٥) إفريقية الغربيَّة في ظلِّ الإسلام ، ص : ١١٦

(٥٦) منسي « ومعناه السُّلطان » ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٥ ، والنصُّ هذا ورد حرفياً .

(٥٧) منشاجو : المشرف ، ايوالاثن : اسم مدينة « على بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة ، وهي أوَّل

عمالة السُّودان » ، ابن بطوطة ، ص : ٦٦٠

(٥٨) رحلة ابن بطوطة ، ص : ٦٧٢

تلك بعض أمثلة لما كان عليه قضاء الإسلام في عصوره الزاهرة ، وغيرها كثيراً
لا يتسع المجال لذكره ، فنصب القضاة منصب خطير ، كان يُنظر إليه على أنه
مسؤولية كبيرة ، وعبء ثقيل ، تحاشاه كثير من الفقهاء والعلماء ، قال ابن سيرين :
كنّا عند أبي عبيدة بن أبي حذيفة في قبة له ، وبين يديه كُتُون له فيه نار ، فجاء
رجل فجلس معه على فراشه ، فسأره بشيء لاندري ما هو ، فقال أبو عبيدة : ضَع لي
أصبعك في هذه النار ، فقال له الرَّجل : سبحان الله ! أتأمرني أن أضع لك أصبعي في
هذه النار ! فقال له أبو عبيدة : أتبخل عليّ بأصبع من أصابعك في نار الدنيا ، وتَسألني
أن أضع لك جسدي كلّ في نار جهنّم ، قال : فظننّا أنّه دعاه إلى القضاء ^(٥٩) .

قُضِيَّةُ خَالِدَةَ فِي الْقَضَاءِ الْإِسْلَامِيِّ :

فتح المسلمون مدينة سمرقند التي اشتهرت في الإسلام بعد ذلك بأنّها من مواطن
الثّقافة والحضارة الإسلاميّة ، فتحها سعيد بن عثمان بن عفّان عندما ولّاه معاوية بن
أبي سفيان على خراسان سنة ٥٦ هـ ، ثمّ فتحها عنوة بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي ،
سنة ٩٣ هـ في عهد الوليد بن عبد الملك ، وهناك روايتان في سبب غزو قتيبة لها .

الرّواية الأولى تقول : إنّ أهل سمرقند غدروا بالمسلمين وأجلّوهم عنها ، فردّ قتيبة
على صنيعهم هذا بالتّوجّه إليهم بجيش كبير فتح به بلدهم ، وترك بها حامية كبيرة ،
حتّى لا يعاودوا الغدر بالمسلمين .

والرّواية الثّانية تقول : إنّ سعيد بن عثمان فتحها صلحاً عن مالٍ يؤدّونه ، قباله
حمايتهم ، فلمّا مات وتولّى بعده قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة الجيوش الفاتحة لأرض
خراسان ، استقلّ هذا المال الذي يدفعونه ، وفتح بلادهم عنوة دون أن يخطرهم بنقض
العهد السّابق ، وإيذائهم بالحرب .

(٥٩) عيون الأخبار : ٦٥/١

هاتان الروايتان رواهما أبو عبيدة معمر بن المثنى ، المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، ولم يرجح واحدة منها على الأخرى ، إلا أن منطق الحوادث يؤكد رجحان الثانية على الأولى ، ومعنى ذلك أن قتيبة قد فتح سمرقند غدرًا ، وهذا أمر تأباه تعاليم الإسلام في شؤون الحرب والمعاهدات .

٥ قَبِلَ أَهْلُ سَمَرْقَنْدِ الْأَمْرَ عَلَى مَضْضٍ ، وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَنَةَ ٩٩ هـ ، وَبَلَغَ أَهْلُ سَمَرْقَنْدِ عَنْهُ مَا مَلَأَ أَطْرَافَ الدَّوْلَةِ وَجَوَانِبَهَا مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ عَدْلِهِ وَنَصْرَتِهِ لِلْحَقِّ وَوَفَائِهِ ، وَبَغْضِهِ لِلظُّلْمِ ، أَنَابُوا عَنْهُ وَفَدَا يَلْقَى الْخَلِيفَةَ ، يَشْكُو لَهُ مَا كَانَ مِنْ قَتِيْبَةٍ مَعَهُمْ .

١٠ وَلَقِيَ الْخَلِيفَةُ وَفَدَهُمْ ، فَعَرَضُوا الْأَمْرَ عَلَيْهِ ، وَقَالُوا فِيمَا قَالُوهُ : إِنَّ قَتِيْبَةَ غَدَرَ بِنَا ظُلْمًا ، وَأَخَذَ بِلَادَنَا ، وَالْأَمْرَ إِلَيْكَ لَتَرْفَعَنَّا مَا نَزَلَ بِنَا عَلَى يَدَيْهِ ، فَتَنَاولَ الْخَلِيفَةُ قَرطَاسًا وَقَلَمًا ، وَكُتِبَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي سَرْحٍ عَامِلِهِ عَلَى سَمَرْقَنْدٍ كِتَابًا قَالَ فِيهِ : إِنَّ أَهْلَ سَمَرْقَنْدٍ شَكَوْا ظُلْمًا أَصَابَهُمْ وَتَحَامَلًا مِنْ قَتِيْبَةٍ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاجْلِسْ لَهُمْ قَاضِيًا يَقْضِي بِالْحَقِّ فِي هَذِهِ الظُّلَامَةِ .

١٥ وَعَادَ وَفَدَهُمْ بِكِتَابِ الْخَلِيفَةِ إِلَى عَامِلِهِ ، فَأَحَالَ قَضِيَّتَهُمْ إِلَى الْقَاضِي جَمِيعَ بَنِ حَاضِرِ النَّاجِي قَاضِي سَمَرْقَنْدٍ ، فَاسْتَمَعَ إِلَى ظِلَامَتِهِمْ ، وَاسْتَدْعَى شُهُودَهُمْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ اسْتَدْعَى شُهُودًا مِنَ الْجَيْشِ الَّذِي حَضَرَ الْمَوْقِعَةَ مَعَ قَتِيْبَةِ ، فَشَهِدُوا بِالْحَقِّ ، شَهِدُوا أَنَّ قَتِيْبَةَ لَمْ يَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ، بَلْ فَاجَأَهُمْ بِفَتْحِ بِلَادِهِمْ غَنَوَةً .

٢٠ وَعِنْدَمَا وَضَحَ هَذَا أَمَامَ الْقَاضِي ، أَصْدَرَ حُكْمَهُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ صَرِيحًا لَا غَمُوضَ فِيهِ ، قَوِيًّا مُجْلِجَلًا نَاطِقًا بِعَدَالَةِ الْإِسْلَامِ وَسِمَاحَتِهِ ، قَالَ الْقَاضِي : عَلَى الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي فَتَحَ سَمَرْقَنْدَ بِقِيَادَةِ قَتِيْبَةَ أَنْ يَتَأَهَّبَ لِلْخُرُوجِ مِنْهَا فَوْرًا ، وَكَذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْهَا الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ دَخَلُوهَا بَعْدَ الْفَتْحِ ^(٦٠) .

(٦٠) الحادثة في تاريخ الطبري ٥٦٧/٦ ، أحداث سنة ٩٩ هـ ، وانظر : مقال في (العربي) العدد ٨٦ ، كانون الثاني ١٩٦٦ ، ص : ١٧-١٠٩ : (قضية في القضاء الإسلامي خالدة) ، د . أحمد عبد المنعم البهي .

لقد كان لهذا الحكم رجّة في أنحاء سمرقند ، إذ ما كان يتصوّر أحد أنّ تعاليم الإسلام تمضي على هذا النحو ، وتعطي الحقّ للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقرّ فيه .

وأسرع الوالي يخطر الخليفة بالحكم ويطلب مشورته ، فجاء الرّد بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره ، وعندئذٍ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهب للرحيل ، وإلى المسلمين ٥ المدينّين بمغادرة سمرقند .

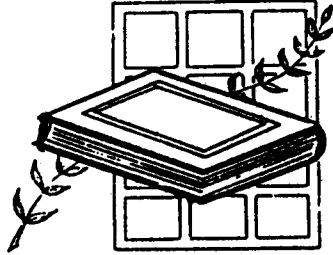
وبينما هذا يجري على قدم وساق ، والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ، ويفكّ مخيماته ، وبينما المسلمون المقيمون بالمدينة يودّعون أهل سمرقند ، ويحزمون أمتعتهم ، ويعلنون بيع أملاكهم فيها ، وإذا بمفاجأة تجدّ لم تكن في الحسبان ، فقد جاء وفد يمثّل أهل سمرقند إلى الوالي ، وأبلغوه أنّهم تشاوروا فيما بينهم ، بعد هذا الحكم ، الذي ما دار ١٠ بخلدهم لحظة واحدة أنّ تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله ، وأنّهم ما كانوا يتوقعون أنّ هناك قاضياً يجروّ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلء عن بلد فتحه ، وأنّهم ما كانوا يتصوّرون أنّ القاضي سيهمل في القضية عصبيّته لقومه ، ولا يعيرها اعتباراً ولا وزناً ، وأنّهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر مع انصياع الجميع له ، دون أن يكون هناك اعتبار لما يترتب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم . ١٥

أمام هذا ، وأمام حسن المعاملة التي وجدوها من إخوانهم المسلمين المقيمين بالبلد حال إقامتهم بها ، لا يسعهم إلّا أن يعلنوا عن تنازلهم عن حقّهم ، والمطالبة ببقاء الحال على ما هي عليه ، لأنّهم لن يخشوا بعد اليوم ضرّاً ينالهم ، وإزاء هذه الرّغبة الصادقة من أهل سمرقند ، أمّر الجيش بالبقاء ، وأمر المسلمون بعدم الخروج ، وكانت فرحة مزدوجة ٢٠ من الجانبين .

وكانت هذه القضية سبباً في إسلام كثير من أهل سمرقند ، وانضوائهم تحت راية الإسلام ، والإخلاص لتعاليمه ، والعمل على نشرها ، والاستمساك بما أمرت به ،

والاعتصام بجبل الله المتين ، حتّى غدت سمرقند بعد مركزاً من المراكز الإسلامية المرموقة ، يأتيها الدّاني والقاصي للتزوّد بزاد المعرفة من علمائها .

هذه قضية خالدة في تاريخ الإسلام وقضائه بلا جدال ، ونوع فريد من قضايا العالم بلا خلاف ، وإنّها لصفحة مجيدة يفخر بها كلّ مسلم في كلّ جيل ، وفي كلّ عصر .



وَلَايَةُ الْمَظَالِمِ

(مجلس الدولة)

أبو جعفر المنصور لابنه المهدي :
« يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ الْخَلِيفَةَ
لا يَصْلَحُهُ إِلَّا التَّقْوَى ، وَالسُّلْطَانُ
لا يَصْلَحُهُ إِلَّا الطَّاعَةُ ، وَالرَّعِيَّةُ
لا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْعَدْلُ ، وَأَوَّلَى النَّاسِ
بِالْعَدْلِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ ، وَأَنْقَصَ
النَّاسُ عَقْلاً مَنْ ظَلَمَ مَنْ هُوَ دُونَهُ . »

١٠ [تاريخ مدينة دمشق : ٢١٦/٣٨]

الْمَظَالِمُ : جمع ظُلَامَةٍ وَمَظْلَمَةٍ^(١) ، وتقسم إلى قسمين اثنين :

ظلم الولاية والجباة والموظفين .
وظلم الأفراد للرعيّة .

يقول القلقشندي : « ولاية المظالم ، موضوعها قَوْدُ المتظالمين إلى التَّنَاصُفِ
بالرَّهْبَةِ ، وزجر المتنازعين عن التَّجَاهِدِ بالهَيْبَةِ » ، وهي من أعلى الوظائف وأرفعها^{١٥}
رتبة ، لا يتولاها إلا ذوو الأقدار الجليلة ، والأخطار الحفيلة^(٢) .

فولاية المظالم ، (أو صاحب المظالم) : منصب للنظر في أعمال الولاية والحكّام ،
ورجال الدولة ، والمتنفذين خاصة ، والرعيّة عامّة ، وكان رسول الله ﷺ أول من نظر

(١) في اللسان « مادة ظلم » : والظُلَامَةُ والظُّلْمَةُ والمظْلَمَةُ : ما تطلبه عند الظّام ، وهو اسم مأخوذ منك ،
والظُّلَامَةُ اسم مظلمتك التي تطلبها عند الظّام .

(٢) صبح الأعشى : ٢٧٢/٣ . والأحكام السلطانية (الفراء) ، ص : ٧٣

في المظالم ، عندما أرسل علياً لدفع دية القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد خطأ من قبيلة بني جذيمة^(٣) .

وأفرد عبد الملك بن مروان يوماً للظلمات يتصفح فيه قصص المتظلمين من جور الولاة ، وظلم العتاة^(٤) ، وجلس المهدي والهادي والرّشيد والمأمون .. للنظر في المظالم ، حتّى عادت الأملاك إلى مستحقّيها .

مجلس صاحب المظالم :

يستكمل صاحب المظالم مجلسه بحضور خمسة أصناف ، لا يستغني عنهم ، لا ينتظم نظره إلاّ بهم ، أحدهم الحماة والأعوان لجذب القوي ، وتقويم الجريء ، والصّنف الثّاني : القضاة والحكّام لاستِعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ، ومعرفة ما يجري في مجالسهم بين الخصوم ، والصّنف الثّالث : الفقهاء ، ليرجع إليهم فيما أشكل ، ويسألهم عمّا اشتبه وأعضل ، والصّنف الرّابع : الكتّاب ، لتدوين ما جرى بين الخصوم ، وما توجّب لهم أو عليهم من الحقوق ، والصّنف الخامس : الشّهود ليشهدهم على ما أوجبهم من حقّ ، وأمضاه من الحكم ، فإذا استكمل مجلس المظالم بمن ذكرنا من الأصناف الخمسة شرع حينئذٍ في نظرها^(٥) .

١٥ شروط الناظر في المظالم :

« أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطّمع ، كثير الورع ، لأنّه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة ، وتثبت القضاة ، فاحتاج إلى الجمع بين صفتي الفريقين .

(٣) ابن سعد : ١٤٧/٢ ، ابن هشام : ٥٣/٤ ، الطّبري : ٦٦/٣ ، البداية والنهاية : ٣١٣/٤ ، الكامل في

التّاريخ : ١٧٢/٢ ، عيون الأثر : ١٨٥/٢

(٤) وفي الأحكام السّلطانيّة ، ص : ٨٧ : « عمر بن عبد العزيز أوّل من ندب نفسه للنّظر في المظالم » .

(٥) الأحكام السّلطانيّة ، ص : ٨٩

فإن كان ممن يملك الأمور العامّة كالخلفاء ، أو من فوّض إليه الخلفاء في الأمور العامّة كالوزراء والأمراء ، لم يحتج أنظر فيها إلى تقليد ، وكان له - لعموم ولايته - النظر فيها ، وإن كان ممن لم يفوّض إليه عموم النظر ، احتاج إلى تقليد وتولية ، إذا اجتمعت فيه الشُّروط المتقدّمة .

وإنّا يصحُّ هذا فين يجوز أن يختار لولاية العهد ، أو لوزارة التفويض ، أو لإمارة الأقاليم ، إذا كان نظره في المظالم عامّاً ، فإن اقتصر به على تنفيذ ما عجز القضاة عن تنفيذه ، جاز أن يكون دون هذه الرتبة في القدر والخطر ، بعد أن لا يستخفه الطمع إلى رشوة «^(٦) .

أقسام المظالم :

والنظر عند الماوردي ، يَشْتَمِل على عشرة أقسام هي : النظر في :
تعديّ الولاة على الرعيّة ، وأخذهم بالعسف في السيّرة .

جور العمال فيما يجبونه من الأموال .

كُتّاب الدّواوين ، لأنّهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفّونه ، فإن عدلوا بحق من دخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان ، أرجعه إلى قوانينه ، وأدّب المذنب منهم .

تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم ، فيرجع إلى ديوانه في فرض العطاء العادل فيجرهم عليه .

ردّ الغصب ، وهي ضربان : غصب سلطانيّة قد تغلب عليها ولاية الجور ، وهي موقوفة على تظلم أربابه ، والضرب الثاني من الغُصوب ما تغلب عليه ذوو الأيدي القويّة ، وتصرفوا فيه تصرف المُلّاك بالقهر والغلبة ، وهذا موقوف على تظلم أصحابه .

(٦) الأحكام السلطانيّة (الفراء) ، ص : ٧٣

مشاركة الوقوف العامة والخاصة ، والعامة يبدأ تصفحها وإن لم يكن فيها متظلم ليجرىها على سبيلها ، وأما الخاصة فإن نظره فيها موقوف على تظلم أهلها عند التنازع فيها .

تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة ، وكل ما عجز عنه القضاة أو غيرهم (كالولاية مثلاً) من إمضائه ، لضعفهم عن إنفاذه ، وعجزهم عن المحكوم عليه لتعززه وقوة يده ، أو لعلو قدره .. فيكون ناظر المظالم أقدر يداً ، وأنفذ أمراً .

النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة في المصالح العامة ، كالمجاهرة بنكر ضعف عن دفعه ، والتعدي في طريق عجز عن منعه ، والتخفيف فيما يقدر على رده .

مراعاة العبادات الظاهرة ، كالجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها ، أو إخلال بشروطها . ١٠

والنظر في المتشاجرين ، والحكم بين المتنازعين ، فلا يخرج في النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه .

الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة :

أورد (الفراء) عشرة أوجه للفرق بين نظر المظالم ، ونظر القضاة^(٧) ، هي :

١ - أن لناظر المظالم من فضل الهيبة ، وقوة اليد ما ليس للقضاة في كف الخصوم عن التجاحد ، ومنع الظلمة عن التغالب والتجاذب . ١٥

٢ - أن نظر المظالم يخرج من ضيق الوجوب إلى سعة الجواز ، فيكون الناظر فيه أفسح مجالاً ، وأوسع مقالاً .

٣ - أنه يستعمل في فصل الشدة ، وكشف الأسباب بالأمارات الدالة ، وشواهد

(٧) الأحكام السلطانية (الفراء) ، ص : ٧٩

الأحوال الالائمة ، ما يضيق على الحكام ، فيصل به إلى ظهور الحق ، ومعرفة المبطل من الحق .

٤ - أن يقابل من ظهر ظلمه بالتأديب ، ويأخذ من بان عداوته بالتقويم والتهديب .

٥ - أن له رد الخصوم عند اشتباه أمورهم ، ليعن في الكشف عن أسبابهم وأحوالهم ، ما ليس للحكام إذا سألهم أحد الخصمين فصل الحكم ، فلا يسوغ أن يؤخره الحاكم ، ويسوغ أن يؤخره والي المظالم .

٦ - أن له رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء ، ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ ، وليس للقاضي ذلك إلا عن رضی الخصمين بالرد .

٧ - أنه يفسح في ملازمة الخصمين إذا وضحت أمارات التجاحد ، ويأذن في إلزام الكفالة فيما يسوغ فيه التكفيل ، لينقاد الخصوم إلى التناصف ، ويعدلوا عن التجاحد والتكاذب .

٨ - أنه يسمع من شهادات المستورين ، ما يخرج عن عرف القضاة في شهادة المعدلين .

٩ - أنه يجوز له إخلاف الشهود عند ارتياحه بهم إذا بذلوا أيمانهم طوعاً ، ويستكثر من عددهم ، ليزول عنه الشك ، وينتفي عنه الارتياب ، وليس كذلك الحكام .

١٠ - أنه يجوز أن يبتدئ باستدعاء الشهود ، ويسألهم عما عندهم في تنازع الخصوم .

وعادة الحكام والقضاة : تكليف المدعي إحضار بيّنة ، ولا يسمعونها إلا بعد مسألته .

صَوْرٌ مِنْ مَجَالِسِ الْمَظَالِمِ :

جلس أبو جعفر المنصور بإرمنية - وهو أميرها لأخيه أبي العباس - للمظالم ، فدخل عليه رجل ، فقال : إِنَّ لي مظلمة ، وإني أسألك أن تسمع مني مثلاً أضربه قبل أن أذكر مظمتي ، قال : قل ، قال : إني وَجِلْتُ^(٨) لله تبارك وتعالى ، خَلَقَ الْخَلْقَ على طبقات ، فالصَّبِي إذا خرج إلى الدُّنْيَا لا يعرف إلا أُمَّهُ ، ولا يطلب غيرها ، فإذا فرغ من شيء لجأ إليها ، ثم يرتفع عن ذلك طبقةً ، فيعرف أن أباه أعز من أُمِّه ، فإن أفرعه شيء لجأ إلى أبيه ، ثم يبلغ ويستحكم ، فإن أفرعه شيء لجأ إلى سلطانهِ ، فإن ظلمه ظالم انتصر به ، فإذا ظلمه السُّلْطَان لجأ إلى رَبِّهِ ، واستنصره ، وقد كنت في هذه الطبقات ، وقد ظلمني ابن نَهَيْك^(٩) في ضيعة لي في ولايته ، فإن نصرني عليه ، وأخذت بمظمتي ، وإلا استنصرت إلى الله عز وجل ، ولجأت إليه ، فانظر لنفسك ، أيُّها الأمير ، أودع !

فتضاءل أبو جعفر ، وقال : أعد عليّ الكلام ، فأعاده ، فقال : أمّا أول شيء فقد عزلت ابن نهيك عن ناحيته ، وأمر بردّ ضيعته^(١٠) .

وكان المأمون يجلس للمظالم في يوم الأحد من كل أسبوع ، فنهض ذات يوم من مجلس نظره في المظالم ، فلقيته امرأة في ثياب رَثَّةٍ ، فقالت (من البسيط) :

يَا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يَهْدِي لَه الرِّشْدُ وَيَا إِمَاماً بِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْبَلَدُ
تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ الْمُلْكِ أَرْمَلَةً عَدَا عَلَيْهَا ، فَمَا تَقْوَى بِهِ أَسَدُ
فَابْتَزَّ مِنْهَا ضِياعاً بَعْدَ مَنَعَتِهَا لَمَّا تَفَرَّقَ عَنْهَا الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ

(٨) الْوَجَل : الفزع والخوف ، يريد بقوله هذا أنه يخاف من قوّة الله تعالى وجبروته وقدرته وحكمته في تصريف أمور عباده .

(٩) عثان بن نَهَيْك ، كان على حرس أبي جعفر المنصور ، (الطُّبْرِي : ٤٨٨/٧ - ٤٩١) .

(١٠) تاريخ مدينة دمشق : ٢٣١/٣٨ (مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق) ، سنة ١٩٨٧ م .

فأطرق المأمون سيراً ، ثم رفع رأسه ، وقال (من البسيط) :

مِنْ دُونِ مَا قُلْتِ عَيْلَ الصَّبْرِ وَالْجَلْدِ وَأَقْرَحَ الْقَلْبَ هَذَا الْحَزْنَ وَالْكَمَدَ
هَذَا أَوْ أَنَّ صَلَاةَ الظُّهْرِ فَانْصَرِفِي وَأَحْضِرِي الْخَصَمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أُعِدَّ
الْمَجْلِسُ السَّبْتُ إِنْ يَقْضِ الْجُلُوسَ لَنَا أَنْصِفْكِ مِنْهُ ، وَإِلَّا الْمَجْلِسُ الْأَحَدُ

فانصرفت ، وأحضرت يوم الأحد في أول الناس ، فقال لها المأمون : مَنْ خصمك ؟

فقلت : القائم على رأسك ؟ العباس ابن أمير المؤمنين .

فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم^(١١) ، أجلسها معه ، وانظر بينهما .

فأجلسها معه ، ونظر بينهما بحضرة المأمون ، وجعل كلامها يعلو ، فزجرها بعض حُجَّابِهِ ، فقال له المأمون : دعها ، فإن الحق أنطقها ، والباطل أخرسه ، وأمر بردّ ضياعها عليها ، وتمّ النظر بينهما بحضرة المأمون ومشهده ، ولم يباشر القضاء بنفسه لما اقتضته المصلحة العامة ، فالخصم امرأة ربّما خشيت موقف الخليفة من جلالة قدره وهيبته ، وربما حكم لولده ، أو حكم عليه ، والتزم المأمون بتنفيذ الحكم ، ورضخ للحق دون تردّد^(١٢) .

ملك شاه [١٠٧٢ - ١٠٩٢ م] ، أعظم سلاطين السلاجقة ، أسبق وزيره القدير الوفي نظام الملّك^(١٣) على البلاد ، في عهده وعهد أبيه ألب أرسلان ، كثيراً من الرّخاء والبهاء ، فقد ظلّ نظام الملّك ثلاثين سنة ينظّم شؤون البلاد ، ويشرف على أحوالها

(١١) وقيل لوزيره أحمد بن أبي خالد .

(١٢) الأحكام السلطانية ، ص : ٩٤ و ٩٥

(١٣) الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي : [٤٠٨ - ٤٨٥ هـ = ١٠١٨ - ١٠٩٢ م] ، الملّقب بقوام الدّين ، نظام الملّك ، وزير حازم عالي الهمة ، تأدّب بآداب العرب ، وسمع الحديث الكثير ، واشتغل بالأعمال السلطانية ، « وكان من حسنات الدّهر » ، (الأعلام ٢٠٢/٢) .

الإدارية والسياسية والمالية ، ويشجع الصناعة والتجارة ، ويصلح الطرق والجسور والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين ، وأسس مدرسة كبرى في بغداد ذاع صيتها في الآفاق .

كتب نظام الملك وهو في سن الخامسة والسبعين فلسفة في الحكم في كتابه (سياسة نامه) ، أي فن الحكم ، وهو يوصي فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الذين حق الحاكم المقدس وسلطانه ، ولم يخل على ملكه في الوقت ذاته ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، منها : أن يتبين كل ما يرتكب الموظفون من فساد أو ظلم ويعاقبهم عليه ، وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين في كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بالديهم من الشكاوى والمظالم^(١٤) . ١٠

ويذكر الإدريسي موكب ملك غانة ، فيقول : ومن سيرته قربه من الناس ، وعدله فيهم ، وله جملة قواد ، يركبون إلى قصره ، في كل صباح ، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فإذا وصل إلى باب القصر سكت ، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ، ركب معهم وسار يقدمهم ، ويمشي في أزقة المدينة ، ودائر البلد ، فمن كانت له مظلمة ، أو نابه أمر تصدى له ، فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته ، ثم يرجع إلى قصره ، ويتفرق قواده ، فإذا كان بعد العصر ، وسكن حر الشمس ، ركب مرة ثانية ، وخرج حوله أجناده ، فلا يقدر أحد على قربه ، ولا على الوصول إليه ، وركوبه كل يوم مرتين سيرة معلومة ، وهذا مشهور من عدله^(١٥) .

وفي دولة الأشراف السعديين أوجد السلطان أحمد المنصور مجلساً استشارياً سماه (الديوان) ، أو (مجلس الملأ) ، اختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية ، وهو أعلى ٢٠

(١٤) قصة الحضارة : ٣١٥/١٣

(١٥) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ٦٧ و ٦٨

مرجع قانوني للبلاد ، ويتقبل أحكام قضاته ، ولو كانت بحق بعض رجال المجلس ، أو ضد المجلس كله .

عدا محمد الكبير خال السلطان أحمد المنصور على رجل بدرعة^(١٦) في ضيعة له ، فشكاه إلى المنصور ، فقال له : كم تساوي ضيعتك ؟ قال : سبع مئة أوقية ، قال : خذها وقل لحالي : الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطاناً ، ولا أنت خال السلطان ، فرجع صاحب الضيعة ، وأبلغ العامل كلام المنصور ، فأمسك برأسه ساعة ، ثم قال له : الحق بضيعتك ، وغرم له كل ما أكل منها^(١٧) .

وكان (الديوان) يعقد يوم الأربعاء للمشورة ، وسماء يوم الديوان ، تجمع فيه وجوه الدولة ، ويتطرحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور ، وعظيم النوازل ، وهناك يظهر شكايته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السلطان ، قالوا : ومن حزمه أنه كان متطلعاً لأخبار النواحي بحثاً عنها ، غير مترخٍ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ، ولا يبطئ بالجواب ، ويقول : كل شيء يقبل التأخير إلا مجاوبة العمال عن رسائلهم ، وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم إلا في أوقات مخصوصة^(١٨) .

وفي الدولة الممرينية جرت عادة من له ظلامة أن يرتقب السلطان في ركوبه في موكبه يوم جلوسه للمظالم ، فإذا اجتاز به السلطان صاح من بُعِد : « لا إله إلا الله ، انصرني نصرك الله » ، فتؤخذ رقعة (عريضة التظلم) وتدفع لكاتب السر ، فإذا عاد جلس في قبة معينة لجلوسه ، ويجلس معه أكبر أشياخه مقلّدين السيوف ، ويقف من دونهم على بُعد ، مصطفى متكئين على سيوفهم ، ويقرأ كاتب السر رقاع أصحاب المظالم فينظر فيها بما يراه^(١٩) .

(١٦) ذرعة : مدينة صغيرة بالمغرب من جنوب البلاد ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ، ودرعة غربيها ، (معجم البلدان ٤٥١/٢) .

(١٧) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : ١٩٠/٥

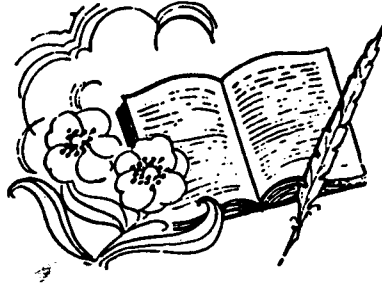
(١٨) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : ١٨٨/٥

(١٩) صبح الأعشى : ٢٠٦/٥

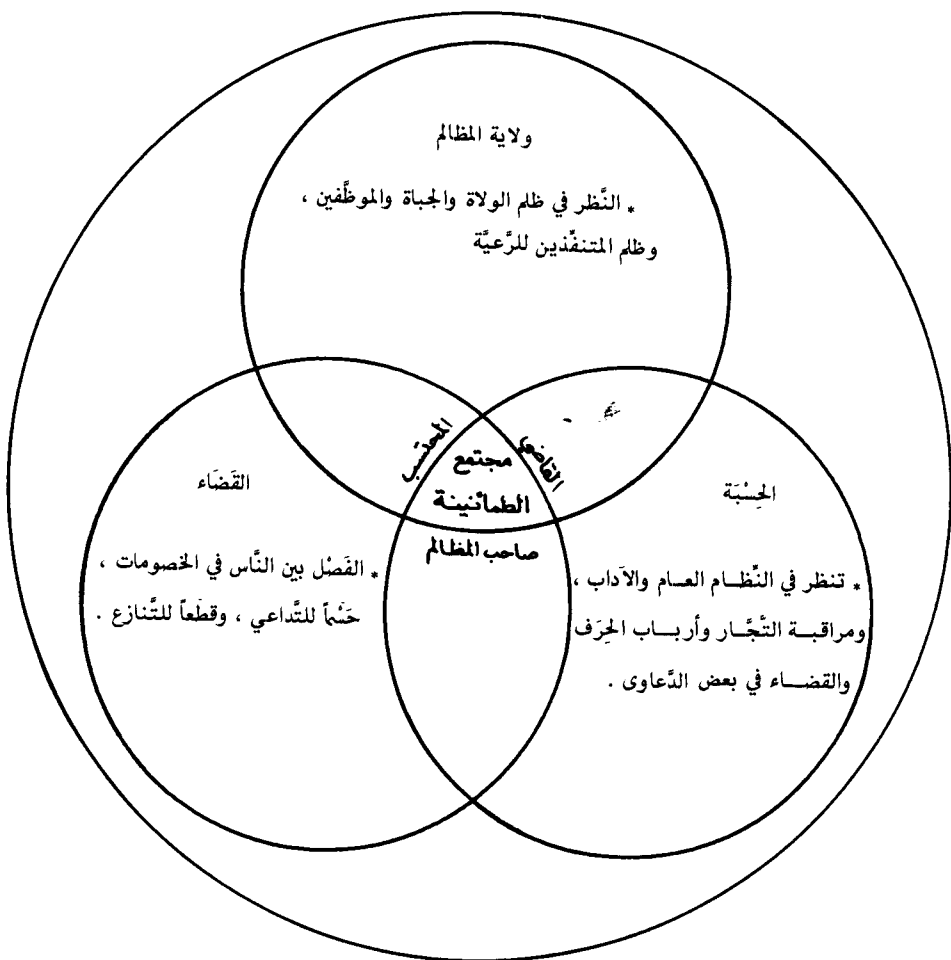
ومأ يذكر .. أن الرّحمة كثيراً ما سادت مجلس صاحب المظالم في حقّ الدّولة ، أتى المنصور العبّاسي برجل يعاقبه على شيء بلغه عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدلٌ ، والتّجاوز فضل ، ونحن نعيّذُ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكسِ النّصيبيّن دون أن يبلغ الدّرجتيّن ، قال : فعفا عنه ^(٢٠) .



٥



(٢٠) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : ٢٢١/٣٨ ، وعيون الأخبار : ٩٨/١



ولاية المظالم + الحسبة + القضاء =

ثلاث مؤسسات ، تعمل ضمن حلقة واحدة ، غايتها تحقيق العدل ، وحفظ الحقوق والأموال والدماء وفق شرع الله ، وبالتالي تحقيق الطمأنينة والعدالة الاجتماعية والمجتمع الفاضل السعيد

الشُّرْطَةُ

* طلب أحد الولاة من الخليفة
عمر بن عبد العزيز مالاً يعينه على
بناء سور حول المدينة عاصمة
الولاية ، فأجاب عمر : وماذا تنفع
الأسوار ؟ حصَّنها بالعدل ، ونَقَّ
طريقها من الظُّلم .

شُرْطِيٌّ وشُرْطِيٌّ ، مشتق من الشَّرْط ، وهي العلامة ، لأنَّهم يجعلون لأنفسهم
علامات يُعرَفُون بها^(١) ، وقيل من الشَّرْط وهو رَدَّال المال ، لأنَّهم يتحدَّثون في أراذل
النَّاس وسفَلتهم ، ممن لا مال له ، من لصوص ونحوهم^(٢) ، وتطلق على الَّذِينَ يحفظون
الأمن ، ويسهرون على النِّظام ، وأوَّل من استعمل الشُّرْطة معاوية بن أبي سفيان ،
وكانت الشُّرْطة في أوَّل نشوئها فرقة من المقاتلة عليها رئيس يُسمَّى (صاحب
الشُّرْطة) ، ويستعين بهم الخليفة ، أو الأمير ، في حفظ النِّظام العام داخل المدن ،
والبَحْث عن أهل الرِّيبة .

ومَّا لاشكَّ فيه ، أنَّ العَسَسَ كان نواة الشُّرْطة ، فقد كان عبد الله بن مسعود أمير
العسس أيام أبي بكر الصِّديق ، وتولَّى عمر بن الخطَّاب العسس بنفسه ، ولمَّا تكاثرت
المفسدون ، وتظاهروا بالمنكر في وضح النَّهار ، جاءت ضرورة ترصُّدهم نهراً أيضاً ،
فأنشئت الشُّرْطة كعسس دائم .

(١) الاشتراط : العلامة الَّتِي يجعلها النَّاس بينهم ، ومنه الشُّرْطة ، لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرَفُون بها ،
والشُّرْطة في السُّلطان : من العلامة والإعداد ، ورجل شُرْطِيٌّ وشُرْطِيٌّ منسوب إلى الشُّرْطة ، سُمِّوا
بذلك لأنَّهم أعدُّوا لذلك وأعلموا أنفسهم بعلامات ، (اللسان : شرط) .

(٢) صبح الأعشى : ٤٥٠/٥

يذكر المقرئزي^(٣) : وعمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، أوّل من أتخذ دار ضيافة في الإسلام ، وذلك سنة ١٧ هـ ، أعدّ فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره ، وجعل بين مكّة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء إلى ماء ، حتّى يوصلهم إلى البلد ، وتطوّر هذا حتّى وصل إلى ما عرّف بشرطة الطّرق ، ففي دولة الأشراف السّعديّين مثلاً ، ولاّتساع رقعة الدّولة ، أُقيمت محطّات عديدة في أرجاء البلاد ، تحت حماية حُرّاس مُقيمين ، لا يبعد بعضها عن بعض إلّا بمسافة عشرين كيلومتراً ، وهذه المحطّات ينزل المسافرون والقوافل المارّة عبر القرى والبوادي ، وتتوفّر في هذه المحطّات المؤون الضّروريّة ؛ ليشترى منها النّازلون ما يحتاجون إليه .

تطوّر الشرطة :

كانت الشرطة في العهد الأموي أداة تنفيذ فقط ، وفي العهد العباسي وفي الأندلس ، تعاظمت اختصاصات الشرطة ، حتّى أُعطي صاحبها حقّ القضاء في الجرائم ، وإقامة الحدود .

إنّ الشرطة كانت تستأثر بالقضاء الجزائي كلّه ، من تهمة وحُكم وتنفيذ ، وتستعمل في التحقيق وإظهار الجرائم أساليب مخصوصة كالحبس والضرب والتعذيب ، ثمّ عادت سيرتها الأولى ، فأصبحت قوّة تنفيذيّة للقضاء والخراج والحسبة .

اختصاصات الشرطة الإداريّة :

تحفظ الشرطة النظام في الطّرق والأماكن العامّة ، وتحفظ الأمن بمراقبة الأشرار واللصوص^(٤) ، وتراقب الملاهي والحانات ، وتنقذ أوامر القضاء والمحاسبين ، وتساعد عمال الخراج ، وتدير السجون بسجل خاص .

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : ٤٦٠/١

(٤) أمسك شرطي برجلين قد أتها بالشرقة ، لا يدري أيّهما البريء ، فأقامها بين يديه ، ثمّ طلب شربة ماء ، فلما أجيب إلى مطلبه جعل يشرب ، ثمّ ألقي الكوب من يده عمداً ، فوقع الكوب وانكسر ، =

وكان صاحب الشرطة في مصر يرفع تقريراً يومياً إلى السلطان ، يكتب فيه
مطالعة جامعة لأحوال البلد .

آداب صاحب الشرطة :

ينبغي أن يكون حكيماً مهيباً ، عميق الفكر ، بعيد الغور ، غليظاً على أهل
الريب ، شديد اليقظة ، يلزم أصحابه باليقظة الدائمة ، وملازمة المحاييس ، وتفتيش
الأطعمة ، وما يدخل السجن ، ويتفقد الدُروب ليلاً ، وعمارة سور المدينة وأبوابها ،
ومعرفة من يدخلها ، ويمنع الدُروب ليلاً ، وعمارة سور المدينة وأبوابها ، ومعرفة من
يدخلها ، ويمنع المظلوم^(٥) من الانتصار لنفسه بيده ، ويأمر العامة ألا يجيروا أحداً ،
ولا ينهبوه إلى الهرب ، بل يدلُّوا على الظالم ، أو المجرم ، أو المسيء .

ومن آداب الشرطة أن يعاقب الخاص والعام عقوبة واحدة ، كما أمرت الشريعة ،
ضمن حدود الله عز وجل .

يقول زياد بن أبيه : ينبغي أن يكون صاحب الشرطة شديد الصولة ، قليل
الغفلة ، وينبغي أن يكون صاحب الحرس مسناً ، عفيفاً ، مأموناً لا يُطعن عليه^(٦) .

وقال الحجاج بن يوسف الثقفي : دلُّوني على رجل للشرط ، فقليل : أيُّ الرجال
تريد ؟ فقال : أريده دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ،
لا يخفق في الحق على جرة ، يهون عليه سبُّ الأشراف^(٧) في الشفاعة ، فقليل له : عليك

= فانزعج أحد الرجلين ، وثبت الآخر ، فقال للمزعج : اذهب أنت لشأنك ، وقال لمن ثبت : أنت
السارق ، فلترد ما أخذت ، فقليل له : من أين علمت ؟ فأجاب : اللص قوي القلب لا ينزعج ، وهذا
المنزعج بريء ، لأنه لو تحركت في البيت فارة لأزعجته ، ومنعته أن يسرق .

(٥) عَرَفَ الظُّلمَ بأنَّه قتل الحقَّ من صاحبه إلى غيره .

(٦) تاريخ يعقوبي : ٢٣٥/٢

(٧) جاء فلان وقد نشر سبَّلتَه ، إذا جاء يتوعد ، والسبلة : ما ظهر من مقدَّم اللحية بعد العارضين ،
والعتنون ما بطن ، والسبلة أيضاً : الشارب ، والجمع السبال ، (اللسان : سبل) .

بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ، فأرسل إليه يستعمله ، فقال له : لست أقبلها إلا أن تكفيني عيالكَ وولدكَ وحاشيتك^(٨) ، قال : يا غلام ، نادِ في الناس : من طلب إليه منهم حاجة ، فقد برئت منه الذمة ، قال الشعبي^(٩) : فوالله ما رأيتُ صاحبَ شرطة قطُّ مثله ، كان لا يحبس إلا في دينٍ ، وكان إذا أتى برجل قد نَقَبَ^(١٠) على قوم وضع مِنْقَبَتَه في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وإذا أتى بنبَّاش حفر له قبراً فدفنه فيه ، وإذا أتى برجل قاتل مجديسة ، أو شهَرَسَ سلاحاً قطع يده ، وإذا أتى برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه^(١١) ، وإذا أتى برجل يشكُّ فيه ، وقد قيل إنه لصٌ ، ولم يكن منه شيء ، ضربه ثلاث مئة سوط ، قال : فكانَ رَبيّاً أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد ، فضمَّ إليه الحجَّاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة^(١٢) .

تقليد الشرطة :

كان الخليفة يقلد صاحب الشرطة عاصمة الدولة ، ورَبَّياً جعل ذلك لوزيره ، أمَّا في الأقاليم ؛ فكان لكلِّ أمير أن يولِّي صاحب الشرطة ، وكانت الشرطة تقسم أحياناً تبعاً للمناطق في المدن الكبرى .

وفي الأندلس ، كانت الشرطة على نوعين :

- ١٥ الشرطة الكبرى على الخاصة ، وهدفها الضرب على أيدي أقارب السُلطان ومواليه وأهل الجاه ، ولصاحب الشرطة الكبرى كرسي بباب دار السُلطان ، وهو مرشَّح للوزارة ، أو الحجابة .

(٨) لذلك قيل : لا تصلح العامة إلاَّ ببعض الحيف على الخاصة .

(٩) الشعبي : عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحيري ، أبو عمرو : [١٩ - ١٠٣ هـ = ٦٤٠ - ٧٢١ م] ، من التابعين ، يضرب للثلث بحفظه ، اتَّصل بعبد الملك بن مروان ، فكان نديمه وسميره ، ورسوله

إلى ملك الروم ، واستقضاء عمر بن عبد العزيز ، (الأعلام : ٢٥١/٣) .

(١٠) النَّقَبُ : الثُّقْبُ في أي شيء كان ، نَقَبَهُ يَنْقُبُهُ نَقْباً ، (اللسان : نقب) .

(١١) الجزء - هنا - من جنس العمل .

(١٢) عيون الأخبار : ١٦/١

والشرطة الصغرى للعامة .

صورة تقليد صاحب الشرطة^(١٣) :

« اعتمد المساواة بين الناس ، ولا تجعل بين الغني والفقير في الحق فرقاً ، اشمأ أهل المدينة بطمأنينة تنم الأختيار^(١٤) ، وتوقظ الأشرار ، وأمنية تساوي فيها بين ظلام الليل ونور النهار .. وأنصف المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ - في الحدود - بالاعتراف أو الشهادة ، ولا تتعدّد حدّها بنقص ولا زيادة ، وكما تقيها بالبينات ، فكذلك تدرؤها بالشبهات .

وفي هذه المدينة من أعيان الدولة ووجوهها ، وكل سامي الأقدار نبهها ، والتجار الذين هم عين الحلال والحرام ، والرعية الذين بهم قوام العيش من يلزمك أن تكون لهم مكرماً ، ولا يالتهم - أي سياستهم - محكماً ، ومن ظلمهم متحرّجاً متأثراً .

وأوعز إلى أصحاب الأرباع^(١٥) باطلاعك على الخفايا ، وإبانة كل مستور من القضايا ، وأن يتيقظوا لسكنات الليل ، وغفلات النهار .. وواصل التطواف في العدد الوافر والسلاح الظاهر في أرجاء المدينة وأطرافها ، وعمّر بسرّك سائر أرجائها وأكنافها » .

وما يذكر أن السجون عرفت منذ أيام الخلفاء الراشدين ، وهي ضرورة في المجتمع ، فالسجن : هو المكان الذي يُمسك فيه المجرم ، وهو العقاب المناسب له ، والرأع للجريمة ، إنه لحفظ حقوق المجتمع ، وصيانة النظام العام والمصالح العامة ، وبما أن وجود الجاني حرّاً دون عقاب يؤثر سلباً في هذه الحقوق ، وهذه المصالح ، ويهدّد

(١٣) كما أورده القلقشندي في صبح الأعشى .

(١٤) وهذا هو الهدف الأسمى في الحضارة الحقّة : الطمأنينة في حياة الإنسان .

(١٥) الربع : المنزل والثار بعينها ، والوطن متى كان وبأي مكان كن ، وجمعه : أرباع ورباع وزبوع وأرباع ، (اللسان : ربع) .

أمن الناس واستقرارهم ، ومن أجل هذا ، كان الهدف من سجن المجرم ، إصلاح شأنه ، وتهذيب نفسه ، مع حماية المجتمع من أن ينفذ إليه الفساد أو الإيذاء .

- فالمقصود من السجون أن تكون (سجون إصلاحية) ، لذلك فرّقوا بين سجون النساء ، وسجون الرجال ، وسجون الأحداث ، حيث إن الاختلاط بين المساجين ، نساء ورجال ، أو رجال وأحداث ، ذريعة للفساد ، وسمح بعض الفقهاء خروج المسجون لتشيع جنازة أقاربه ، وفي صلاة العيدين ، ومعالجته من مرضه في داره ، إذا ابتلي السجين بمرض لا يرجى شفاؤه ، وأصر الإمام علي رضي الله عنه على تعليم الحرف لمن يستطيع التعلّم من السُّجناء ، وذلك لكي يواجه السجين المجتمع بعد خروجه من السّجن ، وهو في وضع يكفل له العيش بكرامة وسعادة ، « وكذلك كان يحال بين السُّجناء وبين الوقوع في أي كبت جنسي ينعكس على سلوكهم ، ويمسكون بؤرة للفساد بعد خروجهم من السّجن ، وأثناء وجودهم فيه ، لذلك كان يسمح لهم بالصلة المشروعة ضمن نطاق يحدّده نظام السّجن » ^(١٦) .

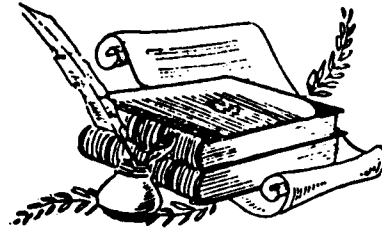
- وتنتهي مدّة السّجن إما بانقضاء مدة العقوبة المقرّرة في الحكم بأكملها ، أو إصدار عفو عام أو خاص عن المساجين ، أو وجود السّجين في حالة صحيّة لا تسمح له بالبقاء في السّجن فيصدر العفو عنه ليقضي بقيّة مدّة محكوميته في بيته ، أو إبراء ذمّة الجاني أمام المحني عليه أو أمام الحق العام .

- حبس أبو لبابة (رفاعه بن المنذر) نفسه أيّام رسول الله ﷺ في المسجد ، وجعل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بيتاً في مكّة ينسب لعبد الله بن سباع بن عبد العزى سجناً أسماه (سجن سباع) ، وفي المدينة المنورة استأجر داراً سمّيت فيما بعد (بسجن عارم) ، وفي أيّام علي رضي الله عنه أسّس سجناً أسماه (نافع) ، وآخر باسم (الخيس) .

(١٦) أحكام السّجون ، ص ١٢٧ ، د . أحمد الوائلي ، ط ٣ ، سنة ١٩٨٣ م .

وأنفقت الدولة على السُّجون من بيت مالها ، حيث إن السُّجون كَفَّ شَرُّ السُّجْنَاءِ
وأذاهم عن النَّاسِ ، فهو من المصالح العامة ، والإنفاق عليها إنما يكون من بيت المال ،
حتى اقترح أبو يوسف - قاضي القضاة أيام الرَّشيد - تزويد المساجين - إناثاً وذكوراً -
بِحُلَّةٍ قطنية صيفاً ، وأخرى صوفية شتاء^(١٧) .

☆ ☆ ☆



(١٧) الحُلَّة : رداء قميص ، وتماها العِمَامَة ، (اللِّسان : حلل) . واقترح أبي يوسف القاضي في (الخراج)

الدَّوَاوِينُ

أصبحت العربيَّة لغة الدَّوَاوِين
كُلُّهَا مِنْذَ أَيَّامِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ
سَنَةَ ٨١ هـ ، « وَينبغي أَنْ يَكُونَ فِي
الكَاتِبِ خَمْسٌ خِلَالٌ : بُغْدُ غُورٍ ،
وَحَسَنُ مَدَارَاةٍ ، وَإِحْكَامٌ لِلْعَمَلِ ، وَالْأَلْفُ
يُؤَخَّرُ عَمَلُ الْيَوْمِ لِفَيْدٍ ، وَالنَّصِيحَةُ
لصَاحِبِهِ » .

[اليَعْقُوبِيُّ : ٢٣٥/٢]

١٠. الدِّيَّوَانُ : كَلِمَةٌ فَارِسيَّةٌ فِي رَأْيِ الْأَصْمَعِيِّ ، وَعَلَيْهِ اقْتَصَرَ الْجَوْهَرِيُّ فِي صَحَاحِهِ ،
فَقَالَ : الدِّيَّوَانُ « فَارِسِيٌّ مَعْرَبٌ » ، وَمَعْنَاهَا سَجَلٌ ، أَوْ دَفْتَرٌ ^(١) ، وَفِي اللَّسَانِ (دُونَ) ،
الدِّيَّوَانُ : مَجْتَمَعُ الصُّفَحِ ، فَارِسِيٌّ مَعْرَبٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « لَا يَجْمَعُهُمْ دِيَّوَانٌ حَافِظٌ » ،
قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : هُوَ الدَّفْتَرُ الَّذِي يُكْتَبُ فِيهِ أَسْمَاءُ الْجَيْشِ ، وَأَهْلُ الْعَطَاءِ .

- وَأُطْلِقَ الدِّيَّوَانُ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُخَفِّظُ فِيهِ الدِّيَّوَانُ ، وَيَجْلِسُ فِيهِ
الْكُتَّابُ ، يَقُولُ الْمَاورِدِيُّ : « وَالدِّيَّوَانُ مَوْضِعٌ لِحِفْظِ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَقُوقِ السُّلْطَانَةِ ، مِنْ
الْأَعْمَالِ وَالْأَمْوَالِ ، وَمَنْ يَقُومُ بِهَا مِنَ الْجِيُوشِ وَالْعَمَالِ » ^(٢) . وَيُضَيَّفُ الْفَرَاءُ : وَالدِّيَّوَانُ
بِالْفَارِسيَّةِ : اسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ ، فَسَمِّيَ الْكُتَّابُ بِأَسْمِهِمْ لخدمَتِهِمْ بِالْأُمُورِ ، وَوَقُوفِهِمْ مِنْهَا

(١) وَقِيلَ عَرَبِيٌّ ، قَالَ النُّحَاسُ : وَالْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنَّ الدِّيَّوَانَ فِي الْأَصْلِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَيُعْمَلُ بِمَا
فِيهِ ، وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : « إِنْ سَأَلْتُمُونِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ ، فَالْتَسَوْهُ فِي الشَّعْرِ ، فَإِنَّ
الشَّعْرَ دِيَّوَانُ الْعَرَبِ » (صَبْحُ الْأَعَشَى : ٩٠/١) ، وَيُقَالُ دَوَّنْتَهُ ، أَيَّ أَثْبَتْتَهُ ، وَإِلَيْهِ يَمِيلُ كَلَامُ
سَيَبَوَيْهِ .

(٢) الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ ، ص : ٢٢٦ ، [إِنْ لَمْ نَوْرِدْ أَمَامَهَا فِي الْحَوَاشِي كَلِمَةَ (الْفَرَاءُ) فَهِيَ (لِلْمَاورِدِيِّ)] .

على الجلي والخفي ، وجمعهم لِمَا شَذَّ وتفرَّق ، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم ، ف قيل ديوان^(٢) .

أخذ الديوان ملاحه منذ أن كتب الرسول ﷺ إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وعندما كتب إلى أصحاب السرايا من أصحابه ، ذكر القضاعي في تاريخه (عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف) أن الزبير بن العوام ، وجهم بن الصلت كانا يكتبان للنبي ﷺ أموال الصدقات ، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خَرس النخل^(٤) ، وأن المغيرة بن شعبة ، والحسين بن غير كانا يكتبان المداينات والمعاملات .

وبذلك تكون هذه الدواوين قد وُضِعَتْ في زمن رسول الله ﷺ ، إلا أنها ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه ﷺ^(٥) .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أوّل من دوّن الدواوين في الإسلام ، وذلك في المحرم سنة عشرين للهجرة ، فأنشأ ديوان الجند لكتابة أساء الجند المجاهدين ، وما يخصّ كلاً منهم من عطاء ، وديوان الحراج ويختص ببيت المال من دخل وإنفاق^(٦) .

أهمُّ الدواوين :

ديوان الجند : أوجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه (المحرم ٢٠ هـ) ، وهو في حقيقته سجل للجيش ، أمّا الذي دعا إلى إيجاده فهو : أن الهرمزان لما رأى عمر يبعث البعوث بلا ديوان ، قال له : ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم ؟ فإن من تخلف أخلّ بمكانه ، وإنّا يضبط ذلك الكتاب ، فأوجد عمر رضي الله عنه ديوان العساكر

(٢) الأحكام السلطانية (الفراء) ، ص : ٢٢٧

(٤) الخَرسُ خَزَزَ ما على النخل من الرطب تراً ، وقد خَرَصَتْ النخل والكرم أخرصة خَرَصاً إذا حزر ما عليها من الرطب تراً ، ومن الغنب زيبياً ، وهو من الظن لأنّ الخَزَرَ إنّا هو تقدير بظن ، (اللسان : خرس) .

(٥) صبح الأعشى : ٩١/١

(٦) الأحكام السلطانية ، ص : ٢٢٦

الإسلامية ، على ترتيب الأنساب ، مبتدئاً من قرابة رسول الله ﷺ ، وما بعدها الأقرب فالأقل قرباً ، ومن أعمال هذا الديوان إعطاء الناس أعطياتهم .

ديوان الخراج : وينظم جباية الأموال ، وضبط حساباتها ، ثم الموازنة بين الواردات والنفقات ، ويشترط بكتاب الديوان - وهو صاحب ذمامه - العدالة والكفاية ، فأما العدالة فلأنه مؤتمن على حق بيت المال والرعية ، فاقضى أن يكون في ٥ العدالة والأمانة على صفات المؤتمنين ، وأما الكفاية فلأنه مباشر لعمل يقتضي أن يكون في القيام مستقلاً بكفاية المباشرين ، فإذا صحّ تقليده ، فالذي ندب له ستة أشياء : حفظ القوانين ، واستيفاء الحقوق ، وإثبات الرُفوع ، ومحاسبات العمال ، وإخراج الأحوال ، وتصفح الظلّامات .

حفظ القوانين : على الرسوم العادلة من غير زيادة تتحيّف بها الرعية ، أو نقصان ١٠ ينثلم به حق بيت المال .

واستيفاء الحقوق : ممن وجبت عليه من العاملين ، فيعمل على إقرار العمال بقبضها ، واستيفائها من القابضين لها من العمال .

وإثبات الرُفوع : وهي رفوع مساحة وعمل ، ورفوع قبض واستيفاء ، ورفوع ١٥ خرج ونفقة .

ومحاسبة العمال : لأنهم ملزمون برفع الحساب ، ووجب على كاتب الديوان محاسبتهم على صحّة ما رفعوه .

وإخراج الأحوال : وتعني استشهاد صاحب الديوان على ما ثبت فيه من قوانين وحقوق ، فصار كالشهادة ، فلا يخرج من الأموال إلا ما علم صحّته ، كما لا يشهد إلا بما ٢٠ عمله وتحقّقه .

وتصفح الظلّامات : وهو يختلف بسبب اختلاف التظلم ، وليس يخلو من أن يكون المتظلم من الرعية أو من العمال .

ديوان الرّسائل : أو (ديوان الإنشاء) : وهو يشبه رئاسة الوزراء في أيامنا ،
فرئيس ديوان الرّسائل ويسمى (الكاتب) ينشئ الرّسائل التي يبعث بها الخليفة إلى
الولاة والعمال والملوك ، ويتلقّى الرّسائل التي ترد إلى الخليفة .

وكتب هذا الديوان باللغة العربية منذ إيجاده ، فالرّسائل التي وجهها رسول الله
ﷺ كتبت بالعربيّة . ٥

كان عمر بن عبد العزيز يكتب الرّسائل أحياناً بيده ، ولكن لما تشعبت أمور
الدّولة ، أخذ الخليفة يعتمد على كتّابه شيئاً فشيئاً ، فقد كان قبيصة بن ذؤيب يكتب
لعبد الملك ، وبلغ من مكاتته عنده أنّه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن
يقرأها عبد الملك ، وكان له ذلك عادة .

وأصبح (الكاتب) مأموناً في كلّ ما يكتب ، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يوقّع
فقط ، ولذلك كثيراً ما كان الكتّاب يتلاعبون بالأمر ، من ذلك ما روي من أن
هشاماً أقطع قبل أن يلي الخلافة - ربما في أيام يزيد بن عبد الملك - أرضاً يقال لها
دورين ، فأرسل في قبضها فإذا هي خراب ، فقال لذؤيد - كاتب كان بالشّام -
ويحك ، كيف الحيلة ! فقال ذؤيد : ما تجعل لي ؟ فقال هشام : أربع مئة دينار ،
فكتب ذؤيد : دورين وقراها ، ثم أمضاها في الدواوين ، فأخذ هشام شيئاً كثيراً ..
ولقد حصل الكتاب أنفسهم من مناصبهم أموالاً جليّةً ، وبلغت الجرأة بالكتّاب إلى أن
قطناً مولى يزيد بن الوليد ، وكان يتولّى ديوان الخاتم والحجابه ، كتب على لسان
الخليفة يزيد بن الوليد كتاباً بولاية العهد لإبراهيم بن الوليد ، وقرأه على النّاس
فبايعوا لإبراهيم خلافاً لإرادة الخليفة المُختَضَر^(٧) ، وقبل أن ينقضي العصر الأموي ،
كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذات قواعد وأصول ، وأصبح الكتّاب كأنّهم وزير له
رأي في أمور الدّولة ، وله سلطة عظيمة في تسييرها . ٢٠

(٧) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأمويّة ، ص : ٢١٣

وفي دولة المرابطين ، كانت (الهيئة الاستشارية) التي ضمت مجموعة من الفقهاء والأعيان والوزراء تلي السلطان مكانة ، وأهم دائرة حكومية تليها مباشرة ، كانت (ديوان الرسائل) الذي يرأسه كاتب كبير ، وكان المرابطون « يتخيرون الكتاب من كبار الأدباء ، حيث كان الأسلوب الكتابي في العصور الوسطى يلعب دوراً يفوق دور المفاوضات الشفوية ، وكان لأمير المسلمين ^(٨) عدة كتاب في آن واحد ، وعلى رأسهم كاتب كبير ، هو في الواقع رئيس ديوان الرسائل » ^(٩) .

وأيام المماليك كان لا يتولى (ديوان الرسائل) إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقال له : كاتب الدست الشريف ، ويسلم المكاتبات الواردة محتومة فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنها للكتاب ، والخليفة يستشير في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المشول بين يديه ، وهذا أمر لا يصل إليه غيره ، وربما بات عند الخليفة ليالي ، وكان جاريه - راتبه - مئة وعشرين ديناراً في الشهر ، وهو أول أرباب الإقطاعات ، وأرباب الكسوة والرسم والملاطفات ، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر ، ولا يجتمع بكتابه أحد إلا الخواص ، وله حاجب من الأمراء الشيوخ ، وفراشون . وله المرتبة الهائلة ، والحداد والمسند والدواة ، لكنها بغير كرسى ، وهي من أخص الدوى ، ويحملها ^(١٠) أستاذ من أستاذي الخليفة .

(٨) في الأصل (أمير المؤمنين) ، ومن المعلوم أن المرابطين تسموا بإمرة المسلمين تاركين للخليفة العباسي ببغداد لقب (أمير المؤمنين) .

(٩) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، ص : ٩٣ و ٩٤

(١٠) المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لمقريري : ٤٠٢/١ ، وهذا لا يعني أن كل الكتاب كانوا بلغاء ، فقد ورد : تلقى أحد السلاطين خطاباً من أمير له ، جاء فيه : إن سلندرئين ، أي مركبين ، من مراكب المسلمين ، أي المؤمنين ، قد هلكا ، أي غرقا ، فهلك من فيها ، أي ماتوا ، فارسم لنا ، أي أخبرنا ، ماذا نضع ؟ فدفع السلطان الكتاب إلى رئيس ديوانه ليرد عليه فكتب : جاءنا كتابك ، أي وصل ، ففضضناه ، أي فتحناه ، وعلنا ما فيه ، أي قرأناه ، فأدب كاتبك ، أي اصفعه ، واستبدل به ، أي اعزله ، والسلام .

وأورد القلقشندي (صفة صاحب هذا الديوان وآدابه) فقال :

« قال أبو الفضل الصوري في مقدّمة تذكرته : يجب أن يكون صبيح الوجه ،
فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، ربيعاً في حيّه ، وقوراً ، حليماً مؤثراً
للجدّ على الهزل ، كثير الأناة والرّفق ، قليل العجّلة والخرق ، نزر الضحك ، مهيب
المجلس ، ساكن الظلّ ، وقور النّادي ، شديد الذّكاء ، متوقّد الفهم ، حسن الكلام إذا
حدّث ، حسن الإصغاء إذا حدّث ، سريع الرضا ، بطيء الغضب ، رؤوفاً بأهل
الدين ، ساعياً في مصالحهم ، محباً لأهل العلم والأدب ، راغباً في نفعهم ، وأن يكون
محبّاً للشّغل أكثر من محبّته للفراغ ، مقسماً للزمان على أشغاله ، يجعل لكل منها جزءاً
منه حتّى يستوعبه في جميع أقسامها ، ملازماً لمجلس الملك إذا كان جالساً ، وملازماً
للدّيوان إذا لم يكن الملك جالساً ، ليتأّسّى به سائر كتّاب الدّيوان ، ولا يجدوا رخصة في
الغيبة عن ديوانهم ، وأن يغلب هوى الملك على هواه ، ورضاه على رضاه ، ما لم ير في
ذلك خلاً على المملكة ، فإنّه يجب أن يهّدي النصيحة فيها للملك من غير أن يوجد
فيما تقدّم من رأيه فساداً أو نقصاً ، لكن يتحيّل لنقص ذلك وتهجينه في نفسه وإيضاح
الواجب فيه بأحسن تأنّ ، وأفضل تلطّف ، وأن يتخلّ الملك صائب الآراء ولا ينتحلها
عليه^(١١) ، ومهما حدث من الملك ، من رأي صائب ، أو فعل جميل ، أو تدبير حميد ،
أشاعه وأذاعه ، وعظّمه وفخّمه ، وكرّر ذكره ، ولوّجب على النّاس حمده عليه
وشكره ، وإذا قال الملك قولاً في مجلسه ، أو بحضرة جماعة ممن يخدمه فلم يره موافقاً
للصّواب ، فلا يجبّه بالرّد عليه واستهجان ما أتى به ، فإنّ ذلك خطأ كبير ، بل يصبر
إلى حين الخلوة ، ويدخل في أثناء كلامه ما يوضّح به نهج الصّواب من غير تلقّ برد ،
ولا يتبجّح بما عنده ، ويكون متابِعاً للملك على أخلاقه الفاضلة ، وطبّاعه الشّريفة ،
من بسط المَعْدِلَة^(١٢) ، ومدّ رواق الأمانة ، ونشر جناح الإنصاف ، وإغاثة الملهوف ،

(١١) يتخلّ : يعطي ، ونحله القول ينحله نحلّاً نسبته إليه ، إذا أضاف إليه قولاً ، (اللسان : نحل) .

(١٢) العدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة كله : العدل ، (اللسان : عدل) .

وَنُصْرَةُ الْمَظْلُومِ ، وَجَبْرُ الْكَسِيرِ ، وَالْإِنْعَامُ عَلَى الْمُعْتَرِّ الْمُسْتَحَقِّ ^(١٣) ، وَالتَّوَقُّرُ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، وَعِمَارَةُ بَيْوتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَصَرْفُ الْهِمَمِ إِلَى مَصَالِحِهَا ، وَالنَّظَرُ فِي أَحْوَالِ الْفُقَهَاءِ ، وَحَمَلَةُ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ بِمَا يَصْلُحُ ، وَالِاتِّفَاتُ إِلَى عِمَارَةِ الْبِلَادِ ، وَجِهَادُ الْأَعْدَاءِ ، وَنَشْرُ الْهَيْبَةِ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَتَعْظِيمُ الشَّرِيعَةِ ، وَالْعَمَلُ بِأَحْكَامِهَا ، فَيَكُونُ لَجَمِيعِ ذَلِكَ مُوَكِّدًا ، وَلَأَفْعَالِهِ فِيهِ مُوْطِدًا مُمَهِّدًا ، وَإِنْ أَحْسَنَ مِنْهُ بِخَلَّةٍ ٥ تَنَافَى هَذِهِ الْحَالَ ، أَوْ فَعَلَةٍ تَخَالَفُ هَذِهِ الْأَفْعَالَ ، تَقَلُّبُهُ عَنْهَا بِالطَّفِيفِ سَعْيٍ ، وَأَحْسَنَ تَدْرِيجٍ ، وَلَا يَدْعُ مَمَكْنًا فِي تَبْيِينِ قُبْحِهَا ، وَإِصْلَاحِ رَدَائِهِ عَاقِبَتِهَا ، وَفَضِيلَةِ مَخَالَفَتِهَا إِلَّا بَيْنَهُ وَأَوْضَحُهُ إِلَى أَنْ يَعِيدَهُ إِلَى الْفَضَائِلِ الَّتِي هِيَ بِالْمُلُوكِ النَّبْلَاءِ أَلْيَقُ ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ بِأَعْلَى مَكَانَةٍ مِنَ الْيَقِظَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِقَلِيلِ الْقَوْلِ عَلَى كَثِيرِهِ ، وَبِإِعْضَاءِ الشَّيْءِ عَلَى جَمِيعِهِ ، وَيَسْتَفْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْإِشَارَةِ وَالِإِيْمَاءِ ، بَلْ بِالرَّمْزِ وَالِإِيْحَاءِ ، لِيَنْبَهَ الْمَلِكُ ١٠ عَلَى الْأُمُورِ مِنْ أَوَائِلِهَا ، وَيَعْرِفَهُ خَوَاتِمُ الْأَشْيَاءِ مِنْ مُفْتَتِحَاتِهَا ، وَيَحْذَرُ حِينَ تَبْدُولِهِ لَوَائِحَ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَسَاوَى فِيهِ الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ ...

وَأَنْ لَا يَكْتُبَ عَنِ الْمَلِكِ إِلَّا مَا يَقِيمُ مَنَارَ دَوْلَتِهِ وَيَعْظُمُهَا ، وَلَا يَخْرُجَ عَنْ حَكْمِ الشَّرِيعَةِ وَحُدُودِهَا ، وَلَا يَكْتُبُ مَا يَكُونُ فِيهِ عَيْبٌ عَلَى الْمَمْلُوكَةِ ، وَلَا ذِمٌّ عَلَى غَابِرِ الْأَيَّامِ ، وَمُسْتَأْنَفِ الْأَحْقَابِ ، وَإِنْ أَمَرَ بِشَيْءٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ ، تَلَطَّفَ فِي الْمَرَاجَعَةِ ١٥ بِسَبَبِهِ ، وَبَيَّنَّ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ بِهِ إِلَى الْوَاجِبِ ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ كِتَابَتِ السَّرِّ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا يُدَانِيهِ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَا يَقَارِبُهُ فِيهَا بَشَرٌ ، حَتَّى يَقَرَّرَ فِي نَفْسِهِ إِمَاتَةَ كُلِّ حَدِيثٍ يَعْلَمُهُ ، وَيَتَنَاسَى كُلَّ خَبَرٍ يَسْمَعُهُ ، وَأَنْ لَا يُطْلَعَ وَالِدًا وَلَا وَلَدًا ، وَلَا أَخًا شَقِيقًا ، وَلَا صَدِيقًا صَدُوقًا ، عَلَى مَا ذُقَّ أَوْ جَلَّ ، وَلَا يُعْلَمُهُ بِمَا كَثُرَ مِنْهُ وَلَا قَلَّ ، وَيَتَوَهَّمُ بَلْ يَتَحَقَّقُ أَنَّ فِي إِذَاعَتِهِ مَا يَعْلَمُ بِهِ وَضْعَ مَنْزِلَتِهِ وَحَطَّ رَتْبَتِهِ ، وَيَجْتَهِدُ فِي أَنْ ٢٠ يَصِيرَ لَهُ ذَلِكَ طَبْعًا مَرْكَبًا وَأَمْرًا ضَرُورِيًّا .

(١٣) الْمُعْتَرِّ: الَّذِي يُطِيفُ بِكَ يَطْلُبُ مَا عِنْدَكَ ، سَأَلَكَ أَوْ سَكَتَ عَنِ السُّؤَالِ ، (اللسان: عرر) ، وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ ٣٧/٢٢ : ﴿ وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. ﴾ .

قلت : وهذه الصفة هي الشرط اللازم ، والواجب المحتّم ، بها شهر ، وبالإضافة إليها عرف ، وقد قال المأمون وهو من أعلى الخلفاء مكاناً ، وأوسعهم علماً : الملوك تحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء : القذح في الملك ، وإفشاء السر ، والتعرض للحرم «^(١٤) .

خازن الديوان : ويختار لديوان الرسائل خازن ذكي عاقل ، مأمون بالغ في الأمانة والثقة ونزاهة النفس ، وقلة الطمع إلى الحد الذي لا يزيد عليه ، فإن زمام جميع الديوان بيده ، فتي كان قليل الأمانة ، ربّما أمالته الرشوة إلى إخراج شيء من المكاتبات من الديوان ، وإفشاء سر من الأسرار ، فيضر بالدولة ضرراً كبيراً .

وعلى خازن ديوان الرسائل أن يكون ملازماً للحضور بين يدي كتاب الديوان ، فتي كتب المنشئ ، أو المتصدّي لمكاتبة الملوك كتاباً ، أخذه وسلمه للمتصدّي للنسخ ، فينسخه حرفاً حرفاً ، ويكتب بأعلى نسخه كتاب كذا ، ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته ، ثمّ يتسلمه الخازن ، وكذلك يفعل بالكاتب الواردة ، بعد أن يأخذ خطأ الكاتب الذي كتب جوابها ، وإن كان لا جواب عنه ، أخذ عليه خطأ صاحب الديوان أنّه لا جواب عنه لتبرأ ذمته منه ، ولا يتأول عليه في وقت من الأوقات أنّه أخفاه ولم يعلم به ، ثمّ يجمع كل نوع إلى مثله ، ويجعل لكل شهر إضابة ، ويجعل عليها بطاقة ، ليسهل استخراج ما أراد استخراجَه من ذلك «^(١٥) .

كما ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء (الرسائل) أن يقيم لديوانه حاجباً لا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إليه ، لأنّه يجمع أسرار السلطان الخفية ، فن الواجب كتبها ، ومتى أهل ذلك لم يؤمن أن يُطلع منها على ما يكون بإظهاره سبب سقوط مرتبته ، وإذا كثر الغاشون له والداخلون إليه ، أمكن أهل الديوان معه إظهار الأسرار

(١٤) صبح الأعشى : ١٠٤/١ وما بعدها .

(١٥) صبح الأعشى : ١٣٥/١

اتَّكَلَا عَلَى أَنَّهَا تُنْسَبُ إِلَى أَوْلَئِكَ ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ قَاصِرًا عَلَيْهِمْ ، احْتَاجُوا إِلَى كِتَابٍ مَا يَعْلَمُونَهُ خَشِيَّةً أَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِمْ إِذَا ظَهَرَ ^(١٦) .

دِيَوَانُ الْمُسْتَغْلَاتِ : وَهُوَ دِيَوَانٌ خَاصٌّ بِمَا يَجْمَعُ مِنْ أَجُورِ الْأَمْلَاقِ السُّلْطَانِيَّةِ ، أَوْ مَا يَعْرِفُ بِأَمْلَاقِ الدَّوْلَةِ حَالِيًا .

- ٥ دِيَوَانُ الْخَاتَمِ : أَنْشَأَهُ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَهُوَ مِنْ أَهْمِّ دَوَاوِينَ الدَّوْلَةِ ، مَهْمَّتُهُ نَسْخُ أَوَامِرِ الْخَلِيفَةِ ، وَإِيدَاعُهَا هَذَا الدِّيَوَانَ بَعْدَ أَنْ تَحْزَمَ بِخَيْطٍ ، وَتَحْتَمَ بِالشَّمْعِ ، وَتَحْتَمَ بِخَاتَمِ صَاحِبِ هَذَا الدِّيَوَانِ .

- « وَكَانَتِ الْخَوَاتِمُ فِي خَزَائِنِ الْمُلُوكِ ، لَا تَدْفَعُهَا إِلَى الْوُزَرَاءِ ، فَاطْرُدُ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَمْلِكَ بَنُو أُمَيَّةَ ، وَأَفْرَدَ مَعَاوِيَةُ دِيَوَانَ الْخَاتَمِ ، وَوَلَّاهُ عَبِيدَ بْنَ أَوْسٍ الْغَسَّانِيَّ ، وَسَلَّمُ الْخَاتَمِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ مَنْقُوشًا عَلَيْهِ (لِكُلِّ عَمَلٍ ثَوَابٌ) ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ ، أَنَّ مَعَاوِيَةَ ^{١٠} كَتَبَ لِعَمْرُو بْنِ الزُّبَيْرِ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَفَرَّقَ عَمْرُو الْهَاءَ فِي مِائَةِ وَجْعَلَهَا يَاءَ (مَائَتِي) ، وَأَخَذَ مَائَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَلَمَّا مَرَّتِ الرُّقْعَةُ بَعْدَئِذٍ بِمَعَاوِيَةَ ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْهُ إِلَّا بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَأَحْضَرَ الْعَامِلَ الْكِتَابَ ، فَوَقَفَ مَعَاوِيَةُ عَلَى الْأَمْرِ ، فَاتَّخَذَ دِيَوَانَ الْخَاتَمِ » ^(١٧) .

- ١٥ دِيَوَانُ الطَّرَازِ : وَهُوَ الَّذِي يَهْتَمُّ بِلِبَاسِ الْخَلِيفَةِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوْظِفِيهِ ، لَقَدْ بَنَى الْخُلَفَاءُ فِي دَوْرِهِمْ دَوْرًا لِنَسِيجِ ثِيَابِهِمْ ، وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَيْهَا يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصِّيَاغِ وَالْحَيَاكَةِ .

دِيَوَانُ الْجَهْبَذَةِ : نَشَأَ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ ، وَاخْتَصَّ بِأُمُورِ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَأَحْوَالِهِمْ .

تَعْرِيبُ الدَّوَاوِينِ :

- وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ : [٦٥ - ٨٦ هـ] ، وَكَانَتِ السُّجَلَاتُ تُكْتَبُ بِالرُّومِيَّةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ، جَاءَ فِي (أَدَبِ الْكِتَابِ) : « وَكَانَ دِيَوَانُ الشَّامِ إِلَى ^{٢٠}

(١٦) صِحْحُ الْأَعْشَى : ١٣٧١

(١٧) أَدَبُ الْكِتَابِ ، ص : ١٤٣

سرجون بن منصور ، وكان رومياً نصرانياً ، كتب لمعاوية ولمن بعده إلى عبد الملك بن مروان ، ثم رأى عبد الملك منه توانياً ، فقال عبدُ الملك لسليمان بن سعد^(١٨) : ما أحتمل سحب سرجون ، أفما عندك حيلة في أمره ، فقال : بلى ، أنقل الحساب إلى العربية من الرُومِيَّة ، فقال : افعل ، فحوّله ، فولّاهُ عبد الملك جميع دواوين الشّام ، وصرف سرجون ، فلم يزل (سليمان بن سعد) على ذلك إلى أيّام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ثم إنَّ عمر بن عبد العزيز وَجَدَ عليه فعزله ، واستكتب مكانه صالح بن كثير الصداي من أهل طبرية^(١٩) .

وكانت السّجلاّت تكتب بالفارسيَّة في العراق ، عربّها الحجاج بن يوسف الثّقفي « نقله له صالح بن عبد الرّحمن^(٢٠) كاتب كاتبه زاذان فروخ^(٢١) » ، « وكان صالح يكتب لزادان فروخ على الدّواوين أيّام الحجاج ، وكان أوّل من جمع له الغزاة أن زياداً قال فاستكتب عليها زاذان فروخ الأعور ، فبقي إلى هذا الوقت ، قال : فلمّا رأى الحجاج ذكاء صالح قربه ، فقال لزادان فروخ : إنَّ الأمير يقدّمني عليك ، وأنت سبي منه ، وما أحبُّ ذلك ، فلم يزل يؤخّره عنه ، والحجاج يطلبه ، فقال له زاذان فروخ : لا بُدَّ للحجاج منّي ، لأنّه لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري ، فقال له صالح : إنّه

(١٨) سليمان بن سعد الخُشَنِيّ بالولاء [ت نحو ١٠٥ هـ = نحو ٧٢٣ م] ، أوّل من نقل الدّواوين من الرُومِيَّة إلى العربية ، وأوّل مسلم ولي الدّواوين كلّها في العصر الأموي ، عرض على عبد الملك أن ينقل الحساب من الرُومِيَّة إلى العربية ، فأمر بذلك ، فحوّله فولّاهُ جميع دواوين الشّام ، (الأعلام : ١٢٦٣) .

(١٩) أدب الكتاب ، ص : ١٩٣ ، وانظر (فتوح البلدان) ص : ١٩٦ أيضاً .

(٢٠) صالح بن عبد الرّحمن التّميمي بالولاء [ت نحو ١٠٣ هـ = نحو ٧٢٢ م] ، أوّل من حوّل كتابة دواوين الخِراج من الفارسيَّة إلى العربيَّة في العراق ، وكان يبيد الإنشاء في اللّغتين ، فوضع اصطلاحات للكتّاب والخُساب استغنوا بها عن المصطلحات الفارسيَّة ، وكان جميع كتّاب عصره تلاميذ له ، قال عبد الحميد بن يحيى الكاتب : لله درّ صالح ما أعظم منته على الكتّاب ، (الأعلام : ١٩٢٣) .

(٢١) صبح الأعشى : ٤٢٣/١ ، وهو في أدب الكتاب زاذان (بالدال بدل النّال) .

إن أمرني بنقل الحساب إلى العربية فعلت ، قال : فانقل شيئاً منه بين يدي ، ففعل ، فقال زادان فروخ لكتابه الفرس : التمسوا مكسباً غير هذا^(٢٢) .

قال : وقدّم الحجاج صالحاً ، فقلب صالح الديوان إلى العربية ، وكان كتاب العراقيين كلهم غلامانه وتلاميذه «^(٢٣)» .

وكانت السجلات تكتب بالقبطية بمصر ، فعربها عبد العزيز بن مروان في إمارته هـ على مصر : [٦٥ - ٨٥ هـ] .

وتعريب الدواوين تبعه تقدّم علم الرياضيات بشكل ملحوظ ، وسببه إجراء العمليات التجارية بالعربية ، مع حسابات ميزانية بيت المال ، وحساب الفرائض ، وأمور واردات بيت المال ونفقاته بشكل عام .

وهكذا أصبحت العربية لغة الدواوين الرسمية منذ سنة ٨١ هـ ، ممّا ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة ، وانتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب ، جاء في (فتوح البلدان ، ص ١٩٦) تحت عنوان : (نقل ديوان الرومية) : « فلما كانت سنة إحدى وثمانين أمر - عبد الملك - بنقله - بنقل الديوان - وذلك أنّ رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً ، فلم يجد ماءً ، فبال في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدّبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك ، وولاه الأردن ، فلم تنقض السنة حتّى فرغ من نقله ، وأتى به عبد الملك ، فدعا بـسرجون كاتبه ، فعرض ذلك عليه ، فغمّه وخرج من عنده كئيباً ، فلقى قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم » .

(٢٢) قيل : لما أراد نقل الديوان إلى العربية بذل له كتاب الفرس ثلاث مئة ألف درهم على أن لا يفعل ، فأبى .

(٢٣) أدب الكتاب ، ص : ١٩٢ ، وهكذا ورد النصّ حرفياً .

وبذلك تمت مراقبة السجلات في كل الدواوين ، التي أضحت العريضة لغتها الرسمية ، والتي هي لغة الدولة ، ولغة القرآن الكريم .

كما ابتدأت تظهر طبقة من الكتاب من ذلك الوقت ، وهم أصناف :

« أصناف الكتاب على ما ذكره ابن مقلة خمسة : كاتب خط ، وكاتب لفظ ، وكاتب عقد ، وكاتب حكم ، وكاتب تدبير ، فكاتب الخط هو الوراق والمحرر ، وكاتب اللفظ هو المترسل^(٢٤) ، وكاتب العقد هو كاتب الحساب ، الذي يكتب للعامل ، وكاتب الحكم هو الذي يكتب للقاضي ونحوه ممن يتولّى النظر في الأحكام ، وكاتب التدبير هو كاتب السلطان أو كاتب وزير دولته .. »^(٢٥) .

وكان في الأمصار دواوين محلية على غرار تلك التي في العاصمة^(٢٦) .



١٠



(٢٤) الترسل في القراءة والترسيل واحد : التحقيق بلا عجلة ، (اللسان : رسل) .

(٢٥) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، ص : ٦٦

(٢٦) اليعقوبي : ٢٣٤/٢

بَيْتُ الْمَالِ

التكافل الاجتماعي نظام مُسَلَّم به
في حضارتنا العربية الإسلامية منذ
أربعة عشر قرناً : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ،
[الحشر : ١٧/٥٩] ، والملكية الحقيقية
لله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي
آتَاكُمْ ﴾ ، [النور : ٢٣/٢٤] .

إنَّ النظام المالي في الإسلام مستقلٌّ كلُّ الاستقلال عن جميع النظم المالية ، وأكثر
مبادئ هذا النظام قواعد كلية أقرها القرآن الكريم : ﴿ كَيْلَا يَكُونَ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْكُمْ ﴾ ، [الحشر : ١٧/٥٩] ، ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ، [البقرة : ٢٧٩/٢] ،
وأوضحها رسول الله ﷺ ^(١) ، وجرى بها العمل في أيامه ﷺ ، وعلى القواعد الكبرى
قيست الفروع الجزئية المستجدة ، ولا بُدَّ في جميع الأحوال من تحقيق التوازن
الاجتماعي من خلال كل قاعدة كبرى ، وكل مسألة فرعية .

١٥ والاقتصاد الإسلامي ، اقتصاد ربّاني ، توجيهاته ربّانية إلهية ، يميّز بالأمور

التالية :

(١) كتب بحث في الاقتصاد الإسلامي : (اقتصادنا) محمد باقر الصدر ، (النظرية الاقتصادية في الإسلام)
د . أحمد عبد العزيز النجار ، (بنوك لاربيوية) د . النجار أيضاً ، (البنك اللاربيوي) د .
نور الدين العتر ، (الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي) محمد فاروق النبهان ، (نظام
الحياة في الإسلام) أبو الأعلى المودودي ، (الأحكام السلطانية) الماوردي ، (الأحكام السلطانية)
الفراء ، (الخراج) أبو يوسف القاضي ، (فقه الزكاة) د . يوسف القرضاوي ، (أثر تطبيق النظام
الاقتصادي الإسلامي في المجتمع) من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ .

مرونة تعاليمه : فالتعميم لا ينزل إلى التفصيلات الجزئية ، وهو بذلك لا يقيّد الأجيال المقبلة ، إنها مرونة يراد لها الخلود ، لتكون ملائمة لتطوّر احتياجات البشر ، ليست تعاليم جامدة لا تقبل التطبيق إلا على أسلوب واحد ، لافكاك منه ، ولا محيص عنه ، إن طريق الوصول إلى الهدف ، قابل للتبديل والتغيير في ضوء ظروف كل مجتمع . ٥

ونظرتة واقعية إلى الملكية : إنه نظام يقرّ الملكية الفردية ويحميها ، مع وجود الملكية الجماعية التي هدفها المنافع العامة ، ونظام الحِمى خير مثال على الملكية العامة ، قال رسول الله ﷺ : « لا حِمى إلا لله ورسوله » ^(١) ، أي لا حِمى إلا لمنفعة عامة للمسلمين .

ويمكن القول : هناك انسجام بين مصلحة المجتمع وبين المصلحة الفردية : ١٠
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، [البقرة : ١٨٨/٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ .. ﴾ ، [النساء : ٢٩/٤] ، فلا كسب بغير وجه حق ، بلا عمل ، بلا مقابل .

ومن الانسجام : منع الاحتكار ، والتسعير الإجباري لمنعه ، وجعل تلقي السلع ١٥
وبيعها بأسعار غالية احتكاراً واستغلالاً ، وكذلك بيع المضطر استغلالاً لا يجوز ..

ودور الدولة يتميز بالانفتاح والشمول : لذلك تعددت وظائفها لتغطي الكثير ٢٠
من جوانب النشاط الاقتصادي ، وترتبط وظائفها ارتباطاً وثيقاً بنشاطها المالي لإشباع الحاجات العامة ، وذلك رهن بدورها في الحياة الاقتصادية المتجددة للمجتمع الإسلامي ، وخدمة المصالح الحقيقية فيه لضمان التكافل الاجتماعي والتقدم والرفاهية ،

(٢) رواه البخاري وأبو داود ، انظر فصل : (في الحِمى والإرفاق) ، ص : ٢٢٢ ، الأحكام السلطانية (الفراء) .

ولتحقيق أكبر إشباع ممكن للأفراد ، في ظلّ قيم هذا المجتمع المسلم ، ومن الطبيعي إذن أن تحصل الدولة على جزءٍ من الموارد المختلفة ، يمكنها إنفاقها من القيام بدورها^(٣) .

أهمُّ واردةَاتِ بَيْتِ المال :

الزُّكَاةُ ، وَالْخَرَاةُ ، وَالْجَزِيَّةُ ، وَالْغَنِيَّةُ ، وَالْفَيءُ ، وَالْعُشُورُ ، وَالْأَوْقَافُ ، وفيها جميعاً - باستثناء الأوقاف - معنى الضَّرِيَّةِ على الثَّرْوَةِ والأَرْضِ والأنفُسِ .

الزُّكَاةُ : وهي أوَّلُ ضريبةٍ إسلاميَّةٍ فرضت على الأغنياء والقادرين ، وهي مظهر من مظاهر التضامن والتكافل الاجتماعي والأخوة في العقيدة ، تؤخذ من الذي يملك كثيراً ، لتعطى إلى الذي يملك قليلاً ، أو لا يملك شيئاً ، ووجه إنفاقها حدَّدت بالآية الكريمة : ﴿ إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [التوبة : ٦٠/١] .

وتجب الزُّكَاةُ في الأموال المرصدة للنَّاءِ ، إمَّا بنفسها ، وإمَّا بالعمل فيها ، والأموال المزكاة ضربان :

ظاهرة : (ما لا يمكن إخفاؤه) من الزُّروع والثَّمار والمواشي .
وبالباطنة : (ما يمكن إخفاؤه) من الذَّهَبِ والفضَّةِ وعروض التَّجارة^(٤) .
يقول الماوردي^(٥) : إن الأموال المزكاة أربعة :

١ - المواشي وهي الإبل والبقر والغنم ، (ولكل منها نصاب معيَّن تستحق بعدها زكاتها)^(٦) .

(٣) الاقتصاد الإسلامي ، العدد ١٩ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٦ ، د . عوف محمود الكفراوي .

(٤) الأحكام السلطانيَّة (الفراء) ، ص ١١٦

(٥) الأحكام السلطانيَّة ، ص ١٢٨

(٦) الأحكام السلطانيَّة (الفراء) ، ص ١١٦-١١٩

٢ - وثمار الزروع : كالبر والشعير والأرز والذرة .. (تجب الزكاة في المكيل المدّخر)^(٧) .

٣ - وثمار الشجر والكروم ، (وما في معناها مما يكال ويدّخر كالنخيل واللوز والفسق والبندق ..)^(٨) .

٤ - والذهب والفضة ، وزكاتها ربع العشر ، ولهما نصاب ، وكذلك المعادن كالحديد والرصاص والنحاس والأحجار الكريمة ..

أما الرّكاز ، وهو كلّ مال وُجد مدفوناً ، فيكون لواجده ، ولكن عليه دفع خمسّه ليصرف في مصرف الزكاة^(٩) ، قال ﷺ : « وفي الرّكاز الخمس »^(١٠) .

الخِراج^(١١) : وهو ضريبة تُفرض على الأرض التي صُولح عليها عند الفتح ، وبقيت في أيدي أصحابها ، تدفع كلّ عام مرّة واحدة ، « وإذا كانت أرض الخراج لا يمكن زرعها في كلّ عام تراخ في عام ، وتزرع في عام آخر ، روعي حالها في ابتداء وضع الخراج عليها »^(١٢) .

(٧) الفراء (المرجع السابق) : « يعطى من كلّ شيء يكال ويدّخر ، العشر » .

(٨) زكاة الزروع : العشر إذا سقيت عُثرياً (الذي يشرب يعرفه) ، أو سحاً (الذي يجري إليه الماء ويفيض) ، ونصف العشر إذا سقيت عُرباً (ما يسقى بالدلاء والنواضح) أو نضحاً ، (الأحكام السلطانية - الفراء) ، ص ١٢١

(٩) جاء في (اللسان : ركز) : اختلف أهل الحجاز والعراق ، أهل العراق : الرّكاز المعادن كلّها ، فما استخرج منها من شيء فلمستخرجه أربعة أخماسه ، وليبيت المال الخمس ، وكذلك المال العادي يوجد مدفوناً هو مثل المعدن سواء .. وأهل الحجاز قالوا : إنّ الرّكاز كنوز الجاهليّة .

(١٠) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والترمذي ، وابن ماجه والإمام أحمد .

(١١) وقيل : يُسمّى الطّسُق أيضاً ، في (اللسان : طسق) : الطّسُق : فارسي معرّب ، ما يوضع من الوظيفة على الجُزبان من الخراج المقرر على الأرض ، الطّسُق شبه الخراج ، له مقدار معلوم .

(١٢) الأحكام السلطانية ص ١٧١ ، وانظر الأحكام السلطانية (الفراء) ، ص : ١٦٢ - ١٧٢ ، وأدب الكتاب ، ص ١٩٨ : (وجوه الأموال التي تحمل إلى بيت المال وأصنافها ولن تجب) .

الجزية : وهي مبلغ بسيط معين ، يدفعه الذمي قبالة إعفائه من الجندية ، وانتفاعه بالمرافق العامة ، وخدمات الدولة : كالقضاء ، والشرطة ، والطرق والجسور ، ومشاريع الري ، والمستشفيات والمدارس .. مع حماية من أداها في نفسه وعرضه وماله ، « ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ، ولا مجنون ، ولا عبد ، لأنهم أتباع وذراري »^(١٣) .

مقدارها : وهي على الأغنياء والموسرين ثمانية وأربعون درهماً ، كل سنة مرة واحدة فقط ، وعلى أوساط القوم أربعة وعشرون درهماً ، وما دون ذلك اثنا عشر درهماً^(١٤) .

ويعين مقدار الجزية اعتباراً لحالتهم الاقتصادية ، فيؤخذ من الموسرين أكثر ، ومن الوسط أقل منه ، ومن الفقراء شيء قليل جداً ، والذين لا معاش لهم ، أو هم عالة ١٠ على غيرهم يعفون من أداء الجزية .

هذا ، وإن كانت الجزية لم يعين لها مقدار بعينه ، إلا أنه من اللازم عند تعيين المقدار أن تراعى فيه السهولة ، فيقرر منه ما يتيسر أدائه لأهل الذمة .

الغنيمة : وهي ما يظفر به المسلمون على وجه الغلبة والنصر ، خُمسها لبيت المال ، وأربعة أخماسها للمجاهدين : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ١٥ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ، [الأنفال : ٤١/٨] .

الفيء : وهو المال الذي يصيبه المسلمون دون قتال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] .

(١٣) الأحكام السلطانية ، ص ١٦٣

(١٤) انظر الخراج ، ص ١٣٢ وما بعدها .

العُشُرُ : ضريبة على الأراضي ، مقدارها عُشْرُ غَلَّتْهَا مَالاً أو عِيناً ، وتدفع عن الأراضي الَّتِي أسلم أهلها دون حرب وبقيت بأيديهم ، وعلى الأراضي الَّتِي ملكها المسلمون عنوة ، وقَسَمَهَا الخليفة عليهم ، وعلى الأراضي الموات الَّتِي أحيها المسلمون .

المكوس^(١٥) : وهي ضريبة عن كلِّ تجارة واردة في البرِّ أو البحر ، ولا تؤخذ إلاَّ إذا انتقل التَّاجر من بلاده إلى بلاد أخرى ، واختلف مقدارها باختلاف الزَّمان والمكان ، وعرفت ضريبة السُّفن بـ (أعشار السُّفن) ، وهي ضريبة على السُّفن الَّتِي تمرُّ ببعض الثُّغور ، كمدينة عدن ، وجزيرة طريف جنوبي الأندلس ، فيؤخذ منها العشر عِيناً ، ومن جزيرة طريف اشتقَّت كلمة Tariff الَّتِي تدلُّ عند الأوربيِّين على الرُّسوم الَّتِي تؤخذ على البضائع . أمَّا (العُشُور) ، فهي ضرائب على بضائع التُّجَّار الغرباء ، إذا قدموا بها من بلادهم إلى ديار المسلمين ، (الجمارك حالياً) ، وقيمتها عُشْرُ بضائعهم .

ومن واردات بيت المال أيضاً : أخماس المعادن المستخرجة من مناجمها ، وريع دار الضَّرب ، وما يخرج من البحر كالخليفة والعنبر ..

وعرفت الأندلس أيَّام المرابطين (ضريبة التَّعْتِيب) ، والغرض منها ترميم الحصون والأسوار الَّتِي تحيط بالمدن الهامَّة ، ويقوم بسدادها أهل هذه المدن المنتفعة بها ، وقد أجاز فقهاء الأندلس هذه الضَّريبة^(١٦) .



الأوقاف : وهي عمل من أعمال الخير ، ينعكس على المجتمع كُله ، مثل بناء المدارس والميَّاتم ، وإصلاح الجسور والطُّرقات ، وبناء الفنادق للمسافرين ، والرباطات للمجاهدين ، أو منح البذار مجَّاناً للمزارعين والفلاحين ..

(١٥) المكسُ : الجباية ، والمكسُ : درهم كانت تؤخذ من بائع السِّلَع ، والمكس ما يأخذه العُشَّار ، (اللِّسان : مكس) .

(١٦) البيان المغرب ٧٣/٤

ومن أرق ما وجد في الإسلام من هذا المعنى والطفه (وقف الزبادي) الذي كان في دمشق ، وقد حدث عنه ابن بطوطة بعد أن قال : « والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ٥ يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير » (١٧) .

ثم يقول تحت عنوان (المملوك الصغير والصّفة) : « مررت يوماً ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصّيني ، وهم ١٠ يسمونها الصّحن ، فتكسّرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصّحن ، وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيّد الغلام لا بدّ له أن يضربه على كسر الصّحن ، أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى ١٥ مثل هذا » (١٨) .

وكانت في دمشق عدا دور المجانين والمجاذيب والمجازيم ، أوقاف على الحيوانات ، ومرجة دمشق على ضفة نهر بردى الجنوبيّة ، كانت كلّها وقفاً على الخيل التي تعبت في الجهاد وأسنت ، فتأكل من نبات هذه الأرض ، وتشرب من مياه بردى ، حتى تموت بشكل طبيعي .

٢٠

(١٧) رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٩ ، دار الفكر ، بيروت .

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٠٠ ، ومثل هذا الوقف كان موجوداً في تونس وفاس أيضاً .

ووجد في الشام وقف لتزويج البنات الفقيرات .

ووقف لسقيا الماء المثلوج في الصَّيف لعابري السَّبيل ، وقد يسقونه بماء
الْخَرْنُوب^(١٩) ، أو غيره من الأشربة .

وفي مكة المكرمة وقف مخصَّص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة .

وفي أكثر من بلد وقف لإعارة الحلي والزَّينة في الأعراس والأفراح ، بحيث إنَّ
العامة والفقراء ، لابل الطبقة الوسطى يرتفقون بهذا الوقف الخيري ، فيستعيرون منه
ما يلزمهم من الحلي لأجل التَّزَيْن به في الحفلات ، ويعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها ،
فيتيسَّر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلَّة لائقة ، ولعروسه أن تحلَّى بحلية رائعة ممَّا يجبر
خاطرهما ، وكذلك يستغني المتوسَّط في الثَّروة عن أن يشتري ما لا طاقة له به^(٢٠) .

وفي تونس وقف للصَّبيان ، لهم يوم مخصوص ، هو يوم الخميس ، يسألونهم فيه
عن جميع ما قرؤوه في الأسبوع ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم استنهاضاً لهممهم ، وتفريحاً
لقلوبهم ، وفيها وقف للاستحمام مجَّاناً ، توضع فيه صرر من الدَّراهم ، كلُّ صرَّة فيها
مقدار أجرة الحمام ، فيدخل المحتاج إلى الاستحمام ، ويتناول إحدى هذه الصُّرر ،
ويذهب إلى الحمام ، فيدفعها بعينها ويستحم .

وفي تونس أيضاً وقف لختان أولاد الفقراء ، يَخْتَنُّ الولد ، ويعطى كسوة ودرهم ،
وهناك وقف توزَّع منه الحلواء في شهر رمضان مجَّاناً ، ويأتي إلى تونس في بعض أيَّام
السَّنة نوع من السَّمك ، تفيض به شواطئها ، لذلك يوجد فيها وقف يشتري من ريعه
جانب كبير من هذا السَّمك ، ويوزَّع على الفقراء مجَّاناً ، وفيها وقف لمن وقع عليه

(١٩) الْخَرْنُوب وَالْخَرْبُوب : نبت معروف ، والخروب الشَّامي حلو يؤكل ، وثمره طيَّال كالقشَّاء الصَّغار ، إلَّا

أنَّه عريض ، (اللسان : خرب) .

(٢٠) حاضر العالم الإسلامي ، شكيب أرسلان : ٨/٢

زيت مصباح ، أو تلوث ثوبه بشيء آخر ، يذهب إلى هذا الوقف ، ويأخذ منه ما يشتري به ثوباً آخر .

وهناك وقف سيدي أبي العباس السبتي للعميان والزمنى^(٢١) ، يأخذون كل يوم من ريعه ما يعيشون به ، ذكوراً وإناثاً على كثرة عددهم .

وفي مدينة فاس وقف لرفع الحجارة من الطرقات ، ووقف للمؤذنين الذين يحيون الليل بالنوبة ، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم ، ويسمى هذا المؤذن (مؤنس الغرباء) ، أو (مؤنس المرضى) ، لأن المريض لا يقدر أن ينام ، ولا يوجد في كل الأحيان من يحيي الليل لأجله ، فليس له أنيس أحسن من هذا المؤذن ، الذي يشجيه بصوته الرخيم ، في تسبيح الباري تعالى في ساعات الليل الأخيرة .

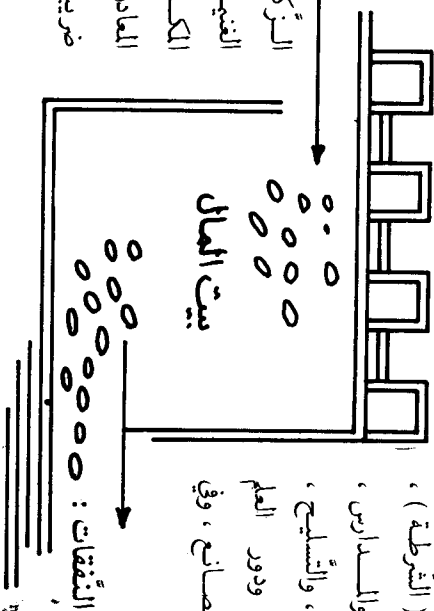
وفي مراكش مؤسسة اسمها (دار الدقة)^(٢٢) ، وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللائي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن ، فلهن أن يقمن آكلات شاربات ، إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من النفور ، وعلى دار الدقة هذه أوقاف عديدة دائرة .

إن هذه الموارد المالية كلها ، لا بد أن توزع على جميع أفراد الأمة توزيعاً عادلاً ، والألتكر في أيدي معدودة ، يقول عز وجل : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر : ٧/٥٩] ، ومبدأ التكافل الاجتماعي نظام مسلم به في أمتنا العربية الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ، « ما آمن بي ساعة من نهار من أمسى شبعان ، وجاره

(٢١) الزمن : ذو الزمانة ، رجل زمن : أي مبتلى بين الزمانة ، والزمانة العاهة ، الجمع : زمنون ، وزمين وزمئى ، (اللسان : زمن) .

(٢٢) الدقة : التوابل ، وما خلط من الأبرار ، وقيل الدقة هو الملح مع ما خلط به من أضراره ، أو هو الملح المدقوق وحده ، ومنه قولهم : مالها دقة ، أي غير مليحة ، وهو مجاز ، والدقة الجمال والحسن ، فدار الدقة : دار الجمال والحسن ، تصحح ما فسد وتشوه في العلاقة الزوجية ، وترجمه حسناً جيلاً ، أو هي دار التوابل والأبرار والملح التي توضع على تلك العلاقة الزوجية المرة فتقومها ، والدقة بفتح الدال : المرة من الدق ، ففعل المعنى : دار الدقة : الدار التي تدق على يدي الزوج الظالم المنيء في معاملته ، حتى توقفه عند حدّه .

للفقراء والمساكين ، وابن السبيل ،
وتحرير العبيد ، والأمن (الشرطة) ،
والمرافق العامة ، والمدارس ،
 والمستشفيات والمقضاء ، والتسليح ،
ورواتب الموظفين ، ودور العلم
والكتبات ، وإقامة المصانع ، وفي
مصالح الدولة عامة .



الواردات :

الزكاة ، الرِّكاز ، الخراج ، خمس
الغنيمة ، الجزية ، الفبي ، المشر ،
المكوس ، أعشار السفن ، أخماس
المعادن ، ربع دار العرب ، الأوقاف ،
ضريبة التمتعيب .

جائع جنبه وهو يعلم » . مع تحريم الاحتكار بنص أحاديث الرسول ﷺ القاطعة :
« من احتكر فهو خاطئ » ^(٢٣) ، وتحريم الربا والربح الفاحش أيضاً .

ومجموعة النظم الإسلامية تمنع الغنى الفاحش ، فنظام الإرث يفتت الثروة على رأس كل جيل ، والإسلام لم يكتف بالتشريعات الاقتصادية ، بل يلجأ إلى الدعوة الخلقية الروحية ، حيث تحريم الترف ، وتحريم أكل حقوق الناس ، مع الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله .. فالإسلام ربط الإنسان بالله ، وجعله يشعر بأخيه الإنسان ، مادياً ومعنوياً ، وله بذلك أجر الله وثوابه ، فالتشريعات لم تكن طاعتها ناشئة من خوف السلطة ، وإنما انبعثت هذه الطاعة من رغبة داخل الضمير .

ومن الملاحظ في النفقات العامة في الدولة الإسلامية أن منها نفقات معينة ، لها موارد مخصصة ، كإنفاق الزكاة في مصارفها الثانية ، وإنفاق الخمس كما حُدّد في كتاب الله عز وجل ، ونفقات ليس لها موارد مخصصة ، كرواتب الجهاز الحكومي والقيام بالمشروعات عامة ، ومنها ما هو دوري كمصروفات إدارة الدولة والضمان الاجتماعي ، ونفقات غير دورية ، كنفقات الحروب ، ومكافحة الأوبئة والفيضانات والثغور ..

وإذا خلا بيت المال ، يأخذ الحاكم المسلم من أموال الأغنياء بالقدر الذي ينفق منه على هذه الضروريات ، فلقد ورد عن الرسول ﷺ : « إن في المال حقاً سوى الزكاة » ^(٢٤) .

☆ ☆ ☆

(٢٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

(٢٤) رواه الترمذي .



* من نقود الخليفة الفاطمي المستنصر

[٤٤٢ و ٤٦٥ هـ = ١٠٥٠ و ١٠٧٢ م]



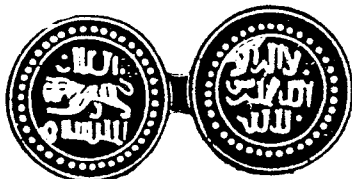
* من نقود صلاح الدين ، ضربت بدمشق

[٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م]



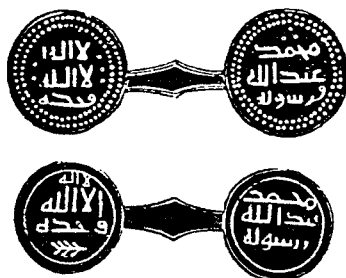
* من نقود الملك الكامل

(أول القرن الثالث عشر من الميلاد)



* من نقود السلطان بيبرس

[١٢٦٠ - ١٢٧٧ م]



* من نقود الخلفاء الراشدين



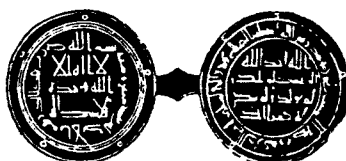
* من نقود الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك

[١٠٧ هـ = ٧٢٥ م]



* من نقود الخليفة المهدي

[١٦٢ هـ = ٧٧٩ م]



* من نقود الخليفة المأمون

[٢١٨ هـ = ٨٢٣ م]

البريدُ وصاحبُ الخبرِ قلم الاستخبارات - عين الخليفة

« وَلَيْتَكَ مَا حَضَرَ بَابِي إِلَّا أَرْبَعَةٌ :
المؤذّنُ فَإِنَّهُ دَاعِي اللَّهِ ، فلا حجاب
له ، وطارق اللّيل ، فشرٌّ ما أتى به ،
ولو وجد خيراً لنام ، والبريدُ فحتى
جاء من ليلٍ أو نهارٍ فلا تحجبه ،
فربّما أفسد على القوم سنة إذا حُسِنَ
البريد ساعة ، والطّعام إذا أدرك » .

١٠ عبد الملك بن مروان

جاء في (اللسان : برد) : البريدُ : فرسخان^(١) ، وقيل : ما بين كل منزلتين
بريد ، والبريد : الرّسل على دواب البريد ، والجمع بُرد ، وبَرَدَ بريداً : أرسله ، وفي
الحديث الشّريف : « إذا أبرّتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم »^(٢) ،
والبريد : الرّسول ، وإبرّادُهُ : إرساله .

وقال القلقشندي عن البريد : المراد منه مسافة معلومة مقدّرة باثني عشر ميلاً ،
وقد قدّر الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنّه أربعة فراسخ^(٣) .

(١) والصّحيح : أربعة فراسخ كما في صبح الأعشى ٣٦٦/١٤ ، فالفرسخ الشّرعي = ٥,٥٤٤ كم ، والبريد
الشّرعي = ٢٢,١٧٦ كم = ٤ فراسخ .

(٢) رواه البزار عن بريدة ، انظر فيض القدير للمناوي .

(٣) الميل الشّرعي ١٨٤٨ متراً ، فتكون سكّة البريد : ١٨٤٨ × ١٢ = ٢٢١٧٦ متراً = ٢٢,١٧٦ كم ، وفي
الحديث الشّريف : « لا تُقَصِّر الصّلاة في أقلّ من أربعة بُرد » ، فتكون مسافة القصر بذلك :
٨٨,٧٠٤ كم ، انظر : الإيضاح والتّبيان في معرفة المكيال والميزان ، لابن الرّفعة الأنصاري .

وجاء أيضاً في اللسان أيضاً : البريد : كلمة فارسيّة يراد بها في الأصل البرد ، وأصلها : (بريده دم) ، أي محذوف الذنب .

والأصح - كما يذكر القلقشندي :- مقصوص الذنب ، وذلك أنّ ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد ، قصّوا ذنبه ليكون ذلك علامة ، لكونه من بغال البريد ، وذهب الخليل إلى أنّه عربي ، وأنه مشتق من بردت الحديد ، إذا أرسلت ما يخرج منه ، وقيل : من أبردته إذا أرسلته ، وقيل : من برّد إذا ثبت ، لأنّه يأتي بما تستقرّ عليه الأخبار ، يقال : « اليوم يوم بارد سمومه » أي ثابت ^(٤) .

ومراكز البريد : هي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرساً بعد فرس ، وليست على المقدار المقدّر في البريد المحرّر - أي ٢٢,١٧٦ كم - بل هي متفاوتة الأبعاد ، إذا ألجأت الضرورة إلى ذلك : تارة لبعد ماء ، وتارة للأنس بقرية ، حتّى إنك لترى في هذه المراكز البريد الواحد بقدر بريدين ، ولو كانت على التحرير الذي عليه الأعمال لما كان تفاوت ^(٥) .

ومهمة البريد نقل الأخبار والرّسائل بين الولايات ومركز الدولة ، والبريد في بداياته كان « لا يساق إلاّ للمهمّات السّلطة » ^(٦) .

وعندما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الملوك والأمراء ، قيل له : « يا رسول الله ، إنهم لا يقرؤون كتاباً إلاّ إذا كان مختوماً » ، أي ليكون في ذلك إشعاراً بأنّ الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون ممّا لا يطلع عليها غيرهم ، ويكون الغرض من ذلك أيضاً أمن التزوير ، لعدم إمكان وقوعه مع الخاتم ، فاتخذ ﷺ خاتماً

(٤) صبح الأعشى : ٣٦٧/١٤

(٥) صبح الأعشى : ٣٧٢/١٤

(٦) معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٢

من فضة ، عليه ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، والأسطر الثلاثة تُقرأ من أسفل إلى فوق ، فمحمد آخر الأسطر ، ورسول في الوسط ، والله فوق^(٧) .

وبعد انتشار الإسلام في جزيرة العرب ، كانت ترد رسول الله ﷺ أخبار أرجائها ، فعندما تنبأ الأسود العنسي مثلاً ، كتب ﷺ كتاباً حمله وبر بن يحسن الأزدي ، يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته ، وقام معاذ بن جبل - الذي كان معلماً هادياً في اليمن - بهذا الكتاب أتم القيام^(٨) .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه على اتصال دائم ومستمر مع جيوشه كلها في حروب الردة^(٩) ، تصله أخبارها بانتظام ، وبشكل سريع ، وبرز من الرسل ما بين الجبهات وبين مقر القيادة : أبو خيثمة النجاري ، وسلمة بن سلامة ، وأبو برزة الأسلمي ، وسلمة بن وقش .. فكان رضي الله عنه على اتصال دائم مع كل الجبهات ، ١٠ يعلم دقائق أمورها وتحركاتها ، وما حققت ، وما عليها في غدي من واجبات .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدير جبهات المعارك في العراق وبلاد الشام ومصر ، وهو في عاصمة الخلافة ، في المدينة المنورة ، يرسم الخطط ، ويبعث بأوامره وتعليماته إلى القواد ، فكانت مراسلاته مع الجبهات يومية ، ترد أخبارها في كل صباح ، وفي كل مساء ، وتابع أعمال عماله وتحركاتهم ، يعرف أخبارهم بتفاصيلها ، ويُلَمَسُ ١٥ ذلك في كثرة كتبه إلى عماله وعمّالهم .

وكانت المراسلات في صدر الإسلام منظمة وسريعة إثر كل معركة ، إذ كان القائد يرسل بشيراً إلى المدينة المنورة ، يحمل بشرى النصر .

(٧) ابن هشام ١٨٨/٤ ، السيرة الحلبية ٢٧٠/٣ ، السيرة النبوية لابن كثير ٥٠٧/٣ ، البداية والنهاية ٢٦٨/٤ ،

الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٦٤/١

(٨) الطبري ٢٢٩/٣ ، الكمل في التاريخ ٢٢٨/٢ ، البداية والنهاية ٣٠٧/٦ و ٣٠٨

(٩) وكان عددها أحد عشر جيشاً .

أَيَّامُ الْأُمَوِيِّينَ : واحتاج المسلمون أَيَّامُ الْأُمَوِيِّينَ إِلَى استخدام الْبَرِيدِ عَلَى نِطاقٍ واسعٍ ، فنظَّمَهُ معاوية بن أَبِي سَفْيَانَ ^(١٠) ، « وذلك حين استقرَّتْ لَهُ الْخِلاَفَةُ .. فَوَضَعَ الْبَرِيدَ لِتُسْرِعَ إِلَيْهِ أَخْبَارُ بِلَادِهِ مِنْ جَمِيعِ أَطْرَافِهَا ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ رِجَالٍ مِنْ دَهَاقِينَ الْفُرْسِ ، وَأَهْلِ أَعْمَالِ الرُّومِ ، وَعَرَفَهُمْ مَا يَرِيدُ ، فَوَضَعُوا لَهُ الْبَرِيدَ » ^(١١) .

وَأَتَمَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ^(١٢) عَمَلَ معاوية ، فَأَحْكَمَهُ وَأَعْطَاهُ طَابِعَهُ النَّهَائِيَّ ، وَوَضَعَ (الصُّوَى) ^(١٣) عَلَى الطُّرُقِ ، لِتُرْشِدَ الْمَسَافِرَ إِلَى الْإِتِّجَاهِ ، وَتَحَدِّدَ الْمَسَافَةَ الْمَتَّبِيقَةَ ، وَأَوْصَى رِجَالَهُ بِحَمْلِ الْبَرِيدِ فِي أَيِّ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، « فَتَأْخِيرِ الْبَرِيدِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، إِضْرَارُ سَنَةٍ بِمِصَالِحِ الْعِبَادِ » ، وَقَالَ لِحَاجِبِهِ ^(١٤) يَوْمًا : « وَلَيْتَكَ مَا حَضَرَ بَابِي إِلَّا أَرْبَعَةٌ : الْمُؤَدِّنُ ، فَإِنَّهُ دَاعِي اللَّهِ تَعَالَى فَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ ، وَطَارِقُ اللَّيْلِ ، فَشَرُّ مَا أَتَى بِهِ ، وَلَوْ وَجَدَ خَيْرًا لَنَامَ ، وَالْبَرِيدُ ، فَتَقَى جَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَلَا تَحْجِبُهُ ، فَرَبِّمَا أَفْسَدَ عَلَى الْقَوْمِ سَنَةً حَبَسَهُمُ الْبَرِيدَ سَاعَةً ، وَالطَّعَامُ إِذَا أَدْرَكَ ، فَافْتَحَ الْبَابَ ، وَارْفَعَ الْحِجَابَ ، وَخَلَّ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ الدُّخُولِ » ^(١٥) .

أَيَّامُ الْعَبَّاسِيِّينَ : عِنْدَمَا أَرْسَلَ الْمَهْدِيُّ ابْنَهُ هَارُونَ الرَّشِيدَ لَغْزْوِ الرُّومِ ، أَحَبَّ أَنْ لَا يَزَالَ عَلَى عِلْمٍ قَرِيبٍ مِنْ خَبَرِهِ ، فَرتَّبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْسَكَرِ ابْنِهِ بُرْدًا تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ ، فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، فِيمَا كَانَتْ خِلاَفَةُ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ حَسَنُ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِجْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِمُلْكِهِ ، فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ

(١٠) ٢٠ ق.هـ - ٦٠ هـ = ٦٠٣ - ٦٨٠ م ، وَكَانَتْ خِلاَفَتُهُ مِنْ ٤١ - ٦٠ هـ .

(١١) صَبِيحُ الْأَعَشَى ٣٦٨/١٤

(١٢) ٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م ، وَكَانَتْ خِلاَفَتُهُ مِنْ سَنَةِ ٦٥ هـ ، إِلَى ٨٦ هـ .

(١٣) الصُّوَى : حَجَرٌ عَلَى قَارِعَةِ الطُّرُقِ ، تَكْتُبُ عَلَيْهِ الْمَسَافَةُ الْمَتَّبِيقَةُ ، وَيُثَبَّتُ عَلَيْهِ الْإِتِّجَاهُ أَيْضًا .

(١٤) فِي صَبِيحِ الْأَعَشَى : ٣٦٨/١٤ اسْمُ الْحَاجِبِ ابْنِ الدُّغَيْدَةِ تَقْلًا عَنْ أَبِي هِلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ .

(١٥) صَبِيحُ الْأَعَشَى ١١٤/١ وَ ٤٥٠/٥ وَ ٣٦٨/١٤ ، وَيَذْكُرُ هَذَا الْكَلَامَ عَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ - أَيْضًا .

يحيى بن خالد ، ورثته على ما كان عليه أيام بني أمية ، وجعل البغال في المراكز ، وكان لا يُجهّز عليه إلا الخليفة ، أو صاحب الخبر ^(١٦) .

وتوسّعت مهام البريد زمن العباسيين ، فأخذ يهتم (صاحب البريد) بما تهتم به المخابرات العامة اليوم ، وأنشؤوا له ديواناً خاصاً ، فأصبح صاحب البريد يراقب الولاة ، وما يدور في المجتمع ، ويتجسس على الأعداء ، يرسل عيوناً بصفة تجار ه أو سواح .

وجعل الخلفاء والأمراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرّية يتفقون عليها ، ولو كان محتوماً بخاتمهم ، من ذلك ما فعله أبو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور ^(١٧) ، وكان يخشى مغبة هذه المقابلة ، فاستخلف أبو مسلم على عسكره أبا نصر بن الهيثم ، وقال له : إن جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو خاتمي ، وإن كان محتوماً بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمي ، ولما أمر المنصور بقتل أبي مسلم ، أخذ خاتمه وختم به رسالة إلى ابن الهيثم ، فلما اطلع عليه هذا الأخير ، عرف أنه كتب وختم رغم إرادة أبي مسلم ، أو دون علمه ^(١٨) .

وكان المنصور يقول : « ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فقليل له : يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، ولا يصلح الملك إلا بهم ؛ كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة وهى ، أمّا أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقضي ولا يظلم الرعية ، فإني عن

(١٦) صبح الأعشى ٣٦٩/١٤

(١٧) المنصور : عبد الله بن محمد بن علي العباسي : ٩٥ - ١٥٨ هـ = ٧١٤ - ٧٧٥ م ، وكانت خلافته من ١٣٦ ، إلى ١٥٨ هـ .

(١٨) قال المنصور لسلم بن قتيبة : ماترى في قتل أبي مسلم ؟ فقال سلم : لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا ، فقال المنصور : حسبك يا أبا أمية ، (عيون الأخبار ٢٦/١) .

ظلمها غنيًّا ، والرَّابع ، ثمَّ عَضَّ على أَصبعه السَّيَّابَة ثلاث مرَّات ، يقول في كلِّ مرَّة : آه
آه ، قيل له : وَمَنْ هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على
الصَّحَّة « (١٩)

وولَّى المنصور رجلاً من عرب حضرموت ، فكتب إليه صاحب البريد أنه يكثر
الخروج في طلب الصَّيد ببزاة وكلاب قد أعدّها ، فعزله وكتب إليه : « ثكلتك أمك
وعدمتك عثيروتك ! ما هذه العِدَّة الَّتِي أعددتها للنَّكابة في الوحش ! إنا إننا استكفيناك
أُمور المسلمين ، ولم نستكفك أُمور الوحش ، سلِّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن
فلان ، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً » (٢٠) .

لقد بلغ من انتظام إدارة البريد في عهد المنصور أن عمَّاله كانوا يوافقونه بالأخبار
مرَّتين في اليوم ، فكان يوقف القاضي عند حدِّه إذا ظلم ، ويرجع السَّعر إلى حالته
الأولى إذا ارتفع .. قال المنصور للمهدي : « يا أبا عبد الله ، لا يصلح السُّلطان إلَّا
بالنَّقوى ، ولا تصلح رعيَّة إلَّا بالطَّاعة ، ولا تعمَّر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة
السُّلطان وطاعته إلَّا بالمال ، ولا تَقْدُم في الحياطة بمثل نقل الأخبار ، وأقدر النَّاس
على العفو ، أقدرهم على العقوبة ، وأعجز النَّاس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل
صاحبك ، وعلمه باختباره » (٢١) .

وحذَّر قاضي القضاة أبو يوسف الرُّشيد ونُبَّهه لصاحب البريد : « على أنه قد
بلغني عن ولاتك على البريد والأخبار في النُّواحي تخليط كثير ومحاباة فيما يُحتاج إلى
معرفة من أُمور الولاية والرَّعيَّة ، وأنَّهم ربَّما مالوا مع العمَّال على الرَّعيَّة وستروا أخبارهم
وسوء معاملتهم للنَّاس ، وربَّما كتبوا في الولاية والعمَّال بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم ، وهذا
مَّا ينبغي أن تتفقَّده وتأمُر باختيار الثِّقات العدول من أهل كلِّ بلد ومصر فتوليهم

(١٩) الطُّبري ٦٧/٨

(٢٠) الطُّبري ٦٨/٨

(٢١) الطُّبري ٧١/٨

البريد والأخبار ، وكيف ينبغي ألا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ؟ ويجرى لهم من الرزق من بيت المال ، وليدّر عليهم ، وتتقدّم إليهم في أن لا يستروا عنك خبراً عن رعيتك ، ولا عن ولايتك ، ولا يزيدوا فيما يكتبونه به عليك خبراً ، فمن لم يفعل منهم فنكّل به ، ومتى لم يكن البرد والأخبار في النواحي ثقات عدولاً ، فلا ينبغي أن يقبل لهم خبر في قاضٍ ولا والٍ ، إننا يحتاط بصاحب البريد على القاضي والوالي وغيرها ،^٥ فإذا لم يكن عدلاً فلا يحلّ ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله ، وتقدم إليهم أن لا يحملوا على دواب البريد إلا من تأمر بحمله في أمور المسلمين ، فإنها للمسلمين .

حدّثنا عبيد الله بن عمر أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة ، ونهى عن اللجم الثقيل .

وحدّثنا طلحة بن يحيى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان يبرد ، فحمل^{١٠} مولى له رجلاً على البريد بغير إذنه فدعاه ، فقال : لا تبرح حتّى تقوّمه ، ثمّ تجعله في بيت المال »^(٢٢) .

ورتبّ المعتصم البريد بين سامراء والبذ - في أذربيجان - حيث قائده الأفشين يقاتل بابك الخرمي ، حتّى إن الخبر كان يأتيه من مسيرة شهر في أربعة أيّام^(٢٣) .

ونقل البريد أثناء الحرب بالجمازات^(٢٤) . وأهم طرق البريد في الدولة العباسيّة :^{١٥}

من بغداد إلى القيروان عبر أرض الجزيرة ، فدمشق ، فالقاهرة ، فالاسكندريّة .. إلى القيروان .

ومن بغداد إلى الشام عن طريق الصّفة الغربيّة لنهر الفرات .

(٢٢) الخراج ، ص ٢٠١

(٢٣) النجوم الزاهرة ٢٣٧/٢ ، كما استخدم حمام الزاجل خلال القضاء على بابك الخرمي .

(٢٤) الجمازات أشبه بالعربة التي تجرّها الخيل السريعة ، وكان يركبها عمال البريد ورجال الحرب ، وأمّثالهم من يتطلّب عليهم السرعة .

ومن بغداد إلى المشرق مرو ، فبخارى ، فسرقتند إلى أن يصل إلى الصّين ، ومن مرو يتفرّع طريق إلى فرغانة^(٢٥) .

وأدخل بنو بويه عندما سيطروا على الخلافة في بغداد نظام السّعاة ، وكان يقال لهم الفيوج ، وهم طائفة من موظفي البريد ، يتخصّصون في نقل البريد السّريع ، واستمال معز الدولة هؤلاء السّعاة بالأرزاق والجرايات الكثيرة ، حتّى رغب الشُّبان في هذه الحرفة ، وأقبل فقراء المسلمين على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريبتهم .

وكان البريد ينتقل من محطة إلى أخرى على ظهور خيل مهيأة تنتظر البريد لتنقله المسافة المخصّصة لها بسرعة كبيرة ، وفي أعناقها أجراس يُسمّع لها رنين تعرف بها ، تسمّى عادة (قعقة البريد) ، « وكان جماعة من النّجابين يبيتون في كلّ ليلة بباب الدّيوان ، يبيت أحدهم وتحت رأسه راحلته وزاده ونفقته ، وقد ودّع أهله ، فإن عرض في اللّيل مهمّ توجّه فيه »^(٢٦) .

ومّا يذكر أن ديوان البريد كان « يصدر أدلّة مكتوبة ، ليستعين بها التّجار والحجّاج ، تحوي أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحدة منها عن الأخرى ، وكانت هذه الأدلّة أساس علم تقويم البلدان عند العرب »^(٢٧) ، وكانت محطة البريد ، خاناً حصيناً ، فيه غرف إقامة لرجال البريد ، وأمّاكن لدوابهم ، واصطبلات لتبادل الخيول ، والعناية بها ، ومطاعم ومياه نقيّة ، وفي ديوان البريد في كلّ ولاية تقاويم خاصّة فيها ذكر للمسالك في الولاية ومراكز محطات البريد ، وفي ديوان بريد العاصمة ، نسخة عن كلّ ما في الولايات ، مع تصنيف يغطّي شبكة المواصلات ، ومراكز البريد في جميع أنحاء الدّولة .

(٢٥) في صبح الأعشى ٣٧٢/١٤ - ٣٩٤ مراكز البريد أيام المماليك .

(٢٦) الفخري ، ص ٦١

(٢٧) قصّة الحضارة ١٣/١٤٧

وعرفت الهند تحت حكم المغول المسلمين - أيّام السُلطان أكبر - « خدمة منتظمة للبريد يقوم على ظهور الإبل ، وأقام في الطُّرُق الرَّئِيسِيَّة الوُكَّائل والخانات على مسافات قصيرة »^(٢٨) ، يقول ابن بطوطة : « والبريد ببلاد الهند صنفان : فأما بريد الخيل فيسمونه الولاقي (أولاق) ، وهو خيل تكون للسُلطان في كلّ مسافة أربعة أميال ، وأما بريد الرّجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ، ويسمونها ٥ الدّاوة ، والدّاوة هي ثلث ميل ، والميل عندهم يسمّى الكروة ، وترتيب ذلك أن في كلّ ثلث ميل قرية معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب ، يقعد فيها الرّجال مستعدّين للحركة ، قد شدّوا أوساطهم ، وعند كلّ واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل نحاس ، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتدّ بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرّجال الذين بالقباب ١٠ صوت الجلاجل تأهّبوا له ، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ، ومرّ بأقصى جهده ، وهو يحرك المقرعة حتّى يصل إلى الدّاوة الأخرى ، ولا يزالون كذلك حتّى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه .

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربّما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند ، من فواكه خراسان ، يجعلونها في الأطباق ، ويشتدّون بها حتّى ١٥ تصل إلى السُلطان ، وكذلك يحملون أيضاً الكبار من ذوي الجنايات ، يجعلون الرّجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رؤوسهم ، ويسيرون به شدّاً ، وكذلك يحملون الماء لشرب السُلطان ، إذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكنك - الغانج - الذي تحجّ الهنود إليه ، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها ، وإذا كتب المخبرون إلى السُلطان بخبر من يصل إلى بلاده ، استوعبوا الكتاب ، وأمعنوا في ذلك ، وعرفوه أنّه ورد رجل ٢٠ صورته كذا ، ولباسه كذا ، وكتبوا عدد أصحابه وغلّمانه وخدمته ودوابه ، وترتيب حاله وسكونه ، وجميع تصرّفاته ، لا يغادرون من ذلك كلّ شيء ، فإذا وصل إلى مدينة

مُلتان ، وهي قاعدة بلاد السند ، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدمه وما يجري له بالضيافة ، وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته ، إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه »^(٢٩) .

وبلغ نظام البريد ذروته ، من حيث الإتقان والإحكام زمن الماليك ، حيث أتقن
نظام البريد الجوي (حمام الزاجل)^(٣٠) ، ونظم الماليك شبكات له غطت أرجاء
الدولة ، وكانت المسافة بين أبراجها تزيد كثيراً عنها في البريد البري ، « الحمّام أوّل
مانشأ بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة من الموصل ، وأنّ أوّل من اعتنى به من الملوك
ونقله من الموصل السلطان نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة
خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميّون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له
ديواناً وجرائد بأنساب الحمام ، وصنّف فيه الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
سمّاه (تَمَائِمُ الْحَمَائِمِ) .. وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك أبو الحسن بن مُلاعِب
القوّارس البغدادي ، فصنّف فيه كتاباً للنّاصر لدين الله الخليفة العبّاسي ببغداد ، وذكر
فيه أسماء أعضاء الطّائر ورياشه ، والوشوم التي توسم في كلّ عضو ، وألوان الطّيور ،
وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبُعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر
شيئاً من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا الجرى ، وأظنّ أنّ كتاب القاضي
محيي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مقدّمته »^(٣١) .

« وذكر ابن سعيد في كتابه (حَيَا الْمَحَلِّ وَجَنَى النَّحْلِ) أن العزيز ثاني خلفاء
الفاطميّين بمصر ، ذكر لوزيره يعقوب بن كلّس أنّه ما رأى القراصيّة^(٣٢) البعلبكيّة ،

(٢٩) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٧٩

(٣٠) انظر : صبح الأعشى ٣٨٩/١٤ : مطارات الحمام الرّسائي و ذكر أبراجها المقررة بطرق الديار المصريّة والبلاد الشاميّة .

(٣١) صبح الأعشى ٣٩٠/١٤ ، ويقال : للحمام الزّاجل بوصلتان : الشّمس ، والحقل المغناطيسي للكرة الأرضيّة .

(٣٢) القراصيّة : تطلق على الثّمار الجفّفة لنوع من البرقوق (الكثرى) ، لونها أزرق ضارب إلى السّود ، [قراصيّة في الموسوعة العربيّة الميسرة] ، والعطارون اليوم يطلقونها على نوع صغير من الخوخ .

وأنه يحبُّ أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر ، وبمصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطاقةً يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحَمَام المصري ، ويعلِّق في كلِّ طائرٍ حَبَاتٍ من القراصية البعلبكيَّة ، ويرسلها إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمضِ النَّهار حتَّى حضرت تلك الحمايم بما علِّق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كِلْس وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه « (٣٣) .

كما نقل المماليك الثلج من الشَّام إلى مصر ، إمَّا على المركب : « والمراكب تأتي دمياط في البحر ، ثم يخرج الثلج في التَّيْل إلى ساحل بولاق ، فينقل منه على البغال السُّلْطانيَّة » (٣٤) ، إلى القلعة - مقر السُّلْطان - حيث يخزَّنه ثلاجون بشكل سليم . وإمَّا على الهُجُن « من دمشق إلى الصَّنين ، ثمَّ منها إلى بانياس ، ثمَّ منها إلى أُرَيْد ، ثمَّ منها إلى بيسان ، ثمَّ منها إلى جينين ، ثمَّ منها إلى قاقون ، ثمَّ منها إلى لَدَّ ، ثمَّ منها إلى غَزَّة ، ثمَّ منها إلى العريش ، ثمَّ منها إلى الوَرَّادة ، ثمَّ منها إلى المُطَيِّلِب ، ثمَّ منها إلى قَطِيَا ، ثمَّ منها إلى القُصَيْر ، ثمَّ منها إلى الصَّالحِيَّة ، ثمَّ منها إلى بُلْبَيْس ، ثمَّ منها إلى القلعة » (٣٥) ، في القاهرة .

يذكر الجاحظ : « وللحمام من حسن الاهتداء ، وجودة الاستدلال ، وثبات الحفظ والذكر ، وقوَّة النَّزاع إلى أربابه ، والإلف لوطنه ، ما ليس لشيءٍ » (٣٦) ، « ويرى البصريُّون : الذَّكر أَحَنُّ إلى بيته لكان أنثاه ، وهو أشدُّ متناً ، وأقوى بدنأً ، وهو أحسن اهتداء » (٣٧) .

كما وأرسل البريد على السُّفن في البحار والأنهار ، ولكن بشكل محدود .

(٣٣) صبح الأعشى ٣٩١/١٤

(٣٤) صبح الأعشى ٣٩٥/١٤

(٣٥) ضبح الأعشى ٣٩٦/١٤

(٣٦) الحيوان ٢١٤/٣

(٣٧) الحيوان ٢٢٣/٣

وكانت للنيران ودخانها اصطلاحات بين الأبراج ، وفي الرِّباطات السَّاحليَّة خاصَّة ، يتفاهمون بها ، فيخبر كلُّ برج البرج الَّذي يليه ، كتحذيرهم من سفن معادية متسلَّلة^(٣٨) ، وعرفت أبراج النيران (بالمَنَاور) : « وهي رفع النَّار في اللَّيل ، والدُّخان في النَّهار »^(٣٩) .

وتنبَّه الموحِّدون في المغرب العربي والأندلس إلى أهميَّة البريد ، فجاء في « الرُّسالة المشهورة » ، الَّتِي تعتبر بمثابة دستور دأب الموحِّدون على ترديده : « .. وتخيروا لرسائلكم إرسالاً ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثَّقة رجالاً ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في الحجى والانصراف ويقطع شأنهم عن التَّكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أيَّاماً معروفة محدَّدة ، معلومة الأمد ، لينتهوا إليها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحدٍ من النَّاس ولو مثقال ذرَّة ، وأوعدوا من تسبَّب منهم بمساءة أو مضرة .. »^(٤٠) .

وعرف (البريد) الكتابة بحبر سري ، فإذا وصلت الرُّسالة إلى المكتوب إليه فعل فيه فعلاً يكون مقررّاً بين المتكاتبين ، من إلقاء شيء على الكتابة ، أو بمسحه بشيء ، أو عرضه على النَّار ، ونحو ذلك .. مثل : أن يكتب في الورق بلبن حليب قد خلط به نشادر ، فإنَّه لا تُرى فيه صورة الكتابة ، فإذا قُرَّب من النَّار ظهرت الكتابة ، ومنها : أن يكتب في الورق أيضاً بماء البصل المعتصر منه فلا تُرى الكتابة ، فإذا قُرَّب من النَّار أيضاً ظهرت الكتابة^(٤١) ..

(٣٨) كان على شواطئ المتوسط من الإسكندرونة إلى الرِّباط عاصمة المغرب ألف رباط ، وذلك بمعدِّل رباط واحد كلُّ سِتَّة كيلومترات ، وذلك لمراقبة الشَّواطئ ، والتَّحذير من غارات السفن المعادية .

(٣٩) صبح الأعشى ١٤/٣٩٨

(٤٠) الثَّقَنُ بالإمامة (تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحِّدين) ص ٢٣٠ ، عبد الملك بن صاحب الصَّلَاة ، تحقيق د . عبد الهادي التَّازي . دار الغرب الإسلامي .

ومَّا يذكر أن إشبيلية احتفلت بنصر الزلاقة العظيم ، الَّذِي أحرزه المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين بواسطة حمام الزَّاجل ، قبل أن يغادر جيش المرابطين ميدان القتال .

(٤١) صبح الأعشى ٩/٢٣٠

وعرفت أيضاً (الشيفرة) ، أي الرُّموز السَّريَّة ، حتَّى إذا وقعت بيد إنسان لا يعرف مضمونها ، والمراد منها ، وأفرد القلقشندي فصلاً عنوانه : (في إخفاء ما في الكُتُب من السَّر) ، وقال : « وهو ممَّا تَمَسُّ الحاجة إليه عند اعتراض معترض من عدوِّ ونحوه يُحوِّل بين المكتوب عنه والمكتوب إليه » ^(٤٢) .



ويمكننا إجمال أهداف نظام الحكم في الإسلام ، في كلِّ الوظائف السابقة الَّتِي ذكرنا : تحقيق سعادة الإنسان ، وطمأنينة الفرد ، وتحقيق العدالة الاجتماعيَّة ، ومما عرضناه يتَّضح :

احترام رأي الأُمَّة في تسيير شؤون الحكم والسُّلطة : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ،

[آل عمران : ١٥٩/٣] .

سيادة الشريعة على المجتمع دون استثناء : ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ،

[المائدة : ٤٨/٥] .

العدالة والمساواة بين أبناء الأُمَّة في الحقوق والواجبات بمختلف فئاتهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ،

[النساء : ٥٨/٤] .

الكفاءة والاستقامة في تولي شؤون الأُمَّة : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ

الْأَمِينُ ﴾ ، [القصص : ٢٦/٢٨] .

العدالة في توزيع الثروة : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ،

[الحشر : ٧/٥٩] .

حقُّ النقد الإيجابي ، والنصح لله خالصاً دون رياء ، قال العتيبي : بُعث إلى عمر بن

(٤٢) صبح الأعشى ٢٢٩/٩

الخطّاب مجلل فقسمها ، فأصاب كلّ رجل ثوب ، فصعد المنبر وعليه حُلّة ، والحُلّة ثوبان ، فقال : أيُّها النَّاسُ ألا تسمعون ، فقال سلمان - الفارسي - : لانسع ، قال : وَلِمَ يا أبا عبد الله ؟ قال : لأنّك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حُلّة ، قال : لاتعجل يا أبا عبد الله ، ثمّ نادى يا عبد الله ، فلم يُجبه أحد ، فقال : يا عبد الله بن عمر ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : نشدتك بالله ، الثوب الذي أتزرت به هو ثوبك ؟ قال : اللهم نعم ، فقال سلمان رضي الله عنه : أمّا الآن فقل نسع^(٤٣) .

قال معاوية بن أبي سفيان لابن الكوّى : صِفْ لي الزَّمان ، فقال : أنت الزَّمان ، إن تصلح يصلح ، وإن تفسد يفسد .

وقال رجل لعبد الملك بن مروان : إنني أريد أن أُسرَّ إليك شيئاً ، فقال عبد الملك لأصحابه : إذا شئتم ، فنهضوا ، فأراد الرَّجل الكلام ، فقال له عبد الملك : قف ، لاتمدحني فأنا أعلم بنفسك منك ، ولا تكذبي فإنّه لا رأي لكذوب ، ولا تغتب عندي أحداً ، فقال الرَّجل : يا أمير المؤمنين ، أفتأذن لي في الانصراف ؟ قال له : إن شئت .

وقال عمر بن عبد العزيز لمزاحم موله : إنّ الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي ، فإن سمعت مني كلمة تربها بي عنها ، أو فعلاً لاتحبه ، فعظني عنده ، وانهي عنه .

وقال المنصور لابنه المهدي : أي بُني ، اثتدِم النّعمة بالشُّكر ، والمقدرة بالعفو ، والطّاعة بالتّألف ، والنّصر بالتّواضع والرّحمة للنّاس^(٤٤) .



(٤٣) عيون الأخبار ٥٥/١

(٤٤) تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر ٢١٨/٢٨

الجيش والأسطول

- إذا كان الإسلام قد خاض حروباً
ضد أعدائه ، فهو لم يبادر إليها ،
ومتى فرضت عليه أرادها رادعة
وعادلة لا مدمرة ، فليست الحرب من
أهداف الإسلام ، ولا من اختراعه ،
فهي قديمة في التاريخ ، وربط
الإسلام ضمير المجاهد ، بمثل أعلى هو
الله ، فجهاد المسلم في سبيل الله
حصراً ، لذلك لا اعتداء على الأنفس
والأموال والأعراض ..

الجيش :

- لم يكن للعرب في جاهليتهم نظام خاص للجند ، فكل رجال القبيلة مدعوون
للقتال مشاة أو فرساناً ، إذا مادعا الداعي ، حاملين السيوف والرماح والأقواس ، فإذا
ما انتهى القتال ، عادوا إلى مساكنهم ، وانصرفوا إلى أعمالهم .

أما الدول التي تأسست في جزيرة العرب - في اليمن والشَّام والعراق - فقد كانت
متقدمة حربياً ، وفيها نظم للجندية .

وفي عصر رسول الله ﷺ كان كل مسلم مدعواً للجهاد في سبيل الله ، كلما نادى
منادي الجهاد : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، [التوبة : ٤١/٩] .

وجعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجند فئة مخصوصة ، وأنشأ لهم ديوان
الجند ، فسجل أسماءهم ، ومقدار أرزاقهم ، وأكمل الأمويون ما بدأه عمر في نظام

الجندیّة ، وأوّل من طبّق التّجنيد الإجباري على نطاق واسع الحجاج بن يوسف الثّقفي ، زمن عبد الملك بن مروان ، ونما الجيش نمواً كبيراً في زمن العبّاسيّين ، واستُعِين بالأعاجم وخصوصاً الخراسانيّين ، وكان هؤلاء الجند يكوّنون الجيش النظامي للدولة ، تدفع لهم الرّواتب بانتظام ، ولكن عندما أساء الجند الذين جاء بهم المعتصم من ما وراء النهر ، بنى لهم عاصمة جديدة (سامراء) ، ثمّ أضحت السّلطة بيدهم ، يؤلّون خليفة ، ويعزلون آخر ، ويقتلون ويحبسون .

واهتمّ المرابطون بالقوّة الاحتياطية التي ضمّت صفوة الجند ، والتي كانت تُزج في المعركة في الوقت المناسب لتحقيق النصر .

الجهاد :

بقي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو الناس بالحجّة والموعظة الحسنة ، وقد أذاقته قريش - وأذاقت المؤمنين عامّة - كلّ صنوف الأذى ، وصبر الله عزّ وجلّ نبيّه : ﴿ وَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٥/٤٦] ، فتخلّى المسلمون في مكّة المكرمة عن العنف ، وسلكوا طريق المسالمة ، لطراوة عود الإسلام الذي يحتاج إلى فرصة كي يشتدّ ويصلب ، ولأنّ الإسلام جعل التعامل الإنساني ، والكلمة الطيبة ، والمحبة والقناعة منهجاً للروح الإيمانيّة ولدعوته ، ولكن عندما ضاعت الكلمة الطيبة وسط بحر زاهر من القوّة المستكبرة للمشركين ، كانت المواجهة بعد الهجرة ^(١) : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ،

(١) ولو قاتل رسول الله ﷺ في مكّة قبل الهجرة ، وقامت قريش للقضاء عليه وعلى من معه من المسلمين المستضعفين ، لقوم الموقف أن قبيلة قريش تؤدّب فرداً من أفرادها ، فالأمر مسألة داخلية تحدث في كلّ قبيلة عربيّة ، ولا شأن للآخرين بها ، أمّا بعد الهجرة ، وبعد عمليّة الفرز التي تمّت بين مجتمع مسلم مؤمن في المدينة ، ومجتمع وثني مشرك في مكّة ، تغيّرت المسألة ، وتبدّل الموقف .

[الحج : ٣٩/٢٢ و ٤٠] ، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، [البقرة : ١٩٠/٢] .

إن القتال في الإسلام لم يشرع إلا (دفاعاً عن النفس) ، وما إلى ذلك من العرض والمال ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على عدم سفك الدماء ، ففي بدر الكبرى أراد حصاراً اقتصادياً ليعوّض عما صدرته قريش في مكة المكرمة ، وفي أحد أراد البقاء في المدينة المنورة ، والمحاصرة لدفع قريش بأقل خسائر ، وفي الخندق كان موقفه ﷺ موقف المدافع ، ودخل مكة عام الفتح (٨ هـ) دون إراقة دماء تذكر ..

وربط الإسلام ضمير المجاهد بمثل أعلى هو الله تبارك وتعالى ، فجهاد المسلم في سبيل الله حصاراً ، لذلك .. لا اعتداء على الأنفس والأموال والأعراض .

- ١٠ فالجهاد لردّ الظلم والبغي والعدوان ، ولتأمين حرّية الدّعوة ، وحرّية الدّين والاعتقاد : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٦/٢] ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ ، [النحل : ٨٢/١٦] ، ولنصرة المظلومين المضطهدين من الشعوب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ ، [النساء : ٧٥/٤] ^(٢) .

(٢) قال توينبي - شيخ المؤرخين في القرن العشرين :- من الميسور أن نسقط الدّعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلّوا في تجسيم أثر الإكراه في الدّعوة الإسلامية ، إذ لم يكن التّخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف ، وأنا كن تخييراً بين الإسلام والجزية ، وهي الخطّة التي استحقّت النّساء لاستنارتها ، حين اتّبعت بعد ذلك في البلاد الإنكليزيّة على عهد الملكة أليزابيت . (ما يقال عن الإسلام ، ص ٢٧) ، ويقول ول ديورانت عن المسلمين : « لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحّشين .. ولم يكن الأعداء يخشون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف .. حتّى أصبحت الفتوح العربيّة - التي كانت أسرع من الفتوح الرومانيّة ، وأبقى على الزّمان من الفتوح المغوليّة - أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربيّ كلّّه » ، (قصّة الحضارة ٧٢/١٣ و ٧٣) .

آداب الجهاد : إنَّ الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه الفتوحات ، وكان عليه الجهاد ، يستقيم مع كلِّ أساس سليم لكلِّ اعتقاد سليم قويم ، وهو دستور خالد لآداب الحروب ، فالتسامح الذي فرضه الإسلام على أتباعه ، يخلق في نفس المسلم شعوراً بالودِّ والصدّاقة : ﴿ .. مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا .. ﴾ [المائدة : ٢٢/٥] ، ولقد لخصَّ أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه آداب الجهاد في عشر خصال ، جاءت في وصيته التي ودّع بها جيش أسامة بن زيد ، حيث يقول :

« يا أيُّهَا النَّاسُ ، قِفُوا أَوْصِيَكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي : لَا تَخُونُوا وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَغْدَرُوا وَلَا تَمْتَلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا طِفْلاً صَغِيراً ، وَلَا شَيْخاً كَبِيراً وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَعْقِرُوا غُلّاً وَلَا تَحْرِقُوهُ ، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مِثْرَةً ، وَلَا تَذْبَحُوا شَاةً وَلَا بَقَرَةً وَلَا بَعِيراً إِلَّا لِمَا كَلْتُمْ ، وَسَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ ، فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ .. » (٣) .

لقد أباح الإسلام قتال المحاربين فقط ، ومنع قتل النِّساء والأطفال والشُّيوخ .. وأخلاقه لا تراهن على الانتصار في الحرب بوسائل الغدر والظلم والتصرُّفات الوحشيّة ، والأحداث الهمجيّة ، إنّما الغاية أن تنتصر مبادئ الإسلام الإنسانيّة .

ومن آداب الإسلام في الجهاد : عدم التَّمثيل ، أو الإحراق بالنَّار ، أو تجويع الأعداء ، أو إرهاب الأسرى .. لقد رفض ﷺ التَّمثيل بسهولة بن عمرو ، عندما اقترح

(٣) الكامل في التَّاريخ ٢٢٧/١ ، الطُّبري ٢٢٦/٣ ، هذه آداب الإسلام منذ بدء فتوحه سنة ١١ هـ = ٦٣٣ م ، وما جرى في أوربة - وباسم الكنيسة - بعد ذلك بألف عام وأكثر ، بما عرف بمحاكم التَّمييز ، أو التَّحقيق ، لن نعلّق عليه بشيء ، بل نورد قول ول ديورانت في قصّة الحضارة ١٠٦/١٦ : « فلا بدّ لنا أن نضع محاكم التَّحقيق في مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحْكَم عليها جميعاً بأنّها أشنع الوصايات في سجلِّ البشريّة كلّها ، وبأنّها تكشف عن وحشيّة لا نعرف لها نظيراً عند أيِّ وحش من الوحوش » .

بعضهم أن ينزعوا ثنيقي سهيل ، فيدلع لسانه ، حتّى لا يقوم خطيباً ضدّ الإسلام^(٤) ، وقال : « استوصوا بالأسرى خيراً »^(٥) ، فَخَصَّ أسرى بدر بأفضل ما لدى المسلمين من الطّعام .

ومن الآداب ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بالقتال ، للابتعاد عن الخداع والخيانة .. مع تحريم الإجهاز على الجريح ، وجعله مريضاً يقتضي إسعافه ، وتجب معالجة والحفاظ عليه ، فالألمه توجب العطف والشفقة والرّحمة .

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله ، ثمّ يقول عند عقد الألوية : « بسم الله ، وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله بالنصر : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾^(٦) ، وبلزوم الحقّ والصّبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٧) ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثّلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هَرَمًا ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزّحفان ، وعند حُمّة النهضات^(٨) ، وفي شَنّ الغارات ، ولا تغلّوا عند الغنائم ، ونزّهوا الجهاد عن عَرَض الدُّنيا ، وأبشروا بالرّباح بالبيع الذي بايعتم به ، وذلك هُوَ الفوز العظيم »^(٩) .

وكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقّاص : « .. وترفّق بالمسلمين في

(٤) ابن هشام ٢٩٣/٢

(٥) ابن هشام ٢٨٢/٢

(٦) [آل عمران : ١٢٧٣] : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

(٧) [البقرة : ١٩٠/٢] : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

(٨) أي شدتها ومعظمها ، في (اللسان : حم) : وحُم الشيء : معظمه ، ثمّ أورد اللسان حديث عمر رضي الله عنه .

(٩) عيون الأخبار ١٠٧/١ ، ابن الجوزي : ٧٥

سيرهم ، ولا تجشّمهم والسّفَر يتعبهم ، ولا تُقَصِّر بهم عند منزل يرفق بهم ، حتّى يبلغوا عدوّهم والسّفَر لم ينقص قوّتهم ، فإنّهم سائرون إلى عدوّ مقيم جامّ الأنفس والكُراع^(١٠) ، وأقيم بمن معك في كلّ جمعة يوماً وليلة ، حتّى تكون لهم راحة يُجمّون^(١١) فيها أنفسهم ، ويَرْمُون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَحّ منازلهم عن قرى أهل الصّلح والذّمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلّا من تثق بدينه ، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإنّ لهم حرمة وذمّة ، ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصّبر عليها ، فما صبروا لكم وفؤا لهم ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصّلح » .

الميزّات القتاليّة للجندي المسلم : اعتنى المسلمون بصحّة أبدانهم وسلامتها ، فالمؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضّعيف ، وحضّ ﷺ على السّباحة والرّماية وركوب الخيل ، « فارموا واركبوا ، وإنّ ترموا أحب إليّ من أن تركبوا ، ألا إنّ القوّة الرّمي ، ألا إنّ القوّة الرّمي ، ألا إنّ القوّة الرّمي ، ومن ترك الرّمي بعدما علمه ، فإنّما هي نعمة كفرها » .

وكانت خفّة حركة الجندي المجاهد ، نتيجة طبيعيّة لكال تدريبه وشجاعته وخفة سلاحه ، وإيمانه بعقيدته ، أمّا الانضباط فقد كان المسلم المجاهد على درجة كبيرة من الانضباط والطّاعة وحبّ النّظام ، قال خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما عزل عن قيادة جيوش الشّام : « سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين[ؓ] والله لو ولىّ عليّ الفاروق امرأة لسمعت وأطعت »^(١٢) .

الأسلحة : يقول عزّ وجلّ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ .. ﴾ ، [الأنفال : ٦٠/٨] ، والتّنكير الذي في كلمة (قوّة) يفيد استغراق الجنس ، ويجعل إرادة التّطور في مفهوم القوّة باختلاف العصور واجبة . كما توجب الآية تقصّي الاستطاعة

(١٠) الكراع : الخيل ، وجام : كثير ، (اللّسان : جم) .

(١١) يجمّون : يريحون ، الجَمَام (بالفتح) : الرّاحة ، (اللّسان : جم) .

(١٢) ومن الانضباط عدم التّعديّ على غير المسلمين ، أو على أموال سكّان البلاد المفتوحة وأملاكهم .

إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل الصناعيّة والفنيّة لإنتاج القوّة ، وذلك ما أدركته العقليّة الإسلاميّة حين رأت شيئاً جديداً ، وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه إلاّ بوسائله ، فانصرفت إلى إعداد جيوش لها كل مال للجيش الحديثة من صفات الطّاعة والنّظام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيل بحريّة كالتي يملكها البيزنطيّون وأجود .

والآية : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ .. ﴾ تقرر أيضاً أمرين اثنين :

- قانون الدّفاع الاستراتيجي ، ويرسمه الإعداد والتّسليح والتّدريب ، للحفاظ على الوجود .

- الوقاية السّليمة ، لأنّ القوّة تردع الأعداء ، فالقوي لا يطمع بالقوي ، إنّما يغريه الضّعيف استجابة لشريعة الغاب الّتي غلبت على الطّبائع البشريّة ، إنّ التّوازن يؤلّف عنصراً رئيسيّاً للتّخفيف من المواجهة والصّدّات ، بل يلغي الحروب أحياناً ، لأنّ نتائج المعركة غير مضمونة إذا قامت ضدّ دولة قويّة ومسلّحة ، في حين يسهل اجتياح الدّولة الضّعيفة الّتي لا تقدر على الدّفاع ، لأنّها تخلّت عن الإعداد والتّهيؤ^(١٣) .

استعمل الجندي العربي المسلم الدّرع ، وهي إمّا من صفائح من الحديد ، فتسمّى عند ذلك (لأمة) ، وإمّا أن تكون من زرد الحديد ، فتدعى (الزّرد) . ولبس الخوذة ، وهي بيضة الحديد الّتي تغطّي الرأس ، والتّرس للوقاية من ضربات السيوف .^{١٤} ومن الأسلحة الفرديّة : السيّف والرّمح ، والدّبّوس ، والطّبر^(١٤) ، والفأس ، والخنجر .. والقوس والسّهام .

قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لعمر بن معديكرب : أخبرني عن السّلاح ، قال : سلّ عمّا شئت منه ، قال : الرّمح ؟ قال : أخوك وربّيّا خانك ، قال : النّبل ؟ قال : منايا تخطّو وتصيب ، قال : التّرس ؟ قال : ذاك المِجنّ وعليه تدور الدّوائر ،^{٢٠}

(١٣) والطّاقة النوويّة اليوم ، شتان بين وجودها بيد المعتدي الظّالم ، وبين وجودها بيد الرّادع للسّلام .

(١٤) الطّبر ، أو الطّبرزين : سلاح يشبه الفأس أو البلطة ، برأس نصف مستدير .

قال : الدرع ؟ قال : مُثْقَلَةٌ لِلرَّاجِل ، مُتَّعِبَةٌ لِلْفَارِس ، وَإِنَّهَا لِحَصْن حَصِين ، قال : السِّيف ؟ قال : هُنَالِكَ ^(١٥) .

أَمَّا الْأَسْلُحَةُ الْجَمَاعِيَّةُ ، فَهِيَ : الْقَسِي الثَّقِيلَةُ ، وَالْمِجَانِيْقُ ، وَالذَّبَابَاتُ ، وَسِلَاحُ وَأَبْرَاجُ الْحَصَارِ ، وَالْحَسَكُ الشَّائِكُ .. وَكَانَتِ الْمِجَانِيْقُ أَكْثَرُ الْأَلَاةِ الْحَرْبِيَّةِ الْمُهْجُومَةِ ، وَأَشَدَّهَا تَأْثِيرًا وَلَا سِيَّامًا فِي الْحَصَارِ ، إِذْ هِيَ بِمَثَابَةِ مَدْفَعِيَّةِ التَّدْمِيرِ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ ^(١٦) ، وَمِنْهَا مِجَانِيْقُ قَذْفِ الْحِجَارَةِ ، وَتَعْمَلُ عَلَى مَبْدَأِ الزَّيَارِ ، أَوْ الثَّقَلِ الْمَعَاكِسِ ، أَوْ عَلَى مَبْدَأِ الْمَقْلَاعِ ، لَقَدْ صَنَعَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَثْنَاءَ حَصَارِ الطَّائِفِ مِجَانِيْقًا ، وَغَنَى عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِصِنَاعَةِ الْمِجَانِيْقِ ، حَتَّى كَانَ لِدَى الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي فَتَحَ فَارِسَ عَشْرُونَ مِجَانِيْقًا ، وَكَذَلِكَ جَيْشُ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ الَّذِي فَتَحَ الشَّامَ ، كَانَ مَزُودًا بِالْمِجَانِيْقِ ، وَصَنَعَ جَيْشُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ الْمِجَانِيْقَ بَعْدَ نَزْوِلِهِ فِي الْفُسْطَاطِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ .

وَاهْتَمَّ الْأُمَوِيُّونَ بِصِنَاعَةِ الْمِجَانِيْقِ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ الْحُجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ الثَّقَفِيُّ صِنْعَ مِجَانِيْقٍ أَسْمَاهُ (الْعُرُوسُ) يَحْتَاجُ إِلَى خَمْسِ مِائَةِ رَجُلٍ لِحُدُومَتِهِ وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ سَلَّمَ عِدَدًا مِنْ هَذِهِ الْمَنْجَنِيقَاتِ إِلَى ابْنِ عَمَّةِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْقَاسِمِ الثَّقَفِيِّ ، فَفَتَحَ بِهَا مَدِينَةَ الدِّيُّلِ (كِرَاتَشِي حَالِيًا) سَنَةَ ٨٩ هـ = ٧٠٧ م ، وَعِدَّةٌ مَدَنٍ فِي وَادِي السُّنْدِ ^(١٧) .

وَمَا إِنْ بَدَأَ الْقَرْنُ الثَّانِي الْمِجْرِي ، حَتَّى أَصْبَحَ الْمَنْجَنِيقُ شَائِعًا لِلِاسْتِعْمَالِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، وَخُصُوصًا فِي حَصَارِ الْمَدَنِ ، ثُمَّ صَارَ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ سِلَاحًا عَادِيًّا لِدَى الْعَبَّاسِيِّينَ ، الَّذِينَ اسْتَعْدَمُوهُ فِي أَغْلَبِ مَعَارِكِهِمْ ، وَخُصُوصًا (عَمُورِيَّة) سَنَةَ ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م .

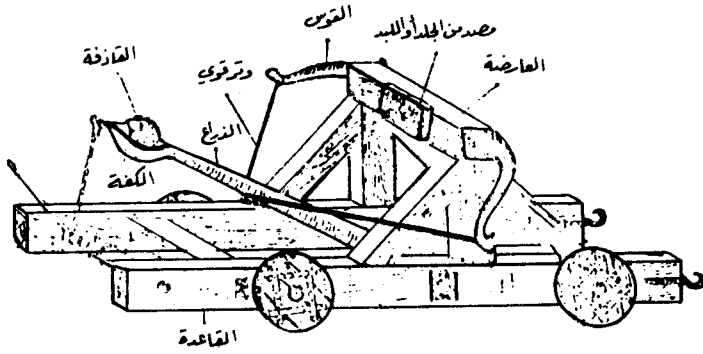
وَكَانَ الْجُنْدُ الْمُسْلِمُونَ يَكْبُرُونَ وَيَتَلَوْنَ آيَاتَ الْكَرِيمَةِ أَثْنَاءَ رَمِيهِمْ بِالْمِجَانِيْقِ ، فَإِذَا

(١٥) عَيُونُ الْأَخْبَارِ ١٢٩/١ ، وَهُنَالِكَ : أَيُّ هُنَالِكَ السِّلَاحِ الَّذِي يَحَارِبُ بِهِ .

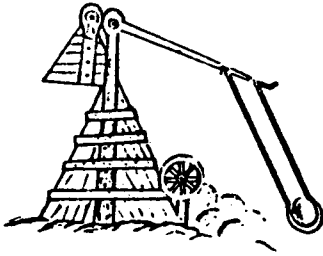
(١٦) لِلتَّوَسُّعِ (الْحَيَاةُ الْعَسْكَرِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ) ، د . إِحْسَانُ الْهِنْدِي ، طَبِعَ وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ ، دِمَشْقَ ١٩٦٤ م .

(١٧) الْفَتْوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ بَعْدَ مَضِيِّ الْفَتْوحَاتِ النَّبَوِيَّةِ ، أَحْمَدُ بْنُ زَيْنِي دَخْلَانَ ، طَبِعَتْهُ الْمَطْبَعَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ فِي

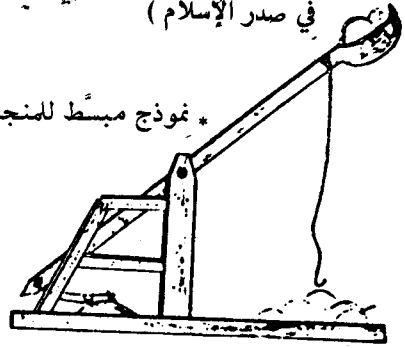
مِصْرَ .



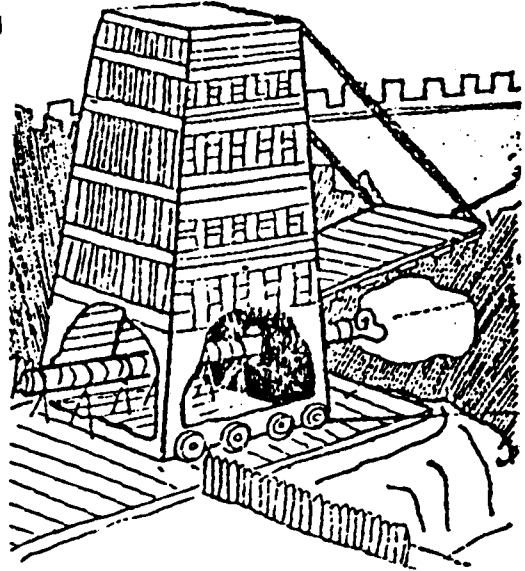
* منجنيق لقذف الحجارة يعمل على مبدأ (الزنبار) ، (عن كتاب : الفن الحربي في صدر الإسلام)



* نموذج مبسط للمجنيق



* رَمَى الأحجار بالمنجنيق (مقتبس عن جامع التواريخ لرشيد الدين) ، المجانيق المقلاعية ، ويمكنها الدوران ٥٦٠ (أي دورة كاملة) قبل رمي المقذوف



* الدبابة العربية (عن السلاح في الإسلام) لاحظ الكبش المعلق داخل الدبابة

كان المنجنيق يقذف الحجارة ، قالوا : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ ، [هود : ٨٢/٨٣] ، وإذا كان المنجنيق يقذف النّفط والنّار ، قالوا : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ ، [المُلْك : ٥/٦٧] ، ﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، [المُلْك : ١١/٦٧] .

٥ وليس المنجنيق هو السّلاح الوحيد الذي صنعه وطوّره المسلمون ، فالدّبّابة أيضاً ، والتي هي برج من الخشب الصّلب مغلّف باللبود والجلود المنقوعة في الخلّ كي لا تحترق ، وتثبت على قاعدة خشبيّة لها عجلات ، فإذا أراد المحاربون العمل بها ، وضعوها أمامهم متّخذين منها درعاً يقيهم سهام الأعداء وحجارتهم ، أو جلسوا في جوفها ودفعوها وهم بداخلها حتّى يصلوا إلى جدار الحصن لينقبوه بما يحملونه من أدوات ، بينما يقيهم سقفها ممّا يرشقهم به الأعداء . ١٠

وزادوا حجمها حتّى اتّسعت لأكثر من عشرة رجال ، وقوّوا سقفها وجوانبها الأكثر تعرّضاً لنبال العدو وحجارتها بالخشب السّميك ، والحديد والرّصاص ، وجعلوا لها باباً متفصلاً يمكن إذا فُتح أن يسند إلى حافة السّور ، ويشكّل قنطرةً يمرّ عليها الجنود الذين كانوا مختبئين في جوف الدّبّابة إلى داخل السّور ، خلال الفتحة التي تقبوها .

١٥ كما جعلوا في الدّبّابات سلاّم معترضة ، تنتهي في أعلاها إلى شرفات تقارب السّور في الارتفاع ، حتّى إذا اقتربت الدّبّابة من السّور ، ولم يستطع سدنها خرقه ، صعدوا إلى الشّرفات ، ومدّوا السّلاّم والقناطر التي توصلهم إلى داخل القلعة باستعلاء السّور .

وكانوا يمهّدون بالرّمي بالمجانيق ، ثمّ تتقدّم الدّبّابات للاقتحام ، وفطن المسلمون إلى أهميّة (سلاح المهندسين) فرافق الدّبّابات عدد من الجند الفعّلة ، حيث كان هؤلاء يكفّون بردم الخنادق ، وإزالة الحواجز التي تعيق سير الدّبّابات قبل وصولها إلى السّور (١٨) . ٢٠

(١٨) أهم معركة إسلاميّة استخدِمت فيها الدّبّابات استخداماً جيّداً ، هي معركة عورويّة ، حيث أمر المعتم =

وعَلَّقَ المسلمون (الكَبْشَ)^(١٩) بوساطة سلاسل قويّة تجري على بَكَرٍ بسقف الدَّبَابَةِ أو البرج المخصّص لملحه ، فإذا أراد الجند هدم سور قلعة أو بابها ، قَرَّبُوا رأس الكَبْشِ منه ، ثمَّ أخذوا في أرجحته إلى الأمام والخلف بالقوّة كلّها ، حتّى تنهار بعض حجارة السُّور من تأثير اصطدام رأس الكَبْشِ بها ، وعندها يعمدون إلى توسيع هذا الخَرْقِ ودعمه لكي لا ينهار على المجاهدين عند مرورهم من خلاله .

وعرف المسلمون الأبراج وسلام الحصار ، والحسك الشائك ، وهو قطع من الحديد أو الخشب ، لها عدّة شُعَبٍ يَبْقَى منها سن - أو أكثر - مرتفع كيفما وقعت على الأرض ، وهي تطرح حول المعسكرات لعرقلة خيل العدو حين تقدّمها أو تسلّلها ليلاً ، وأوّل من استعمل الحسك الشائك في الإسلام رسول الله ﷺ عندما حاصر الطّائِفَ^(٢٠) .

وصنع العرب المسلمون المكاحل (المدافع) ، وهي أنابيب ترسل فيها المقذوفات بفعل ضغط البارود المشتعل ، والبارود اختراع صيني اقتبسه العرب منذ أيّام الرّشيد ، وبلغت دقّة الصّنع والاستخدام لهذا السّلاح أقصاها زمن المماليك .

رَتَّبَ الجَيْشُ : كان على كلّ عشرة من الجُنْد عريفٌ ، وعلى كلّ عشرة من العرفاء تقيب ، وعلى كلّ عشرة من النّقباء قائد ، وعلى كلّ عشرة من القادة أميرٌ ، ثمَّ القائد الأعلى للجند ، وكان رسول الله ﷺ القائد الأعلى للجند في غزواته ، ورئياً أسند القيادة إلى غيره في سراياه وبعوثه ، وعندما اتّسعت رقعة الدّولة اختار الخلفاء القوّاد

= بصنع عدد كبير من الدَّبَابَات تتّسع كلّ منها لعشرة رجال ، يدرجونها فوق الجلود باتّجاه السُّور ، وأمر مفارز الفِيلة بأن تردم الخندق المحيط بسور عمورية بجلود الغن المملوءة تراباً ، كي يَمَكُن الدَّبَابَات من الوصول إليه ، وكُفّ مفارز الرّجالة بحماية من في الدَّبَابَةِ وحماها الفِيلة أيضاً .

(١٩) الكَبْشُ : عمود مستدير من الخشب بطول يقارب عشرة أمتار ، يحمل في مقدّمته رأساً من الحديد ، أو الفولاذ ، على شكل رأس الكَبْشِ تقريباً ، ولنا سَمِّي بهذا الاسم .

(٢٠) إمتاع الأسباع المقريري ٤١٨/١

مَنْ عرفوا بالشَّجاعة والقدرة والإقدام وحسن التَّديير ، فلمعت أسماء خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، والمهاجر بن أبي أُميَّة ، وعرفجة بن حارثة البارقى .. في سماء حروب الرِّدَّة ، ولعت أسماء المثنى بن حارثة الشَّيباني ، وسعد بن أبي وقَّاص ، والنُّعمان بن مقرِّن المزني في سماء العراق وفارس ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حَسَنَة في سماء بلاد الشَّام ، وأسماء عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعقبة بن نافع في سماء الشَّمال الإفريقي ، وطارق بن زياد وموسى بن نُصير ، والسَّمح بن مالك الحولاني ، وعبد الرَّحمن الغافقي في سماء إسبانية وفرنسة ، ومُحمَّد بن القاسم الثَّقفي في سماء السُّند ، وقتيبة بن مسلم الباهلي في ما وراء النُّهر ، وفي قلب الصِّين .

١٠ طُرُقُ الْقِتَال : كان نظام القتال عند العرب في الجاهليَّة (الكَرَّ والفَرَّ) ، فكُلُّما كُرُوا وتكسَّرت هجاءهم فرُّوا ليجتمعوا ثانية ، ويعاودوا الكَرَّة ..

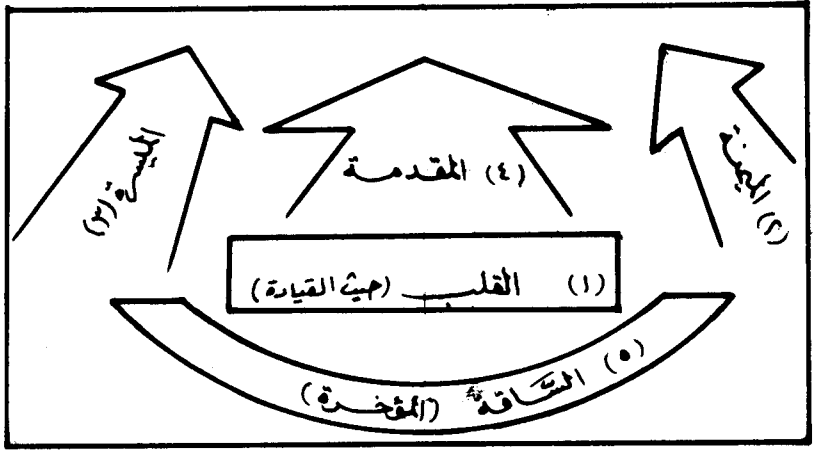
وفي معركة بدر الكبرى ، فوجئت قريش بنظام الصَّف : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [الصَّف : ٤/٦١] .

وخاض خالد بن الوليد معركة اليرموك بنظام الكراديس^(٢١) ، وقسَّم الجيش إلى : ١٥ قلب فيه القيادة ، ومِيمَنَة ، ومِيسَرَة ، ومقدِّمة ، وشاقَّة^(٢٢) (مؤخِّرة) ، ومن هنا جاء اسم (الخيس) للجيش ، أي خمس قطع^(٢٣) .

(٢١) الكرَدوس : القطعة من الخيل العظيمة ، والكراديس : الفِرَق منها ، وكُرِّدَسَ القائد خيله أي جعلها كتيبة كتيبة ، (اللِّسان : كردس) .

(٢٢) في اللِّسان (سوق) : وفي صفة مشيته ﷺ ، كان يسوق أصحابه أي يقدِّمهم ويمشي خلفهم تواضعاً ، ولا يدع أحداً يمشي خلفه ، وساق الجيش : مؤخِّره .

(٢٣) وفي رأي : كان يأخذ الأمير خمس الغنيمة ، فسَمِّي خميساً .



* تنظيمات الخيصة

ومما يذكر ، أنَّ نظام استطلاع أخبار العدو وأحواله وروحه المعنوية كان معروفاً ، فأرسلت العيون مثلاً إلى بيزنطة متنكرين في ثياب التجار أو الأطباء ، فرصدوا تحركات العدو من قرب ، واستطلعوا نياتة .

كما عرف جيش المسلمين (كلمة الليل) ، أي كلمة السر للتعارف ليلاً ، وغالباً ما كان الصحابي محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري ، أيام رسول الله ﷺ صاحب الحرس الليلي ، والمشرف على أمن معسكر المسلمين ليلاً .

صُنِفَ جُنُودُ الْجَيْشِ واختصاصاتهم : نجد في الجيوش البرية : المشاة (الرِّجَالَة) ، يحملون السيوف والرماح والحراب والقسي والسهام ، ويرتدون الدروع والخوذ ، ولعب المشاة دوراً بارزاً وهاماً في فتوح الشام والعراق ، والخيالة : الفرسان على خيولهم ، واعتنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عناية فائقة بخيول الجيش ، حتى راقب تمريناتها في حمى الخيل القريب من المدينة المنورة ، وعلى كاهل الفرسان كان الاستطلاع ، والإغارة ، واستثمار النصر ، والنشابة : وهم رعاة السهام ، ومن واجباتهم الدفاع عن الممرات الإجبارية الهامة ، والتمهيد للقتال ، والحماية .

وكان مع الَّذِينَ يعملون على الدَّبَابَاتِ الفَعْلَةُ الَّذِينَ يعملون مع سلاح المهندسين ،
 وهم الَّذِينَ كانوا ينشرون حسك الحديد ، مع تحديد دروب خاصّة يتركونها دون
 فرش ، لاستخدامها عند القيام بهجمات معاكسة إذا سمحت لهم الظروف بذلك^(٢٤) ،
 ورماة المجانيق : ومهمّتهم التّمهيد بالرّمايات التّدميّية أو المُحرّقة ، والعيّارون : وهم
 رماة الحجارة ، أو قطع الحديد والرّصاص من المقاليع ، والنّفّاطون : الَّذِينَ يرمون
 النّفط على معدّات العدو ، والأطباء والمضّدون والنّقّالون : للاعتناء برجال الجيش
 ورواحله ، فنذ أيّام رسول الله ﷺ عَرَفَ المشفى الميداني ، فكانت خيمة رُفيدة
 الأسميّة^(٢٥) مكاناً لمعالجة الجرحى ، وإصلاح شؤونهم .



١٠ الأسطُولُ :

اهتمّ اليمنيون بالتّجارة البحريّة ، فوصلت سفنهم إلى بلدان جنوب شرقي آسية ،
 وإلى الشّواطئ الشرقيّة للقارة الإفريقيّة ، ولم تهتمّ الأجزاء الأخرى من شبه جزيرة
 العرب في الجاهليّة بالبحريّة لبدائها .

ولمّا ولي معاوية بن أبي سفيان الشّام ، ألحّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في غزو
 البحر ، وذلك لقرب الرّوم من السّواحل العربيّة - فكتب عمر إلى عمرو بن العاص
 واليه على مصر : « صِف لي البحر وراكبه ، فإنّ نفسي تنازعني عليه » ، فكتب
 عمرو بن العاص مجيباً : « إنّي رأيتُ خلقاً كبيراً ، يركبه خلقٌ صغير ، ليس إلا السّماء

(٢٤) الجيش العربي في عصر الفتوحات ، د . إحسان المهندي ، ص ١٤٩ وما بعدها .

(٢٥) رُفيدة الأسميّة الأنصاريّة ، عن ابن إسحاق قال : وكان رسول الله ﷺ حين أصاب سعداً - بن معاذ -
 السّهم بالخنْدَق قال لقومه : « اجعلوه في خيمة رُفيدة حتّى أعود من قريب » ، وكانت امرأة من قبيلة
 أسلم في مسجده ، فكانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خِثْمَة مَنْ كانت به ضيّعة من
 المسلمين ، (أسد الغابة : ١١٠/٧ و ١١١) .

والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرك أزاع العقول ، يزداد فيه اليقين - بالنجاة -
قلّة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برّق »^(٢٦) .

قرأ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كتاب عمرو بن العاص ، فأرسل قراه إلى
معاوية واليه على الشام قائلاً : « والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ،
وبالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الرّوم » .

لم يقف عمر بن الخطّاب هذا الموقف بسبب وصول رسالة عمرو بن العاص من
مصر ، لقد وقف رضي الله عنه مخوفه لأسباب منها : خوفه على أرواح المسلمين ،
حيث إنهم ما عهدوا ركوب البحر مقاتلين فيه ، وأسطولهم فتى حديث ، ودولة الرّوم
البيزنطية عريقة في علوم البحار وفنونه ، تسيطر بأسطولها القوي على مياه البحر
المتوسّط ، وغزا العلاء بن الحضرمي^(٢٧) أمير البحرين ، أيّام عمر في البحر ، وقد نهاه
عن ذلك ، فأصيب المسلمون على ساحل فارس المقابل للبحرين ، فصار عمر لا يأذن
لأحد في ركوب البحر غازياً مجاهداً ، كما أرسل عمر علقمة بن مجرز المدلجي^(٢٨) في
البحر الأحمر في نفر من المسلمين ، ليرد غزوة حبشية ، فأصيب القوم ، فأخذ على نفسه
عهداً ألاّ يحمل في البحر أحداً للغزو .

هذا .. ولم يكتمل بناء أسطول الدولة العربية الإسلامية ، والغزو في البحر يحتاج
إلى استعدادات لإيجاد أسطول قوي .

هذه الأسباب مجتمعة كانت غير مشجّعة ، ولكن عمر بن الخطّاب ما عارض في بناء
أسطول حربي ، بدئ إنشاءه في عكا ومصر ، لقد أراد التريث وحبّذه ، ليتحقّق النصر

(٢٦) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ ، وفي اللسان برّق وأبرق : تهدّد وتوعّد .

(٢٧) ولأه رسول الله ﷺ البحرين ، وتوفيّ ﷺ وهو عليها ، فأقرّه أبو بكر الصديق خلافته كلها ، ثم أقرّه

عمر بن الخطّاب ، أسد الغابة ٧٤/٣ ، الكامل في التاريخ ٢٤٩/٢

(٢٨) أسد الغابة ٨٧/٢

بأقلّ خسائر ممكنة ، خصوصاً وعشرات الآيات في كتاب الله المجيد ، تذكر السفن والمنشآت الجارية في البحر كالأعلام^(٢٩) :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ ، [إبراهيم : ٢٢/١٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ ،

٥ [الحج : ٦٥/٢٢] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ، [الشورى : ٣٢/٤٢] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، [الباقية : ١٢/٤٥] .

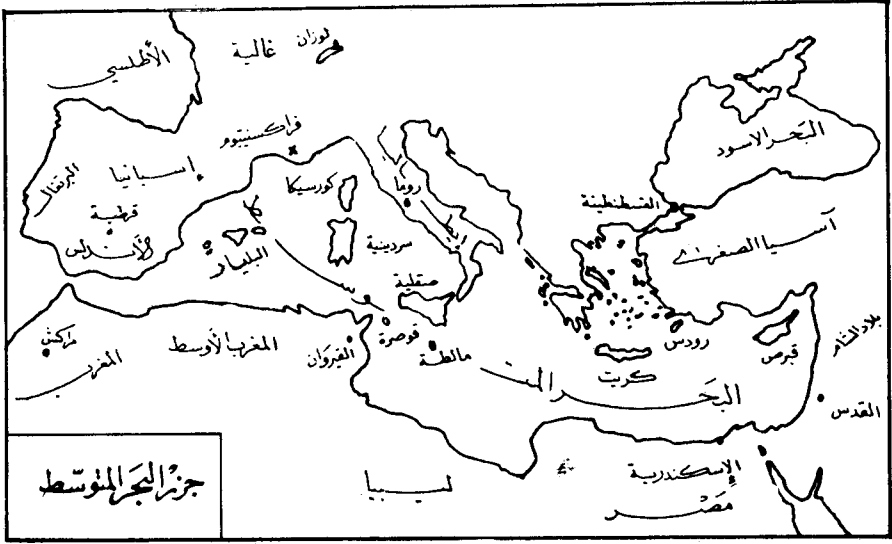
وعمر رضي الله عنه أدري بهذه الآيات الكريمة ، ولكن المهم عنده توفير أسباب النصر ، وسيحين موعد انطلاق المسلمين في البحر ، ولكلّ أجلّ كتاب^(٣٠) .

ولما ولي عثمان بن عفان الخلافة ، استأذنه معاوية في الغزو في البحر ، فوافق عثمان واشترط عليه : « لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعينه » .

استعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الجاسي ، وفتحت قبرص سنة ٢٧ هـ ، ثم حقق الأسطول الإسلامي نصراً حاسماً سنة ٣١ هـ ، في معركة ذات الصواري (اليرموك البحرية) ، بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(٢٩) وردت كلمة (بحر) ومشتقاتها أكثر من أربعين مرة في القرآن الكريم ، ووردت كلمة (يَم) في عدة مواضع أيضاً .

(٣٠) انظر : حصن بابلون وذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ص ٥١ وما بعدها .



* قبرص : فتحت سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م عندما استعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الجاسي .

* رودس : فتحها جنادة بن أبي أمية سنة ٥٢ هـ / ٦٧٠ م .

* أفريطش (كريت) : وصلها جنادة بن أبي أمية الأزدي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٣ م أيام معاوية ، ففتح بعض أجزائها ، وفتحت أجزاء أخرى أيام الوليد ، وفتح الجزء الأكبر منها حيد بن معيوف الهمداني أيام الرشيد ، وأتم الفتح أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي أيام المأمون .

* مالطة : فتحت سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م أيام عبد الله محمد الأغلي ، وجاء فتحها مكللاً لفتح صقلية .

* قوصرة : فتحها سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م عبد الله بن قطن الفهري ، خلال ولاية موسى بن نصير لشمالي إفريقية .

* صقلية : أول غزوها كان أيام عثمان بن عفان سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م ، وذلك على يد معاوية بن حديج الكندي الذي انطلق من شواطئ بلاد الشام بمئتي سفينة ، وتابع عبد الله بن قيس الفزاري قيادة الأسطول ، ثم غزاها عباس بن أخيل (من رجال موسى بن نصير) ، ثم عبد الرحمن بن حبيب الفهري أيام المنصور العباسي ، وتكرر الغزو سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ، والفتح الأكبر كان أيام زيادة الله بن الأغلب بقيادة أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م .

* كورسيكا وسردنية : أول غزوها كان سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وتم الفتح سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤٩ م أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وسنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م غزاها مجاهد العامري ، واتخذ المسلمون من فتوحهم لسردنية قاعدة انطلاق للمهاجمة الإيطالية وجنوبي فرنسا .

* جزر البليار : أول من غزاها موسى بن نصير عندما أرسل ابنه عبد الله فغزا ميورقة ، وتكرر غزوها بعد ذلك ، منها أيام الحكم بن هشام سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، وسنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، وفي سنة ٢٩٠ هـ أرسل عبد الله بن محمد الأموي الأندلسي [٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٧ - ٩١٢ م] أسطولاً بقيادة عصام الخولاني فأعاد فتح ميورقة ومينورقة .

وانطلق المسلمون في عرض البحر المتوسط فاتحين : أقريطش (كريت) ،
ورودس ، وكورسيكة وسردينية ، وصقلية ، وقوصرة ، ومالطة ، وجزر الباليار^(٣١) ..
ومتكّن الأسطول الأندلسي من الوصول إلى رومة بقيادة مجاهد العامري^(٣٢) .

٥ صِنَاعَةُ السُّفْنِ الْعَرَبِيَّةِ : بعث عبد الملك بن مروان إلى عامله على إفريقية
حسان بن النُّعْمَان يأمره بإنشاء دار لصناعة السفن في تونس ، فكانت هذه أول (دار
صناعة) متخصصة في الإسلام ، وتابع الأمويون بناء دور الصناعة في شتى الأمصار
العربية ، وأهمها تلك التي أنشئت في جزيرة الروضة بمصر سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣ م ، وأخرى
في بيروت ، وثالثة في صور^(٣٣) ..

١٠ واهتمّ العبّاسيون بإنشاء دور الصناعة في أحواض المتوسط ، والمحيط الهندي .
وزاد إنتاج دور الصناعة القديمة في عهد الفاطميين ، وأنشئت دور جديدة في كل
من القاهرة ، ودمياط ، والإسكندرية ، وطرابلس الغرب ، وسوسة .

١٥ كما تولّى الأمويون في الأندلس إنشاء دور لصناعة السفن في كل من الموانئ
التالية : الجزيرة الخضراء ، دانية ، سبتة .. فقام الأسطول الأندلسي بشكل ملحوظ ،
وخصوصاً في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر^(٣٤) ، حيث قارب عدد سفنه مئتي سفينة ،
وأشهر قادة الأسطول الأندلسي أيام الموحّدين أحمد الصّقْلِي ، الذي انتهت أساطيل
المسلمين في أيامه إلى ما لم تبلغه قبله ولا بعده ، وذلك بتوجيه من السلطان يوسف بن
عبد المؤمن الموحّدي .

وأنشأ صلاح الدين الأيوبي أسطولاً لحاربة الصليبيين ، وخصّص له ديواناً كبيراً ،

(٣١) جزر الباليار شرقي الشاطئ الأندلسي في البحر المتوسط ، وهي : منورقة ، وميورقة ، ويااسة .

(٣٢) انظر مصوّر حوض البحر المتوسط ، ص : ٣٧١

(٣٣) الجيش العربي في عصر الفتوحات ، د . إحسان الهندي ، ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣٤) عبد الرحمن الناصر : ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م .

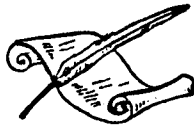
عُرف باسم (ديوان الأسطول) ، وأيام الظاهر بيبرس ، أشرف بنفسه في جزيرة الروضة على صناعة قطع الأسطول .

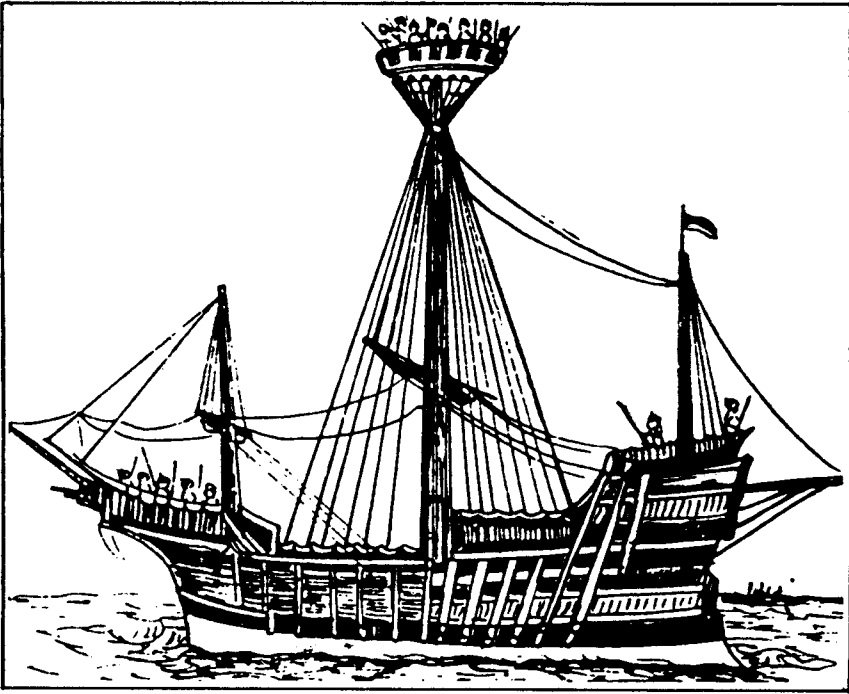
ولقد صنع العرب المسلمون سفناً خاصة بالعمل في البحر المتوسط ، اتّصفت بضخامتها ، صُنعت من خشب الأرز ، الذي حُمِلَ إلى دور الصّناعة من جبال لبنان ، أو من الأناضول ، واعتمدت هذه السفن المسامير في تثبيت ألواحها .

كما صنعوا سفناً خاصة بالعمل في البحر الأحمر (بحر القلزم) ، والمحيط الهندي ، وهي أقل حجماً من السفن العاملة في البحر المتوسط ، استُقدم خشبها من صعيد مصر ، اعتمدت الغراء في تثبيت ألواحها ، وقُطعت أشجار من عُمان ، وجبال فارس ، لصناعة السفن العاملة في المحيط الهندي .

- أنواع السفن : بلغت أنواع السفن أكثر من ثلاثين نوعاً ، حسب حاجتها وطريقة عملها ، منها : البوصي ، البارجة ، البطسة (وكانت تحمل منجنيقاً) ، الجلاسة ، الحراقة (وكانت فيها أسلحة نارية ومجانيق) ، الممالة (وكانت تحمل الأوزاد للرجال) ، الخلية ، الزورق ، السفينة ، السنبوك ، السمرية ، الشونة ، الشلندي ، الشباك ، الشذاة ، الطراد أو الطريفة ، العدلية ، العشاري ، العكيري ، العمارة ، الغراب ، القارب ، القرقور ، القبق ، الماعونة ، المسطح وهو من أكبر سفن الأسطول الإسلامي ، وغيرها كثير جداً .

وكان لكل سفينة قائد (مَقْدَم) له القيادة في كل ما يختص في البحر في سفينته ، وكان القائد العام للأسطول يدعى (أمير البحر) ، ومنه اشتق لفظ (أدميرال) الأجنبية : Admiral .





* حَرَّاقَة عَرَبِيَّة

النَّشَاطَاتُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ
جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ
وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ ﴾

[سَبَأ : ١٥/٣٤]

« مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ » .

[رسول الله ﷺ]

الزَّراعةُ :

١٠ عرف عرب الين قبل الإسلام أسلوباً متقدماً في الرِّي ، فبنوا السُّدود الَّتِي كان أشهرها سد مأرب ، الَّذِي بُني في منطقة جافَّة لا تزيد أمطارها على مئة ميليمتر ، وهو سدٌّ تخزيني توزيعي ، تأتيه السُّيول فيرتفع مستوى المياه خلف السدِّ ، حيث توزع الفتحات والقنوات المياه إلى أراضٍ قُدِّرَت مساحتها بستَّة آلاف هكتار ، وهي كافية لحياة تجمع سكَّني جيِّد .

١٥ ولقد هُدِمَ هذا السدُّ لتجمع الطُّمي خلفه بكميَّات كبيرة ، ولتلُّح الأرض الَّتِي رواها لعدم تنظيم كمِّيَّات المياه في الرِّيِّ ، ولعدم إيجاد مصرف في الوادي الطَّبِيعي لصرف كمِّيَّات المياه الزَّائدة ، وبسبب هجمات القبائل الَّتِي أدَّت إلى إهمال ترميم جسم السدِّ ، وبسبب الرِّياح الموسميَّة الَّتِي تأتي بسيول هائلة ، كسيل العَرَم ^(١) .

لم يؤخِّر اهتمامُ المسلمين بنشر الإسلام الزَّراعة وتقدُّمها ، قال رسول الله ﷺ :

(١) من محاضرة للدُّكتور محمد نذير سنكري ، معهد التُّراث العلمي العربي ، حلب : ١٩٨٦/٧/١١ م .

« مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَوَاتاً فَهِيَ لَهُ » ^(١) ، وروى البخاري حديثاً نصّه : « ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث أو الربع » ، وأمر ﷺ أرض خيبر بالنصف ، ولما رأى ﷺ يداً خشنه من أثر المَرِّ والمِسْحَاة ^(٢) قال : « هذه يدٌ يحبُّها اللهُ ورسولُه » ^(٣) .

وشجّع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الزّراعة في سواد العراق ، لكنّه منعها عن الصّحابة ، لسلامة مسيرة الفتوح والجهاد في سبيل الله .

« وفي زمن الخلفاء الرّاشدين مُسِحت الأراضى ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطُّرُق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة ، فأصبحت خصبة غنيّة عامرة بالسكّان » ^(٤) .

١٠ الزّراعة أيام الأمويّين :

أمر معاوية بن أبي سفيان باستصلاح الأراضى البور ، واهتمّ الأمويّون بتجفيف المستنقعات بين البصرة والكوفة ، وبنوا السُّدود في جبال عسير ، كسدّ عبد الله بن معاوية قرب الطائف ، ونهر يزيد بن معاوية يسقي في مدينة دمشق أراضى مرتفعة واسعة يشهد على عناية الأمويّين بزيادة الأرض المزروعة ^(٥) ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولّاته : انظر إلى من قبلك من الأرض فأعطوها بالمزارعة على

(٢) البخاري (حرث ١٥) ، الترمذي (أحكام ٢٨) .

(٣) المِسْحَاة : هي المجرفة من الحديد ، (اللسان : مسح) .

(٤) رواه أنس ، أسد الغابة ٢٦٩/٢

(٥) قصّة الحضارة ١٣/١٥٠

(٦) وشقوا قنوات كثيرة ، وما يعرف اليوم في البلاد العربيّة (بالقنوات الرّومانيّة) ، لم تكن نظاماً رومانياً قط ، نشأ نظام الأفلاج في الجزيرة العربيّة وفي إيران حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م ، ولقد كان التّركيز الرّوماني ضمن خطّ معيّن هو ٥٠٠ ملم .

النَّصَف ، وإِلَّا فعلى الثُّلث ، حتَّى تبلغ العُشْر ، فإن لم يزرعها أَحَدٌ فامنعها ، وإِلَّا فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولا تُبَيِّرَنَّ قبلك أرضاً .

« كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن^(٧) أن انظر الأرض ولا تحمل خراباً على عامر ، ولا عامراً على خراب ، وانظر الخراب فإن أطاق شيئاً ، فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتَّى يعمر ، ولا تأخذ من عامر لا يعتمل شيئاً ، وما أجذب من العامر من الخراج فخذ في رفق وتسكين لأهل الأرض .. »^(٨) .

الزَّراعة أيام العباسيين :

وجَّه العباسيون عناية خاصَّة لأرض السَّواد ، فعَدَّت الدَّولة المحافظة على شقِّ القنوات وتجديدها من أعمال الدَّولة ، فوصلت مياه دجلة بالفرات ، وبقيت هذه الأثنية يستفاد منها حتَّى أيَّامنا هذه .

« كانت الحكومة - العباسية - تشرف على قنوات الريِّ الرِّئيسية وتتعهدها بالصِّيانة والتَّطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقَّت قناة كبيرة بين النَّهرَيْن التَّوأمين عند بغداد ، وكان خلفاء الدَّولة العباسية الأوَّلون يشجَّعون الأعمال الخاصَّة بتجفيف المستنقعات ، وتعمير القرى المخربة والضِّياع الَّتِي هجرها سكَّانها ، وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يُعَدُّ في أثناء القرن العاشر (إحدى الجنَّات الأرضية الأربع) ، وكانت الثَّلاث الأخرى هي جنوبي فارس ، وجنوبي العراق ، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشَّام »^(٩) .

لقد حضَّ أبو يوسف القاضي هارون الرَّشيد^(١٠) على تشييد الجداول الجديدة على

(٧) أبو عمر عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطَّاب العدوي ، وإلٍ من أهل المدينة ، ثقة في الحديث ، استعمله عمر بن عبد العزيز على الكوفة ، توفِّي بمجرَّان نحو ١١٥ هـ / نحو ٧٣٣ م ، (الأعلام ٢٨٦/٣) .

(٨) الخَراج ، ص ٩٣

(٩) قصَّة الحضارة ١٠٧/١٣

(١٠) « فُكِّر هارون الرَّشيد في حفر قناة تربط البحرين المتوسَّط والأحمر في موضع قناة السُّويس ، =

نفقة الدولة الخاصة ، بغية تحسين الزراعة وتوسّعها ، مع تنظيف الجداول الموجودة وترميمها ، كما أوصى بتشكيل شرطة نهرية ذات كفاءة ممتازة^(١١) ، لذلك أنشأ العباسيون ديواناً خاصاً لهذه الأمور ، عرف (بديوان الماء) بلغ عدد المشتغلين فيه عدّة آلاف .

قال وليم ويلكوكس المهندس الذي زار العراق إبّان الانتداب البريطاني : « إنّ عمل الخلفاء في ريّ الفرات ، يشبه أعمال الريّ في مصر والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا في هذا العصر^(١٢) . »

كما خفّضوا مبلغ الخراج على الفلاحين بين آونة وأخرى تشجيعاً لهم ، وزيادة في دخلهم ورفاهيتهم .

و « حرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع »^(١٣) .

ومن المناطق الزراعيّة الهامّة خراسان وبلاد ما وراء النهر ، ففي بخارى مثلاً : إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلّا على مغارس تتّصل خضرتها بلون السماء ، وكأنّ السماء مكّبة زرقاء على بساط أخضر .

الزراعة في الأندلس :

عاش سكّان الأندلس في طمأنينة بعد الفتح الإسلامي ، « لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم وعادل ، كما نعمت به في أيّام الفاتحين العرب^(١٤) ، وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكّان والأملاك في فترات منظّمة ، وكانت الضرائب معقولة إذا

== وخطّطها ، ولكن يحى البرمي لم يشجّع على حفرها لأسباب لانعرفها ، ولعلّها أسباب ماليّة » ، قصّة الحضارة ١٠٩١/١٣

(١١) انظر فصل (في الجزائر في دجلة والفرات والغروب) ، الخراج ، ص ٩٩

(١٢) الإسلام في حضارته ونظمه ، أنور الرفاعي ، ص ٢٨٠

(١٣) قصّة الحضارة ٢٩٣/١٣

(١٤) القول لستانلي لين بول .

قورنت بما كانت تفرضه عليهم رومة وبيزنطة»^(١٥) ، لذلك نشطت الزراعة وازدهرت ، لقد جعل المسلمون جبال الأندلس مدرجات صالحة للزراعة ، وجعلوا لمياه الثلوج مستودعات ضخمة للري ، ومما يذكر أن صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) ، أدخل أول شجرة نخيل إلى أوربة ، وأدخل المسلمون إلى أوربة أيضاً : الأرز ، والحنطة السوداء ، والموز ، والبرتقال والليمون ، والسفرجل ، والقطن ، وقصب السكر ، ٥ والفسق الحلبي ..

وكانت زراعة الكروم من الأعمال الكبرى في بلاد الأندلس ، وأحالت حدائق الخضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفواكه مساحات من الأندلس - وخصوصاً حول قرطبة وعزناطة وبلنسية - جنات على الأرض ، كما استحالت جزيرة ميورقة التي فتحها العرب المسلمون في القرن الثامن الميلادي بفضل علمهم بالزراعة ، وعنايتهم بها ، ١٠ فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التي سُميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

ومن الكلمات العربية الزراعية التي دخلت الإسبانية واللغات الأوروبية :

Abelmosco : حب المسك ، Acebibe : الزبيب ، Aceite : الزيت ،
 Aceituna : الزيتون ، Acequia : الساقية ، Alazan : الحصان ، Alhabaca : ١٥
 الحبق ، Zucker : السكر ، Karaffe : العرافة ، Limonade : عصير الليمون ،
 Aprikosen : البرقوق (المشمش) ، Bananen : بنان الموز ، Orange : النارج ،
 Sorbett : الشربة ، Artischoken : الأرضي شوكي ، Reis : الأرز ، Spinat :
 السبانخ ، Koffer : القفة ، Kattun : القطن ..

☆ ☆ ☆



* خَزَانُ ماء بُني في القرن الثَّاسِع المِئلادي قرب القِروان

الصَّنَاعَةُ :

كانت الصَّنَاعَةُ في الجاهليَّة بسيطة ، تُركت للعبيد ، وازدهر منها في الين صناعة الرِّماح والسيُوف والمِجانيق ^(١٦) .

وَحَضَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ على تصنيع السِّلَاح بأيدٍ وطنيَّة عربيَّة ، عن علي رضي الله عنه ، قال : كانت بيد رسول الله ﷺ قوسٌ عربيَّة ، فرأى رجلاً بيده قوس فارسيَّة ، فقال : « ما هذه ؟ ألقها ، وعليكم بهذه وأشباهها ، ورماح القنا ، فيها يزيدُ الله لكم في الدِّين ، ويمكِّن لكم في البلاد » ^(١٧) ، لقد خصَّ القوسَ العربيَّة ، لأنَّ رقعة الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة كانت جزيرة العرب فقط ، فروح الحديث الشريف تحضُّ على تصنيع السِّلَاح بأيدٍ وطنيَّة ، ورفض المستورد منه ، والمهمُّ تصنيعه في أرض الإسلام ، وعدم الإعجاب والتَّعظيم ، والاعتماد على الأجنبي المستورد .

(١٦) جاء في كتب التَّاريخ : « ولم يشهد حيناً ولا حصار الطَّائِف عروة بن مسعود ، ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجرَّش - وهي مدينة عظيمة في الين - يتعلَّمان صنعة الدَّبَابات والمِجانيق والضُّبور ، والضُّبور: الدَّبَابات التي تقربُ إلى الحصون لتتقب من تحتها ، (السِّيرة النبويَّة لابن كثير ٦٥٢/٣) .

(١٧) ابن ماجه ، الجهاد ٢٨١٠ ، ص ٩٣٩

لقد تمّ تصنيع أوّل منجنيق في الإسلام ، أثناء حصار الطائف ، وعُني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالتصنيع الحربي ، الذي جهّز به جيوش الفتوح في بلاد الشام ، ومصر ، والعراق .

وتقدّم التصنيع الحربي أيام العبّاسيّين ، فحسّنوا المجانيق والدبّابات .. وتقدّمت صناعة السفن وتعدّدت أنواعها ، واستخرجوا المعادن كالذهب والفضّة من مناجم المغرب ومصر والسودان والحجاز وكرمان وما وراء النهر وخراسان ، والحديد من مناجم الشام وفارس وكرمان ، واللؤلؤ من مياه الخليج العربي ، والعقيق من اليمن ، والكبريت من غور فلسطين وفارس ، والنفط والرصاص من فارس ، والزئبق والفحم الحجري من مناجم ما وراء النهر .

أهمّ الصناعات :

الصناعات النسيجيّة : الحريريّة منها : في فارس والعراق والشام ، ومنه (الخز) وهو النسيج الحريري الناعم ، و (الديباج) وهو الحرير الموشى بالقصب .

وكان التجّار الأوربيّون يقدّرون منسوجات الدّولة الفاطميّة تقديراً يفوق سائر المنسوجات ، ويتحدّثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندريّة ، التي تبلغ من الرّقة درجة يستطاع معها أن تمرّ في خاتم الإصبع .

والكتانيّة : في مصر وفارس .

والصّوفيّة : في كلّ أرجاء الدّولة ، ولكن فارس امتازت بتصنيع السجّادات الفاخرة ، واشتهرت أرمينية وبخارى بأنواع متميّزة من البسط .

ومن الصناعات المعدنيّة تكفيت المعادن^(١٨) ، البرونز أو النحاس بالذهب أو

(١٨) التّكفيت هنا : التّطعيم .

الفضة ، واشتهرت الموصل بصنع الأدوات النحاسية للموائد ، واشتهرت مدينة حرّان بصناعة أدوات القياس الدقيقة ، كالموازين والأسطرلابات .

ومن الصناعات الغذائية : السُّكَّر في الأهواز وبلاد الشَّام ، وماء الورد ، والعطور ..

٥ واشتهرت بلاد الشَّام ومصر بصناعة الزُّجاج ، الَّذِي احتفظ بكلِّ ما كان له من جمال في العهود القديمة ، وازداد دقَّة وبراعة ، ونوافذ المساجد المملوءة بالزُّجاج الملوَّن شواهد على هذه الصَّناعة الجميلة ، واشتهرت فارس ومصر بالفخَّار والخزف ، والمغرب العربي وبلاد الشَّام والعراق بصناعة الجلود .

١٠ وفي الأندلس : استخرج العرب المسلمون الحديد والذهب والفضة والرَّصاص والقصدير والنحاس والكبريت والياقوت والزُّجاج والإثمد (الكُحْل) ، وأقاموا في غرناطة وطليطلة معامل الحديد والصلب ، وكان الفولاذ الأندلسي ذا شهرة عالميَّة ، كما اشتهرت طليطلة بالسُّيوف ، وقرطبة بالدُّروع ، وأنشئت في الأندلس أيضاً معامل البُسْط والحريِّر^(١٩) ، والفخَّار والزُّجاج والفسيفساء ، ودباغة الجلود والصِّياغة ، وصناعة البارود والسُّكَّر والورق ..

١٥ لقد قدَّم المسلمون إلى العالم الورق الرِّخيص ، ولِخترع ابن يونس المصري الرِّقَّاص - بندول السَّاعة - ووصف ابن جبير ساعة المسجد الأموي وصفاً دقيقاً في أحداث رحلته المشهورة^(٢٠) .

إنَّ الصَّناعة العربيَّة الإسلاميَّة في العصور الوسطى - كما تقول زيفريد هونكه - كانت موضع فخر الأوروبي واعتزازه ، فعندما يرى بين يديه سلعة كُتِبَ عليها إنَّها من

(١٩) كان في قرطبة وحدها (١٣٠٠٠) نسَّاج .

(٢٠) انظر الصُّورة ص : ٥٣٦

صنع دمشق أو بغداد ، أو القاهرة أو قرطبة .. تراه يفاخر بها مَنْ حوله ، لأنّها صناعة عربيّة .



التَّجَارَةُ :

ازدهرت التَّجارة وبلغت أوجها في العصر العبّاسي ، لانتّساع رقعة الدَّولة العربيّة الإسلاميّة ، ولتنوّع المنتجات لتنوّع الأقاليم واختلاف سلعها ، كما سهّلت وحدة النّقد المتداول التّعامل التّجاري ، وسبّب تدفّق الثّروات ارتفاع مستوى المعيشة ، ورفقيّ الصّناعة وتقدّمها .

وشجّع الخلفاء التّجارة عندما حفروا الآبار ، وأقاموا المحطّات (الخانات) على طول طرق القوافل ، كما أنشؤوا المنائر في الثّغور ، وأدّى وصول التّجار المسلمين الأوّل ١٠ إلى سواحل إفريقية الشّرقية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، والملايو ، والصّين^(٢١) .. إلى تنوّع السّلع في أسواق المدن الكبرى ، وإلى انتشار الإسلام حيث وصلت قدم التّاجر المسلم .

استورد المسلمون من :

الهند : الذهب والقصدير ، والتّوابل ، والعاج ، والآنية ، وبعض أنواع الثّياب ١٥ القطنيّة .

الصّين : العود والمسك ، والسّروج ، والحرير .

سرنديب : الياقوت والماس .

أرمينية : البُسْط ، والوسائد الفاخرة ، والجلود .

روسية وما وراء النّهر : الفِرَاء ، وجلود الثّعالب ، والورق . ٢٠

(٢١) ازدهرت التّجارة في المحيط الهندي ، وبقيت في البحر المتوسط علاقات ذات صبغة حربيّة مع الأوربيين .

الحبشة : العقيق والعاج ، والجلود المدبوجة ، واللآلئ من شواطئ البحر الأحمر الغربية .
وصدروا : الشعير والحنطة والأرز ، والفاكهة ، والسكر ، والزجاج ، والحرير
المنسوج ، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية ، والزيت والعطور كماء الورد ،
وزيت البنفسج ..

٥ وازدهرت تجارة الأندلس مع أوروبا والمغرب العربي ، فصدرت الذهب والفضة
والحرير والسكر .

وازدهرت تجارة المغرب مع حوض النيجر ، حيث تجارة الملح والعاج والمعادن
الثمينة ..



١٠ طرق المواصلات :

لقد جابت قوافل المسلمين البلاد ، ومخرت سفنهم عباب البحار ، فوصلوا الصين ،
والدائرة القطبية الشمالية ، ومفاوز الصحراء الكبرى .

وبالإضافة إلى طرق البحرية التي كانت تربط موانئ الجزيرة العربية ببلاد الشام
ومصر والعراق ، أصبحت الطريق الرئيسية تبدأ من بغداد ، وتتجه شرقاً إلى خراسان
١٥ فالبنجاب ، ومنها إما جنوباً إلى الهند ، وإما أن تتابع شرقاً حتى الصين . ومن بغداد
إلى بلاد الشام غرباً فمصر ، ومنها على طول شواطئ المتوسط حتى المغرب ، تتفرع عنها
طرق باتجاه مدن الشمال الإفريقي الهامة .

وكانت على طول هذه الطرق البرية - وهي غالباً طرق البريد أيضاً - خانات
للسافرين ، لتأمين حاجاتهم من طعام ونوم ، والعناية بدوابهم وبضائعهم ، وأهم هذه
٢٠ الخانات ما كان عند ملتقى الطرق ، حيث يجد التجار فيها (الكاتب بالعدل) مثلاً ،
ليحرر عقود البيع والإيجار .

أما الطرق البحرية فقد كانت عبر البحر المتوسط ، والبحر الأحمر ، والمحيط الهندي .

لقد كانت السفن تقطع البحر المتوسط من ميناء أنطاكية إلى مضيق جبل طارق في ستة وثلاثين يوماً ، ووصلت سفن المسلمين منذ القرن الأول الهجري إلى الصين ، وفتحت كانتون ميناءها لهم منذ سنة ٨٢ هـ .

وفي الخليج العربي ، اتخذ المسلمون ميناء سيراف مرسى لسفنهم التي كانت محملة بالسلع الواردة من البصرة والأبلة وعمان وغيرها ، وتنقل تجارة العرب والفرس إلى الصين ، واستطاع المسلمون منذ أواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في ميناء خانفو إلى الجنوب من شنغهاي حاليًا ، وكان لهم قاضي مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، ويؤمهم في صلاتهم ، وكانت الرحلة من سواحل الخليج العربي ، إلى سواحل الهند ، تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهراً واحداً إذا ساعدت الرياح الموسمية .

١٠

وكانت الملاحة النهرية نشطة في نهر النيل ، ونهر دجلة والفرات .

وفي الأندلس ، كانت قرطبة عقدة مواصلات برية ، تتجه منها الطرق إلى المتوسط والأطلسي ، وتتجه شمالاً عبر جبال البرانس إلى فرنسا ، وكانت سفنهم تنقل ما بين مالقة والريّة واللوانى المغربية ، وكانت السفن النهرية دائمة الحركة في نهر الوادي الكبير .

١٥



النقد :

قرّر عبد الملك بن مروان سك^(٢٢) عملة عربية إسلامية ، بدلاً من العملة البيزنطية والفارسية ، فبنى داراً لضرب النقود بدمشق ، وأمر بجمع العملة المستعملة في جميع أنحاء

(٢٢) السكة في الاصطلاح الشائع يقصد بها العملة المضروبة - أي المسكوكة - من معدن ، اشتق هذا المعنى للسكة من معناها الأصيل ، وهو القالب الذي تضرب به العملة باستخدام الطبع أو الضغط ، ويكون عادة بوساطة معدن شديد الصلابة كالحديد ، كما قد ينصرف اسم السكة إلى النقوش التي تطبعها هذه القوالب على سبيكة العملة من رسوم أو كتابات ، يقول ابن خلدون : « السكة هي الختم على الثناير =

الدولة ، وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة ، عليها بعض الآيات الكريمة ، وجعل وزنها ٣٪ زيادة عن العملات المعروفة آنذاك كالبزنطية مثلاً ، مما جعلها نقداً مطلوباً موثقاً به .

جاء في (فتوح البلدان) : « كان عبد الملك أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رؤوس الطوامير من ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وغيرها ، من ذكر الله ، فكتب إليه ملك الروم أنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتوه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه ، فكبر ذلك في صدر عبد الملك ، فكره أن يدع سنة حسنة سنها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال له : يا أبا هاشم ، إحدى بنات طَبَق^(٢٣) ، وأخبره الخبر ، فقال : أفرخ روعك يا أمير المؤمنين ، حرّم دنائيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير ، فقال عبد الملك : فرّجتها عني فرّج الله عنك وضرب الدنانير .. » (٢٤) .

وفي الصبح الأعشى : « أول من ضرب الدنانير والدراهم في الإسلام عبد الملك بن مروان ، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفرس والروم ، ولما ضربها عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك ، ف ضرب الدراهم ونقش عليها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى آخر السورة ، فسميت الدراهم الأحديّة ، وكرهها الناس لنقش القرآن عليها ، مع أنه قد يحملها المحدث ، فسميت المكروهة . » (٢٥) .

= والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ، ويضرب بها على الدنانير والدراهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك .. » ، القاموس الإسلامي ٣/٢٩٩

(٢٣) بنات الطَبَق : الدواهي ، ويقال للداهية : إحدى بنات طَبَق ، (اللسان : طبق) .

(٢٤) فتوح البلدان ، ص ٢٤١

(٢٥) صبح الأعشى ١/٤٢٤

« ولقد غني أوائل أباطرة المغول عناية كبيرة بمشكلة العملة المستقرّة ، وكانت للسكّة المغوليّة علاوة على قيمتها الأصليّة مظهرها الفنّي أيضاً ، وقد استمدّوا غاذجها من فارس .. وكان للإمبراطور أكبر نحو سبعين من دور الضرب تقوم كلّها بسكّ العملة من الذهب والفضّة والنحاس ، وكانت الرُويّة هي وحدة النقود .

وحافظ ابنه وخليفته جهانكير على معيار السكّة ، وأمر بإصدار قطع أخرى بدیعة مدهشة لم تفقها أخرى من عدّة نواح .. وكان أوّل من أجاز من المغول نقش صورته على السكّة ، وكان أوّل وآخر حاكم للهند ضمّ اسم زوجته الإمبراطورة نورجيهان العظيمة إلى اسمه على قطع السكّة المستعملة في أنحاء مملكته .

وأهم ما امتاز به العملة الّتي سكّت في عهد خلفه شاه جيهان قطع من النقود الذهبیّة كبيرة الحجم ، وكانت نسبة الفضّة إلى الذهب فيها كنسبة ١ إلى ١٥ ، وقد أدخلت إلى الهند من فارس قطعة جميلة تعرف باسم موهور (Mohour) في القرن السادس عشر ، وظلّت تصدر حتّى بعد سقوط دولة المغول في الهند ، تصدرها دور الضرب البريطانيّة لأغراض خاصّة .. » (٢٦) .

وفي سنة ١٦٤٤ هـ « صنع الأمير يوسف بن تاشفين دار السكّة بمراكش ، وضرب فيها السكّة بدرهم مدوّرة ، زنة الدرهم منها درهم وربع ، سكة من حساب عشرين درهماً للأوقيّة ، وهو الدرهم الجوهري المعلوم في وقتنا هذا ، وضرب الدینار الذهبیّ باسم الأمير أبي بكر بن عمر (٢٧) في هذا العام » (٢٨) .

كانت الدنانير ذهبيّة ، والدراهم من الفضّة ، والدوانق من النحاس (٢٩) .

(٢٦) تاريخ العالم ٦٠١/٦

(٢٧) أبو بكر زكريا بن عمر أمير المرابطين بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وهو ابن عمّ يوسف بن تاشفين ، (الزلّاقة ، ص ٢٥) .

(٢٨) البيان المغرب ٢٢/٤

(٢٩) يذكر ابن بطوطة في رحلته (ص ٦١٨) أنّ الصّين عرفت العملة الورقيّة : « وأهل الصّين لا يتبايعون

دُورُ الضَّرْبِ^(٣٠) : أو (صناعة السَّكَّة) ، ويقصد بها فنُّ ضرب العملة ، وتعرف دار السَّكِّ بدار الضَّرْب ، وهو الاسم الأكثر شيوعاً ، وكان يتولَّى عليها رئيس مسؤول يعرف باسم (متولِّي دار الضَّرْب) ، ولكن لأهمية العملة في إشاعة الثقة في المعاملات ، كان الإشراف الأعلى على دار الضَّرْب للقاضي ، والسَّبب هو ضمان شرعية الدنانير والدراهم التي تصدر على دار السَّكِّ بأسمائهم (أي أسماء السُّلاطين والحُكَّام) سواء من حيث جواز العيار أو الوزن .

أمَّا من الناحية الفنية ، فيضطلع بالعمل في دار الضَّرْب أربع فئات تمثِّل كلُّ فئة ناحية فنيَّة في صناعة السَّكِّ ، كما يمثِّل كلُّ فئة شخص واحد أو أكثر حسب أهميَّة دار الضَّرْب ، وهؤلاء هم :

- ١٠ ١ - المقدِّم ، وهو الَّذي يتولَّى حفظ الأعيرة للتَّحَقُّق من أوزانها .
- ٢ - النَّقَّاش ، وهو الَّذي يتولَّى حفر القوالب .
- ٣ - السَّبَّاك ، ومهمَّته إعداد السَّبِيكة ، بالنَّسَب المقرَّرة رسمياً لكلِّ عملة .
- ٤ - الضَّرَّاب ، ومهمَّته الضَّرْب ، أو الختم على السَّبِيكة بعد إعداد القضبان المعدنية من السَّبائك المصهورة .

١٥ وكانت دور الضَّرْب تتناول ١ ٪ عن كميَّة الأموال التي تضرِّبها ، كأجرة للعمل وثن الوقود ، فدار واحدة في القرن الرابع الهجري بلغ دخلها ٢٠٠,٠٠٠ دينار في العام .

= بدینار ولا درہم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنَّا بيعهم وشرأهم بقطع كاعْد ، كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السُّلطان ، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت وهي بمعنى الدِّينار عندنا ، وإذا تَمَزَّقت تلك الكواغد في يد إنسان ، حملها إلى دار كدار السَّكَّة عندنا فأخذ عوضاً جديداً ودفع تلك ، ولا يُعْطِي على ذلك أجرة ولا سواها ، لأنَّ الَّذين يتولَّون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السُّلطان » .

(٣٠) القاموس الإسلامي ٤٠٠/٣

ومَّا يذكر ، أنَّ الدِّينار المِرابِطي أصبح النِّقد الدَّولي بسبب سمعة المِرابِطين المِمتازة في العالم كلِّه ، ولاقتصادهم المِتين ، ولرفاهية دولتهم .

بَعْضُ وَحَدَاتِ الْوِزْنِ وَالكِيلِ وَالْقِيَاسِ :

- وحدات الوزن : الأوقية الشرعية لوزن الفضة = ١١٩ غراماً .
- الأوقية الشرعية لوزن الذهب = ٢٩,٧٥ غراماً
- الحبة الشرعية من الدينار الشرعي = ٠,٠٥٩ غراماً
- الحبة الشرعية من المِثقال الشرعي = ٠,٠٦٢ غراماً
- الدانق الشرعي من درهم الكيل الشرعي = ٠,٥٢٨ غراماً
- الدَّهرم الشرعي لوزن النِّقد الفضة = ٢,٩٧٥ غراماً
- الدَّهرم الشرعي لوزن الكيل أو الوزن المجرّد = ٣,١٧١ غراماً
- الدينار الشرعي لوزن النِّقد (مِثقال النِّقد) = ٤,٢٥ غراماً
- الرَّطل الشرعي لوزن الكيل أو الوزن المجرّد (البغدادى) = ٤٠٨ غراماً
- الرَّطل الشرعي لوزن النِّقد الفضة = ١٤٢٨ غراماً
- المِثقال الشرعي لوزن الكيل أو الوزن المجرّد = ٤,٥٣ غراماً^(٣١)

وَحَدَاتُ الْكِيلِ وَمَا يَعَادِلُهَا فِي النِّظَامِ الْمِتْرِي :

الوحدة :	ما يعادلها باللتر من الماء	ما يعادلها بالغرام
	المقطر في درجة ٤° مئوية :	من القمح ^(٣٢) :
	٦٦	٥٢١٤٠
الأردب المصري في زمن الفاروق رضي الله عنه		

(٣١) انظر : (كتاب الإيضاح والتبيين في معرفة المكيال والميزان) لأبي العباس نجم الدين بن الرقعة

الأنصاري ، المتوفى ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م ، حققه وقدم له الدكتور محمد أحمد إسماعيل الحاروف ، جامعة

الملك عبد العزيز ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، الصفحات : ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

(٣٢) « إن نسبة وزن القمح من الماء ٧٩٪ تقريباً » ، المرجع السابق ، ص ٨٨

١٥٦٤٢٠	١٩٨	الأردب المصري (الأسيوطي) الرّسمي	
١٠٤٤٨	١٣٢,٢١٣	الجريب الفارسي العراقي في زمن الفاروق رضي الله عنه	
٣٢٩٦	٤,١٢٧	الصّاع النبوي (الشّرعي) عند الحنفية	
٢١٧٥	٢,٧٥	الصّاع النبوي (الشّرعي) عند الشّافعية والحنابلة والمالكية	٥
٢١٦١١٢	٣٣,٠٥٣	القفيز العراقي عند فتح العراق وفارس	
-	٣٠٧	القُلّتان الشّرعتان (بالتقريب)	
٨٢٤,٢	١,٠٤٣	الْمُدُّ النبوي عند الحنفية	
٥٤٣,٤	١,٠٤٣	الْمُدُّ النبوي عند الشّافعية والحنابلة	١٠
		والمالكية	
١٨٣٦٠	٢٣,٢٤٠	الْمُدُّ الشّرعي	

وَحَدَاتُ الْقِيَاسِ وَمَا يُعَادِلُهَا فِي النِّظَامِ الْمَتْرِي :

١,٩٢٥ سم (سانتيمتر) طول	الإصبع الشّرعي	
٤٦,٢ سم طول	الذّراع الشّرعي	١٥
٧٦,٣٧ سم طول	الذّراع العُمريّة	
٢٢,١٧٦ كيلومتر طول	البريد الشّرعي	
١٣٦٦,٠٤١٦ متراً مربّعاً	الجريب الشّرعي (العمري)	
٤٦,٢ سم	الخطوة الشّرعية	
٠,٠٥٣٤ سم	شعرة البغل	٢٠
٠,٣٢٠ سم	الشّعيرة الشّرعية	
٨٨,٧٠٤ كيلومتر طول	مسافة القصر الشّرعية = ٤ بُرْد	
١٨٤٨٠٠ سم طول	الميل الشّرعي	
٥٥٤٤٠٠ سم طول	الفرسخ الشّرعي	
١٥,٤ سم طول	القدم الشّرعية	٢٥

أما المرحلة ، ففي (اللسان) : المنزلَةُ يُرْتَحَلُ مِنْهَا ، وما بين المنزلتين (مرحلة) ، والمرحلة مسيرة يوم ، وتقْدَرُ بنحو ٩٠ كيلومتر .

☆ ☆ ☆

* دينار من الذهب ، (سوريّة : القرن ١٧ م)



المجتمع

﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ
يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾

[المزمل : ٢٠/٧٣]

تمهيد :

جعل الإسلام غاية وجود الإنسان عمران الأرض ، وعدَّ هذا العمران عبادة ، فنظرته إلى الإنسان نظرة التَّكريم ، ويؤيِّد هذا التَّكريم النظرة الإيجابية للحياة منذ عَلمَ الله آدم - وبصورة مباشرة - الأسماء كُلِّها ، فالإنسان في المجتمع الإسلامي مخلوق رائع ، أُودِعَتْ به مواهب مدهشة ، وطاقات عظيمة ، مع تمتعه بحريَّة الاختيار . ١٠

في هذا المجتمع ، ألغى الإسلام رابطة العصبية القبلية المفرقة ، التي كانت في المجتمع الجاهلي ، وأحلَّ محلَّها رابطة العقيدة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] .

وسوى أبو بكر بين الناس في القسم ، ف قيل لعمر في ذلك فقال : لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، فكان يقدم الأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ فإذا استووا في القرابة ، قدَّم أهل السَّابقة ، حتَّى انتهى إلى الأنصار ، فقالوا : بن نبدا ؟ قال : ابدؤوا برهط سعد بن معاذ ثمَّ الأقرب فالأقرب إليه ^(١) . ١٥

وحضر باب عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه جماعة ، منهم سهيل بن عمرو ، وعيينة بن محصن ، والأقرع بن حابس ، فخرج الإذن فقال : أين صُهَيْب ؟ أين

(١) طبقات ابن سعد : ٢١٣/١ ، الطُّبري : ١٦٢/٤

عَمَّار؟ أين سلمان؟ فتمتَّرت وجوه القوم، فقال واحد منهم: لِمَ تتمتَّع وجوهكم؟
دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموه على باب عمر، لَمَّا أعدَّ الله لهم في
الجنة أكثر^(٢).

بدأ التَّمييز بين المسلم العربي، والمسلم الأعجمي أيام الأمويين، وعادت العصبية،
وعاد معها النزاع القبلي ما بين يمينيين (قحطانيّين)، وقيسيّين (عدنانيّين)، وأصبح
المجتمع العربي أيام الأمويين يتألف من:

العرب: وهم أصحاب الحكم والقيادة، ولكنهم منقسمون إلى يمينيين وقيسيّين.
والموالي: وهم المسلمون الأعاجم، وجُلُّهم من الفرس، الَّذِينَ أظهر بعضهم
شعوبية، أرادوا منها المساواة حسب تعاليم الإسلام، واتَّجه بعضهم إلى الثورة والسيِّف،
فتلقَّفَتهم الدُّعوة العبَّاسية.

١٠

والرَّقِيق: ومصدره أسير الحرب معاملة بالمثل، لأنَّ الإسلام شرَّع العتق، وحرَّم
نظام الرِّق بأنواعه، ولم يبيح منه إلَّا ما هو مباح اليوم في نظام الأسرى، وتسخيرهم في
أعمال جسدية مع وصية رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسرى خيراً»، ريثما يتحرَّروا
بتبادل الأسرى، أو المنَّ على الأسرى من غير مقابل، أو بالعتق، أو بالمكاتبة^(٣)،
أو التَّديير^(٤).

١٥

والرَّقُّ يتصل بالعمل الجسماني فقط، ولا صلة له بالعقل أو الفكر، لذلك من

(٢) عيون الأخبار: ٨٥/١

(٣) المكاتبه: عقد بين السيِّد والعبد لإعادة الحرِّيَّة نظير دفعه مالاً لسيِّده، ويرى بعض الفقهاء أنَّ المكاتبه
واجبة، إذا طلبها العبد، استناداً لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، [النُّور: ٣٣/٢٤]، وبعد المكاتبه يعطى العبد حق التجارة
والعمل وحق التَّمَلُّك، وحق العمل لنفسه.

(٤) التَّديير: من قال له سيِّده: «أنتَ دبر حياتي حرٌّ».

آداب الإسلام ألا يقال للرقيق عبد ، بل يكرّم بقول (فتى) ، و « مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ عَتَقُهُ » .

وأهل الذمّة : وهم غير المسلمين الذين تمتّعوا بحريّة تامّة ، مع حماية لأنفسهم ومعابدهم^(٥) .

٥ وفي زمن العبّاسيّين عاد التّوازن بين العرب والفرس اجتماعيّاً ، ولكن ظهور الأتراك منذ أيّام المعتصم أوجد منافساً سيطر على الخلافة والحكم .

وعرف المجتمع الأندلسي صراعاً بين قيسيّة ويمنيّة ، وبين عرب وبربر ، وعُرفت فيه شريحة من الإشبانية الذين أسلموا .



١٠ المرأة : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .. ﴾ ، [الأعراف : ١٨٧٧] .

قرّر الإسلام المساواة بين الرّجل والمرأة في كلّ شيء : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ، [البقرة : ١٨٧/٢] ، ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [البقرة : ٢٢٨/٢] ، وهذه الدرّجة إمّا درجة النّبوة ، وإمّا درجة صبره عليها إن غضبت ، وأرجح الأقوال : درجة المسؤوليّة عن أسرة وحمايتها والإتفاق عليها ، فالقوامة وظيفية داخل كيان الأسرة لإدارة هذه المؤسّسة الخطيرة . ووجود القيم في مؤسّسة ما ، لا يلغي وجود حقوق الشّركاء فيها ، والعاملين في وظائفها ، ولقد حدّد الإسلام صفة قوامة الرّجل ، وما يصاحبها من لطف ورعاية وصيانة وحماية ، مع تكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجته وعياله ، فالسّمة المسيطرة على هذه المؤسّسة الصّغيرة ، هي سمة المودّة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ

٢٠

(٥) انظر (الإسلام في قفص الاتّهام) : الذمّيون والحزبية .

لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١/٣٠﴾ ، [الرُّوم : ٢١/٣٠] ، وللمرأة حق اختيار زوجها ، فهي بذلك تختار القيم عليها .

ويشترع الإسلام تشريعاً مثالياً ، كما يشترع لمن لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى ، فالزوجة الواحدة هي الأصل في الإسلام ، وجعل الزوجة الثانية لأسباب ، منها : العقم ، والمرض المزمن ، والحروب .. فالإسلام أباح التعدد ، ولم يأمر به ، أباحه لضرورات ، ولم يجعله فرضاً ..

والطلاق أبغض الحلال إلى الله ، لأنَّ الزواج كما في سورة البقرة : ٢٨٢/٢ ميثاق غليظ ، فلا يقع الطلاق إلا إذا استحالت الحياة الزوجية بين الزوجين ، والإيمان عاصم ، والعقيدة ملزمة لدى كلٍّ من الطرفين ، وهي السبيل إلى مراعاة حدود الله ، ١٠ وأحكام الشرع ، فلا يصحُّ الالتجاء إلى الطلاق لأسباب يمكن أن تتغير في المستقبل .

والطلاق أبغض الحلال إلى الله : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهترله العرش » ، « لعن الله كلَّ مزواجٍ مطلق » ، ولكن الإسلام يعترف بالأمر الواقع إن لم يتم الوفاق بين الزوجين : ﴿ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ ، [البقرة : ٢٢٩/٢] ، إنَّ الطلاق دواء مرَّ المذاق ، ولكن مرض الشقاق أكثر مرارة ١٥ وقسوة ، والطلاق خير من الموقف الذي يحصل كثيراً في الغرب ، عندما تسوء العلاقة بين الزوج وزوجه ، ولا طريق للتوفيق بينهما ، فيأخذ كلٌّ منهما خديناً له ، لأنَّ الطلاق غير مباح لأيٍّ منهما ، ويصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هي الحلُّ ، وأدركت بعض الدُّول الغربية خطورة الأمر ، فيسرت الحصول على الطلاق ، وكانت آخر هذه الدُّول إيطالية ، حيث أباحتها عام ١٩٧١ م ، وما إن أُقرَّ حتى قُدِّم إلى ٢٠ المحاكم أكثر من مليون طلب طلاق ، وعلينا أن نتصوّر حياة مليون أسرة كانت تعيش حياة الشقاء والنكد داخل البيت ، يفرُّ منها الزوجان إلى العلاقات غير الشرعية ليقوم

بذلك نظام غير شرعي هو نظام الخليلات ، وهو ما تعاني منه المجتمعات الأوربية^(٦) .

وأعطى الإسلام المرأة نصيباً من الإرث ، مع أنها معفاة من الإنفاق منه قبل الزواج وبعده .

ويكفي المرأة فخراً أن أول قلب خفق بالإسلام ، وتآلق بنوره ، قلب امرأة ، إنه قلب خديجة بنت خويلد ، فهيأت للإسلام الكثير من أسباب نجاحه ، وأول شهداء الإسلام امرأة ، إنها سُمَيَّة بنت خَبَّاط (أمُّ عَمَّار بن ياسر) ، ودور أسماء بنت أبي بكر (ذات النِّطَاقَيْن) يذكر لها في الهجرة ، وأحبطت صفية بنت عبد المطلب في غزوة الخندق تسليلاً واستطلاعاً يهودياً ، وفي خيبر ، أم سليم ، وأم عطية الأنصارية سارتا مع نساء أخريات ، وقالوا لرسول الله ﷺ : « نعين المسلمين ما استطعنا ، نناول السَّهَام ، ونسقي السَّويق^(٧) » ، ونداوي الجرحى ، ونغزل الشَّعر ، ونعين في سبيل الله » ، وفي حَنْيْن سهلة بنت ملحان التي تزوجت أبا طلحة (زيد بن سهيل) بمهر هو إسلامه ، حملت خنجراً دون رسول الله ﷺ ، وجعلت ابنها أنساً خادماً لرسول الله ﷺ ، وبرز اسم خولة بنت الأزور في اليرموك ، وفي القادسية موقف الخنساء لا ينسى .

(٦) نشرت الأسبوع العربي ، العدد ٦٨١ ، ص ٦٥ : « بدأت صناعة التهنئة المختلفة ، تتجه إلى قضايا الطلاق ، بعدها أمراً واقعاً ، فظهرت في بعض أسواق الدول الغربية بطاقات مخصصة للأشخاص الذين أنهموا علاقاتهم الزوجية ، وللأشخاص الذين يودون تهنئتهم بذلك ، فقد حوت بعض البطاقات عبارات مثل : « تهنينا لطلاقكم » ، « نحمدكم على حرثكم » ، « وما أجل ما صنعت .. حظاً سعيداً » ، كما أن في الأسواق أيضاً بطاقات مزدوجة متوجة بكلمة (انقسام) ، وهي خاصة بالأزواج المطلقين ، بحيث يكتب الزوج المطلق اسمه وعنوانه ورق هاتفه على جهة ، وتكتب الزوجة المطلقة كل ذلك على الجهة الأخرى ، والسوق الأمريكية هي التي يجري فيها حالياً تصريف بطاقات الطلاق أكثر من الأسواق الأخرى ، إذ إن معتل الطلاق في أمريكا قد ارتفع ٣٣ في المئة خلال الأعوام العشرة الماضية » .

(٧) السويق : طعام يتخذ من الحنطة والشعير ، [اللسان : سوق] .

مكانة العمل في المجتمع الإسلامي :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ ،

[المزمل : ٢٠/٧٣] .

احترم الإسلام العمل ، والمسلم يعلم أن نبي الله داود كان حدّاداً ، وإدريس كان خياطاً ، وزكريا كان نجّاراً ، وموسى رعى الغنم ، لقد قال رسول الله ﷺ : « من أَمَسَ كَالَأَمْسِ مِنْ عَمَلٍ يَدُهُ أَمَسَ مَغْفُوراً لَهُ » ، فَعَمِلَ الصَّحَابَةُ ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاجر قماش ، وسقّيه علي رضي الله عنه بالدّلاء ، وكان الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ خياطاً ، وسعد بن أبي وقاص كان يبري النّبل ، وعمر بن العاص كان جزاراً .

وأُطلق على ولاة الأمصار لقب (عامل) ، ودخل بعض الصّحابة على معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة ، فحيّوه بقولهم : السّلام عليك أيّها الأجير .

وقدّم الإسلام مفهوم الأجر بأسلوب يسمو عن مجرّد النّظرة المادّيّة ، عندما ربطه بالعتيدة والخير والثّواب ، فجعل الأجر أجريّن ، أجراً في الآخرة عن العمل الصّالح ، بالإضافة إلى الأجر المادّي الدّنيوي : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ » .

وكما حضّ الإسلام على العمل ، حارب البطالة : « إِنَّ السَّمَاءَ لَا تَمُطِرُ ذَهَباً وَلَا فِضَّةً » ، ولقد شملت المساواة في الإسلام الأصل الإنساني ، فلا فضل في عنصر أو لون ، وشملت الإنسان تجاه أحكام الشريعة ، وفي التّكاليف كلّها ، الحقوق والواجبات ، أمّا في السّعي والعمل فالجزاء على قدر الجهد الدّائمي ، والمساواة هنا في الإنتاج والجهد والعمل غير عادلة ، ومن هنا جاء التّفاوت في ثمرات السّعي والرّزق : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ ، [الأحقاف : ١٧/٤٦] ، وعندما أثنى بعض الصّحابة على رجل منقطع إلى العبادة ، قال ﷺ : « فَمَنْ كَانَ يَكْفِيهِ عِلْفٌ بَعِيرُهُ ، وَإِصْلَاحُ طَعَامِهِ ؟ » ، قالوا : كُلُّنَا ، فقال ﷺ : « كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ » ^(٨) .

(٨) فالعمل واجب على قدر طاقة الإنسان ، لا على قدر حاجته ، فلو عمل كلّ على قدر حاجته ، فمن لمن =

وتحريم الربا تأكيد على أن الجزاء على قدر الجهد الذاتي ، وأن المال في نظر الإسلام لا يلد المال ، وفيه استغلال أصحاب رؤوس الأموال لجهد العاملين ، سواء أصابوا ربحاً أم أصيبوا بخسارة ، فالعمل هو أساس الكسب وتوزيع الثروة : ﴿ وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، [يس : ٥٤/٣٦] .

٥ المرأة والعمل : ليس من معنى الحجاب احتباس المرأة في البيت والحيلولة بينها وبين العمل ، فمفهوم الحجاب الاحتشام والعفة ، مع ستر مواضع الفتنة ، وتجنب التبرج ومواطن الريبة^(٩) ، واستقلال المرأة في مالها يستلزم حرية العمل ، على ألا تستهين بأقدس أمانة في عنقها ، ألا وهي : (الأسرة : زوجاً وأولاداً) .

١٠ والمرأة آثمة إذا تسببت في تخلف مجتمعتها ، وفي وسعها النهوض به ، على أن يكون عملها في جوٍّ نقيٍّ طاهر ، ففي الإسلام : « إِنَّا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ » ، [الإمام أحمد ، والترمذي ، وأبوداود] ، وفي القرآن الكريم وردت كلمة رجل مفردة ٢٤ مرة ، ووردت كلمة امرأة مفردة ٢٤ مرة أيضاً ، فمة المساواة .

١٥ وحديث : « يا معشر النساء ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبَّ الرجل الحازم من إحداكن » ، [متفق عليه] ، قيل يوم عيد ، فلا يعقل من رسول الله صاحب الخلق العظيم أن ينقص من شأن النساء ، أو يحطَّ من كرامتهنَّ في مناسبة

= لا يستطيع العمل لعلّة ؟ وأين نظرة التكافل الاجتماعي .

(٩) في عالم التّجميل عند المرأة ، ولكلِّ المناسبات ، وفي جميع الأوقات ، يُنصَح بما يلي : « لكي تكوني أكثر جمالاً وجاذبيّة ، أنصحك بالآتي : اجعلي غضّ البصر كحل عينيك تزدادا صفاءً وبريقاً ، ضعي لمسات من الصّدق على شفّتيك تصبعا أكثر جمالاً ، أمّا أحمر الخدود فاستعمليه من صنف الحياء الذي يباع في مركز الإيمان ، واستخدمي صابون الاستغفار لإزالة أي ذنوب أو خطايا تشتكين منها .

أمّا شرك فاحيه من التّقصّف بالحجاب الإسلامي الذي يحفظه من نظرات الأجانب المحركة ، أمّا الحلي ، فأنصحك بأن تضعي في أذنّيك حلق الأذّب ، وزيّني يديك بسوار التّواضع ، وأصبعك بخاتم التّسامح ، وقلادة العفة خير ماتطوّقين به عنقك ، وهذا الحلي الجميل لا يوجد إلّا في تجارة الإسلام الرابحة ، فاغتني الفرصة ، وبادري في الشراء » .

بهيجة ، فليست صيغة الحديث صيغة تقرير ، ولا قاعدة عامة أو حكماً عاماً ، إنها صيغة تعجب من التناقض القائم في ظاهرة النساء الأنصاريات ، اللواتي فيهن رقة ونعومة ، وعلى الرغم من ذلك كملتهن هي العليا عند الرجال ذوي الحزم ، أي كل ما في الأمر التعجب من حكمة الله ، كيف وضع القوة حيث مظنة الضعف ، وأخرج الضعف من مظنة القوة^(١٠) .

والمرأة في الإسلام (الْمُحْصَنَةُ) ، منارة العفة والفضيلة ، فتح أمامها مجال التعليم ، وأسبغ عليها مكاناً اجتماعياً كريماً في مختلف مراحل حياتها ، تنمو الكرامة بنو سينها ، من طفلة إلى زوجة إلى أم ، حيث تكون في سن الشيخوخة التي تحتاج معها إلى مزيد من الحب والحنو والإكرام .

المرأة نصف المجتمع ، وترعى نصفه الآخر بحكم موقعها المؤثر في زوجها وأولادها ومحيطها .

« قضية المرأة هي قضية كل أب ، وكل ابن ، وما دام في الدنيا آباء وأبناء ، ففي الدنيا احترام عميق لكرامة النساء ، والذين لا يفرقون بين الكرامة والابتزاز ، هم غارقون في الأوهام والأحوال »^(١١) ، انطلاقتها في الحياة لاشك فيها ، ولكن دون مجال لاستغلال أنوثتها بما يرهقها ، ويؤدي إلى شقائها ، رجاء ألا تقع فيما وقعت فيه^{١٥} أختها في الغرب بما ضج منه عقلاء القوم ومفكروهم الأحرار .

الغناء والموسيقى :

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، لبس الناس أحسن ملابسهم ، كأنهم في يوم عيد ، ولما وصل ﷺ ظاهر المدينة ، صاح الناس رجالهم ونسائهم جاء

(١٠) تحرير المرأة في عصر الرسالة ، عبد الحليم أبو شقة ، دار القلم - الكويت .

(١١) المرأة بين الفقه والقانون ، ص : ٣

رسول الله ، وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنين ويضربن بالدُفوف ، والحبشة تلعب بحراياها فرحاً بقدومه ﷺ ، وفي الصحيحين ، وجعلت النساء والصبيان والولائد ينشدن :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ
أُيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ
جِئْتَ شَرَفَتِ الْمَدِينَةُ مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعِ

ودخل ﷺ المدينة ، والمسلمون يحيطون به مشاة وركباناً ، وقد تقلدوا سيوفهم ، وتحلوا بأحسن ملابسهم ، وعلا وجوههم الزهو والبشر والابتهاج بمقدمه ﷺ ، واعترضته القبائل لينزل عندها ، وقد أخذت بزمام الناقة ، فقال ﷺ : « خَلُّوا سَبِيلَهَا ، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، فَخَلُّوا سَبِيلَهَا ، فانطلقت ، حتى إذا حلت ديار بني عدي بن النَجَّار ، فإذا بجواري يضربن بِدُفَّهِنَّ ويتغنين ويقولن :

نَحْنُ جَوَارِي مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٍ مِنْ جَارِ

فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لِأَحَبُّكُمْ » (١٢) .

وَلَمَّا تَقَرَّرَتْ صَيْغَةُ الْأَذَانِ ، أَمَرَ ﷺ أَنْ يُعَلِّمَهُ بِلَالٌ ، لِأَنَّهُ كَانَ نَدِي الصَّوْتِ (١٣) .

وكان ﷺ يكره نكاح السَّرْحَتِيِّ يَضْرِبُ بِدُفٍّ (١٤) .

وعن عائشة قالت : دخل عليّ أبو بكر ، وعندي جاريتان من جواري الأنصار

(١٢) انظر « الوفا بأحوال المصطفى » ٢٥٢/١ ، وابن ماجه ، الحديث ١٨٩٩

(١٣) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لِكُلِّ شَيْءٍ حَلِيَّةٌ ، وَحَلِيَّةُ الْقُرْآنِ الصَّوْتُ الْحَسَنُ » .

(١٤) انظر « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » للحافظ نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٧٠٨ هـ) ، المجلد الثاني ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٧ م .

تغنيان بما تناولت به الأنصار في يوم بُعَاث^(١٥) ، قالت : وليستا بمغنيات - أي محترفتين - فقال أبو بكر : أبزمور الشيطان في بيت النبي ﷺ ؟ وذلك في يوم عيد الفطر ، فقال النبي ﷺ : « يا أبا بكر ، إنَّ لكلِّ قومٍ عيداً ، وهذا عيدنا »^(١٦) .

وعن ابن عباس ، قال : أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : « أهديتُم الفتاة ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « أرسلتم معها من يُغني ؟ » ، قالت : لا ، فقال رسول الله ﷺ : « فهلأُ بعثتم معها من يُغنيهم ، يقول :

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نَحْيِيكُمْ
وَلَوْلا الذَّهَبُ الْأَحْمَرُ رَمَّا حَلَّتْ بِوَادِيكُمْ
وَلَوْلا الْخِنْطَةُ السَّمْرَاءُ مَا سَمِتَ عَذَارِيكُمْ

فإنَّ الأنصار قوم فيهم غزل »^(١٧) .

« والحِداءُ » أيام رسول الله ﷺ كان معروفاً ، ففي الطريق إلى غزوة خيبر^(١٨) ، قال ﷺ لعامر بن الأكوع : « انزل فحدّثنا من هناتك »^(١٩) ، انزل فحرّك بنا الرّكاب » ، فقال : يا رسول الله قد تولّى قولي الشعر ، فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : اسمع وأطع ، فنزل عامر يرتجز :

(١٥) يوم بُعَاث : يوم من أيّام العرب ، كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهليّة ، وُبُعَاث : اسم حصن للأوس ، (اللسان : بعث) .

(١٦) ابن ماجه ، الحديث ١٨٩٨

(١٧) ابن ماجه وابن حنبل والبيهقي والبخاري والحاكم ، والبيتان الثّاني والثّالث في الطّبراني في الأوسط .

(١٨) غزوة خيبر : المحرم ٧ هـ ، آب (أغسطس) ٦٢٨ م .

(١٩) هناتك : جمع هنة ، كناية عن كلّ شيء لا تعرف اسمه ، أو تعرفه ، فتكّني عنه ، وأصل الهنة : هنة وهنوة ، قال الشاعر : « على هنوات شأنها متتابع » ، وفي البخاري : « ألا تنزل فتسمعنا من هُنَّهَاتِكَ » مصفّرة بالهاء ، وإِنَّمَا أراد ﷺ أن يحدّوهم من أراجيزه وشعره ، فالإبل تستحث بالحاء .

وَاللّٰهُ لَوْلَا اللّٰهُ مَا اهْتَدَيْنَا
 إِنَّا إِذَا قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا
 فَانْزَلْنُ سَكِينَةً عَلَيْنَا
 فَاعْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا^(٢١)
 وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّنَا
 وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا
 وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
 وَالْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا
 إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَيْنَا
 وَبِالصَّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا^(٢٢)

فقال له رسول الله ﷺ عند إنشاده هذه الأبيات : « يرحمك الله »^(٢٣) ، « يرحمك ربك »^(٢٤) .

وفي عمرة القضاء ، دخل ﷺ مكة المكرمة ، وعبد الله بن رواحة أخذ بخطام ناقته ، وهو يقول :

بِأَسْمِ الَّذِي لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ بِأَسْمِ الَّذِي مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ
 خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ^(٢٥)

وكان العباس رضي الله عنه يداعب ابنه (قُثْم)^(٢٦) وهو يقول منشداً :

حَبِي قُثْمٌ شِئْهُ ذِي الْأَنْفِ الْأَشَمِّ
 بَنِي ذِي النَّعَمِ بَرِغَمٍ مِّنْ زَعَمٍ^(٢٧)

(٢٠) في السيرة النبوية لابن كثير ٢٤٦/٢ : « لَأَهْمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا » .

(٢١) أي فاعفر ما اكتسبنا ، وأصل الاقتفاء الاتباع .

(٢٢) الأبيات مجموعة من عدة مصادر : الاكتفاء ١/١٣٢/أ ، السيرة الحلبية ٣/٣٧ ، طبقات ابن سعد ٢/١١١ ،

الروض الأنف ٤/٥٦ و ٥٧ ، ابن هشام ٣/٢١١ ، الب اية والنهاية ٤/١٨٢ ، عيون الأثر ٢/١٣٠

(٢٣) الاكتفاء ١/١٣٣/أ

(٢٤) السيرة الحلبية ٣/٣٧ ، البداية والنهاية ٤/١٨٢

(٢٥) السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٣٢

(٢٦) رجل « قُثْم » : إذا كان معطاء ، (اللسان : قُثْم) .

(٢٧) البداية والنهاية ٤/٢١٦ ، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٠٩ ، (هكذا ورد النص) .

وجاء قوم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالوا له : إنَّ إماماً يصلي بنا العصر ، ثمَّ يغني بعد ذلك ، فقام معهم ، واستنشد الأبيات التي يغنيها ، فإذا هي الأبيات التالية :

وفؤادي كلُّما عاتبته عادَ في اللذاتِ يبغي تعبِي
لا أراهُ الدَّهرَ إلَّا لأهِيأ في تماديه فقد برَّحَ بي
يا قَرينَ السُّوءِ ما هذا الصِّبا فنيَ العمرُ كـذا في اللَّعبِ
وشبابٌ بانَ مِنِّي فبُضِي قبلَ أن أدركَ مِنْهُ أربي
نفسِي لا كُنتَ ولا كانَ الهوى اتَّقِي اللهَ وخَافِي وارْهَبِي
فجعل عمر يردّد البيت الأخير :

نفسِي لا كُنتَ ولا كانَ الهوى اتَّقِي اللهَ وخَافِي وارْهَبِي
وصار يبكي ، ثمَّ قال : مَنْ كانَ منكم مغنياً ، فليغن هكذا .

فالإنشاد والغناء - وبلحن جميل محبَّب - لأبيات تحمل معاني فاضلة سامية ، أمرٌ مباح^(٢٨) ، ولم يقف الإسلام في وجه كلِّ غناء ، بل وقف في وجه المعاني الساقطة الماجنة ، وهي خطيرة جداً في حياة كلِّ الأمم والشعوب ، ولعظيم خطر الأغنية ،

(٢٨) انظر : إيضاح الدلالات في سماع الآلات ، تأليف الشيخ عبد الغني النابلسي ، تحقيق الأستاذ أحمد راتب حموش ، طبع دار الفكر بدمشق عام ١٩٨١ م .
« واعلم أنَّ سماع الألحان بالأشعار الطيبة والنغم المستلذة ، إذا لم يعتقد السمع محظوراً ، ولم يسمع على منموم في الشرع ، ولم ينخرط في زمام هواه مباح في الجملة ، ولا خلاف أنَّ الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها ، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة ، فلا يتغيّر الحكم بأن تسمع بالألحان .. » ص ١٠٢ ، « وكل من ورد عنهم السماع من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين رضي الله عنهم ، مقاصدم في ذلك حسنة ، ونياتهم صحيحة ، ومن أنكر السماع من المتقنين ، ومن المتأخرين إننا مرادهم القسم الفاسد من ذلك .. » ص : ١٤٠

وعميق أثرها في المجتمع ، يقول دانييل أوكنل : « دَعُونِي أَكْتُبْ أَغَانِي الْأُمَّةِ ، وَلَسْتُ أَبَالِي
بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ يَسِينُ شَرَائِعَهَا » (٢٩) .

ولما انتشر شعراء الغزل في العصر الأموي ، أمثال : عمر بن أبي ربيعة ، وكثير
عزة ، وجميل بثينة ، تغنى كثير من الناس بأشعارهم . وكان الخلفاء الأول في هذا
العصر ، يستمعون في أوقات فراغهم لقصائد الشعراء ، ولم يلبث الغناء أن حلَّ محلَّ
الشعر . فكان الخلفاء لا يظهرون للندماء ، بل كان بينهم حجاب ، حتَّى لا يطلَّع
الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب ، فقد تأخذ نشوة الطرب بلبِّه ، فيقوم بحركات
لا يطلَّع عليها ، إلاَّ خواص جواريه ، وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت ، أو حركة
غريبة ، صاح صاحب الستارة : « حسبك يا جارية ! كفى ! انتهى ! أقصري ! » ،
موهماً الندماء أنَّ الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجواري (٣٠) .

ويذكر الجاحظ أن بعض خلفاء بني أمية ، ظهوروا للندماء والمغنين ، ولم يحفلوا
بإتيان حركات تثيرها نشوة الطرب في نفوسهم .

وفي عهد الوليد الثاني كلف النَّاس بالموسيقى والغناء ، وأسرفوا في ذلك . وكان
للقيان أثر ملحوظ في تقدُّم الغناء ، وكانوا من غير العرب .

ومن أشهر المغنين في هذا العصر (طَوَيْس) ، وأبو مروان الغريز . ومن آلات
الطرب : الصَّنَج ، وبه يُسمَّى أعشى قيس « صَنَاجَة العرب » ، لجودة شعره ،
والطُّنبور ، والدَّرِيح وله أوتار كالطُّنبور ، والمزمار .

أمَّا العصر العبَّاسي ، فقد وردت أخبار غنائه ومغنييه في كتاب « الأغاني »
لصاحبه أبي الفرج الأصفهاني ، والأصفهاني متَّهم في أمانته الأدبيَّة والتَّاريخيَّة . جاء في

(٢٩) قصَّة الحضارة ٦٢/٤

(٣٠) تاريخ الإسلام ٥٣٢/١

« ميزان الاعتدال في نقد الرجال » للدعبل بن علي ١١٢/٣ : « إنَّ الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب محدّثنا وأخبرنا » . وجاء في « لسان الميزان » بشأنه : يأتي بأعاجيب محدّثنا وأخبرنا . فمن يقرأ الأغاني يَر حياة العباسيين^(٣١) حياة هو ومجون وغناء كلّها ، وهذا يناسب المؤلّف وخياله وحياته ومن حوله ، فنشك بصحّة ما كُتِبَ في هذا الموضوع اعتماداً على الأغاني فقط .

وما سبق لا يعني مطلقاً أنّه لم يكن غناء وموسيقى في الدّولة العباسيّة ، بل كان ، ولكن ليس بالحجم الذي صوّره الأصفهاني .

ولا يعني مطلقاً أنّه لم يكن هناك مجون وحانات ، بل كان ، ولكن ليس بالصّورة التي صوّرها الأصفهاني .

فالرّشيد كانت مجالسه فيها سمر وأشعار تنشد ، ولكن في مستوى رفيع ، ومعانٍ فاضلة ، كقول ابن السّماك ، عندما دخل على الرّشيد وبين يديه حمامة تلتقط حبّاً ، فقال له : صفها وأوجز ، فقال : كأنّها المنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفت هاتفة آ	دَنَهْـــــــــــــــــا إلفَ بين
ذات طَوْقٍ مثل عَطْفِ الدُّ	ـــــــــــــــــون أَقْنَى الطَّرْفين
وتراها نناظرة	نحوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثق	بين كاللؤلؤلوتين
وترى مثل البساتين	من لها قدامتين
ولها لحيان كالصد	غين من عرعرتين
ولها ساقان حمرا	وان مثل الوردتين

(٣١) وخصوصاً عصر القوّة في الدّولة العباسيّة ، الذي بدأه أبو العباس السّفّاح [١٢٢ هـ - ١٣٦ هـ] ، وانتهى بوفاة المتوكّل بن المعتصم ٢٥٢ هـ .

نسجت فوق جناحيها لها برنوستين
وهي طاووسية اللو ن بنان المنكين
تحت ظل من ظلال الـ أئيك صافي الكتفين
فقدت إلفاً فاحت من تباريح وبين
فهي تبكيه بلا دم عرج جود المقلتين
وهي لاتصبغ عيناها ها كما تصبغ عيني^(٣٢)

وغنى للرّشيد مسكين المدني ، الذي يعرف بأبي صدقة :

قف بالمنازل ساعة فتأمل فلسوف أحمل للبلبي في محل

وكان ابن أبي مريم هو الذي ينادم الرّشيد ويضحكه ، وكان عنده فضيلة بأخبار
الحجاز وغيرها ، وكان الرّشيد قد أنزله في قصره ، نبّهه الرّشيد يوماً إلى صلاة الصّبح ،
فقام فتوضاً ، ثم أدرك الرّشيد وهو يقرأ : ﴿ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ، فقال
ابن أبي مريم : لأدري والله ، فضحك الرّشيد ، وقطع الصّلاة ، ثم أقبل عليه وقال :
ويحك اجتنب الصّلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك^(٣٣) ، ومنّ هذه شروطه مع نديمه ، لن
نجد في كتب التاريخ الصّحيحة عن مجالسه مجوناً ، كما أعتقد^(٣٤) .

وغنى إبراهيم الموصلي للرّشيد ولأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم من بعده ، وأجاد
ابنه إسحاق بن إبراهيم الموصلي في وضع الألحان ، وكتب رسالة مطوّلة في الغناء ،
صحّح فيها أنغامه وطرائقه ، واحتفظ بالغناء القديم ، وخالف بذلك أباه ومن ذهب
مذهبه في تغييرات أصوات المتقدّمين .

(٣٢) مروج الذهب ٣/٢٥٩

(٣٣) البداية والنهاية ١٠/٢١٤ . وانظر : هارون الرّشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدّنيا ، طبع دار الفكر

بدمشق .

(٣٤) تاريخ الإسلام ٢/٣٩٩

وكان الخليفة الواثق يتقن الغناء إتقاناً لم يسبق إليه خليفة ولا ابن خليفة ، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة^(٣٥) ، يقول السيوطي : « وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء ، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت ، وكان حاذقاً بضرب العود ، ورواية الأشعار والأخبار »^(٣٦) .

- أما في الأندلس ، فقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى ، وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين ، ففي عهد عبد الرحمن بن هشام : [٢٠٦ - ٢٣٨ هـ] وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن رافع الملقب بزرياب^(٣٧) ، تلميذ إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، الذي قدم من بغداد إلى بلاط زيادة الله الأغلب ، أمير القيروان ، ثم تآقت نفسه إلى الأندلس ، فلما سمعه عبد الرحمن بن هشام قدّمه على جميع المغنين^(٣٨) .
- زاد زرياب على العود وترّاً خاصّاً ، وأتخذ مضرب العود من قوادم النسر بدل الخشب ، وإليه يرجع تعليم الجوّاري الغناء في عصره ، علّمهنّ الغناء والعزف على العود ، ومن هؤلاء : غزلان وهنيدة ومنفعة ، وأثر في أذواق الناس ، في لباسهم ، وطعامهم ، وآداب المائدة وتنظيمها ، « فكانوا يبدؤون بالحساء ، ثمّ يقدّمون اللحوم والطّيور ، وينتهون بالحلوى ، كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجيّة الرّفيعه على أكواب الذهب والفضّة ، وابتكر أسمطة الطّعام من الجلد الرّقيق بدل الكتّان ، وأتخذ^{١٠} أمراء الأندلس وخلفاؤها وخواصهم زرياب قدوة فيما سنّه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه^(٣٩) .

(٣٥) و (٣٦) تاريخ الخلفاء : ٣٤٢ و ٣٤٣

(٣٧) أطلق عليه هذا اللقب لسواد لون بشرته ، وفصاحة لسانه ، تشبهاً له بطائر أسود الريش ، حسن الصوت . يقول ليثي بروفنسال : أثبت أنه مجدد عبقرى ، فقد أوجد معهداً موسيقياً عالياً ، حيث طوّرت الموسيقى الأندلسية « ، [الحضارة العربيّة في إسبانية ، ط باريس ١٩٤٨ م] .

(٣٨) نفع الطيب ٧٥٣/٢ و ٧٥٤

(٣٩) تاريخ الإسلام ٤١٣/٢ عن نفع الطيب ٧٥١/٢ و ٧٥٢ ، بروفنسال : الشرق الإسلامي والحضارة العربيّة - الأندلسيّة ، ص ٣٠-٣٤

ولم تلقَ الموسيقى إقبال النَّاس في العصر العبَّاسي الثَّاني ، ولعلَّ سبب ذلك مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللُّهو ، واللَّعب عامَّة ، ومن بينها الموسيقى .

ولمَّا كثر رَوَّاد الحانات في العصر العبَّاسي المتأخَّر ، قام بعض الصَّالحين في وجه هذا التَّيار ، ويذكر ابن الأثير أنَّ شخصاً أتلف آلة الغناء الَّتِي تستعملها إحدى المغنَّيات ، كانت تصطحب جندياً من السَّلاجقة الأتراك^(٤٠) ، وذكر أنَّ الخليفة المقتدي بأمر الله : [٤٦٧ - ٤٨٧ هـ] ، أمر بنفي المغنَّيات والمفسدات من النِّساء ، وخرَّب أبراج الحَمَّام ، ومنع اللُّعب بها ، صيانة لِحرْم النَّاس .

وفي خطط المقرئزي ٢/٢٨٧ ، أنَّ الخليفة الحاكم الفاطمي ، أصدر بين سنتي [٣٩٨ - ٤٠١ هـ] ، قوانين تحرِّم اجتماعات اللُّهو والطَّرَب على شواطئ خليج القاهرة ، وتلاها بقوانين منع بموجبها سماع الموسيقى ، والاستماع بالألعاب ، ومنع آخرين من سماع المغنَّيات .



اللَّهُو واللَّعِب :

الحياة زمن يمضي ، ولا يقبل الإسلام أن يمضي زمن في حياة معتنقيه غير مُنتج .
نافع ، لا يقدم خيراً في حياة الفرد أو المجتمع ، لذلك قال عز وجل : ﴿ لَا خَيْرَ فِي
كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، [النساء : ١١٤/٤] .

وهذا لا يعني ألا يلهو المسلم ، ويلعب ، فرسول الله ﷺ يقول : « إلهوا والعبوا
فإنني أكره أن أرى في دينكم غلظة »^(٤٨) ، فترويح النفوس إذا سُمّت ضرورة : « إن
لجسدك عليك حقاً » ، وجلأوها إذا ملّت باللهو واللَّعِب المباح : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَانْصَبْ ☆ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ ، [الشرح : ٨ و ٧/٩٤] .

يقول ﷺ : « خير لهو المؤمن السَّباحة ، وخير لهو المرأة الغزل » ، كما حضَّ ﷺ
على تربية الفرس والاعتناء بها أوقات الفراغ .

واللهو المحرم ، هو كلُّ لهو اقترن بالفجور والفسوق وترك الفرائض والواجبات .

وهكذا .. أحلَّ الإسلام ضروب التَّسلية البريئة والمفيدة كالصَّيد وسباق الخيل ،
لذلك كلف بعض الخلفاء الأمويين بالصَّيد ، لأنَّه تمرين على الرِّكض والكرِّ والرَّمي ..
والفروسيَّة عموماً ، واختيار الخيول واختبارها ، ولذلك كان سباق الخيل أهمَّ تسلية
للشَّعب في كلِّ العهود الإسلاميَّة ، تستهوي نفوس الشَّباب ، حيث تظهر مهاراتهم
وفروسيَّتهم وإمكاناتهم ، حتَّى أصبحت حلبات السَّباق وامتطاء الغلمان والعسكر
صهوات الجياد - وهم كثر - بالعُدَّة الكاملة ، والأسلحة التَّامة ، وما يرافق ذلك من
إقامة معالم الزينة ، كل أولئك كان بمثابة أعياد فيها الفرحه والبهجة .

(٤٨) رواه البيهقي وابن حجر الهيتمي في : كَفَّ الرِّعَاع .

ويقال إنَّ هشام بن عبد الملك كان أوَّل من أقام حلبات السِّباق ، وكانت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ، ويشتركن في السِّباق^(٤٩) .

ومن أنواع التَّسلية « الكرة » ، وكانوا يتدافعونها في الهواء بالعصي ، والقُلة والمقللة وهما عودان يلعب بهما الصِّبيان^(٥٠) .

٥ أمَّا في العصر العبَّاسي الأوَّل ، فقد قضى النَّاس بعض أوقات فراغهم في سماع الحكايات الهادفة ، والنَّوادر الهزليَّة ، والأحاديث الَّتِي تتجلَّى فيها الفطنة والذكاء ، كما لعبوا في منازلهم الشَّطرنج^(٥١) ، وعرفوا النُّرد ، والرَّمي بالنَّشَّاب ، والصَّيد .. وكان سباق الخيل من أجلِّ أنواع التَّسلية وأرقاها عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدَّولة .

وعرف هذا العصر « التَّنس » ، ويسمونها لعبة « القراح » ، وكان النِّساء يمارسن الرَّمي بالسَّهام . ١٠

واستمرَّ اللَّعب بالشَّطرنج في العصر العبَّاسي الثَّاني ، مع النُّرد وسباق الخيل ، وانتشرت في أوقات الفراغ مجالس الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى . كما انتشرت مجالس الوعظ ، حيث أدَّت المساجد مهمَّة الوعظ ، وعالجت مسائل الدِّين والدُّنيا ، وكان لها أثر ملحوظ في حفظ القيم الإسلاميَّة ، ولا سيَّما ما يتعلَّق بالمثل العليا .

١٥ واستهوت مجالس القصص العامَّة ، فعقدت في الطُّرقات ، وفي المنازل ، وفي المساجد انطوت القصص على أهداف كالشَّجاعة ، والنَّجدة ، والكَرم ، والوَفاء ، والعفة ، والشَّهامة ..

(٤٩) مروج الذهب ١٨٨/٣ و ١٨٩

(٥٠) يرمي الصَّيِّ بالقُلة في الهواء ثمَّ يضربها بمقللة في يده ، وهي خشبة طولها ذراع ، فتستقر القُلة في حركتها ، وإذا وقعت كان طرفاها مجانبين للأرض ، فيضرب الصَّيِّ أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثمَّ يعترضها بالمقللة فيضربها في الهواء ، فتستمر ماضية .

(٥١) وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، عرفوا نوعاً من الشَّطرنج يسمَّى « الجوارحيَّة » ، أو اللَّعب =

ويقول الذّميري في حياة الحيوان الكبرى : ولعب بعض الناس بترية الحَمَام ، هوايةً ومحبةً ، وشارك بربيته شرائح مختلفة من المجتمع ، ولكن السُّلطات عملت على محاربة هذه هواية ، لأنّ فيها انتهاك حرّيات الجيران ، وإقلاق راحتهم ، وما يستتبع ذلك من الصّياح ، ورمي الحجارة وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة^(٥٢) .

واعتنى الخلفاء الفاطميّون بعرض الخيل ، وتسييرها في مواكب يحضرها الخليفة . هـ



الأعياد :

أعياد المسلمين اثنان : عيد الفطر بعد شهر الصّوم ، وعيد الأضحى بعد موسم الحجّ ، وكان الخلفاء يحتفلون بها احتفالاً دينياً مهيباً ، فيؤمّن النّاس في الصّلاة ، ويلقون عليهم خطبة العيد ، وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الإسلاميّة في ليالي العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتّهليل والتّكبير ، وتضرب الطُّبول ، وتصدّق الأبواق ، وترفع الأعلام والرّيايات ذات الألوان الزّاهية^(٥٣) .

واحتفل في الدّولة العبّاسيّة بأعياد الفُرْس ، كالنّوروز ، وهو أوّل أيّام السّنة عندهم ، ويقع في ابتداء فصل الرّبيع ، وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد في

= بالجوارح ، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان وتنافس غيرها من الحواس ، تاريخ الإسلام ٤٣٠/٢ ، عن متر : « الحضارة الإسلامية » ٢١٣/٢ و ٢١٤

(٥٢) روى ابن ماجه « الحديث ٢٧٦٤ و ٢٧٦٥ و ٢٧٦٦ » ، عن عائشة رضي الله عنها ، أنّ النّبي ﷺ نظر إلى إنسان يتبع طائراً - حمامة - ، فقال : « شيطان يتبع شيطانة » .

(٥٣) وكان الاحتفال بهذين العيدين يبلغ منتهى روعته وأبهته في الثّغور - كما يقول ابن حوقل - مثل طرسوس حيث يربط المجاهدون القادمون من مختلف بقاع العالم الإسلامي ، فكان لهذه الاحتفالات أثر كبير في إظهار عظمة الإسلام وأفراحه ، حتّى أصبح عيد الفطر وعيد الأضحى في هذه الثّغور من الأيام البديعة الجميلة المشهودة .

بلاد فارس ، غير أنه عاد في العصر العباسي الأول ، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا ، ومنها السُّكَّر والملابس ، ويلبس الجند ملابس الرِّبيع والصَّيف .

كما احتفلوا بالمهرجان أوَّل الشتاء ، ويسمونه « روزمهر » ، ومعناه « محبَّة الرُّوح » ، وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلاً على نهاية العالم ، والنُّوروز دليلاً على بدايته ، وكان اليوم الخامس من المهرجان ، من أعظم أيَّام الفُرس ، ويسمونه « رام روز » ، وهو المهرجان العظيم .

وأولى الفاطميُّون عيد الفطر عناية خاصَّة ، فكانت الخيرات تعمُّ النَّاس ، حيث توزَّع الفِطْرَة ، والكسوة ، ويعمل السَّاط ، ويركب الخليفة لصلاة العيد . كلُّ ذلك ، بعدما اتَّخذوا من غرَّة رمضان المبارك من المواسم الدِّنيَّة البهيجة ، حيث تعمَّر المساجد بتلاوة القرآن الكريم ، وبصلاة التَّراويح .

وكان عندهم نُوْرُوز خاص يُسمَّى « النُّورُوز القِبْطِي » ، وهو أوَّل السَّنَة القِبْطِيَّة ، توقد فيه النِّيران ، ويرشُّ الماء ، ولقد اهتمَّ الفاطميُّون بالاحتفال بهذا العيد ، وأعادوا الاحتفال بوفاء النِّيل .

واحتفل الفاطميُّون بمولد الرِّسول الكريم ﷺ ، ويوم عاشوراء ، وبمولد علي رضي الله عنه .. وكان معزُّ الدَّولة بن بُوَيْه أوَّل من احتفل بعيد الغدير ، وذلك سنة ٣٥٢ هـ .

ومن الاحتفالات ، الاحتفالات بالانتصارات الحربيَّة ، كما حدث سنة ٤٦٣ هـ ، عندما انتصر السُّلطان ألب أرسلان على البيزنطيِّين في موقعة ملاذكرد .

ومَّا يذكر أنَّ الاحتفالات بعيد المولد النَّبويِّ الشَّريف بلغت أوجها أيَّام المماليك ، وعمَّت العالم الإسلاميَّ كلَّه .



الْمَلَابِسُ وَالْأَزْيَاءُ : لم يتأنق المسلمون الأولون في ملابسهم ، لقد عرفوا ببساطة اللباس ، فلبس أبو بكر الصديق رضي الله عنه الشَّملة والعباءة ، وعرف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبسه خشن الملبس ، وكثيراً ما رَقَّع ثوبه ، قال علي رضي الله عنه : رأيت لعمر بن الخطاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من آدم - أي جلد - .
 وخطب مرّة النَّاس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة^(٥٤) .

وقال أنس : لقد رأيت في قيص عمر أربع رقاع بين كتفيه . وأبطأ جمعة في الصَّلَاة ، ثمَّ خرج ، فلما صعد المنبر اعتذر إلى النَّاس فقال : إنَّما حبسني قيصي هذا ، لم يكن لي قيص غيره .

وعن عبد الله بن عباس قال : خرجت أريد عمر بن الخطاب فلقيته راكباً حماراً وقد ارتسنه بحبل أسود - أي جعله رسناً له - في رجليه نعلان مخصوفتان ، وعليه إزار .
 وقمص صغير ، وقد انكشفت منه رجلاه إلى ركبتيه ، فمشيت إلى جانبه ، وجعلت أجدب الإزار وأُسويّه عليه ، كلما سترت جانباً انكشف جانب . فيضحك ويقول : إنَّه لا يطيعك ، حتَّى جئنا العالية فصلينا ، ثمَّ قدَّم بعض القوم إلينا طعاماً من خبز ولحم ، فإذا عمر صائم ، فجعل يقدِّم إليَّ طيب اللحم ، ويقول : كُلْ لي ولك ، ثمَّ دخلنا حائطاً فألقى إليَّ رداءه ، وقال : اكفيه ، وألقى قميصه بين يديه وجعل يغسله ، وأنا أغسل رداءه ، ثمَّ جففناه وصلينا العصر ومشينا .

وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه عامل عمر على المدائن ، يلبس الصُّوف ، ويركب الحمار برذعته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير . وكان أبو عبيدة بن الجراح يلبس الصوف الجافي ، فلاموه على ذلك ، وقالوا له : إنَّك بالشَّام ، وحولنا الأعداء ، فغيّر في زيِّك ، وأصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالَّذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول ﷺ^(٥٥) .

(٥٤) تاريخ أبي الفداء ١٧٤/١ ، والحلية ٥٣/١ ، وابن الجوزي ١١٩

(٥٥) المسعودي ٤١٨/١

أمّا اللباس - وخصوصاً في البادية - فقد كان يتألف من قباء طويل مشقوق الوسط ، ومتدلّ على العقب ، مربوط في الوسط بحزام من جلد ، كما ارتدوا العباءة فوق القباء ، وهي مصنوعة من وبر الجمل . وكان لباس الرأس العمامة .

وفي الحرب لبسوا أردية خاصّة ، كالسروال والرّداء القصير ، بدلاً من الثياب الفضفاضة المتدلّية . ٥

وفي عهد سليمان بن عبد الملك شاع الوشي^(٥٦) - كما يقول المسعودي - الذي كان يجلب من اليمن والكوفة والإسكندرية ، واتخذ الناس منه جلابيب وأردية وسراويل وعمائم .

أمّا في العصر العبّاسي فقد ظهر التأثير الفارسي في الأزياء ، فلبس أبو جعفر المنصور القلانص ، وهي القُبُعَات السُّود الطَّويلة المخروطيّة الشكل . وأصبح لباس عُليّة القوم يشتمل على « سروالة » فضفاضة ، وقميص وقباء وقلنسوة ، ولبس العامّة إزاراً وقميصاً ودراعة وسترة طويلة وحزاماً ، وانتعلوا الأحذية ، ولبسوا الجوارب وسمّوها « موزاج » . ١٠

وأبو يوسف قاضي هارون الرّشيد - كما في وفيات الأعيان - أوّل من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في زماننا هذا . ١٥

وفي الأندلس ، تحكّم زرياب في ابتداع الأزياء ، وحثّ الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ، وعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء في الصّيف ، وملابس حريريّة خفيفة في الرّبيع ذات ألوان زاهية ، وأنّ الشّتاء فصل الفراء والملابس الثّقيلة .

وفي عهد الفاطميّين في مصر ، كانت القاهرة من أهمّ مراكز النسيج ، واشتهرت بأنواع خاصّة من الثياب الحريريّة والقطنيّة والكتانيّة والصّوفيّة ، وفي دار الكسوة التي ٢٠

(٥٦) الوشي - في اللسان - نوع من الثياب معروف ، وهو يكون من كلّ لون ، خلط لون بلون .

بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة ، كانت تفصل الثياب للخليفة
والأمراء والوزراء وسائر موظفي الدولة ، على اختلاف مراتبهم ، والخلع التي كانت تمنح
بسعة للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر حتى سُمي « عيد الحُلل » .

أما ثياب المرأة فقد اشترط بها الحشمة ، وعدم إظهار مفاتن الجسم ، لذلك كانت
ملاءتها طويلة تغطي جسمها ، كما لفت المرأة رأسها بمنديل ربطته فوق جيدها . وفي هـ
العصر العباسي تطور لباس المرأة ، فأتخذت وجبهات المجتمع غطاء للرأس مرصعاً
بالجواهر ، ومحلى بسلسلة ذهبية مزينة بالأحجار الكريمة ، ويعزى هذا الابتكار إلى
عليّة بنت المهدي أخت الرشيد .

أما نساء عامة الناس ، فكنّ يزيّن رؤوسهنّ بجلية مسطحة من الذهب ، ويلفن
حولها عصاة منضدة باللؤلؤ والزمرّد ، ولم يجهل جميعهنّ فنّ التّجميل الذي أخذنه من
الفارسيّات .



الطّعام :

كان الطّعام في صدر الإسلام في غاية البساطة ، واكتفي بالقليل منه ، وضمت
المائدة العامرة لوناً أو لونين على الأكثر ، وخير الأدم اللّحم ، مع مراعاة القواعد
الصّحيّة ، فلا إدخال طعام على طعام ، وغسل الأيدي قبل الطّعام وبعده .

وأفضل أطعمة العرب الثريد ، وهو الخبز يفتّ ويبلّ بالمرق ، ويوضع فوقه
اللّحم ، ومنه اللّزمة وهو الخبز يكسر عليه السمن ، والكوتان وهو الأرز والسّمك ،
والأطرية وهو طعام فيه خيوط من الدقيق ، والرّببكية وهي شيء يطبخ من برّ وتر
ويعجن بالسمن ، والجشيش وهو دقيق مجروش يوضع في قدر ويلقى عليه لحم أو تمر
٢٠ يطبخ ، والعكّة وهو طعام يتخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى ، والقديد وهو اللّحم

يُشْرَحُ ويقَدَّدُ ، والصَّفِيفُ إذا شَرَحَ اللَّحْمَ عَرَضاً ، والشَّوَاءُ ، والبَسِيسَةُ وهي الدَّقِيقُ ، والسَّوِيقُ ويَتَّخِذُ من الحنطة والشَّعِيرِ ، والخَزِيرِ وهي الحساء من الدَّسَمِ والدَّقِيقِ ، والخَزِيرَةُ أيضاً أن تنصب القدر بلحم يقطع صفاراً على ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدَّقِيقُ ، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة ، ولا تكون الخزيرة إلاً وفيها لحم ^(٥٧) .

ويَتَضَحُّ ممَّا سبق قلَّة استعمال العرب للخضروات في طعامهم ، ولعلَّ السَّببُ أنَّ بلادهم ليست زراعيَّة ^(٥٨) .

هذا .. وبَدِئُ باستعمال الملاعق التي صنعت من الخشب أو الفخار زمن الأمويين ، ويذكر الإمام أحمد أنَّ رسول الله ﷺ كان يستعمل السَّكِينِ في قَطْعِ اللحم .

وبدأ النَّاسُ يجلسون على موائد حولها الكراسي زمن الأمويين ^(٥٩) ، وروي عن معاوية وسليمان بن عبد الملك حبَّهما للطَّعام وتفنُّنهما في اختيار ألوانه .

ونوع العباسيون طعامهم منذ أيام أبي جعفر المنصور ، وتفنَّن أهل بغداد في طعامهم من صيد وفاكهة وخضروات ، وشربوا « النَّبِيدَ » الذي أحله أبو حنيفة ، وهو طبعاً غير نبيذ هذا العصر ، وإن اتَّفقت التَّسمية . جاء في كتاب « بدائع الصَّنَائِعِ في ترتيب الشُّرَائِعِ » للإمام علاء الدِّين الكاشاني ، الملقَّبُ بملك العلماء : « وما يَتَّخِذُ من الزَّيْبِ شَيْئَانِ : نَقِيعٌ ونَبِيدٌ ، فالنَّقِيعُ أن ينقع الزَّيْبُ في الماء أيَّاماً حتَّى تخرج حلاوته إلى الماء ، ثمَّ يطبخ أدنى طبخ ، فما دام حلواً يحلُّ شربه ، وإذا غَلَا واشتدَّ وقذف بالزَّيْبِ يحَرِّمُ - لأنَّه تخمَّرُ - ، وأمَّا النَّبِيدُ فهو الَّذي يؤخذ من ماء الزَّيْبِ إذا

(٥٧) تاريخ الإسلام ٥٤٢/١ و ٥٤٣ عن ابن سيده « المخصَّص » ١٢٠/٤ - ١٤٨

(٥٨) ولكنهم عرفوا بالكرم ، يجودون بطعامهم ولا سِماً في البوادي ، حتَّى كانوا يوقدون النَّارَ ليلاً ليهتدي بها الضُّيفان الغرباء ، يقول شاعرهم :

وَإِنِّي لمعطرٌ ما وجدتُ وقائلٌ لموقدٍ ناري : ليلةَ الرِّيحِ أوقدِ

(٥٩) بينما كانوا ييسطون ساطاً على الأرض ، ثمَّ يجلسون ضفِّين من حوله .

طبخ أوفى طبخ ، يحل شربه مادام حلواً ، فإذا غلأ واشتدَّ وقذف بالزبد يحل شربه مادون السكر عند أبي حنيفة وأبي يوسف ، وعند محمد والشافعي لا يحل شربه « ، كما يحل عند أبي حنيفة وأبي يوسف شرب نبيذ التمر مادام حلواً .. ويحرم إذا أسكر ، وكذلك الشراب المتخذ من حل العسل بالماء دون تخمر ، وكذلك الأشربة المتخذة من الشعير والدخن والذرة والتين والسكر .. لذلك ، شرب هارون الرشيد - مثلاً - النبيذ بعرف زمانهم ، لانبذ هذا الزمان ، ولقد تنبه إلى ذلك ابن خلدون فقال : لم يعاقر الرشيد الخمر لأنه كان يصحب العلماء والأولياء ، ويحافظ على الصلوات والعبادات ، ويصلي الصبح في وقته ، ويغزو عاماً ويحج عاماً ، وإننا كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيه معروفة ، وأمّا الخمر الصّرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ، ولا تقليد الأخبار الواهية بها ، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبراء عند أهل الملّة (٦٠) .

ونقل زرياب إلى الأندلس ، أرقى أنواع الطهي البغدادي ، وقرّر أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة ، فكانوا يبدؤون بالحساء ، ثمّ يقدمون اللحوم والطيور ، وينتهون بالحلوى .

وفي مصر أيام الطولونيين ، تعددت ألوان الطعام ، كاللّجاج ولحوم الجدي والضأن ، والفالودج واللوزينج والقطايف ، والعصيدة التي كانت توفّر في عهد المقريري باسم « المأمونية » ، وبلغ من وفرة هذه الأطعمة ، أنها أصبحت في متناول العامة .

(٦٠) وهذا لا يعني أن الخمر لم تعرف ، ولكنها ليست شرطاً في حفلاتهم التي اهتموا بها اهتماماً بالغاً ، تتجلى فيها مظاهر الرّوعة والجلال ، كحفلة زواج الرشيد من زبيدة ، والمأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، وقطر الندى والمعتضد العبّاسي ؛ وابنة السلطان ملكشاه السلجوقي إلى الخليفة العبّاسي المقتدي .. أو عند استقبال الوفود الأجنبية ، كاستقبال المقتدر سنة ٣٥٥ هـ رسول إمبراطور الروم لطلب عقد الهدنة ، واستقبال الحاكم الفاطمي لرسول إمبراطور الروم ، واستقبال الحكم المستنصر في الأندلس ملك الجلائقة سنة ٣٥١ هـ . والشعب على مختلف شرائحه كان يقبّل هذه الاحتفالات الرائعة ، كل حسب إمكاناته .

واعتنى الإخشيدون بتنوع الطعام واشتاله على العناصر الضرورية للتغذية ، وأقام الفاطميون الأسمطة في الأعياد والمواسم ، طول كل سباط منها نحو ثلاث مئة ذراع ، وعرضه سبع أذرع ، تنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية . مما أُعدَّ في دار الفطرة الخليفة .

٥ وكان الخلفاء والأمراء ذوو اليسار يحصلون على بواكير الفواكه بوساطة البريد ، الذي بلغ حدَّ الكمال في عهد بني بُوَيْه في المشرق ، وفي عهد الفاطميين والمماليك في مصر .

وفي العصر العباسي المتأخر ألف محمد بن عبد الكريم الكاتب البغدادي كتاباً تحت اسم « الطَّبِيخ » ، وذلك سنة ٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م ، وصف فيه الطعام في عصره ، وفيما سبقه من العصور العباسية ، ذكر فيه من الأطعمة : الدجاج ، يسلق ويقطع ثم تعرق بالشيرج - زيت السمسم - المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدَّارِصِينِي . والمُضِيرَة : وهي اللحم السمين من الإلية ، يقطع ويوضع في قدر ، ثم يضاف إليه ماء وملح ، ثم يغلي ، فإذا قارب النضج أضيف البصل والكُرَات والكُون والمستكة والدَّارِصِينِي ، فإذا نضج وجفَّ ماؤه ولم يبق سوى الدهن ، غُرف في إناء ، وأضيف إليه اللبن واللَّيْمُون والنعناع ، ثم ترك على النار حتَّى يغلي قليلاً ، تضاف إليه بعدها التَّوَابِل ، ثم تمسح جوانب القدر ، ويترك ويغطَّى حتَّى يهدأ .

١٠ « والسَّكْبَاج » : حيث يقطع اللحم السمين ، ويوضع في قدر ، ثم تضاف الكزبرة الخضراء ، والدَّارِصِينِي والملح ، ويظل على النار حتَّى يغلي ، ثم يضاف إليه الكزبرة اليابسة ، والبصل ، والكُرَات ، والجزر أو الباذنجان .

٢٠ ومن الأطعمة الشهية الشعبية السمك واللحم والباقلَاء ، والهريسة من أنواع الحلوى التي تباع في الأسواق كل صباح ، والعصيدة من التمر والسُّكَّر والعسل ، والثريد من المرق واللحم والحمص ، والأرز يؤكل مع اللبن والسمن والسُّكَّر ، والكباب

والرؤوس والأكارع ، وتُباع في الأسواق مطبوخة ونيئة .. ويزيد في قيمة الطعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزعفران والقرنفل ، واللوز والفسق والجوز والبندق ..

وتتميز المغرب العربي بألوان خاصة من الطعام ، مثل « الكفتة » ، التي تطهى بالزيت ، ويضاف إليها كمية كبيرة من التوابل ، وفي مدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقلي بالزيت ، ويحلى بالعسل ، ويتناول الناس هذا الخبز على طعام الإفطار ، ولا سيما في أيام الأعياد ، وتؤكل هذه الفطائر مع اللحم المشوي ، أو مع العسل ، أو مع الحريرة . وفي فاس - وغيرها من المدن المغربية - يشوى اللحم في السفافيد ، ويبنى كانونان ، أحدهما فوق الآخر ، وتوقد النار في الكانون الأسفل ، وعندما يحمى الكانون العلوي يوضع فيه الحَمَل كاملاً من فوهة في أعلى الكانون ، حتى لا تحترق الأيدي ، وهكذا يتم شواء اللحم ، ويأخذ لوناً جميلاً ، ونكهة لطيفة ، لأنّ الدُخان لا يصل إلى اللحم ، وإنما يصل إليه اللهب المشتعل ، ويستمر شيء اللحم على نار خفيفة طول الليل ، وفي الصباح يبدأ بيع هذا اللحم في الأسواق .

أمّا أسواق الجزارين ، فقد كانت المواشي قبل أن تُحمل إلى الحوانيت ، تعرض على أمين الجزارين لفحص اللحم والتأكد من سلامته من الأمراض ، ثمّ تسلّم حاملها ورقة يحدّد فيها ثمن البيع ، بحيث يستطيع كلّ شخص أن يراها ، ويقرأ الثمن الذي يباع به اللحم ، ويشرف المحتسب على ذلك ، وعلى باعة السمك بصفة خاصة ، كي لا يخلط السمك الطازج والسمك الفاسد ، ومن أنواع السمك الشهيرة في المغرب « الشابل » ، وقيل : « وكفى بالشابل لحمًا طريًا » .



الحياة الفكرية الفرق الدينية

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ
سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا
لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ
هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ
النَّصِيرُ ﴾

٥

١٠

[الحج : ٧٨/٢٢]

مصلحة المسلمين العليا توجب وحدة الكلمة ، والأُسنة ولا شيعه - خصوصاً وأن
القرآن الكريم بقي بنجوة من كل تحريف أو تبديل ، سليماً لم يمسه تحريف - بل
الجميع مسلمون مؤمنون ، كما كانت تسميتهم أيام رسول الله ﷺ ، يقول عز وجل :
﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، [الحج ٧٨/٢٢] .

١٥

٢٠

ولكن .. صادفت دعوة عبد الله بن سبأ - لتفريق كلمة الأمة ، وإثارة الفتنة
أيام عثمان - في البصرة والكوفة والشام ومصر مرتعاً خصيباً ، فراح يبذر سمومه في
المجتمع الإسلامي ، فهبَّ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان بن عفان اغتصب الخلافة ، وأخذ
يؤلب الناس على عثمان وعلى ولايته : « إِنَّ عُثْمَانَ أَخَذَ الْخِلَافَةَ بغير حق ، وهذا علي
وصي الرسول ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ،

وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستيلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر»^(١) .

وأصبحت الحال في الأمصار حرجة ، مما اضطر عثمان إلى ندب محمد بن مسلمة الأنصاري إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، ليقفوا على حقيقة الأمر ، ولكن الأمر أفلت من يد عثمان وولاته ، عندما بدأ دور العمل والتنفيذ حسب خطة رسمها ابن سبأ بدقّة ، عندما كاتب من مصر أشياعه من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الشّخص إلى المدينة المنورة ، فوصلوها ، واستطاع عثمان أن يعيد وفد مصر راضياً ، إلا أن كتاباً زوّره ابن سبأ ، أمر فيه أن تستأصل شأفة هذا النّفر ، أعاد القوم إلى المدينة ، فأغلظ عثمان رضي الله عنه الأيمان على أنّه ما كتب ، ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ، ولا علم له به .^{١٠} ولكن أصحاب الفتنة اقتحموا داره وقتلوه في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٥٦ م ، وبويع علي رضي الله عنه بالخلافة ، ونصح الذين طالبوا بدم عثمان أن يترثوا ، حتّى إذا هدأت النفوس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، أُجري الحق مجراه ، إلا أن نصائحه لم تجد نفعاً ، فكان خروج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، وكانت موقعة الجمل في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، والتي انتصر فيها علي ، فبادر^{١٥} إلى عزل الولاة الذين ولّاهم عثمان ، والذين كانوا مثار الفتنة ، فأذعنوا إلا معاوية بن أبي سفيان - والي الشام - قريب عثمان ، والمطالب بدمه ، فسار علي رضي الله عنه من الكوفة إلى صفين في تسعين ألفاً ، وسار معاوية بن أبي سفيان من الشام في خمسة وثمانين ألفاً ، فكانت صفين في صفر عام ٣٧ هـ ، واستطاع عمرو بن العاص بما

(١) الطبري ٣٤٠/٤ ، ولدراسة الفرق الإسلامية انظر :

- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم الظاهري الأندلسي .

- الملل والنحل للشهرستاني .

- الفرق بين الفرق للبغدادي .

- والمصادر التاريخية المعتمدة ، كالطبري ، والكامل في التاريخ ، والبداية والنهاية ، ومروج الذهب .

أوتيه من دهاء^(٢) وحكمة أن يفرّق بين جند علي ، عندما قال بفكرة التحكيم : « هذا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم » ، وكان ما كان للتحكيم من أثر ، أبقى على التحام جند الشام ، وانقسام جند علي ، الذي أراد أن يحكم السيف بينه وبين معاوية ، ولكن الخوارج اعتزلوه ، وساروا متّجهين إلى المدائن^(٣) .



الخوارج :

وهم أعداء الأمويين ، وأعداء شيعة علي رضي الله عنه ، لم يدخلوا الكوفة بعد صيفين مع علي ، ونزلوا قرية بظاهرها تسمى حرّوراء ، وكان عددهم اثني عشر ألفاً ، ونادى مناديهم : إنّ أمير القتال شُبّثُ بن رُبَيعي ، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليشكري ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عزّ وجلّ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويسمى هؤلاء الخوارج ، كما يسمّون الحرورية ، وأمرهم غريب يدعو إلى العجب ، لأنّهم قبلوا بالتحكيم ، وعلي رضي الله عنه لم يقبله ، إلّا بعد أن أكرهوه على قبوله ، وهم يخرجون على ما أبرموه بعد قبول التحكيم .

سار الخوارج من أهل البصرة والكوفة إلى النهروان مستخلفين عليهم عبد الله بن وهب الرّاسبي ، وأخذوا يقتلون كلّ من لم يشاطرهم رأيهم ، فسار إليهم علي ، وانتصر عليهم ، ولكنّ فئة منهم اعتزلت القتال ، ولم تعتزل رأيها ، فكانوا أشدّ الأحزاب خطراً ، إذ يرون أن غيرهم من المسلمين كفّار ، وأنّ دماءهم وأموالهم حلال .

(٢) قال الشعبي : « دهاء العرب أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزباد - بن أبيه - فأماً معاوية بن أبي سفيان فللأناة والحلم ، وأماً عمرو بن العاص فللمعضلات ، وأماً المغيرة فللمبادأة . وأماً زياد فللضعير والكبير » ، وكان قيس بن سعد بن عبادة من الدهاء المشهورين ، وكان أعظمهم كرماً وفضلاً ، (أسد الغابة ٢٤٨/٥) .

(٣) تاريخ الإسلام ٣٦٤/١

ضعف شأن الخوارج أيام الأمويين ، عندما ولي العراق زياد بن أبيه ، لما بدأه من الشدة والقسوة والعنف في معاملتهم ، وكذلك أيام الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي نكل بهم على يد المهلب بن أبي صفرة ، ومنذ ذلك الوقت ، وبعد مقتل قطري بن الفجاءة^(٤) ، ضعفت شوكتهم ، وقلَّ عددهم ، فلم يحركوا ساكناً أيام الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، خرج شوذب^٥ اليشكري^(٥) ، فكتب عمر بن عبد العزيز إليه يقول : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك مني ، فهل أنظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يديك نظرنا في أمرنا ، فأجاب شوذب عرقائلاً : « لقد أنصفت ، وقد أرسلت إليك رجُلين يدارسانك ويناظرانك » ، وأثمرت سياسة عمر بن عبد العزيز فشهد أحد الرجلين بأن عمر على صواب : « ما سمعتُ كال يوم قطُّ^{١٠} حجةً أئين وأقرب مأخذاً من حجَّتكَ ، أما أنا فأشهد أنك على حقٍّ ، وأنا بريء ممن برئ منك »^(٦) ، فنصب الخوارج أنفسهم في العراق وأرض الجزيرة حماة للضعفاء والمضطهدين .

(٤) قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي ، من رؤساء الأزارقة الخوارج وأبطالهم ، بقي ثلاث عشرة سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة وإمارة المؤمنين ، والحجاج يُسير إليه جيشاً بعد جيش وهو يردهم ويظهر عليهم ، وكانت كنيته في الحرب أبا نعام (ونعامه فرسه) ، وفي السلم أبا محمد ، كان طامّة كبرى ، وصاعقة من صولق الدنيا في الشجاعة والقوة ، اختلف للورخون في مقتله سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م ، فقبل عثر به فرسه فاندقت فخذة فمات ، وقيل توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي فقاتله وقتل في المعركة بالري أو بطبرستان ، (الأعلام ٢٠٠/٥) .

(٥) بسطام اليشكري المعروف بشوذب ، ثائر جبّار ، كان أصحابه ٨٠ رجلاً ، حاربهم أهل الكوفة فلم يفلحوا ، سَير إليهم يزيد بن عبد الملك ثلاثة جيوش ، كلُّ جيش في ألفين ، فانهزمت الجيوش ، فجهر مسلمة بن عبد الملك جيشاً فيه عشرة آلاف مقاتل بقيادة سعيد بن عمرو الحرشي ، فأحاطوا بشوذب ثم قتلوه سنة ١٠١ هـ / ٧٢٠ م . (الأعلام ٥١/٢) .

(٦) مروج الذهب ١٣٠/٢

وفي أواخر الدولة الأموية ظهر أبو حمزة الخارجي^(٧) ، الذي بايع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق سنة ١٢٨ هـ على الخلافة ، ودعا إلى قتال مروان بن محمد ، ولكن مروان بن محمد سار إليه ، فالتقى بالخوارج في وادي القرى ، فقتل أبا حمزة وكثيراً ممن معه ، ثم سار مروان بن محمد إلى الين ، وهزم عبد الله بن يحيى (طالب الحق) وقتله مع كثير من أتباعه ، وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج ، وإلى مروان بن محمد يرجع الفضل في القضاء عليهم .

والمع فكرة عندهم نظريتهم بالخلافة ، ورأيهم إن كان لابد منها ، فأصلح الناس لها أحقُّ بها ، قرشياً كان أم غير قرشي ، عربياً كان أم غير عربي ، وليس عندهم نظام وراثه ، أو تفويض لمن يليها ، لذلك بقوا مصبوغين بصبغة النزاع مع السلطنة ، كثيرون التفريق ، محدودى النظر ، ومع ذلك جمعوا شجاعة وصراحة وبساطة ، أسهل شيء عليهم بيع أنفسهم لعقيدتهم ، فيقتل مثلاً عبد الرحمن بن ملجم علياً رضي الله عنه ، ويظل يقرأ القرآن ، ويرى أنه تقرب إلى الله ، وعندما أريد قطع لسانه ، جزع لكرهه أن لا يذكر الله به .

وقطع عبيد الله بن زياد أوصالَ خارجية ، وقال : كيف ترين ؟ فأجابت : إن في فكري من هول المطلاع لشغلاً عن حديدتك هذه . وأقسمت غزالة الحرورية لتصلين في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ في الأولى سورة البقرة ، وفي الثانية سورة آل عمران ، والكوفة معقل الحجاج ، ودار إمارته ، وبرت غزالة بقسمها ، وأرتج الحجاج عليه باب بيته .

ومن فرق الخوارج : الأزارقة : أصحاب نافع بن الأزرق^(٨) ، الذي كفر كل

(٧) المختار بن عوف الأزدي السلمي البصري (أبو حمزة الخارجي) ثائر فتاك من الخطباء القادة ، انهزم بوادي القرى سنة ١٣٠ هـ ، فلحقه عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، فكانت بينهما وقعة انتهت بمقتل أبي حمزة سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م ، (الأعلام ١٩٢/٧) .

(٨) صحب نافع عبد الله بن عباس ، وكان هو وأصحاب له من أنصار الثورة على عثمان ، ووالوا علياً ، =

المسلمين ، والنَّجْدِيَّةُ أصحاب نجدة بن عامر^(٩) ، والبيهسيَّةُ أصحاب أبي تَيْهَس بن جابر^(١٠) ، والإباضيَّةُ أصحاب عبد الله بن إِباض التَّميمي^(١١) ، الَّذِينَ لم يَغْلُوا في الحُكْم على مخالفيهم ، وهم إلى المسألة أميل ، والصُّفَرِيَّةُ أصحاب زياد بن الأصفر^(١٢) .. وكلُّ هذه الفِرَقِ الخارجِيَّةِ اشتطَّت في الحُكْم على مخالفيهم ، وعاملوهم معاملة الكافر عابد الوثن .



الشَّيْعَةُ :

أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويرون أَنَّهُ أَحَقُّ بالخِلافة من أبي بكر وعمر وعثمان ، وعليه فالواجب المترتب عليهم ، رُدُّ الحَقِّ إلى صاحبه سِرّاً وجَهراً .

وبعد التَّحْكيم خرجوا عليه ، ولَمَّا علموا بثورة عبد الله بن الزُّبَيْرِ على الأمويِّين بمكة توجَّهوا إليه ، وقاتلوا عسكر الشَّام في جيش ابن الزُّبَيْرِ إلى أن مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، وانصرف الشَّامِيُّون ، وبويع ابن الزُّبَيْرِ بالخِلافة ، ولَمَّا علم نافع برأي عبد الله بن الزُّبَيْرِ بعثان : « أنا ولي لابن عثمان وعدو لأعدائه » ، لم يرضه ذلك ، فانصرف وأصحابه إلى البصرة ، وخرج بثلاث مئة ، قاتله المهلب بن أبي صفرة ، ولقي الأهوال في حربه ، قتل نافع يوم (دولا ب) على مقربة من الأهواز سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م ، (الأعلام ٣٥٢/٧) .

(٩) نَجْدَةُ بن عامر الحروري ، من بني حنيفة ، رأس الفرقة النَّجْدِيَّةِ نسبة إليه ، كان أوَّل أمره مع نافع بن الأزرق ، ثُمَّ استقلَّ باليامة سنة ٦٦ هـ ، وتسمَّى بأمرير المؤمنين ، وجَّه إليه مصعب بن الزُّبَيْرِ خيلاً بعد خيل ، قتل سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، (الأعلام ١٠/٨) .

(١٠) أبو تَيْهَس هَيْصَم بن جابر ، كَفَّر نافع بن الأزرق وعبد الله بن إِباض في بعض مازدهبا إليه ، وتبعته جماعة ، طلبه الحُجَّاج ، واستطاع عثمان بن حَيَّان المَرِّي والي المدينة المنورة اعتقاله ، وصَلَبَ بالمدينة سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م .

(١١) عبد الله بن إِباض (ت ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) ، لا يزال مذهبه منتشراً في الجزائر (وادي ميزاب) ، وفي سلطنة عُمان ، (الأعلام ٦٢/٤) .

(١٢) الصُّفَرِيَّةُ الرَّيَادِيَّةُ : « خالفوا الأزارقة والنُّجَدات والإباضيَّة في أمور منها : أَنَّهُمْ لم يَكْفُرُوا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدِّين والاعتقاد . ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النَّار .. » ، (الملل والنحل ١٢٧/١) .

خَفَّتْ جذوة التَّشْيِعِ في نفوس أهل العراق ، بعد نزول الحسن بن علي رضي الله عنه عن حقّه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، ومغادرته العراق إلى المدينة المنورة ، ولكن سبَّ علي رضي الله عنه وآل البيت على المنابر ، أَثَارَ حنق الشَّيْعَةِ ، وبعد مقتل حجر بن عدي^(١٣) أَيَّامَ معاوية ، هَذَا أمر الشَّيْعَةِ ، وأصبح التَّشْيِعُ أمراً نظريّاً .

وَأَيَّامَ يزيد بن معاوية ، وبعد استشهاد الحسين رضي الله عنه في أرض كربلاء ، وَحَدَّ الشَّيْعَةِ صفوفهم ، وزاد حنقهم على بني أُمَيَّة وولاتهم ، وظهر (التَّوَّابُونَ) أَيَّامَ مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، الَّذِينَ نَصَبُوا سُلَيْمَانَ بْنَ صَرْدٍ^(١٤) ، ودعوا النَّاسَ لِلأخذ بِثَارِ الحُسَيْنِ ، ولكن عبيد الله بن زياد ، ألحق بهم هزيمة ، وَقَتَلَ ابنَ صَرْدٍ .

وَلَمَّا انضَمَّ المختار بن أبي عبيد التَّقْفِي إلى الشَّيْعَةِ ، مُؤَسَّساً (الكِيسَانِيَّةَ)^(١٥) ، وانتصر على ابن زياد ، استفحل أمره ، فعمل عبد الله بن الزُّبَيْر - المعتصم في مَكَّة المَكْرَمَةِ - على الإيقاع به ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب ، بعد أن ولَّاه العراق ، فانتصر قرب الكوفة سنة ٦٧ هـ ، وَقَتَلَ المختار .

(١٣) سنة ٥١ هـ / ٦٧١ م ، ويسمى حجر الخير ، صحابي شجاع شهد القاديّة ، من أصحاب علي ، قُتِلَ في مرج غبراء - قرب دمشق - مع أصحاب له ، (الأعلام ١٦٩/٢) .

(١٤) سليمان بن صَرْدٍ [٢٨ ق. هـ - ٦٥ هـ = ٥٩٥ - ٦٨٤ م] ، صحابي ، شهد الجمل وصَفَيْنَ مع علي ، كان مِّنْ كاتب الحسين وتخلَّف عنه ، وخرج بعد ذلك مطالباً بدمه ، فترأس (التَّوَّابِينَ) ، ونشبت معارك بين سليمان وعبيد الله بن زياد ، فَقَتَلَ سليمان بعين الوردة ، قتله يزيد بن الحصين ، (الأعلام ١٢٧/٣) .

(١٥) لم يلق المختار عطف محمد بن الحنفية وتأييده ، لأنّه لم يكن يثق بأهل الكوفة الَّذِينَ خذلوا آباه وأخويه من قبل ، والكيسانية نسبة إلى كيسان مولى علي رضي الله عنه ، والكيسانية تغالي في وجوب طاعة الإمام وانفراده بتأويل الشريعة ، ويعتقدون بالرجعة ، أي رجعة محمد بن الحنفية ، كما يعتقدون بنبوّة علي والحسن وابن الحنفية ، ويقول الشَّهْرستاني : « إِنَّ جَمِيعَ الكِيسَانِيَّةِ يعتقدون أَنَّ الدِّينَ طاعة رجل ، وَأَنَّ طاعتهم ذلك الرَّجُل تبطل ضرورة التَّمسُّك بقواعد الإسلام كالصَّلَاة والصُّوم والحج وهكذا » ، (الملل والنحل ١٩٦/١) .

وظلَّ عبد الملك بن مروان يرقب الأحداث ، وينتظر ضعف كلِّ الأطراف المتحاربة ، فلم يكد مصعب يفرغ من قتال المختار ، حتَّى خرج إليه عبد الملك يحاربه ، وراسل قوَّاد مصعب وأعيان الكوفة ، ومنَّاهم الأمان حتَّى أفسدهم عليه ، إلا إبراهيم بن الأشقر ، فصفا الجوّ لعبد الملك في العراق ، ولم يبقَ أمامه إلا بلاد الحجاز ، فسير الحجاج بن يوسف الثَّقفي للقضاء على عبد الله بن الزُّبير^(١٦) .

ويمكن تمييز مذهبين كبيرين باقين إلى يومنا هذا : الزَّيدِيَّة ، والإمامِيَّة .

الزَّيدِيَّة : خرج زيد بن عليٍّ زَيْن العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، في عهد هشام ، وإليه تنسب الزَّيدِيَّة الَّتِي تفرَّعت عنها جماعة الرَّافضة^(١٧) ، قتل زيد سنة ١٢٢ هـ ، وكان رحمه الله قوياً عالماً ، نجح أتباعه في اليمن وطبرستان ، تتلمذ الأصول لواصل بن عطاء ، ومن مذهبه جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ومن أجل هذا صحَّح إمامة أبي بكر وعمر ، ولم يتبرأ منها .

ولا تقيَّة عند الزَّيدِيَّة ، ولا عصمة للأئمَّة ، ولا غيبة لهم ، فهم أقرب الفِرَق إلى السُّنَّة .

(١٦) استطاع عبد الله بن الزُّبير بن العوَّام أن يعكّر صفو الأمويِّين ردحاً من الزَّمن ، ولكن عبد الملك بعد أن صفا له الجوّ في العراق ، سير الحجاج بجيش كثيف للقضاء على ثورة ابن الزُّبير ، فحاصر مكَّة المكرمة ، وأظهر ابن الزُّبير مع من بقي معه شجاعة نادرة ، حتَّى قتل في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ ، وبذلك قضى على الزُّبيريِّين بعد حكم تسع سنين (٦٤ - ٧٣ هـ) للحجاز والعراق ومصر .

(١٧) ويرجع السَّبب في تسميتهم (الرَّافضة) إلى أنَّ زيدا لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثَّقفي ، قالوا له : « إننا ننصرك على أعدائك بعد أن نخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللَّذَيْن ظَلَمَّا جَدَّكَ علي بن أبي طالب » ، فقال زيد : « إنِّي لا أقول فيها إلاَّ خيراً ، وما سمعت أبي يقول إلاَّ خيراً ، وإنَّا خرجت على بني أميَّة لأنَّهم قتلوا جدِّي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحَرَّة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنَّار » ، ففارقوه عند ذلك حتَّى قال لهم رفضتوني ، فأطلق عليهم (الرَّافضة) .

الإمامية : سُموا بهذا الاسم لاهتمامهم بالإسلام من ناحية الإمامة ، وهم يرون أنَّ الأئمة هم عليٌّ وأبناءؤه من فاطمة حصراً ، وعلى التَّعيين واحداً واحداً^(١٨) .

ومن تعاليمهم : عصمة الإمام ، وغيبة الحجَّة محمد بن الحسن العسكري ، وهو المهدي المنتظر ، والرَّجعة ، والتَّقيَّة .

وَأهم فِرَق الإمامية (الاثنا عشرية) ، سُميت بهذا الاسم لأنها تقول باثني عشر إماماً على التَّرتيب من علي رضي الله عنه ، إلى محمد المهدي المنتظر^(١٩) .

المُرَجِّئة : نشأت هذه الفرقة في مدينة دمشق خلال النِّصف الثاني من القرن الأوَّل الهجري ، وإذا كان أساس الاعتزال الموقف من مرتكب الكبيرة ، أُيسمى مؤمناً أم لا ، فأساس التَّشيع هو الإمامة ، وأساس الإرجاء هو تحديد معنى الإيمان ، وما يتبع ذلك من أبحاث . ١٠

والإرجاء هو التَّأخير ، ورأي أصحاب هذه الفرقة إرجاء الحكم على العصاة إلى يوم القيامة ، ويتحرَّجون عن إدانة أيِّ مسلم مهما كانت الذُّنوب التي اقترفها ، ويقولون ما الإيمان ؟ ويجيبون : لدينا عناصر ثلاثة : تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وقيام بأنواع الأعمال من صلاة وصوم وزكاة وحج ، فأَيُّ هذه هو الإيمان ؟ أو هل هو كُلُّها

(١٨) وهم اثنا عشر إماماً : ١ - علي بن أبي طالب ، ٢ - الحسن ، ٣ - الحسين ، ٤ - علي بن الحسين زين العابدين ، ٥ - محمد بن علي الباقر ، ٦ - جعفر بن محمد الصادق ، ٧ - موسى بن جعفر الكاظم ، ٨ - علي بن موسى الهادي ، ٩ - محمد بن علي الجواد ، ١٠ - علي بن محمد الهادي ، ١١ - الحسن بن علي العسكري ، ١٢ - الحجَّة بن الحسن المهدي المنتظر ، (سيرة الأئمة الاثني عشر ، ج ١ و ٢ ، دار التعارف بيروت ، هاشم معروف الحسني) .

(١٩) وينتسب إلى الشيعة الإمامية (الإسماعيلية) ، ومنهم : (إخوان الصفا وخُلان الوفا) ، الَّذِينَ عملوا بكلِّ طاقاتهم لتقويض أسس جميع الأديان ، فهم من الباطنية الَّذِينَ عدَّوا الفلسفة فوق الشريعة ، وهم يدعون إلى دين جديد ، ودولة جديدة ، وتشيعهم ستار يخفون تحته آراءهم الحقيقية ، وجعلوا للدين باطناً وظاهراً ، والخفيقة في الباطن ، ومن وجد الباطن ، فهو ليس بحاجة إلى الظاهر من صلاة وصوم .

جميعاً ؟ وعلى هذا البحث دار الإرجاء ، فكثير منهم ظنَّ تصديقاً بالقلب فقط ، أو هو معرفة الله بالقلب ، ولا عبرة بالمظهر ، فإنَّ مَنْ آمن قلبه مؤمن مسلم ؛ وليس الإقرار باللسان ، ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوها إلا جزءاً من الإيمان .

وحجَّتْهم أنَّ الإيمان في اللغة هو التَّصديق ، ومنهم من رأى أنَّ الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان .

بينما الإيمان تصديق بالقلب ، ثمَّ إقرار باللسان ، وعمل بالطاعات ، لأنَّ الصَّلَاة لغةُ الدُّعاء ، وفي الشَّرْع لها معناها الخاص ، فالآيات ربطت بين الإيمان والعمل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا .. ﴾^(٢٠) .

وكان أشدَّ خصومهم : المعتزلة ، والخوارج ، لأنَّ هاتين الفرقتين اشترطتا في الإيمان العمل بالطاعات ، واجتناب المعاصي .

وروي عن المأمون - الخليفة العبَّاسي - أنَّه قال : « الإرجاء دين الملوك »^(٢١) ، وهذه الجملة تحتل معاني عديدة ، منها أن الإرجاء هو الدِّين الذي يرضاه الملوك من أتباعهم ، فلا يثيرون شغباً مهما ارتكب الملك من معاصي ، وتكِل أمرهم وعقابهم أو العفو عنهم لله ، أو إنَّ الإرجاء أنسب المذاهب لأنَّ يعتنقه كلُّ مَلِك ، لأنَّه يحمله على أن ينظر لأهل المذاهب كلَّهم من معتزلة وخوارج وشيعة .. نظرة واحدة معتدلة ، فلا يكفر أحداً ، ولا يتخذ إجراء ضدهم ، فكُلُّهم مؤمنون ، ومن عصي فأمره إلى الله ، وهذا يجعله فوق المذاهب ، فهو مَلِكُ الجميع ، ولكن المأمون كان أبعد النَّاس عن هذا ،

(٢٠) في كتاب الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، [٢٥/٢] ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، [٨٢/٢ ، ٥٦/٤ و ١٢١ ، ٤١/٧ ، ٧/٢٩ و ٥٨ ، ٧/٣٥ ، ٥٨/٤٠ ، ٢٢/٤٢ ، ٢/٤٧] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، [٩/١٠ ، ٢٣/١١ ، ٣٠/١٨ و ١٠٨ ، ٩٧/١٩ ، ٨/٣١ ، ٨/٤١ ، ١١/٨٥ ، ٧/٩٨] ، وعشرات الآيات الأخرى التي تربط الإيمان بالعمل .

(٢١) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ٨٦

فقد تورط في الاعتزال ، وحمل الناس على اعتناقه ، وأجبرهم على القول بخلق القرآن ، وأوصى المعتصم بالاعتزال .

والمرجئة رضيت بحكم بني أمية ، ماداموا نطقوا بالشهادتين ، تاركين الفصل في أمرهم إلى الله وحده ، وبسقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ أفل نجم المرجئة ، ومن أعلامهم جهم بن صفوان^(٢٢) ، الذي وضع العقيدة فوق العمل ، وهذا يدفع مثل هذه العقيدة إلى طرح الفرائض العملية للإسلام .



المُعْتَرِلة : قامت هذه الطائفة عندما اختلف واصل بن عطاء^(٢٣) مع أستاذه الحسن البصري^(٢٤) في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب كبيراً ، أيسمى مؤمناً أم لا ؟ ورأي واصل أن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمناً ، كما لا يسمى كافراً ، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين ، وانتحى واصل ناحية بعيدة من المسجد ، وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه ، فكان الحسن البصري يقول للذين التقوا حوله : « إنَّ واصلًا اعتزل عَنَّا » ، ومن هنا جاءت التسمية : (المعتزلة) .

« كان مبدؤهم أول أمرهم البُعد عن السياسة ، والتفرُّغ لعبادتهم ودعوتهم .. »

(٢٢) جهم بن صفوان السمرقندي (أبو محرز) : [ت ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م] ، وهو رأس الجهمية ، قبض عليه نصر بن سيار وقتله ، (الأعلام ١٤١/٢) .

(٢٣) واصل بن عطاء الغزالي (أبو حذيفة) : [٨٠ - ١٣١ هـ / ٧٠٠ - ٧٤٨ م] ، رأس للمعتزلة ، ومن أئمة البلقاء والمتكلمين ، له تصانيف منها : (أصناف المرجئة) ، و (المنزللة بين المنزلتين) ، و (معاني القرآن) ، و (طبقات أهل العلم والجهل) ، و (السبيل إلى معرفة الحق) ، و (التوبة) ، (الأعلام ١٠٩/٨) .

(٢٤) الحسن بن يسار البصري (أبو سعيد) : [٢١ - ١١٠ هـ / ٦٤٢ - ٧٢٨ م] ، تابعي كان إمام أهل البصرة ، وخبير الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النُساك ، وُلِدَ بالمدينة ، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب ، (الأعلام ٢٢٦/٢) .

ولكنهم تحوّلوا عن هذا المبدأ بعد ذلك وانغمسوا في السياسة ، وصاروا وزراء وعمّالاً ، وأطلق المأمون والمعتصم والواثق أيديهم في السياسة ، فنكّلوا بخصومهم ، وأذاقوا الناس العذاب إذا هم لم يقولوا بخلق القرآن .. وسُمّي المؤرّخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن «^(٢٥)» ، وأبطل المتوكّل القول بخلق القرآن ، فهجر النّاس المعتزلة ، فقلّ عددهم ، وضعف شأنهم .

من أعلام المعتزلة : عمرو بن عبّيد^(٢٦) ، وأبو الهذيل العلاف^(٢٧) ، وإبراهيم بن سيّار النّظام^(٢٨) الذي تناول مسائل كثيرة جُعدّت من مسائل الاعتزال ، فردّ كثيراً على شبه الملحدين ، وتكلّم في إعجاز القرآن ، وفي القياس والإجماع ، وطالب بعرض الأحاديث على العقل ، ونفي ما لم يقبله العقل منها ، وجاء بعده الجاحظ^(٢٩) ، وكان لسان المعتزلة في عصره ، فردّ على المُشَبّهة ، وتكلّم في إعجاز القرآن ، وألّف كتاب : (حجج النبوة)^(٣٠) ، نصرته للرّسالة واحتجاجاً لها .

(٢٥) ظهر الإسلام ٩/٤

(٢٦) عمرو بن عبّيد التّيمي بالولاء (أبو عثمان) : [٨٠ - ١٤٤ هـ / ٦٩٩ - ٧٦١ م] ، شيخ للمعتزلة في عصره ، ومفتيها ، اشتهر بزهده وعلمه ، (الأعلام ٨١/٥) .

(٢٧) محمّد بن الهذيل العلاف (أبو الهذيل) : [١٣٥ - ٢٣٥ هـ / ٧٥٣ - ٨٥٠ م] ، من أئمّة المعتزلة ، اشتهر بعلم الكلام ، (الأعلام ١٣١/٧) .

(٢٨) إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري (أبو إسحاق النّظام) : [ت ٢٦٠ هـ / ٨٤٥ م] ، من أئمّة المعتزلة . تبحّر في علوم الفلسفة ، (الأعلام ٤٣/١) .

(٢٩) عمرو بن بحر بن محبوب الكناشي بالولاء (أبو عثمان الجاحظ) : [١٦٣ - ٢٥٥ هـ / ٧٨٠ - ٨٦٩ م] ، كبير أئمّة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظيّة من المعتزلة ، له تصانيف منها : (الحيوان) ، و (البيان والتبيين) ، و (سحر البيان) ، و (التّساج) ، و (البخلاء) ، و (المحاسن والأضداد) .. (الأعلام ٧٤/٥) .

(٣٠) وصلنا منه تنف ضمن (رسائل الجاحظ) ، ومّا قاله الجاحظ فيه : « راح محمد ﷺ يتحدثهم بالقرآن منذ أوّل لحظة ، ثمّ أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، ولم يكن القوم الذين ينازلهم محمد ﷺ قوماً عاديين ، إنهم شكّسون خصّصون ، لا يسكتون على ضم ، ولا ينامون على مؤجّدة .. ما السرّ في سكوت العرب عن المعارضة وقد صكّ التّحدّي أسماهم بالحاح وشدة ؟ إن القوم قد أدركوا علو كعب القرآن =

انقسم المعتزلة إلى فِرَق ، أو إلى مدارس ، نسبة إلى رئيسهم ، مثل : الواصلية نسبة إلى واصل بن عطاء ، والهدلية نسبة إلى أبي الهذيل العلاف ، والنظامية نسبة إلى إبراهيم بن سيَّار النِّظَّام ، والجاحظية نسبة إلى عمرو بن بحر الجاحظ .
وتتكوَّن عقيدة المعتزلة من خمسة أصول هي :

٥ التَّوْحِيد^(٣١) : وهي الأصل الأوَّل ، والعدل : وهو الأصل الثاني ، ومعناه أنَّ الله لا يحبُّ الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل إنَّهم يفعلون ما أمروا به ، ونُهِوا عنه ، بالقدرة الَّتِي جعلها الله لهم ، وركَّبها فيهم ، وإنَّه لم يأمر إلاَّ بما أراد ، ولم ينه إلاَّ عمَّا كره ، وإنَّه ولي كلِّ حسنة أمر بها ، بريء من كلِّ سيئة نهى عنها . والوعيد : وهو الأصل الثالث ، ومعناه أنَّ الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلاَّ بالتَّوبة . وأمَّا القول بالمنزلة بين المنزلتين : وهو الأصل الرَّابع ، فهو أنَّ الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا بكافر ، بل يسمَّى فاسقاً . أمَّا القول بوجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر : وهو الأصل الخامس ، فإنَّه واجب على سائر المؤمنين على حسب استطاعتهم في ذلك ، بالسَّيف فما دونه ، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق .

وقالوا بخلق القرآن^(٣٢) ، وبسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو

لم يردَّ بها شرع . ١٥

= الكريم في البلاغة والنِّظم ، وأحسُّوا بعجزهم التَّام عن الإتيان بمثله .. فسكتوا إشاراً للسلامة ، وحتى لا ينكشف أمرهم أمام النَّاس » ، وأكَّد الجاحظ (إعجاز القرآن) في بيانه ونظمه . (انظر مجلة الجمع : الجزء الرَّابع ، المجلد الثالث والسُّتون) .

(٣١) آمن المعتزلة إيماناً عميقاً بوحديَّة الله عزَّ وجلَّ ، ولكنَّهم فلسفوا الوحديَّة ، فقالوا : ليست ذاته مرَّكبة من اجتماع أمور كثيرة ، لأنَّ كلَّ مرَّكَّب مفتقر إلى غيره ، والله منزَّه عن الافتقار ، إنَّه واحد تامَّ الأحديَّة ، ثمَّ قالوا : إنَّ ذات الله وصفاته شيء واحد ، فالله حيٌّ عالمٌ قادرٌ بذاته ، وهذه مسألة لم تُثَرَّ في الإسلام من قبل ، ولم يعرف عن الصَّحابة شيء من هذا ، فرأى السُّلف الصَّالح أنَّه يجب أن يؤمن بصفات الله كما جاءت ، ونكفَّ عن التَّأويل ، لأنَّ صفوة الصَّحابة والتَّابعين لم يتعرَّضوا لذلك ، وأنكروا الجدول والمراء في الدِّين .

(٣٢) أوَّل من قال بخلق القرآن الجُنْد بن دِرْهم [ت نحو ١١٨ هـ / نحو ٧٣٦ م] ، جاء في ترجمته : مبتدع له =

ولهم نظرة في آيات كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ،
 [الشورى ١١/٤٢] . وآيات ظاهرها يدلُّ على التَّجسيم : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ،
 [الفتح ١٠/٤٨] ، فقالوا : نتمسَّكُ بآيات التَّنزيه ونشرحها ونوضِّحها ونخلِّصها ، ونؤوِّلُ
 آيات الوجه واليدين بما يتَّفَقُ مع التَّنزيه ، فمعنى : (يَدُ اللَّهِ) كما وصفها اليهود إنها
 مغلولة ، يعني البخل ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، [المائدة ٦٤/٥] ،
 تعبير مجازي يدلُّ على إثبات غاية السَّخاء ، ونفي البخل ، وفي قوله تعالى :
 ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، [طه ٥/٢٠] ، قالوا : كناية عن المُلْك ، و (وجه
 الله) يعني ذاته ..

وهكذا ، لما خلاص لهم دليل التَّنزيه على النَّحو الَّذي فسَّروه به ، أولوا كلَّ الآيات
 الدَّالَّة على الجهة ، وعلى الأعضاء ، فعلوا ذلك في جميع الآيات والأحاديث الَّتِي يخالف
 ١٠ ظاهرها أصل التَّوْحِيد بالمعنى الَّذي شرحوه ، فنفوا الجهة ، لأنَّ إثباتها إثبات المكان ،
 وإثبات المكان إثبات الجسْمِيَّة ، وكانوا منطقيين مع أنفسهم ، وساروا في تطبيق
 نظريَّاتهم إلى آخر حدود التطبيق .



= أخبار في الزُّندقة ، سكن الجزيرة الفراتيَّة ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة في أيام هشام بن
 عبد الملك فنسب إليه ، قال ابن تغري بردي في كلامه عن مروان : « كان يعرف بالجعدي نسبة إلى
 مؤدِّبه جعد بن درهم » ، وقال ابن الأثير : كان مروان يلقَّب بالجعدي لأنَّه تعلَّم من الجعد بن درهم
 مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر ، (الأعلام ١٢٠/٢) . ثمَّ قال بذلك الجهم بن صفوان ، ثمَّ جاء
 المعتزلة وقالوا بخلصة ما قال به الجهميَّة ، وفي كتاب (الحَيْدَة) أو المناظرة الكبرى في محنة خلق
 القرآن ، للإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكنتاني المكي (ت : ٢٤٠ هـ) ، دار الفتح ، بيروت
 ١٩٨٣ نقض لاعتقاد المعتزلة بخلق القرآن .

أهل السنة :

عُرِفَ هذا الاسم منذ أيام أبي الحسن الأشعري البصري^(٣٣) ، الذي نشأ معتزلياً ، ثم عَدَلَ في بعض مسائل الاعتزال وصَوَّب ، بعد تفكُّر وتدبُّر ، وبعد مناظرة أستاذه أبي علي الجُبَّائي^(٣٤) ، حيث رجَّح رأي الأشعري ، ولا ينكر أنَّ الظروف التاريخية ساعدته في انتشار مذهبه ، لقد ملَّ النَّاسُ المناظرات والمباحكات والحنَّ التي شهدها أو سمعوا بها في (محنة خَلْقِ القرآن) ، وتخلَّت السُّلْطَةُ أيَّام المتوكِّل^(٣٥) عن نصره المعتزلة ، ممَّا جذب نفوس النَّاس إلى الأشعري ، خصوصاً وقد امتلك حجَّة قويَّة لفتت الأنظار ، مع صلاح وتقوى وحسن منظر^(٣٦) .

كما رَزَقَ الأشعري أتباعاً كثيرين من العلماء الأقوياء من شافعية ومالكية وحنفية وحنبليَّة ، كالجويني (إمام الحرمين) ، والإسفراييني ، والباقلاني ، والشيخ أبي بكر القفال ، والحافظ الجرجاني ، والشيخ أبي محمد الطُّبري ، والحافظ الهروي ، والخطيب البغدادي ، وأبي القاسم القشيري ، وأبي حامد الغزالي ، وابن عساكر ، وأبي طاهر السلفي ، وفخر الدِّين الرَّازي ، وسيف الدِّين الآمدي ، وعز الدِّين بن عبد السلام .. وكلُّ هؤلاء نصرُوا الأشعرية ، مع علوِّ مكانتهم ، وسعة نفوذهم ، ممَّا آل أخيراً إلى انتشار المذهب ، وتراجع خصومهم وأقول نجمهم .

(٣٣) علي بن إسماعيل بن إسحاق (أبو الحسن الأشعري) : [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ / ٨٧٤ - ٩٣٦ م] ، من نسل الصَّحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسِّس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمَّة المتكلمين المجتهدين ، وُلِدَ في البصرة ، وتوفِّي ببغداد ، بلغت مصنَّفاتُه ثلاث مئة كتاب ، منها : (إمامة الصِّديق) ، و (الرُّدُّ على المجنَّة) ، و (مقالات الإسلاميين) ، و (الإبانة عن أصول الديانة) .. (الأعلام ٢٦٣/٤) .

(٣٤) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجُبَّائي (أبو علي) : [٢٣٥ - ٣٠٣ هـ / ٨٤٩ - ٩١٦ م] ، من أئمَّة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره ، نسبته إلى (جبي) من قرى البصرة ، اشتهر في البصرة ، ودفن بجبي . (الأعلام ٢٥٦/٦) ، وجبِّي في (معجم البلدان ٩٧/٢) .

(٣٥) جعفر (المتوكِّل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرَّشيد (أبو الفضل) : [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ / ٨٢١ - ٨٦١ م] ، (الأعلام ١٢٧/٢) .

(٣٦) انظر : ظهر الإسلام الجزء الرَّابِع ، فصل أهل السُّنَّة ، والملل والنحل ٩٤/١ بحث (الأشعرية) .

لقد خالف الأشعري المعتزلة في أصول فكرهم ، فقال بإثبات الصفات لله تعالى ،
 فإثبات العلم والقدرة والإرادة له ، يدلُّ على وجود هذه الصفات متميزة ، لأنَّه لا معنى
 لكلمة عالم إلاَّ أنَّه ذو علم ، ولا لقادر إلاَّ أنَّه ذو قدرة .. إنَّ الله تعالى عالم بعلم ، قادر
 بقدرة ، حيٌّ بحياة ، مريدٌ بإرادة ، متكلمٌ بكلام ، سميعٌ بسمع ، بصيرٌ ببصر ، « وهذه
 الصفات أزليَّة قائمة بذاته تعالى ، لا يقال : هي هو ، ولا هي غيره ، ولا : لا هو ،
 ولا : لا غيره . والدليل على أنَّه متكلمٌ بكلام قديم ، ومريدٌ بإرادة قديمة أنَّه قد قام
 الدليل على أنَّه تعالى ملِك ، والملِك من له الأمر والنَّهي ، فهو أمرٌ ، ناهٍ . فلا يخلو إمَّا
 أن يكون أمراً بامر قديم ، أو بامر محدث ، وإن كان محدثاً فلا يخلو : إمَّا أن يحدثه في
 ذاته ، أو في محل أو لا في محل ، ويستحيل أن يحدثه في ذاته ، لأنَّه يؤدِّي إلى أن يكون
 محلاً للحوادث ، وذلك محال ، ويستحيل أن يحدثه في محل ، لأنَّه يوجب أن يكون
 المحل به موصوفاً ، ويستحيل أن يحدثه لا في محل ، لأنَّ ذلك غير معقول فتعيَّن أنَّه
 قديم ، قائم به ، صفة له ، وكذلك التفسير في الإرادة والسَّمع والبصر » (٣٧) .

وفي مسألة خلق القرآن ، خالف المعتزلة أيضاً : إنَّ الألفاظ المنزلة على لسان
 الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي ، والدلالات مخلوقة محدثة ، والمدلول
 قديم أزلي .

وفي (العدل) مال الأشعريَّة إلى التوسُّط بين الجبر والاختيار ، وأنَّ الله يوجد
 القدرة والإرادة في العبد ، وقدرة العبد وإرادته لها مدخل في فعله ، فجميع المخلوقات
 من فعل الله ، بعضها بلا واسطة ، وبعضها بوساطة ، وكون العبد يتوسَّط ، هو
 موضوع المسؤوليَّة والمؤاخذه ، « والعبد قادر على أفعاله إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة
 ضروريَّة بين حركات الرُّعدة والرُّعشة ، وبين حركات الاختيار والإرادة ، والتفرقة
 راجعة إلى أنَّ الحركات الاختياريَّة حاصلة تحت القدرة ، متوقفة على اختيار القادر » .

وفي (الوعد والوعيد) قالوا : يخلد الكفار في النار ، والله قادر على أن يغفر لمن يشاء ، كما قالوا بالشفاعة ، وأساس فكرتهم أن الله مالك لخلقه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد .

كما قالوا بجواز رؤية الله في الآخرة : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة ٢٢/٧٥ و ٢٣] .

أما خلق الأفعال التي قال عنها المعتزلة : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه ، ولذلك يُسأل عنها ، فقد قال الأشاعرة عنها : إن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى ، وإن له اختياراً ، ولكنه مجبور على اختياره ، وقدرته ليست مؤثرة أصلاً ، فنفا الاختيار عن العبد ، وهذا هو الذي يتفق مع أن الله يخلق ما يشاء ، وبقيت أدق مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة تفسير الآية التي علقت المشيئة ، مثل : ﴿ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوين ٢٩/٨١] .

ومما يذكر أن أبا حامد الغزالي^(٣٨) ، وفخر الدين الرازي^(٣٩) ، اللذين كان لهما مقام كبير جليل عند المسلمين ، فقوياً مذهب الأشعري بما قدماه أيضاً من مؤلفات ، وصلاً إلى نتيجة واحدة ، وهي : التقليل من قيمة علم الكلام ، قال فخر الدين الرازي في وصيته التي وضعها في آخر أيامه : « ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ،

(٣٨) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (أبو حامد) حجة الإسلام : [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م] ، وهو الغزالي لمن نسبته إلى صناعة الغزل ، والغزالي لمن نسبته إلى غزالة من قرى طوس ، وهو فيلسوف متصوف ، له نحو مئتي مصنف ، من أشهرها : إحياء علوم الدين ، وتهافت الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال ، وفرائض الباطنية ، (الأعلام ٢٢/٧) .

(٣٩) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري (أبو عبد الله) فخر الدين الرازي : [٥٤٤ - ٦٠٦ هـ / ١١٥٠ - ١٢١٠ م] ، الإمام للفسر ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشي النسب ، مولده في الري وإليها نسبته ، وتوفي في هراة ، أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها ، وكان واعظاً بارعاً باللغتين العربية والفارسية ، (الأعلام ٣١٣/٦) .

فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضائق العميقة ، والمناهج الخفية » .

وأَيَّام أبي منصور الماتريدي^(٤٠) - الحنفي المذهب - ظهرت خلافات جزئية مع الأشعري - الشافعي المذهب - ترجع إلى خلافات قليلة بين المذهبين ، لذلك انتصر هـ للماتريديَّة علماء الحنفية ، مثل فخر الإسلام البزدوي ، والتفتازاني والنسفي .. ولكنهم لم يبلغوا مبلغ الأشاعرة ، فرجحت كفة الأشاعرة .

سُمي الأشعري وأتباعه ، والماتريدي وأتباعه بأهل السُّنة ، والسُّنة هنا بمعنى الطَّريقة ، أي أنَّ أهل السُّنة اتَّبَعُوا طريقة الصَّحابة والتَّابعين في تسليمهم بالمتشابهات من غير خوض دقيق في معانيها ، بل تركوا علمها إلى الله ، وقد يسمُّون (الأثرية)^{١٠} نسبة إلى الأثر ، وهو الحديث .

واعتمدت حكومات قويَّة مذهب أهل السُّنة مثل : الدَّولة الأيوبيَّة في مصر وبلاد الشَّام ، ودولة الموحَّدين في المغرب والأندلس ، والدَّولة الغزنويَّة في أفغانستان والهند ، والدَّولة العثمانيَّة التي ضَمَّت قلب القارات القديمة الثلاث .

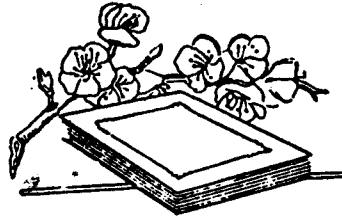
وأهل السُّنة يقولون إنَّهم لم يأتوا بشيء جديد ، وإنَّا اتَّبَعُوا مذهب السَّلَف ، أي مذهب الصَّحابة والتَّابعين ، يقول أحمد أمين في ظهر الإسلام ١٠٥/٤ :

« لئن كان التَّسامح في زمانه واجباً ، فهو في زماننا أوجب لسببين :

الأوَّل : أنَّ كثيراً من أسباب الخلاف كان تاريخياً ، وقد أصبح في ذمَّة التَّاريخ كخلاف في أيِّ الصَّحابة أفضل ، والخلاف فيما عمله الصَّحابة في حروبهم وسيرهم ، وقد انقضى كلُّ هذا ودفن في التَّاريخ ، فمالنا نفتح صفحة طواها الله ، ونحاكم التَّاريخ .^{٢٠}

(٤٠) محمد بن محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي : [ت ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م] ، نسبة إلى ماتريد محلة بسمرقند ، من كتبه : التَّوحيد ، أوهام المعتزلة ، الرَّدُّ على القرامطة ، (الأعلام ١٩/٧) .

والثاني : أنَّ المسلمين اليوم مدعوون للوحدة امتثالاً لأمر الله ، ولوقوعهم في مشكلات أمام أوروبة ، وأمام أنفسهم ، لا ينقذهم منها إلا وحدتهم ، وليس أسرَّ لعدوهم من فرقته ، فما بالناسيء إلى أنفسنا بفرقتنا ونفرح العدو بشتاتنا .. والله تعالى يقول : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ ، [آل عمران ١٠٣/٣] .



الحياة الفكرية

حركة التعريب والترجمة والتأليف

العلوم الاجتماعية ، العلوم الكونية

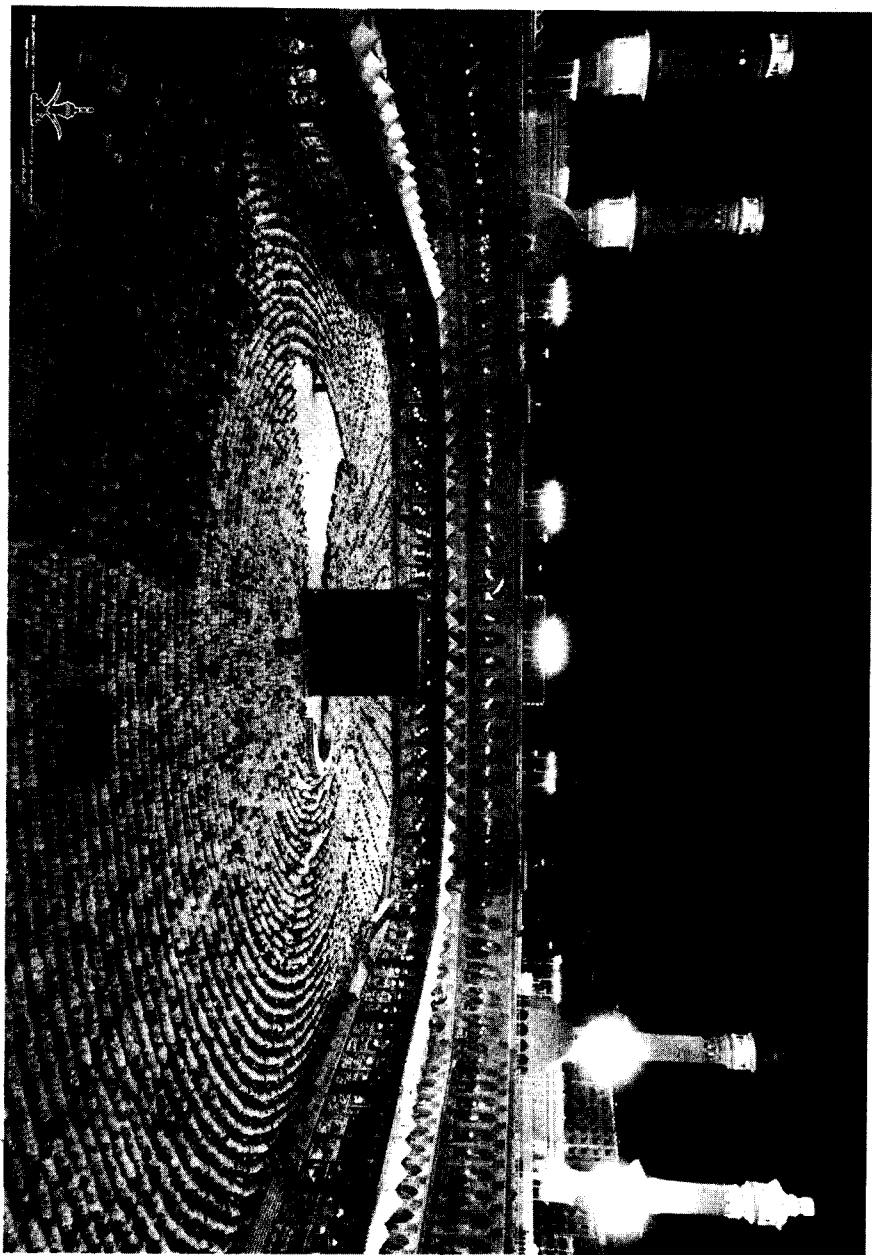
- « لَمَّا أَلْقَوْا عَصَا التَّيَّارِ ،
وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِم الدَّارُ ، لَمْ يَلْبِسُوا أَنْ ٥
نَشَطُوا لِلْفَتْحِ الثَّانِي ، وَهُوَ الْفَتْحُ
الْعَالَمِي ، فَأَتَوْا فِي الْفَتْحَيْنِ عَلَى قَصْرِ
الْمَدَّةِ بِمَا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثِيلٌ فِي الْأُمَمِ
السَّالِفَةِ ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَلَكَوْا
نَاصِيَةِ الْعِلْمِ كَمَا مَلَكَوْا نَاصِيَةَ الْعَالَمِ » . ١٠

أحمد تيمور

[المهندسون في العصر الإسلامي : ١٠]

- ما إن استقرَّ الإسلام في البلدان الَّتِي فُتِحَتْ ، حَتَّى بَدَأَتْ الْحَرَكَةُ الْفِكْرِيَّةُ تَنُمُو
وَتَزْدَهَرُ ، وَوَصَلَتْ إِلَى أَوْجِ عَطَائِهَا زَمَنَ الْعَبَّاسِيِّينَ . وَالْعَامِلُ الْأَوَّلُ فِي ازْدِهَارِ الْحَيَاةِ
الْفِكْرِيَّةِ فِي الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، تَأْكِيدُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْعِلْمِ مِنْذُ أَنْ نَزَلَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ ١٥
عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارِ حِرَاءَ ، وَكَانَتْ ﴿ أَقْرَأُ ﴾ ، وَرَفَعَ جِلَّ شَأْنَهُ مِنْ مَكَانَةِ
الْعِلْمِ عِنْدَمَا أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، [الْقَلَمُ ١/٦٨] .

- وَالْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي تَحْضُرُ عَلَى إِعْمَالِ الْعَقْلِ كَثِيرَةٌ ، حَثَّتْ عَلَى تَوْظِيفِ الْفِكْرِ
وِاسْتِخْدَامِهِ ، وَمَعَ التَّفَكُّرِ حَضَّتْ عَلَى التَّدَبُّرِ وَالتَّذَكُّرِ ، مِنْ أَجْلِ الْحَصُولِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ فِي
الْكُونِ وَالْحَيَاةِ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ ٢٠
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، [الْعَنْكَبُوتُ ٢٩/٢٠] ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ



يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩٧﴾ ، [الزمر ٩٧/٣٩] ، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، [آل عمران ١٩٠/٣] .

وقال ﷺ : « ليس مِنِّي إِلَّا عَالَمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ » ^(١) ، « وطلب العلم فريضة على كل مسلم » ^(٢) .

وجعل ﷺ مداد العلماء أثقل في الميزان من دم الشهداء ، كما جعل فكَّ إيسار المتعلمين من أسرى قریش في بئر الكبرى ، تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، لأنَّ التَّعليم مفتاح كلِّ مغلق من مغاليق الحياة ، فكان عند العرب المسلمين منذ بزوغ فجر الدَّعوة الإسلاميَّة جزءاً من الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، فليس عجباً أن يكون طلب العلم - بكلِّ مجالاته النافعة الخيرة - عبادة وفريضة في الإسلام .

قال أبو معاوية الضَّرير - وكان من علماء النَّاسِ - : أَكَلْتُ مع الرَّشيد يوماً فصبَّ على يدي الماء رجل ، فقال لي : يا أبا معاوية ! أتدري مَنْ صبَّ الماء على يديك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنت تفعلُ هذا ؟ ودعوت له ، فقال الرَّشيد : إِنَّهَا أَرَدْتُ تعظيمَ الْعِلْمِ ^(٣) .

ومن عوامل ازدهار الحياة الفكرية في الحضارة الإسلاميَّة ، التَّعريب الَّذي بدأ زمن عبد الملك بن مروان ، واطَّلاع المسلمين على حضارات البلاد الَّتِي فُتِحَتْ ، فازدهرت حركة التَّرجمة ونقل المعارف ، لينتقلوا بعدها إلى الإبداع ، ومن النُّقل إلى الاصطفاء والنَّقد ، مع طرح البدائل المشفوعة بالحجج والبراهين ، فبعد اطلاعهم على

(١) روى الدَّارمي ، والطَّبْراني في الكبير عن ابن مسعود : « النَّاسُ رَجُلَانِ ، عَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا » .

(٢) رواه البيهقي عن أنس ، والطَّبْراني في الأوسط .

(٣) البداية والنهاية ٢١٥/١٠ ، وتاريخ بغداد ٢٩٣/١٤ ، والفخري في الآداب السُّلْطَانِيَّة ١٩٤ .

الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية ، جابهوا خصومهم بالمنطق ، وقارعوهم بالحجة ،
مما أدّى إلى ظهور أساتذة العصور الوسطى : الغزالي ، ابن رشد ، ابن خلدون ، ابن
طفيل ، جابر بن حيان ، ابن الهيثم ، البيروني ، الخوارزمي ، ابن سينا ،
ابن النفيس ..

ويعمل الدكتور عمر فروخ (بواعث النقل في الإسلام) بما يلي ^(٤) :

كانت البواعث على نقل كتب العلوم والفلسفة إلى اللغة العربية حجة :

أ - احتكاك العرب بغيرهم من الأمم أطلع العرب على ثقافات جديدة ، فأحبّ
العرب أن يوسّعوا هذه الثقافات آفاقهم الفكرية ، ولعلّ ذلك كان - في أوّل الأمر -
عاملاً من التقليد المحض .

ب - حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم ، ممّا كانوا يحتاجون إليه في الطبّ ، وفي
معرفة الحساب والتوقيت لضبط أوقات الصلوات ، وتعيين أشهر الصوم والحجّ وأوّل
السنة .

ج - القرآن الكريم وحثّه على التفكير وطلب العلم .

د - العلم من توابع الحضارة . فحينما تزدهر البلاد سياسياً واقتصادياً ، ويكثر فيها
الثرف ، ويستبحر العمران ، تتجّه النفوس إلى الحياة الفكرية ، والتوسّع في طلب
العلم .

هـ - رعاية الخلفاء للنقل والنقّلة ، فقد كان الخلفاء يدفعون للنّاقل ثقل الكتاب
المنقول ذهباً ، ثم إنّ الخليفة العباسي المأمون أنشأ (بيت الحكمة) ، وجمع فيه النّاقلين ،
فأصبح نقل الكتب الفلسفية جزءاً من سياسة الدولة ، وكانت تمتّ أسرّ وجهته غنيّة
محيّة للعلم ، تبذل الأموال في سبيل الحصول على الكتب ، وفي سبيل نقلها ، فإنّ آل
المُنجّم كانوا ينفقون خمس مئة دينار في الشهر على نقل الكتب .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين - بيروت ، ص : ١١٢

و - وزعم بعضهم أَنَّ حُبَّ السُّريان لثقافتهم وحرصهم على نشرها ، حلاهم على نقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ولا وجه لهذا الزَّعم ، لأنَّ الكتب المنقولة لم تكن سُرِيانية مسيحية ، بل وثنية يونانية ، أو هندية ، ثُمَّ إِنَّ هؤلاء النُّقلة السُّريان ، لم ينقلوا هذه الكتب تطوعاً وابتداءً من عند أنفسهم ، ولا هم نقلوا الكتب الَّتِي أَحَبُّوا نقلها ، بل كانوا ينقلون ما يُطَلَّب منهم نقله بأجر .^٥



حَرَكََةُ التَّعْرِيبِ وَالتَّرْجَمَةِ وَالتَّأْلِيفِ :

التَّعْرِيب : نقل الكتب والنصوص من لغة أجنبية إلى اللغة العربية .

والتَّرجمة : نقل الكتب وترجمتها من لغة إلى لغة أخرى .

١٠ في العصر الأموي : كان خالد بن يزيد بن معاوية أوَّل من بدأ حركة التَّعْرِيب في العصر الأموي ، لأنَّ خالداً المتوفَّى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، لما يُنس من الفوز بالخلافة انقلب إلى العِلْم ، ودرس الكيمياء (علم الصَّنعة) على يد مريانوس الإسكندراني ، ثُمَّ أمر بنقل كتب الكيمياء إلى العربية ، وفي عهد عبد الملك ترجم أوَّل كتاب في الطَّبِّ ، وهو (الموسوعة الطَّبية) لمؤلَّفها أهرن بن عبة الإسكندراني .

١٥ في العصر العبَّاسي :

١ - قبل عصر المأمون^(٥) : « أوَّل نقلٍ في الدَّولة العبَّاسية ، قام به عبد الله بن المقفَّع (ت ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م) ، فقد نقل عدداً من كتب السُّلوك إلى اللغة العربية ، ووضع كتاب كليله ودمنة بالاستناد إلى قصص فارسية وهندية ، ومنذ عهد أبي جعفر المنصور (ت ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م) ، أصبح النُّقل في رعاية الدَّولة »^(٦) .

(٥) من قيام الدَّولة العبَّاسية سنة ١٣٢ هـ ، إلى بدء خلافة المأمون ١٩٨ هـ .

(٦) تاريخ العلوم عند العرب ، د . عمر فروخ ، ص : ١١٤

وفي زمن هارون الرشيد أصبح التعريب عملاً منظماً ، ومُن قام به ، يوحنا بن ماسويه ، وسَلَم أمين مكتبة بيت الحكمة ، والحجّاج بن مطر .

٢ - في عصر المأمون (عصر الازدهار العلمي) : أصبحت بغداد أعظم منارة للعلم والمعرفة في العصور الوسطى ، وكان التعريب من كل اللغات ، وقُدّم لكل مترجم قُبالة كل كتاب عربي ، زنته ذهباً . ٥

ولما انتصر المأمون على تيوفيل ملك الروم سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م ، علم بأن اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات ، وألقوا بها في السراييب ، عندما انتشرت النصرانية في بلادهم ، فطلب المأمون من تيوفيل أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة التي كان قد فرضها عليه ، فقبل تيوفيل بذلك ، وعده كسباً كبيراً له ، أمّا المأمون فعده ذلك نعمة عظيمة عليه (٧) . ١٠

ومن المترجمين في هذه الفترة ، شيخ المترجمين حنين بن إسحاق ، وثابت بن قرة ، والحجّاج بن مطر .

وأورد الجاحظ (شرائط الترجمان) فقال :

« ولا بُدَّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواءً وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضمّ عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها ، وتعرض عليها ، وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوّة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوّة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أَعَسَرَ ٢٠

(٧) لذلك تمّ تفجّر علمي معرفي في العالم الإسلامي ، أدّى إلى قيام حضارة عالميّة جديدة ، راقية مزدهرة ، لها سماتها الخاصّة .

وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشدَّ على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتة مترجماً يفِي بواحدةٍ من هؤلاء العلماء ^(٨) .

وكان المنهج العلمي المتبع في الترجمة والتعريب الآتي : أولاً العودة إلى عدة نسخ من الكتاب المراد تعريبه ، ومن ثمَّ انتقاء أفضل نسخة موثقة لاعتمادها ، ومراجعة الترجمات السابقة للكتاب إن وُجِدَتْ للاستفادة منها ، والاطِّلاع على أخطائها .
لتداركها ، ثم تقسيم العمل بين عدة أشخاص ، وإلى عدة مراحل ، فواحد يترجم من اليونانية إلى السريانية ، وآخر يترجم من السريانية إلى العربية ، وثالث يراجع النصوص وينقح ويدقِّق .

وكان للنقل طريقتان :

- لفظية : انتهجها يوحنا بن البطريرق ، وعبد المسيح بن الناعمة الحمصي ، وكانت الترجمة فيها حرفية .

- ومعنوية : انتهجها حنين بن إسحاق ، وكانت تعطي المعنى واضحاً ، دون التقيّد باللفظ .

ونتج عن حركة النقل والتعريب هذه ، اتساع الثقافة العربية بما دخل عليها من ثقافات الأمم ومناحي تفكيرها ، واطِّلاع العرب على علوم كانوا في حاجة إليها كالرياضيات والطب ، وأتاحت فرصة باكرة للعرب المسلمين مكنتهم من أن يؤدُّوا رسالتهم في تقدُّم الثقافة الإنسانية ، فارتقت الحضارة العربية الإسلامية في الحياة العملية العامة في البناء وأسباب العيش ، وفي الزراعة والصناعة والأسفار والتطبيب .. واغتنت اللغة العربية بالمصطلحات العلمية والتعابير الفلسفية ^(٩) .

(٨) الحيوان ٨٦/١

(٩) تاريخ العلم عند العرب ، ص ١١٩ ، وذكر د . عمر فروخ بعدها سيئات النقل التي قد تكون ، ومنها :
عجز بعض الناقِلين عن الإحاطة بالموضوعات التي كانوا ينقلونها ، وخصوصاً حينما كان يتولَّى الناقل =

المكتبات :

وأقبل الناس في هذه الحضارة ، على اقتناء الكتب لازدهار صناعة الورق في كل من سمرقند ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، والأندلس .. ومن الملاحظ أنَّ عدداً من الوراقين ، كانوا باعة كتب وأدباء أيضاً ، كابن النديم صاحب كتاب (الفهرست) ، وياقوت الحموي صاحب (معجم البلدان) ، و (معجم الأدباء) .

وكانت المكتبات على ثلاثة أنواع :

مكتبات عامة : ملحقة بالمساجد والمدارس ، منها مكتبة البصرة التي كانت فهارسها عشرة مجلدات ، وكان في بغداد ست وثلاثون مكتبة عامة .

ومكتبات خاصة : وهي مكتبات شخصية في البيوت .

ومكتبات عامة - خاصة : اقتصر استخدامهما على طبقة من العلماء والطلاب والباحثين ، فيها كتب قيّمة نادرة ، لا قدرة للأشخاص العاديين على اقتنائها ، مثل مكتبة (بيت الحكمة) في بغداد ، « لقد كانت نوعاً من الفتح الفكري ، الذي بلغ ذروته في صورة من صور النشوة الأدبية والعلمية بين رجال الفكر »^(١٠) ، « وإنَّ ما يميّز مدرسة بغداد عن سواها ، الروح العلمية التي سادت أعمالها ، وذلك المضي من المعلوم إلى المجهول ، وملاحظة الظواهر بدقّة لاستخلاص الأسباب من النتائج ، وكذلك عدم قبول الأشياء إلا ما كان منها ثابتاً بالتجربة ، وكان العرب في القرن التاسع قد أصبحوا يملكون ذلك النهج العلمي الخصب ، الذي كتب له بعد ذلك بزمان طويل ، أن يكون ذا فعالية في أحداث اكتشافاتهم العظيمة »^(١١) .

= نقل كتاب في غير اختصاصه ، وعجز الناقلين في اللغات ، وقلة الأمانة في نقلهم من الناقلين ، وطمع الناقلين في التكبُّب بالنقل ، حتّى كانوا ينقلون الفصل من الكتاب ويسوّونه كتاباً .

(١٠) Louis Gardet : Méditerranée : Dialogue cultures dans les Etudes Méditerranéennes Ete

1957.No1

(١١) L.A.Sédillot : Histoire des Arabes Paris 1854

ويرى سيوندي : « أن مدرسة بغداد لم تسهم في بعث أوربة فحسب ، بل أثارت الفكر في آسية أيضاً ، فقد شقت العلوم الإسلامية طريقها إلى الهند حوالي سنة ١٠١٦ م تحت إشراف محمود الغزنوي ، وانتقلت إلى السلجوقيين عن طريق عمر الخيام حوالي سنة ١٠٧٦ م ، ثم إلى المغول عن طريق ناصر الدين الطوسي ، مؤسس مرصد مراغة سنة ١٢٦٠ م ، وإلى العثمانيين سنة ١٣٣٧ م ، ثم أدخلت إلى الصين حوالي سنة ١٢٨٠ م . خلال حكم قبلاي خان ، أدخلها كوتشوكنج ، أمّا إلغ بك ، فقد أقام نصباً تذكاريّاً على شرفها في سمرقند سنة ١٤٣٧ م »^(١٢) .

ويرى ابن خلدون أن (بيت الحكمة) كانت من أبرز الحوادث التي وقعت في العصور الوسطى ، لقد كانت مجعاً علمياً ، ومرصداً فلكياً ، ومكتبة عامّة .

لقد كان لمكتبة بيت الحكمة مدير عام ، وفيها قاعات ترجمة ، وقاعات نسخ ، وعُمال تجليد .

أمّا (دار الحكمة) في القاهرة ، فقد أقيمت زمن الحاكم بأمر الله ، أواخر القرن الرابع الهجري ، ويسمّيها ابن خلدون (دار المعرفة) ، أو (دار العلم) ، وكان فيها مئة ألف مجلد ، مع ست مئة مخطوطة في الفلك والرياضيات ، وزوّدت بكرتين ساويتين ، أولاهما من صنع بطليموس ، والثانية من عمل عبد الرحمن الصوفي لشرح علم الفلك^{١٥} للطلبة ، وكان لهذه الدار أوقاف للإنفاق عليها .

و (مكتبة العزيز) في القاهرة أيضاً ، أقامها العزيز بالله ، وكان فيها مليون وست مئة ألف مجلد ، مع ستّة آلاف مجلد في الرياضيات ، وعشرة آلاف مجلد في الفلسفة .

و (مكتبة قرطبة) ، وهي من عهد الحكم المستنصر في القرن الرابع الهجري ، وكان^{٢٠}

(١٢) دور المسلمين في بناء المدينة الغربية ، ص ٢٥

فيها أربع مئة مجلد ، وكانت فهارسها أربعة وأربعين سجلاً ، ووجّه الحكم إلى التخصّص في اقتناء كتب العلوم والطب .

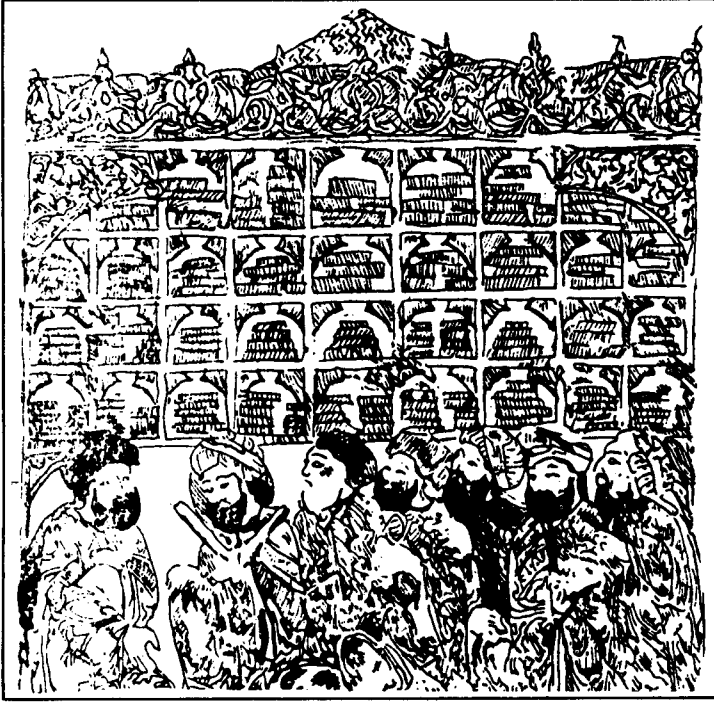
ومن المكتبات : مكتبة سيف الدولة ، وكان فيها عشرة آلاف مجلد ، والخزائن النورية بدمشق ، ومكتبة أبي الفداء بحماة ، وكان فيها سبعون ألف مجلد .

« ولما أدخل العرب صناعة الورق إلى الأندلس ازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتّى كان في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامّة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلّدة بالجلد القرطبي ، ومحبّو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها .. » ^(١٣) .

كلّ هذه النهضة العلميّة ، في الوقت الذي تفتّت الأميّة في أوروبة في العصور الوسطى ، حيث الكتب نادرة ، حتّى كتبهم المقدّس لا يوجد خارج الأديرة ، لقد اقتنى الحُكم في قرطبة مكتبة فيها أربع مئة مجلد ، وبعد أربعة قرون كان عند ملك فرنسة شارل الخامس مكتبة فيها ألف مجلد فقط ^(١٤) .

(١٣) قصّة الحضارة ٢٠٧/١٣

(١٤) يقول ول ديورانت في قصّة الحضارة ١٧٧/١٣ : « دعا سلطان بخارى طبيباً مشهوراً ليقم في بلاطه ، فأبى محتجاً بأنّه يحتاج إلى أربع مئة جمل لينقل عليها كتبه ، ولما مات الواقدي ترك وراءه ست مئة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كلّ صندوق منها رجلين لينقلاه » .
لقد عشقوا المعرفة عندما عشقوا الكتب ، ألّتي قالوا عنها : « الكتب إن خلوت لذّي ، وإن اغتمت سلوتي ، وإن قلت إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ، ويمتعان بحسنها الأحاظ ، فإنّ بستان الكتب يجلو العقل ، ويشحذ الذهن ، ويحيي القلب ، ويقوّي القريحة ، ويعين الطّبيعة ، ويبعث نتائج العقول ، ويستثير دفائن القلوب ، ويمتّع في الخلوة ، ويؤنس في الوحشة ، ويضحك بنوادره ، ويسرّ بغرائبه ، ويفيد ولا يستفيد ، ويعطي ولا يأخذ ، وتصل لذّته إلى القلب من غير سامة تدرك ، ولا مشقّة تعرض لك .. إنّها حياة الأزمنة الماضية ، ولّيتها وجوهرها ، إنّها تبرّر لماذا عاش البشر وعملوا وماتوا ، وهي معنى حياتهم وخلاصتها .. » .



* رسم مكتبة من المكتبات التي كان العلماء يترددون إليها

العُصُورُ الوُسْطَى :

وبعد هذا كله ، يقع بعضهم في خطأ عظيم ، عندما يعمّمون قائلين : العصور الوسطى عصور ظلام ، وتحريق العلماء ، ومحاربة للمعرفة ، وهذا حقٌّ لاريب فيه ، ولكنه ينطبق هناك عندهم ، في أوربة وحدها ، عندما كانت تخاطب الإنسان بقولها : « أطع وأنت أعمى » ، وهذا يقابله في الفترة ذاتها في حضارتنا العربية الإسلامية : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، [البقرة ١١١/٢] ، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ، [الأنعام ١٤٨/٦] .

تحريق العلماء كان عندهم ، هناك في أوروبة ، لا في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة .. ثلاث مئة ألف عوقبوا على آرائهم في أوروبة ، أُحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، كان منهم العالمُ الطَّبِيعِيُّ برونو Brunoe ، الذي قال بتعدد العوالم ، فحكم

عليه بالقتل وأُحرق ميتاً ، وعوقب العالم الطبيعي الشهير غاليلو بالقتل لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس ، وحُبس دي رومنس في رومة حتى مات ، ثم حوكت جثته وكتبه ، فحكم عليها بالحرق ، وأُلقيت في النار لأنه قال : إنَّ قوس قُزح ليست قوساً حريّة بيد الله ، ينتقم بها من عباده ، إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ، وأصاب جيوفت في جينيف ، وفايتي في تولوز ما أصاب هؤلاء ، وخرّقا شياً على النار لآراء لا تستوجب حتى التعزير ، إن لم نقل إنها تستوجب الاحترام والتقدير^(١٥) .

لقد كانت جامعاتنا في العصور الوسطى مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها ، فكانت بلاد العرب المسلمين مصدر إشعاع فكري وعلمي حضاري إلى أوروبا ، إن جربرت الفرنسي درس في مدارس إشبيلية وقرطبة ، وتزوّد بالحضارة العربية الإسلامية ، ثم نُصّب بابا في رومة باسم سلفستر الثاني ، وأدخل معارف عرب الشرق والغرب إلى أوروبا .

وتمنى غوستاف لوبون لو أن العرب المسلمين استولوا على فرنسة ، لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ ، ويقرض الشعر أحياناً ، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا لا يعرفون كتابة أسمائهم ، ويبصمون بأختامهم .

ويضيف لوبون ساخراً من يقارن العرب المسلمين في العصور الوسطى بالأوروبيين في الوقت نفسه : « فقد كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضرون ، والأوروبيون هم المتأخرون ، ولا أدل على ذلك من أننا نسّمى تاريخ أوروبا في ذلك الوقت العصور المظلمة »^(١٦) .

(١٥) العرب والحضارة الحديثة ، مقالة الأستاذ محمد بهجة الأثري ، ص ٩٤ ، دار العلم للملايين ، ١٩٥١ م .

(١٦) في التاريخ العبّاسي والأندلسي ، د . أحمد مختار العبادي ، ص : ٢٩٤ و ٢٩٥ .

ويقول بارتلمبي سنت هير في كتابه عن القرآن الكريم : « أسفرت تجارة العرب وتقليدهم ، عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلم فرساننا أرقّ العواطف وأنبّلها وأرحمها » ^(١٧) .

« ومما لا شك فيه أن أحداً لا يستطيع اليوم ، أن يتكلّم عن العصور الوسطى المظلمة ، بل يجب على المرء ألا ينسى أنه بينما كانت أوروبّة في ذلك الحين تتحدّر في هدة البؤس ، وتستسلم لبرائن الانحلال ، كانت الحضارة الإسلاميّة تزدهر في إسبانية ، وقادة الدّراسات العربيّة في إسبانية اليوم ، يفتحون آفاقاً جديدة لمعرفة مدى انتشار وتأثير الحضارة الأندلسيّة العربيّة ، وما جلبته من ازدهار وإشعاع فكري ، ولقد أثبت هؤلاء القادة الدّور الفعّال الذي لعبته هذه الحضارة في تطوّر الفلسفة والعلم والشّعْر ، وفي كلّ مجال آخر عند أوروبّة المسيحيّة ، وأثبتوا كذلك أن تأثيرها تناول عمالقة الفكر في العصور الوسطى ، كما يظهر في كتابات القديس توماس ودانتي ، غير أنه لا يزال هناك أناس كثيرون ، على جانبي البحر المتوسط وجمال البرانس ، يرفضون الاعتراف بهذه الحضارة ودورها التكويني الذي لعبته ، ومهما يكن في الأمر من شيء ، فإنّ الدّليل تلو الدّليل يبرز أمامنا كلّ يوم ليؤكد هذه الحقيقة ، إذ أن تيار الحضارة الذي تفجّر من قرطبة قد حافظ على لبّاب الفكر القديم ونقله إلى العالم الجديد ، قبل أن تملأ النّهضة الحديثة منابع الفكر التي كادت أن تجفّ بقرون عديدة » ^(١٨) .

« وما المكتشفات اليوم لتعدّ شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ماندين به للرواد المسلمين ، الذين كانوا قبساً مضيئاً لظلام العصور الوسطى في أوروبّة » ^(١٩) .

المؤسّسات التّعليميّة عند المسلمين :

الكتاتيب : وكانت تُلحق بالمساجد لتربية الأطفال وتعليمهم ، وظهر المؤدّبون ٢٠

(١٧) أورده غوستاف لوبون في (حضارة العرب) ، ص ٥٧٦

(١٨) Sancher Albornoz L Eopagne el L Islam

(١٩) الكيمياء عند العرب (سلسلة من الشّرق والغرب) ، ص ١١٢

الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى تَعْلِيمِ أَبْنَاءِ الْخَلِيفَةِ وَتَأْدِيبِهِمْ ، قَالَ الْأَحْمَرُ النَّحْوِيُّ : « بَعَثَ إِلَيَّ الرَّشِيدَ لِتَأْدِيبِ وَلَدِهِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَالَ : يَا أَحْمَرُ ، إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مَهْجَةً نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً ، وَطَاعَتَكَ عَلَيْهِ وَاجِبَةً ، فَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَقْرَأَهُ الْقُرْآنَ ، وَعَرَّفَهُ الْآثَارَ ، وَرَوَّهَ الْأَشْعَارَ ، وَعَلَّمَهُ السُّنْنَ ، وَبَصَّرَهُ مَوَاقِعَ الْكَلَامِ ، وَابْدَأْهُ وَامْنَعَهُ الضَّحْكَ ، إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ ، وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَرَفَعْ مَجَالِسَ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ ، وَلَا تَمَرَّنْ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مَغْتَنَمٌ مِنْهَا فَائِدَةً تَقِيدهَ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْرِقَ بِهِ ، فَتَمِيتَ ذَهْنَهُ ، وَلَا تَعْنِ فِي مَسَاحَتِهِ ، فَيَسْتَحْلِي الْفِرَاقَ وَيَأْلَفُهُ ، وَقَوْمَهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمِلَانَةِ ، فَإِنْ أَبَاهَا فَعَلَيْكَ بِالشَّدَّةِ وَالْغَلْظَةِ » ^(٢٠) .

وَاتَّخَذَ الْمُرَابِطُونَ الْعُلَمَاءَ لِتَهْذِيبِ بَنِيهِمْ ، فَيَذْكُرُ ابْنُ خَلْدُونِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَقَلَ عَنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ الْمُتَعَلِّمِينَ لِأَحْكَامِ دِينِ اللَّهِ لَصِيْبَانَهُمْ ، وَالِاسْتِفْتَاءَ فِي فُرُوضِ أَعْيَانِهِمْ ، وَاقْتِنَاءَ الْأَنْئَمَةِ لِلصَّلَوَاتِ فِي نَوَادِيهِمْ ، وَتِدَارِسَ الْقُرْآنِ بَيْنَ أَحْيَائِهِمْ ، وَتَحْكِيمَ حَمَلَةِ الْفَقْهِ فِي نَوَازِلِهِمْ وَقَضَايَاهُمْ » ^(٢١) .

وَكَانَ الْأَمِيرُ عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ يَرْسِلُ أَبْنَاءَهُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، لِتَلَقِّي الْعِلْمِ . يَتَشَدَّدُ فِي تَعْلِيمِ أَوْلَادِهِ ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ مِنَ الرِّسَالَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ إِلَى ابْنِهِ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَى رِعَايَتِهِ وَتَأْدِيبِهِ الطَّبِيبُ الْأَنْدَلُسِيُّ الْمَشْهُورُ أَبُو مَرْوَانَ بْنِ زَهْرٍ ، وَيَبْدُو أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَكُنْ مَكْبَأً عَلَى الدَّرْسِ مَنْصَرَفاً إِلَى التَّحْصِيلِ ، مِمَّا دَعَا وَالِدُهُ إِلَى تَقْرِيعِهِ وَنَهْرِهِ ، يَقُولُ فِيهَا : « كِتَابُنَا أَلْهَمَكَ اللَّهُ رَشْدَ نَفْسِكَ ، وَمِنْ حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ ، بَعْدَ وَصُولِ الْوَزِيرِ الْجَلِيلِ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ الْوَزِيرِ

(٢٠) مروج الذهب ٣/٣٦٢

(٢١) ابن خلدون (العبر) ٦/٢٠٨

أبي العلاء بن زهر ، محل أبنينا ، يشكو ما يكابده ويقاسيه من تضريبك ، فأمسك عليك رملك ، وخذ من الأمور ما يسر ، وإلا أنفذناك إلى ميوزقة » ^(٢٢) .

المساجد : أتبع فيها نظام الحلقات ، حيث تعليم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والعلوم .. ثم أصبحت في العصر العباسي بمثابة الجامعات ، حيث الشروح والإملاء والمناقشة ، وعندما يأنس الطالب في نفسه الكفاءة ، يعتزل حلقة أستاذه ، ليشكل حلقة جديدة لنفسه .

« وكان الطلاب يفدون إلى جامع تبكت ^(٢٣) بعد أن يكونوا قد أتموا حفظ أجزاء من القرآن في مدارسهم المحلية ، فإذا أتموا هذه الدراسات الأولية ، شدوا الرحال إلى تبكت ، وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم ، وكانت معيشة هؤلاء الطلاب ميسرة ، فقد كان يستضيفهم الأثرياء من أهل المدينة وتجارها ، وكانت لجامع سنكري أوقاف ^(٢٤) ، ينفق ١٠ من ريعها على طلبة العلم ...

وعندما ينتهي الطالب من هذه الدراسات المتنوعة ، يحصل على إجازة تؤهله للعمل بتعليم القراءة ، أو الخطابة ، أو الإمامة ، أو القضاء ، ونتيجة لازدهار هذه الحياة العلمية ، أقبل الناس في شغف على اقتناء المكتبات الخاصة التي تعج بالكتب العربية ، وكثرت المكتبات العامة .

(٢٢) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، د . عصمت دندش ، دار الغرب الإسلامي ، ص ١٤٤ ، عن سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، نشرها د . حسين مؤنس (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد) ، المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ ، ص : ٦٨ - ٧٠

(٢٣) مدينة تبكت في السودان الغربي على نهر النيجر ، يقول السعدي في (تاريخ السودان) ص ١٢١ : « مدينة - تبكت - مدينة إسلامية منذ البداية ، مادنتها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها لغير الرحمن ... » .

(٢٤) جامع سنكري في تبكت ، بنته سيّدة تعرف باسم سنكري ، ضمّ هذا الجامع نخبة من الفقهاء والعلماء ، أكثرهم من قبيلة جدالة .

ومع أن الحسن الوزان (ليون الإفريقي)^(٢٥) قد زار هذه البلاد بعد انتهاء دولة المرابطين بأكثر من أربعة قرون ، إلا أنه ذكر أنه يوجد بتبكت كثير من الفقهاء والأطباء والدعاة ، الذين كانوا يعيّنون بأمر ملكي ، وكان الملك يحترم العلماء والأدباء ، ويشترى كثيراً من المخطوطات ، ولا يبخل بدفع أثمانها مهما ارتفعت ، مما يدل على تقديره الشديد لرجال العلم والأدب .. ٥

وارتبطت المدارس في غرب إفريقية ارتباطاً شديداً بالدين ، وفي أول الأمر ألحقت المدارس بالرباط ، حيث كان يقيم المرابطون للتعبّد والتعلّم ، فكان الشيخ عبد الله بن ياسين معلّمهم الأول ، يعلمهم الشريعة ، ويقرئ الكتاب والسنة ، حتّى صار حوله فقهاء ، ورثب لهم أوقاتاً للمواظاة ، وعندما كان ينتهي من تعليم رواد الرباط هذه الأشياء ، كان يأمرهم بالذهاب إلى قبائلهم لينشروا الإسلام على أسس سليمة ، بعيدة عن البدع والجهل . ١٠

وبتوسّع المرابطين ، وخروجهم للجهاد ، أصبحت المدارس ملحقة بالمساجد ، فكان إلى جانب كلّ مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد ، وكانت هناك أمكنة لنوم الطلاب الذين يحضرون من أماكن بعيدة ، على أن المساجد كانت بمثابة المقرّ الرئيسي لتلقّي العلم ، إذ كانت تعقد في المسجد حلقات للتدريس والمناقشة في أمور الدين الخافية . ١٥

وقد قلّد السودان هذا النوع من المدارس ، فأصبحت تلحق بكلّ زاوية من زوايا الفرق المذهبية والدينية ، مدرسة لتعليم الأطفال ، على أن القرى الصغيرة التي تخلو من المساجد ، كان أطفالها يتلقّون تعليمهم على يد أحد الدعاة ، في ساحة صغيرة ، أو في إحدى الغرف في أحد بيوت القادرين «^(٢٦)» . ٢٠

(٢٥) ستر ترجمته مفصلة مع ترجحات (الرّحالة العرب المسلمين) .

(٢٦) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية ، ص ١٦٥ وما بعدها (باختصار) .

وظهر نظام الإجازة (الشهادات العالية) ، حيث يستخدم الطالب بعد الإجازة كتب أستاذه ، ويمكنه الرواية عنه .

وكان للمرأة دور في التدريس في حلقات المساجد ، وسجلت كتب التاريخ أسماء عشرات النساء المحدثات ، ومنهن أم الدرداء الصغرى (هُجَيَّة بنت حَيِّ الأوصائية الدمشقية)^(٢٧) ، التي روت عن أبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وفضالة بن عبيدة ،^٥ وأبي هريرة ، وكعب بن عاصم ، وعائشة وآخرين كثر ، وكان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يجلس إليها بمسجد دمشق .. ومنهن : زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية (ت ٧٤٠ هـ) ، التي كانت تدرس صحيح مسلم ، وسمع عنها الرُّحالة ابن بطوطة في جامع بني أمية بدمشق .

١٠ مَجَالِسُ الْمُنَازَرَةِ : وتعقد في بلاط الخلفاء والأمراء ، أو المستشفيات لتشخيص مرض أو تحديد علاج ، كما في أيام عبد الملك بن مروان وهارون الرشيد والمأمون .

لقد بدأت المناظرات بعد الفتح ، فطرق المتناظرون كل مواطن الخلاف بين العقيدتين : (الإسلام والمسيحية) ، وكان البطريق النسطوري طيماتاوس Timotheus يعقد مناظرات في المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادي ، ثم هارون الرشيد^(٢٨) .

١٥ وفي مجلس الرشيد كانت تدور مناظرات أدبية ، كان الأصمعي ألح رجالها ، ومن أهم المناظرات الدينية أيام الرشيد ، مناظرة كان الشافعي (محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع) طرفها الأول ، وطرفها الثاني محمد بن الحسن الشيباني وبشر المرسى ، ومكانها قصر الرشيد وبحضوره ، فأجاب الشافعي إجابات تدل على سعة علمه وتبحره

(٢٧) توفيت سنة ٤١ هـ ، وأم الدرداء الكبرى هي : خيرة بنت أبي حذرد ، وزوجها أبو الدرداء هو : عويمر بن مالك ، (أعلام النساء ٢٠٥/٥) .

(٢٨) الدعوة إلى الإسلام ، السير توماس أرنولد ، ص ١٠٣

في الفقه والحديث وفنون العلوم ... وانبسط الشافعي في الكلام ، فتكلم بكلام حسن ، فأعجب به الرشيد وقربه من مجلسه ورفع عليه ، وقال الرشيد : أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة ، فلا يدخل عليّ أحد من الفقهاء قبلك^(٢٩) .

وفي الأندلس كان المنصور بن أبي عامر يعقد طول أيام مملكته في كل أسبوع مجلساً ، يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ، ما كان مقيماً بقرطبة ، فقد كان كثير الغزوات ، وكان أبو العلاء صاعد بن الحسن^(٣٠) سيّد هذه المناظرات ، فأحبّه ابن أبي عامر ، ولما مات لم يحضر أبو العلاء مجلساً لأحد ممّن ولي الأمر بعده ، وادّعى المألقه بساقه ، ثمّ خرج إلى صقلية فمات فيها عن سنّ عالية^(٣١) .

المُدارِسُ : بدأت المدارس بكثرة منذ القرن الخامس الهجري لازدحام المساجد بالحلقات ، ولإقبال الناس على العلم ، وأوّل مسجد حوّل إلى مدرسة الجامع الأزهر سنة ٣٧٨ هـ ، ومن المدارس الشهيرة : المدرسة النظامية ببغداد ، والمدرسة النورية بدمشق ، وبنى صلاح الدّين الأيوبي عدّة مدارس في مصر ، وذكر ابن جبير عشرين مدرسة بدمشق أيام صلاح الدّين فيها تخصّص عالٍ ، وسبعاً وعشرين في حلب .

وفي الأندلس كانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التّعليم ، ثمّ أضاف الحُكَم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان ، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء .. وكان التّعليم العالي يقوم به أساتذة مستقلّون يلقون محاضراتهم في المساجد ، وكانت المناهج التي يدرّسونها هي التي

(٢٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٨٢/٩

(٣٠) صاعد بن الحسن بن عيسى الربيعي (أبو العلاء) : [ت ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م] ، عالم بالأدب واللّغة من الكتاب الشعراء ، ولد بالموصل ، ونشأ ببغداد ، وانتقل إلى الأندلس حوالي سنة ٣٨٠ هـ ، فأكرمه المنصور بن أبي عامر ، فصنّف له كتاب (الفصوص) على نسق أمالي القاضي ، توفي بصقلية ، (الأعلام ١٨٦/٣) .

(٣١) ظهر الإسلام ١٢٨/٣ ، عن : (المعجب) ، طبعة القاهرة .

كوّنت جامعة قرطبة ، والتي لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادي عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشّبهتان بها ، وأنشئت الكليّات أيضاً في غرناطة وطليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وبلنسية وقادس^(٣٢) .. التي نقشّت فوق مداخلها : « يقوم العِلْم على عُمْد أربعة : حكمة العلماء ، وعدل العظماء ، وصلوات الأتقياء ، وشجاعة الشّجعان » ، لقد وجدت هذه العبارة محفورة فوق مدخل الجامعات الكبرى التي عرفتھا الأندلس في ظلّ الحكم الإسلامي ، وتقديم (حكمة العلماء) أمر يلفت النظر^(٣٣) .

وعرفت هذه الكليّات والمدارس الوظائف التّالية :

- المدرّس : وحقّ عليه أن يُحسن إلقاء الدّرس ، وتفهمه للحاضرين ، ثمّ إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون إلى الأصعب ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التّحقيق ، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات ، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ، ويخوض بهم عِبابه الزّاهر ، ومن أقبح المنكرات مدرّس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب ، ويجلس يلقّيها ثمّ ينهض ، فهذا إن كان لا يقدر إلاّ على هذا القدر ، فهو غير صالح للتّدريس ، ولا يحلّ له تناول معلومه ، وقد عطّل الجهة ، لأنّه لا معلوم لها ، وينبغي ألاّ يستحقّ الفقهاء المنزلون معلوماً ، لأنّ مدرّستهم شاغرة من مدرّس ، وإن كان يقدر على أكثر منه ، ولكنّه يسهّل ويتأوّل فهو أيضاً قبيح ، فإنّ هذا يطرّق العوام إلى رُوم هذه المناصب ، فقلّ أن يوجد عامي لا يقدر على حفظ سطرين ، ولو أنّ أهل العلم صانوه ، وأعطى المدرّس منهم التّدريس حقّه ، فجلس وألقى جملة صالحة من العلم ، وتكلّم عليها كلام محقّق عارف ، وسأل وسئِل ، واعترِض وأجاب ، وأطال وأطاب ، بحيث إذا حضره أحد

(٣٢) قصّة الحضارة ٢٠٦/١٣

(٣٣) دور المسلمين في بناء المديّنة الغريّة ، الأستاذ حيدر بامات ، المركز الإسلامي - جنيف ، (بلا تاريخ) .

العوام أو المبتدئين أو المتوسّطين فهم من نفسه القصور عن الإتيان بمثل ما أتى به ، وعرف أنّ العادة أنّه لا يكون مدرّس إلاّ هكذا ، والشّرع كذلك لم تطمح نفسه في هذه المرتبة ، ولم تطمح العوام بأخذ وظائف العلماء^(٣٤) ..

المُعَيَّدُ : الذي عليه قدر زائد على سماع الدّرس من تفهيم بعض الطّلبة ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة ، وإلاّ فما يكون قد شكر الله تعالى على وظيفة الإعادة ، وأصبح والفقير سواء .

المُعَيَّدُ : عليه أن يعتد ما يحصل به في الدّرس فائدة ، من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك ، وإلاّ ضاع لفظ الإفادة وخصّوصيّتها ، وكان أخذه العوّض في مقابلتها حراماً .

المنتهي من الفقهاء : عليه من البحث والمناظرة فوق ما على منّ دونه .

فقهاء المدرسة : وعليهم التفهّم على قدر أفهامهم ، والمواظبة إلاّ بعذر شرعي .

قارئ العُشْر : وينبغي أن يقدّم قراءة العشر ، فيكون قبل الدّرس ، وأن يقرأ آية مناسبة للحال ، موضوع الدّرس .

المُنشِد : وينبغي أن يذكر من الأشعار ما هو واضح اللفظ ، صحيح المعنى ، مشتملاً على مدائح للنبي الكريم ﷺ ، وعلى ذكر الله تعالى وآلائه وعظمته ، وخشية مقته وغضبه ..

كاتب الغيبة على الفقهاء : عليه اعتماد الحق ، وألاّ يكتب على كلّ من لم يحضر ، ولكن يستفصح عن سبب تخلّفه ، فإن كان له عذر بيّنه ، وإن هو كتب على غير بصيرة فقد ظلمه حقّه ، وإن سامح بمجرد حطام يأخذه من الفقيه فقد خان .

(٣٤) لهذه الوظائف ، انظر : معيد النعم ومبيد النقم ، للسبكي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٧ هـ /

١٩٨٦ م ، بيروت .

خَازِنُ الْكُتُبِ : وحقّ عليه الاحتفاظ بها ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، والضّنة بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأنّ يقدّم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء ، وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته ..

- هذا .. ولا ينسى دور الرّباطات والزّوايا والتّكايا كمراكز فكريّة ، ساهمت في نشر العلم والمعرفة ، بالإضافة إلى أهدافها الدّينيّة والاجتماعيّة ، ومّا يذكر أيضاً أن نظام التّقاعد للمعلّمين كان معمولاً به في العهد العثماني منذ القرن الثامن الهجري^(٣٥) .

ومن مبادئ التّربية الإسلاميّة :

- يقول ابن سينا : « إذا اقتضت الصّورة الالتجاء إلى العقاب ، ينبغي مراعاة ذلك بمنتهى الحذر والحيطّة ، فلا يؤخذ الولد بالعنف ، وإنّا بالتّلطّف ، ثمّ تترج الرّغبة والرّهبة » .

ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي : « من اشتغل بالتّعليم فقد تقلّد أمراً عظيماً ، فينبغي أن يأخذ نفسه بالشفقة على المتعلّمين ، وأن يجريهم مجرى بنيّه » .

- ومّا هو جدير بالذكر ، كومضة حضارية رفيعة ، أن وقفاً بدمشق دُعي (وقف القضاة)^(٣٦) ، ينفق ريعه في شراء (القضاة) ، لتُملأ جيوب الأطفال بها عند مجيئهم إلى المدرسة للتعلّم برغبة وإقبال ، وهذا تعزيز إيجابي رائع ، وتشجيع عظيم ، وترغيب كبير على طلب العلم والسّعي إليه بشوق ومحبة .



(٣٥) العرب والحضارة الحديثة ، ص ٦٢

(٣٦) القضاة : نوع من الحِمص الشوي المملّح ، محبّب للأطفال جدّاً .

أهمُّ المراكزِ الفكريةِ عندَ المُسلمينَ :

المدينة المنورة : لقد كان مسجد الرسول ﷺ مركزاً للحياة الفكرية والاجتماعية والإدارية ، وظهر فيه التخصص ، فاشتهر علي رضي الله عنه بالقضاء ، ومعاذ بن جبل بالفقه والأحكام ، وأبي بن كعب ، وابن عباس في القراءات والتفسير .

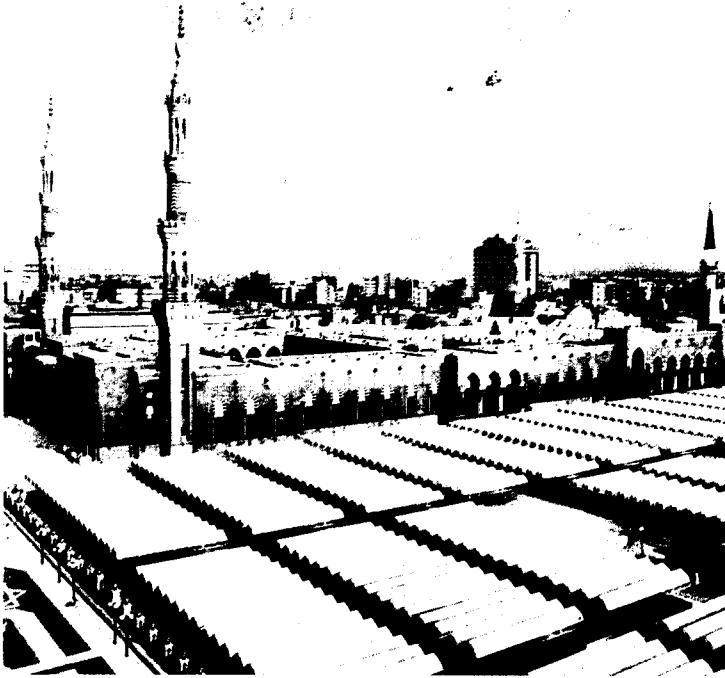
وتميّزت المدينة المنورة باعتبارها على الحديث الشريف أكثر من اعتمادها على الرأي والقياس ، كما هي الحال في مدارس العراق ، وبرز فيها محمد بن شهاب الزهري ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وكانت أشهر الحلقات العلمية حلقة :

الإمام مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأعلام ، صاحب المذهب المالكي ، ولد وتوفي في المدينة المنورة ، فنشأ في البيئة التي نزلت فيها الرسالة الإسلامية ، ورأى بعضاً من صحابة الرسول ﷺ ممن كانوا أحياء حين حياته ، فكان عند المسلمين الحجة في فقه الدين ، وتفسير النصوص على المبادئ التي أخذت عن رسول الله ﷺ ، ألف كتاب (الموطأ) ، وهو أول كتاب ألف في الفقه الإسلامي ، فاتخذ فيه القرآن الكريم وجلة من الأحاديث الصحيحة أساساً في إخراجها ، معتمداً في انتقاء الأحاديث على سمعة الذين حدثوا بها ، وشهرتهم بالصدق والأمانة والتقوى ، وعقب على الموطأ بما سماه : (المدونة الكبرى) .

قال الإمام مالك إن أصول الفقه تقوم على الإجماع ، وقصد به إجماع فقهاء المدينة المنورة ، بوصفها مركز الفقه الإسلامي ، ومبعث نوره ، ومأوى رجاله وثقاته ، ولقد خالفه في ذلك كثير من الفقهاء وأئمة الدين ، وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان ، لأن الاستئثار بالرأي لفقهاء المدينة في غير صالح المسلمين ، وإيصاد لباب الاجتهاد عند فقهاء غيرها من الأمصار الإسلامية .

أمّا السُّنة التي اتبعتها في إقامة مذهبه ، فترجع إلى أصليْن : الإجماع ، والقياس . وقيد القياس بما سماه (الاستصلاح) ، وقصد بذلك عدم الأخذ به إذا كان في ذلك

ما يضربُ بمصالح المسلمين . ولقد انتشر المذهب المالكي في شمالي إفريقيا أول الأمر ، ثم دخل الأندلس في عصر عبد الرحمن الثاني : [٨٢٢ - ٨٥٢ م] ، إذ حله إليها يحيى بن يحيى^(٣٧) ، الذي لقّب بحكيم الأندلس . والمذهب المالكي لا يزال حتى اليوم ، مذهب أكثر المسلمين في صعيد مصر ، وشمالي إفريقيا وعمّان والبحرين والكويت .



(المدينة المنوّرة)

(٣٧) يحيى بن يحيى بن أبي عيسى كثير بن وسلاس اللّيثي بالولاء (أبو محمّد) : [١٥٢ - ٢٣٤ هـ / ٧٦٩ - ٨٤٩ م] ، عالم الأندلس في عصره ، أصله من قبيلة مصمودة من طنجة ، قرأ بقرطبة ، ورحل إلى للشرق شاباً ، فسمع الموطأ من الإمام مالك ، وأخذ عن علماء مكّة ومصر ، وعاد إلى الأندلس فنشر فيها مذهب مالك ، وعلا شأنه عند السلطان ، فكان لا يؤلّى قاضي في أقطار بلاد الأندلس إلاّ بمشورته واختياره ، توفي بقرطبة ، (الأعلام ١٧٦/٨) .

دِمَشْقُ : برز فيها عبادة بن الصّامت ، وتميم الدّاري ، و :

الإمام الأوزاعي^(٣٨) : عبد الرّحمن بن عمرو بن يَحْمَد ، إمام الدّيار الشّاميّة في الفقه والزّهد ، له كتاب (السّنن) في الفقه ، و (الشّائل) ، ويقدر ماسئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها ، وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام .

وتميّزت مدرسة دمشق بتدوين التّاريخ المبكّر ، وذلك منذ أيّام معاوية بن أبي سفيان على يد عبيد بن شَرِيّة^(٣٩) ، وترك لنا المؤرّخ الحافظ ، الرّحالة ، محدّث الدّيار الشّاميّة ابن عساكر الدّمشقي^(٤٠) (تاريخ دمشق) في أكثر من ثمانين جزءاً ، وفي الطبّ كتب أحمد بن أبي أُصيبعة^(٤١) ، الطّبيب المؤرّخ : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) في مجلّدين .

بَيْتُ المُقَدِّس : بعد تحريرها من يد الصّليبيّين عام ١١٨٧ م ، بنى صلاح الدّين الأيوبي المدرسة النّاصريّة والصّلاحيّة ، ثمّ أصبح عدد المدارس عشرين مدرسة ، ويمثّل هذا المركز الفكري أبو بكر الطّروطوشي : محمّد بن الوليد القرشي الفهري^(٤٢) .

(٣٨) ولد في بعلبك ، وتوفّي ببيروت : [٨٨ - ١٥٧ هـ / ٧٠٧ - ٧٧٤ م] .

(٣٩) عبيد بن شَرِيّة الجرهمي : [ت نحو ٦٧ هـ / نحو ٦٨٦ م] راوية من المعمرين ، استحضره معاوية من صنعاء إلى دمشق ، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم ، فجلّثه ، فأمر معاوية بتدوين أخباره ، فأملّى كتابين : كتاب الملوك وأخبار الماضين ، وكتاب الأمثال ، (الأعلام ١٨٩/٤) .

(٤٠) علي بن الحسن بن هبة الله : [٤٩٩ - ٥٧١ هـ / ١١٠٥ - ١١٧٦ م] ، ثقة الدّين ابن عساكر الدّمشقي .

(٤١) موقّق الدّين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي ، كان مولده ووفاته في دمشق ، وفيها صنّف كتابه سنة ٦٤٣ هـ .

(٤٢) الطّروطوشي : [٤٥١ - ٥٢٠ هـ / ١٠٥٩ - ١١٢٦ م] ، من فقهاء المالكيّة الحفّاظ ، من أهل طرطوشة Tortosa بشرقي الأندلس ، تفقّه ببلاده ، ورحل إلى الشّرق سنة ٤٧٦ هـ ، فحجّ وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان ، وأقام في الشّام . توفّي بالاسكندريّة ، (الأعلام ١٢٣/٧) .

البَصْرَةُ : تميّزت البصرة أنها مركز إشعاع ديني ولغوي وفلسفي ، برز فيها أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) ، والحسن البصري^(٤٣) : وهو تابعي كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النُّسَّاك ، قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بالأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة ، وكان غاية في الفصاحة ، تتصّبب الحكمة من فيه ، ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه : إنني قد ابتليت بهذا الأمر ، فانظر لي أعواناً يعينونني عليه ، فأجابه الحسن : أمّا أبناء الدنيا فلا تريد لهم ، وأمّا أبناء الآخرة فلا يريدونك ، فاستعن بالله .

وواصل بن عطاء^(٤٤) : رأس المعتزلة ، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين ، سُمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري ، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى ١٠ (الواصليّة) ، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق ، بعث من أصحابه عبد الله بن الحارث إلى المغرب ، وحفص بن سالم إلى خراسان ، والقاسم إلى اليمن ، وأيوب إلى الجزيرة ، والحسن بن ذكوان إلى الكوفة ، وعثمان الطويل إلى أرمينية .

ومحمد بن سيرين^(٤٥) : الذي اشتهر بالورع ، وتعبير الرؤيا ، وينسب إليه ١٥ كتاب : (تعبیر الرؤيا) .

وسيبويه^(٤٦) : (عمرو بن عثمان بن قنبر) : إمام النحاة ، وأوّل من بسّط علم النحو ، ولد في إحدى قرى شيراز ، وقدم البصرة ، فلزم الخليل بن أحمد الفراهيدي

(٤٣) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري : [٢١ - ١١٠ هـ / ٦٤٢ - ٧٢٨ م] .

(٤٤) أبو حذيفة واصل بن عطاء : [٨٠ - ١٣١ هـ / ٧٠٠ - ٧٤٨ م] .

(٤٥) أبو بكر محمد بن سيرين ، مولده ووفاته بالبصرة : [٣٣ - ١١٠ هـ = ٦٥٣ - ٦٢٩ م] .

(٤٦) سيبويه بالفارسيّة : (رائحة التفاح) ، ولد سيبويه سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م ، وتوفي سنة

١٨٠ هـ / ٧٩٦ م .

ففاقه ، وصنّف كتابه المسمّى (كتاب سيبويه) في النّحو ، لم يصنع قبله ولا بعده مثله ، ورحل إلى بغداد فناظر الكسائي ، وأجازه الرّشيد بعشرة آلاف درهم .

الكوفة : نافست البصرة في النّحو ، ومن أشهر علمائها في هذا العلم الكسائي (علي بن حمزة) ، وتلميذه الفراء (يحيى بن زياد)^(٤٧) ، والمفضل الضّبيّ الذي صنّف كتابه (المفضليّات) وأهداه إلى الخليفة المهدي .

وفي الدّين برز فيها عبد الله بن مسعود ، والإمام الشّعبي (عامر بن شراحيل) ، وإبراهيم النّخعي ، وجعفر الصّادق .

جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي (أمير المؤمنين) رضي الله عنه : [٨٠ - ١٤٨ هـ] الذي كان يفخر بجده أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فهو القائل : « إنّ أبا بكر ولدي مرّتين » ، [أعيان الشيعة : ٦٥٩/١] ، لأنّ أمّ جعفر الصّادق فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وأمّها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين .

لقد سلّم الباقر ابنه جعفر شعار حياته في مقولتين رائعتين :

١ - شيعتنا من أطاع الله .

٢ - وإنّ الله خبياً رضاه في طاعته ، فلا تحقرنّ من الطّاعات شيئاً ، فلعل رضاه

(٤٧) أبو زكرياء الفراء : [١٤٤ - ٢٠٧ هـ = ٧٦١ - ٨٢٢ م] ، إمام الكوفيّين وأعلمهم بالنّحو واللّغة وفنون الأدب ، كان يقال : « الفراء أمير المؤمنين في النّحو » ، ولد بالكوفة ، وانتقل إلى بغداد ، وعهد إليه المأمون بتربية ابنه ، فكان أكثر مقامه بها ، فإذا جاء آخر السّنة ، انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوماً في أهله يوزّع عليهم ما جمعه ويبرّهم ، وتوفّي في طريق مكّة ، وكان مع تقدّمه في اللّغة فقيهاً متكلّماً ، عالماً بأيّام العرب وأخبارها ، عارفاً بالنّجوم والطّب ، يميل إلى الاعتزال ، من كتبه : المقصور والممدود ، المعاني ، اللّغات ، مشكل اللّغة ..

فيه ، وخبأً سخطه في معصيته ، فلا تحقرن من معصيته شيئاً فلعل سخطه فيه ، وخبأً أولياءه في خلقه ، فلا تحقرن أحداً فلعل ذلك ولي .

كان الإمام مثلاً عالياً للأمة ، وواحداً من كبار فقهاء المدينة المنورة .

من آرائه المتميزة : باب الاجتهاد مفتوح أبداً في الظنّيات التي ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين ، أما القطعيات فلا اجتهاد فيها ، كالعقائد الواجبة ، ومما ثبت من الأحكام العملية .. و :

أبو حنيفة النعمان^(٤٨) : الذي شرع يدرّس في مسجد الكوفة ، حيث وضع قواعد مذهبه ، وبث في تلاميذه روح الاستقلال في الرأي ، حتّى أتم وضع المذهب الحنفي ، وهو أحد المذاهب الفقهية الكبرى في التشريع الإسلامي ، ولم يكتب أبو حنيفة كتاباً يضمّ شتات مذهبه ، وإنّا قام بذلك من بعده تلميذه أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب)^(٤٩) كبير قضاة بغداد ، فنشر المذهب ، وقسّر ما غض من أصوله ، حتّى ارتفع ذكر أبي حنيفة في بلاط الخليفة الرشيد ، وأصبح مذهبه من المذاهب الأربعة الكبرى في فقه الإسلام .

يقوم المذهب الحنفي على ثلاثة أصول :

القرآن الكريم ، وهو المأخذ الثابت للشرعية .
ثمّ الحديث الشريف .

ثمّ القياس ، غير أنّه فسّر القياس تفسيراً أوسع ممّا فسّر به من قبل ، فأدخل فيه عنصراً جديداً سمّاه (الاستحسان) ، بحيث يرجع فيه إلى حكم العقل ، والأخذ بما هو

(٤٨) أبو حنيفة النعمان بن ثابت : [٨٠ - ١٥٠ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٧ م] .

(٤٩) أبو يوسف : [١١٣ - ١٨٢ هـ] ، تنبأ له أبو حنيفة لما أرادت أمّه منعه من حضور مجالسه في صنعة يقتات منها ، قال لها أبو حنيفة : سيأتي يوم على ابنك يأكل أطياب الطّعام بأطباق الذهب ، وكان ذلك أيام الرشيد .

حق وعدل ، والعدول عما يتّضح أنّه جائر أو منافٍ لصالح المجتمع ، غير أنّ هذا الاتجاه بما تضمّن من حرّية في الرّأي ، عاد من بعد أبي حنيفة فجمد ، وانتهى إلى فكرة الأخذ بالسّوابق الّتي جرى عليها المتقدّمون من الفقهاء .

بغداد : برز فيها :

٥ محمد بن إدريس الشّافعي^(٥٠) : إمام من أئمة المذاهب الأربعة الكبرى في فقه الإسلام ، ولكن مذهب مالك في المدينة المنورة ، ومذهب ابن حنبل في بغداد ، جعله يهجر بغداد ، وهبط الفسطاط بأرض مصر ، ومضى يبثّ مبادئ مذهبه وقواعده في مسجد عمرو بن العاص ، وكتاب (الأم) أعظم ما خلف الشّافعي من مؤلّفات في الفقه والشّريعة ، وقد جمع بين دفتيه أطراف مذهب من قواعد وبحوث ومناقشات .

١٠ ومن أخصّ ما يجري عليه مذهب الشّافعي ، أنّه وسّع من معنى (الإجماع) ، ومحضّة إجماع الرّأي بين فقهاء المسلمين على مسألة فقهية أو تشريعية ، وألاً يؤخذ بإجماع المدينة المنورة من الفقهاء وحدهم على مذهب مالك بن أنس ، فقد كان مالك يقول إنّ إجماع المدينة على مسألة خلافة في الدّين ، كافٍ لتقرير صحتها ، فخرج الشّافعي على هذا الرّأي ، لأنّ فقهاء المدينة لم يؤتوا العصمة من الخطأ ، أمّا إذا اجتمع فقهاء المسلمين على رأي ، فذلك أدنى إلى العصمة ، وأقرب إلى الحقّ ، كذلك ذهب إلى أنّ الرّأي الفردي ، وإن اعترف لصاحبه بالأمانة في الدّين ، لا يصحّ أن يؤخذ به أصلاً من أصول التشريع .

وأحمد بن حنبل^(٥١) : صاحب (المُسنَد) ، الّذي يحتوي على ثلاثين ألف حديث في ستّة مجلّدات ، اختارها من سبع مئة ألف حديث ، وهذا ما لم يتفق لغيره ،

(٥٠) ولد الشّافعي بغزة ، وتوفّي بمصر : [١٥٠ - ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠ م] .

(٥١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، ولد ببغداد وتوفّي بها أيّام المتوكّل : [١٦٤ - ٢٤١ هـ = ٧٨٠ -

٨٥٥ م] .

وصاحب الإمام الشافعي ، فكان من خواصّه ، ولم يزل يصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، فقال فيه : « خرجتُ من بغداد ، وما خَلَفْتُ بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

ذاعت مبادئه التي طبّقها على الفقه في ذلك العصر ، قال إنّ أصول الشريعة ليست كأصول النحْو أو المنطق من حيث الثبات وعدم التغيّر ، وإنّها تنظّم حالات المجتمع ، ه فينبغي لها أن تتحوّل بتحوّل المجتمع وبحسب حاجاته ، وأسس مذهبه على أنّ الشريعة لا مصدر لها غير القرآن الكريم ، والحديث الشريف .

وأبو حامد الغزالي (حجة الإسلام)^(٥٢) : الذي تلقّى العلم في مسقط رأسه مدينة طُوس ، ثمّ في جرجان ، ثمّ قدم نيسابور ، ودرس على أبي المعالي الجويني : « وجدّ في الاشتغال حتّى تخرّج في مدّة قريبة ، وصار من الأعيان المُشار إليهم في زمن أستاذه » ، كما يقول ابن خلكان .

وعلم أبو حامد بالمدرسة النظاميّة ببغداد ، فارتفعت منزلته عند أهل العراق ، ثمّ سلك طريق الزهد والانتقطاع ، ومن أشهر كتبه : (إحياء علوم الدّين) ، و (المنقذ من الضلال) ، الذي نقض فيه الباطنيّة ، و (تهافت الفلاسفة) ، « الذي استعان فيه على العقل بجميع فنون العقل »^(٥٣) .

لند أمضى الغزالي عمره يجاهد ويعمل ويؤلّف في سبيل ما اعتقد أنّه الحقّ ، ويصنّف الإسلام ممّا لحق بأصوله من بدع وانحراف عن الأصول ، ليظهر حقّه على باطل المبطلين ، ويقود سفينة الإيمان إلى شاطئ السّلام ، ممّا أضفى عليه لقب : (حجة الإسلام) .

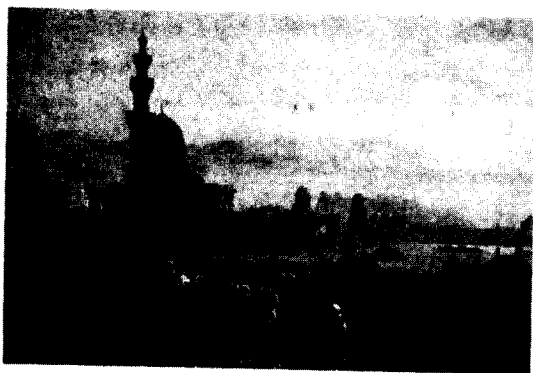
(٥٢) أبو حامد محمد الغزالي (أو الغزالي) ، مولده ووفاته بطوس (ضواحي مشهد اليوم) : [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م] ، مرّت ترجمته مفصّلة .

(٥٣) قصّة الحضارة ٣٦٤/١٣

يقول ول ديورانت : « إِنَّ أبا حامد الغزالي أعظم فقهاء المسلمين قاطبة ، وإنَّه ينزل من فقه الإسلام منزلة (أوغسطين) في اللاهوت النصراني ، أو (كانت) من فلسفة الاستشراف ، وإنَّ الغزالي نِدُهُ ونظيره في قدرة الجدل ، وإنَّه سبق الفيلسوف (هيوم) الإنكليزي بسبعة قرون ، إذ إنَّه ردَّ قدرات العقل إلى منطق السَّبِيَّةِ » ^(٥٤) .

وخلاصة الرأْي في الاتِّصال الغيبي عند الغزالي أَنَّ العلم السَّديد بالحقِّ الأزلي الثَّابت ، وطبيعة الخير والشرِّ ، وهي جميعاً ممَّا نزل به القرآن الكريم ، وأوحى به إلى الأنبياء ، وأهل القداسة بفيض من الله ، يمكن لكلِّ إنسان أن يصل إليه ، لا عن طريق العقل ، بل عن طريق الرُّوح واستعلائها ، والاتِّصال بالله عزَّ وجلَّ بالزُّهد والنُّسك والوجد القلبي .

• لوحة من بداية القرن التاسع عشر
للقاهرة ، كما سجَّلها الفنَّان :
(ديفيدوبرتس)



القَاهِرَةُ :

دُرِّسَ في (الفسطاط) قبل بناء القاهرة ^(٥٥) ، الإمام الشَّافعي ، واشتهر فيها أيضاً عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام ، وأمُّ الخير الحجازيَّة [ت ٤١٠ هـ] ، الَّتِي اختصَّت بتعليم النِّساء .

(٥٤) المرجع السابق ٣٦٤/١٣ أيضاً .

(٥٥) بُنيت الفسطاط منذ الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص ، ودخل المعز الفاطمي القاهرة بعد

أن بناها جوهر الصَّقْلِي في ٧ رمضان ١٣٦٢ هـ = ١١ حزيران (يونيه) ٩٧٣ م .

لقد اختصّت القاهرة بأزهرها ، الذي اختصّ بالعلوم الدّينيّة والكونيّة والطّبيعيّة ، وبرز فيها :

جلال الدّين السيوطي^(٥٦) : الذي ترك ستّ مئة مصنّف ، منها الكتاب الكبير ، والرّسالة الصّغيرة ، من كتبه : (الإتيقان في علوم القرآن) ، و (إتمام الدّراية لقراء النّقاية) ، و (الأشباه والنّظائر) ، و (الإكليل في استنباط التّنزيل) ، و (تاريخ الخلفاء) ، و (تفسير الجلالين) ، و (تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك) ، و (جمع الجوامع) ، ويعرف بالجامع الكبير ، و (حُسْنُ المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) ، و (الدّر المنثور في التفسير بالمأثور) ..

وابن حَجَر العسقلاني^(٥٧) : الذي ولع بالأدب والشّعْر ، ثمّ أقبل على الحديث الشّريف ، وأصبح حافظ الإسلام في عصره ، قال السّخاوي : « انتشرت مصنّفاته في حياته ، وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر » .

من كتبه : (الدّر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة) ، و (لسان الميزان) ، و (الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام) ، و (الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة) ، و (إنباء الغمر بأبناء العمر) ، و (الإعلام في مَنْ ولي مصر في الإسلام) ، و (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) .

القَيَرَوَانُ :

اشتهرت القيروان بالفقه المقارن على يد أسد بن الفرات^(٥٨) ، الذي رحل إلى

(٥٦) عبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطي : [٨٤٩ - ٩١١ هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠١ م] .

(٥٧) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني : [٧٧٣ - ٨٥٢ هـ = ١٣٧٢ - ١٤٤٩ م] .

(٥٨) أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان : [١٤٢ - ٢١٣ هـ = ٧٥٩ - ٨٢٨ م] ، تولّى قضاء القيروان سنة ٢٠٤ هـ ، واستعمله زيادة الله الأغلب على جيشه وأسطوله ووجّهه لفتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، فهو أوّل من فتح صقلية ، وتوفّي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة برّاً وبحراً .

الشَّرق في طلب الحديث سنة ١٧٢ هـ ، وفي الحجاز قابل إمام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، وشهد حلقاته ، وكتب عنه ، ومضى إلى العراق فوجد في أبي عبد الله محمد بن الحسن الشَّيباني من العناية به ، والرَّعاية لشأنه ماسدَّ خطاه ، ومضى به نحو غايته ، وهكذا قَدَّر لابن الفرات أن يدرس المذهبَيْن الكبيرَيْن السَّائِدين في العالم الإسلامي إذ ذاك ، مذهب أهل الحديث في المدينة المنورة ، ومذهب أهل الرَّاْي في بغداد .

اتَّخذ ابن الفرات القيروان مقرّاً له بعد عودته ، فأقبل النَّاس يتلمَّسون حصيلة الرِّحلة العلميَّة الطَّويلة ، فكان يجلس إليه أتباع مذهب مالك ، وأصحاب المذهب العراقي ، فيأخذ في عرض مذهب أبي حنيفة ، وشرح أقوال العراقيين ، فإذا فرغ منها صاح صائح من جانب المجلس : « أوقد المصباح الثَّاني يا أبا عبد الله » ، فيأخذ في إيراد مذهب مالك ، وشرح أقوال أهل المدينة المنورة ، فكان هذا نهجاً جديداً في دراسة الفقه المقارن ، اتَّسعت دراسته في القيروان .

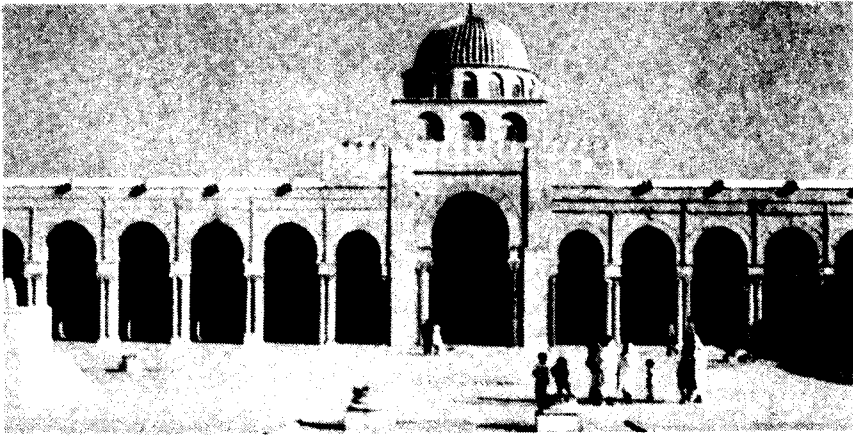
وسَحَنُون : عبد السَّلام بن سعيد بن حبيب التَّنُوخي : [١٦٠ - ٢٤٠ هـ / ٧٧٧ - ٨٥٤ م] ، الَّذي انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب ، مولده في القيروان ، ولي القضاء بها سنة ٢٣٤ هـ واستمر إلى أن مات ، روى (المدونة) في فروع المالكيَّة عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن الإمام مالك .

قُرْطَبَة :

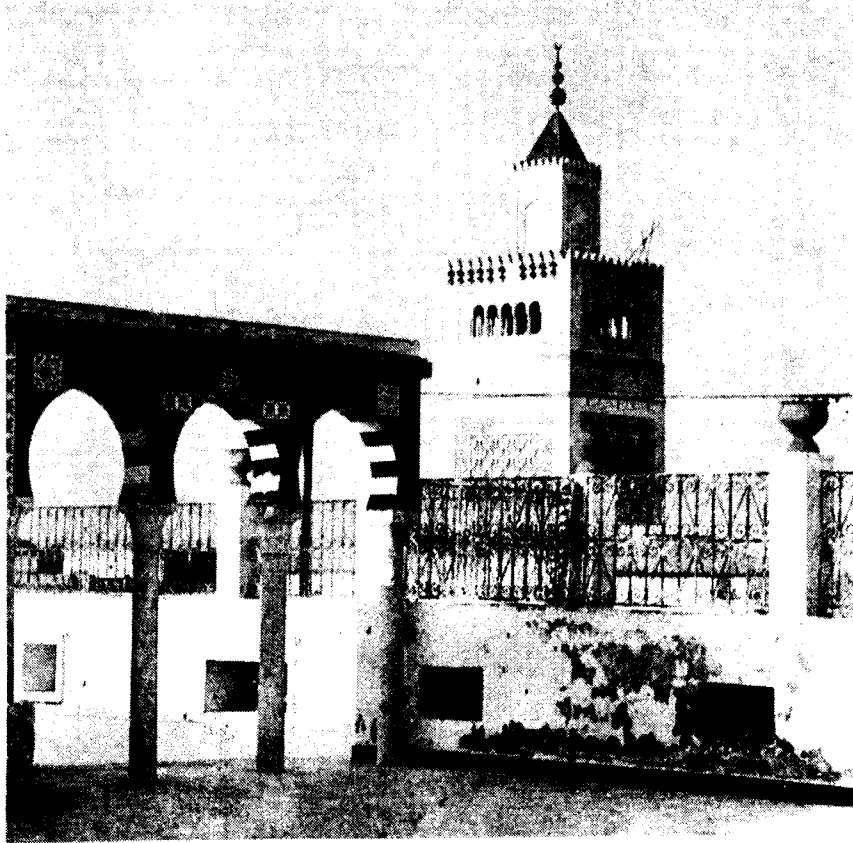
اشتهر فيها :

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظَّاهري^(٥٩) : عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمَّة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه ، يقال لهم : (الْحَزْمِيَّة) .

(٥٩) ابن حزم : [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] .



المسجد الكبير (القيروان)



جامع الزيتونة (القيروان)

كان ابن حزم على رأس الباحثين ، فقيهاً حافظاً ، يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة ، قال ابنه الفضل : اجتمع عندي بخط أبي من تأليفه نحو أربع مئة مجلد ، تشتمل على ثمانين ألف ورقة ، وكان يقال : « لسان ابن حزم ، وسيف الحجاج شقيقان » ، وأشهر مصنفاته : (الفصل في الملل والأهواء والنحل) في خمسة أجزاء ، و (المَحَلَّى) في أحد عشر جزءاً .^٥

وابن طفيل : محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي^(٦٠) ، طبيب السلطان أبي يعقوب يوسف الموحد ، وهو صاحب القصة الفلسفية (حي بن يقظان) ، قال المراكشي في المعجب : رأيت له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك ، ورأيت بخطه رسالة في (النفس) ، وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به ، والحب له ، يقيم عنده ابن طفيل أياماً ، ليلاً ونهاراً ، لا يظهر ، واستمر إلى أن توفي بمراكش ، فحضر السلطان جنازته ، وله (رجز في الطب) في أكثر من سبعة آلاف وسبع مئة بيت ، وله شعر جيد أورد المراكشي نماذج منه ، وكانت بينه وبين ابن رشد (الفيلسوف) مراجعات ومباحث .

وابن رشد : أبو الوليد محمد بن رشد^(٦١) ، الذي قدّم شروح أرسطو إلى أوربة ، لقد درس ابن رشد في صباه الدين ، والشريعة ، والرياضيات ، والطب ، والفلسفة ، أخذاً عن كبار علماء عصره في الأندلس ، من أمثال ابن طفيل ، وابن زهر أعظم أطباء المسلمين في عصره ، وكان لابن رشد طريقته المبتكرة في البحث العلمي ، تجرّد فيها من مشاعر النفس ، واهتدى بهدى العقل ، حتّى قيل عنه في أوربة : إنّ طريقته في البحث دليل قاطع على نبيله ، واستقامة أخلاقه ، واستواء ذهنه .

ظلّ اهتمام أهل أوربة بابن رشد ذا أثر في ثقافتهم حتّى أواسط القرن التاسع عشر .^{٢٠}

(٦٠) ابن طفيل : [٤٩٤ - ٥٨١ هـ = ١١٠٠ - ١١٨٥ م] .

(٦١) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد : [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨ م] .

الميلادي ، ففي سنة ١٨٥٩ م نُشِرت مقالته في الشريعة والحكمة ، وهي الرسالة المشهورة باسم : (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ، وظهرت ترجمة ألمانية في سنة ١٨٧٥ م ، وليس من شيء أدل من هذا على اتصال أثره من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي عند الغربيين ، ولا شك أن ترجمة تعليقاته على أرسطو كانت الأساس الذي قامت عليه فلسفة الكلام عند النصارى .^٥

ومن الترجمات التي اهتم بها الغربيون ، كتابه (الكلّيات) في الطب ، الذي ظلّ متناً للتدريس في الجامعات الغربية زمناً طويلاً ، و (تهافت التهافت) الذي ردّ به على الإمام الغزالي ، ومما يؤثر عنه في الطب أنّه كان أوّل من كشف عن وظيفة الشبكية في العين ، وقوله إنّ الإصابة بالجذري تولّد في الجسم مناعة من هذا المرض .

أتبع في شروحه على أرسطو أسلوب التّأليف الذي جرى عليه العلماء في الجامعات الإسلامية ، فبدأ بملخص عن أرسطو ، وعقب عليه بتعليقات مختصرة ، ثمّ ختم بشروح مطوّلة ينتفع بها المتقدّمون في استيعاب الحكمة .^{١٠}

وذهب في كتابه (تهافت التهافت) نفس المذهب الذي انتحله فيما بعد (فرنسيس باكون : ١٥٦١ - ١٦٢٦ م) ، فقال : إنّ الدّرس والتّفكير ، قد يقودان إلى فهم أقوم لما بين الدّين والحكمة من صلة ، وله في ذلك آراء ترفعه ولا شك إلى طبقة المعتدلين من أحرار الفكر ، وكان ذلك في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي .^{١٥}

العلوم النّقليّة :

روى البخاري حديثاً عن رسول الله ﷺ ، ظهر فيه بدء التّخصّص في العلوم النّقليّة^(١) ، على يد كبار الصّحابة رضي الله عنهم ، جاء في الحديث الشّريف : « أرحم

(١) وتسمّى أيضاً العلوم الشرعيّة ، أو العلوم الدّينيّة ، واخترت اسم العلوم النّقليّة لأنّ كل العلوم المفيدة النّافعة في كلّ المجالات ، هي علوم شرعيّة يأمرنا الدّين بإتقانها .

أُمِّي بِأُمِّي أَبُو بَكْر ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عَمْر ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عَثَان ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِي ،
وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مَعَاذ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِت ^(٢) ، وَأَقْرَأُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ
كَعْب ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِين ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عَبِيدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ . وَالْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ
هِيَ :

عِلْمُ الْقِرَاءَاتِ : وَهِيَ سَبْعُ قِرَاءَاتٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَسَبَبُهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
سَمَحَ لِلْعَرَبِ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَسَبَ لَهْجَاتِهِمْ ، وَلَطَبِيعَةِ الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ ، إِذَا كَانَ غَيْرَ
مَنْقُوطٍ ، وَلَا حَرَكَاتٍ فِيهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ٤٦ : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ
غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ، وَتَقْرَأُ أَيْضاً : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

وَمِنْ أَشْهُرِ أَصْحَابِ الْقِرَاءَاتِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ يَحْيَى بْنُ الْحَارِثِ الذَّمَّارِيُّ (ت ١٤٥ هـ) ، وَحَمْزَةُ بْنُ حَبِيبِ الزِّيَّاتِ (ت ١٥٦ هـ) .

التَّفْسِيرُ : وَهُوَ إمَّا بِالْمَأْثُورِ ، وَهُوَ مَا أَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكِبَارِ الصَّحَابَةِ ،
وإمَّا التَّفْسِيرُ بِالرَّأْيِ ، وَهُوَ مَا كَانَ يَعْتَمَدُ عَلَى الْعَقْلِ وَعِلْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاعْتَمَدَ الْمَعْتَزِلَةُ
وَالْبَاطِنِيَّةُ هَذَا النُّوعَ مِنَ التَّفْسِيرِ .

وَمِنْ أَشْهُرِ الْمَفْسِّرِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ت ٣٢ هـ) ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ (ت ٦٩ هـ) ، وَالسُّدِّيُّ (ت ١٢٧ هـ) ، وَالطَّبْرِيُّ (ت ٣١٠ هـ) ،
وَالْقُرْطُبِيُّ (ت ٦٧١ هـ) ..

الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ : وَهُوَ مَا أَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ
لشَيْءٍ رآه ، وَيَأْتِي بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَهَمِّيَّةً ، وَمِنْ أَشْهُرِ مُصَنِّفِي كِتَابِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ
الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، والإمامان محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ،
ومسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١ هـ) ، وأبو داود السجستاني (ت ٢٥٦ هـ) .

(٢) أي أعلمهم بعلم الفرائض ، وهي الموارث .

٢٧٥ هـ) ، وأبو عيسى محمد الترمذي (ت ٢٧٨ هـ) ، والنسائي (ت ٣٠٣ هـ) ، وابن ماجه (ت ٢٧٥ هـ) .. ومن رواية الحديث الشريف محمد بن إسحاق صاحب المغازي .

الفقه : نشأ عن دراسة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وعن التعرف على معانيها الخاصة الحاجة إلى تعلم النحو واللغة ، وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلي الذي عُدَّ أحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص ، كما تطلب فهم اللغة العربية ، ودراسة الأنساب ، والتاريخ .. تلك العلوم التي مالبثت أن أصبحت على مرَّ الزمن علوماً مستقلة .

ولكن اختلاف أئمة الفقه في فهم بعض النصوص الفقهية ، واستنباط الأحكام منها ، أدى إلى تعدد المذاهب أو المدارس ، كمدرسة أهل الحديث في المدينة المنورة ، وعلى رأسها الإمام مالك الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة ، ومدرسة أهل الرأي في العراق ، وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة الذي كان يعتقد بالرأي .

ومنَّ اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك : محمد بن الحسن الشيباني في العراق ، ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس ، وأسد بن الفرات في القيروان ، ومن أشهر الأئمة أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، الذي جمع بين مدرستي النقل والعقل بما أوتيته من سعة العقل والقدرة على الابتكار ، وأحمد بن حنبل ، وأبو يوسف القياضي ، ١٥ والليث بن سعد ..

علم الكلام : نشأ هذا العلم في العصر العباسي ، ويقصد به الأقوال التي كانت تصاغ على غلط منطقي أو جدلي ، وكان من أثر ذلك أن أخذت كل مدرسة تدافع عن عقيدتها ، وتعمل على دحض الأدلة التي وردت في عقائد مخالفيها ، وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين في قصور الخلفاء ، وفي المعاهد الدينية ، كالمساجد ، وغير الدينية ٢٠ كبيت الحكمة .

ويرجع ابن خلدون سبب تسمية هذا العلم بهذا الاسم « لما فيه من المناظرة على البدع ، وهي كلام صرف ، وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه تنازعهم في إثبات الكلام النفسي »^(٣) .

ومن أشهر المتكلمين واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم بن سيّار النّظام ، وأبو الحسن الأشعري ، وحجّة الإسلام الغزالي .

ومن علوم اللغة العربيّة :

النّحو : نشأ علم النّحو في البصرة والكوفة ، وفيهما نشأت مدرستا النّحويين واللّغويين ، وكان أبو الأسود الدؤليّ أوّل من اشتغل بالنّحو في العصر الأموي . ومن علماء النّحو المبرّزين الخليل بن أحمد الفراهيدي ، واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين »^(٤) ، الّذي يُعدّ أوّل معجم وُضع في اللّغة العربيّة . ثمّ وضع الجوهري معجم « الصّحاح » ، الّذي اختصره الرّازي في كتاب « مختار الصّحاح » ، ثمّ وضع أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم بن منظور « لسان العرب » ، ووضع الفيروزبادي « القاموس المحيط » .

وألف محمد بن مالك الأندلسي أرجوزة في النّحو ، عُرفت باسم « ألفيّة ابن مالك » .

الأدب : اشتهر من شعراء المسلمين في صدر الإسلام حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وفي العصر الأموي يزيد بن معاوية ، لذلك قيل : « بُدئ الشعر بملك - يعنون امرأ القيس - وختم بملك - ويعنون يزيد بن معاوية - »^(٥) . ولعلّت أسماء أمراء الشعر العربي في العصر العبّاسي ، كالحسن بن هانئ

(٣) مقدّمة ابن خلدون ، ص ٤٠٦

(٤) سُمّي « بالعين » ، لأنّه ابتداء بحرف العين .

(٥) قال أبو هلال العسكري في كتابه الصّناعيّتين : الشعر ديوان العرب ، وخزائن حكمتها ، ومستودع علومها .

« أبي نواس » ، وأبي تمام الطائي ، وأبي عبادة الوليد البحتري ، وأبي الحسن علي بن عباس بن الرُّومي ، وأبي العتاهية ، وأبي الطيّب أحمد بن الحسين المتنبي ، وأبي العلاء المعري ، والشّريف الرّضي ، وعمر الخيّام صاحب الرُّباعيّات ..

أمّا في مجال النثر ، فقد نشأ أدبُ الرّسائل بين القادة والأُمراء والعَمّال ومركز الخلافة بعد فتح الجبهات ، واتّسع رقعة الدّولة . ويعبد عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) مؤسّس الكتابة الفنّيّة ، وواضع أصولها وقواعدها ، حتّى قيل : « بدئت الكتابة بن عبد الحميد ، ومن الكتّاب : ابن قتيبة ، صاحب كتاب « أدب الكاتب » ، وعمر بن بحر الجاحظ ، صاحب كتاب « الحيوان » ، و « البيان والتبيين » ، وابن مقلّة ، وابن العميد ، والصّاحب بن عبّاد ، وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال الحرّاني ، وبديع الزّمان أحمد بن الحسين الهمداني .



لاربية في أنّ ابن رشد كان يذهب إلى أنّ الشّريعة متّمة للطّبع البشري ، وعلى هذا قام مذهبه في أنّ اتّصالاً بين الشّريعة والعقل الّذي هو مصدر الحكمة ، لا بدّ من أن يظلّ قائماً ، وإلّا امتنع على الشّريعة أن تسائر الطّبع ، وأفلت الطّبع من طوق الشّريعة .



الْعُلُومُ الاجْتِمَاعِيَّةُ :

التّاريخ :

التّاريخ لغةً : التّعريف بالوقت ، يقال : أرخ الكتاب وورّخه ، أي بيّن وقت كتابته ، وتاريخ الشّيء : وقت حدوثه .

والتّاريخ : هو العِلْمُ الّذي يتضمّن ذكر الوقائع وأوقاتها وأساليبها ، ومظاهر

الحضارة وازدهارها ، وعوامل اضمحلالها وانهارها ، والتاريخ موضوعه الإنسان والزمان معاً .

والمؤرخ : هو كاتب التاريخ ، والمؤرخون المسلمون أول من أرخ حوادثه باليوم والشهر والسنة ، كما ربطوا تاريخهم بكل العلوم : الآداب ، والسياسة ، والاجتماع ، والفقه ، والجغرافية والرحلات .. فكان بحق (علم العلوم) ، واهتموا بتدوينه لرغبتهم في معرفة تاريخهم السياسي ، وسيرة أعلامهم وزعمائهم ، ولرغبتهم في معرفة كل ما يتصل بحياة رسول الله ﷺ ، من أعمال وأقوال ، ليستعينوا بها على تفسير القرآن الكريم ، ولتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة على تسجيل حوادث زمانهم ، لتطلع عليها الأجيال القادمة .

لذلك ، نشأ التاريخ العربي الإسلامي نشأة طبيعية ، يمكن عدّها استجابة لحاجة المجتمع العربي الإسلامي ، لقد بدأ تدوين التاريخ خلال القرن الأول للهجرة ، منذ مطلع العصر الأموي ، ويجب ألا يفوتنا أن مؤرخينا لم تكن غالبيتهم من المؤرخين الرسميين - كما يدعى أحياناً - الذين يدونون التاريخ لحليفة أو أمير ، مما جعل تأليفهم ذات قيمة علمية ، ويمكن القول بحزم وعلمية : إن حظّ جمهرة مؤرخينا العرب المسلمين من النزاهة والحياد لا سبيل إلى جحوده .

الكتب التاريخية :

القصص التاريخية ، وأيام العرب : قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا .

ومن كتاب هذا الصنف من الكتب التاريخية :

عبيد بن شريّة الجرمي [ت ٦٧ هـ = ٩٨٦ م] : أول من صنف الكتب من

العرب . وهو يعني أدرك رسول الله ﷺ ، لكنه لم يسمع منه شيئاً ، استحضره معاوية بن أبي سفيان من صنعاء إلى دمشق ، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم ، فحدثه ، فأمر معاوية بتدوين أخباره ، فأملى كتابين ، سُمي أحدهما : (كتاب الملوك وأخبار الماضين)^(٦) ، والثاني : (كتاب الأمثال) .

٥ ووهب بن مُنبّه [ت ١١٤ هـ = ٧٣٢ م] : الذي يَعُدُّ في التابعين ، ولد ومات بصنعاء ، وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها ، من كتبه : (ذكر الملوك المُتَوَجِّه من حِمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشجارهم) ، رآه ابن خلكان في مجلد واحد ، وله : (قصص الأنبياء) ، و (قصص الأخيار) .

كتب المغازي والسيرة : بحث في غزوات رسول الله ﷺ وسيرته ، ومن كتبها :

١٠ أبنان بن عثمان [ت ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م] : أول من كتب في السيرة النبوية ، وهو ابن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ، مولده ووفاته في المدينة المنورة ، وكان من رواة الحديث الثقات ، ومن فقهاء المدينة المنورة أهل الفتوى ، دَوَّن ما سمع من أخبار السيرة النبوية والمغازي ، وسَلَّمها إلى سليمان بن عبد الملك في حجة سنة ٨٢ هـ ، فأتلفها سليمان .

١٥ ويمكننا القول : إنَّ التَّأليف العلميَّ بدأ بكتابة سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه .

محمد بن عمر الواقدي [ت ٢٠٧ هـ = ٨٢٣ م] : من أقدم المؤرخين في الإسلام ، ومن أشهرهم ، ولد بالمدينة المنورة ، وانتقل إلى العراق سنة ١٨٠ هـ في أيام الرشيد ، فولي القضاء شرقي بغداد ، واستمرَّ إلى أن توفِّي بها . من كتبه : (المغازي النبوية) ، و (فتح العجم) ، و (فتح مصر والإسكندرية) ، و (أخبار مكّة) ،

(٦) طُبِعَ مع كتاب (التيجان وملوك حِمير) تحت عنوان : (أخبار عبيد بن شَرِيَّة في أخبار الين وأشعارها وأنسابها) ، الأعلام ١٨٩/٤ ، فهرست ابن النديم ٨٩ ، وإرشاد الأريب ١٠/٥٥

و (الطَّبَقَات) ، و (فتوح العراق) ، و (سيرة أبي بكر ووفاته) ، و (تاريخ الفقهاء) ، وينسب إليه كتاب (فتوح الشَّام) ، وأكثره ممَّا لا تصحُّ نسبته إليه .

قال الخطيب البغدادي : كان الواقدي كلِّما ذُكِرَتْ له وقعة ، ذهب إلى مكانها فعابنه ^(٧) .

يقول الواقدي : ما أدركت رجلاً من أبناء الصَّحابة ، وأبناء الشُّهداء ، ولا مولى لهم إلاَّ وسألته : هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده ، وأين قُتِلَ ؟ فإذا أعلمتني مضيت إلى الموضع فأعابنه ، ولقد مضيت إلى المريسيع ^(٨) فنظرت إليها ، وما علمت غزاة إلاَّ مضيت إلى الموضع حتَّى أعابنه .

انقسم النُّقَّدة في حكمهم على الواقدي ، بين مَادِح وقَادِح ، فقد وثَّقه مالك ، ثمَّ نال منه كثيرون من المحدثين لأنَّه لم يكن يتقيَّد بمذهبهم ، بل أخذ من الكتب والصُّحف ، ولم يسمع من الرُّواة .

عروة بن الزبير بن العوام (٢٢ - ٩٣ هـ = ٦٤٣ - ٧١٢ م) : أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة ، أمُّه أسماء بنت أبي بكر (ذات النِّطَاقَيْن) ، وهو أخ شقيق لعبد الله بن الزبير ، نشأ في المدينة المنورة ، واستقى أخباره من أبيه وأمِّه وخالته عائشة أمَّ المؤمنين ، وعن كبار الصَّحابة الكرام ، كزَيْد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وأبي هريرة (عبد الرَّحْمَنِ بن صخر الدَّوسِي) ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبَّاس .

لم ينغمس كأخويه عبد الله ومصعب في شؤون السِّياسة ، كان كثير الحديث ، ثقة

(٧) تذكرة الحفاظ ٣١٧/١ ، وفيات الأعيان ٥٠٦/١ ، وتاريخ بغداد ٢١-٢٣ ، وميزان الاعتدال ١١٠/٣ ،

وعيون الأثر ١٧/١ ، وتهذيب التهذيب ٣٦٢/٩-٣٦٨

(٨) المَرِّيْسِيْعُ : اسم ماء في ناحية قُدَيْد إلى ساحل البحر الأحمر بين مكَّة والمدينة للنُّوْرة ، (معجم البلدان ١١٨/٥) .

فما يرويه ، وكان يدوّن علمه ، روى عنه كثيرون ، ولم يصلنا ممّا رواه من أخبار وأحاديث سوى ما عثرنا عليه في تأليف محمد بن إسحاق ، والواقدي ، والطّبري .

محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١ هـ = ٧٦٨ م) : شيخ مؤرّخي السيرة والمغازي ، ومن أقدم مؤرّخي العرب ، نشأ في المدينة المنورة ، له : (السيرة النبوية) التي هدّبها ابن هشام ، و (كتاب الخلفاء) ، و (كتاب المبدأ والمبعث والمغازي) ، هـ . سكن بغداد فمات فيها ودفن بمقبرة الخيزران أم الرّشيد .

قال ابن حبّان : لم يكن أحسنه بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه ، أو يوازيه في جمعه ، وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار^(٩) .

عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري (ت ٢١٨ هـ) : هدّب سيرة ابن إسحاق ، نقلها عن تلميذه زياد البكائي (ت ١٨٣ هـ) ، وذكر المؤرّخون أنّه وضع ١٠ كتاباً في قصص الأنبياء وملوك عرب الجنوب ، دعاه كتاب التّيجان .

كتب الطبقات : التي اعتمدت تصنيف المحدثين حسب أهميّتهم في رواية الحديث ، ثمّ صنّف المؤرّخون على الطّريقة ذاتها كتباً في طبقات الصّحابة أو الأطبّاء أو الشعراء .. وأشهر هذه الكتب :

(الطبقات الكبرى)^(١٠) محمد بن سعد بن منيع الزّهرري (١٦٨ - ٢٣٠ هـ = ٧٨٤ - ١٥٨٤ م) : وهو مؤرّخ ثقة ، من حفاظ الحديث ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد فتوفّي فيها .

صحاب ابن سعد الواقدي زماناً ، فكتب له وروى عنه ، وعُرف بكتاب الواقدي ، فضلته الكبير في صحبته ونشر علمه ، قال الخطيب البغدادي : محمد بن سعد عندنا من

(٩) تذكرة الحفاظ ١/١٦٣ ، تاريخ بغداد ١/٢١٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ١/٨٨٧ ، وتهذيب التهذيب ٩/٣٨٧

(١٠) وهو في اثني عشر جزءاً ، ويعرف بطبقات ابن سعد .

أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فإنه يتحرى في كثير من رواياته^(١١) .

أورد ابن سعد في القسم الأول من (الطبقات الكبرى) أنباء الأنبياء ، كما ذكر نسب رسول الله ﷺ وسيرته ومغازيه ، راوياً ما أورد في هذا القسم عن جهرة علماء السيرة كالشَّعبي ، والأوزاعي ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق ، والواقدي .

وفي القسم الثاني عني ابن سعد في تدوين أخبار أصحاب رسول الله ﷺ ، والتابعين ، والخلفاء إلى زمانه^(١٢) .

واستفاد ابن سعد مما تعرَّض له أستاذه الواقدي من نقد علماء الحديث ، فتجنَّب المطاعن التي وجَّهت إليه ولابن إسحاق من قبله ، علاوة عن أنه لم ينغمس في الفتنة التي ذرَّقرنها منذ عصر المأمون ، وهي إجبار الناس على القول بخلق القرآن ، فرضي المحدثون عنه ، لأنه تقيَّد بمبادئهم في الكتابة^(١٣) .

و (طبقات الشعراء)^(١٤) لمحمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م) : إمام في الأدب ، من أهل البصرة ، مات ببغداد ، وكان يقول بالقدر ، فقال أهل الحديث : يُكْتَبُ عنه الشعر ، أمَّا الحديث فلا .

و (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)^(١٥) لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ = ١٢٧٠ م) : كان مقامه في دمشق ، مع أنه عُيِّن طبيباً في البيارستان

(١١) تاريخ بغداد ٣٢١/٥ ، الوافي بالوفيات ٨٨/٣ ، وتهذيب التهذيب ١٨٢/٩

(١٢) نهاية خلافة المعتصم بالله ، قال ابن سعد : والله لونداني مناد من السماء : إنَّ الله أحلَّ الكذب ، ما كذبتُ .

(١٣) وهي العناية بالإسناد .

(١٤) (طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين) ، انظر : لسان الميزان ١٨٢/٥ ، تاريخ بغداد ٣٢٧/٥ ،

وفهرست ابن النديم ١١٣ ، وطبقات النحويين واللغويين ١٩٧ ، والوافي بالوفيات ١١٤/٣

(١٥) انظر : النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٦٩/١ ، وأدباء الأطباء ٥٢/١

النَّاصِرِي فِي الْقَاهِرَةِ سَنَةِ ٦٣٤ هـ ، فَبَقِيَ عَاماً وَاحِداً ، عَادَ بَعْدَهَا إِلَى دِمَشْقَ ، وَفِيهَا صَنَّفَ كِتَابَهُ (طَبَقَاتُ الْأَطْبَاءِ) ، الَّذِي أَتَمَّهُ سَنَةَ ٦٦٧ هـ ، أَيَّ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِسَنَةِ وَاحِدَةٍ .

بَلَغَ عِدَدُ أَطْبَاءِ الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِينَ كَتَبَ عَنْهُمْ ابْنُ أَبِي أُصَيْبَةَ كِتَابَةً دَقِيقَةً أَرْبَعَ مِائَةٍ ، كَمَا أَثْبَتَ فِي نَهَايَةِ تَرْجُمَةِ كُلِّ طَبِيبٍ الْكُتُبَ الَّتِي عَزَيْتَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الثَّقَةِ حَدّاً كَبِيراً .

وَلابنُ أَبِي أُصَيْبَةَ ثَلَاثَةَ كُتُبٍ لَمْ يُعْتَزَّ عَلَيْهَا ، وَهِيَ : كِتَابُ حِكَايَاتِ الْأَطْبَاءِ فِي عِلَاجَاتِ الْأَدْوَاءِ ، وَكِتَابُ إِصَابَاتِ الْمُنَجِّمِينَ ، وَكِتَابُ التَّجَارِبِ وَالْفَوَائِدِ .

كُتِبَ الْفُتُوحُ : الَّتِي أَهْمَّتْ بِفَتْوحِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، مِثْلَ (فَتُوحِ الشَّامِ) الْمُنْسُوبِ لِلْوَاقِدِيِّ ، وَ (فَتُوحِ الْبُلْدَانِ) لِأَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى بْنِ جَابِرِ الْبَلَاذِرِيِّ .
(ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) ، وَهُوَ مُؤَرِّخٌ ، جُغْرَافِيٌّ ، نَسَّابَةٌ ، مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ ، جَالِسُ الْمُتَوَكَّلِ ، وَمَاتَ فِي أَيَّامِ الْمَعْتَدِ^(١٦) ، وَمِمَّا تَجَدَّرُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، أَنَّ الْبَلَاذِرِيَّ يَشِيرُ أَثْنَاءَ سَرْدِهِ لِلْحَوَادِثِ إِلَى تَارِيخِ الْحَضَارَةِ وَالنُّظُمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، كَذِكْرِهِ تَعْرِيبَ الدَّوَاوِينِ ، وَمَسَائِلِ الْخَرَاجِ ، وَاسْتِعْمَالَ الْخَاتَمِ ، وَأَمْرِ السَّكَّةِ وَتَدَاوُلِهَا ، وَتَارِيخِ الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ .

التَّرَاجِمُ : وَتَبَحُّثُ فِي حَيَاةِ مَشَاهِيرِ الرِّجَالِ ، مِثْلُ : (أَسْدُ الْغَابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ) لِابْنِ الْأَثِيرِ ، وَ (مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ)^(١٧) لِيَاقُوتِ الْحَمَوِيِّ .
(ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : مُؤَرِّخُ ثَقَةٍ ، وَمِنْ أُمَّةِ الْجُغْرَافِيِّينَ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ بِاللُّغَةِ وَالْأَدَابِ ، وَمِنْ كُتُبِهِ : (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ) ، وَ (الْمُقْتَضَبُ مِنْ كِتَابِ جُمُهِرَةِ النَّسَبِ) ، وَ (الْمَبْدَأُ وَالْمَالُ) فِي التَّارِيخِ ، وَكِتَابُ (الدُّوَلِ) ، وَ (مَعْجَمُ الشُّعْرَاءِ) .

(١٦) لِسَانُ الْمِيزَانِ ٣٢٢/١ ، وَدَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ ٥٨/٤

(١٧) وَاسْمُهُ : (إِرْشَادُ الْأَرِيبِ) ، وَيَعْرِفُ بِمَعْجَمِ الْأَدْبَاءِ ، انْظُرْ : وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٢١٠/٣ ، مِرْآةُ الْجَنَانِ ٥٩/٤

الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧٢ م) : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين ، صنّف أكثر من ستين كتاباً في علوم شتى ، ولكن غلب عليه الحديث والتاريخ ، قال ابن خلكان : لو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه ، فإنه يدلُّ على اطلاع عظيم^(١٨) .

٥ أمّ كتبه وأشهرها : (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) ، وهو من أمّهات المراجع التي لا غنى في دراسة تاريخ الدولة العباسية في فترة نيفت على ثلاثة قرون^(١٩) ، ويشمل هذا الكتاب وصفاً مستفيضاً لعاصمة العباسيين ، كما يطلعنا على سير من تعاقب عليها من خلفاء ، ومن عاش فيها من الأمراء والوزراء ، أو من أمّها أو غادرها من أولي الفضل والعلم^(٢٠) .

١٠ ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ = ١١٧٦ م) : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي ، أمّ كتبه (تاريخ دمشق) الذي جمع فيه تراجم كلّ الرجال الذين كانت لهم صلة بدمشق ، مقتدياً في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) ، ولكن كتاب ابن عساكر بلغ الثمانين مجلداً^(٢١)

١٥ ابن بشكّوَال (ت ٥٧٨ هـ = ١١٨٣ م) : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكّوَال ، كتابه : (كتاب الصلّة في تاريخ رجال الأندلس)^(٢٢) ، وهو معجم ذكر فيه سير علماء الأندلس ، أنجزه سنة ٥٣٤ هـ ، وله كتاب : (الغوامض

(١٨) وفيات الأعيان ٩٢/١

(١٩) من تاريخ بناء بغداد سنة ١٤٥ هـ ، وحتى وفاة الخطيب البغدادي سنة ٤٦٣ هـ ، وذلك ضمن أربعة عشر جزءاً .

(٢٠) تحليل نصوص تاريخية ، د . صلاح مدني ، ص ٣٦ ، جامعة دمشق ، كتيبة الآداب ، قسم التاريخ ، طبعة : ١٩٥٩ - ١٩٦٠ م .

(٢١) اختصره ابن منظور ، صاحب لسان العرب في ٢٩ جزءاً ، طبعت كاملة في (دار الفكر) بدمشق ما بين : ١٩٨٤ - ١٩٨٩ م .

(٢٢) ويرد اسمه أيضاً : كتاب الصلّة في تاريخ أئمة الأندلس .

والمبهمات من الأسماء) ، ذكر فيه من جاء اسمه في الحديث مبهماً فعينه . كالأسماء العسيرة التهجية ، أو التي كثيراً ما تختلط بغيرها من الأسماء .

ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) : أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الإربلي ، المؤرخ الحجة ، والأديب الماهر ، كتابه : (وقفات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان) من أشهر كتب التراجم ، ومن أحسنها ضبطاً ، وإحكاماً ، وكان منهجه في البحث : جمع المعلومات من الكتب ومن أساتذته ومن مشاهداته ، مع النقد والتعليق ، ثم الامتناع عن ذكر تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء ، لأن الكتب المصنفة في تراجمهم فيها الكفاية ، ثم لم يترجم إلا للذين وقف على سني وفاتهم ، ثم رتب أسماء الأعلام الذين ترجم لهم على حروب الهجاء .

المقري (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م) : أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقري ، كتابه : (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) ، طريقته في التأليف التاريخي طريقة فذة ، فهو يجمع عن الشخصية المترجم لها الأخبار الكثيرة ، والمعلومات المستفيضة ، ويتخذ تلك الشخصية محوراً يدور حوله الموضوع ، فيؤلف بين شوارده ويضم أجزاءه ، ويسعى المقري إلى فهم الشخص المترجم عن طريق فهم عصره ، واستقصاء معارف زمنه ، والإحاطة بالظروف التاريخية التي مهدت له السبيل ، واستفتحت له المغلق ، وقربت له البعيد .

والكتاب جامع لأحسن الوثائق الأدبية ، وأهم المصادر في تاريخ الأندلس بوجه عام ، وهو يشمل مجموعة ممتازة من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية ، اقتبسها المقري من مصادر مختلفة معظمها مفقود الآن ^(٢٣) .

التواريخ العامة : وأشهر مؤلفيها حسب سني وفاتهم :

(٢٣) تحليل نصوص تاريخية ، ص ٢٨

ابن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري ، من أئمة العرب ، ومن المصنِّفين الكثيرين ، وأهمها : (عيون الأخبار) ، الذي يضمُّ الأجزاء التَّالية : كتاب السُّلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السُّودد ، وكتاب الطُّبائع والأخلاق المذمومة ، وكتاب العِلْم والبيان ، وكتاب الزُّهد ، وكتاب الإخوان ، وكتاب الحوائج ، وكتاب الطُّعام ، وكتاب النِّساء . °

الطُّبري (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م) : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي الطُّبري^(٢٤) ، شيخ المؤرِّخين ، كتابه : (تاريخ الرُّسل والملوك) ، ويعرف (بتاريخ الطُّبري) ، في أحد عشر جزءاً ، وله : (جامع البيان في تفسير القرآن) في ثلاثين جزءاً .

والتُّبري من ثقات المؤرِّخين ، قال ابن الأثير : أبو جعفر - أي الطُّبري - أوثق من نقل التَّاريخ ، وفي تفسيره ما يدلُّ على علم غزير وتحقيق^(٢٥) . ١٠

اعتمد الطُّبري في تاريخه طريقة الحوَلِيَّات ، التي تقوم على ذكر الحوادث الهامَّة التي وقعت خلال عام من الأعوام ، فإذا انتهى منها انتقل إلى العام الذي يلي ، وأسلوب الطُّبري سهل بليغ ، ولغته فصيحة ، وتجنَّب في صياغة فِكْره الغريب من الكلام ، فهو طلي العبارة ، يتجنَّب التَّعقيد ، واضح المعاني ، ممَّا يدلُّ على أنَّه كان مالِكاً لزمَام العربيَّة . ١٥

وأثبت الطُّبري عدَّة روايات تدور حول حادثة واحدة ، وهذا أوثق للأمانة

(٢٤) احتفل ما بين ١٣ و ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٩ في محافظة مازندران (طبرستان) بمناسبة مرور ١١٠٠ سنة هجرية على وفاة أبي جعفر الطُّبري ، وزارت الوفود المشاركة مسقط رأسه (أمل) حيث فكرة تشييد جامعة تحمل اسم الطُّبري ، وكان عنوان موضوعي الذي قدَّم لهذا المؤتمر (مؤتمر الطُّبري الدُّولي) : الطُّبري في تاريخه بين طريقة المحدثين ومنهج المؤرِّخين .

(٢٥) إرشاد الأريب ٤٢٣/٦ ، تذكرة الحفاظ ٣٥١/٢ ، طبقات السُّبكي ١٣٥/٢ - ١٤٠ ، البداية والنهاية ١٤٥/١١ ، ميزان الاعتدال ٣٥/٣ ، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ، لسان الميزان ١٠٠/٥ ، كشف الظنون ٤٣٧

العلمية في النقل ، وذلك كي لا يترك المؤرخ لبساً أو إبهاماً في نفس القارئ ، أو اعتقاداً أن المؤرخ جاهل للرواية الثانية ، التي تتعارض مع الرواية التي أثبتتها في كلامه ، فيحل ذلك منه على الجهل ، أو على سوء القصد ، وإيراد مختلف الروايات المتعلقة بخبر واحد ، ميزة انفرد بها مؤرخون قلائل كان الطبري شيخهم وعميدهم .

قال بعض الباحثين : إن سياق الطبري الأخبار دون تحييصها ، أمر لا يليق ٥ بالمؤرخ الناقد البصير .

وعند الطبري في ذلك هو عذر زواة الحديث ، الذين يذكرون الحديث بطرقه ورجاله ، تاركين الحكم للقارئ ، أمانة للعلم وإبراء للذمة ، يقول الطبري في مقدمة تاريخه : « وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادنا في كل ما أحضرت ذكره فيه ، مما شرطت أني راسمه فيه ، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى زواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحادئين ، غير واصل إلى من لم يشاهدتم ، ولم يدرك زمانهم ، إلا بإخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس ، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشعنه ١٥ سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتيت من قبل بعض ناقله إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا » (٢٦) .

وفي هذا النص الواضح والصريح ، ما يشير إلى مذهبه فيما ورد في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) من تلك الأخبار ، وأياً ما كان شيخ المؤرخين ، فإن كتابه سيظل بما ٢٠ اشتمل عليه من الروايات الأصلية ، والنصوص النادرة في أسلوبه الرائع الرصين ، أشمل

كتاب للتاريخ عند العرب ، وأوفى عمل تاريخي بين مصنّفاتهم ، أقامه الطبري على منهج مرسوم ، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة والإتقان .

المسعودي (ت ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، كتابه : (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ، وهو (مؤرّخ - جغرافي) ، ينظر الأمور بعين المؤرّخ ، ويتأملها في الوقت نفسه بلواظ الجغرافي ، ولكنّه لم يظهر براعة في تنسيق المعلومات التي جمعها ، ولم يجعل منها كلّاً حيّاً متجاوب الأجزاء متناسقاً .

ابن الأثير الجُزري (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م) عزّ الدّين علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشّيباني الجُزري^(٢٧) ، المؤرّخ الإمام ، سكن الموصل ، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء ، وتوفّي بها ، وأكثر من جاء بعده من المؤرّخين عيال على كتابه : (الكامل في التّاريخ) .

وله (أسدُ الغابة في معرفة الصّحابة) ، و (تاريخ الدولة الأتابكيّة) ، و (الجامع الكبير) في البلاغة ، و (تاريخ الموصل) لم يتّه .

ابن عذاري المَرّاكشي (نحو ٦٩٥ هـ = نحو ١٢٩٥ م) أبو عبد الله محمد (أو أحمد بن محمد) المَرّاكشي ، كتابه : (البيان المُغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب) ، من أهمّ الكتب التي تشمل حوادث المغرب والأندلس السّياسيّة والاجتماعيّة والإداريّة ، وأوثقها في موضوعها ، كما تعرّض ابن عذاري إلى الحروب التي استعرت بين المسلمين الأندلسيّين والإسبان .

ابن الطّقطقي (ت ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) : أبو جعفر محمد بن علي ابن طباطبا ، كتابه : (الفخري في الآداب السّلطانيّة والدّول الإسلاميّة) ، في قسمه الأوّل : شؤون السّياسة ، وفي قسمه الثّاني : موجز لتاريخ دول الإسلام ، وذيل ابن الطّقطقي بحشه

(٢٧) وُلِدَ ونشأ في جزيرة ابن عَمَر على نهر دِجْلَة شمالي الموصل ، (معجم البلدان ١٣٨/٢) .

لتاريخ كل خليفة بأخبار وزرائه ، فهو والحال هذه يعادل من حيث الأهمية كتاب (الوزراء والكتّاب) للجهمشياري ، بل فاقه ، لأنّ الجهمشياري توقّف عند وزراء المأمون من آل سهل ، سنة ٢٠٢ هـ .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ = ١٣٧٣ م) : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ثمّ الدمشقي ، حافظ مؤرّخ فقيه ، كتابه : (البداية والنهاية) ، ومن كتبه أيضاً :
٥ (طبقات فقهاء الشافعيّين) ، و (تفسير القرآن الكريم) ، و (التكميل في معرفة الثقات والضّعفاء والمجاهيل)^(٢٨) .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م) : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي ، الفيلسوف المؤرّخ ، العالم الاجتماعي البَحّاث ، كتابه :
١٠ (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومنّ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، ومقدمة هذا الكتاب تقع في جزء كامل ، وكانت صورة حياة للحياة الاجتماعية في مختلف البيئات التي تقلّب فيها ابن خلدون ، وللعصر الذي انقضت فيه حياته ، وهي محاولة للنقد التاريخي ، مع تحليل وتفهم وتفسير ، فتوصل إلى الخطأ والصواب ، ومعرفة الحوادث بدقّة وضبط ، لاسرد الوقائع والأسماء فحسب .

ثمّ إنّ المقدّمة علّلت الظّاهرات الاجتماعية ، وأوضح ابن خلدون فيها أثر السّكن
١٥ على الحياة الاجتماعية ، ودرس الظّاهرات الاقتصادية ، فيكون بذلك قد بحث في علم الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعمران ، ففتح وولج بذلك باب ما يُسمّى اليوم (فلسفة لتاريخ) ، والمقدّمة تقع في ستّة فصول هي :

١ - في العمران البشري على الجملة .

٢ - في العمران البدوي .

٣ - في الدّول والخلافة والمُلْك ، وذكر المراتب السّلطانيّة .

(٢٨) الدّرر الكامنة ٣٧٣/١ ، البدر الطّالع ١٥٣/١

٤ - في العمران الحضري والبلدان والأمصار .

٥ - في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

٦ - في العلوم واكتسابها وتعلّمها .

وبقي هذا الأثر الخالد يُدرّس ويؤخذ منه ، فترجمت المقدّمة إلى معظم لغات العالم ، يقول (أرنولد توينبي) في كتابه (دراسة التاريخ) : إنّ ابن خلدون نسيج وحده في تاريخ الفكر ، لم يدانه مفكّر كان من قبله ، أو جاء من بعده في جميع العصور (٢٩) .

١٠ وفلسفة ابن خلدون دارت حول نقطتين رئيسيتين : فلسفة الاجتماع ، وفلسفة التاريخ ، ولسنا بصدد فلسفة الاجتماع التي يعدّ علماً من أعلامها البارزين ، ومع ذلك نوجز فنقول : إنّهُ بحثَ في علم الاجتماع العام أو الاقتصادي (٣٠) ، ثمّ الاجتماعي ، ثمّ السياسي ، ونظريّة الدولة . أمّا فلسفة التاريخ ، فقد أراد أن يكتشف العوامل التي تُسرّ الوقائع التاريخيّة ، والقوانين العامّة التي تمثّل عليها الدّول والشعوب في تطوّرها مع إيجاد معيار صحيح يتحرّى به المؤرّخون طريق الصّدق والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع .

١٥ أوجد ساطع الحضري على التّقريب أهمّ المؤلّفات التي تتعلّق بفلسفة التاريخ مباشرة ، فوجدها بعد ظهور مقدّمة ابن خلدون ، تنحصر في عشرة كتب ، منها :

(٢٩) « لم يسبق أن حمل أحد من العرب ، أو من الغربيّين ، قبل ابن خلدون ، وجهة نظر تجمع بين الشّمول والفلسفة الحقّة في آن واحد ، والاعتقاد السّائد بين منتقدي ابن خلدون هو أنّه أعظم مؤرّخ أنتجه الإسلام ، ومن أعظم المؤرّخين في العصور الوسطى » ،

J.C. Riesler: La Civilisation arabe, Paris 1956

(٣٠) ويرى ابن خلدون أنّ الدولة هي التّاجر الكبير ، وهي كالّتاجر البارع البعيد النّظر ، من واجبه أن تتأكّد من أنّ الضّرائب التي تستوفيها تعود إلى التّداول بين النّاس ، والضّرائب المعتدلة أعظم حافز على العمل ، ومن النّاحية الأخرى فإنّ الضّريبة لا تثمر إذا هي فرضت تعسّفاً .

(الأمير) ميكيا فيلي الإيطالي ، و (الحكومة المدنيّة) لجون لوك الإنكليزي ،
و (العالم الجديد) لباتستافيكو الإيطالي ، و (طبائع الأمم وفلسفة التاريخ)
لقولتير الفرنسي ، و (آراء فلسفيّة في تاريخ البشريّة) لهردر الألماني ، وكلّهم اقتبسوا
من مقدّمة ابن خلدون في كتبهم .

٥ ولقد سبق ابن خلدون علماء الاجتماع بقرون :

سبق غبريل تارد بالقول بالمحاكاة والتقليد ، وكان ابن خلدون أعمق وأدق ، لأنّه
أعطى رأياً متميّزاً ، وعدّ التقليد ظاهرة ضعف ، لا دلالة قوّة .

وسبق دوركهايم بالقول بالقسر الاجتماعي ، وقال : الإنسان ابن مجتمعه ، وتفرض
الظاهرة الاجتماعيّة نفسها على الأفراد .

١٠ وامتاز عن فيكو في مجرى تاريخ الأمم وتطوّراتها بأنّه كان موضوعيّاً .

والشبه جليّ بينه وبين ميكيا فيلي في دراسات السّلطة والحكومات والإمارات ،
والأساليب التي يجب اتّباعها في الحكم .

ووجه الشبه بينه وبين جان جاك روسو واضحة من حيث الإيمان الشّديد بحياة
التّقشّف .

١٥ وبينه وبين نيتشه في نظريّة الحقّ للقوّة .

وسبق كارل ماركس في نظريّة فضل القيمة .

ولابن خلدون لمحات لتفسير الظواهر السّياسيّة بالعامل الاقتصادي ، وسبق علماء
الاجتماع بالدّخول إلى صلب الظاهرة وتقسيمها إلى أجزاء بقصد دراستها . ولم يكن رائداً
في علم الاجتماع السّكوني ، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي (الدّيناميكي) ، بدليل
أنّه لم يدرس المدن الفاضلة ، بل المدن القائمة ، ووازن بين ما كان وما صار .

٢٠

لقد كان ابن خلدون بحقٍّ أوَّل كاتب استطاع أن يكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته ، وأن ينظر إلى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته ، لقد كان شغوفاً بالتاريخ مع معاناته للسياسة ، فكانت تجربته غنيّة .

المقرّيزي (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م) : أبو العبّاس أحمد بن علي تقيّ الدّين المقرّيزي ، معاصر ابن خلدون ، خلف كتابين هامّين : (كتاب السُّلوك لمعرفة دول الملوك) ، وفيه أخبار سلاطين الماليك ، و (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو من أهمّ المراجع في تاريخ مصر الدّيني والسياسي والإداري والتّجاري .

ابن تغري بردي^(٣١) (ت ٨٧٤ هـ = ١٤٧٠ م) : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظّاهري ، مؤرّخ بجاثة ، وصل إلينا من كتبه سبعة كتب في التاريخ ، أهمّها : (النُّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ، عالج فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي الإسلامي إلى سنة ٨٥٧ هـ ، مشيراً في مواضع كثيرة إلى حوادث البلاد المجاورة ، وإلى وفيات كلّ عام .

وكتاب (مورد اللّطافة فين ولي السّلطنة والخلافة) ، ويتضمّن سيرة موجزة للنبيّ ﷺ ، مع إيراد ثبت بأسماء الصّحابة وسلاطين مصر ووزرائهم حتّى سنة ٨٤٢ هـ .

وأتمّ ابن تغري بردي كتاب السُّلوك للمقرّيزي ، فوصل بحوادثه من ٨٤٥ هـ إلى ٨٦٠ هـ ، ودعاه : (حوادث الدّهور في مدى الأيّام والشّهور) ، كما أتمّ كتاب (الوافي) للصّفدي من سنة ٦٥٠ هـ إلى عهده ، القرن التّاسع الهجري ، والكتاب هو سيرة لمشاهير الرّجال ربّبت أسأؤهم فيها على حروف المعجم ، وقد صار الكتاب يدعى : (المنهل الصّافي والمستوفى بعد الوافي) (٣٢) .

(٣١) Togri Bardii : [٨١٣ - ٨٧٤ هـ = ١٤١٠ - ١٤٧٠ م] .

(٣٢) لم ننس : أبا الرّيحان البيروني ، وابن زولاق ، وابن إبّاس ، وابن بشكوال ، وابن مسكويه ، وابن شداد ، وأبا شامة ، وابن واصل .. ولكن اكتفينا بالأمثلة السابقة اختصاراً .

الجغرافية :

ازدهرت الجغرافية (علم وصف الأرض)^(٣٣) ، بسبب الفتوح التي وصلت قلب الصين شرقاً ، وقلب فرنسة غرباً ، وبسبب تدوين التاريخ والأدب ، والرحلات ، والحج ، والتجارة الواسعة براً وبحراً ، وأشهر الجغرافيين المسلمين :

عبيد الله بن أحمد بن خُرْداذبُه^(٣٤) (ت ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م) : مؤرِّخ جغرافي ، من أهل بغداد ، اتَّصل بالمعتمد العباسي ، فولَّاه البريدَ والخَبَرَ بنواحي الجبل^(٣٥) ، أهم تصانيفه كتاب : (المسالك والممالك) .

مُحمَّد بن حَوْقَل البغدادي الموصلي : (ت بعد ٣٦٧ هـ = بعد ٩٧٧ م) ، رحَّالة دخل المغرب وصقليَّة ، وجاب بلاد الأندلس وغيرها ، من علماء البلدان ، له كتاب : (المسالك والممالك والمفاوز والممالك)^(٣٦) .

مُحمَّد بن أحمد بن أبي البناء المقدسي : (ت نحو ٣٨٠ هـ = نحو ٩٩٠ م) ، رحَّالة جغرافي ، وُلد في القدس ، وتعاطى التجارة ، فتجسَّم أسفاراً هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد ، ثم انقطع إلى تتبع ذلك ، فطاف أكثر بلاد الإسلام ، وصنَّف كتابه : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، امتاز فيه عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته ، وسعة نظره ، قال سبرنغر : لم يتجوَّل سائح في البلاد كما تجوَّل المقدسي ، ولم ينتبه أحد ، أو يحسن ما علم به مثله^(٣٧) .

(٣٣) أطلق العرب المسلمون على هذا العلم أسماء متعدِّدة ، منها : علم تقويم البلدان ، علم المسالك والممالك ، علم مسالك البلدان والأمصار .

(٣٤) كما في لسان الميزان ٩٦/٤

(٣٥) الجبل هنا هو (إقليم الجبال) ، ويقع شرقي العراق ، وغربي الرِّي ، وشمالى الأهواز ، أهم مدنه : همدان ونهاوند ، (أطلس التَّاريخ العربي ، ص ٤٠ و ٤١) .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلاميَّة ١٤٥/١ ، الرِّحالة المسلمون في العصور الوسطى ٣٩

(٣٧) أحسن التقاسيم ٤٣

محمد بن محمد بن عبد الله ، الشريف الإدريسي : (ت ٥٦٠ هـ = ١١٦٥ م) ، من كبار علماء الجغرافية ، ولد في سبته ، وتعلّم بقرطبة ، ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية ، فاستدناه الملك روجر الثاني (Roger II) ملك جزيرة صقلية النورماندي ، وخصّه بالكثير من العطف والعناية ، فصنع له الإدريسي كرة أرضية من الفضة ، محفوظة في متحف برلين اليوم ، ووضع له كتاباً سماه : (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وهو أصحّ كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوربة وإيطالية ، وكل ما كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه ، يقول غوستاف لوبون : « وأشهر جغرافي العرب هو الإدريسي ، ومن كتبه التي ترجمت إلى اللاتينية ، تعلّمت أوربة علم الجغرافية في القرون الوسطى » (٣٨) .

١٠ وخريطة الإدريسي التي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة - أي على البقاع التي لم يكشف عنها الأوربيون إلا في العصر المتأخّر - أكثر خرائطه طرافة ، إذ هي تثبت أنّ معرفة العرب بجغرافية إفريقية ، أكمل ممّا ظنّ من قبل ، ولا أدلّ على صحّة هذا القول من وصفٍ لنباح النيل أثبتّه الإدريسي في (نزهة المشتاق) إذ قال : « وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر ، فوق خطّ الاستواء بستّ عشرة درجة ، وذلك أنّ هذا النيل من هذا الجبل عشر عيون ، فأما خمسة أنهار منها ، فإنّها تصبّ وتجتمع في بطيحة^(٣٩) كبيرة ، وخمسة أنهار آخر تنزل أيضاً من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة ، ويخرج من كلّ واحدة من البطاحتين ثلاثة أنهار ، فتمرّ بأجمعها إلى أن تصبّ في بطيحة كبيرة جداً ، على هذه البطيحة مدينة تسمّى طرمى » .

٢٠ وللإدريسي أيضاً كتاب : (الجامع لصفات أشات النّبات) ، استفاد منه ابن

(٣٨) حضارة العرب ٥٦٧

(٣٩) البطح لغة : البسط ، والمراد هنا مستنقع . جمع مياه .



* مصور الإدريسي

البيطار ، و (روض الأنس ونزهة النفس) ، ويعرف (بالممالك والمسالك) ، و (أنس
المُهَج وروض الفَرَج)^(٤٠) .

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرُّومي الحَمَوِي (ت ٦٢٦ هـ =
١٢٢٩ م) : مؤرِّخ ثقة ، وجغرافي من أئمة الجغرافيين ، درس الجغرافية بصورة عمليّة في
أسفاره التي زار خلالها : بلاد العرب ، وآسية الصُّغرى ، ومصر والشَّام ، وإيران
وما وراء النهر وخراسان ، أهم كتبه : (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ويعرف
بمعجم الأدباء ، و (المقتضب من كتاب جمهرة النُّسب) ، و (المبدأ والمآل) في
التَّاريخ ، وكتاب (الدُّول) ، و (معجم البلدان) .

(٤٠) دائرة المعارف الإسلاميّة ٥٧/١ ، الوافي بالوفيات ١٦٣/١

جاء في قصّة الحضارة : « وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولاً للتجارة ، ثمّ سافر لدراسة الأرض وأهلها ، لأنّه أعجب أشدّ الإعجاب ببلادها ، وسكّانها المختلفي الأجناس ، ولباسهم وأساليب حياتهم ، وقد سرّه وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامّة في مَرَوْ تحتوي إحداها على ١٢٠٠٠ مجلّد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر ، فسمح له أن يأخذ منها مائتي كتاب إلى حجرته دفعة واحدة ، وما من شكّ في أن الذين يحبّون الكتب ويرون أنّها دم الحياة يجري في عروق عظماء الرّجال ، يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل » (٤١) .

ومن الرّحالة العرب المسلمين :

أحمد بن فضلان بن العبّاس بن راشد بن حمّاد (ت بعد ٣١٠ هـ = بعد ٩٢٢ م) :
صاحب الرّحلة المعروفة إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة ، المعروفة برسالة ابن فضلان ، أوفده المقتدر العبّاسي إلى ملك الصّقالبة - على أطراف نهر الفولغا - وقد بعثوا برسول منهم إلى عاصمة الخلافة ، يرجون العون على مقاومة ضغط قبائل الخزر عليهم من أطراف بلادهم الجنوبيّة ، وأنّ ينفذ إليهم من يفقههم في الدّين ، ويعرفهم بشعائر الإسلام ، وكانوا قد اعتنقوه قبل عهد غير بعيد ، وقامت البعثة من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩ هـ = ٢١ حزيران (يونيو) ٩٢١ م ، مارةً بهمدان والرّي ونيسابور ومَرَوْ وبخارى ، ثمّ مع جيحون إلى خوارزم إلى بلغار الفولغا في ١٨ المحرم ٣١٠ هـ = ١٢ أيّار (مايو) ٩٢٢ م ، ولم يُعرَف خطُّ سير الرّجعة لضياح القسم الأخير من الرّسالة (٤٢) .

محمّد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَاني الأندلسي (ت ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م) : رَحالة أديب ، وُلد في بلنسية ، ونزل شاطبة ، وبرع في الأدب ، ونظم الشعر الرّقيق ، وأولع

(٤١) قصّة الحضارة ٣٥٨/١٣

(٤٢) الرّسالة مطبوعة : طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ووزارة التّحافة والإرشاد القومي في سورّيّة (مديريّة التّراث القديم) .

بالتَّرحُّل والتَّنقُّل ، فزار المشرق ثلاث مرَّات ، إحداها سنة ٥٧٨ هـ - ٥٨١ هـ ، وهي
التي ألَّف فيها كتابه : (رحلة ابن جبیر) ، ومات بالإسكندريَّة في رحلته الثالثة ،
ومن كتبه : (نظم الجُبان في التشكِّي من إخوان الزَّمان) ^(٤٣) .

مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد بن إبراهيم الطَّنْجِي (ابن بطُوطَة) : (ت ٧٧٩ هـ =
١٣٧٧ م) : رَحَّالَة مؤرِّخ ، وُلِد ونشأ في طنجة ، وخرج منها سنة ٧٢٥ هـ ، فطاف
بلاد المغرب ومصر والشَّام والحجاز والعراق وفارس والين والبحرين وتركستان
وما وراء النهر ، وبعض مناطق الهند والصَّين ، وبلاد التُّتر ، وأواسط إفريقية ، ثمَّ
انقطع إلى السُّلطان أبي عنان ^(٤٤) ، فأقام في بلاده ، وأملَى أخبار رحلته على مُحمَّد بن
الجزري الكلي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ ، وسَمَّاه : (تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار) .

استغرقت رحلته سبعاً وعشرين سنة ، من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٣٥٢ م ، ومات في
مراكش ، وتلقَّبه جامعة كبردج في كتبها وأطالسها : أمير الرُّحالين المسلمين ^(٤٥) :
Prince of Moslems Travellers .

الحسن بن الوزان الغرناطي ، المعروف باسم (ليون الإفريقي) : (ت نحو ٩٥٧
هـ = نحو ١٥٥٠ م) ، جغرافي رَحَّالَة ، ومؤرِّخ أندلسي ، انتدب أبوه لبعض السِّفارات
والوساطات السِّياسية ، ثمَّ انتدب هو لمثل ذلك ، فتيسَّرت له الرِّحلة إلى أكثر بلدان
إفريقية الشَّمالية والمشرق ، وحجَّ سنة ٩٢١ هـ ، ودخل الأستانة ومصر ، وطاف بلاد
المغرب الأقصى ، وزار تُمبُكتُو ، وعاد منها عن طريق سجلماسة ، وحضر حروباً بين
البرتغال والشَّريف مُحمَّد السَّعدي (القائم بأمر الله) ، وأسره قرصان من الإيطاليين سنة

(٤٣) نفح الطَّيِّب ٥١٥/١ ، دائرة المعارف الإسلاميَّة ١١٦/١ ، الإحاطة في تاريخ غرناطة ١٦٨/٢

(٤٤) من ملوك بني مرِّين .

(٤٥) دائرة المعارف الإسلاميَّة ٩٩/١ ، الدرر الكامنة ٤٨٠/٣ ، الرُّحالة للمسلمون ١٣٦ - ١٧١

٩٢٣ هـ (أو سنة ٩٢٦ هـ) ، قرب جزيرة (جربة)^(٤٦) ، وأخذوه إلى نابولي ، وعرفوا أنه من أهل العلم ، فقدّموه هدية إلى البابا ليون العاشر في رومة ، ومعه كتبه وأوراق رحلته ، وكانت للبابا عناية بعلوم العرب ، فأكرمه وأدخله في خاصته وسماه (جان ليون) ، وكان الحسن بن الوزان يكتبها بالعربية (يوحى الأسد) ، وأُشيع أنه تنصّر ، وما من دليل يؤكّد ذلك ، وتعلّم الإيطالية واللاتينية ، وكان يحسن الإسبانية والعبرية ، وطلب منه البابا أن يترجم رحلته إلى الإيطالية ففعل ، وأذن له بتدريس العربية في كلية بولونية Bologne ، وبعد موت البابا سنة ٩٢٧ هـ ، دخل تحت حماية الكردينال جيل Gilles de Niterbe ، وعلمه العربية ، وصنّف في خلال ذلك معجماً طبياً لاتينياً عبرياً ، لاتزال أوراق منه موجودة بخطّه ، أنجزه سنة ٩٣٠ هـ ، ثمّ قدّم سنة ٩٣٢ هـ كتاب (وصف إفريقية) مترجماً إلى الإيطالية ، وفيه كثير من حوادثها التاريخية ، أوردها وعلّل أسبابها ونتائجها ، وهو القسم الثالث من كتاب له ألفه في (الجغرافية العامة) ، وطبع هذا القسم سنة ١٥٥٠ م بإيطالية ، وأعيد طبعه عدّة مرّات سنة : ١٥٥٤ و ١٥٨٨ و ١٦٠٦ و ٦١٣ و ١٨٣٠ م ، وترجم إلى اللاتينية وطبع بها ، ونقله جان تمبورال Jean Temporal إلى الفرنسية عن طبعتي ١٥٥٠ و ١٥٥٤ الإيطالية ، ثمّ تكرر طبعه في فرنسا وهولندا وألمانية عدّة طبعات ، وهو أوّل كتاب فني جغرافي ظهر بأوربة ، وتأثيره في النهضة الأوربية بما لا شكّ فيه .

عاد الحسن بن الوزان إلى بلاده حوالي سنة ٩٣٤ هـ = ١٥٢٧ م ، ومات مسلماً في تونس نحو سنة ١٥٥٢ م ، ومن كتبه أيضاً : (مختصر تاريخ الإسلام) ، و (تاريخ إفريقية) ، و (مجموع شعري) في الوعظ والزهد ، وله رسالة باللاتينية في (تراجم الأطباء والفلاسفة العرب) ، طبعت سنة ١٦٦٤ م ، وصنّف كتاباً في (العقائد والفقه

(٤٦) جزيرة قبالة ساحل تونس الجنوبي ، أقرب مدن الساحل إليها قابس ، (الرّوض المعبّور في خبر الأقطار ص ١٥٨) .

الإسلامي) ، كما ذكر كتاباً له أو رسالة في (الأعياد الإسلامية) ، و (كتاباً في النحو) (٤٧) .

فَضْلُ الْمَسَامِينِ فِي عِلْمِ الْجغَرَفِيَّةِ :

لقد أبدع العلماء المسلمون في رسم المصوِّرات الجغرافيَّة لأكثر الأمكنة التي زاروها أو عرفوها ، ورسموا المصوِّرات البحريَّة للبحار التي جابوها ، ووضعوا المعاجم الجغرافيَّة ٥ التي ما زالت معتمدة حتَّى يومنا هذا ، وطوَّروا الإسطرلاب ، وعرفوا كروية الأرض ، وقاسوا أبعادها بدقَّة ، خصوصاً أيَّام المأمون ، وحدَّدوا خطوط الطُّول والعرض ، متَّخذين جزر الباليار مبدأً لخطوط الطُّول ، وظهرت أبحاث حديثة تقول إن (الفتية المغرورين) وصلوا عبر بحر الظُّلمات (الأطلسي) إلى أمريكا قبل كولومبس بمدة ٣٠٠ أو ٤٠٠ عام ، واستدلَّ أصحاب هذه النظريَّة إلى وجود كلمات عربيَّة في لغة هنود ١٠ أمريكا ، وأنَّ مدنيَّة بعض الجماعات الهنديَّة في أمريكا تشبه المدنيَّة الإسلاميَّة إلى حدِّ كبير (٤٨) .

وفي عام ١٩٥٢ م نشرت صحف البرازيل تصريحاً للدكتور جفرز أستاذ العلوم الأثريَّة الاجتماعيَّة في جامعة (ويتواترستراند) في جمهوريَّة إفريقيَّة الجنوبيَّة ، جاء فيه أنَّ كتب التَّاريخ تخطئ عندما تنسب اكتشاف أمريكا إلى كريستوف كولومبس ، ١٥ ذلك لأنَّ العرب في الواقع هم اكتشفوها قبله بمئات السنين (٤٩) .

(٤٧) الأعلام ٢١٧/٢ ، عن حياة الوزان الفاسي وأثاره لحمد المهدي الحجوي ، البحث المقدَّم إلى مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في فاس سنة ١٩٣٣ م .

(٤٨) انظر أعلام الجغرافيين العرب ، د . عبد الرَّحمن حميدة ص ٢٢٣ ، عن الأب أنستانس الكرمللي ، المقتطف شباط (فبراير) ١٩٤٥ م .

(٤٩) أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٢٣٥ ، وليس يغمز من قدر البحَّار الكبير كولومبس أن يقال اليوم إنَّ غيره من الملاحين قد سبقوه إلى العالم الجديد .

ودراسة الأستاذ المذكور ، والتي دامت ستّ سنوات ، اعتمدت على دراسة للهيكل
البشريّة التي عثر عليها في ولاية (غراناده) البرازيليّة .



الفلسفة : لم تصل الفلسفة اليونانيّة إلى المسلمين مباشرة ، لأنّهم كانوا يجهلون اللّغة
اليونانيّة ، من أجل ذلك عهدوا إلى نفر من النّصارى كانوا يتقنون اللّغتين اليونانيّة
والسّريانيّة ، أو السّريانيّة والعربيّة ، لينقلوا لهم علوم اليونان وفلسفتهم .

ومن سيّئات النّقل ، أنّ النّقلة ترجموا كثيراً من شروح الإسكندرانيّين على الفلسفة
اليونانيّة ، والإسكندرانيّون أو الأفلاطونيّون المحدثون ، كانوا متفلسفين هالهم أن تكون
الفلسفة اليونانيّة طبيعيّة مادّيّة لا تتفق مع ماورد في التّوراة والإنجيل ، فراحوا
يبدّلون فيها ، ويفسّرونها على أهوائهم ، ويزعمون أنّهم يريدون أن يوفّقوا بين الدّين
والفلسفة ، فزعموا مثلاً أنّ أفلاطون ترهّب في الصّحراء سبع سنوات ، حتّى استطاع أن
يخرج ببرهان على الثّالوث المقدّس ، وكانوا أحياناً يضعون في أفواه القديسين بولص
وبطرس أقوالاً لسقراط .

« ولقد كان ثمت ما هو أدهى وأمر ، ذلك أنّ أكثر النّقلة كانوا نصارى
نسطوريّين ، يعتقدون أنّ للمسيح عليه السّلام ، طبيعتين بشريّة وإلهيّة ، ومشيتين
بشريّة وإلهيّة ، أو نصارى يعاقبة يعتقدون أنّ فيه طبيعة واحدة هي الطّبيعة الإلهيّة ،
ومشيّة واحدة هي المشيئة الإلهيّة ، هؤلاء النّقلة لم يستطيعوا أن يميّزوا بين مذاهبهم
الدّينيّة وفلسفة أرسطو وأفلاطون ، ومن سبقها ، فكانوا إذا وقع أحدهم على رأي
يخالف مذهبه ، حذفه أو حوّره ، وربّما أضافوا كلّهم إلى كتب الفلاسفة مالم يس
منها » ^(٥٠) .

(٥٠) القول للدكتور عمر فروخ : « عبقرية العرب في العلم ، الفلسفة » ، ص ٩٢ ، ط ٢ ، بيروت ١٩٥٢ ،
واعتمدنا في هذا البحث مع كتاب د . فروخ : « دراسات في الفلسفة الإسلاميّة » ، د . محمود قاسم ، =

وهكذا وصلت الفلسفة اليونانية إلى العرب المسلمين مشوّهة ممسوخة ، جهلاً من النّاقلين ، أو قصداً ، مع أنّ خلفاء المسلمين ائتمنهم على هذا التّراث ، ولقد كان فلاسفة الإسلام من طهارة النّفس أنّهم لم يشكّوا في هذا التّزوير الذي أدخله الإسكندرانيون ، والنّقلة السّريان من بعدهم على الفلسفة ، فأخذوا يجهدون أنفسهم وعقولهم في سبيل التّوفيق بين هذه المتناقضات والمحاولات التي لا تتفق مع العقل ، وقضوا في ذلك قرنين ونصف القرن من الزّمن ، مظهرين عبقرية عظيمة في بحوثهم ونظريّاتهم .

أشهر الفلاسفة المسلمين

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي : (ت ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م) ، فيلسوف العرب ، ولد بمدينة الكوفة ، وجرى على سُنّة غيره من علماء المسلمين في ذلك العصر الزّاهر ، أيام المأمون والمعتصم ، فدرس أكثر فروع العلم والأدب التي كانت في متناول الطّالبيين في عصره ، ولقد خلّف من المؤلّفات مئتين وخمسة وستين بحثاً ومقالة ، في الحساب والهندسة والنّجوم والفلك والأنواء والجغرافية والطّبيعة والسياسة والموسيقى والطّب والفلسفة .

كانت فلسفة الكندي على مذهب الأفلاطونية الحديثة ، ولكن الكندي لم يأخذ هذه الفلسفة جملة ، بل غيّر فيها ، ومن كتبه « الفلسفة الأولى فيما دون الطّبيعيّات والتّوحيد » ، وخمس رسائل أولاهها في ماهية العقل .

وأبو النصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي : (ت ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) ، المعلّم الثّاني ، وأكبر فلاسفة المسلمين ، تخرّج الرّئيس ابن سينا على كتبه وانتفع بها ، ولد بفاراب على نهر جيحون ، ونزل بغداد فأتقن العربيّة ومَلَكَ زمامها ، وألّف بها كلّ تصانيفه ، إنّ أخطر كتبه الفلسفيّة هو « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، الذي يعطي

= و « دور العرب في تكوين الفكر الأوربي » ، د . عبد الرّحمن بدوي ، « مذاهب الإسلاميين » ، د . عبد الرّحمن بدوي ، « الفصل في الملل والأهواء والنّحل » لابن حزم الأندلسي .

فكرة عن قانون الطبيعة ، ويصوّر هذا القانون في صورة كفاح وتناحر يأتيه كلٌ حيٍّ إزاء الأحياء جميعاً - وهي الفكرة نفسها التي قال بها « هيز » الفيلسوف الإنجليزي - وأنَّ كلَّ كائن عضوي إنَّما يرى في الكائنات الأخرى وسيلة لغاياته ، وأنَّه في معمعة هذا التنافس المحتوم ، يكون أعقل العقلاء من يقتدر على إخضاع غيره لإرادته ، فيصل إلى تحقيق رغباته كاملة ، ولكن كيف استطاعت الجماعة الإنسانية الخروج من قانون الغاب هذا ؟ لقد سبق الفارابي جان جاك روسو ، ونيّشه عندما قال : إنَّ الجمعية أساسها الاتفاق أو العقد بين الأفراد ، وإنَّ بقاءها رهن بقبول عدّة قيود تفرضها العادة ، وينظّمها القانون ، ورفض الفارابي أن يغزو القويُّ الضعيف ، وأن يفرض عليه شرائعه ، ورفض على الجملة مذهب هؤلاء الذين جعلوا الحقَّ قوّةً ، وحضَّ النَّاسَ على ألاَّ يقيموا مجتمعهم على الحقد والقوّة الغاشمة والتناحر ، بل يقيموه على العقل والإخلاص ١٠ والمحبّة .

إنَّ في هذه الآراء لنسباً كبيراً ووثيقاً إلى الفلسفة الأوربيّة في أواخر القرن الثامن عشر ، بل إنَّها فلسفة الثوّة الفرنسيّة ، وإنجيلها « العقد الاجتماعي » لمؤلّفه جان جاك روسو .

لقد كان أثر الفارابي في اتجاه التفكير الأوربي عظيمًا ، فكتبه نُقلت إلى اللاتينيّة ، ١٥ وطُبعت جملة واحدة في باريس عام ١٦٣٨ م . فن فلاسفة العصور الوسطى الذين تأثّروا بفلسفة الفارابي الرَّاهب الفرنسي فنّسان دو بوفيه Vincent de Beauvais المتوفى نحو سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م ، الذي ضمَّ أجزاء من فلسفة الفارابي برمتها إلى كتابه ، أمّا ألبرتوس ماغنوس (ألبرت الكبير) كبير فلاسفة الكنيسة في العصور الوسطى فإنَّه لم يستطع عرض فلسفة أرسطو بأحسن ممَّا عرضها الفارابي ، لذلك لم يجد بداً من أن يقتفي آثار الفيلسوف المسلم في عرض فلسفة أرسطو^(٥١) .

(٥١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ٩٥ ، وانظر : وفيات الأعيان ٨٦/٢ ، والوافي بالوفيات ١٠٧/١ ، ودائرة المعارف الإسلاميّة ٤٠٧/١

وأبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي : (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) ، من أهل قرطبة ، شارح أرسطو يوم لم يكن أحد في أوربة يستطيع فهمها ، حتى عُرف من أجل ذلك في أوربة باسم « الشَّارح » ، ويعنون شارح كتب أرسطو ، ولكنه لم يكن شارحاً لكتب أرسطو فقط ، فكثيراً ما كانت شروحه على أرسطو في حقيقتها حجة لإبراز آرائه الشخصيّة ، أو لتفسير الآراء القديمة تفسيراً صحيحاً ، هذه الشُّروح كانت الوسيلة الوحيدة لفهم أرسطو ، حتى إنها كانت تطبع مع كتب أرسطو نفسها ، وحتى إن وليم اكزر (ي ١٢٣١ م) فقيه باريس ، وعضو اللّجنة التي ألّفتها البابا غريغوريوس التاسع تهذيب كتب أرسطو ، اعتمد على كتاب ما وراء الطّبيعة لأرسطو وعلى شرحه لابن رشد ، وقد نُقلت كتب ابن رشد إلى العبريّة واللاتينيّة ، وطُبعت في البندقيّة وحدها أكثر من خمسين مرّة .

ولقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها ، وكان من حسناتها أن حلّت عقال الفكر الأوربي ، وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيه ، وخصوصاً بما حملت معها من آراء ماديّة وطبيعيّة وشموليّة ، ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد ، وبإصابة آراء ابن رشد ، وهكذا نشأ بينهم مذهب الرُّشديّة للأخذ بالعقل عند البحث ، وترك الاعتماد على الروايات الدّينيّة ^(٥٢) .

ثمّ لما اجتاحت فلسفة ابن رشد عقول الفلاسفة في العصور الوسطى ، وساد العقل في كلّ مكان ، هبّت الكنيسة لتقاوم هذا التيار الجارف بكلّ سبيل ، فابن رشد يعتقد صراحة أن هنالك أموراً تصحّ في الدّين ولا تصحّ في الفلسفة ، وأن ثمة أشياء تصحّ في الفلسفة ولا تصحّ في الدّين ، وابن رشد يقبل طبعاً كلّ ما جاءت به الفلسفة ، وكذلك يقبل كلّ ما جاء به الدّين ، ولكن على شرط واحد ، هي أن يتأوّل بعض الروايات الدّينيّة التي لا تتفق في ظاهرها مع الرّأي الفلسفي ، كما قال بأزليّة المادّة ، وأنّ فيها قوّة

(٥٢) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١١٤



*ابن رشد

كما تصوره (رفائيل) في لوحته الشهيرة (مدرسة أثينا) ، إنه الرجل الوحيد الذي يلبس عمامة بيضاء في اللوحة كلها ، ونحن لا نرى من هذه اللوحة هنا إلا ربعا ، ولعل من الصعب جداً أن يخطئ المرء في التعرف إلى ابن رشد ، بسبب هذه العمامة

كامنة هي التي تدفعها في تطورها الدائم المستمر ، وقال بوحدة العقل وفناء الأنفس الجزئية ، أما الذي يخلد فعقل الإنسانية جمعاء . من أجل ذلك أعلنت الكنيسة على ابن رشد حرباً شعواء دامت قرنين كاملين ، فحرمت دراسة الفلسفة وتدريسها ، وقتلت مناصريها ، وأحرقت كتبها .

وكان على رأس المذهب الرشدي سيغر البرابسوني الذي احتلّ مقاماً سامياً في جامعة باريس ، فاستصدرت الكنيسة حكماً بطرده من تلك الجامعة ، ولكن ذلك لم يبدل رأيه ، ولا خفف من نشاطه ، إلا أنه قتل غيلة .

قال الفيلسوف الألماني « كانت » (ت ١٨٠٤ م) رأيه في المكان والزمان ، وإنهما ليسا « شيئاً في ذاته » ، إنهما وعاءان كبيران يحتويان على جميع الحقائق المحسوسة والمعقولة ، ولكنهما وعاءان بلا قعر ، ولا جوانب ، إنهما في الحقيقة « فكرة » خالصة ، ١٠ تمكّنا من تخيل الأشياء مرتبة بعضها إلى بعض ، أو منسوقاً بعضها خلف بعض ، وهما في ذلك كله مدرّكان بأول العقل ، وبالبدية لبالحواس .. وابن رشد هو الذي قال : « الزمان معنى ذهني لا وجود له على الحقيقة » ، وقال أيضاً : « إنّ الزمان شيء يفعله الذهن في الحركة ، لأنّ الزمان ليس هو شيئاً غير ما يدركه الذهن من هذا الامتداد المقرر للحركة ، فإنّه كان من المعروف بنفسه أن الزمان موجود ، فينبغي أن يكون ١٥ هذا الفعل للذهن من أفعاله الصّادقة المنسوبة إلى العقل لا إلى الخيال ، والزمان ليس بذي وضع (٥٣) .

وساهم في بناء الفلسفة العربية الإسلامية :

المعتزلة الذين بالغوا في قيمة العقل ، حتّى جعلوا معرفة الله واجبة بالعقل .

(٥٣) المرجع السابق ، ص ١١٧/١١٨ ، كتب كرسنوفر كولومبس كتاباً في هاييتي مؤرخاً في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٤٩٨ م يذكر فيه اسم ابن رشد كواحد من المؤلّفين الذين ساعدوه على تخمين وجود العالم الجديد . وابن رشد طبيب أيضاً ، فهو أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال : إن من عرض بالجدري يكتسب الحصانة من هذا الداء .

وشجّع البويهيون جمعيّة سرّيّة ، ظلّت مجهولة إلى نحو سنة ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ، هي : « إخوان الصّفا وخلان الوفا » ، الذين رتبوا بحوث الفلسفة التي كانت شائعة في أيّامهم ، ثمّ عملوا على تعليم الفلسفة لسواد الشّعب .

وابن سينا الذي انتقد أفلاطون في النّفس ، حيث اعتقد بالتقمّص ، فعّد ابن سينا ذلك بعيداً عن الصّواب ، واعتقد أنّ النّفوس متعدّدة بتعدّد الأبدان ، فكلّما حدث جسد مستعد لقبول الحياة ، ظهرت الحياة فيه ، وبما أنّ ابن سينا قد تأثّر بفلسفة الفارابي وآثاره واستفاد منها ، فإنّ جميع الذين تأثّروا بالفارابي من الأوربيين ، تأثّروا بابن سينا أيضاً .

فكثيراً ما اعتمد روجر بايكون على ابن سينا في توضيح آراء أرسطو ، ولما جاء القديس توما بخمسة أدلّة على وجود الله عزّ وجلّ ، سلك فيها لأوّل مرّة في تاريخ المسيحيّة مسلك أرسطو ، معتمداً على آراء ابن سينا في سوقها ، وكذلك قلّده القديس توما في القول بتعدّد أشخاص الملائكة ، وبأنّهم مفارقون للمادّة .

وتأثّرمتى الاكواسبارطي الذي أصبح كردينالاً عام ١٢٩١ م وتوفيّ عام ١٣٠٢ م بنظريّة الفيض عند ابن سينا ، وكذلك ديترش الفرايبورغي (ت بعيد ١٣١٠ م) ، الذي رأى أنّ « خلق العالم » لا يمكن أن يكون عمل غير الله ، وأنّ نظريّة الفيض لا تخالف خلق العالم ، ولكنها تشمله ، ما دامت الأسباب الثّانية الظّاهرة لنا لا تعمل إلاّ بأثر من الأسباب الأوّلى الحقيقيّة الصّادرة عن الألوهيّة ، وكذلك وافق ديترش ابن سينا بأنّ العقل الفعّال هو المبدأ السّببي لمادّة النّفس ، وأنّ صلته بالنّفس كصلة القلب بالجسم الحيواني ، وخالف بذلك القديس توما^(٥٤) .

٢٠ ووقف أبو العلاء المعريّ^(٥٥) في « لزوميّاته »^(٥٦) أمام مشكلة كبرى ، أعظم من

(٥٤) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ٩٩

(٥٥) أحمد بن عبد الله بن سليمان التّنوشي المعريّ (ت ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م)

(٥٦) من كتبه : (لزوم ما لا يلزم) ، و (سقط الزند) ، و (ضوء السّقط) ، و (رسالة الغفران) من أشهر كتبه .

تلك التي وقف حيالها الفلاسفة المشاركة كلهم ، إنَّه لم يصطدم بالخلاف بين العقل والنقل في الأمور الإيمانية ، كما كان شأن المعتزلة ومن جاء بعدهم ، بل وجد أنَّ العقل يفهم الأمور كلها على غير ما استقرَّت عليه في أذهان النَّاس ، من العامَّة ومن العلماء والفلاسفة حتَّى أفلاطون وأرسطو ، إنَّ قضية النَّفس في اتِّصالها بالجسد ، ثمَّ في مصدرها ومصيرها بعد الموت ، وإنَّ القضايا المتعلقة بصفات الله وذاته ، أو بيعته الرُّسل وما هو بمعنى ذلك أيضاً ، ثمَّ بتخيُّل نظام العالم وبالعناصر وما يتألَّف منها ، ثمَّ بالاجتماع وما يتَّصل به ، كلُّ ذلك كان موضع تساؤل في لزوميَّات « حكيم المعرَّة » ، وموضع شكٍّ فلسفي صحيح .

وإذا كان المعرِّي لم يجمع آراءه في سلك واحد ، ولم يكن إلا نقادة ينتقل من سؤال إلى سؤال ، ثمَّ لا يدلي برأيه في شيء ، ممَّا يُسأل عنه ، فما ذلك إلاَّ لأنَّ عبقريته كانت ١٠ في أن يثير التفكير في أدمغة الذين حولَه ، كما كان يفعل سقراط تماماً^(٥٧) .

يقول د . عبد الرحمن بدوي ، تحت عنوان « المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لذاتته » : « كانت قبلة هائلة تلك التي ألقاها المستشرق العظيم أسين بلاثيوس ، وهو يلقي خطاب استقباله في الأكاديمية الملكية الإسبانية في جلسة ٢٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ م ، ممَّا أعلن أنَّ ذاته في (الكوميديا الإلهية) ، قد تأثَّر بالإسلام ١٥ تأثُّراً عميقاً واسع المدى ، يتغلغل حتَّى في تفاصيل تصويره للجحيم والجنة ، إذ تبين له أنَّ ثمت مشابهات وثيقة بين ما ورد في بعض الكتب الإسلامية عن معراج النَّبي ﷺ ، وما في (رسالة الغفران للمعرِّي) ، وبعض كتب محيي الدِّين بن عربي من ناحية ، وبين ما ورد في (الكوميديا الإلهية) ، وفي هذه المشابهات من الدقَّة والتفصيل ، ما يؤيِّد أنَّ التشابه هنا لم يكن أمراً عرضياً وتوارد خواطر ، بل كان تأثُّراً مباشراً ٢٠ بالتصويرات الإسلامية للآخرة »^(٥٨) .

(٥٧) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٠٠

(٥٨) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ص ٤٩

وتجلّت آثار حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في أوربة في ثلاثة مظاهر : في السَّبَبِيَّة ، ف يرى الغزالي أنَّ الأمور تتمُّ بإرادة الله لها ، لا بالأسباب الظَّاهرة لنا ، واقترب المفكر الفرنسي أرنست رينان من الحقيقة عندما قال : إن دافيد هيوم - الفيلسوف الإنكليزي - لم يقل شيئاً في السَّبَبِيَّة فوق ما قاله الغزالي . وفي الشُّك ، فقد بدأ ديكارت الفرنسي (ت ١٦٥٠ م) كما بدأ الغزالي قبله بخمسة قرون ونصف القرن : « لندع الشُّك يتسرَّب إلى كلِّ اقتناع ، بل إلى كلِّ عقيدة فينا ، ولكن لنهاجم شكوكننا واحداً واحداً ، ولنحاول أن نصرِّفها »^(٥٩) ، وبما أنَّ الشُّك أقوى دلائل التَّفكير ، فقد قال ديكارت جملة للشهورة : « أنا أفكر ، ولذلك أنا موجود ! » . وإخضاع العقل للدِّين والفلسفة للفقه ، وهذا من أبرز ما تركه التَّفكير الإسلامي على التَّفكير الأوربي في العصور الوسطى ، لقد أخضع الغزالي العلم والفلسفة والعقل للوحي والدِّين والفقه . ١٠

والغزالي لم يجد للإيمان التَّقليدي الموروث قيمة ما ، ورفع العقل إلى مرتبة عليا^(٦٠) .

وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) ، صاحب « الفِصل في الملل والأهواء والنحل » ، له نظريَّة في المعرفة ، حيث يرى أنَّها تكون : بشهادة الحواس ، أي بالاختيار لما تقع عليه الحواس ، أو بالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، أو ببرهان راجع من قُرب أو من بُعد إلى شهادة الحواس . ١٥

ثمَّ إنَّ ابن حزم يعتقد أنَّ جميع أنواع المعرفة يجب أن تعتمد على الحواس التي تعتمد هي بدورها على ما حولها من المحسوسات ، ويقول الدكتور عمر فروخ : « هذه هي المشكلة التي يزعم مؤرِّخو الفلسفة الأوربيَّة أنَّها عرَّضت أوَّل ما عرَّضت للفيلسوف

(٥٩) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٠٤

(٦٠) المرجع السابق ، ص ١٠٥

« كانت » في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، مع أنَّها عَرَضَتْ لفيلسوفنا ابن حزم في أواسط القرن الحادي عشر ، قبل « كانت » بسبعة قرون ونصف القرن »^(٦١) .

ومن عباقره للمسلمين أبو بكر محمد بن يحيى الصَّائغ ، المعروف بابن باجَّه^(٦٢) ،
الذي كانت لفلسفته قيمتان أساسيتان : إنَّه بنى الفلسفة العقلية على أسس الرياضيات
والطبيعيَّات ، كما أراد الفيلسوف الألماني « كانت » أن يفعل تماماً ، وهكذا خلع
ابن باجَّه عن مجموع الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل ، ثم خلع عليها لباس العلم
الصَّحيح ، وسيرها في طريق جديدة . وهو أوَّل فيلسوف في الإسلام (وأوَّل فيلسوف
في العصور الوسطى أيضاً) فصل بين الدِّين والفلسفة في البحث . ونقل موسى بن
يوشع المعروف في أوربة بموسى النربوني فلسفة ابن باجَّه في أواخر القرن الرَّابع عشر
لميلاد ، ولا شكَّ في أنَّ فلسفة ابن باجَّه وصلت إلى الأوربيين عن غير طريق موسى
هذا ، حتَّى كان لها تأثير كبير على فلاسفة الكنيسة في العصور الوسطى : ألبرت
الكبير ، وتوما الإكويني . وكذلك أثَّر ابن باجَّه في بوتويوس داسيا الذي قال بأن
الإنسان يبلغ السَّعادة من طريق الإحاطة بالحقائق العلمية ، وسكت عمَّا وراء ذلك .

أمَّا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل : (ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ، صاحب
قصة « حي بن يقظان » ، أعظم وأشهر قصة كُتبت في العصور الوسطى ، فقد أراد
منها أنَّ الإنسان العاقل بفطرته يصل عن طريق تفكيره الصَّحيح إلى مرتبة من
السَّعادة ، كتلك التي يصل إليها الذين يأخذون الشريعة من الأنبياء أخذاً صحيحاً .

لقد تأثر بقصة ابن طفيل موسى بن ميون ، وسبينوزا ، ونالت إعجاب لينتز ،
وظهر أثر هذه القصة أيضاً في قصة روبنسون كروزو ، التي ألَّفت سنة ١٧١٩ م .

(٦١) المرجع السابق ، ص ١٠٩

(٦٢) ابن باجَّه : (ت ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م) . ويسمونه في أوربة : Aven pace

العلوم الكونية : « العلوم الأساسية والتطبيقية ، الرياضيات والفلك ... » .

الطب : عندما اكتمل عصر الترجمة في صدر العصر العباسي ، ظهر عددٌ من الأطباء العرب المسلمين الذين ساهموا في النهضة الطبية ، وبلغ من كثرتهم ، أن الحكومات المحلية كانت تُجري لهم امتحانات رسمية ، وتمنحهم شهادات للعمل ، وكان لهم في كل مدينة رئيس هو الذي يميز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب^(١) ، وأشهرهم سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد .

وتخصّص الأطباء في الشرق والأندلس ، فهناك الجراح ، والفاصد ، والكحال ، وطبيب الأسنان ، وطبيب أمراض النساء ، وطبيب المجانين (طبيب الأعصاب) ، ومن أشهر الأطباء العرب المسلمين :

١٠ أبو بكر محمد بن زكريّا الرّازي : (ت ٣١٣ هـ = ٩٢٥ م) ، من الأئمة في صناعة الطب ، من أهل الري ، ولد وتعلّم بها ، وسافر إلى بغداد بعد سنّ الثلاثين ، يسميه كتاب اللاتينية « رازيس Rhazes » ، تولّى تدبير مارستان الري ، ثمّ رئاسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد ، كان يجلس في مجلسه ، ودونه تلاميذه ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ آخر ، فيجيء المريض فيذكر مرضه لأوّل من يلقاه ، فإن كان عندهم علم وإلاّ تعدّاهم إلى غيرهم ، فإن أصابوا وإلاّ تكلم الرّازي في ذلك . وكان أول من دوّن من العرب المسلمين ملاحظاته على مرضاه ، ومراتب تطوّر المرض ، وأثر العلاج فيه ، وهو أول من وصف الجدري والحصبة ، وقال بالعدوى الوراثية ، واستخدم

(١) وهذا نصّ إحدى هذه الشهادات في الجراحة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، بإذن الباري العظيم نسبح ... بممارسة فنّ الجراحة لما يعلمه حقّ العلم ، ويتقنه حقّ الإتقان ، حتّى يبقى ناجحاً وموفقاً في عمله ، وبناء على ذلك فإن بإمكانه معالجة الجراحات حتّى تشفى ، وبفتح الشرايين ، واستئصال البواسير ، وخلع الأسنان ، وتخييط الجروح ، ولمهارة الأطفال .. وعليه أيضاً أن يتشاور دوماً مع رؤسائه ، ويأخذ النصّح من معلّميه الموثوق بهم وبخبرتهم » ، [شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٣٨] .

الحيوان في تجارب الأدوية ، ومن مؤلفاته : الحاوي ، رسالة في الجدري والحصبة ، الكتاب المنصوري ، كتاب الأسرار ، الكتاب الجامع^(٢) .

وأبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا : (ت ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م) ، أصله من بلخ ، ومولده في إحدى قرى بخارى ، نشأ وتعلّم في بخارى ، طاف البلاد ، وناظر العلماء ، توفي في همدان . عرفته أوربة باسم Avicenne ، وله عندهم مكانة رفيعة .^٥

اشتغل بالعلم الطبيعي والإلهيات ، ثم درس علم الطب ، واستوعب الكتب المصنّفة فيه ، وعالج « تأدباً لا تكسباً » ، وقصده فضلاء هذا العلم وكبرأؤه ، يقرؤون عليه أنواعه ، والمعالجات المقتبسة من التجربة . ولقد انتقل علم الرئيس^(٣) ابن سينا سبعة قرون متوالية ، فكان المرجع في الفلسفة والطب والعلم الطبيعي .. وبقي كتابه « القانون » في الطب العمدة في تعليم هذا الفن حتى أواسط القرن السابع عشر في جامعات أوربة .

وكان لابن سينا ضلع في الترجمة ، وحقق أرصاداً فلكية ، وله بحوث مبتكرة في الحركة والقوة والفراغ والضوء والحرارة والثقل النوعي ، بالإضافة إلى ما له من أثر في بحث المعادن ، وهو بحث أدى إلى علم طبقات الأرض .

وابن سينا أوّل من وصف التهاب السحايا الأوّلي وصفاً صحيحاً ، ووصف أسباب اليرقان ، ووصف أعراض حصى المثانة ، وانتبه إلى أثر المعالجة النفسانية في الشفاء^(٤) .

وأبو مروان ابن زهر الإشبيلي : (١٠٩١ - ١١٦٢ م) : كان لترجمة كتابه التيسير إلى اللاتينية والعبرية أعظم الأثر في الطب الأوربي ، وأهم ما برع فيه ابن زهر الوصف

(٢) طبقات الأطباء ٣٠٩/١ ، تاريخ حكماء الإسلام ٢١ ، الوافي بالوفيات ٧٦/٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥١/٩

(٣) لقّب ابن سينا : الشيخ الرئيس .

(٤) وفيات الأعيان ١٥٢/٨ ، تاريخ حكماء الإسلام ٢٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٢/١

الإكلينيكي ، وترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزوميّة ، والتهاب التأمور ، ودرن الأمعاء والشّلل البلعومي .

وعلاء الدّين علي بن أبي الحزم القرشي^(٥) الملقّب بابن النّفيس : (٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م) ، من كتبه : « الموجز » في الطّب ، اختصر به قانون ابن سينا ، و « فاضل بن ناطق » على نمط « حيّ بن يقظان » لابن الطّيفيل ، و « الشّامل » في الطّب ، و « بغية الفطن من علم البدن » .. وكانت طريقته في التّأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته ، وقلّ أن يراجع أو ينقل^(٦) . ومن كتبه « شرح تشريح القانون » ، أي شرح قانون ابن سينا .

في عام ١٩٢٤ م قدم د . محي الدّين الطّطاوي رسالته في المانية ، أكّد فيها أنّ ابن النّفيس أوّل من اكتشف الدّورة الدّمويّة الصّغرى « الرّئويّة » ، وأوّل من أشار إلى الحويصلات الرّئويّة ، والشّرايين التّاجيّة ، ناقضاً نظريّة جالينوس ، ونقض ابن سينا « الشّيخ الرّئيس » في الدّورة الدّمويّة ، فقال : « التّشريح يكذب ما قالاه » .

أخذ المستشرق ماكس مايرهوف أطروحة الطّطاوي ، ونشر في مجلّة « إيزيس » مقالة عنها ، لفتت نظر جورج سارتون ، فكتب ذلك في كتابه « تاريخ العلم » ، ومن ينسب اكتشاف الدّورة الدّمويّة الرّئويّة إلى الإنكليزي « وليم هارفي » يتناسى - عن قصد أو غير قصد - أنّ ابن النّفيس عرف في أوربة منذ أوائل القرن الخامس عشر ، وهارفي درس الطّب في جامعة بادوا « بادوفا » الإيطاليّة على طبيب إيطالي زار دمشق ، ودرس ابن النّفيس ، وترجم ابن النّفيس دون أن يذكر ابن النّفيس . وبدأ هارفي يقول بنظريّته في الدّورة الدّمويّة في سنة ١٦١٦ م ، أي بعد ابن النّفيس بأربعة قرون ، والفضل لمن سبق ، لامن سرق .

(٥) بلدة « قرش » في ما وراء النّهر ، ومولده في دمشق ، ووفاته بمصر .

(٦) طبقات السّبيكي ١٢٩/٥ ، شذرات الذهب ٤٠١/٥ ، دول الإسلام للذهبي ١٤٣/٢ ، النّجوم الزّاهرة ٣٧٧/٧

رأس ابن النفيس المستشفى المنصوري بالقاهرة . وكان - رحمه الله - معتدّاً بنفسه ، مع لطف وعلم ، عندما قال : « لو أعلم أنّ تصانيفي لا تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها »^(٧) .

وخلفَ بن عباس الزُّهراوي الأندلسي : (ت ٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م) ، جعله كتابه « التّصريف لمن عجز عن التّأليف » ، من كبار جراحِي العرب المسلمين ، وأستاذ علم الجراحة في أوربة في العصور الوسطى ، وعصر النهضة الأوربيّة ، حتّى القرن السّابع عشر ، ومن خلال دراسة يكتبه تبين أنّه أوّل من وصف عمليّة تفتيت الحصاة في المثانة ، وبحث في التهاب المفاصل ، وفي السّل ، وأشار باستخدام مساعدات وممرّضات من النّساء في حال إجراء عمليّة جراحية لامرأة للطّائنية والرّقّة والأنس^(٨) .

وعبد اللطيف بن يوسف بن محمّد بن علي البغدادي : (ت ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م) ، ويعرف بابن اللباد ، وبابن النّقطة ، أحد العلماء الكثيرين من التّصنيف في الحكمة وعلم النّفس والطّب والتّاريخ والبلدان والأدب ، مولده ووفاته ببغداد^(٩) .

اعتمد التّجربة الحسيّة ، ونقض جالينوس في شرحه لعظم الفكّ بعد مشاهدة أكثر من ألفي جمجمة ، لقد صحّح أخطاء جالينوس بنظرة علميّة سليمة ، فكسرها لة التّقديس الّتي أحيط بها أطباء اليونان الكبار ، وقال : « الحِسُّ أصدق منه »^(١٠) ، لقد جعل العلم موقوفاً على التّجربة ، فكثيراً ما كان يقول : هذا الرّأي المشهور ، وهو عندنا باطل ، هذا ما قيل ، والتّشريح يكذب ما قالوه : « القول يقصر على العيان ، الحِسُّ أقوى دليلاً من السّمع » ، ولهذا كان البغدادي ينتقل بطلابّه الّذين يتردّدون عليه في دراسة الطّب إلى المقابر ليتحقّق بنفسه من أشكال العظام ، « والّذي شاهدناه من حال

(٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٦٨

(٨) طبقات الأطبّاء ٥٢/٢

(٩) فوات الوفيات ٧/٢ ، طبقات الأطبّاء ٢٠١/٢

(١٠) أي من جالينوس .

هذا العضو - عظم الفك - أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلاً ، واعتبرناه
 ماشاء الله من المرات ، في أشخاص كثيرين ، تزيد على ألفي جمجمة ، بأصناف من
 الاعتبارات ، فلم نجد إلا عظماً واحداً من كل وجه ، ثم إننا استعنا بجامعة مفترقة
 اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيانه ، وكذلك في
 أشياء أخرى غير هذه ، ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي بها
 ما شاهدناه ، وما علمناه من كتب جالينوس ، ثم إنني اعتبرت هذا العظم أيضاً بمدافن
 بوصير^(١١) القديمة ، فوجدته على ما حكيت ، ليس فيه مفصل ولا درز .. والمفاصل
 الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان تظهر وتتفرق ، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع
 أحواله إلا قطعة واحدة »^(١٢) .

١٠ القياس الساذج في صناعة الطب مطروح ، وهو موقوف على التجربة ، فإن
 صحته وصدقه قبل ، وإلا رد وطرح^(١٣) .

ومما يذكر أن اليهود يكرهون البغدادي ، وحاولوا سرقة كتابه « الإفادة
 والاعتبار » لأنه يعرّي موسى بن ميون ، فهو طبيب بلاط ، لم يؤلف ، ولم يبحث ،
 ولم يبدع ، واليهود يقولون : « مابعد موسى إلا موسى » ، هالة من التفخيم حوله
 لغمط حق العلماء المسلمين . ١٥

كما انتقد البغدادي ، أبا الحجاج يحيى بن شعون تلميذ ابن ميون ، وشبيهه في
 الصفات ، والذي فسد الغازي بن صلاح الدين فسات في قلعة حلب سنة
 ٦٥٩ هـ = ١٢٦١ م .



(١١) بوصير : اسم لأربع قرى بمصر ، وبوصير السدر : بليدة في كورة الجيزة ، معجم البلدان ٥٠٩/١ و ٥١٠
 (١٢) عبد اللطيف البغدادي في مصر ، الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر ،
 المجلة الجديدة ، مطبعة المصري .

(١٣) المرجع السابق « عبد اللطيف البغدادي في مصر » ص ٧٤

هذا .. واهتمَّ العرب المسلمون اهتماماً عظيماً بالرِّفاه العام لشعوبهم ، فأنفقوا بسخاء على المستشفيات العامة المجانيَّة ، وأهم أنواعها : مستشفيات المجذومين : وهي أوَّل أنواع المستشفيات (منذ أيَّام الوليد ٧٠٧ م) ، ومستشفيات المجانين لمعالجتهم سريريّاً ونفسيّاً ، في الوقت الَّذي كانت فيه أوربَّة تداوهم بالضُّرب المبرِّح ، والمستشفيات العسكريَّة : وكانت تنتقل مع الجيش ، وتحمل أجهزتها على الجمال والبغال ، بينما كان إسعاف الجنود في أوربَّة في العصور الوسطى يقع على عاتق الجندي نفسه . ومستشفيات السُّجون : وجدت في بغداد في العصر العبَّاسي الأوَّل ، ومآوي العجزة والعميان والأيتام : وجدت أيَّام الأمويِّين ، وزادت في العصر العبَّاسي ، المستشفيات المتنقِّلة : في الرِّيف والقرى البعيدة عن المدن والتي لأطباء فيها ، ومحطَّات الإسعاف : قرب المساجد ، ففي مسجد أحمد بن طولون مكان خاص للإسعاف ليلاً ونهاراً ، والمستشفيات العامَّة : التي لم تخلُ منها مدينة كبيرة ، ولها أوقاف واسعة للإنفاق عليها .

تقول المستشرقَّة الألمانيَّة زيجريد هونكة : « إنَّ كلَّ مستشفى ، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكلَّ صيدليَّة ومستودع أدوية في أيَّامنا هذه ، إنَّما هي في حقيقة الأمر ، نصب تذكاريَّة للبعثريَّة العربيَّة . كما أنَّ كلَّ حبة من حبوب الدَّواء ، مذهبة أو مسكَّرة^(١٤) ، إنَّما هي كذلك ، تذكُّار صغير ظاهر ، يذكرنا باثنين من أعظم أطباء العرب^(١٥) ، ومعلِّمي بلاد الغرب »^(١٦) .

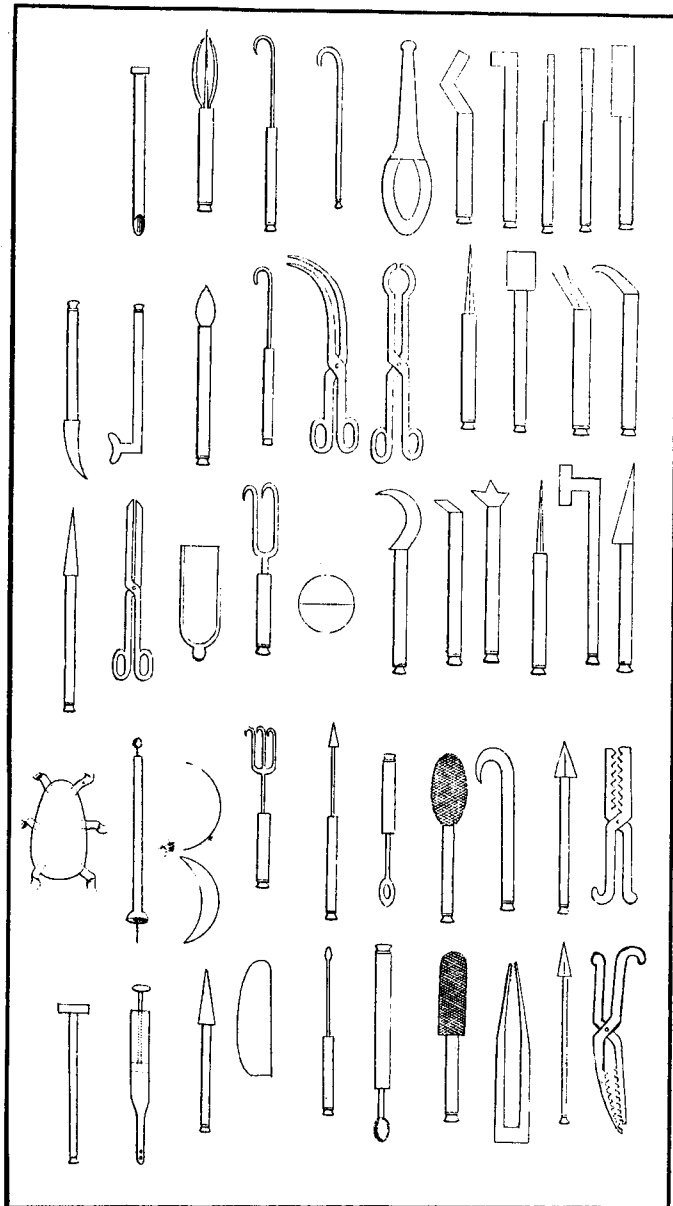
وتقول هونكة أيضاً : « والواقع أنَّ رواتب الأطباء والمساعدين والمرَّضين وصانعي الأسرة والخدم ، كانت تدفع من الرِّيع المخصَّص للمستشفى ، وكان القيِّمون عليها يسجِّلون كلَّ شيء في سجلاتٍ خاصَّة تقيَّد فيها المصروفات جميعاً في ترتيب »

(١٤) مغلفة بورقة مذهبة ، أو مغطاة بالسُّكر .

(١٥) ابن سينا والرازي .

(١٦) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٣٤

أدوات جراحية .



صورة من مخطوطة عربية تمثل طبيباً عربياً يشرح
لطلابه تصالب العصب البصري ، وأمراض العين ،
وطلابه يسجلون على دفاترهم شروحه



*ابن سينا

بديع ، وحقيقة الأمر ، أنَّ هذ السَّجلات لا تخبرنا بميزانيَّة المؤسسات فقط ، وإنَّما تُبئنا أيضاً عن قيمة رواتب الأطباء ، وأثمان العقاقير والآلات الطَّبيَّة ، وأمَّا الإشراف الطَّبي ، فقد كان من صلاحية رئيس الأطباء فقط ، وكان يُختار من بين العديد من زملائه بعد اجتياز امتحان دقيق لكفاياته العلميَّة ، ومثال ذلك ، أنَّ الرَّازي قبل اختياره لمنصبه ، اضطرَّ أن يبرهن على طول باعه وتضلُّعه من فنِّ الطَّبِّ أمام مئة منافس له ، وأن يبرزهم جميعاً في المسابقة ، وبعد تسلُّمه لمنصبه أصبح له فريق من الأطباء يجاوز عددهم الأربعة والعشرين ، فمنهم المختص بالأُمراض الدَّاخليَّة ، ومنهم بالأُمراض العصبيَّة ، ومنهم الجُرَّاحون البارعون ، ومنهم المتضلُّعون بأُمراض المفاصل والعظم (Orthopadie) ، ومنهم أطباء العيون ، وكان كلُّ واحد منهم يتسلَّم إدارة قسم ما ، مدَّة من الزَّمن ، ثمَّ يخليه لزميله في الاختصاص ، وهكذا دواليك ، هذا وقد كتب هنا الطَّبيب والشَّاعر ابن أبي أصيبعة^(١٧) الَّذي درس الطَّبِّ في مدينة دمشق تقريراً وافياً عما يقوم به يومياً رئيس الأطباء في المستشفى فقال :

كان دأبُ ابن أبي الحكم^(١٨) رئيس أطباء مستشفى النوري في دمشق ، القيام بزيارته للمرضى صباح كل يوم ، ليستخبر عن أحوالهم ، ويستعلم عن رغباتهم ، وكان يصحبه في تجواله هذا رهطٌ كبير من مساعديه الأطباء والمرضى .

وكان كل ما يصفه للمرضى من أدوية أو حِمِّيات يُسجَّل بلا إبطاء ، ويُعَمَّل به بلا توانٍ ، وبعد جولته هذه ، كان يذهب إلى حيِّ القصبَة ليعاين نبلاء القوم وموظفي الدَّولة ذوي الشَّأن^(١٩) ، ثمَّ يعود إلى المستشفى ، فيجلس في القاعة الكبيرة بين كتبه وأوراقه ليحضّر محاضراته التَّالية ، لقد أقام نور الدِّين ، رحمه الله ، في هذا المستشفى

(١٧) أحمد بن أبي أصيبعة ، صاحب كتاب : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، منشورات دار الحياة ، بيروت .

(١٨) محمد بن عبيد الله بن مظفر بن عبد الله الباهلي ، أبو المجد بن أبي الحكم « ت ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م » .

(١٩) « فإذا فرغ - من جولته - خرج إلى القلعة فافتقد مرضى السُّلطان - نور الدِّين - وغيرهم ، ثمَّ عاد إلى البيارستان » .

مكتبة ضخمة جمعت كتباً ومخطوطات قيّمة ، رُتبت على رفوف عالية في القاعدة الكبيرة ، وكان يأتي إليه أطباء وطلاب كثر ، فيجلسون بين يديه ، ويسمعون له ، ويحفظون عنه ، ويجادلونه في الأمور المستعصية ، والحالات النادرة التي صادفتهم في مستشفاهم^(٢٠) .

- لقد كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب ، بينما كان طلاب العلم في أوربة يسهرون درساً وحفظاً على ضوء الشموع في قاعات الأديرة ، كانت التجربة العلمية هنا تسير مع العلم جنباً إلى جنب ، وتُجابه النظريّات ، على أسيرة المرضى ، حقائق المعاينة والكشف ، وحقائق التجارب ، فتفند الظواهر تفنيداً علمياً ، وتشبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً ، وعلاجها تفصيلاً وشرحاً ، « بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب ، حيث كانت النظريّات الجافة تملأ عقول رجال الأكليروس ، وتحول دونهم والاحتكاك بال مخلوقات ذات الدماء الحارة »^(٢١) .

- وهناك حادثة طريفة ، رواها ابن شاهين الظاهري^(٢٢) ، كان أطباء دمشق يتندرون بها ، وهي قصة أحد الظرفاء من الذين يملكون شهية طيبة للطعام ، كان بالقرب من بيارستان نور الدين ، فبلغت أنفه رائحة دجاجة مشوية ، ودغدغت حاسة الشم لديه ، وعلى الفور قرّر أن يتارض ، وأخذ يئن ، وأدخل المستشفى ، وحين فحصه الطبيب لم يجد لديه أية علة ، ولكن بعض الاستفسارات نبّهت الطبيب إلى حقيقة أطماع ذلك الشره ، وإلى أصل الداء عنده ، فلم يكشف من أمره شيئاً ، بل أمر بنقله إلى جناح المرضى الداخليين ، ووصف له وجبتين في النهارمًا لذ وطاب من رقائق الحلوى بالعسل ، وكبد الطيور ، ولحم الدجاج ، والفاكهة المطبوخة بالسكر والشراب . ومع ذلك ، فقد كان يتارض وهو في قمة السعادة ، وبعد مضي ثلاثة أيام ٢٠

(٢٠) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٢٣

(٢١) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٢٤

(٢٢) خليل بن شاهين الظاهري « ت ٨٧٣ هـ = ١٤٦٨ م » له نحو ٣٠ مصنفاً .

على هذه « الحِمِيَّة » التي كادت تفقد المريض كلَّ مناعة ، وتودي به إلى حتفه ، قال الطبيب : لقد انقضت الأيام الثلاثة للضيافة العربيَّة ، فامضِ مرتاح الضمير ، يارعاك الله (٢٣) .

وهكذا .. كان العلاج بالبيمارستان النوري ، الذي أنشأه نور الدِّين بدمشق عام ١١٦٠ م ، مجانياً للفقراء وللأغنياء سواء بسواء ، دون أن تكلف المريض درهماً واحداً ، بل كانوا يمنحون لدى خروجهم من المستشفى ثياباً وتقوداً تكفيهم للعيش دون عمل في فترة النقاهة . « لقد كانت المعالجة بالموسيقى ، والترويح عن المرضى وتسليتهم عن آلامهم بالقصاصين والمنشدين ، ولن يخرج من البيمارستان عند برئه كسوة ، وخمس قطع من الذهب ، إعانة حتَّى تنتهي فترة نقاهته » ، ولقد ظلَّ ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ، ويمدِّهم بالدواء من غير ثمن ، ويقول المؤرِّخون : إنَّ نيرانه ظلَّت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة ، (قصة الحضارة : ١٣ / ٣٦٠) .



الكيمياء والصَّيدَلَةُ : لقد شغلت فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة خالد بن يزيد الأموي ، وبقيت تحمُّس الكثيرين على إجراء التجارب الكيميائيَّة في علم عرفوه باسم « علم الصَّنعة » ، فنشطت بذلك صناعة الكيمياء والصَّيدَلَةِ معاً ، قال البيروني : « الصَّيدلي هو المحترف بجمع الأدوية على أحد صورها ، واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركَّبة على أفضل التراكيب التي خلَّدها له مبرزو أهل الطَّبِّ » .

لقد كانت الأدوية المفردة هي العقاقير الأصليَّة ، فإذا اجتمعت كانت الأدوية المركَّبة التي سَمَّاها العلماء المسلمون « الأقرباذين » .

(٢٤) وفي رواية : كانت الوصفة الأولى الدُّجَاج السَّمين ، والأشربة الزُكِّيَّة ، والفواكه الشَّهيَّة ، وأقراص الحلوى .. وبعد ثلاثة أيَّام ، كتب الطَّبيب لهذا المَريض وصفة أخرى قَتَمها له ، جاء فيها : إنَّ حدَّ الضَّيَّافة ثلاثة أيَّام .

وكان الصيادلة خاضعين منذ أيام المأمون لامتحان يحصلون بعده على إجازة لممارسة المهنة ، وكانوا يدعون « عطَّارين » ، ولهم عيد يرأسهم .

والمسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصِّيدليَّات ، وهم الَّذِينَ أنشؤوا أول مدرسة للصِّيدلة ، وفي قصَّة الحضارة : ١٨٧/١٣ : « يكاد المسلمون يكونون هم الَّذِينَ ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم » .

ومن أعلام الكيمياء والصِّيدلة المسلمين :

جابر بن حيَّان الكوفي : (ت : ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م) ، بلغت تصانيفه مئتين واثنين وثلاثين كتاباً ، ترجم قسم منها إلى اللاتينية ، وعرف عندهم « Geber » ، وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك وسماه زيت الزَّاج ، وأول من اكتشف الصُّود الكاوي ، وأول من استحضرماء الذهب ، ودرس خصائص مركَّبات الزُّئبق واستحضرها . ومن كتبه « السُّوم » .

يقول غوستاف لوبون : « تتألَّف من كتب جابر موسوعة علميَّة تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره ، وقد اشتملت كتبه على بيان مركَّبات كيميائيَّة كانت مجهولة قبله ، وهو أول من وصف أعمال التَّقطير والتَّبَلُّور والتَّذويب والتَّحويل .. » (٢٤) .

وأبو بكر الرَّاзи ، وقد مرَّت ترجمته في الطُّب ، وقد سلك في بحوثه وتجاربه مسلكاً علميَّاً سليماً ، ففي كتابه « سُرُّ الأسرار » ذكر تجاربه مبتدئاً بوصف المواد التي اشتغل بها ، ثمَّ الأدوات والآلات ، ثمَّ الطَّريقة التي اتَّبَعها في تحضير المركَّب « وهذا هو النَّهج العلمي الصَّحيح في البحث العلمي » .

وأبو الرِّيحان مُحَمَّد بن أحمد البيروني : (ت ٤٤٠ هـ = ١٠٥٠ م) ، لقد مثَّل ٢٠ موسوعة علميَّة في زمانه ، أو دائرة معارف كاملة ، قال عنه « ول ديورانت » في قصَّة

(٢٤) حضارة العرب ، ص ٥٧٤

الحضارة : « إنَّ البيروني هو مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه ، كان فيلسوفاً مؤرخاً جغرافياً لغوياً رياضياً فلكياً شاعراً وعالمأ طبيعياً .. وخلف مؤلفات في جميع هذه العلوم .. » .

وكتابه في الصيدلة اسمه « كتاب الصيدلة » ، أشار فيه إلى ما للعقار من مكانة خاصة بين الأطعمة والسُّموم .

وأحمد الغافقي : (ت ٥٦٠ هـ = ١١٦٤ م) ، وكتابه « الجامع في الطب في الأدوية المفردة » .



• صانع العقاقير

من مآثر العرب المسلمين في الكيمياء والصَّيدلة : عرفوا طرق التَّقطير والتَّرشيح والتَّكليس والتَّحويل والتَّيخُّر والتَّذويب والتَّبَلُّور ، واكتشفوا الكحول والقلويَّات ، والنَّشادر ، ونترات الفضة « حجر جهنم » ، والبورق ، والزَّرنِخ ، وزيت الزَّاج « حامض الكبريتيك » ، والبوتاس ، والسَّنَكِّي والكافور ، والصَّنَدل والرَّاوند ، والمسك والمر ، وجوز الطَّيب وهم الَّذِينَ اخترعوا الأشربة والمستحلبات والخلاصات العطريَّة ، وتوصَّل ابن سينا إلى تغليف الحبوب الَّتِي يصفها للمرضى منعاً لمرارتها أن تؤذي اللِّسان ، وعملوا التَّرياق المؤلَّف من عشرات الأدوية ، وهم أوَّل من استعمل « المُرَقَد » من الأفيون والزَّيوان أو الشَّيْلَم للتَّخدير .

ولعلَّ أكبر دليل على منجزات العرب المسلمين العظيمة في علمي الكيمياء والصَّيدلة ، ما نراه اليوم من كلمات وأسماء عربيَّة ماتزال على لسان كلِّ عالم كيميائي ، بل ولسان كلِّ ربَّة منزل ، منها^(٢٥) :

Realger	رهج النَّار	Markasit	مركزة	Borax	البورق
Savon	الصَّابون	Natron	نظرون	Elixier	الإكسير
Tutia	التَّوتياء	Soda	الصُّودا	Kalium	قلي (قلويَّات)
Kasdir	القصدير	Chemie	الكيمياء	Kalium	قلي (مفرد)
Kebrit	كبريت	Caz	الغاز	Alambik	الإنبيق
Saffron	زعفران	Zaibag	الزَّئبق	Aludel	الأثال « الجزء السُّفلي من آلة التَّقطير »
Balsam	بلسم	Kermes	قرمز	Alkohol	الكحول (الغول)
Anilin	إنيلين (نيلة)	Talkum	الطُّلُق (البودرة)	Amalgam	الملغم
					(معدن زئبقي)

(٢٥) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٢٧

هذا .. وحضر أبو القاسم بن أحمد المجريطي (ت ١٠٠٧ م) في قرطبة أكسيد الزئبق ، هذه المادة التي لعبت دوراً هاماً في أبحاث بريستي ولافوازيه في القرن الثامن عشر .

أما عز الدين بن علي الجليدي (ت ١٣٦٣ م) صاحب كتاب « التّقريب في أسرار التّركيب » ، فقد فصل الذهب عن الفضة بوساطة حامض النّترك ، وهي طريقة ماتزال تستخدم ، ولها شأن في تقدير عيارات الذهب في المشغولات والسبائك الذهبية .



علم النبات : سطعت في سماء هذا العلم أسماء كثيرة ، منها :

١٠ أبو حنيفة أحمد بن داود الدّينوري : (ت ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) ، مهندس مؤرّخ نباتي ، من كتبه « النبات » . وعرف - كما عرف نباتيُّو العرب - أن يستولد ثماراً ذات صفات جديدة بطريقة التّطعيم ، وأن يخرج أزهاراً جديدة بالمزاوجة بين الورد البري وشجرة اللوز .

١٥ إنّ الدّينوري أوّل المؤلّفين المسلمين في علم النبات ، دوّن في تآليفه ملاحظاته الشخصية (٢٦) .

ورشيد الدّين الصّوري : (ت ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) ، الذي كان مولعاً بالتّقيب عن غريب النباتات والحشائش ، يستصحب مصوراً ، معه الأصباغ ، ويتوجّه إلى المواضع التي فيها النباتات ، فيشاهده ويحقّقه ، ويريه للمصوّر فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصوّر بحسبها ، وكان يُري المصوّر النبات في إبان نباته وطراوته فيصوّره ، ثمّ يريه إيّاه وقت كاله وظهور بزره فيصوّره تلو ذلك ، ثمّ يريه

(٢٦) إرشاد الأريب ١٢٣/١ ، وخزانة الأدب للبغداد ٢٥/١

إيَّاه في وقت دَوِيَّه وَيُثْسِيهِ فيصَوِّره ، وقد أتى ذكر كثير من هذه الأعشاب في كتابيه « الأدوية المفردة » ، و « التَّاج »^(٢٧).

لقد وصف الصُّوري ٥٨٥ عقاراً ، منها ٤٦٦ من فصيلة النِّبات ، و ٧٥ من المعادن ، و ٤٤ من فصيلة الحيوان .

- ٥ عبد الله بن أحمد المالقي ، أبو محمد ضياء الدِّين المعروف بابن البيطار : (ت ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) ، رئيس العشَّابين ، وكبير العطَّارين ، والصَّيادلة في مصر ، ولد قرب مالقة ، وتعلَّم الطِّب ، ورحل إلى اليونان « بلاد الأغارقة » ، وأقصى بلاد الرُّوم باحثاً عن الأعشاب والعارفين بها ، حتَّى كان الحجَّة في معرفة أنواع النِّباتات ، وتحقيقه وصفاته ، وأسمائه وأماكنه ، ففارق أستاذه أبا العبَّاس أحمد بن مُحمَّد بن أبي الخليل ، المعروف بابن الروية (ت ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) .

اتصل ابن البيطار بالكامل الأيوبي في مصر ، فجعله رئيس العشَّابين في الدِّيار المصريَّة ، من كتبه : « الأدوية المفردة » ، في مجلِّدين ، المعروف بمفردات ابن البيطار ، وله « المغني في الأدوية المفردة » .. لقد عرف في أوربة بحق ، باسم « أبي علم النِّبات »^(٢٨).

- ١٥ لقد ذكر الجاحظ أنَّ ثلاث مئة وستين صنفاً من التَّمور كانت موجودة في سوق البصرة^(٢٩) ، ووفقاً لما كتبه ابن رشد في مطلع القرن العاشر الميلادي كان هناك ثمان وسبعون صنفاً من العنب في المناطق المجاورة لصنعاء ، ويذكر عبد اللطيف البغدادي

(٢٧) طبقات الأطباء ١٢٣/٢ - ١٣٠

(٢٨) طبقات الأطباء ١٣٣/٣ ، ونفح الطيب ٦٨٣/٢ ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة ١٠٤/١

(٢٩) « الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي » انتشار المحاصيل والتقنيات الزراعيَّة ما بين عامي ٧٠٠ - ١١٠٠ ميلادية . تأليف د. أندريو واطسون ، ترجمة د. أحمد الأشقر ، مراجعة د. محمد نذير

سنكري ، نشر معهد التراث العلمي العربي (حلب) ، ص : ٣

أن « هذه الأنواع والأصناف كانت تطعم على بعضها ، أو تهجن ، لتنتج مجموعة لا حصر لها من الأصناف الجديدة »^(٣٠) .

ويذكر البدرى أنه كان في منطقة دمشق وحدها واحد وعشرون صنفاً من المشمش وخسون صنفاً من الزبيب ، وأدخل العرب المسلمون القطن وقصب السكر إلى البلدان الأوربية ، وأوصلوا القمح القاسي إلى الأندلس بحلول القرن العاشر الميلادي - كما تشير إلى ذلك أقوال الرازي - وذكر عنه أنه يبقى عشرات السنين لا يتغير ولا يفسد . أما الحميري فيشير إلى أن قمح (لورقة) يبقى مخزناً مدة عشرين سنة دون أن يفسد ، أما المقرئ في نفح الطيب فإنه يشير إلى إمكانية عثورك في (سرقوسة) على قمح عمره مائة سنة^(٣١)

« ومن الطريف أن نشير إلى قابلية القمح الإسباني لل تخزين مدة طويلة من الزمن علق عليها مؤلف صيني من القرن الثالث عشر وهو تشاو جو - كاو Chau Ju-Kau الذي قال : إن القمح في جنوبي إسبانيا يمكنه أن يخزن عشرات السنين دون أن يناله العطب أو التلف » ، ويعلق الدكتور محمد نذير السنكري على هذا القول : وهذا يشير إلى أن بعض الكتب العربية الزراعية والجغرافية وغيرها كانت قد ترجمت إلى اللغة الصينية قبل القرن الثالث عشر^(٣٢) .

والتكثيف الزراعي بدأه المغرب العربي منذ أيام يوسف بن تاشفين^(٣٣) ، أمير

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٤ ، عن كتاب الإفادة .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٤٧

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٥٤

(٣٣) محاضرة للدكتور محمد نذير السنكري في معهد التراث بحلب ١٩٨٦/١٢/٢٠

المرابطين ، فقد كان يحمل محصولاً على محصول ، وتزرع الأرض أربع مرّات في العام الواحد ، كي لا تبقى بوراً ، وعندما بُنيت مَراكش ، زرع النخيل الذي يمثّل مظلة واقية ، وزرع تحته الزيتون ، وزرع تحت الزيتون « البرسيم » لحيل الجند المجاهدين .

يقول الإسباني خوان فيرنيت Juan Vernet في كتابه « فضل عرب إسبانية على الثقافة » ^(٣٤) : « Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne » : إن علم تأصيل الحبوب والنبات يُعَدُّ علم القرن الواحد والعشرين ، وابن رافد الأندلسي في كتابه « الزراعة »^٥ طرح نظرية جنس النبات « ذكر وأنثى » ، ومن الصعب تصوّر أي تقدّم لأحد في هذا الميدان ، خصوصاً على يد الألمانيّين يورك (ت ١٥٥٣ م) ، وبروفلز ، دون علم النبات كما عرّف في الأندلس في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن يعوزه البرهان ، يحيله المؤلّف إلى العديد من التعابير العلميّة العربيّة في أبحاث هذين العالمين الألمانيّين .

وإسبانية اليوم بعد عشرة قرون ، عادت لتستفيد من منجزات يحيى بن العوام الإشبيلي ، الذي كان يطعم الصنوبر ، فبدأت تطعم الصنوبر الإسباني بالصنوبر الحلبي كما كان يفعل ابن العوام تماماً .

^{١٥} وعرفت الأندلس كتباً متخصصة بالأزهار ، وأخرى متخصصة في تربية البلبال ...

والإمام حجة الإسلام الغزالي وصل إلى مبادئ علميّة عجز عنها غيره ، عندما عزا « النتج »^(٣٥) في الشجرة إلى الشمس .

(٣٤) الأسبوع العربي ، العدد ١٤٠٠ (١١ آب « أغسطس » ١٩٨٦) ، ص ٥٠ ، ترجمه إلى الفرنسيّة غابرييل مارتينيز غرو « دار سندباد » .

(٣٥) النتج : التفرّق ، والرّشح ، (اللسان : نتج) .

وهكذا .. وعلى الرغم من أن العرب المسلمين كانوا رواد زراعة البيئة الصحراوية في العالم بأساليب علمية تجريبية ، وأساتذة العالم في تصنيف الأراضي ، وأساتذته في علم تهجين النبات ، الذي كان في أوربة محرماً حتى القرن الثامن عشر ، وأقر هذا الفضل مؤتمر أريزونا ١٩٨٥ ، حيث أقرت أبحاثه إبداع العرب المسلمين في تهجين النباتات ، على الرغم من ذلك كله جاء « ابن الوحشية » في كتابه « الفلاحة النبطية » - وهو شعوبي دعي - فخلط الحقائق بالسحر والأساطير ، ودسّ على العرب ، فأساء إلى أمتنا بجنث وذكاء .



إسهامات العرب المسلمين في العلوم التطبيقية :

مراحل النهضة العربية الإسلامية في العلوم التطبيقية :

١ - مرحلة مسح المراجعة المتوفرة .

٢ - مرحلة الإنتاج في العلوم النظرية .

٣ - مرحلة الإنجازات في العلوم التطبيقية^(٣٦) .

وساعد على هذه النهضة العلمية : الحرية المطلقة للعالم في إبداء الرأي العلمي ، والمساعدات المادية الكبيرة من ذوي السلطان وأولي الأمر ، وتقدير المجتمع للعلماء ، فقد كانت لهم منزلة مرموقة في المجتمع ، بالإضافة إلى العامل الديني ، فقد كان الإسلام - ولم يزل - يشجع العلوم النافعة كلها .

ومن الذين عملوا وأبدعوا في « علم الحِيل = الآلات = الميكانيك » ، أولاد موسى بن شاكر^(٣٧) : محمد وأحمد والحسن ، تخرجوا من « بيت الحكمة » ، أكاديمية العلوم العالمية في عصرها . وفي كتابهم « كتاب الحِيل » ، وصف لآلات مائية لم يسبق لأحد الحديث عنها .

وعباس بن فرناس الأندلسي : (ت ٢٧٤ هـ = ٨٨٨ م) ، الذي من اختراعاته : النظارات والساعات الدقيقة المعقدة التركيب ، والقبة الفلكية التي صنعها في بيته ، جاء في نفح الطيب : « وصنع في بيته على هيئة السماء ، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود » ، واختراع الزجاج من الحجارة « الكريستال » وهو أول من

(٣٦) أمّا مراحل تطبيق تكنولوجيا ما في : ١ - البحث العلمي : Research ، ٢ -

التطوير : Development ، ٣ - التّجني والإقرار : Adoption ، ٤ - التّكيف : Adjustment ، وهي

مراحل قد تكون متداخلة أحياناً .

(٣٧) عاصروا المأمون العباسي : (ت ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م) .

صنع ذلك في الأندلس ، ومحاولة الطيران في الجو ، وله في ذلك فضل الريادة^(٣٨) ،
والساعة لمعرفة مواقيت الصلاة ، وأهداها إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي ، أمير
قرطبة ، ونقش عليها من شعره :

أَلَا إِنِّي لِلْـمُـذِّنِّ خَيْرُ أَدَاةٍ إِذَا غَابَ عَنْكُمْ وَقْتُ كُلِّ صَلَاةٍ
وَلَمْ تَرُ شَمْسَ بِالنَّهَارِ وَلَمْ تُنْزِ كَوَاكِبُ لَيْلِ حَالِكِ الظُّلُمَاتِ
يُؤْمِنُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٌ تَجَلَّتْ عَنِ الْأَوْقَاتِ كُلِّ صَلَاةٍ

وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري : (ت ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م) ،
الذي اخترع الرِّقَاص « البندول » ، وعرف أشياء كثيرة من قوانين تذبذبه ، وبعد
ستائة وخمسين عاماً من اختراعه ، جاء غاليلو الإيطالي (١٥٦٤ هـ = ١٦٢٤ م) ،
ليتوسّع في درس الرِّقَاص ، وليضع أكثر القوانين التي نعرفها اليوم عن الرِّقَاص ، ثمَّ
حَسَبَهَا حساباً رياضياً .

وأبو الفتح عبد الرحمن الخازن^(٣٩) : (ت نحو ٥٥٠ هـ = نحو ١١٥٥ م) ، حكيم
فلكي مهندس ، من كتبه « ميزان الحكمة » ، تحدّث عن الخاصّة الشعريّة ، والوزن
النوعي لعدد من المواد بدقة .

وهذه قائمة بمواد استخراج البيروني والخازن ثقلها النوعي ، لمقارنتها بالأرقام
الحديثة ، ويظهر أن البيروني قد استعمل طريقتين لاستخراج الثقل النوعي^(٤٠) :

(٣٨) تمت هذه المحاولة التي أودت بحياة ابن فرناس في مدينة الرصافة ، ضواحي قرطبة .

(٣٩) أو الخازني .

(٤٠) تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٢٢ ، عن : Aldo Miele, La Science Arabe, P. 101

المادة	أرقام البيروني		الخازن	الأرقام الحديثة
الذهب	١٩,٢٦	١٩,٠٥	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٧٤	١٣,٥٩	١٣,٥٦	١٣,٥٩
النحاس	٨,٩٢	٨,٨٣	٨,٦٦	٨,٨٥
النحاس الأصفر	٨,٦٧	٨,٥٨	٨,٥٧	٨,٤٦

ولقد خصَّ الخازن نفسه باستخراج الثقل النوعي للسوائل التالية :

المادة	النسبة التي استخرجها الخازن	النسبة الحديثة
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧
الماء إذا بلغ درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩٩
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١
حليب البقر	١,١١٠	١,٤٢-١,٠٤
دم الإنسان	١,٠٣٣	١,٠٧٥-١,٠٤٥

- ١٥ « ويجب أن نعدَّ النسبة التي وصل إليها الخازني دقيقة جداً ، لأن الاختلاف بين ما وصل هو إليه وبين ما وصل إليه العلماء للمعاصرون لنا يمكن تعليله ، إنَّ مياه البحر مثلاً تختلف في مقدار الأملاح التي فيها اختلافاً كبيراً ، فكلما كان البحر صغيراً وإقليمياً (داخلياً) كالبحر الميت ، وبحر قزوين ، كانت مياهه أكثر ملوحة ، وبالتالي أثقل من مياه البحار العظمى ، كالحيط الأطلسي والمحيط الهادي ، وكذلك الثقل النوعي لحليب البقر يختلف بين بقرة وبقرة بالإضافة إلى المرعى ، فالمرعى الخصب الغني يزيد مقدار السمن من الحليب ، فيكثر حينئذ الثقل النوعي للحليب ، ونحن لا نعلم اليوم أيَّ مياه البحار فحص الخازني ولا عدد البقر الذي أجرى عليه تجاربه .

ولقد عرف الخازني أنَّ الأجسام السَّاقطة تنجذب في سقوطها نحو مركز الأرض^(٤١) .

أما ثابت بن قُرة الحرَّاني : (ت ٢٨٨ هـ = ٩٠١ م) ، أعظم هندسي عربي على الإطلاق ، فقد شرح الجاذبيَّة : « إنَّ المَدْرَةَ^(٤٢) تعود إلى السَّفل لأنَّ بينها وبين كَلِيَّة الأرض مشابَهة في الأعراض ، أعني البرودة والكثافة ، والشَّيء ينجذب إلى أعظم منه » ، وشرح الرَّازي ، هذه العبارة بقوله : « إنَّنا إذا رمينا المدرة إلى فوق ، فإنَّها ترجع إلى أسفل ، فعلمنا أنَّ فيها قوَّة تقتضي الحصول في السفلى ، حتَّى إذا رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوَّة إلى أسفل^(٤٣) .

وبديع الزَّمان إسماعيل الجَزَري^(٤٤) ، عالم ميكانيكي من الطُّراز الأوَّل ، فهو مهندس جِرْفِي ، يَصمِّم ويرسم وينقِّذ ، كتابه : « الجامع بين العلم والعمل النَّافع في صناعة الحيل » ، والحيل هنا « الهندسة الميكانيكيَّة » طبعاً ، وأعظم اختراع للجزي « الدَّسَّامات » .

أما تقي الدِّين الدَّمشقي ، (ت ١٥٢٥ م) ، الَّذي ساهم في بناء مرصد إسطنبول ، فقد اخترع المضخَّة ذات الأسطوانات السَّتِّ ، والَّتِي هي فكرة المحرَّكات الانفجاريَّة في جوهرها . ١٥

هذا .. وأتقن العرب المسلمون صناعة الموازين الدَّقِيقة ، وفرق الخطأ أقل من أربعة في ألف جزء من الغرام ، لقد وزن « فلندر بتري » ثلاثة نقود عربيَّة قديمة ، فوجد أنَّ الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الغرام ، فقال : إنَّه لا يمكن

(٤١) المرجع السَّابق ، ص ٢٢٤

(٤٢) المَدْرَة : قطع الطين اليابس ، (اللسان : مدر) .

(٤٣) تاريخ العلوم في الإسلام ، هامش ص ١٤٤

(٤٤) نسبة إلى جزيرة ابن عمر ، على نهر دجلة جنوبي ديار بكر ، عاش حوالي ١٢٠٠ م ، ألف لمحمد بن أرتق صاحب آمد كتاباً في معرفة الحيل الهندسية ١٢٠٥ م ، وفيه تعليمات لصنع السَّاعات .

الوصول إلى هذه الدقّة في الوزن إلّا في استعمال أدق الموازين الكيماويّة . وبتكرار الوزن مراراً ، حتّى لا يبقى فرق ظاهر في رجحان أحد الموازين على الآخر ، ولذلك فالوصول إلى هذه الدقّة لمّا يفوق التّصوّر ، ولا يعلم أنّ أحداً وصل إلى دقّة في الوزن مثل هذه الدقّة^(٤٥) .

وطوّروا آلة الأسطرلاب^(٤٦) ، لقد عرف اليونانيّون بضع طرق لاستعمالها ، بينما ذكر الخوارزمي أكثر من ثلاث وأربعين طريقة لاستعمالها ، ثمّ أتى على وصف ما يقارب ألف طريقة لاستعمالها .



أَسْطُرْلَابٌ عَرَبِيٌّ

(٤٥) تاريخ العلوم في الإسلام ، هامش ص ١٤١

(٤٦) لقد رأيتُ في مرصد غرينتش أسطرلابين كتب على أحدهما : صنع في سورّيّة ، وكتب على الآخر : صنع في مصر .

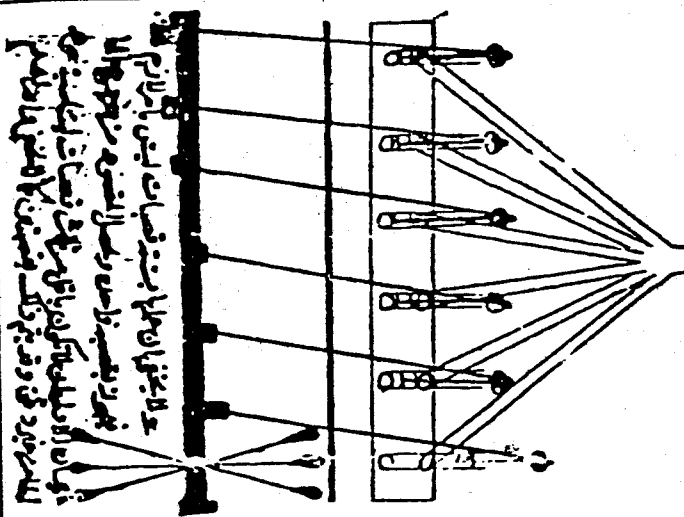
وأبدعوا في الساعات الشمسية والمائية الدقاقة ، « هذا وقد انفتحت آفاق عديدة أمام العرب ، فصنعوا الساعات التي تسير على الماء ، وعلى الزئبق ، وعلى الشمع المشتعل ، أو التي تعمل بوساطة الأثقال المختلفة ، فكان أن أوجدوا الساعات الشمسية الدقاقة التي كانت تُعلن ساعة الغداء بصوت رنان ، والساعات المائية التي كانت تقذف كل ساعة كرة في قذح معدني ، وتدور حول محور تظهر فيه النجوم ورسومات من عالم الحيوان ، أو ساعات تحمل فتحات منسقة الواحدة تلو الأخرى في شكل نصف دائري ، وما تلبث أن تبرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلاً في حين يمر فوقها هلال وضأ ، وفي عام ٨٠٧ م قدم عبد الله رسول هارون الرشيد إلى القيصر شارلمان ، في مدينة آخن (Aachen) من أعمال ألمانيا ، ساعة من هذا النمط ، وقد علق مؤرخ القيصر « إينهارد Einhard » على هذا الحدث في يومياته قائلاً : « كانت ساعة من النحاس الأصفر ، مصنوعة بمهارة فنية مذهشة ، وكانت تقيس مدة اثنتي عشرة ساعة ، وفي حين إتمامها لذلك ، كانت تسقط إلى الأسفل اثنتي عشرة كرة صغيرة ، محدثة لدى اصطدامها برقاص معدني مثبت ، دويًا إيقاعيًا جميلاً ، بالإضافة إلى عدد مماثل من الأفراس الصغيرة التي كلما دارت الساعة دورتها الكاملة قفزت من فتحة اثنتي عشرة بوابة وأغلقتها بقفزاتها هذه ، وهناك أشياء أخرى كثيرة تسترعي الانتباه في هذه الساعة تدعو إلى العجب والدهشة ، وليس ثمة مجال لعدّها ؛ إذ إن ذلك قد يقودنا إلى تفاصيل كثيرة » .

« ونحن مازلنا حتى يومنا هذا نقف فاغري الأفواه دهشة وإعجاباً ، كلما رأينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية ، وما يرافق دقاتها من ظهور شخوص صغيرة متحركة ، تذكرنا بما فعله العرب ، في الماضي البعيد ، حباً بالألعاب الميكانيكية وولعاً بها » ^(٤٧) .

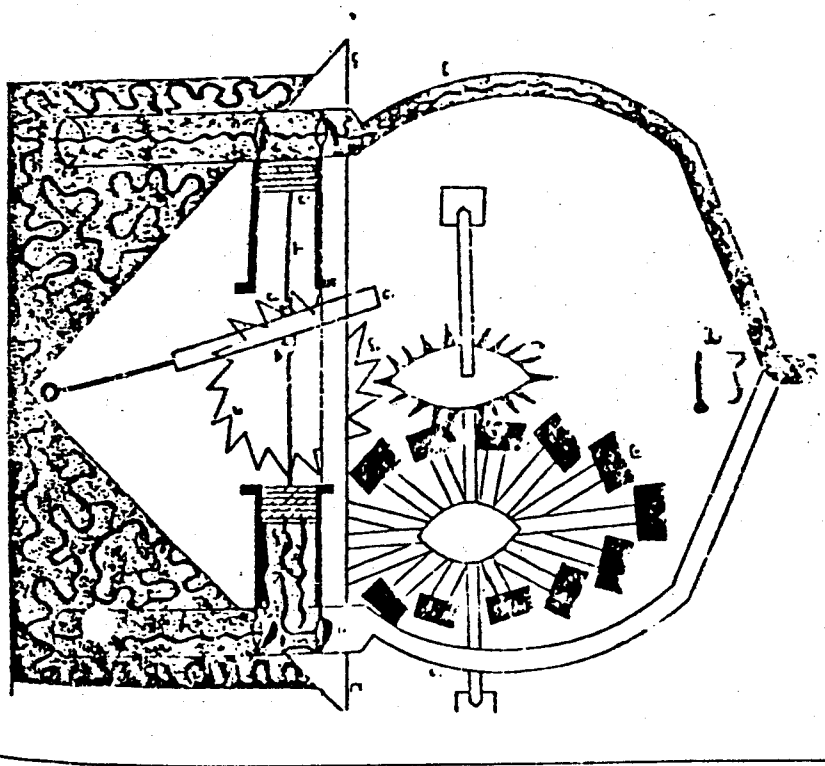
كما أوجد العرب المسلمون عدداً من الروافع المبنية على قواعد ميكانيكية لجراً الأثقال بقوى يسيرة لرفعها أو لوزنها ..

(٤٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيفريد هونكة ، ص : ١٤٢

زامن ولجهت ترسبه خلقت الانر بديتاي مع خروج الآثر
 السبعة الشبهه وحرارة الارض الكبر وانبساطها من انفسهم من الكواكب
 واما هذه صورها



مضخة ذات ستة مكابس (تقي الدين المشقي)

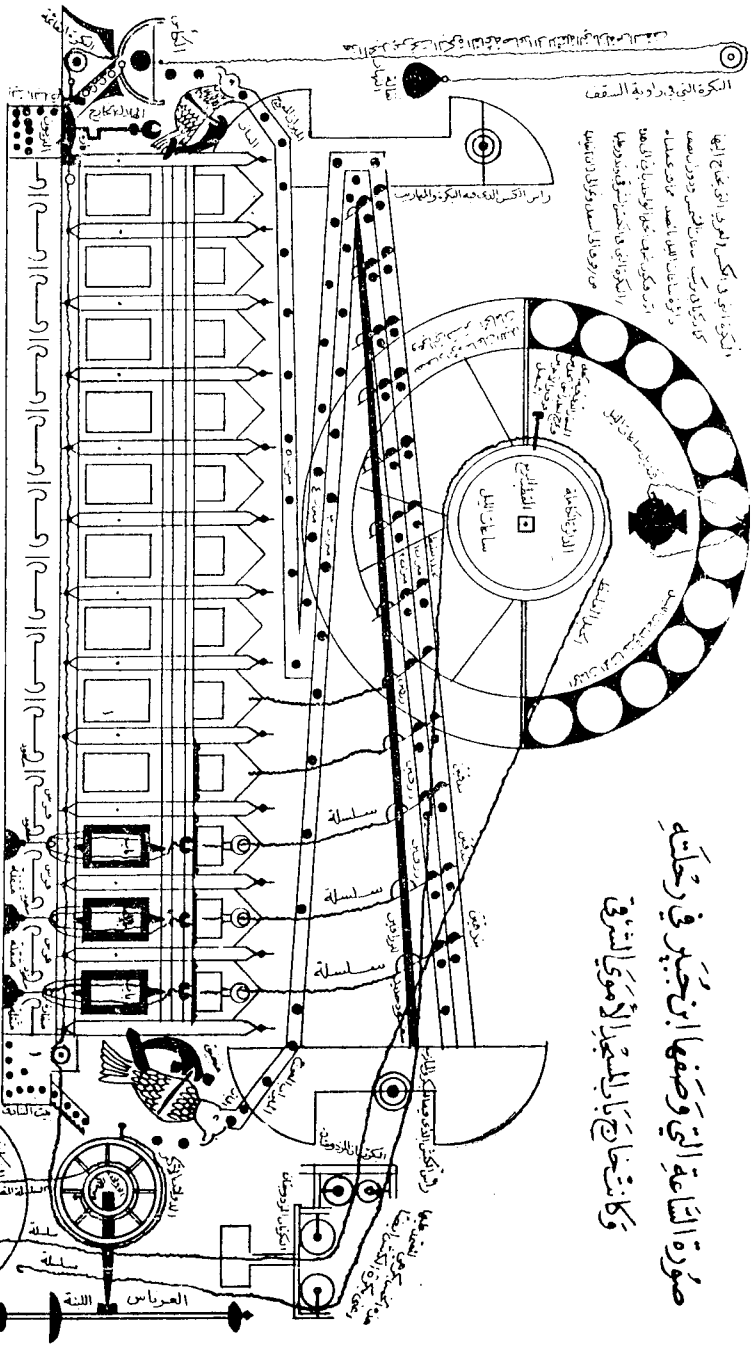


المضخة ذات المكابس (بديع الزمان الجوري)

الكورة التي في رابية السقف

السيرة التي ر. تكسر العود التي يفتح إليها
كما ذكرنا في ريسب سنان النفس ودرر سعد
دائرة سنان الدنيا انصد مناصر عسلا
استر فكلين شرف تكلل الجند بان في الهوى
السكرية التي في انفس شرفه في درو طيا
من جرو ناك اسعد وكنال الى اننا تليها

صُورَةُ السَّاعَةِ الَّتِي وَصَفَهَا ابْنُ جَبْرِ فِي رَحَلَتِهِ
وَكُنَّا خَارِجًا بِالْمَسْجِدِ الْأَمْوِيِّ الْمَشْرِقِيِّ

[illegible]

(1) بحرة القرنة الترفيهية
من الحائظ .

ومَّا يذكر تحت عنوان « العلوم التطبيقية عند العرب المسلمين » ، وصف مقصورة جامع مراكش المصنوعة أيام الموحدين بأنها كانت تتحرَّك جدرانها ونبرها^(٤٨) ، بمجرد ما تمسُّ رجل الخليفة الأضرار الموضوعة في المدخل الخاص عند دخوله المقصورة ، إذ كانت تدار هذه المقصورة بحيل هندسية بحيث تُنصبُ إذا استقرَّ المنصور ووزراؤه بمصلاه منها ، وتختفي إذا انفضوا عنها ، وقد اتخذها المنصور بجامعه المتصل بقصره في مراكش ، وفيها يقول أبو بكر بن مجبر شاعر المغرب في وقته :

طَوْرًا تَكُونُ بِمَنْ حَوْتُهُ مُحِيطَةٌ فَكَأَنَّهَا سُورٌ مِنَ الْأَسْوَارِ
وَتَكُونُ حِينَئِذٍ عَنْهُمْ مَخْبُوءَةٌ فَكَأَنَّهَا سِرٌّ مِنَ الْأَشْرَارِ
وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ مَقَادِيرَ الْوَرَى فَتَصَرَّفَتْ لَهُمْ عَلَى مَقَادِيرِ
فَإِذَا أَحْسَتْ بِالْإِمَامِ يَزُورُهَا فِي قَوْمِهِ قَامَتْ إِلَى الزُّوَارِ
يَبْدُو فَتَبْدُو ، ثُمَّ تَخْفَى بَعْدَهُ كَتَكُونُ الْهَالَاتِ لِلْأَقَارِ

وذكر المقرئ (أحمد بن محمد) أنه زار مراكش عام ١٠١٠ م ، فلاحظ أنَّ حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت آثارها^(٤٩) .

لقد كانت الصناعة العربية الإسلامية في العصور الوسطى محل فخر الأوربي ، عندما يرى بين يديه سلعة كُتِبَ عليها : من صنع دمشق ، أو بغداد ، أو القاهرة ، أو مراكش ، أو قرطبة .. وتراه يفاخر بها من حوله ، لأنها كانت « صناعة عربية » .

الفيزياء : أهم أبحاث العرب المسلمين في علم الفيزياء ، الذي لم يُفصل عن علم الميكانيك ، كانت في مجال الضوء والصوت . وإذا ذكر الضوء الذي يسميه العرب

(٤٨) كلُّ شيء رفع شيئاً ، فقد تَبَرَه ، وكلُّ مرتفع مُتَبَرٍّ ، وكلُّ مارفَعَةٍ ، فقد نَبَرَتْه تنبره نبراً ، (اللسان : نبر) .

(٤٩) تاريخ العلوم في الإسلام ، ص ١٤٠ ، عن كتاب : مظاهر الحضارة المغربية ، تأليف : عبد العزيز بن عبد الله .

المسلمون علم البصريّات أو علم المناظر ذُكِرَ رائد علم الضّوء حتّى القرن السّابع عشر للميلاد ، ألا وهو :

أبو علي محمد بن الحسن البصري المعروف بابن الهيثم^(٥٠) : (نحو ٤٣٠ هـ = نحو ١٠٣٨ م) ، بلغ خبره الحاكم الفاطمي ، ونُقِلَ إليه قوله : لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النّفع في حالتيّ زيادته ونقصه ، فدعاه الحاكم إليه ، وخرج للقاءه ، وبالغ في إكرامه ، ثمّ طالبه بما وعد من أمر النّيل ، فذهب حتّى بلغ الموضع المعروف بالجنادل - قبلي مدينة أسوان - فعانين ماء النّيل واختبره من جانبيه ، وضعف عن الإتيان بشيء جديد في هندسته لقلّة الوسائل ، واعتذر بما لم يقنع الحاكم ، فولاه بعض الدّواوين ، فتولاه خائفاً ، ثمّ تظاهر بالجنون ، فضبط الحاكم ماعنده من مال ومتاع ، وأقام له من يخدمه ، فلم يزل إلى أن مات الحاكم ، فأظهر التّعقل ، وخرج من داره ، وأعيد إليه ماله ، فانقطع للتّصنيف والإفادة إلى أن توفّي .

يكفي أن نعرف عن هذا الرّائد العظيم أنّه مؤلّف كتاب « المناظر » ، أي البصريّات^(٥١) ، الذي ظلّ مرجعاً للعلم في أوربة حتّى أواخر القرن السّابع عشر الميلادي ، درس فيه نظريّة انكسار الضّوء وانعكاسه في البيئات الشّفاقة كالهواء والماء ، وكاد يهتدي إلى المبدأ الطّبيعيّ الذي يقوم عليه بناء المجهر (المنظار المكبّر) ، والمرصد (المنظار المقرّب) ، ولولا بجهته لما كان لمثل (روجر بّاكون) ، أو (فيتالو)^(٥٢) الذي ترجم كتابه هذا إلى اللّاتينية (١٢٧٠ م) ذكر في تاريخ العلم .

(٥٠) ولد بمدينة البصرة ، وتوفّي بالقاهرة .

(٥١) البصريّات : علم يبحث في الضّوء والعين والرّؤية .

(٥٢) استفاد فيتالو Wietalio « ١٢٢٠ - ١٢٧٠ م » وكبلر ودافنشي من كتاب المناظر الذي ترجم إلى اللّاتينية ، ممّا يدلّ على أهمّيته ومدى استفادة الأوربيين منه ، وفي عام ١٥٧٢ م نشر Risner ترجمة كاملة لكتاب المناظر ، بالإضافة إلى التّرجمات الخمس ، وفيه لأوّل مرّة أجزاء العين .

جاء في قصة الحضارة : ٢٧٥/١٣ : « لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قطُّ بروجر باكون ، وها هوذا روجر باكون نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريّات من Orus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه ، الجزء السادس من هذا المؤلّف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطّبيعي - ابن الهيثم - . »

ونفى ابن الهيثم نظريّة إقليدس وبطليموس في أنّ الإبصار يعود إلى إشعاعات تخرج من العين إلى الشّبح المرئي ، وقال : إنّ الأشباح تدخل العين منقولة إليها من خلال الرطوبة الزجاجيّة .

ولاحظ ابن الهيثم تأثير الجوّ في تضخيم حجم الشّمس أو القمر ، إذا نظرا وهما بمقربة من الأفق ، وقال : إنّهُ وفقاً لحقيقة انكسار الضّوء ، تصلنا أشعة الشّمس حتّى عندما تكون تحت الأفق بمقدار ١٩ درجة ، وبذلك استطاع أن يقيس ارتفاع الغلاف الجوّي ، فقال بأنّه قرابة عشرة أميال . وحلّل العلاقة بين ثقل الغلاف الجوّي وكثافته ، وتأثير الكثافة الجوّيّة في وزن الأحجام ، ودرس بصيغ رياضيّة معقّدة^(٥٣) أثر الضّوء في مرآة كرويّة أو سلجميّة^(٥٤) الشّكل ، ومن خلال العدسة المجمّعة (الحارقة) ، ودرس صورة كسوف الشّمس على حائط مقابل له من خلال ثقب صنعه في مصراع نافذة ، فكان هذا أوّل ذِكرٍ للغرفة المظلمة ، الّتي قامت عليها فكرة التّصوير الضّوئي .

لقد كان ابن الهيثم أبا المنهج العلمي لا « روجر باكون » ، فالطّريقة التّجريبية العلميّة ، أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره ، هدية ابن الهيثم للإنسانيّة ، لقد خالف من سبقه في نظريّة الرؤيا ، فهو لم يسلم بما كان سائداً في ذلك الوقت ، بل

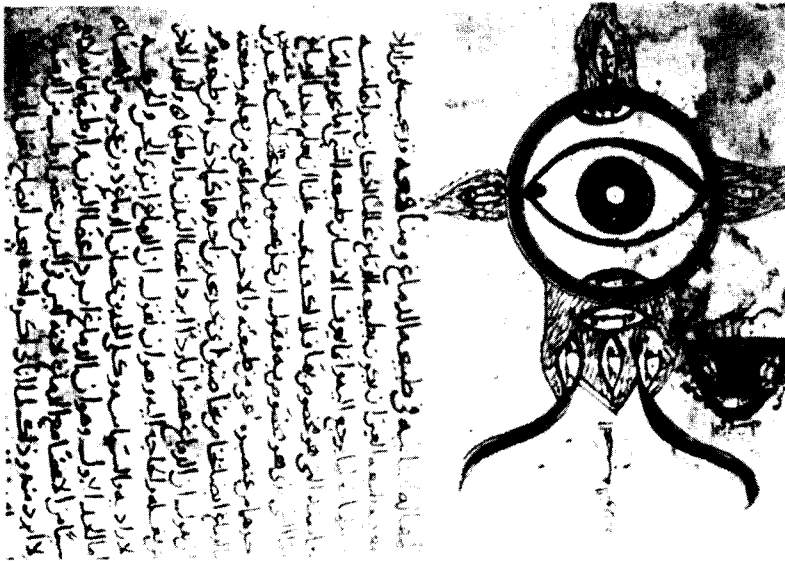
(٥٣) مسألة الحسن بن الهيثم ذكرها العالم الأمريكي Struik في مجال الرّياضيّات ، وهي توصل إلى مسألة من الدّرجة الرّابعة « قطع زائد مع دائرة متقاطعة معه » ، واهتمّ بها الهولندي Hygens « ١٦٢٩ -

١٦٩٥ م » ، والإنكليزي Bouer « ١٦٣٠ - ١٦٧٧ م » .

(٥٤) السّلجَم : الطّويل من الخيل ، (اللّسان : سلجم) ، وهو معرّب ، والسّلجَم هنا : المرايا المحدّبة .

شكّ وبحث ونقد ، فنادى : إنَّ للضوء وجوداً ذاتياً ، وتكلّم عن الارتداد قبل نيوتن ، وهكذا .. استفاد من تقدّمه ، وهذا أمر طبيعي ، ولكنّه أتمّ النقص ، ونقض الخطأ ، ثمّ أبدع وألّف وحدة مرتبطة الأجزاء ، وأقام صرحاً أثبت عليه صرح الضوء من بعده ، لذلك يقول « ول ديورانت » في كتابه « قصّة الحضارة » : « لا مبالغة مهما قلنا في أثر ابن الهيثم في العلم في أوربة » . ويقول « سارتون » : « إنّ ابن الهيثم هو أكبر عالم طبيعي من المسلمين ، ومن أكبر المشتغلين بعلم البصريّات والرياضيّات والطبيّعة ، كما علّق على فلسفة أرسطو ، ومؤلفات جالينوس » .

ومن علماء المسلمين في البصريّات : كمال الدّين الفارسي : (ت ٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م) ، الّذي قدّم في كتابه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر » النّظريّة الموجيّة للضوء ، وبيّن أنّ للضوء حركة كحركة الأصوات ، وشرح قوس قزح ، وانعكاس أشعة الشّمس ضمن قطيرات الماء بعد هطول المطر . والبيريوني أوّل من أكّد أنّ سرعة الضوء أعظم بكثير من سرعة الصّوت .



الرياضيات : إذا ذُكِرتِ الرياضيات في الحضارة العربية الإسلامية ، ذُكِرتِ أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي : (ت بعد ٢٣٢ هـ = بعد ٨٤٧ م) ، الذي ينعت بالأستاذ بعد أن أقامه المأمون العباسي قيماً على خزانة كتبه ، وأمره باختصار (المجسطي) لبطليموس ، فاختصره وسماه (السند هند) ، أي الدهر الداهر . من كتبه « الجبر والمقابلة » ، و « الزيج » ، و « التاريخ » ، و « صورة الأرض من المدن والجبال » ، و « عمل الأسطرلاب » ، و « وصف إفريقية » ، وهو قطعة من كتاب « رسم المعمور من البلاد » .

لقد بدأ الخوارزمي يستعمل الأرقام الهندية في سنة ٨١٣ هـ ، وفي سنة ٨٢٥ م كتب رسالة فيها ، ومع الزمن أصبح اسمه علماً على طريقة الحساب العشرية ، وأدخل استعمال « الصفر » في العد والحساب ، قال الخوارزمي : « إنه إذا لم يكن هناك رقم يقع في مرتبة العشرة ، استعيز عنه احتفاظاً بالسلسلة الحسابية بدائرة ، وهذه الدوائر الصغار تسمى الأصفار ، توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها أعداد » ، وعن الخوارزمي انتقل استعمال « الصفر » إلى أوربة ، فعرفه أهلها منطوقاً « صيفر » ، ونطقه اللاتينيون « زفيروم » ، واختصره الإيطاليون فقالوا « زيرو » ، وهذا « الصفر » ، الذي هو لا شيء ، إذا أخذ وحده ، والذي يرفع المراتب الحسابية مع العد إلى ما شئت من قيم ، هو أعظم استكشاف رياضي على مر القرون .

وهو الذي رتب ونظم علم الجبر ، فوضعه بشكله الحالي ، كتب مقالة في عصر المأمون تُرجمت إلى اللاتينية ونُشرت في عصر النهضة الأوربية ، غير أن هذه الترجمة فقِدت ، ولكن الأصل العربي ما يزال محفوظاً في مكتبة « بودلي » بجامعة أكسفورد ، ومنها يستدل على أنها نُسخَت في سنة ١٤٣٢ م ، وبنوّه ناسخها في أول صفحة منها أن كاتبها « محمد بن موسى الخوارزمي » ، وعلى هامشها تعليق بأنها أول مقالة كُتبت في الجبر .

ووضع الخوارزمي جداول في حساب المثلثات ، وترجم جيرار الكريوني كتابه في

« التَّكامل والتَّفاضل » في القرن الثَّاني عشر إلى اللاتينية ، وظلَّ من عهد التَّدريس في الجامعات الأوربيَّة حتَّى القرن السَّادس عشر . وفي الموسوعة البريطانيَّة الكبرى أنَّ كتابه في الجبر بدأ بعبارة « قال الخوارزمي » ، فصَحَّف الاسم عند النَّقل عند اللاتين « الجوريتي » ، ثمَّ تحوَّل بعد ذلك في العصر الحديث إلى « لوغاريتم » ، وهو ما نعرف الآن « بالأنساب الرِّياضيَّة » ^(٥٥) .

وهذَّب الأرقام الهندية الَّتِي تكوَّن منها سلسلتان ، عُرِفَت إحداها بالأرقام الهندية ، ولا تزال تستعمل في جميع البلاد العربيَّة - باستثناء المغرب العربي - والإسلاميَّة ، وعُرِفَت ثانيتهما بالأرقام الغباريَّة ^(٥٦) ، وهي الَّتِي تكتب بها شعوب أوربة أرقامها ، وتسميها أرقاماً عربيَّة .

١٠ تقول زيغريد هونكة : « ولم يقتصر الخوارزمي على تعليم الغرب كتابة الأعداد والحساب ، فقد تخطَّى تلك المرحلة إلى المعقَّد من مشكلات الرِّياضيَّات ، وما زالت القاعدة الحسابيَّة (Algorithmus) حتَّى اليوم تحمل اسمه كعلم من أعلامها ، وعرف أنصاره - في إسبانية وألمانية وإنكلترة - الَّذِينَ كَفَحُوا كفاحاً مريراً من أجل نشر طريقته الرِّياضيَّة باسم الخوارزميَّين (Algorithmiker) . وكان ظفرهم على أنصار الطَّريقة الحسابيَّة المعروفة باسم (أباكوس Abacus) عظيماً ، فانتشرت الأرقام العربيَّة التسعة يتقدَّمها الصُّفر في كلِّ أنحاء أوروبة » ^(٥٧) .

٢٠ إنَّ فضل العرب المسلمين في علم الرِّياضيَّات عظيم جدّاً ، فقد عمل عمر الخيام بمعادلات أكثر من الدَّرَجَة الثَّانية ، وكذلك أبو كامل بن أسلم ، والكاشي اهتَمَّ بالكسور العشريَّة ، وحسب العدد الثَّابت π (بي) ، فكان ٣,١٤١٥٩٢٦٥٣٥٢٥٨ ، وفصل عمر الخيام الجبر عن الهندسة ، وهو صاحب مدرسة التَّحليل الجبري .

(٥٥) سير ملهمة من الشرق والغرب ، إسماعيل مظهر ، ص ٢٥

(٥٦) سُمِّيَت (غباريَّة) لأنَّ الهنود كانوا يرشُّون غباراً ناعماً على لوح من خشب ، ثمَّ تكتب عليه .

(٥٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٧٥

و « المثلثات الكروية » علم عربي ، مع أن الغربيين يقولون : إنَّ الألماني ريكيومانتونس Regiomantunis هو أبو المثلثات ، وما قدّمه موجود عند العرب المسلمين قبله ، تكلم به الطوسي ، والبتاني ، والبيروني .

وأوجد ثابت بن قرّة حجم الجسم المكافئ الناتج من دوران قطع مكافئ حول محوره ، ثم زاد ابن الهيثم فأوجد حجمه إذا دار حول أي قطر ، أو أي رأس ، وقام ثابت بعمل أرصاد فلكية في بغداد نخص منها بالذكر أرصاداً في حساب ارتفاع الشمس ، وفي طول السنة الشمسية .

ومن أعلام الرياضيات العرب أيضاً : الكرجي ، والخوجندي ، وأبو الوفاء البوزجاني ، وعمر الخيام ..

وسيبقى أعلام الرياضيات العرب المسلمون ، رواد الأسس السليمة لهذا العلم في العصور الوسطى .



الفلك : ساعد على تطور علم الفلك وتقدمه ، حاجة المسلمين لتحديد أوقات الصلاة ، واختلافها حسب موقع البلدان الجغرافي ، ومتابعة حركة القمر ، لتحديد بدء شهر الصوم ، والحج ، وهذا التّقدم رافقه تصحيح أغلاط « المجسطي » لبطليموس . ومن أعلام الفلك العرب :

محمد بن جابر بن سنان الحرّاني البتّاني : (ت ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م) ، فلكي مهندس ، يسمّيه الأوربيون Albategni ، أو Albatenius ، اشتغل برصد الكواكب من سنة ٢٦٤ إلى ٣٠٦ هـ ، وهو صاحب « الزّيج »^(٥٨) المعروف بزيج الصّائب ، وطبعت

(٥٨) الزّيج : جمعها أزياج : صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب ، من حيث طريقه وحركته .

ترجمته إلى اللاتينية في نورمبرج سنة ١٥٣٧ م ، وقالوا إنه أصح من زيغ بطليموس^(٥٩) ، ومن كتبه « معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك » ، و « شرح أربع مقالات لبطليموس » ، ولم يعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغ البتاني في تصحيح أرصاد الكواكب ، وامتحان حركاتها ، وهو أول من كشف السمت Azimuth ، والنظير Nadir ، وحدد نقطتيها من السماء ، والكلمتان عند علماء الفلك الأوربيين عريّتان ، واكتشف حركة الأوج الشمسي ، وتقدّم المدار الشمسي وانحرافه ، والجيب الهندسي والأوتار^(٦٠) ، ويقول المستشرق « نيللينو » إن له رصوداً جلييلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنتورن Dunthorne سنة ١٧٤٩ م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان^(٦١) ، وقال لالند Lalande الفلكي الفرنسي : « البتاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله » .

وإبراهيم الزرقالي^(٦٢) الذي ثبت أن ألفونسو اعتمد على أبحاثه وجداوله في الأعمال الفلكية التي تمت في عصره بعد أن ترجمت المصادر العربية إلى اللاتينية ، وثلاثة علماء مغاربة استفاد من أبحاثهم وكتبهم كبلر وباكون وألبرتو ماجنو .. وهم : أبو العباس بن البنا (ت ١٣٢١ م) ، والحسن بن عمر المراكشي ، وأبو الحسن علي المراكشي .

أما عبد الرحمن الصوفي : (ت ٣٧٦ هـ = ٩٨٦ م) فله خرائط للنجوم ، ذكر فيها أكثر من ألف نجم ، ولقيته العلمية ، هنالك مراكز على القمر باسمه اليوم .

(٥٩) وله أصل مخطوط في مكتبة الفاتيكان ، وفي حوالي سنة ١١٤٩ م اشتغل من يدعى روبرت من مدينة

تشستر بزيغ البتاني فأدخل حساب المثلثات العربي إلى إنجلترا ، ونقل حساب الجيوب الفلكية .

(٦٠) قاله تشمبرلس في موسوعات العلوم الفلكية الإنجليزية .

(٦١) Nalliono في دائرة المعارف الإسلامية ٣/٣٣٦

(٦٢) (١٠٢٩ - ١٠٨٧ م) أحد علماء طليطلة ، ومن الأسماء العالمية ، حنّ الآلات الفلكية ، ونقل

كوبرنيكس فقرات من رسالته عن الأسطرلاب ، وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها في زمانه ،

وقد استطاع أن يثبت لأول مرة في التاريخ حركة الأوج الشمسي بالنسبة للنجوم ، « وكانت أزياج

طليطلة المحددة لحركات الكواكب تستخدم في كافة أنحاء أوربة » ، [قصّة الحضارة : ٢٠٨/١٣] .

Measurability of Sensations of Hue, Brightness, or Saturation

Lewis Fry Richardson

There are at least three ways of measuring sensations of hue, brightness or saturation as distinct from stimuli: (*E*) by counting small equal-appearing intervals; (*J*) by counting just-perceptible intervals; (*R*) by directly estimating the ratio of unequal intervals, both much larger than the least perceptible. This *R* method is not yet as well known as it deserves to be.

Before there were photometers, Al-Sufi,¹ [References cited in this paper will be found on page 243] about the year 964 A.D., estimated the brightness of more than 1000 stars. His description of his method seems to indicate that he judged by equal-appearing intervals *E*. C. S. Pierce² compared Al-Sufi's estimates and many others with the Harvard photometric measurements and found general agreement with Fechner's law, $E = \text{const.} \times \ln S$.

But Fechner³ had made some queer assumptions, such as the existence of negative sensations "below the threshold," which provoked people by reaction to deny that formless visual sensations were quantitative at all. This seems to me an excessive reaction. Yet several otherwise excellent men of science have gone to that extreme.⁴ Stumpf⁵ well expressed a commonly felt difficulty when he wrote: "One sensation cannot be a multiple of another. If it could, we ought to be able to subtract the one from the other, and to feel the remainder by itself. Every sensation presents itself as an indivisible unit." Stumpf's remark seems convincing until one compares it with the following parody, "One mountain cannot be twice as high as another. If it could, we ought to be

Measurability of Sensations of Hue, Brightness, or Saturation, by Lewis Fry Richardson, in *Discussion on Vision* (London: Physical Society, 1932).

يقول كاتب البحث (Lewis Fry Richardson) في المقطع المشار إليه :
قبل أن يكون هناك مقياس للضوء ، قام الصوفي (٩٦٤ م) بتقدير لمعان أكثر من
ألف نجم ، وإن وصفه لطريقته في تقدير قيم اللمعان تظهر أنه استعان بواسطة
مجالات الطاقة *E* المتساوية ، وقد قارنت (C. S. Pierce) تقييمات الصوفي بنتائج
القياسات الضوئية لـ (Harvard) ووجدت توافقاً عاماً مع قانون فيchner .

وأبو الوفاء البوزجاني الذي يقرن اسمه بإحدى قواعد علم الفلك ، ألا وهي قاعدة الانحراف القمري الثالث ، فسبق العالم الدنماركي (تيخو براهيه) الذي يعزى إليه هذا الاكتشاف خطأ بعشرة قرون ، وابن يونس المصري الذي أسس مدرسة القاهرة الفلكية ، وأوكل إليه الحاكم الفاطمي [٩٩٠ - ١٠٢١ م] أمر إدارة المرصد (المرقاب) الذي بناه على جبل المقطم ، ونشر ابن يونس الجداول المسماة باسم الخليفة الحاكم ، والتي فاقت في دقتها كل الجداول السابقة ، فاعتمد في الشرق كله حتى الصين .

وابن الشاطر ، نصير الدين الطوسي ، والشيرازي .. الذين عاشوا قبل كوبرنيكوس فاثروا به بشكل أو بآخر ، فعلم الفلك لم يبدأ من كوبرنيكوس البولوني أبداً ، يقول روم لاندو^(٦٣) : « في كتاب كوبرنيكوس De Revolutionibus orbium coelestium يستشهد بالعالم العربي الزرقالي وينقل عنه ، والزرقالي عالم كان في الأندلس ، فلكي ، اخترع أسطرلاباً ، وتم له من الشهرة قدر جعله منطلقاً لتراث فلكي كامل »^(٦٤) .

فمن مآثر العرب المسلمين في علم الفلك : لقد كان لهؤلاء العلماء أدمغة حرة مستطلعة ، فلم يترددوا في التصويب والتصحيح ، فمن مآثرهم الخالدة في علم الفلك :

- صحّحوا أغلاط بطليموس .

- أول من عرف أصول الرّسم على سطح الكرة .

- وفي عام ١٠٨١ م صنع إبراهيم السّهلي ، أحد علماء بلنسية في الأندلس ، أقدم كرة سماوية معروفة في التاريخ ، وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر ، وكان طول

(٦٣) في كتابه « الإسلام والعرب » ، ص ٢٥٣ ، طبع دار العلم للملايين ، ط ١ سنة ١٩٦٢ م .

(٦٤) ويقول ول ديورانت في قصّة الحضارة ٢٠٩/٨ : « كان كوبرنيكوس على علم بنظرية أرسطارخوس القائلة إنّ الشّمس هي مركز المجموعة الشمسية ، لأنّه ذكر ذلك في فقرة اختفت من الطّبعت المتأخّرة: من كتابه » .

قطرها ٢٠٩ ملمتر ، وحفر على سطحها ١٠١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها ، جاء في [تراث الإسلام : ٥٨٩] : أتقن العلماء المسلمون صنع آلات الرصد ، وأهمها (ذات الحلق) ، المعروفة عموماً عند الأقدمين باسم (الكرة السماوية) .

٥ - حسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة .

- ضبطوا حركة أوج الشمس ، وتداخل فلکها في أفلاك أخر .

- وقالوا بدوران الأرض حول الشمس قبل كوبرنيكوس .

- وحسب البتاني ميل فلک معدل النهار ، فوجده ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة ، وحسب

طول السنة الشمسية ، فوصل إلى النتائج الحديثة بفارق دقيقتين و ٢٢ ثانية فقط ،

١٠ وكتب عن كلف الشمس قبل أن تعرف أوربة أسباب هذا الكلف بعدة قرون .

- وقاسوا محيط الأرض في عصر المأمون في موضعين اثنين : بادية الشام قرب

تدمر ، وبرية سنجار ، فكان طول الدرجة الواحدة عند فلکي المأمون ١١١,٨١٥ متراً ، وطول المحيط ٤١,٢٤٨ كم ، وهو رقم قريب جداً من الحقيقة .

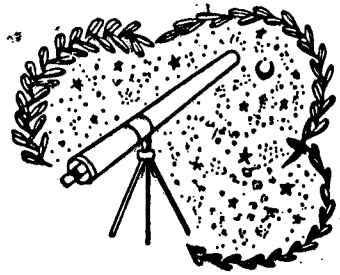
- ومعظم أسماء الكواكب والنجوم في اللغات الأوربية عريية الأصل^(٦٥) :

آخر النهر	Acarnar الجبار	Algebar العبور	Alhabor ١٥
الإكليل الشمالي	Achleis Chemali الجدي	Algedi القمر	Alkor
العناق	Alanac الجانب	Algenib الفرد	Alphard
البغاث	Albajoth الغميصاء	Algemeiza الفرس	Alpharaz
الخابور	Alchabor الغول	Algol الفقى	Alpheta
الدبران	Aldebaran الغراب	Algorab الطائر	Altair ٢٠
العناق	Amak إبط الجوزاء	Beteiguse الكلب الأزور	Kalbelazyuar

(٦٥) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٥٨/٥٥٩

Kochab	الكوكب Denab	الذئب Aridif	الرّدف
Markab	المركب Deneb ola	ذنب العلي Arioph	الردف
Rasalgue	رأس الجوّ Dubhe	الدّبة Ascheree	الشّراع
Rasalgethi	رأس الجدي Etalnin	التّنين Atair	الطّير
Resalgeuse	رأس الجوزاء Farcadin	الفرقدان Ataur	الثّور ٥
Rigel	رجل الجوزاء Famalhaut	فم الحوت Ayuk	العيوق
Scheat	السّاعد Kalbehasit	قلب الأسد Baten - Kaitos	بطن الحوت
Wega	النسر الواقع Kalbalacrab	قلب العقرب Beneth nasch	بنات نعش

☆ ☆ ☆





المظهر الفني في الحضارة العربية الإسلامية

بناء المدن، المساجد، القصور، الحمامات،
الرسم والتّصوير، الخط العربي

48

المظهرُ الفني :

بناء المدن - المساجد - القصور - الحمامات

بناءُ المدن :

بنى العرب المسلمون مدناً عديدة ، في وقت مبكر من بدء فتوحاتهم ، وكان أزل ما يفعلونه بعد اختيار موقع المدينة المراد بناؤها ، أن يختطوا المسجد الجامع ، ودار الإمارة ، ومن حولها حيٌّ لكل قبيلة ؛ كان يُدعى « القطيعة » ، وفي كل « قطيعة » منازلها ومسجدها وسوقها ..

ومن المدن التي أنشأها العرب المسلمون :

البصرة : التي بُنيت بعد أن فتح سعد بن أبي وقاص الحيرة ، كتب إليه عمر بن الخطاب أن ابعث عتبة بن غزوان^(١) إلى أرض الهند^(٢) ، فليزلها ويجعلها قيرواناً للمسلمين ، ولا يجعل بيني وبينهم بحراً ، فخرج عتبة من الحيرة في ثمانمائة رجل ، حتى نزل موضع البصرة ، فلما افتتح الأبلّة ، اختطّ فيها المسجد ، ودار الإمارة ، وقسم المدينة بين القبائل^(٣) .

الكوفة : مُصّرت بعد البصرة في سواد العراق سنة ١٧ هـ^(٤) . وبنى الحجاج بن-

يوسف الثقفى واسط سنة ٨٣ هـ ، في مكان وسط بين البصرة والكوفة^(٥) .

(١) عتبة بن غزوان الحارثي المازني ، أبو عبد الله ، باني مدينة البصرة ، صحابي قديم لإسلام ، هاجر إلى الحبشة ، وشهد بدرأ ، ثم شهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، ووجهه عمر بن أرض البصرة واليا عليها ، كان طويلاً جليلاً من الرّامة المعنودين ، توفي سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ .

(٢) كانت « الأبلّة » تسمى أرض الهند ، والأبلّة جنوبي العراق على شاطئ شط العرب الشرقي .

(٣) معجم البلدان : ٤٣٠/١

(٤) معجم البلدان : ٤٩٠/٤

(٥) معجم البلدان : ٣٤٧/٥

الفُسْطَاطُ : بُدِئَ في بنائها في ربيع سنة ٢٠ هـ ، عندما أجمع عمرو بن العاص المسير إلى الإسكندرية ، وأمر بفسطاطه أن يَقْوُضَ ، فإذا بيامة قد باضت في أعلاه ، فقال : لقد تحرّمت بحوارنا ، أقرؤا الفسطاط حتّى تنقّف وتطير فراخها ، فأقر فسطاطه ، ووَكَلَ به من يحفظ أن لا تهاج ، ومضى إلى الإسكندرية ، وأقام عليها ستّة أشهر ، حتّى فتحها الله عليه ، فكتب إلى عمر بن الخطّاب يستأذنه في سكنائها ، فكتب إليه : لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر ، فقال عمرو لأصحابه : أين نزل ؟ فقالوا : نرجع أيّها الأمير إلى فسطاطك ، فنكون على ماء وصحراء ، فقال للنّاس : نرجع إلى موضع الفسطاط ، فرجعوا ، وجعلوا يقولون : نزلتُ عن يمين الفسطاط وعن شماله ، فسُمِّيت البقعة بالفسطاط لذلك ^(٦) .

١٠ القَيْرَوَانُ : بناها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، اختطّ وسطها المسجد الجامع ، ثمّ دار الإمارة ثمّ بيوت الجند ^(٧) .

فاس : بناها إدريس الثّاني سنة ١٩٢ هـ ، لتكون حاضرة إمارة الأدارسة ، تميّزت بسورها الحجري ، ومسجدها الجامع ، وحماماتها ، والفنادق للتّجّار ^(٨) .

١٥ قُرْطُبة : عاصمة الأمويين في الأندلس منذ أيّام صقر قريش « عبد الرّحمن الدّاخل » ^(٩) ، شيّدوا جامعها الشّهير ، وقصورها الّتي زادت عن ثمانية وعشرين قصراً ، وجروا إليها المياه من الجبال القريبة ، وزاد عدد حماماتها عن ثلاثمائة حمام ، ولكثرة مدارسها وجامعاتها ومكتباتها قيل عنها « جوهرة العالم » ، وشبّهت لفخامتها ببغداد ، وبقرها بنى عبد الرّحمن النّاصر سنة ٣٢٥ هـ « الزّهراء » ، مدينة ملكيّة .

(٦) معجم البلدان : ٢٦١/٤

(٧) معجم البلدان : ٤٢٠/٤

(٨) معجم البلدان : ٢٣٠/٤

(٩) معجم البلدان : ٣٢٤/٤

بَغْدَادُ : « مدينة السَّلام » ، بناها أبو جعفر المنصور العبَّاسي سنة ١٤٥ هـ ، ونزلها سنة ١٤٩ هـ ، على شاطئ الدَّجلة ، لتكون دار الخلافة ^(١٠) .

القاهرة : بناها جوهر الصَّقْلِي قائد المعز لدين الله الفاطمي بجنب القسْطاط ^(١١) ، بدئ ببنائها في شعبان ٣٥٨ هـ ، وانتقل إليها الفاطميون سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن تمَّ بناء قصر فخم للمعز ، وإتمام بناء الجامع الأزهر فيها . وكانت المهدية حاضرتهم قبل القاهرة ، بناها عبيد الله بن المهدي سنة ٣٠٣ هـ .

مَرَآكُش : اختطَّها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ٤٥٤ هـ ^(١٢) ، وجلب إليها الماء من ناحية أغمات ^(١٣) « عاصمتهم القديمة » ، ليسيقي بساتينها ، ومَّا يذكر أنَّ يوسف بن تاشفين شارك العمَّال بنفسه في بناء المسجد في العاصمة الجديدة .



الْمَدُنُ الْعَسْكَرِيَّةُ فِي الْإِسْلَام : « الثُّغُور - الرِّبَاطَات - العَوَاصِم - الْعَسْكَر » ^(١٤) .

الثُّغُور : الثُّغَر : ما يلي دار الحرب ، والثُّغَر : هو الموضع الَّذي يكون حدًّا فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفَّار ، والثُّغُور في الاصطلاح العسكري عند المسلمين هي المدن الحصينة الَّتِي أُنشِئت على حدود الدَّولة الإسلاميَّة ، لاستعمالها في صدِّ العدوِّ ، أو لتكون منطلقاً للإغارة عليه داخل أراضيه . والثُّغُور في العادة تكون في التُّخُوم البرِّيَّة ، الَّتِي تفصل دار الإسلام عن دار الحرب ، أو بعبارة أخرى : الَّتِي تفصل ما بين الدُّول الإسلاميَّة والدُّول الأجنبيَّة ، وذلك في الجهات المتقابلة بين هذي وتلك على الأرض اليابسة .

(١٠) معجم البلدان : ٤٥٦/١

(١١) معجم البلدان : ٣٠١/٤

(١٢) معجم البلدان : ٩٤/٥

(١٣) أغمات على بُعد خمسة وثلاثين كيلومتراً ، جنوب شرقي مَرَآكُش .

(١٤) « الفكر العربي » العدد ٢٩ و ٣٠ ، مسألة المدنيَّة والمدنية العربيَّة ، مقالة : المدنيَّة في الإسلام للشَّيخ طه الولي ، العدد ٢٩ ، ص ١٠٨ وما بعدها .

وأرجع للمؤرخون تاريخ إنشاء الثُغُور في الإسلام إلى زمن خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ^(١٥) ، وقد أنشأها في تخوم الدّولة الإسلاميّة قبالة بلاد الرّوم .

ونظّمت « الدّوريّات » منذ أيّام معاوية بن أبي سفيان ، تارة خلال فصل الصّيف ، ولذلك اشتهرت باسم « الصّوائف » ، وتارة خلال فصل الشّتاء ، ولذلك اشتهرت باسم « الشّوّاتي » ، وهذه الثُغُور سُمّيت :

الثُغُور الرّوميّة : وهي المدن العسكريّة الّتي أنشأها العرب المسلمون على امتداد حدود الدّولة الإسلاميّة بمواجهة أرض الرّوم « الإمبراطوريّة البيزنطيّة » ، وهي قسمان :

١ - الثُغُور الشّاميّة : كثر طَرَسُوس الّذي بني أيّام المهدي العبّاسي ، وأذنة « أُنْظَة » ، والمصيصة « ميسيس » على نهر جيحان ، والقرنة السّوداء في جبال طوروس ، والهارونيّة نسبة إلى هارون الرّشيد .

٢ - الثُغُور الجُزريّة : كمرعش ، والحديث ، وسَمِيساط ، وملاطية « مَلْطِيّة » .

والثُغُور الهنديّة : الّتي أقيمت بمواجهة بلاد الهند ، ومنها : جَنْزَة « كَنْجَة » ، وهو ثغر بين شروان وأذربيجان في بلاد الرّان ، وأسفيجاب ، وطِرَاز ، ونزاوة .

ومثال هذه الثُغُور طَرَسُوس ، الّذي يُعَدُّ مثلاً كاملاً عن هذه الثُغُور ، بالنّسبة لمكانته العسكريّة ، أو بالنّسبة لنوعيّة الجنود الّذين كانوا مشاغلين ^(١٦) فيه ، قال ابن حوقل ^(١٧) : « فأما مدينة طَرَسُوس ، فكانت المدينة المشهورة المُستَغْنى بشهرتها عن تحديدها ، كبيرة ، استحدثها المأمون بن الرّشيد ومدّنها - أي جعلها مدينة - وجعل

(١٥) الطّبري ١٦٥/٢ ، وفتوح البلدان للبلاذري ص ١٧٠

(١٦) مشاغلون : مقبضون في الثُغُور .

(١٧) كتاب صورة الأرض ، لأبي القاسم بن حوقل ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ١٦٨

(١٨) عليها سورين من حجارة ، وكانت تشتمل من الخيل والرّجال والعُدّة والعتاد والكرّاع
والسّلاح والعمارة ، والخصب والغلّات والأموال والسّعة في جميع الأحوال على حال لم
يتّصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين ، لكافر ولا مسلم ، إلى عزّ تام ، ونصر عام على جميع
من وليها من رجال الإسلام ، فما غزا في بر أو بحر إلّا وصحبه من الظّفر والنّصر
والغنائم بالقسر والقهر ما ينطق الإخبار بتصديقه ، والآثار بتحقيقه ، وكان بينها وبين
حدّ الروم جبال منيعة متشعّبة من اللّكّام^(١٩) كالخاجز بين العملين ، ورأيت غير عاقل
مميّز ، وسيد حصيف مبرّز ، يشار إليه بالذّراية والفهم واليقظة والعلم والفتنة والسياسة
والرياسة ، يذكر أنّه كان بها مائة ألف فارس .. وذلك عن قريب عهد من الأيام الّتي
أدركتها وشاهدتها ، وكان السّبب في ذلك أن ليس من مدينة عظيمة من حدّ سجستان
وكرمان وفارس وخوزستان والرّي وأصبهان وجميع الجبال ، وطبرستان والجزيرة
وأذربيجان والعراق والحجاز والين والشّامات^(٢٠) ، ومصر والمغرب ، إلّا وبها لأهلها
- أي أهل طرسوس - دار ورباط ينزله غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ،
وتردّ عليها الجرايات والصّلات ، وتدرّ عليهم الأنزال والحلان العظيمة الجسمية ، إلى
ما كان متطوّعو السّلاطين يتكفّفونه ، وأرباب النّعم يعانونه وينفّذونه ، ويتحاضّون
عليه متبرّعين ، ولم يكن في ناحية ذكرتها ، رئيس ولا نفيس إلّا وله عليها أوقاف من ١٥

(١٨) الكرّاع : البقر والغنم « اللّسان : كرع » .

(١٩) اللّكّام : الجبل المشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور ، « معجم البلدان ٢٢/٥ » .

(٢٠) الشّامات : في معجم البلدان : وهي الشّام (٢١١/٣) ، وفي كتاب الرّوض المغطر في خبر الأقطار ،
ص ٣٢٥ : « والشّام بلاد كثيرة وكور عظيمة وممالك ، وقسمت الأوائل الشّام خمسة أقسام : الأوّل
فلسطين وفيها غزّة والرّملة ، والشّام الثّانية مدينتها العظمى طبرية والغور واليرموك ، والثّالثة الغوطة
ومدينتها العظمى دمشق ، ومن سواحلها طرابلس الشّام ، والرّابعة أرض حمص وقنّسرين ومدينتها
العظمى حلب وساحلها أنطاكية ، والشّام اسم لجميع ذلك من البلاد والكور ، وأول طول الشّام من
ملطية إلى رفح » ولم يذكر الكتاب الشّام الخامسة ؟!

ضياح ذوات أكرية^(٢١) وزرّاع وغلّات ، أو مسقف من فنادق ودور وحّمات وخانات ، هذا ، إلى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق^(٢٢) والكراع الغزير .. » .

الرباطات : وهي المدن التي يربط فيها المسلمون للجهاد ، وللدّفاع عن الوطن ، وحماية الدّعوة الإسلاميّة في دار الإسلام ، دون أي طمع مادّي في الأجر ، أو الحصول على المراتب ، كما هو شأن الجنود المحترفين .

وتقع الرباطات على الأغلب على السّواحل البحريّة ، وذلك بخلاف الثّغور التي تقع في التّخوم البريّة ، وعلى هذا فالرباطات هي المدن العسكريّة المشحونة بالمتطوّعين من المجاهدين ، الّذين كانوا يتناوبون على مراقبة تحرّكات العدو في البحر^(٢٣) ، جماعة بعد جماعة ، والمتطوّعون الّذين يلزمون الرباطات يدعون « المرابطين » .

وكان على شواطئ البحر المتوسّط من زاويته الشماليّة الشرقيّة « أي من مدينة الإسكندرون » ، والجنوبيّة ، حتّى شاطئ بحر الظّلّمات « الأطلسي » ، ألف رباط ، وذلك بمعدّل رباط كل ستّة كيلومترات^(٢٤) .

وفي ما وراء النهر - كما يقول الإصطخري - ألف رباط ، وذكر المقدسي في « أحسن التقاسيم » رقماً أكبر .

العواصم : حدّد الجغرافيون المسلمون معنى « العاصمة » بقولهم : « إنّها مدينة ذات عدد كبير من السّكّان ، لها محاكم قضائيّة ، وحاكم مقيم فيها ، وتتنّصّف أيضاً بقدرتها على الإنفاق على الخدمات العامّة من إيراداتها الخاصّة ، وهي مركز السّلطة للمنطقة المحيطة

(٢١) الأكرّة جمع أكار ، والأكار : النّحرّث ، « اللّسان : أكر » .

(٢٢) الورق : الدّراهم المضروبة ، والورق : النّفضة ، « اللّسان : ورق » .

(٢٣) وفي حال مجيء عدو ، كانت هنالك طرق للتّفاهم ونقل الخبر فيما بين هذه الرباطات ، منها إيقاد النّيران ، والدّخان ..

(٢٤) الحياة العسكريّة عند العرب ، د . إحسان الهندي ، طبع وزارة الثّقافة بدمشق سنة ١٩٦٤ ، ص ٢٢٤

بها ، وفي بعض الحالات عرّفها العرب بأنّها الحاضرة (Metropolis) ، التي يقيم فيها كبار الرؤساء ، حيث يوجد مقرّ الأقسام الإداريّة ، ويتسلّم الحكّام الإقليميون أوراق اعتمادهم ، فتسمّى المنطقة بما فيها من مدن صغيرة باسم المدينة الكبيرة ، مثل دمشق ، والقيروان ، وشيراز^(٢٥) .

أما العواصم اصطلاحاً ، فهي نظام أوجده الخليفة العبّاسي هارون الرّشيد ، قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٧٠ هـ : « وفيها عزل الرّشيد الثّعور كلّها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيّزاً واحداً » ، وسمّيت بالعواصم^(٢٦) ، وأنشأ لهذه العواصم إدارة مستقلّة ، وجعلها تابعة للجيش مباشرة ، تحت اسم : « إقليم العواصم والثّعور » ، واختار الرّشيد لهذه المدن الثّعور اسم « العواصم » ، لأنّها تعصم أرض المسلمين من عدوان البيزنطيّين عليها .

ويقول ياقوت الحمّوي في معجم البلدان ١٦٥/٤ : « العواصم : حصون موانع ، وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، وقصبتها أنطاكية ، وكان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء ، وأكثرها في الجبال فسُمّيت بذلك ، ورّياً دخل في هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النّواحي ، وزعم بعضهم أنّ حلب ليست منها ، وبعضهم يزعم أنّها منها ، ودليل من قال إنّها ليست منها أنّهم اتّفقوا على أنّها من أعمال قنسرين ، وهم يقولون : قنسرين والعواصم ، والشّيء لا يعطف على نفسه ، وهو دليل حسن .. ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتّى كان زمان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً ، فلمّا استخلف الرّشيد أفرد قنسرين بكورها ، فصيّرها جنداً ، وأفرد منبج وذلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين ، وما بين ذلك من الحصون ، فسماها العواصم ، لأنّ المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتنعهم من

(٢٥) الجغرافية العربيّة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، تأليف ضياء الدّين علوي ، طبع الكويت

١٩٨٠ ، ص ١٧٢

(٢٦) الكامل في التّاريخ : ٨٣/٥

العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج ، وأسكنها عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس في سنة ١٧٣ ، فبنى فيها أبنية مشهورة .. » .

العسكر : اصطلاحاً : مجتمع الجيش ، ومن هذا المعنى سمي المكان المخصص لإقامة الجند « عسكر » ، ولقد أنشأ العرب المسلمون العديد من المدن التي عرفت باسم « العسكر » ، وقد أحصاها ياقوت الحموي في معجمه : ١٢٢/٤ ، وهي : عسكر الرملة ° في فلسطين ، وعسكر الزيتون في فلسطين أيضاً قرب نابلس ، وعسكر سامراء ، وهي المدينة التي أنشأها المعتصم بالله العباسي ، وجمع فيها جنده من الأتراك . وعسكر القريتين بين حمص وتدمر ، وعسكر مصر « وهي الحلة » ، وعسكر مكرم في خوزستان ، وعسكر المهدي بن أبي جعفر المنصور ، وهي الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد ، وعسكر نيسابور في خراسان . ١٠



المساجد :

وهي أهم مكان تتمثل فيه العبارة الإسلامية والفن الإسلامي معاً ، ولقد كانت المساجد الأولى من البساطة بمكان ، من حيث البناء والمظهر ، ثم أخذ المسلمون يعتنون بها ، فيوسعون مساحتها وينونها بالحجارة والأعمدة ، ويزينونها ، لتلائم ما وصلوا إليه من عزّة وقوة وسعة . (٢٧) ١٥

أول مسجد في الإسلام « مسجد قباء » ، الذي بناه رسول الله ﷺ من الآجر والحجارة عام الهجرة ، ويرتكز سقفه المصنوع من الجريد والأغصان على جذوع النخل ، وهو أول نموذج للمساجد الإسلامية . ٢٠

(٢٧) انظر للتوسع في هذا البحث : تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، أنور الرفاعي ، والفن العربي الإسلامي في بداية تكوّنه ، د . عفيف بهنسي .

وأهم المساجد التي بُنيت في العصور الإسلامية :

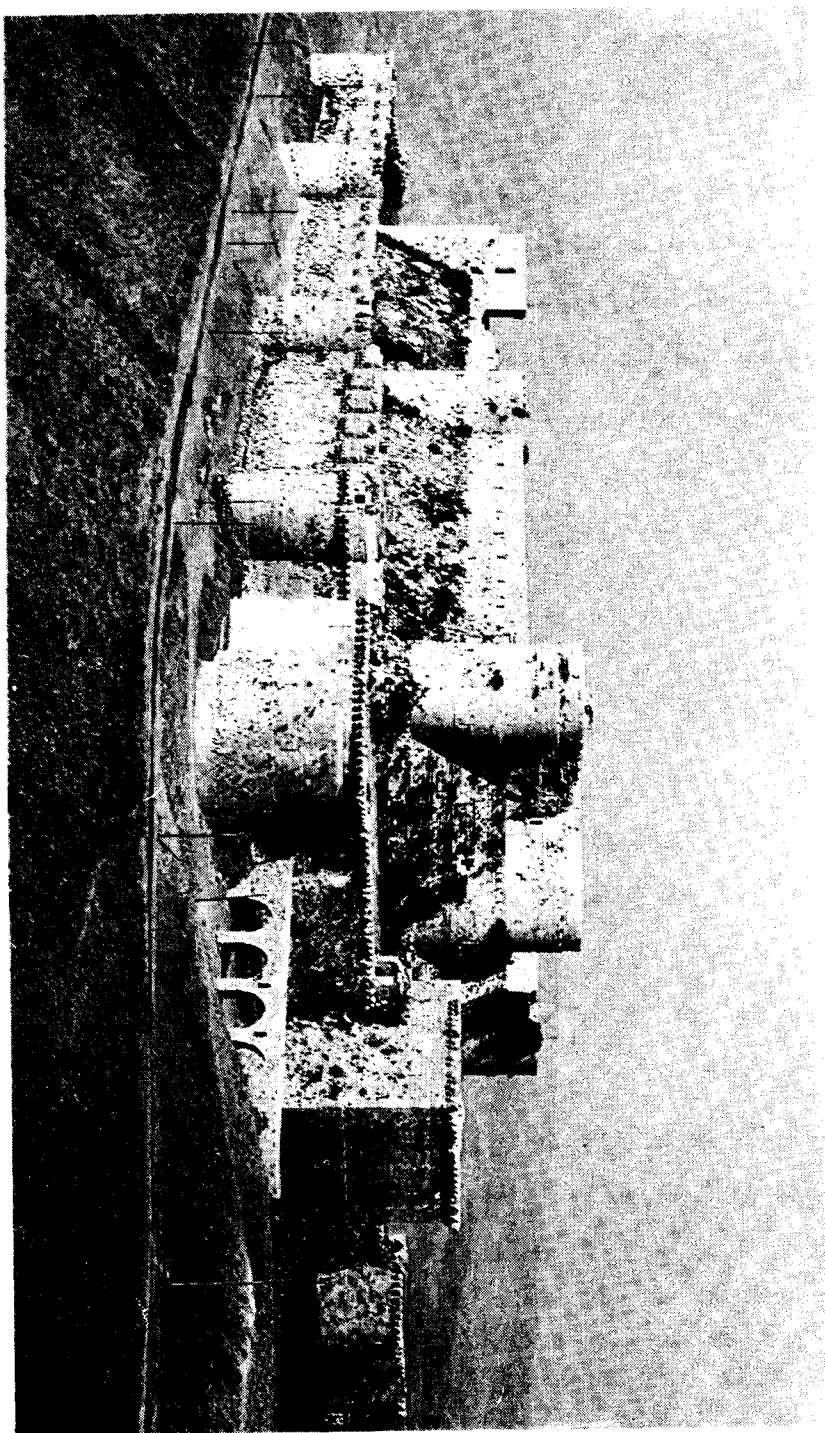
مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة : بناه رسول الله ﷺ عند وصوله المدينة المنورة مهاجراً ، وجدّد بناءه عمر وعثمان ، ثم أعاد إنشاء الوليد بن عبد الملك بإشراف عمر بن عبد العزيز ، فأتمّ بناءه سنة ٩١ هـ = ٧١٠ م . ومسجد قبة الصخرة : بناه عبد الملك بن مروان تخليداً لذكرى الإسراء ، وخشية أن تعظم في قلوب المسلمين الكنائس السامقة ، وأن يهرهم مظهرها ، فبنى عبد الملك على الصخرة قبة مشرقة متلائة ، ويروي المقدسي أنه لم يَر في الإسلام ، ولا سمع في الشرق مثلها ^(٢٨) ، فأكد عبد الملك انتصار الإسلام ، الذي ثبت أقدامه في مدينة القدس ، بإقامة بناء إسلامي بارز ظاهر ^(٢٩) ، وعلى ذات الهضبة التي بُنيت عليها قبة الصخرة ، يقوم المسجد الأقصى ، وهو بناء أموي تعرّض لكثير من عاديّات الزمن ، وهو مؤلّف من جناح مركزي عريض ، تحدّه أقواس ترتكز على أعمدة ، وعلى جانبيه جناحان أضيق ، أُضيفت إليه عدّة أجنحة على طرفيه .

المسجد الأموي بدمشق : من أكبر مساجد العالم الإسلامي ، بناه الوليد بن عبد الملك ما بين سنتي : ٨٨ - ٩٦ هـ = ٧٠٧ - ٧١٤ م ، مكان معبد وثني قديم للإله جوبيتر ، وزُيّنت جدرانها بالرخام والفسيفساء الملونة والمذهبة ، وفرشت أرضه بالمرمر ، ويشبهه في التخطيط ، المسجد الأموي في حلب ، الذي بدأ بناءه الوليد ، وانتهى في عهد أخيه سليمان .

جامع القيروان : « جامع سيدي عقبة » ، بناه عقبة بن نافع ، عندما خطّ مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ = ٦٧٠ م ، ثم هُدم وأعيد بناؤه سنة ٧٦ هـ ، وزيد في مساحته

(٢٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٥٩ ، ١٧٠ ، ليدن ط ٢ سنة ١٩٠٦ م .

(٢٩) وهو بناء مثنّ تعلوه قبة ، فكانه معرض مخصّص لعرض تحفة ثينة ، مع الحفاظ عليها ، ولهذا روعي أن تكون فخامته وعظمته بقدر قيمة هذا الكنز الذي يضم بين أجنحته ، وهل هناك بعد الكعبة والروضة الشريفة كنز أكثر قدسيّة من القبلة الأولى ؟



* قلعة الحصن

بأمر هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، ومئذنته متميزة ، فهي تتكوّن من ثلاثة أبراج
مربعة متعاقبة ، تعلوها قبة صغيرة ، وهي من أجمل المآذن الإسلامية .

جامع الزيتونة : وهو « رباط فيه جامع » ، وجامعة علمية إسلامية تدرس فيه
كل العلوم ، وحوله سوق للورّاقين ، وآخر للمجلّدين كما يذكر ابن خلدون ، وفيه
مكتبة عظيمة ، وتجتمع في هذا المسجد الأنماط والمذارس المعماريّة الإسلامية ، فيه الفن
المغربي من إفريقي وأندلسي ومراكشي ، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتُركي ، بسبب
الإضافات والتّرميمات التي طرأت عليه :

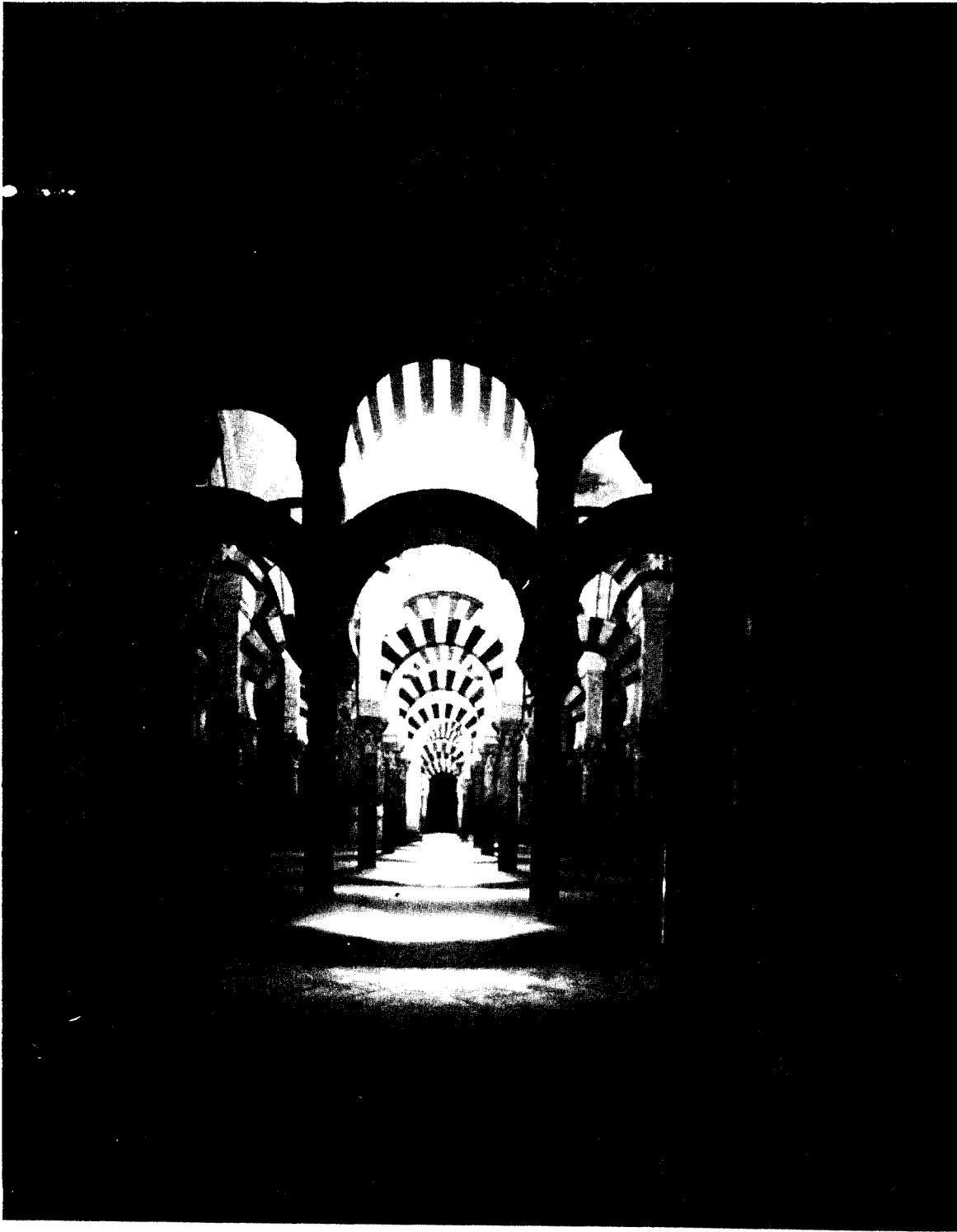
مسجد قُرطُبة : بناه عبد الرّحمن الدّاخل سنة ٧٨٦ هـ ، ليضاهي مساجد الشّرق
سعة وعمراً وعظمة ، بناه على مثال المسجد النبوي ، الذي بناه الوليد بن عبد الملك في
المدينة المنورة ، حوّل هذا المسجد سنة ١٢٣٦ م إلى كاتدرائية باسم « لاموثكيتا » .

مسجد سامراء : بني من الآجر ، ويشتهر بمئذنته الحلزونية الباقية حتّى اليوم .

جامع ابن طولون : بناه أحمد بن طولون على مثال مسجد سامراء ، ما بين سنتي
٢٦٣ - ٢٦٥ هـ ، فبني فيه مئذنة حلزونية « ملوّية » ، واتّخذها إلى جانب الصّلاة
مدرسة دينية ، وداراً للحكومة ، تعقد فيه المحاكم ، ووضع فيه خزانة ملأى بالأدوية ،
وعيّن له طبيباً ، فكان بمثابة طبيب إسعاف إلى جانبه صيدلية إسعاف .

الجامع الأزهر : بناه جوهر الصّقليّ سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م باسم الخليفة الفاطمي
المعز لدين الله ، وأدخل عليه العزيز بالله بعض الإصلاحات ، ثمّ جدّد الحاكم بأمر الله
مئذنته سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وأدخل المستنصر عليه بعض الإصلاحات أيضاً .
وجدّدت عمارته في عهد المماليك على يد الظّاهر بيبرس ، وأضاف إليه العثمانيّون أبنية
جديدة .

ويُعَدُّ العصر المملوكي في بلاد الشّام ومصر عَصراً ذهبياً لتاريخ العمارة الإسلامية ،



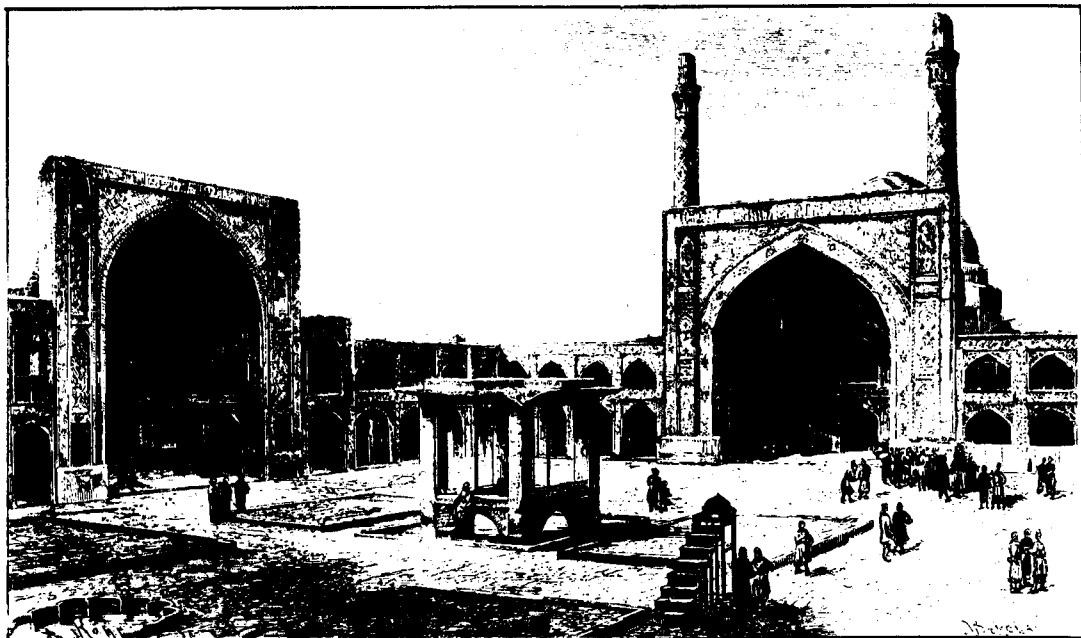
مسجد قرطبة

لقد تنوّعت العائُر من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات وأسبلة وخانات .. مع إتقان وأناقة ، وخصوصاً في الواجهات والمنارات والقباب ، وفي الزخارف الجصّيّة والرّخاميّة ، حتّى المنبر ، تحوّل من الجصّ والخشب في العصر الفاطمي ، إلى رخام أصبح الحامة الأساسيّة في البناء والزّخرفة ، مع أشغال النجارة الدّقيقة ، وأعمال الخراطة والتطعيم بالصّدف والعاج والأبنوس التي غطّت المنابر والأبواب والشّبابيك ، وظهرت السّقوف مموّهة بالنّذهب بدرجة رفيعة من الإتقان والتّأنق والجمال . ومن مساجد هذه الفترة :

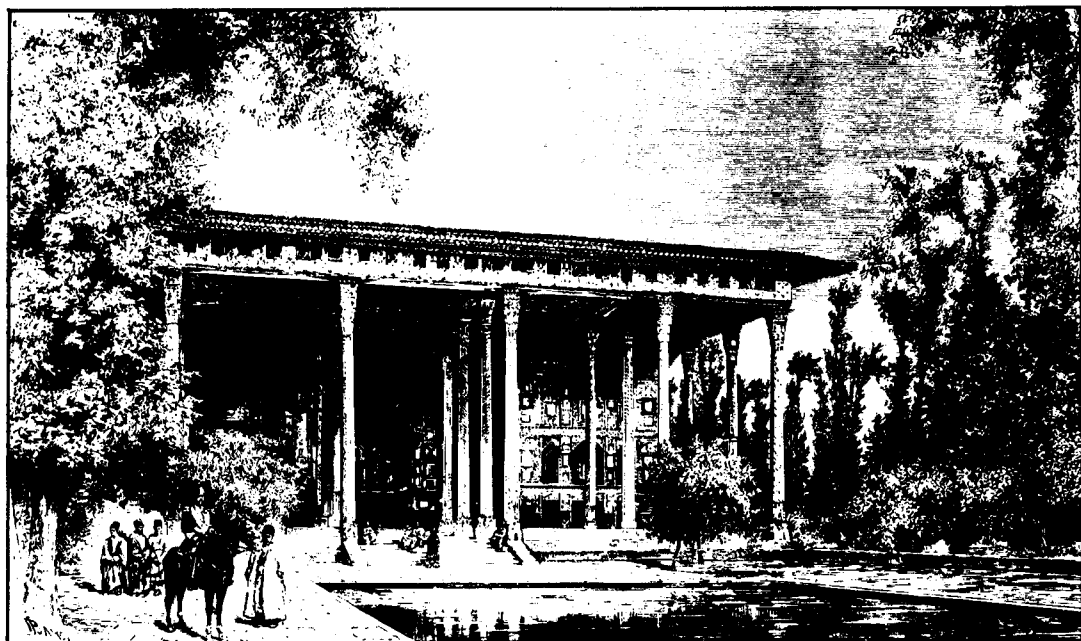
- ٥ مسجد الظّاهر بيبرس في القاهرة ، تمّ بناؤه سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٩ م ، ومسجد المنصور قلاوون ، الذي شيّده سنة ٧٣٥ هـ = ١٣٣٤ م ، ومسجد السّلطان حسن ، تمّ بناؤه سنة ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م « ويعدّ أجمل العائُر المملوكيّة في مصر وبلاد الشّام ، وأجمل ما في هذا المسجد قبو إيوانه الشّرقى ، الذي يعدّ من معجزات البناء في الفنّ الإسلامي ، إذ تبلغ فتحته ١٩,٢٠ متراً ، يحيط به من الدّاخل إفريز جصّي مكتوب فيه بالخطّ الكوفي آيات من سورة الفتح ، وهو طراز من الكتابة لا نظير له ، وجدران هذا الإيوان مستورة بالرّخام ، وعقد الإيوان بني بالأجر ما عدا بدايته فإنّها بالحجر ، وفي هذا الإيوان دكّة من الرّخام الدّقيق الصّنع ، وارتفاع قبّته الكلّي نحو خمسين متراً ، وهي مؤزّرة بالرّخام الفاخر ، وبها طراز خشبي منقوش ومذهّب ، وكانت القبّة من الخشب ، ومغلّفة بالرّصاص ، وغطاؤها الحالي جديد الصّنع . ويمتاز هذا الجامع بنسبه الضّخمة وإيواناته العالية ، ومدخله الضّخم الغني بالزّخارف ، ومئذنتيه العاليتين ، وجدرانه الضّخمة ، لما فيها من تجاويف عموديّة تزيد من ارتفاع البناء ، و (الكورنيش) الفاخر الذي يعلو الجدران فيتوجّها ويزيد من وحدة البناء كله .. (٣٠)

- ٢٠ أمّا العصر السّلاجوقي في العراق وإيران وآسيّة الصّغرى وبلاد الشّام ، فقد تميّزت مساجده بالضّخامة ، والمظهر القوي ، متأثّرة بأساليب معماريّة هندیّة أتى بها محمود

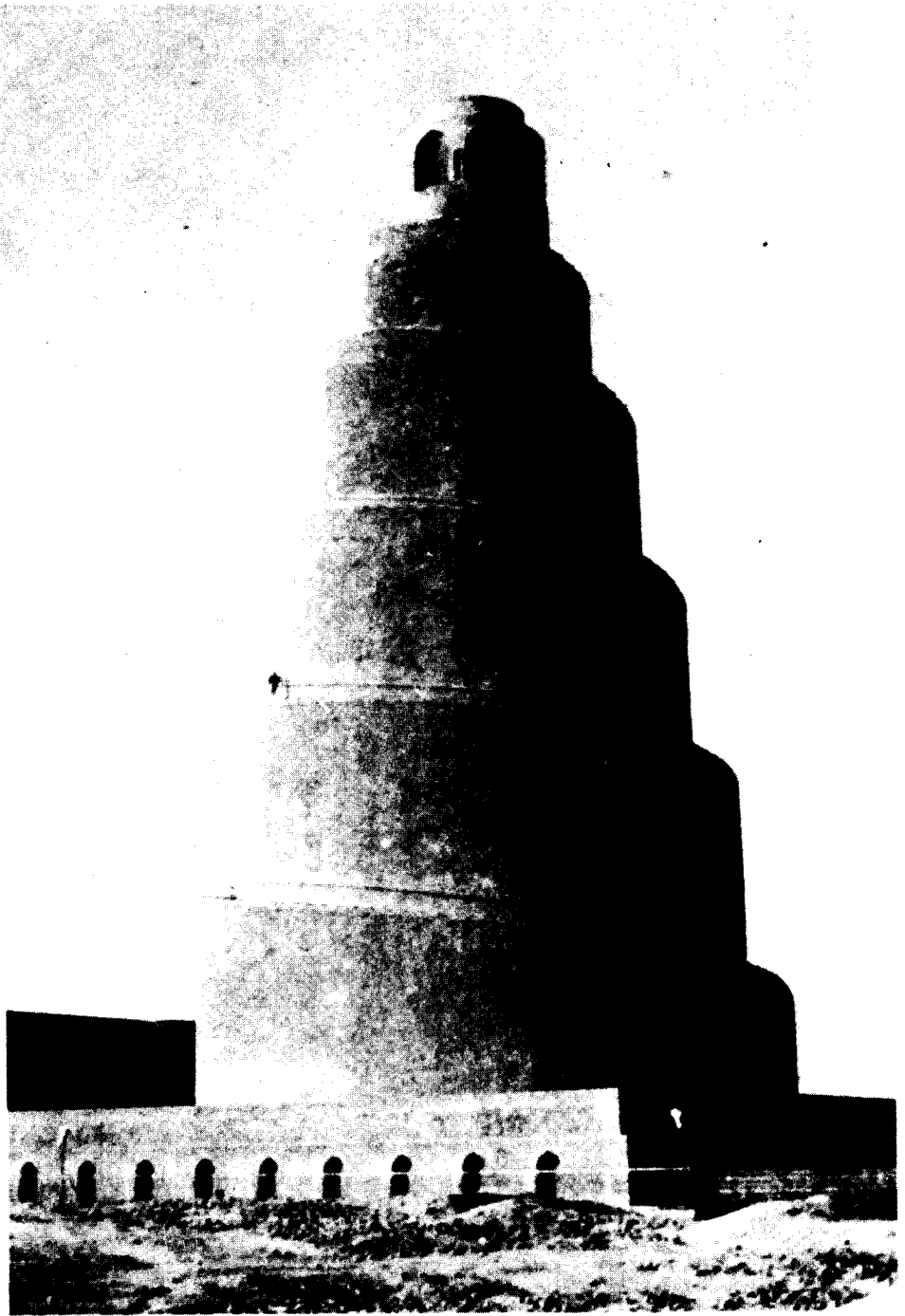
(٣٠) تاريخ الفن ، ص ٨٠ و ٨١



* المسجد الكبير في أصفهان



* قصر الأربعين عموداً (جهلستون) (أصفهان)
نمذج (صفوي)



• مئذنة المدوينة بسامراء •

الغزنوي ، ويمثلها : المدرسة المستنصرية ، التي هي مسجد غلب عليه اسم المدرسة ،
ومسجد الجمعة في مدينة أصفهان ، الذي بُني في عهد السلطان السلجوقي أبي الفتح
ملكشاه .

ومن مساجد العصر المغولي في إيران ، والمتأثرة بالأساليب الفنية الصينية ، مسجد
فرامين الذي بُني سنة ٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م ، والمسجد الجامع بمدينة يزد ، وجامع
جوهرشاد بمدينة مشهد .

وفي عصر تيمورلنك وما بعده ، شاع بناء المساجد التي تعلوها قبة ضخمة ، يؤدّي
إليها مدخل عال يلفت النظر بعظمته وفخامته ، مثل مسجد كليان في بخارى ، بما فيه
من إيوان ضخم في الجبهة ، ومئذنة أسطوانية تبعث الرهبة في النفوس ، وأبدع مساجد
هذه الفترة الجامع الأزرق في تبريز ، وسيفساء هذا المسجد الخزفية ، غاية في الإبداع
والجمال .

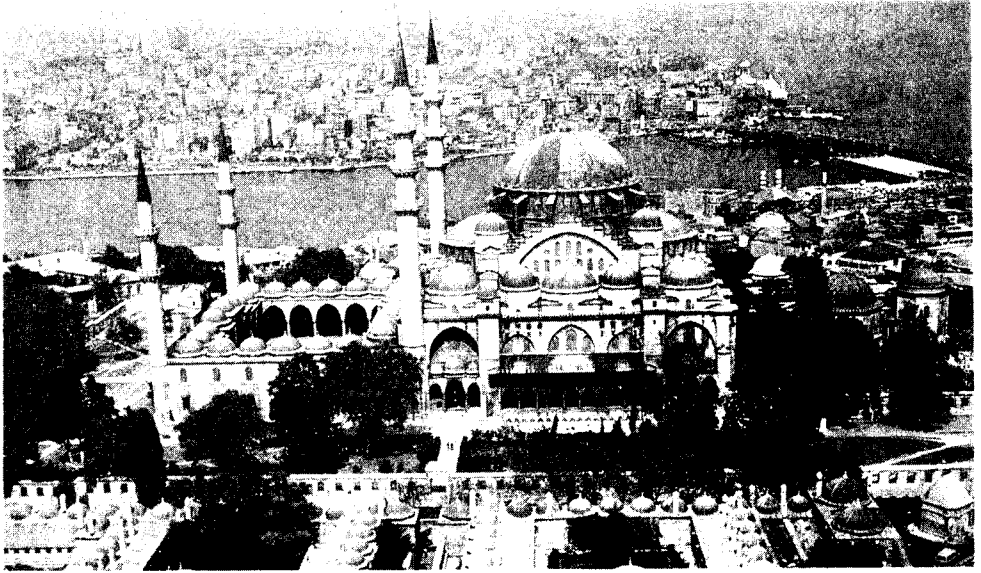
وأشهر مساجد العصر الصفوي ، جامع الشيخ صفي الدين وضريحه في مدينة
إربيل ، ويُعدُّ مسجد الشاه في أصفهان ، التحفة المعمارية الثانية للصقويين . وجميع
المساجد والأضرحة الصفوية محلاة بالسيفساء الخزفية ذات الألوان الجميلة ، ورسوم
الزهور ، والفروع النباتية البديعة .

وامتازت مساجد الهند بداخلها الكبيرة الفخمة ، ومناراتها العالية ، وقبابها
البصلية .

واعتمد العثمانيون الطراز السلجوقي في أوّل عهدهم ، ثم تأثروا بالأسلوب البيزنطي
بعد فتح القسطنطينية ، وأوّل مسجد تأثرت هندسته به مسجد محمد الفاتح الذي بُني
سنة ٨٧٣ هـ = ١٤٦٩ م . وبنى المهندس التركي المسلم سنان باشا أربع منشآت في جامع
السليمانية ، فنسخ المهندسون العثمانيون على منواله ، وأشهر المساجد العثمانية : مسجد
السليمانية في أدرنة ، وجامع السلطان أحمد في إسطنبول ، وجامع سنان باشا ، وجامع

النرويشية في دمشق ، وجامع العادلية ، وجامع الخسروية في حلب ، ومسجد محمد علي بالقلعة في القاهرة .

وتلحق « الزوايا » المقامة في شمالي إفريقيا بالمساجد ، لأنها تضم مسجداً ، وحجرات للدرّوايش ، وغرفاً للطلّاب ، ومطاعم للحجّاج والطلّاب والمحتاجين ، وقاعات للدراسة ، وتلحق بها مساحات من الحدائق والبساتين ، ومثلها في بلاد الشام .
التكية السلّمانية في دمشق



*إسطنبول

القُصُور :

بعد الفتوح التي حرّر بها العرب المسلمون بلاد الشام والعراق وشمال إفريقيا ، بدأ بعضهم يميل إلى حياة الترف والنعم ، فظهر في الحجاز في عصر الراشدين قصور شُيّدت من طبقتين أو ثلاث ^(٣١) .

٥ وبنى معاوية بن أبي سفيان أول قصر أموي في بلاد الشام ، ويسمى « قصر الخضر » ، وسمي بعدها « دار الإمارة » ، لأن الخلفاء الأمويين توارثوه من بعده ، ويذكر ابن عساكر ١٣٨/٢ : « أن الخضر التي فيها قصر معاوية من بناء أهل الجاهلية ، من بناء قذ بنوه » ، ولعل معاوية رُممه وأضاف إليه ثم سكنه منذ ولايته على الشام ، والتهمت النار هذا القصر أواخر عهد الفاطميين ، كما يروي ابن كثير ^(٣٢) .

١٠ « أُلقيت نار بدار المُلْك ، وهي الخضر المتاخمة للجامع - الأموي - من جهة القبلة فاحترقت » ^(٣٣) ، « وبادت الخضر وصارت كوماً من تراب ، بعدما كانت في غاية الإحكام والاتقان ، وطيب الفناء ، ونزهة المجلس ، وحسن المنظر » ، وبقيت المنطقة التي كان فيها القصر تحمل اسم الخضر ، وأقيم على جزء منها عام ١٧٤٩ م « قصر العظم » ، الذي ما زال حتى الآن مستعملاً كمتحف للتقاليد الشعبية .

١٥ ويعدُّ « قصر المشتى » في البلقاء ، من أهم الآثار الشامية الإسلامية ، حيث يمثل الشخصية الفنية في بلاد الشام ، وخصوصاً في الزخارف المؤلفة من أشكال الحيوان والطيور ، والأشكال الآدمية ، صيغت وسط تفرعات من أغصان الكرم .

أما « قُصَيْر عَمْرَة » ، الذي اكتشفه عام ١٨٩٨ م العالم « موزيل Muzil » ،

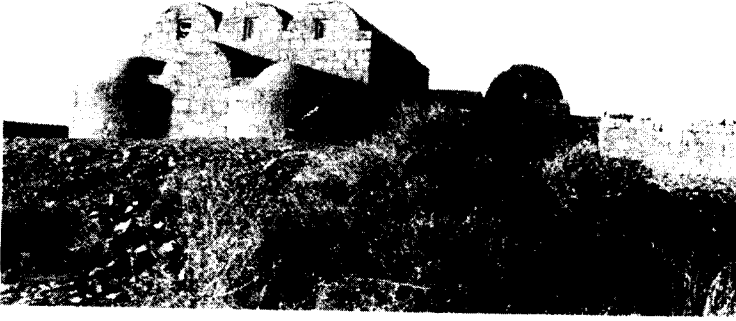
(٣١) انظر : تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، للأستاذ أنور الرفاعي ، دار الفكر ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٧ م .
والفن العربي الإسلامي في بداية تكوّنه ، د . عفيف بهنسي ، دار الفكر ، ١٩٨٣ م ، والفن الإسلامي
لمارسيه ، ترجمة د . عفيف بهنسي .

(٣٢) البداية والنهاية ٩٧/١٢

(٣٣) البداية والنهاية ٩٣/١٢

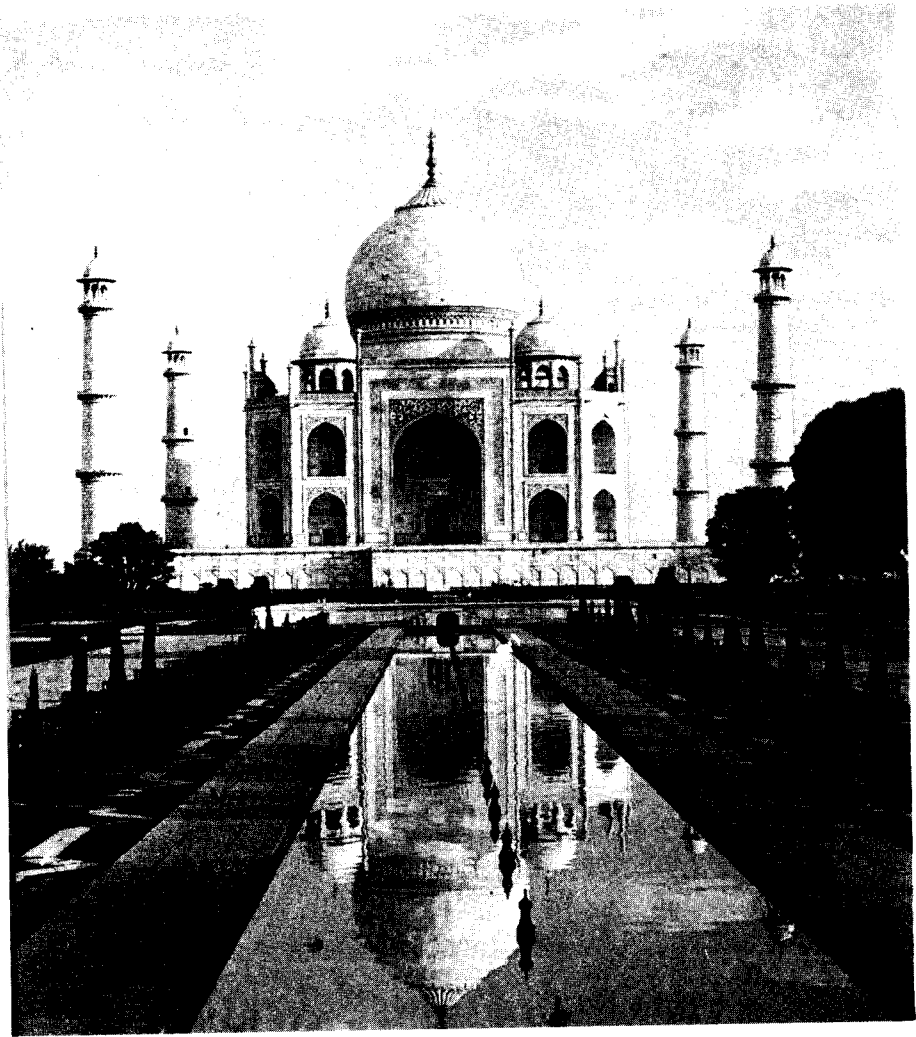
وتكاد الصُور الجدرانِيَّة تغطِّي جميع جدرانِه ، فقد بناه الوليد بن عبد الملك في الأردن ، وبني « قصر المنية » قرب بحيرة الناصرة في فلسطين ، و « قصر أسيس » في جنوب شرقي دمشق .

وفي عام ١٩٧٠ م ، أعلن الأثري « بن دوف » ، مساعد الأثري « مازار » ، عن اكتشاف ثلاثة قصور أمويَّة في حيِّ المغاربة في القدس ، وذلك خلال الحفريَّات الَّتِي ه بدأها « مازار » سنة ١٩٦٨ م ، لتوسيع حائط المبكى ، والكشف عن هيكل سليمان ، ويقول « بن دوف » : « إنَّ هذه القصور طبق الأصل لما وُجد في قصور الأردن وفلسطين » ، وأعلن « مازار » في تقريره ، أنَّ الجدار الجنوبي للأقصى الَّذِي يقوم فوق الصَّخر الطَّبِيعِي شرقاً وغرباً هو بناء إسلامي .^(٣٤)

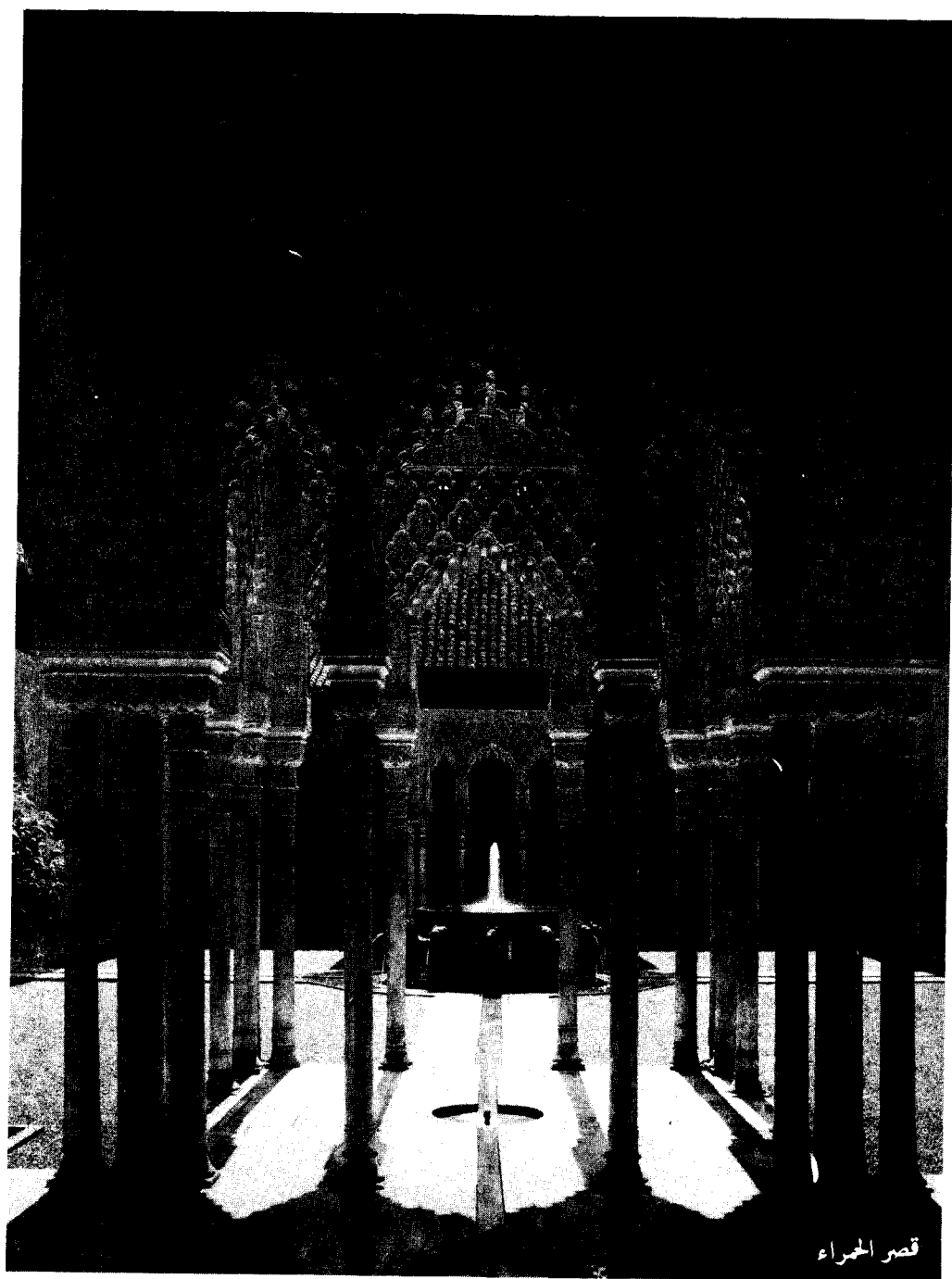


١٠
قصر عمرة

(٣٤) انظر الفن العربي الإسلامي في بداية تكوُّنه ، ص ١٠١



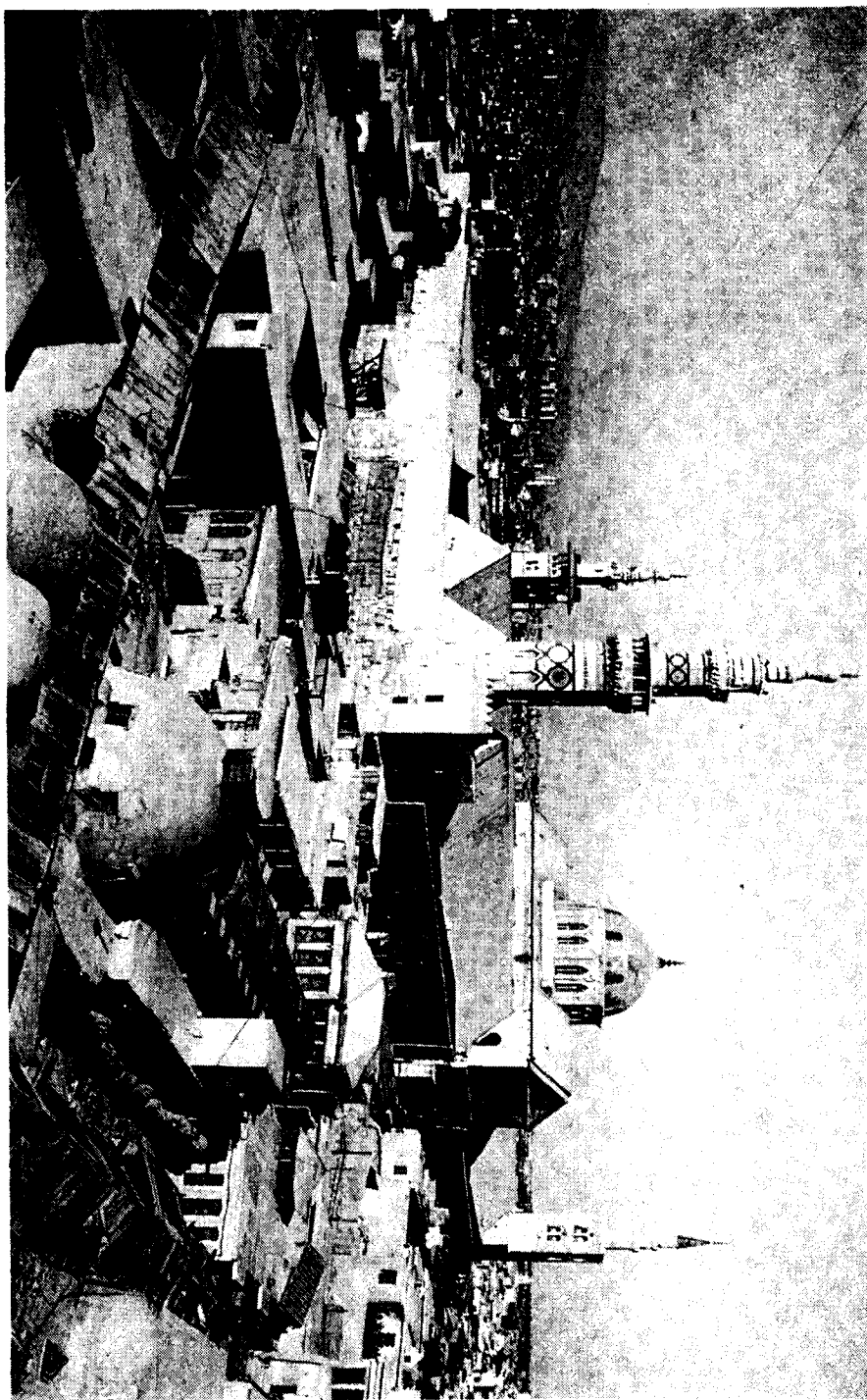
• تاج محل ، تحفة فنيّة خالدة •



قصر الحمراء



نموذج البناء المملوكي



المسجد الأموي بدمشق